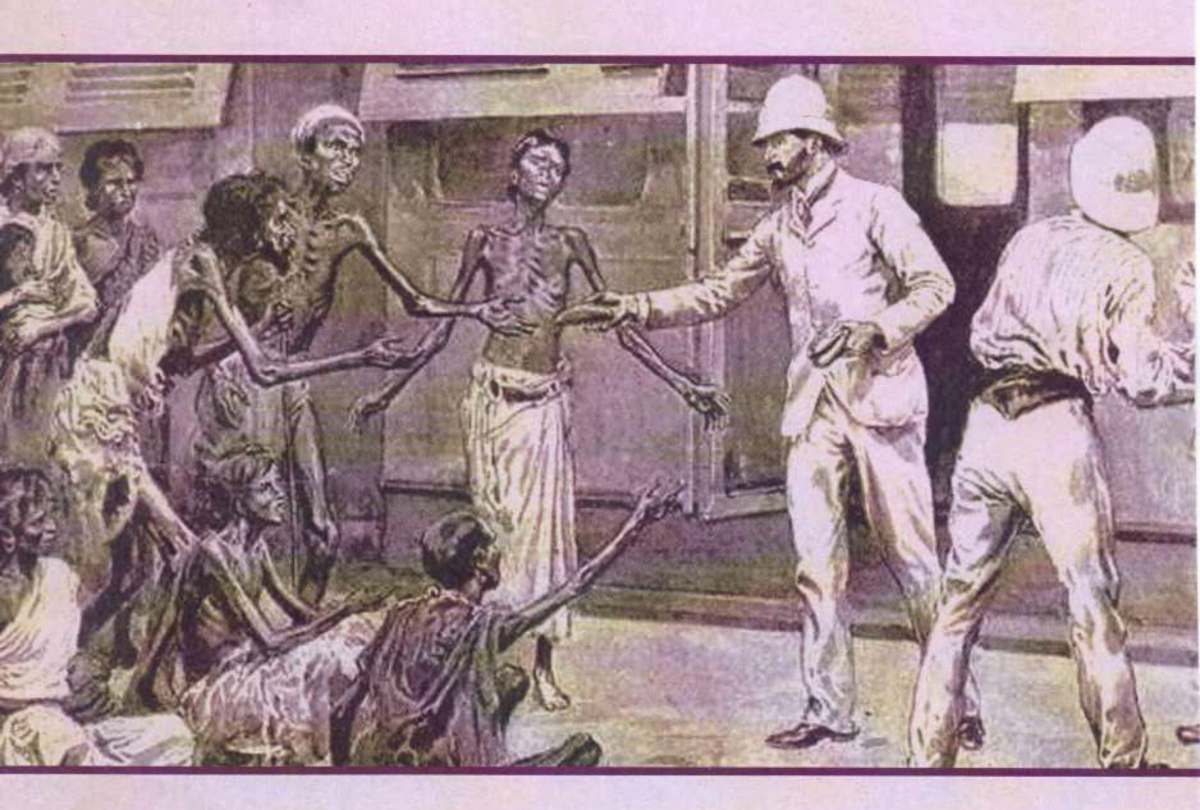
المركز القومى للترجمة

ولفريد سكاون بلنت

التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر

رواية شخصية للأحداث



ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة و تقديم: أحمد زكريا الشلق

144



هل ألف بلنت الكتاب بصفته مؤرخًا إخباريًا، أو بالأحرى مؤرخًا يؤرخ للأحداث وفقًا لتسلسلها الزمنى؟ وهل يعنى ذلك أن مهمة الرجل تتمثل فى تسجيل الحقائق كما هى، لا كما ينبغى أن تكون فى خدمة مصالح العمال والمحافظين؟

لقد سلك بلنت هذا الطريق الذى وجد نفسه فيه بلا سند أو معين.

هل كان بلنت يود أن يسجل فى شكل واضح وملموس تلك الأحداث المتعلقة بأصل الاحتلال الإنجليزى لمصر، ليس حبًا فى النشر وإنما باعتبار ذلك وثيقة من وثائق التاريخ، فى لحظة من اللحظات التى لعب الرجل فيها دورًا رئيسيًا بارزًا فى الأحداث وعلى مدار ما يقرب من عشرين عامًا كان خلالها مشاهدًا مهمًا للدراما التى يجرى تمثيلها على مسرح القاهرة؟

تصميم الغلاف: نادية كشك



التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر

"رواية شخصية للأحداث"

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1446
- التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر "رواية شخصية للأحداث"
- ولفريد سكاون بلنت
- صبرى محمد حسن
- أحمد زكريا الشلق
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Secret History of the English Occupation of Egypt
Being a personal narrative of events
By: Wilfrid Scawen Blunt

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر

"رواية شخصية للأحداث"

تــألــيـــــف: ولــفريد سكاون بلنت

ترجمــــــة: صبرى محمد حـسن

مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الـشلق



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلنت ، ولفريد سكاون
التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر "رواية شخصية للأحداث"/
تأليف : ولفريد سكاون بلنت ، ترجمة : صبرى محمد حسن ،
مراجعة وتقديم : أحمد زكريا الشلق ؛
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٨٠٨ ص ، ٢٤ سم
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال البريطانى
(١٨٨٢ - ١٩٥٦)
(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم)
(ب) الشلق ، أحمد زكريا (مراجع، ومقدم)
٢ - العنوان ٩٦٢,٠٤

رقم الإيداع : ٧٦٥٥ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 - 977 - 407 - 028 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

المذكرات المصرية

الملاحـــق

تقديم المراجع

"لا تنتظر أن يمنحك الفرنجة الحرية"

لورد بايرون

نود فى البداية أن نشير إلى أن هذا العمل التاريخى الكبير يعد مصدرًا مهمًا من مصادر تاريخ مصر الحديث، فليس ثمة دراسة تناولت أحداث ووقائع الثـورة المصرية الوطنية التى عرفت بالعرابية، أو تناولت السـنوات الأولـى للاحـتلال البريطانى لمصر، إلا وقد استندت إلى المادة العلمية الخصبة، ذات الطابع الوثائقى لهذا الكتاب المهم، الذى كتبه مؤلفه ولفريد بلنت من خلال يومياته التى سجلها فـى حينها، ومما تلقاه أو أرسله من مكاتبات، والأحداث والوقائع ماثلة ومتدفقـة أمـام عينيه كشاهد عيان ومشارك فيها بدرجة أو بأخرى خلال هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ أمتنا، وهى مرحلة تزايد النفوذ والضغوط الأجنبية على مصر، وعلو المـد الوطنى فى مواجهة ذلك المد الذى بلغ ذروته بالأحداث الثورية التى شهدتها مصر خلال هذه السنوات.

ويكتسب هذا الكتاب أهميته مما سبق، وبما يقدمه من مادة علمية ووثائقية، سواء تلك التى تدفقت فى سياقه، أو تلك التى ألحق بها المؤلف كتابه فى شكل نصوص وثائقية متفردة ومهمة، كما يكتسب أهميته أيضًا من شهادة العيان التى رواها المؤلف، وعلى الرغم من أن بلنت حاول أن يكون مؤرخًا "موضوعيًا ومنصفًا"؛ فإن عمله جاء أقرب إلى "المصدر" منه إلى الدراسة العلمية، وقد يكون المصدر أهم وأبقى من الدراسة، مع ما يعنيه ذلك من التعامل معه بعقلية ناقدة.

وقد أعفانا مترجم الكتاب من أن نقدم موجزًا لسيرة حياة مؤلفه السير ولفريد سكاون بلنت (١٨٤٠ – ١٩٢٢) حيث قدم لنا ذلك فى مقدمته الضافية، كما أن بلنت ترجم لنفسه فى سياق فصوله، ولكن ينبغى أن نشير هنا إلى أن بلنت كان كاتبًا وشاعرًا، وسياسيًا وثائرًا، ورحالة ومستكشفًا، فضلاً عن كونه مستشرقًا وداعية للقضايا الإسلامية والإنسانية بشكل عام. وعلى الرغم من أنه ينتمى لأسرة أرستقراطية ثرية، ومن ملاك الأراضى الأغنياء؛ فإنه كان ممن ينتصرون للضعفاء ويدافعون عن الحرية الإنسانية. لقد عمل بلنت فى بداية حياته نحو عشر سنوات فى السلك الدبلوماسى البريطانى، إلا أنه ترك الخدمة بعد أن تزوج من "آن" حفيدة اللورد بايرون الشاعر الكبير، لقد عاش نحو ستين عامًا من حياته تحت حكم الملكة فيكتوريا، فكره سياستها الاستعمارية، على الرغم من إيمانه – كرجال العصر الفيكتورى – بأن الإدارة ونظام الحكم فى بريطانيا لا مثيل لهما لم يكن مثلهم يعتقد أن بريطانيا وجدت لتحكم العالم وأن الشعب البريطانى هو سيد شعوب العالم جميعًا.

والمعروف أنه نذر حياته للدفاع عن العرب والأيرلنديين والهنود، فتبنى قضاياهم وساندهم، حتى لقد ذاق مرارة السجن نتيجة لدفاعه عن حرية الأيرلنديين، وسيرى القارئ كيف كان مساندًا للحركة الوطنية المصرية وللثورة، وصديقًا مقربًا من زعمائها وعلى الأخص أحمد عرابى والشيخ محمد عبده، وكيف أنه لم يدخر وسعًا فى نصحهم، وتبنى قضيتهم والدفاع عنها فى أروقة السياسة البريطانية فى لندن، كما فضح بربرية السياسة الإنجليزية فى مصر، وبفضل جهوده لدعم الثوار استطاع أن يحول أحكام الإعدام التى صدرت ضدهم، بعد فشل الثورة، إلى أحكام بالنفى والسجن، كما زار عرابى فى منفاه بسيلان عام ١٨٨٣، وعندما وقعت حادثة دنشواى عام ١٩٠٦ نجح بلنت فى إثارة الرأى العام الإنجليزى ضد السياسة البريطانية فى مصر، بكثرة ما ألقى من خطب وما نشره فى الصحف آنذاك، كما استخدم علاقاته الشخصية بالساسة الإنجليز للضغط من أجل جلاء مبكر للقوات

البريطانية عن مصر، وعندما أسس مصطفى كامل الحزب الوطنى دعمه بلنت، ومكان معجبا به كثيرا، وخلال الفترة (١٩١١ - ١٩١٣) مول مجلة شهرية صدرت بعنوان "Egypt" هاجم فيها سياسة الاحتلال ودافع عن القضية الوطنية المصرية، كما كان مؤيدا لثورة المصريين عام ١٩١٩. وقدر له الزعماء المصريون موقفه حتى إن سعد زغلول وضع باقة من الزهور على قبره فى سسكس يوم وفاته عام ١٩٢٢.

ونتيجة اهتمامه بالإسلام وعالمه وضع كتابه "The future of Islam" الذى صدر عام ١٨٢٢، ولم يقدر له - حسب علمنا - أن يترجم إلى العربية. كما وضع بلنت خلاصة متابعاته لتاريخ الهند وحضارتها فى كتابين صدر أولهما عام ١٨٨٥ تحت عنوان "Ideas about India" والآخر صدر عام ١٩٠٩ تحت عنوان "India under ripon". وفيما يتعلق بتاريخ مصر والسودان، وكانتا دولة واحدة كما نعلم، فقد أصدر كتابه هذا الذى بين أيدينا عن التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٩٠٧، ثم كتابه عن "جوردن فى الخرطوم - Gordon at Khartoum" الذى أصدره عام ١٩١١. يضاف إلى مؤلفاته كتاب آخر صدر عام ١٩١١ عن أيرلندا تحت عنوان "The Land War in Ireland". وقبيل وفاته مباشرة كان قد جمع يومياته ومذكراته عن الفترة ١٨٨٨ - ١٩١٤ لينشرها فى نسخة منقحة من جزأين صدرا فى عامى ١٩١٩ - ١٩٢٠ تحت عنوان "My Diaries, Being Personal Narrative of Events 1888 - 1914" ثم طبعت طبعة ثانية فى مجلد واحد صدر عام ١٩٣٢.

ولا يزال متحف فيتز ويليام فى كمبردج يحتفظ بجزء من أوراق بلنت ووثائقه، كما تحتفظ جامعة ريدنج ببعض من أصول مذكراته ومراسلاته.. وعموما استطاع بلنت أن يخلد اسمه كمستشرق ومؤرخ مرموق، إلا أن دواوينه الشعرية وقصائده الطويلة المنشورة لم تضعه فى مصاف الشعراء المشهورين.

* * *

ومن المهم أن نشير إلى أن هذا الكتاب الذى بين أيدينا كانت قد صدرت له ترجمة نشرت فى جريدة "البلاغ" لصاحبها عبد القادر حمزة ثم جمعت فى كتاب نشر فى أواخر العشرينيات من القرن الماضى عن مطبعة البلاغ، لكن هذه الترجمة لم تكن وافية ولا دقيقة، فضلاً عن احتوائها على كثير من الأخطاء، كما غلب عليها الأسلوب الصحفي، كما أنها تضم جانبًا كبيرًا من الوثائق التى ألحقت بالنسخة الإنجليزية (وقد أخذت عن طبعة البلاغ طبعة أخرى أكثر اختصارًا نشرتها سلسلة "اخترنا لك" فى بدايات عهد ثورة يوليو ١٩٥٢) ونظرًا لعدم دقة هذه الترجمة وعدم اكتمالها كان ثمة ضرورة علمية تقتضى ترجمته بوثائقه جميعًا ترجمة أمينة وكاملة ودقيقة، وهذا ما عكف عليه مترجمنا الدكتور صبرى محمد حسن بكفاءة واقتدار.

ومترجمنا له باع طويل وخبرة مقدرة وتراث مهم فى ترجمة الأعمال التاريخية الكبيرة، التى تعد أصولاً ومصادر مهمة من مصادر التاريخ العربى الحديث والمعاصر، بخاصة كتابات الرحالة والمستشرقين الإنجليز التى أتحف بها المكتبة العربية، ومن أبرزها أعمال وليام بالجريف وهارى سينت فيلبى وديفيد جورج هوجارث وتشارلز دوتى وجون لويس بوركهارت وكتابات آن بلنت وغيرها مما نشر بالمركز القومي للترجمة.

ويقتضى الواجب أن ننوه بأهمية هذا الكتاب الذى سيوفر للباحثين والمثقفين جميعًا مصدرًا من مصادر التاريخ القومى لمصر، مما يسد فراغًا فى المكتبة العربية، كما نود أن ننوه بالجهد الكبير الذى قام به الدكتور صبرى محمد حسن فى تعامله مع لغة الكتاب الكلاسيكية وأسلوبه القديم بصبر وأناة حتى احتفظ للمؤلف بأفكاره وأسلوبه على نحو جعل الترجمة صورة أمينة ودقيقة للنص الإنجليزى.

أحمد زكريا الشلّق

مقدمة تمهيدية للمترجم

ولفريد سكاون بلنت: الإنسان والأعمال

اسمه بالكامل ولفريد سكاون بلنت، وهو شاعر وكاتب إنجليزى لـه كتـاب آخر "مستقبل الإسلام" صدر قبل الكتاب الذى بين أيدينا(*). ولد هذا الرجل فى اليوم

(*) هذا الكتاب يعد ثمرة الخبرة التى جناها ولفريد سكاون بلنت فى شتاء ذلك العام ١٨٨١م. ألف ولفريد سكاون بلنت كتاب "مستقبل الإسلام" فى عجالة وفى ظل ظروف غير مواتية لتحرى الأحكام تحريًا دقيقا، وسبب ذلك أن الأحداث، عندما كان بلنت يؤلف الكتاب، راحت تتراكم فوق بعضها البعض، وراحت أيضًا نذر الشؤم تتجمع بعضها فوق بعض، الأمر الذى جعل من التنبؤ الهادئ بمصير الإسلام فى ذلك الوقت أمرًا مستحيلاً تمامًا. ومع ذلك وعلى الرغم من كثير من المتاعب والنقائص، راح بلنت يكتب الكتاب؛ لأهميته وقيمته فى ذلك الوقت حتى وإن كانت تلك الأهمية تتمثل فى الجانب التاريخى، باعتبار أن ذلك سيوضح الحال التى كانت عليها الآمال الإسلامية والمخاوف التى كانت سائدة عند تأليف الكتاب.

ألزم بلنت نفسه فى هذا الكتاب وبلا تحفظ بقضية الإسلام من منطلق أنها "قضية الخير"، فى جزء شاسع من هذا العالم، وأن هذه القضية يتعين تشجيعها وليس قمعها بواسطة كل أولئك الذين يهمهم رفاه الجنس البشرى.

قدم بلنت فى ذلك الكتاب عرضًا لأصول الإسلام، وعظمته وانتصاراته وأمجاده، ثم تحلل عالمه الواضح، ذلك التحلل الذى كان على حد قول بلنت "شبيهًا جدًا بذلك التحلل الذى أصاب النصرانية قبل الإسلام بحوالى أربعمائة عام، وأن ذلك التحلل يمكن أن يلقى مواجهة مثل المواجهة التى لقيتها النصرانية فى المتاعب التى واجهتها متمثلة فى الإصلاح الدينى وتحرير فكر النصرانية من قيود الموروث شديد الصرامة الذى يعرقل تقدم النصرانية وتطورها".

عرض بلنت أفكاره كما علمها له الشيخ محمد عبده، عن المدرسة الليبرالية التعاليم، والتمس إلى كل أولئك الذين يدخلون ضمن الصفوة من بين إخوانه المواطنين التعاطف مع هذه التعاليم الليبرالية وتأييد أصحابها فى مواجهة المدرسة الرجعية، التى لا تتزحزح عن الأساليب الجامدة القديمة، والتى ليس لديها شيء تقدمه غير نشر التشدد والتطرف، وطلب مد يد العون لها فى العمل على الاحتكام إلى السيف مع أعدائها.

قدم بلنت نفسه لإنجلترا، من باب اهتمامها الشديد بالإسلام ومستقبله، من خلال الهند، مناديًا ومحفزًا إياها على أن تكون سياستها قائمة على الصداقة مع أفضل عناصر الفكر الشرقى، وألا تكون هذه السياسة قائمة على الاستفادة من ذلك التحلل فى توسيع وزيادة مصالحها المادية. ويذهب الرجل إلى القول: "إن هذا هو الطريق السليم والقويم أيضًا، وأنا أؤكد ثانية أن هذا هو الطريق الأعقل والأحكم والأجدى، من قرن كامل من الحروب الصليبية".

نشر بلنت فصول هذا الكتاب الصغير فى شكل مقالات شهرية فى مجلة Fortnightly Review. وقد أثرت هذه الفصول تأثيرًا كبيرًا فى إنجلترا، وعلى الهنود الناطقين بالإنجليزية، وقد شقت تلك الفصول طريقها، إلى حد ما، عن طريق الترجمة إلى أن وصلت إلى مصر.

السابع عشر من شهر أغسطس من عام ١٨٤٠ الميلادى وتوفى فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من عام ١٩٢٢؛ أى أنه بلغ من العمر اثنين وثمانين عامًا؛ هذا يعنى أيضًا إنه توفى بعد زوجته بحوالى خمس سنوات.

بدأ الرجل حياته فى وقت مبكر إلى حد ما. ولما كان من أسرة من صفوة مُلاَّك الأراضى والأطيان فى جنوب إنجلترا، ولما كانت هذه الأسرة صاحبة تقاليد محافظة عتيدة ولها بعض الارتباطات ببعض زعماء حزب المحافظين - فقد بدأ الشاب عمله فى السلك الدبلوماسى وهو فى سن الثامنة عشرة، إذ كان فى البداية ملحقًا فى السفارة البريطانية فى أثينا، يوم أن كان الملك أوتو Otho جالسًا على عرش اليونان، وبعد ذلك، ولمدة اثنى عشر عامًا، كان عضوًا فى السفارات والمفوضيات الأخرى لدى كثير من الهيئات الأوروبية التى تعلَّم القليل منها فى مهنته، وكان يسلى نفسه بإقامة الصداقات. والفترة ما بين ١٨٥٩ و ١٨٦٩ أمضى منها بضعة أسابيع فى إسطنبول فى أثناء حكم السلطان عبد المجيد، كما أمضى عامين فى ألمانيا فى زمن الاتحاد الألمانى؛ وأمضى عامًا فى إسبانيا فى زمن الملكة إيزابيلا Isabella، وأمضى عامًا آخر فى باريس فى ظل نفوذ الإمبراطور نابليون الثالث، وأمضى فترة قصيرة فى كل من الجمهورية السويسرية، وأمريكا الجنوبية والبرتغال. وفى كل مكان ذهب إليه كانت ذكرياته الدبلوماسية مُرضية ولا بأس بها، لكن هذه الذكريات كانت خلوًا من أية مصلحة سياسية أو أهمية رسمية من أى نوع كان.

تزوج ولفريد سكاون بلنت من آن إيزابيلا نويل Anne Isabella Noel بلنت التى ذاع صيتها تحت اسم آنابيلا Annabella. وآن بلنت هى بارونة ونتورث Wentworth، وقد ولدت فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٧ وتوفيت فى ديسمبر عام ١٩١٧. هذا يعنى أنها توفيت عن عمر يناهز الثمانين عامًا.

آن بلنت هذه، التى رافقت ولفريد سكاون بلنت، فى رحلاته هى حفيدة الشاعر الوطنى العظيم اللورد بايرون Byron، ومن ثم ورثت بشكل أو بآخر بعضًا

من مشاعر التعاطف مع قضية الحرية فى الشرق، وهذه المشاعر كان لهـا هـي أيضا تأثيرها على عملهما فيما بعد. وبدا لهما فى ظل أحداث عام ١٨٨١-١٨٨٢، أن مسألة تزعم قضية الحرية العربية يمكن أن تكون محاولة جديرة بالاهتمام مثـل المحاولة التى مات اللورد بايرون بسببها في عام ١٨٢٧.

لم يكن زواج بلنت من آن فى عـام ١٨٦٩ زواجًـا سـعيدًا، فقـد أسـفر إجـهاض زوجتـه المستمر عن طفلة واحـدة بقيت على قيد الحياة. هذه الـطفلة هى آن جوديث دوروثيا Anne Judith Dorothea بلنت. بارونة ونتورث الـسادسة عشرة. وصمدت آن بلنت فى وجه الحزن الذى كان يتملكها بسبب الإجهاض الذى كان يصيبها والأطفال الذين كانوا يموتون بعد الولادة مباشرة. وعلى الرغم من أن ولفريد كان متيمًا بابنته جوديث فقد كان يفضل أن يكون المولود ذكرًا.

ولفريد بلنت هذا، كانت له عشيقات متعددات، حتى عندما كان يعـيش مـع زوجته. وفى عام ١٩٠٦ وعندما بدأت عشيقته دوروثى كـارلتون تتـردد بـصفة منتظمة على منزله انفصلت عنه زوجته آن.

تنازع ولفريد بلنت وابنته جوديث، عقب وفاة أمها عام ١٩١٧، ملكية خيول المزرعة. وأحيلت القضية إلى القضاء الذى أصدر حكمـًا لصالـح جوديـث عام ١٩٢٠؛ وأصبحت المزرعة بكاملها خاضعة لإدارة جوديث.

الترحال فى الجزيرة العربية ونجد

بعد أحد عشر عامًا من الخدمة فى وزارة الخارجية راح الرجل هو وزوجته يترحلان على نطاق واسع في الجزيرة العربية وفى الشرق الأوسط وفى الهند. هل تأثر سكاون بلنت هو وزوجته بالزيارة التى قاما بها إلى نجد؟ يقول بلنت: "النتـائج التى ترتبت على هذه الزيارة الودية التى قمنا بها إلى عاصمة الجزيـرة العربيـة المستقلة، هى ووجهة النظر التى حصلت عليها من هناك عن نظام الحكـم القـديم

الموجود منذ قرون عدة فى وسط شبه الجزيرة العجيب، أكَّدا فى داخلى مشاعر حبى وحماستى وإعجابى بالعرق العربى. جاءت هذه الرحلة بمثابة "حبى" السياسى "الأول"؛ كانت الرحلة بمثابة حكاية من الحكايات الرومانسية التى شدتنى وأخذتنى وشغلتنى، الأمر الذى جعلنى أصمم على بذل كل ما فى وسعى لمساعدتهم فى المحافظة على عطية الاستقلال الثمينة. كانت الجزيرة العربية تبدو لى أرضًا مقدسة، عثرت فيها على مهمة من مهام الحياة التى يتحتم علىَّ القيام بها. وأنا لا أظن أنى أبالغ بأى حال من الأحوال عندما أعدد الفضائل التقليدية التى رأيت الناس يمارسونها هناك".

نظام الحكم البدوى

يردف بلنت قائلاً: "ينظر المستشرقون كلهم إلى نظام الحكم البدوى باعتباره شكلاً من أشكال اللصوصية وقطع الطرق، وواقع الأمر أن هذا النظام، فى أبعاده الحضارية، ينزع إلى مثل هذه الأمور. لكن هذا النظام فى قلب الجزيرة العربية خلو من هذه الأشياء. فى نجد وحدها دون سائر بلاد الدنيا التى زرتها سواء فى الشرق أم الغرب تتجلى النعم الثلاث العظيمة التى نتفاخر بها نحن فى أوروبا، على الرغم من امتلاكنا لها؛ هذه النعم الثلاث هى "حقائق واقعة" فى نجد: "الحرية والمساواة، والأخوة". هذه النعم الثلاث هى مجرد أسماء فى فرنسا، فى الوقت الذى يراها الناس مدونة على الجدران والحوائط، لكن كل رجل حر هنا فى نجد يتمتع بهذه النعم. هنا فى نجد الناس يحيون الحياة التى يحلم بها المثاليون منا، حياة خالية من الضرائب، وبلا شرطة، وبلا تجنيد ودون قهر من أى نوع كان، القانون الوحيد فى المجتمع هو الرأى العام، والنظام الوحيد فيه هو مبدأ الشرف. وجدت هنا أيضًا شعبًا فقيرًا لكنه قانع وراض، وفى ضوء احتياجاته البسيطة والقليلة يعيش أفراده حياة وفرة وفيض؛ هذا الشعب أو بالأحرى هؤلاء الناس كانوا يجيبون على كل الأسئلة التى وجهتها إليهم (وكنت قد طرحت هذه الأسئلة فى بلاد

كثيرة ولم أخرج منها خاوى الوفاض) قائلين: "الحمد لله، نحن لسنا مثل الأمم الأخرى. نحن هنا لنا حكومتنا الخاصة بنا. ونحن هنا راضون وقانعون". كل ذلك هو الذى ملأنى دهشة وسرورًا وحولنى من متفرج على محن العالم الشرقى وبلاياه إلى شخص يمتلئ حماسًا إلى مد نعم الحرية هذه إلى الأمم الأخرى الواقعة فى إسار العبودية".

طموح بلنت إلى تعرُّف الأفكار الدينية

كان بلنت يطمح إلى تعرف الأفكار الدينية عند الشعوب الإسلامية تعرفًا تامًا، لكن مرور هذا الرجل بين الشعوب الإسلامية - وعلى الرغم من تعاطفه معها - كان مثل مرور الغرباء على فكر هذه الشعوب الجاد، وفى غياب التحامل الدينى المسيحى بكل أنواعه، تعلم بلنت احترام الإسلام، لكنه لم يفهمه ولم يحدث أن ناقش تعاليم الإسلام مع أى من علماء الشريعة الإسلامية أو الضالعين فى الفكر الإسلامى الحديث. وعلى الفور أدرك الرجل ضعف - بل وسخافة موقفه - ولذلك قرر تخصيص فصل الشتاء من عام ١٨٨٤ كله لدراسة الملامح والسمات الرئيسية - على أقل تقدير - للعقيدة الإسلامية من منطلق تأثير هذه العقيدة على السياسة الإسلامية.

فى ضوء هذا الرأى، وضع الرجل خطة شتاء ذلك العام. وفكر فى الذهاب إلى جدة، فى موسم الحج أو قُبيله، وتثقيف نفسه هناك قدر المستطاع، ثم يغتنم بعد ذلك أية فرصة يمكن أن تؤدى إلى المزيد من الحركة والعمل. وتمنى الرجل لو اخترق الجزيرة العربية مرة ثانية إن أمكن من خلال الحجاز أو ربما اليمن إلى نجد. كانت تراود بلنت فكرة مفادها أنه ربما عثر بين الوهابيين على مُعَلِّم يمكن أن يعطيه المذهب الوهابى باعتباره مقابلاً للمذهب العثمانى، أو بالأحرى "الإسلام الوهابى باعتباره مقابلاً للإسلام العثمانى"؛ وأن يتمكن مع مثل هذا المعلم من ابتكار

حركة للإصلاح، يضع هو عناصرها السياسية ويضع المعلم عناصرها الدينية. الواضح أن هذه الفكرة المجنونة كانت تتملك الرجل، لكنه أخذها مأخذ الجد فى ذلك الحين. يقول بلنت: "اعترافى هنا بذلك الذى فعلته سوف يوضح للقارئ المصرى الأسباب التى دفعتنى إلى السير فى هذا الخط بعد ذلك بعامين فى القاهرة".

تأثر بلنت بلويس صابونجى

لم يتأثر بلنت بالبلاد والشعوب العربية والإسلامية فقط وإنما تأثر أيضًا بواحد من علماء الشرق يدعى لويس صابونجى، الذى تعرف على شخصه بصفته مدرسًا للغة العربية. وهو من أصل نصرانى، إذ كان عضوًا فى نِحلة من النحل الكاثوليكية فى سوريا، بل إن هذا الصابونجى تولى عمل الكاهن وخدم فى قداس الدعاية فى روما، لكن الرجل تخلى مؤخرًا وخلع رداء الكهانة، وازدادت مشاعره الطيبة وتعاطفه الطيب مع الإسلام على تعاطفه ومشاعره تجاه نحلته الأصلية. وذاع صيت الرجل بوصفه مدرسًا للغة العربية، وكان على دراية كبيرة بالمسائل شبه السياسية والمسائل شبه الدينية التى كان يجرى الحوار حولها بين المسلمين فى ذلك الوقت. والصابونجى هو الذى قام بالعمل الرئيسى نيابة عن المرحوم الدكتور بادجر Badger فى جمع القاموس العربى الإنجليزى الذى صدر تحت اسم الدكتور بادجر.

وكان صابونجى يصدر أيضًا فى لندن عام ١٨٨٠، جريدة عربية اسمها النَّحلة التى كان يجرى الكلام فيها عن الإصلاح الدينى بواقع مرة واحدة كل شهر، وكان الحديث عن هذا الموضوع أكثر الخطوط الفكرية حداثة وتقدمًا. كان هناك شىء من الغموض يحيط بتمويل هذه الجريدة الصغيرة، ووراء التعجيل بإصدارها، لكن بلنت لم يفلح فى سبر أعماق ذلك الغموض. وصابونجى يروى أن راعيه الأساسى فى ذلك كان هو سلطان زنزبار ذلك الحاكم شديد الاستنارة وصاحب

الذهن الليبرالى فى ذلك الوقت. وذهب فكر بلنت إلــى أن اتجــاه هــذه الجريــدة السياسى كان فى بعض أجزائه من فعل الخديو إسماعيل المخلوع وكــذلك المبــالغ التى كانت تدعمهما.

يزاد على ذلك أن صابونجى كان يعلِّم بلنت اللغة العربية، وهو الذى كــان يترجم برقيات عرابى قبل إرسالها إلى بلنت، وكان يترجم أيــضًا رســائل الــشيخ محمد عبده قبل إرسالها إلى رئيس الوزراء البريطانى، وكان أيضًا همزة الوصــل بين بلنت وأعضاء الحزب الوطنى عندما تعذر على بلنت الحضور إلى مصر.

انشغال ذهن بلنت بالسياسة

شغل سكاون نفسه تمامًا طوال سنوات تقاعده الأولى بشئونه المنزلية، ولكن ذهن الرجل تحول إلى السياسة تدريجيًا بمحض الصدفة. فى عام ١٨٧٣، وعنــدما وجد نفسه بحال صحى طيب، وهربًا من أواخر الصيف فى إنجلترا قــام الرجــل وزوجته بأول رحلة مشتركة إلى بلاد الشرق. سافرا عن طريق بلجراد والــدانوب إلى إسطنبول، التى التقيا فيها السير هنرى إليوت فى السفارة البريطانيــة، وجــددا تعارفهما على بعض الأصدقاء الآخرين الذين لهم علاقة بالــسفارة، ومــن بيــنهم الدكتور ديكسون الذى سيرد ذكره فى الكتاب. لم يشغل بلنت نفسه كثيرًا بالغليــان الداخلى الذى كان يدور داخل الإمبراطورية العثمانية، لكن مشاعره، بالشكل الــذى كانت عليه فى تلك الأيام، كانت تميل إلى الأتراك وليس المسيحيين.

بلنت فى آسيا الصغرى

اشترى بلنت اثنى عشر حصــانًا من سوق الخيل فى إسطنبول، وعبر بها إلى أن وصل إلى سكوتارى حيث أمضى فيها ستة أسابيع صيفية جميلة تجول خلالهــا

هو وزوجته فى التلال، وخلال حقول الخشخاش فى آسيا الصغرى، مبتعدين فى ذلك الوقت عن المدقات (الطرق) المطروقة، ومتمتعين بالاطلاع على القسم الأكبر من حياة الفلاحين الأتراك، بالقدر الذى يسمح به جهليهما الكامل بلغة هؤلاء الفلاحين، وتأثرا، مثل سائر الرحالة الآخرين، بالطيبة الحقيقية لهؤلاء الفلاحين، كما تأثرا أيضًا بسوء حكومتهم وفسادها. حكم بلنت هو وزوجته على فساد الحكومة من واقع ما وقفا عليه من ألاعيب وأساليب المجموعات الشُرطية، أو الحرس شبه العسكرى المرافق لهما، الذى كان أفراده يتعاملون مع هؤلاء الفلاحين معاملة الجنود الذين يكونون فى بلد جرى غزوه والاستيلاء عليه.

بلنت وزوجته فى الجزائر

أمضى ولفريد سكاون بلنت هو وزوجته فصل الشتاء التالى، أو بالأحرى الأشهر الأولى من عام ١٨٧٤ فى الجزائر التى شهدا فيها منظرًا أذكى فيهما فكرة مفادها: أن شعبًا شرقيًّا يخضع خضوعًا مهينًا لآخر غربى. عقب حرب كانت دائرة بين فرنسا وألمانيا، انتفض انتفاضة عربية فى الجزائر، انتشرت ووصل مداها إلى الحدود الخارجية للجزائر، وبدأ المواطنون المسلمون يلاقون أشد أنواع الضيق والصرامة؛ بسبب القمع والقهر المسيحى. وجرى استغلال ذلك فى مصادرة الممتلكات الوطنية بكل الصور والأساليب الممكنة لصالح المستعمرين الأوروبيين ومحاباة لهم على حساب المواطن الأصلى. وعلى الرغم من حب سكاون بلنت الشديد للفرنسيين (إذ كان فى باريس فى أثناء الحرب وكان من المتحمسين للدفاع عنها يوم أن كانت محاصرة) فقد وجد الرجل مشاعره فى الجزائر تتجه كلها ناحية العرب. استمع سكاون بلنت هو وزوجته إلى أغانى البدو الرُحل وهم يؤبنون بطلهم الضائع عبد القادر الجزائرى. وعلى الرغم من أنهما لم يفهما هؤلاء البدو فى كثير من الأمور؛ بسبب جهليهما بلغتهم، فقد أعجبا بهم وتعاطفا معهم. وشهدا ذلك التناقض العجيب بين حياة هؤلاء البدو الرُحل الرعوية النبيلة ومعهم قطعانهم من

الإبل والخيول، التى تشكل موروثًا راقيًا وعامرًا بذكريات الأعمال البطولية، وبين دناءة المستوطنين الفرنجة الحقيرة، ومعيم خمَّاراتهم وخنازيرهم. ولم يفت عليهما ذلك التضارب والتنافر الذى جعل المستوطنين الفرنجة سادة للأرض ومُلاَّكًا لها، وجعل من أصحاب الأرض الحقيقيين خدمًا لهؤلاء الفرنجة.

بلنت فى مصر

كان ذلك هو الدرس السياسى الجديد الذى حفظه بلنت عن ظهر قلب عندما زار مصر فى المرة الأولى عام ١٨٧٥- ١٨٧٦. ومع ذلك لم يدر بخلد بلنت أو زوجته فكرة زيارة مصر أكثر من كونها مجرد مغامرة ترحالية سارة فى بلاد شرقية. وعندما غادر بلنت وزوجته إنجلترا كانت خطتهما ترمى إلى دخول مصر من الناحية الجنوبية عن طريق سواكن وكسلا والنيل الأزرق، على أن يشقا طريقهما متجهين شمالاً إلى القاهرة فى فصل الربيع، لكن هذه الخطة لم تتحقق مطلقًا بسبب المشكلة التعيسة التى حلت بمصر بسبب الحملة الحبشية، وإن القسم الوحيد الذى تحقق من هذه الخطة هو أنه بدلاً من النزول فى الإسكندرية، باعتبارها الجمرك الرئيسى، فى ذلك الوقت، واصلا ترحالهما عن طريق الترعة إلى السويس التى وضعا فيها أقدامهما على أرض مصر للمرة الأولى.

من المنزلة إلى السويس فقصر النيل

شاهد بلنت وزوجته بحيرة المنزلة فى اليوم الأخير من عام ١٨٧٥ ووصفها وصفًا دقيقًا ثم نزل إلى البر فى السويس مع دخول الأيام الأولى من عام ١٨٧٦، واستأجر بعض الإبل والجمَّالة من السويس وسلك طريق القوافل القديم إلى القاهرة. ويدخل بلنت هو وزوجته القاهرة بعد حوالى خمسة أيام ويخيمان دون قصد، لقضاء الليل خلف أهداف ضرب النار التى كانت القوات الخديوية تتدرب عليها.

ويتجاهل بلنت وصف القاهرة لأنه يود رؤية المناطق الريفية وعدم مضيعة الوقت في مدينة هي أوروبية بعض الشيء. فكر بلنت في أن يكون مكان مخيمهما خلف النيل أو بالأحرى مجاورًا للنيل وعليه واصلا المسير.

لم يفهم أو يتفهم سكاون بلنت أو زوجته توسُّلات الجمَّالة إليهما بالتوقف والسماح لهم ومعهم جمالهم بالعودة، ولم يفهما أيضًا أنهما كانا يظلمانهم ويسيئان إليهم عندما أجبراهم على كسر القاعدة القبلية التي تمنعهم بحكم كونهم بدوًا من الصحراء الشرقية، من عبور الصحراء إلى الغرب. وعلى الرغم من توسلات هؤلاء الجمَّالة البدو واصل بلنت وزوجته سيرهما بأن عبرا كوبرى (جسر) قصر النيل، وسارا في الطريق المؤدى إلى الجيزة، وهنا بدأت تتراءى لهما أهرامات الجيزة، وواصلا سيرهما في اتجاهها بشوق وحنين، ولم يتوقفا إلا عند انحسار النهار الذي داهمهما عند غروب الشمس بالقرب من قرية الطالبية Tolbiya .

بلنت وزوجته في الطالبية

كانت الطالبية في ذلك الزمان قرية صغيرة، أو بالأحرى القرية قبل الأخيرة قبل الوصول إلى أهرامات الجيزة. توقف بلنت هو وزوجته عند هذه القرية ونزلا من فوق إبلهما للمرة الأولى، على أرض النيل السوداء التي جفت بالفعل من مياه فيضان خريف ذلك العام.

استقبل أهل الطالبية الطيبين كلا من بلنت وزوجته، بطريقتهم الريفية الودية، استقبلوهما بكل ما وسعهم من الكرم والضيافة. وعلى الرغم من أن أهل الطالبية يعيشون على الطرق السياحية المؤدية إلى أهرامات الجيزة، وعلى الرغم أيضًا من اعتياد هؤلاء السكان التعامل مع الرحالة الفرنجة على نحو يجعل منهم فريسة لهم إلى حد ما، فإن حقيقة نزول بلنت وزوجته في قريتهم لقضاء الليل أضفت عليهما طابع الضيوف، الأمر الذي تفهّمه سكان الطالبية ووعوه تمامًا. ولم يحدث أن

توقف في الطالبية أي أحد من الرحالة الأوروبيين الذين مروا عليها طوال سنوات كثيرة؛ ولم يحدث أن توقف أحد منهم ولو لفترة قصيرة أمام أبواب هذه القرية الريفية. وعليه كانت علاقتهما ودية مع هؤلاء الفلاحين البسطاء منذ البداية، وقد خدمتهما تلك الوقفة باعتبارها مقدمة لسلسلة من العلاقات مع القرويين، بعد الأيام القلائل التي أمضياها بين أهل الطالبية. وعندما واصلا سيرهما بعد ذلك، لم يكن أمامهما خيار في ذلك الوقت، سوى البقاء في المكان الذي كانا فيه، نظرًا لأن البدو الذين كانوا يرافقونهما رفضوا في الصباح مواصلة السير معهما حتى ولو لميل واحد فقط، وبعد أن حصلوا على أجورهم رحلوا عنهما ومعهم إبلهم. وكان لا بد لبلنت وزوجته من العثور على إبل أخرى. وعليه أمضى بلنت أسبوعه الأول في مصر في التجوال في أسواق القرى المجاورة بحثًا عن الإبل وشراء السُرُج اللازمة لها، وشراء قراب الماء وكل المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة.

الفقر والمجاعة وسوء الحال

كان الفلاحون في ذلك الوقت يعانون معاناة شديدة من شظف العيش والفقر. وكان الوقت يصادف العام الأول من الأعوام الثلاثة الأخيرة المخيفة من حكم الخديو إسماعيل. كان إسماعيل صديق، وزير المالية سيئ السمعة، في السلطة في ذلك الوقت؛ وكان حملة الأسهم الأوروبيون يطالبون "بكوبوناتهم". وكانت المجاعة تدق أبواب الفلاحين. "وقل في تلك الأيام أن يُرى رجل في حقله وهو يضع عمامة على رأسه، أو أكثر من قميص واحد يستر به جسمه".

بلنت في الفيوم

بعد أن حصل بلنت على الإبل المطلوبة شد رحاله على الفور إلى الفيوم ليجد الحال هو الحال بلا تغيير أو تبديل. شيوخ الريف أنفسهم لم يكن لديهم الكثير

من الملابس، مجرد عباءة يلبسها الواحد منهم. وكان الحال هو نفسه في كل مكان. في بلدان الأقاليم كانت الأيام التي تُنْصَبُ فيها الأسواق، تعج بالنساء اللاتي كن يبعن ملابسهن ومصاغاتهن الفضية للمرابين اليونانيين نظرًا لأن جباة الضرائب كانوا في القرية وسياطهم في أيديهم. اشترى بلنت هو وزوجته من هؤلاء النساء صناديقهن الصغيرة، واستمعا إلى قصصهن، وانضما إليهن في لعنهن وقذفهن في حق الحكومة التي كانت تعريهن. لم يكن بلنت وزوجته يفهمان أكثر من هؤلاء الفلاحين أنفسهم، حقيقة الضغوط المالية الأوروبية التي كانت السبب الرئيسي وراء هذه الابتزازات التي لا تعرف الحدود؛ ووجه بلنت هو وزوجته اللوم مثل هؤلاء الفلاحين إلى إسماعيل باشا وإلى المفتش إسماعيل صديق. وأحس بلنت وزوجته بأن هناك دورًا إنجليزيًا وراء هذا التبرم واللوم.

واقع الأمر، أن الأحوال القائمة في ذلك الوقت كانت لا تطاق تمامًا، وكان الشعب الجائع ينظر أو يتطلع إلى أي تغيير من التغييرات على أنه غوث محتمل. "كانت إنجلترا تبدو في أعين الفلاحين الشحاذين الذين كانوا يُسْرَقُون ويُضربون ويموتون من الجوع، كأنها غوث ودي وثري، بل وشديد الثراء، ولا مصلحة لها، أي أنها مجرد مُصلح للأخطاء وصديق للمغلوبين على أمرهم والمطحونين، لا أكثر ولا أقل، في واقع الأمر". سبب ذلك أن السائحين الإنجليز في ذلك الوقت كانوا يتجولون هنا وهناك بأيدي ممدودة ومعطاءة، كما كانت تعبيراتهم توحي بالتعاطف والمشاركة. هذا يعني أن هؤلاء الفلاحين المطحونين لم يَشُكُّوا في الأنانية التجارية الهائلة، التي دفعت الإنجليز كأمة إلى القيام بكثير من الاعتداءات على الأجناس الضعيفة في العالم.

كيف رأى بلنت المصريين عام ١٨٧٦

"المصريون طيبون، وهم أناس أمناء مثل سائر البشر في العالم كله- أعني بذلك أولئك الذين لا يشغلون مناصب أو مراتب عالية. هذه النوعية من البشر أنا لا أعرف عنها شيئًا. لكن الفلاحين لديهم كل الفضائل التي يمكن أن تساعد على

تكوين مجتمع سعيد ميسور الحال. هؤلاء الفلاحون مرحون مُجِدُّون ومطيعون للقانون، وهم أولاً وقبل كل شيء غير مسرفين، لا فى مسألة الشرب وحسب وإنما فى الملذات الأخرى التى تشد إليها الطبيعة البشرية. الفلاحون ليسوا مقامرين أو محبين للشجار، كما أنهم ليسوا فسقة؛ إنهم يحبون بيوتهم، وزوجاتهم، وأطفالهم".

"المصريون أبناء طيبون، وآباء طيبون، ورحماء بالحيوانات الخرساء، ورحماء أيضًا بكبار السن، وبالشحاذين، وبالبلهاء. الفلاحون لا يتحاملون مطلقًا على أى جنس من الأجناس الأخرى، ولا يسيئون أيضًا إلى الدين. عيبهم الوحيد هو حب المال، لكن الاقتصاديين السياسيين يصفحون عن مثل هذا العيب عن طيب خاطر... ومن الصعوبة بمكان أن تجد فى أى مكان من الأماكن مجموعة من السكان مؤهلة لتحقيق الهدف الاقتصادى الذى ينطوى على إسعاد أكبر عدد من الناس. فى مجال السياسة ليست لهؤلاء الفلاحين مطامح سوى أن يعيشوا ويتركوا الآخرين يعيشون، والسماح لهم بالعمل والاحتفاظ بحصائد أعمالهم، والسماح لهم أيضًا بالبيع والشراء دون تدخل، والتهرب من الضرائب. هؤلاء الفلاحون أسيئت معاملتهم على امتداد عصور طويلة دون أن يفقدوا طيبة قلوبهم، ولديهم أيضًا قلة من الفضائل المرموقة، وهم ليسوا مغالين فى الوطنية، أو متشددين، أو مفرطين فى الكرم. لكنهم مبرءون من الرذائل الكبيرة. كل واحد منهم يعمل لحساب نفسه أو لحساب عائلته فى أغلب الأحيان. هؤلاء الفلاحون لا يفهمون أو يستوعبون التضحية بالنفس من أجل الصالح العام، لكنهم مبرءون من التآمر على استعباد إخوانهم... وعلى الرغم من الضغط والقمع الهائل الذى هم ضحايا له، فإننا لم نسمع أى كلام عن الثورة أو التمرد، وليس هذا من باب النظرة الخرافية إلى حكامهم، نظرًا لأن هؤلاء الفلاحين لا يعرفون التحامل السياسى، وإنما هو من باب أن الثورة والتمرد ليسا من طبيعة هؤلاء الفلاحين، مثلما هو الحال بين قطيع من الأغنام. تراهم يُحيُّون ويرحبون بملكة إنجلترا أو البابا أو حتى ملك الأشانتى بنفس الدرجة من الحماس، إذا ما جاء أى من هؤلاء لهم حتى ولو بتخفيض بنس واحد فى كل جنيه من الضرائب".

حماقة إسماعيل والخراب الذى جره على مصر

تصادفت بداية صعوبات إسماعيل المالية مع الهبوط المفاجئ الذى طرأ على أسعار الحاصلات الزراعية، وبخاصة أسعار القطن، الذى ازداد بعد انخفاض هذه الأسعار؛ وكانت تلك أيضًا بداية تدمير الفلاحين الذين كان مفترضًا تعويضهم عما حل بهم، لكن جرى إثقالهم بضرائب غير معتادة مختلفة الأنواع. كان إسماعيل صديق، المفتش سيئ السمعة، العامل الرئيسى فى هذا التاريخ المشئوم.

يزاد على ذلك، وقوع إسماعيل باشا، من جديد، فى أيدى أكثر خطورة، وراح يدخل فى مغامرات أخرى أكثر شؤمًا عن مغامراته السابقة. ناهيك عن المبالغ الضخمة التى كان ينفقها على ملذاته الشخصية، وعلى حماقته فى بناء القصور، وحماقاته مع النساء الأوروبيات، وحماقاته فى الضيافة الملكية(*). كانت هناك مخططات شديدة الطموح لاستنزاف أية خزانة من الخزانات؛ ولا أحد يعرف على وجه الدقة عدد الملايين التى أنفقها إسماعيل فى إسطنبول بغية الحصول لنفسه على لقب خديو من ناحية، والحصول على لقب "الخديو" وجعل وراثة الحكم فى أولاده الذين من صلبه.

(*) أقام الخديو إسماعيل فى شتاء عام ١٨٧٦ وليمة هائلة للسيد كيف Cave هو وأعضاء بعثته، ودُعى بلنت مصادفة إلى هذه الوليمة التى أقيمت فى كشك الحاكم المناب فى منطقة الأهرامات، وكانت واحدة من ولائم الإسراف والتبذير التى اعتاد إسماعيل أن يسترعى بها أنظار واهتمام الأوروبيين، ولم يكن هناك دليل أكثر من ذلك على التناقض الغريب الذى بين ثراء صاحب الوليمة والفقر المدقع الذى كان عليه أولئك الذين تحملوا نفقات إقامة هذه الوليمة. لقد أقيمت هذه الوليمة على مسمع ومرأى من عيون جماهير الفلاحين الذين يتضورون جوعًا، هؤلاء الفلاحين الذين أُوفد السيد كيف لإنقاذهم من الهلاك، على حد قول الإنجليز، ومع ذلك لم يستشعر أحد من الحاضرين مطلقًا ذلك التنافر والتضاد. تناول الحاضرون الطعام واحتسوا أحسن أنواع الشمبانيا، وانصرف المعزومون لحال سبيلهم ومعهم بلنت الذى راح يستعيد الطابع الحقيقى لذلك المشهد بعد أن تعرفه جيدًا، وما ينطوى عليه فى واقع الأمر من تبذير وما يحيط به من بؤس وشقاء؛ وتبين فيه الرجل عرضًا حقيقيًا لسببين من أسباب الثورة القادمة.

أضف إلى ذلك أيضًا كلفة حملة أعالى النيل العسكرية والغزو الفاشل لمملكة الحبشة، ومضارباته، الأمر الذى أجبره على طلب القروض فى بداية الأمر من المصارف المحلية، وهنا تظهر عبقرية نوبار باشا الفاسدة، ذلك الممول الأرمنى الذى حوّله بعض أصحاب الرأى المصريين الذين يجهلون التاريخ إلى "مصرى وطنى"، فقد كان المسئول بعد إسماعيل عن الدمار والخراب المالى. "رتب ذلك النوبار قروضًا تقدر بحوالى ستة وتسعين مليونًا من الجنيهات الإنجليزية، لم تصل إلى يدى إسماعيل منها سوى أربعة وخمسين مليونًا فقط، وذهب الباقى إلى جيب نوبار على سبيل العمولة".

فى ظل هذا الفساد على مستوى الحاكم ودولاب حكمه فى عهد إسماعيل، وفى ظل امتداد ذلك الفساد إلى عهد الخديو توفيق كتب ولفريد سكاون بلنت كتابه "التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر".

التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر

يقع الكتاب فى ستمائة وسبعة وأربعين صفحة من القطع الكبير مقسمة إلى ثمانية عشر فصلاً وتسعة ملاحق. الفصل الأول بعنوان "مصر تحت حكم إسماعيل"، والفصل الثانى يحمل عنوان "بعثة السير ريفرز ولسون"، ويحمل الفصل الثالث عنوان "ترحال فى الجزيرة العربية والهند"، أما الفصل الرابع فهو يندرج تحت عنوان "السياسة الإنجليزية فى عام ١٨٨٠"، وقد اختار مؤلف الكتاب للفصل الخامس عنوانًا هو "زعماء الإصلاح فى الأزهر"، والفصل السادس يقع تحت عنوان "بداية الثورة فى مصر"، والفصل السابع عنوانه "انتصار المصلحين فى مصر"، أما الفصل الثامن فيحمل عنوان "سياسة جامبيتا، المذكرة (الإنذار) المشترك" ويتناول الفصل التاسع "سقوط شريف باشا". واختار سكاون بلنت للفصل العاشر عنوان "مرافعاتى فى مجلس الوزراء"، والفصل الحادى عشر عنوانه "المؤامرة الجركسية"، ويحمل الفصل الثانى عشر عنوان "الدسائس والدسائس

المضادة"، والفصل الثالث عشر بعنوان "مهمة الدرويش"، "الاستغاثة الأخيرة بجلادستون" هى عنوان الفصل الرابع عشر، أما "ضرب الإسكندرية بالقنابل" فهو عنوان الفصل الخامس عشر، و"معركة التل الكبير" هى عنوان الفصل السادس عشر؛ أما الفصل السابع عشر فيقع تحت عنوان "محاكمة عرابى"، وفصل الختام هو "بعثة دوفيرين".

والملحق الأول يتناول "سيرة عرابى"، أما الملحق الثانى فيتناول "مظاهرة الإسكندرية"، والملحق الثالث خاص "برسائل عرابى إلى المؤلف"، أما الملحق الرابع فهو يختص "برسائل صابونجى من مصر"، والملحق الخامس "برنامج الحزب الوطنى المصرى"، والملحق السادس خاص "بنص الدستور المصرى عام ١٨٨٢"، والملحق السابع خاص "بمراسلات عرابى إلى السيد ديليسبس، والملحق الثامن بعنوان "أقوال السيد نينيه" أما الملحق التاسع فهو بعنوان "الريح والزوبعة" قصيدة من شعر المؤلف.

لماذا ألَّف بلنت هذا الكتاب

هل ألف بلنت الكتاب بصفته مؤرخًا إخباريًا، أو بالأحرى مؤرخًا يؤرخ للأحداث وفقًا لتسلسلها الزمنى؟ وهل يعنى ذلك أن مهمة الرجل تتمثل فى تسجيل الحقائق كما هى، لا كما ينبغى أن تكون فى خدمة مصالح العمال والمحافظين؟ لقد سلك بلنت هذا الطريق الذى وجد نفسه فيه بلا سند أو معين.

هل كان بلنت يود أن يسجل فى شكل واضح وملموس تلك الأحداث المتعلقة بأصل الاحتلال الإنجليزى لمصر، ليس حبًا فى النشر وإنما باعتبار ذلك وثيقة من وثائق التاريخ، فى لحظة من اللحظات التى لعب الرجل فيها دورًا رئيسيًا بارزًا فى الأحداث وعلى ما يقرب من عشرين عامًا كان خلالها مشاهدًا مهمًا للدراما التى يجرى تمثيلها على مسرح القاهرة؟

هل كان الرجل يتوقع قيام المسألة المصرية، التى كانت هادئة فى ذلك الوقت، بتأكيد نفسها فجأة وعلى نحو عاجل يحتم على الإنجليز دراسة وضعهم الجديد فى مصر من الناحيتين السياسية والأخلاقية؟ حاول بلنت جمع كل ما يتعلق بهذا الأمر، وحاول الإفادة من هذه المادة فى تنوير الإنجليز. ولذلك قدم الرجل هذه المادة واضحة قدر المستطاع، مضافًا إليها الوثائق التى من قبيل الرسائل واليوميات المتاحة له؛ ووضع الرجل ذلك كله جنبًا إلى جنب مع بياناته ودلائله دون أن يستر شيئا أو يخفيه. وكان الرجل ينطلق من حقيقة مفادها "نحن لا نقرأ دومًا فى الوثائق الرسمية حقائق التاريخ الحقة، وفيما يتعلق بمصر بصورة خاصة كانت الدسائس بكل أشكالها وفيرة وذائعة إلى حد أن الطالب والباحث المخلص يحتاج منا أن نقدم له يد العون والمساعدة حتى يتمكن من فهم الأوراق البرلمانية المنشورة".

على الصعيد المصرى، كان من رأى بلنت، أن المصريين إذا ما استطاعوا إثبات وجودهم كأمة مستقلة فإن ذلك ستكون له قيمته فى تقديم الدليل لإنسان هم يعرفون أنه صديق مخلص لهم فيما يتعلق بالمسائل الدبلوماسية الغامضة التى فشلوا فى إدراكها فى زمن بلنت. ويضرب بلنت مثلاً على ذلك بأن يطلب من المصريين الرجوع إلى التفاصيل الدقيقة لعلاقته مع مجلس الوزراء البريطانى، حتى يمكن لهم الوقوف على الأسباب الحقيقية والدقيقة التى أدت إلى قصف الإسكندرية بالقنابل، والتى أدت إلى معركة التل الكبير والخيانة التى تعرض لها عرابى.

بقى أن أقول إن مصلحة الاستعلامات المصرية اجتزأت من طبعة الكتاب الأولى، بعض الفصول وغابت عنها الطبعة الثانية، التى أضاف إليها المؤلف ملاحق تقدر بحوالى مائة وثمانين صفحة من القطع الكبير، علاوة أيضا على بعض التصحيحات التى أدخلها سكاون بلنت، ويبدو أن ترجمة تلك الأجزاء كانت تحت إشراف السلطة، أو أن من قاموا بها كانوا ينحسبون لبعض الأمور.

الخيانة

من الذى خان عرابى على المستوى العسكرى؟ هل هو على بك يوسف أو قائد الخيالة؟ أو كلاهما؟ من الذى خان عرابى على المستوى المدنى؟ هل هم التياهة والترابين فى الصحراء الشرقية؟ هل خان آل الطحاوى، فى الصحراء الشرقية غرب قناة السويس، عرابى وسهلوا مهمة الإنجليز؟ هل تآمر الخديو توفيق على أحمد عرابى مستخدمًا فى ذلك بدو الصحراء الغربية، أو بالأحرى أولاد على؟ هل تآمر عمر باشا لطفى، محافظ الإسكندرية فى ذلك الوقت، مع الخديو توفيق للنيل من أحمد عرابى؟ لماذا لم يوفق محمود سامى البارودى فى الهجوم العسكرى الذى كان مفترضًا أن يقوم به من ناحية الصالحية؟ هل كان درويش باشا مكلفًا باغتيال أحمد عرابى إذا لم يفلح فى الاحتيال عليه؟ وهل كان لدى الإنجليز علم بذلك؟ لماذا بقى الخديو توفيق، فى أثناء قصف الإسكندرية، فى منطقة الرمل بها؟ كيف قلب بلنت من خلال محاميه، الموائد على الخديو وأذنابه، وتحول الأمر من تبييت نية الإعدام إلى حل وسط ومساومة عرابى؟

ولفريد سكاون بلنت يجيب عن هذه الأسئلة وغيرها من واقع دلائل ووثائق دامغة.

نقول أيضًا إن المخطوطة الأصلية للكتاب اكتملت، على حد قول بلنت، فى عام ١٩٠٤ وجرت مراجعتها مراجعة دقيقة؛ وجرت أيضًا إعادة ترتيب القسم المصرى من هذه المخطوطة فى ظل ظروف أضافت الكثير إلى القيمة التاريخية لذلك القسم.

أهم من ذلك أن الشيخ محمد عبده، الذى كان صديقًا لسكاون بلنت، كان قد اتخذ لنفسه سكنًا بالقرب من مسكن ولفريد سكاون بلنت فى الشيخ عبيد[*]،

(*) ردًا على التهديد من قبل إنجلترا بالتدخل، والذى بدأ يؤثر على سوق الأوراق المالية ويدفعها إلى الانخفاض وبخاصة فى أسعار السندات المصرية وأسعار الأطيان والممتلكات فى مصر، قرر سكاون =

الأمر الذى جعل بلنت على اتصال يومى بذلك الرجل، وتلك كانت فرصة لم يدعها بلنت تضيع منه واغتنمها إلى أبعد حد ممكن. كان الشيخ محمد عبده قد وصل إلى منصب المفتي فى عام ١٨٩٩ وبذلك أصبح صاحب نفوذ كبير عند إخوانه المواطنين. حدَّث بلنت الشيخ محمد عبده عن مذكراته (التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر) وراح الشيخ يحثه حثًا شديدًا على نشرها وإذا لم يتيسر ذلك باللغة الإنجليزية فليكن بالعربية وبعون منه فى أضعف الأحوال، وتعهد الشيخ بتصفح تلك المذكرات مع بلنت، والتأكد من أن القسم المتصل بالأمور

---

* بلنت تقديم دليل ثقته فى الثروة الوطنية، بأن اشترى ضيعة صغيرة لإقامته فى ضاحية قريبة من القاهرة، وهى حديقة الشيخ عبيد التى تقدر مساحتها بحوالى أربعين فدانًا وتقع فيما بين المرج والمطرية.

علم بلنت مصادفة أن حديقة الشيخ عبيد معروضة للبيع فقام بشرائها "علانية" من لجنة الممتلكات الأميرية بمبلغ ١٥٠٠ جنيه إنجليزى؛ كانت حديقة الشيخ عبيد أفضل الحدائق المثمرة فى مصر، وكان يحيط بها سور، ومازها غزير ووفير، وكانت تضم حوالى ٧٠٠٠٠ شجرة من أشجار الفاكهة، وكنها منظمة تنظيمًا طيبًا ورائعًا.

تاريخ هذه الحديقة جدير بالتسجيل. وهى قطعة من الأرض الخصبة تقع على حافة الصحراء، كانت مملوكة فى مطلع القرن التاسع عشر لإمام جيش إبراهيم باشا فى أثناء الحملات التى قام بها على الجزيرة

العربية، لكن الإمام بعد أن نزلت به ضائقة وظروف قاهرة، اشتراها منه الباشا، وسوَّر ثلاثة وثلاثين فدانًا منها بسور، وحفر لها السواقى المطلوبة، وجعلها منذ مطلع الثلاثينيات تبدو بالحال التى كانت عليها فى ذلك الوقت.

أشجار الفاكهة التى زرعت فى هذه الحديقة جلب جزء منها من الطائف فى بلاد الحجاز، وجلب الجزء الأخر من سوريا. كان إبراهيم باشا يتمتع بعاطفة قوية تجاه زراعة الحدائق، ولم يدخر وسعًا فى جعل هذه الحديقة أبهى وأروع أنواعها، وفى زمن إبراهيم باشا وزمن ابن أخيه مصطفى، الذى آلت إليه ملكية هذه الحديقة، كانت تعطى دخلاً سنويًا يقدر بحوالى ٨٠٠ جنيه إنجليزى، وكانت العمالة فيها بواسطة السُخْرة للفلاحين من القرى المجاورة. بلغ رمان هذه الحديقة من الكبر حدًا، أصبح من المتعارف عليه بين البساتين أن ثلاثين فحلاً من هذا الرمان كانت تشكل حملاً لجمل من الجمال، وأن ذلك الرمان كان يرسل كل عام إلى إسطنبول على سبيل الهدية للسلطان.

فى عصر توفيق باشا، حفيد إبراهيم باشا، وعندما كان يعيش فى قصر القبة، فى أثناء حكم والده إسماعيل، كان من عادة نسائه (توفيق) أن ينْقلن إلى هذه الحديقة فى يوم الجمعة فى فصل الربيع لتمضية اليوم هنالك. وفى عام ١٨٧٩ وفى أثناء الدمار الذى حاق بإسماعيل باشا، عادت الحديقة إلى مفوضى الأملاك الأميرية، وأصبحت واحدة من الضيعات المعروضة للبيع. وبذلك عثر سكاون بلنت عليها من قبيل المصادفة.

التى فى إطار معرفته جرى الوفاء به وفاء دقيقًا ومكتملاً. وتشاء الأقدار أن ينتقـل الشيخ محمد عبده إلى جوار ربه فى مدينة الإسكندرية، الأمر الذى أدى إلى تأجيل نشر الكتاب باللغة العربية إلى أجل غير مسمى. وقد مهر الشيخ محمد عبده نـص الكتاب بتوقيعه إشارة إلى موافقته عليه.

صبرى محمد حسن

* * *

ملاحظة عن الطبعة الثانية

بعد أن أصبحت مسألة طباعة هذا الكتاب مرة ثانية أمرًا مقضيًا، تصبح أيضًا مسألة تصويب بعض الكلمات والرد على الانتقادات أمرين لا بأس بهما ولا خلاف عليهما.

لم يكن متوقعًا بطبيعة الحال، فى ظل الوضع الراهن للرأى العام، أن تحظى بعض الحقائق، التى تسىء بعض الشىء إلى كبريائنا الإمبراطورى الإنجليزى، أو قصة من القصص التى تستثنى العمل العام فى أى من الحزبين من الاستنكار أو التوبيخ، لم يكن متوقعًا بطبيعة الحال أن تجد مثل هذه الحقائق أو القصص طريقها إلى الصحافة الرأسمالية. الشعور الحزبى محفور فى مفاهيم التاريخ الحديث كلها، ولذلك فإن المؤرخ الإخبارى(*) الذى تتمثل مهمته فى تسجيل الحقائق كما هى، لا كما ينبغى أن تكون فى خدمة مصالح العمال أو المحافظين، سيجد نفسه منعزلاً بلا سند أو معين قوى. ومع ذلك فإن الصحافة اللندنية، بشكل عام، تناولت الكتاب تناولاً نظيفًا خاليًا من العيوب، اللهم باستثناء "جريدة التايمز" التى علقت على الكتاب تعليقًا غير مشوب بالعاطفة والحرارة. والمؤلف يحس بالرضا إزاء غياب المحاولات الجادة الرامية إلى الاعتراض على الحقائق التى أوردها والتى قلما تتفق مع تاريخنا الرسمى الكاذب؛ وهو يشعر بالرضا والارتياح أيضًا لأن الصحافة الرأسمالية لأمته أقرت أنه قال الكثير ولم يقل القليل من الواقع والحقيقة. قالوا: إن المؤلف "طائش" بل "طائش مَلوُم" ولم يقولوا بأى حال من الأحوال: إنه غير دقيق أو مهمل أو كذّاب.

(*) المؤرخ الإخبارى: هو المؤرخ الذى يؤرخ للأحداث وفقاً لتسلسلها الزمنى. (المترجم)

هذا هو السير شارلز ديلك Charles Dilke، أحد الممثلين الذين شاركوا فى مأساة عام ١٨٨٢ الميلادى، ولا يزال بين الباقين على قيد الحياة من أولئك الممثلين، ينبرى وعلى الملأ لتصحيح عبارة مهمة تخصه وردت فى متن الكتاب. وأنا أود أن ألفت انتباه القارئ إلى رسالة متبادلة مهمة، مطبوعة فى ملحق مستقل، بين السير شارلز ونفسه ؛ بشأن المسئولية عن "المذكرة المشتركة(*)" المشئومة التى صدرت فى شهر يناير عام ١٨٨٢، وقد نوقشت مناقشة مستفيضة ومسئولة. وبناء على طلب المؤلف، وافق السير شارلز Charles على إدراج رسائله فى نهاية هذه الطبعة، والتى يمكن اعتبارها تصحيحًا لما ورد فى [الطبعة الأولى](**)، على الرغم من أن ذلك لا ينطوى على أى تغيير فى تَذَكُّر المؤلف لذلك الحوار الوارد فى تلك الرسالة.

وردت أيضا بعض التصحيحات الأخرى فى الملاحق على النحو التالى:

١- فيما يتعلق ببيان غير صحيح [فى الطبعة الأولى](***) ورد فيه أن المرحوم نوبار باشا كان الوكيل المالى للخديو إسماعيل فى مسألة القروض التى حصل عليها من أوروبا، فيما يتعلق بهذه النقطة، تكرم السيد بوغوص Boghos باشا نوبار، ابن نوبار باشا، بكتابة رسالة مفصلة ومطولة، أرسلها للمؤلف، يبرئ فيها ساحة والده من هذه المسئولية، وزاد على ذلك رواية مفصلة للتركة التى خلَّفها له والده بعد وفاته، موضحًا أن الثروة الهائلة المنسوبة إلى نوبار باشا أمر مبالغ فيه تمامًا.

٢- فيما يتصل بالرواية الواردة [فى الطبعة الأولى](****) عن مؤتمر برلين Congress Berlin، جرى الخلط بين اتفاقية قبرص Convention Cyprus

---

(*) المقصود بالمذكرة المشتركة هنا "الإعلان المشترك" أو "الإنذار المشترك". (المترجم)

(**) فى الأصل: "الصفحتين ١٨٢ و١٨٣، وإلى حد ما تصحيحًا لما ورد فى الصفحة ١٦٠". (التحرير)

(***) فى الأصل: "ورد فى الصفحة رقم ١٩". (التحرير)

(****) فى الأصل: "على الصفحة رقم ٣٥". (التحرير)

التى تم التوصل إليها مع تركيا، والمعاهدة أو الاتفاق السرى الذى أبرم مع روسيا. هذا الخلط أبرزه السيد لوسى Lucy فى جريدة الوستمنستر Westminister.

٣- أوردنا أيضا القراءة الخاطئة لنص رسالة من رسائل جلادستون Gladstone، والتى [فى الطبعة الأولى](*) أوليناها اهتماما خاصًا. وقد أورد أحد النقاد القراءة الصحيحة فى جريدة "أخبار لندن المصورة" Illustrated London News.

٤- وأوردنا أيضا الشكوى التى أثيرت فى جريدة "التايمز" من قبل السير إدوارد ماليت Edward Malet والتى مفادها أن مسألة صعوده إلى ظهر الباخرة فى الإسكندرية فى شهر يونية من عام ١٨٨٢ أسيء استخدامها. المؤلف يرى أن هذه الشكوى تافهة، وأن ذلك يرجع أصلاً للفهم الخاطئ لمعنى النص الوارد [فى الطبعة الأولى](**). لكن نظرًا لأن هذه الشكوى تمثل سابقة من سوابق الهجوم العام من قبل جريدة "التايمز" على المؤلف فقد جرى إدراج هذه الشكوى ضمن الملاحق.

والمؤلف يأسف لوقوع أى خطأ من الأخطاء فى هذا الكتاب، ويشكر أولئك الذين نبهوه ومكنوه من إجراء التصحيح المطلوب، ويرجو قبول اعتذاره فى المواقع التى تجيز مثل هذا الاعتذار. ومع ذلك، يرى المؤلف أن يهنئ نفسه، على قيامه بهذا العمل التاريخى بالغ التعقيد، الذى لم يتطلب سوى قلة قليلة من التصحيح. ومن منطلق الدقة العامة المتوخاة فى هذه الرواية التاريخية فإن الكثير من بياناتها الكثيرة المهمة التى نشرت متعارضة مع النص الرسمى للأحداث، لم يقابل سوى القليل جدًا منها بالرفض أو الاستنكار الرسمى.

(*) فى الأصل: "وردت فى الصفحة رقم ٥٥٩". (التحرير)

(**) فى الأصل: "فى الصفحة رقم ٣٢٧". (التحرير)

سيجد القارئ مادة جيدة تؤيد هذه الرواية وتدعمها، وتتمثل فى الرسالة التى كتبها اللواء السير وليام بتلر Butler، الذى خدم فى مصر ضمن هيئة اللورد ولسلى Wolsley؛ هذه الرسالة لم تنشر وهى مؤرخة بشهر يوليو من عام ١٩٠٤، وهى من المرحوم الشيخ محمد عبده، والتى تعد مجسدة لآخر آرائه فى الإصلاح الدستورى؛ ومؤلف الكتاب يوصى أولئك المسئولين الفعليين عن السياسة الإنجليزية فى القاهرة بالاطلاع على هذه الرسالة؛ كما يوصى هؤلاء المسئولين أيضًا بالاطلاع على الرواية التى وصلت المؤلف من السير ريڤرز ولسون Rivers Wilson عن المهام التى كان مكلفًا بها فى مصر فى عامى ١٨٧٨ و ١٨٧٩.

رأى المؤلف أن من الصواب إضافة الرسائل التى تبادلها معه السيد فريدريك هاريسون Frederic Harrison، التى جرى فيها تناول مسألة حساسية نشر المؤرخين للرسائل والحوارات التى تدور حول الأمور العامة، والتى كانت تعد "محظورة" Confidential فى ذلك الوقت، فى ظل النزوع إلى المراء والنفاق فى كل من البرلمان والصحافة. ويرى المؤلف أن نشر هذه الرسائل هنا، فى ضوء موافقة السيد هاريسون، يمكن أن يلفت الأنظار إلى عيب فى حياتنا العامة يحتاج إلى العلاج والإصلاح.

أخيرًا، قد يكون من المهم أن يعرف القارئ لهذه الذكريات أن هناك مجلدين آخرين اكتملا خلال هذا العام، وهما يتناولان أيضًا مسألة الاحتلال الإنجليزى لمصر من خلال آخر التطورات التى وصل إليها ذلك الاحتلال. وسوف ينشر هذان المجلدان فى الوقت المناسب، لكن لن يتم ذلك قبل وقت طويل .

نيوبلدنجز بليس، سسكس

نوفمبر ١٩٠٧.

فاتحة عام ١٨٩٥

أود أن أسجل فى شكل واضح وملموس تلك الأحداث المتعلقة بأصل الاحتلال الإنجليزى لمصر – هذا ليس بالضرورة حبًّا فى النشر، وإنما هو وثيقة من وثائق التاريخ في الزمن الحاضر. فى لحظة من اللحظات لعبت أنا فى هذه الأحداث دورًا رئيسيا وبارزًا ، وعلى امتداد ما يقرب من عشرين عامًا كنت مشاهدًا مهمًّا للدراما التى يجرى تمثيلها على مسرح القاهرة.

ربما أيضًا تعيد المسألة المصرية، الهادئة تمامًا فى الوقت الراهن، تأكيد كيانها فجأة من الآن فصاعدًا وعلى نحو عاجل، يحتم على الإنجليز دراسة وضعهم من جديد فى مصر، من الناحيتين السياسية والأخلاقية؛ ولذلك رأيت أن أسجل كل ما لدى من مادة حول هذا الأمر، وأفيد من هذه المادة فى تنوير الإنجليز. سوف أقدم هذه المادة واضحة قدر المستطاع، مضافًا إليها الوثائق التى من قبيل الرسائل واليوميات المتاحة لى، وأضع ذلك كله جنبًا إلى جنب مع بياناتى ودلائلى، على ألا أستر شيئًا أو أخفيه وأقول الحقيقة كما أعرفها أنا. نحن لا نقرأ دومًا فى الوثائق الرسمية حقائق التاريخ الحقة؛ وفيما يتعلق بمصر بصورة خاصة، كانت الدسائس بكل أشكالها وفيرة وذائعة إلى حد أن الطالب أو الباحث المخلص يحتاج منا أن نقدم له يد العون والمساعدة حتى يتمكن من فهم الأوراق البرلمانية المنشورة.

أخيرًا، إذا ما استطاع المصريون إثبات وجودهم كأمة مستقلة فإن ذلك ستكون له قيمته فى تقديم الدليل لإنسان هم يعرفون أنه صديقهم المخلص فيما يتعلق بالمسائل الدبلوماسية الغامضة التى فشلوا إلى يومنا هذا فى إدراكها. وإذا ما أراد المصريون الوقوف على الأسباب الحقيقية والدقيقة التى أدت إلى قصف الإسكندرية بالقنابل والتى أدت إلى معركة التل الكبير، فما عليهم إلا أن يرجعوا

إلى التفاصيل الدقيقة لعلاقاتى مع "داوننج ستريت" (مجلس الـــوزراء البريطـــانى) عام ١٨٨٢ الميلادى؛ فى حين يحتم علىّ الإنصاف والعدل أن أكون منصفًا لقائـــد "تمردهم" Rebellion الوطنى ، وأن أقدم رواية مفصلة للمحاولة التـــى قـــام بهـــا عرابى، التى لا تزال بعض العقول المصرية والفرنسية ترى أنها كانت عبارة عن كوميديا سابقة التجهيز والإعداد لستر أحد الخونة. لا يكفى أن تكون الحقيقة وحدها معتمدة على نفسها فى طمس الأكاذيب، فالتاريخ حافل بالافتراء وتشويه الـــسمعة، مما بقى بلا تفنيد، والتاريخ عامر أيضًا بنكران الجميل الذى مارســـته الأمـــم مـــع أجدر أبنائها.

الشيخ عبيد، مصر

١٨٩٥ م

مقدمة عن النشر

يبدو أن الأحداث التى وقعت، بعد أن كتبت مقدمة مخطوطتى قبل اثنى عشر عامًا، تشير إلى أن اللحظة الاستباقية كانت قد حلت وأن من مصلحة الجمهور، ودون إخلال بالجهد الكبير المبذول، معرفة الحقيقة وإذاعتها للعالم كله.

كانت المخطوطة الأصلية للكتاب قد اكتملت فى عام ١٩٠٤ وجرت مراجعتها مراجعة دقيقة، وجرى أيضًا إعادة ترتيب القسم المصرى من هذه المخطوطة في ظل ظروف أضافت الكثير إلى القيمة التاريخية لذلك القسم. كان الشيخ محمد عبده، صديقى المصرى القديم، قد اتخذ لنفسه سكنًا بالقرب من مسكنى في الشيخ عبيد(*) Sheykh Obeyd، الأمر الذى جعلنى على اتصال يومى بذلك الرجل، وتلك كانت فرصة ثمينة لم أدعها تضيع منى فاغتنمتها إلى أبعد حد ممكن. هذا الفيلسوف العظيم والوطنى الكبير - الذى رحل عنا إذ لقى الرجل ربه في اليوم الحادى عشر من شهر يوليو من عام ١٩٠٥ فى مدينة الإسكندرية ، وكان ذلك اليوم يصادف الذكرى الثالثة والعشرين لقصف تلك المدينة بالقنابل - مع التقلبات الكثيرة الصالحة والطالحة، كان قد وصل فى مصر إلى منصب المفتى فى عام ١٨٩٩، وبذلك يكون قد أصبح صاحب نفوذ كبير عند إخوانه المواطنين، وآلى الرجل على نفسه إعطاء هؤلاء المواطنين صورة صادقة للأحداث فى زمنه، هذه الأحداث التى أساء الناس فهمها عن جهل، وغلفوها بأساطير وهمية غير حقيقية.

كان الرجل يتكلم معى عن هذا الموضوع، وهو يشعر بالندم والأسف لضيق الوقت اللازم لإكمال هذه المهمة التاريخية، وعندما حدثته عن مذكراتى، راح يحثنى حثًا شديدًا على نشرها، وإذا لم يتيسر ذلك باللغة الإنجليزية فليكن بالعربية

(*) فى منطقة السطرية الحالية. (المراجع)

وبعون منه فى أضعف الأحوال، وتعهد الشيخ محمد عبده بتصفح تلك المـــذكرات معى، والتأكد من أن القسم المتصل بالأمور التى فى إطار معرفته جرى الوفاء بـــه وفاء دقيقًا ومكتملاً. كنت أنا والشيخ محمد عبده صـــديقين شخـــصيين، وحليفـــين سياسيين منذ أول زيارة قمت بها إلى مصر، ونظرًا لأن حديقتـــه كانـــت تجـــاور حديقتى، كان من السهل علينا العمل سويًا، ومراجعة ذكرياتنا عن الرجال والأشياء التى عرفناها. وبهذه الطريقة، بدأ يتشكل تأريخى لتلك الحقبة البـــارزة لنـــا نحـــن الاثنين، ومن يمن الطالع أن تمكنت من إنهاء ذلك التاريخ وحظيت بموافقة الرجـــل عليه وموافقته أيضًا على نشره، قبل أن يقفل الموت المفاجئ وإلى الأبد، فى وجهى ذلك المصدر الرئيسى من مصادر المعرفة، وبخاصة ما يتعلق بالحراك الـــسياسى الذى أدى إلى ثورة عام ١٨٨١، والدسائس التى شوهت سمعة تلك الثورة فى العام التالى .

جاءت وفاة المفتى لطمة قاسية لى ولمصر؛ الأمر الذى أدى إلى تأجيل نشر الكتاب باللغة العربية إلى أجل غير مسمى، ولم يكن الوقت مناسبًا إلى العام الحالى لنشر الكتاب باللغة الإنجليزية لأن الجو السياسى غير مناسب لذلك. فقد أدت أحداث عام ١٩٠٦، وكذلك ابتعاد اللورد كرومر عن المشهد المصرى إلى تغيير الموقـــف تغييرًا كاملاً، الأمر الذى جعلنى لا أؤخر نشر الكتاب أكثر من ذلك، وذلك من باب واجبى تجاه بنى وطنى فى أضعف الأحوال. نحن الإنجليز نواجه حاليًا فى تعاملنـــا مع مصر المشكلات نفسها التى أسأنا فهمها، وأخطأنا خطأ جسيمًا وفادحًـــا علـــى امتداد جيل مضى، وإذا ما قدر لهؤلاء، الذين ورد ذكرهم فى المقدمة، "أن يعيـــدوا النظر فى وضعهم هناك، من الناحيتين السياسية والأخلاقية" وبطريقـــة نزيهـــة أو مفيدة، فإنهم سيجدون أنهم كان يتحتم عليهم أن يضعوا الماضـــى نـــصب أعيـــنهم بالشكل الذى كان عليه وليس بالشكل الذى قُدِّم لهم عن طريـــق الوثـــائق المليئـــة بالأخطاء والخداع فى كتبهم الرسمية الزرقاء. ولن أكون مخطئًا إذا ما أكدت أنه لا اللورد كرومر فى القاهرة، أو السير إدوارد جراى Edward Grey فى إنجلترا، ولا

حتى السير إلدون جورست Eldon Gorst الذى جاء بعد اللـورد كرومـر، كـانوا يعرفون معرفة دقيقة ذلك الذى حدث فى مصر قبل خمسة وعشرين عامًا – هـذا على الرغم من اعتراف اللورد كرومر مؤخرًا بحركة الإصلاح التى بدأت فى عام ١٨٨١ وتكرار تأبينه للشيخ محمد عبده مثلما حدث فى تقريره الـسنوى الأخيـر. يجب ألا يغيب عنا أن اللورد كرومر لم يكن فى القاهرة طوال فترة الثورة المشار إليها هنا ، وإلى وقت قريب جدًا كان الرجل يفترض دومًا أن "الحقيقـة الرسـمية" بشأن هذه الثورة هى الحقيقة الوحيدة .

لهذا السبب قررت أخيرًا نشر الكتاب، أى نشرت مذكراتى بالصورة التـى كانت عليها عندما أكملتها فى شهر يناير من عام ١٩٠٥، وهو النص نفسه الـذى مهره صديقى بتوقيعه إشارة إلى موافقته عليه، وقد استبعدت مـن الـنص بعـض المقتطفات الموجزة التى رأيت أنها لا تزال شخصية وحساسة بعض الشيء عنـد بعض الأحياء من البشر، والتى لا تؤثر على اكتمال القيمة التاريخية للكتاب. وأنـا أقول بأمانة إن كل ما كتبته الهدف الرئيسى منه هو كشف الحقيقة كما تبدت لى فى ثنايا التاريخ المُضلِّل.

وإذا كان هناك سبب ثان يخصنى، فإنه يجب أن يتمثل فى البر بالوعد الذى قطعته على نفسى على الملأ، منذ زمن طويل فى عدد شهر سـبتمبر مـن عـام ١٨٨٢ فى مجلة "مراجعة القرن التاسع عشر" Nineteenth Century Review، بأن أكمل فى يوم من الأيام دفاعى Apologia الشخصى عن الأحداث المعاصـرة فـى تلك الأيام. فى ذلك الوقت ومـن بـاب الاحتـرام والتقـدير للـسيد جلادسـتون Gladstone، ومن باب التطلع إلى قيامه بإصلاح الخطأ الذى ارتكبه بحق الحريـة فى مصر، تذرعت بالصبر، على كثير من الطعن والقدح والذم، لكى أُبرّئ نفـسى عن طريق الكشف الكامل للظروف المخبأة أو المستورة التى كانت مبررى الوحيد. ولم يكن بوسعى تبرئة نفسى تمامًا دون سرد الحقائق التى كانت تعد محظورة مـن الناحية الفنية، وقررت التزام الصمت.

مع ذلك، نجد أن التحفظ له حدود أيضا عند الشخصيات العامة فى الأمور العامة، وأنا واثق أن امتناعى عن الكلام طيلة ربع قرن سوف يعفينى ويلتمس لى الأعذار عند أصحاب العقول القادرة على النقد، إذا ما قمت الآن، وفى نهاية المطاف، بتوضيح موقفى تماما بالطريقة الوحيدة المتيسرة لى، وهى بالتحديد، العرض الكامل والمفصل لدراما المكيدة المالية، والضعف السياسى كما تبدى لى فى ذلك الوقت، مُدَعِّمًا ذلك بالوثائق المعاصرة التى لا تزال فى حوزتى إلى الآن. وأنا عندما أستثير حساسيات بعض أصحاب المناصب الكبيرة بفعل رواية من الروايات، أجدنى أرد على نفسى أن الضرورة هى التى حتمت علىَّ ذلك، جراء افتقار هؤلاء الأشخاص إلى الصدق والجود والكرم. طوال هذه السنوات كلها لم يقل أحد من هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون الحقيقة كلمة واحدة فى صالحى أو نيابة عنى . ويكفينى هنا أن أورد ما يقوله الشاعر رالى Raleigh:

اذهبى أيتها الروح.. يا ضيفة الجسد

فى مهمة من مهام الجحود

لا تخشى لمس الأفضل

ستكون الحقيقة ضمانك

ثم ارحلى لأنك لا بد أن تموتى

وتعطى الدنيا الكذب

ولفريد سكاون بلنت

نيوبلدنجز بليس، سسكس

أبريل ١٩٠٧.

المذكرات المصرية

الفصـــــل الأول

مصر تحت حكم إسماعيل

جاءت أول زيارة لى لمصر شتاء عام ١٨٧٥ – ١٨٧٦ وقد أمضيت فيها بضعة أشهر جميلة فى الوجه البحرى. ومع ذلك، وقبل أن أصف انطباعاتى عن بدايات تعرفى الشعب المصرى، قد يكون مفيدًا للمصريين وللقارئ الأجنبى بصفة عامة، أن أقول ولو بضع كلمات قليلة مستهدفًا بها توضيح الحال التى كنت عليها، ومدى العلاقة بين تلك الحال والشئون العامة. هذه الكلمات القليلة سوف توضح لهؤلاء وهؤلاء وضعى المضبوط والدقيق فى بلادى، كما ستوضح لهم كيف أنى تحولت تحولاً متدرجًا من مجرد متفرج على ما يدور فى بلادهم إلى شخص يهتم بهذه البلاد اهتمامًا سياسيًا، وكيف انتهى ذلك الاهتمام إلى لعب دور فاعل فى الثورة التى فجرت نفسها بين هؤلاء الناس بعد ذلك بست سنوات. كنت قد بلغت من العمر خمسة وثلاثين عامًا فى تلك الزيارة الأولى، كما شاهدت أيضًا الكثير من الرجال والأشياء.

بدأت حياتى فى وقت مبكر إلى حد ما. لما كنت من أسرة من صفوة مـــلاك الأراضى والأطيان فى جنوب إنجلترا، ولما كانت هذه الأســـرة صـــاحبة تقاليـــد محافظة عتيدة ولها بعض الارتباطات ببعض زعماء حزب المحافظين، فقد بـــدأت عملى فى السلك الدبلوماسى وأنا فى سن الثامنة عشرة، إذ كنت فى البداية ملحقًـــا فى السفارة البريطانية فى أثينا، يوم أن كان الملك أوتو Otho جالسًا علـــى عـــرش اليونان، وبعد ذلك، ولمدة اثنى عشر عامًا، كنت عضوًا فى الـــسفارات الأخـــرى والمفوضيات الأخرى أيضًا لدى كثير من الهيئات الأوروبية، التى تعلمـــت القليـــل منها فى مهنتى، وكنت أسلِّى نفسى وأعقد صداقات. وخلال الفترة ما بـــين ١٨٥٩ و١٨٦٩، أمضيت بضعة أسابيع فى إسطنبول فى أثناء حكم السلطان عبد المجيـــد؛ وأمضيت عامين فى ألمانيا فى زمن الاتحاد الألمانى، وأمضيت عامًا فى إسبانيا فى زمن الملكة إيزابيلا Isabella؛ وأمضيت عامًا آخر فى بـــاريس فـــى ظـــل نفـــوذ الإمبراطور نابليون الثالث؛ وأمضيت فترة قـــصيرة فـــى كـــل مـــن الجمهوريـــة

السويسرية، وأمريكا الجنوبية، والبرتغال. وفى كل مكان ذهبت إليه كانت ذكرياتى الدبلوماسية مرضية ولا بأس بها، لكن هذه الذكريات كانت خلوًا من أية مصلحة سياسية أو أهمية رسمية من أى نوع كان.

كانت دبلوماسيتنا الإنجليزية فى تلك الأيام، أى فى السنوات التى أعقبت حرب القرم Crimean War التى أثارت امتعاض الإنجليز أصحاب المغامرات الأجنبية، مختلفة تمامًا عما هى عليه الآن. كان من الضرورى لدبلوماسيتنا فى ذلك الوقت أن تتسم بالهدوء، والمهادنة وتخلو من تلك الفروق التى أكسبت هذه الدبلوماسية سمعة الدهاء والفطنة على حساب أمانتها وصدقها. بدأ الحماس للخدمة الرسمية يتناقص فى مجال الخدمة العامة، ولم يكن هناك فى وزارة الخارجية أبشع من التشكيك فى مصداقية أى دبلوماسى من الدبلوماسيين الشبان، إذا ما حاول أى أحد منهم إثارة أية مسألة من المسائل الجديدة على نحو يتطلب استجابة شعبية، مهما كانت مثل هذه المسألة جديرة بالاستحسان. نحن الملحقين ومعنا أيضًا السكرتيريون الأصغر أجبرونا تمامًا وبصورة واضحة على تفهم ذلك ووعيه، ولم يكن بوسعنا أو من سلطتنا التدخل فى شئون الهيئات المعتمدين لديها، وكان المطلوب منا هو أن نجعل لأنفسنا قبولاً اجتماعيًا، وأن نسلّى أنفسنا، وأن يكون ذلك بطريقة مهذبة قدر المستطاع، لكن لا بد أن يكون ذلك على العكس من أى معنى أو مغزى حقيقى. ولن أكون مبالغًا إذا ما أكدت الحقيقة التى مفادها، أنى لم أكلف، طوال الاثنى عشر عامًا التى أمضيتها فى الحياة الدبلوماسية، بتنفيذ أدنى مهمة من المهام ذات الأهمية المهنية والحرفية. هذا العهد، الذى كان يثبّط العزائم ويبرّد الهمم، يوم أن كنت فى الخدمة، ولّد فىّ كراهية السياسة، وظللت على هذا المنوال لزمن طويل بعد ذلك، وفى ظل ظروف شديدة الاختلاف، وأحوال طارئة تمامًا مما جعلنى أدير ظهرى تمامًا للسياسة فى نهاية المطاف. كانت اهتماماتى، يوم أن كنت ملحقًا، تنصب على المتعة، والتواصل الاجتماعى، والأدب. كتبت الشعر، لكنى لم أكتب رسائل أو بيانات، وعلى الرغم من تعاونى الدبلوماسى فى إحدى الدراسات الجدية فى أوروبا فى تلك الأيام، فإن هذا التعاون كان بصفتى متفرجًا ولست ممثلاً، تعاون شخص لم يسمح له مطلقًا بالدخول إلى ما وراء

المشاهد والسُتر. وعندما تزوجت عام ١٨٦٩، وبعد أن توفى شقيقى الأكبر، الأمر الذى جعلنى وارثًا لضياع أسرتى فى سسكس Sussex، تقاعدت من الخدمة غير نادم عليها، ورحت أركز اهتمامى على أمورى الخاصة التى كانت تسعدنى وتهمنى دومًا.

وعلى الرغم من أن علاقاتى الباكرة مع وزارة الخارجية، تلك التى لم تجدد مطلقًا على المستوى الرسمى، فإن هذه الصلات بقيت على مستوى الصداقة، صلات رجل تقاعد تقاعدًا مشرفًا من الخدمة فى وزارة الخارجية؛ هذه الصلات هى والخبرة التى اكتسبتها من الهيئات والعواصم الخارجية ثبتت أهميتها فيما بعد عندما وجدت نفسى ملقى بمحض المصادفة فى نهر الشئون الدولية. هذا يعنى أنى وجدت نفسى منذ مطلع حياتى فى صحبة رسمية مع اللورد كُرِّى Currie، الذى ظل طوال سنوات عدة، يدير السياسة المستديمة فى وزارة الخارجية، ومعه كل من السير هنرى دروموند ولف Henry Drummond Wolf ، والسير فرانك لاسيلز Frank Lascelles، والسير إدوارد ماليت Malet، واللورد دوفرين Dufferin واللورد فيفيان Vivian، والسير رفرز ولسون Rivers Wilson ، وهؤلاء كلهم لهم صلة وثيقة فيما بعد بصناعة التاريخ المصرى، وذلك بالتعاون مع اللورد ليتون Lyton، الذى تقرر له أن يكون نائبًا للحاكم على الهند فى السنوات القريبة التى سبقت أزمة عام ١٨٨١، ومن بين الدبلوماسيين الأجانب السيد م . دى. نيليدوف Neilidoff، السفير الروسى فى إسطنبول، والسيد بارون هيميرلى Baron Haymerly، الذى وافته المنية وهو رئيس لوزراء الإمبراطورية النمساوية، والسيد م. دى. إستال Staal، الذى عمل مدة عشرين عامًا سفير روسيا لدى لندن. كنت على صداقة حميمة مع كل هؤلاء قبل قيامى بزيارتى الأولى لمصر، ومعرفتى الكاملة لشخصيات هؤلاء الأفراد هى التى تجعلنى قادرًا على الحديث عنهم والحكم عليهم. ونظرًا لأنى، ربما كنت، واحدًا من ذلك الكهنوت، فلم تنطل علىَّ تلك المداهنات أو النفاق الذى يعد بضاعة رائجة فى سوق الدبلوماسية، ولم تنطل علىَّ أيضًا أخطاء العمل السياسى العام التى تكون شخصية فى معظم الأحيان. هؤلاء الذين يفتقرون إلى الخبرة والتجربة الدبلوماسية، يعتقدون اعتقادًا

جازمًا أن الأحداث الكبرى فى التاريخ العالمى إنما هى نتاج لتصميم سياسى محكم، وأن هذه الأحداث، فى معظم الأحوال، لا تعتمد على الأحداث الخفية، وعلى القوة أو الضعف الشخصى، بل وعلى النزوات الشخصية، فى بعض الأحيان، للعوامل الداخلة فى هذه الأحداث.

شغلت نفسى تمامًا طوال سنوات تقاعدى الأولى بشئونى المنزلية، وكما سبق أن قلت، فإن ذهنى تحول إلى السياسية تدريجيًا بمحض الصدفة. فى عام ١٨٧٣، وعندما وجدتنى بحال صحى طيب، وهربًا من أواخر فصل الربيع فى إنجلترا، قمت أنا وزوجتى بأول رحلة مشتركة إلى بلاد الشرق. سافرنا عن طريق بلجراد والدانوب إلى إسطنبول، التى التقينا فيها السير هنرى إليوت Henry Elliott فى السفارة، وجددنا تعارفنا على بعض الأصدقاء الآخرين الذين لهم صلة بالسفارة، وكان من بينهم الدكتور ديكسون Dickson، الذى سوف يتحتم علىَّ الحديث عنه فى مرحلة لاحقة، وبخاصة فيما يتصل بالوفاة المأساوية للسلطان عبد العزيز، والذى شملنى بعطفه الكبير فى أثناء إصابتى بنوبة الالتهاب الرئوى التى ألمت بى فى إسطنبول، والذى سجلت له خالص شكرى وتقديرى. كانت الإمبراطورية العثمانية، فى ذلك الوقت، تنعم بفترة من الهدوء النسبى، قبل عاصفة الحرب التى سرعان ما هبت عليها، ولم أشغل نفسى كثيرًا بالغليان الداخلى الذى كان يدور داخل الإمبراطورية العثمانية، لكن مشاعرى، بالشكل التى كانت عليه فى تلك الأيام، كانت هى نفس مشاعر أولئك الإنجليز فى تلك الأيام، إذ كانت تميل إلى الأتراك وليس المسيحيين فى الإمبراطورية. وعندما شفيت من مرضى، اشتريت اثنى عشر حصانًا من أحصنة حمل الأمتعة فى أثناء السفر، اشتريتها من التميدان At-Maidan، أو إن شئت فقل: سوق الخيل فى إسطنبول، وأخذنا هذه الخيول وعبرنا إلى أن وصلنا إلى سكوتارى Scutari، التى أمضينا فيها ستة أسابيع صيفية جميلة تجولنا خلالها فى التلال، وخلال حقول زهور الخشخاش فى آسيا الصغرى، مبتعدين فى ذلك عن المدقات (الطرق) المطروقة، ومتمتعين بالاطلاع على القسم الأكبر من حياة الفلاحين الأتراك، بالقدر الذى يسمح به جهلنا الكامل بلغة هؤلاء الفلاحين. تأثرنا، مثل سائر الرحالة الآخرين، بالطيبة الحقيقية لهؤلاء

الفلاحين، كما تأثرنا أيضا بسوء حكومتهم. حكمنا على فساد الحكومة من واقع ما وقفنا عليه من ألاعيب وأساليب المجموعات الشرطية، أو الحرس شبه العسكرى المرافق لنا، الذين كانوا يتعاملون مع هؤلاء الفلاحين معاملة الجنود الذين يكونون فى بلد جرى غزوه والاستيلاء عليه. ومع ذلك، كان واضحا أن هناك، فى ظل هذا القمع المالى، قدرًا كبيرًا من الحرية الشخصية للفقراء فى الريف التركى، وهذا لا يمكن مقارنته بالشرطة الإنجليزية أو قضاة الصلح أو القضاة المحليين الذين يوجدون فى سائر أنحاء إنجلترا. الواقع أن الشبكة الإدارية، فى سائر أنحاء الشرق كله، فيها فتحات واسعة وشقوق متعددة لا تتهيأ معها فرص الهرب سوى للأسماك الكبيرة. فى الأوقات المعتادة لا تجرى مطاردة المتمردين. أذكر أنى قلت لبعض الفلاحين، الذين اشتكوا لى من خلال الترجمان الأرمينى، من المصاعب التى يلقونها فى حيواتيم على أيدى الحكومة، إن هناك بعض البلدان، لا تزال محنتها وورطتها أشد من محنتهم وأسوأ منها؛ وإنه إذا ما قام رجل فى تلك البلدان، بالنوم على جانب الطريق فى أثناء الليل، وجمع شيئًا من الحطب ليطبخ لنفسه وجبة، فإنه يخاطر بإلقاء القبض عليه فى صبيحة اليوم التالى وإحضاره أمام القاضى المحلى ثم يجرى الزج به فى السجن؛ وأذكر أيضًا أن من كانوا يستمعون إلىَّ لم يصدقوا ذلك الذى حكيته لهم، أو وجود مثل هذا النوع من الاستبداد والتعسف فى أى مكان من العالم. ويعد استدلالى من هذا الحادث بمثابة أول تأمل سياسى أقوم به فيما يتعلق بأمور الشرق.

فى فصل الشتاء التالى، أو بالأحرى الأشهر الأولى عام ١٨٧٤ أمضيناها فى الجزائر. فى الجزائر شهدنا أيضًا على منظر آخر أذكى فينا فكرة مفادها : أن شعبًا شرقيًّا يخضع خضوعًا مهينًا لآخر غربى. حيث إن الحرب التى كانت فرنسا مشتبكة فيها مع ألمانيا أعقبتها انتفاضة عربية فى الجزائر، بل إن هذه الانتفاضة انتشرت ووصل مداها إلى الحدود الخارجية للجزائر، وبدأ المواطنون المسلمون يلاقون أشد أنواع الضيق والصرامة بسبب القمع والقهر المسيحى. ووصل الحال إلى ما هو أسوأ من ذلك فى المناطق المستقرة، أو إن شئت فقل: المأهولة، أو المناطق المُستَعْمرة، التى كانت الإدارة المدنية فيها تستغل مسألة التمرد لمصادرة

الممتلكات الوطنية بكل الصور والأساليب الممكنة لصالح المستعمرين الأوروبيين ومحاباتهم على حساب المواطن الأصلي. وعلى الرغم من حبى الشديد للفرنسيين (إذ كنت فى باريس فى أثناء الحرب، وكنت من المتحمسين للدفاع عنها يوم أن كانت محاصرة) وجدت مشاعرى فى الجزائر تتجه كلها ناحية العرب.

فى الصحراء الكبرى، فيما بعد جبال أطلس حيث يسود الحكم العسكرى، كانت الأمور أفضل إلى حد ما، والسبب فى ذلك أن الضباط الفرنسيين، فى أغلب الأحوال، كانوا يقدرون صفات النبل العربية ويثمنونها، ويحتقرون الشرور والسفالة الأوروبية المختلطة - شرور وسفالة إسبانية، وإيطالية، ومالطية - فضلاً أيضًا عن احتقارهم لإخوانهم المواطنين الذين كانوا يشكلون "المستعمرة" Collonie. كانت قبائل الصحراء الكبرى حتى ذلك الوقت ميسورة الحال من الناحية المادية، كما كانت تحتفظ أيضًا بقدر كبير من فخرها وكبريائها باستقلالها القديم، الذى لم يجد القادة العسكريون بدًا من احترامه وتقديره.

ألقينا نظرات خاطفة على بعض من هؤلاء البدو الرُحّل فى جبل آمور Jebel Amour، ووقفنا أيضًا على أسلوب حياتهم المفعم بالحيوية والنشاط، وهذا الذى شاهدناه سرَّنا وشرح صدورنا. استمعنا إلى أغانى هؤلاء البدو الرحل، وهم يؤبنون بطلهم الضائع عبد القادر الجزائرى، وعلى الرغم من أننا لم نفهمهم فى كثير من النقاط بسبب جهلنا لغتهم فإننا أُعْجبنا بهم وتعاطفنا معهم. والتناقض بين حياة هؤلاء البدو الرُحّل الرعوية النبيلة من ناحية، ومعهم قطعانهم من الإبل والخيول، وما بها من موروث راقٍ عامر بذكريات الأعمال البطولية، وبين دناءة المستوطنين الفرنجة الحقيرة، ومعهم خماراتهم وخنازيرهم من الناحية الأخرى، لم يفت علينا، ولم يفشل أيضًا فى أن يثير فى داخلنا إحساسًا بالغضب من ذلك التضارب والتنافر الذى جعل من المستوطنين الفرنجة سادة للأرض وملاكًا لها، وجعل من أصحاب الأرض الحقيقيين خدمًا لهؤلاء الفرنجة. لقد كان درسًا سياسيًّا جديدًا حفظته عن ظهر قلب، على الرغم من أنى لا أزال أعتبر ذلك مسألة شخصية تخصنى أنا.

هكذا كان تدريب حياتى المبدئى، وهكذا كانت ظروف هذه الحيـــاة، عنـــدما زرت، كما سبق أن قلت، مصر لأول مرة فى شتاء عام ١٨٧٥ – ١٨٧٦. الأمـــر الآخر الذى ربما أحتاج الإشارة إليه هنا ولو ببضع كلمات ومـــن قبيـــل توضـــيح الأمور للقارئ غير الإنجليزى، وهو أمر أيضًا سَوِىُّ يحظى فى أوروبا بكل الشكر والتقدير – هو الحقيقة التى مفادها أن زوجتى السيدة آن Anne بلنت، التى رافقتـــى فى تلك الرحلات، هى حفيدة شاعرنا الوطنى العظيم، اللورد بـــايرون، ومـــن ثـــم ورثت، بشكل أو بآخر، بعضنا من مشاعر التعاطف مع قضية الحرية فى الـــشرق East، وهذه المشاعر كان لها هى الأخرى تأثيرها على عملنا فيما بعد. وبدا لنـــا، فى ظل أحداث عام ١٨٨١ – ١٨٨٢، أن مسألة تزعُّم قضية الحرية العربية يمكن أن تكون محاولة جديرة بالاهتمام مثل المحاولة التى مات اللورد بـــايرون Byron بسببها عام ١٨٢٧. ومع ذلك، وإلى عام ١٨٧٥ لم تدر بخلد أى منا فكرة زيـــارة مصر أكثر من مجرد كونها مجرد مغامرة ترحالية سارة فى بلاد شرقية. ونحـــن عندما غادرنا إنجلترا كانت خطتنا ترمى إلى دخول مصر من الناحية الجنوبية عن طريق سواكن Suwakim، وكسلا Kassala، والنيل الأزرق، على أن نشق طريقنـــا متجهين شمالاً إلى القاهرة فى فصل الربيع، لكن هذه الخطة، لم تتحقـــق مطلقًـــا، بسبب المشكلة التعيسة التى حلت بمصر، بسبب الحملة الحبشية، وإن القسم الوحيـــد الذى تحقق من هذه الخطة هو أنه بدلاً من النزول فـــى الإســـكندرية، باعتبارهـــا الجمرك الرئيسى فى ذلك الوقت، واصلنا ترحالنا عن طريق الترعة إلى السويس، التى وضعنا فيها أقدامنا على أرض مصر للمرة الأولى.

كان أول انطباع لى عن مصر كلها آنذاك يتمثل فى آخر يوم من أيام عـــام ١٨٧٥ خلال بحيرة المنـــزلة، الـــتى كانت فـــى ذلك الـــوقت موطنًا آمنًا لطيـــور لا تحصى ولا تعد – كان منظرًا عجيبًا من مناظر الحياة الطبيعية الـــسخية – فـــى نقطة على الترعة الواقعة شمال الإسماعيلية. يا له من منظر! كانت بحيرة المنزلة لا تزال إقليمًا بكرًا، حيث قطعان البشروش، والبط، والبجع، وأبـــو قـــردان التـــى تغطى أرضه. كما أن المياه هى الأخرى، مياه البحيرات ومياه الترعة نفسها كانت عامرة بالحياة بفضل الأسماك الكبيرة، إلى حد أن أعدادًا كبيرة من هـــذه الأســـماك

كانت تصطدم بمقدم سفينتنا في أثناء المرور، في حين كان يجرى افتــراس تلــك الأسماك في كل مكان بواسطة صقور الأسماك وطيور الغاق(*)، التي كانت تراقب الساريات وقوارب النجاة الصغيرة. وأنا أتصور أن فتح مياه البحر على أرض لــم يسبق قط تغطيتها بالماء يزود السمك بمنطقة غذائية شديدة الثراء، وقد ضاعت هذه الميزة منذ ذلك الحين. لكن المؤكد أن الطيور والأسماك تناقصت بــشكل محــزن اعتبارًا من ذلك التاريخ، ومن غير المرجح أن يرى أي رحال، ومن الذين سيأتون بعدنا، ذلك المنظر الرائع الذي رأيناه.

نزلنا إلى البر في منطقة السويس مع دخول الأيــام الأولــى عــام ١٨٧٦، وعرفنا أخبار الكارثة التي حلت بالجيش المصري في الحبشة. ولم تكــن تفاصــيل هذه الهزيمة معروفة بشكل عام، لكن يبدو أن سبع أورطات، أو بالأحرى سبع فرق من القوات الخديوية كانت قد لقيت حتفها، في حين كانت هناك رواية ذائعــة عــن أسر الأمير حسن باشا Hassan نجل الخديو، والتمثيل به بواسطة العدو، ولكن هذه الرواية كانت من قبيل المبالغات وجرى تكذيبها بعد ذلك، والــسبب فــي ذلــك أن الأمير كان لا يزال صبيًا في ذلك الحين، وكان قد سبق إبعاده عن ميدان القتال في قوره Kora في ساعة مبكرة من الصباح، عند بداية المعركة، وذلك نقلاً عن راتب Ratib باشا نفسه، القائد العام المصري، والذي كان مسئولاً عن الأمير حسن. أمــا لورنج Lorrnge باشا الأمريكي، فقد لقي حتفه ومعــه آلاف عــدة مــن الــصف والجنود، وأدت هذه النكبة إلى وضع حد لطمــوح إســماعيل باشــا إلــى إنــشاء إمبراطورية عامة على النيل. هذه النكبة أثرت علينا في طريقنا، إذ جعلت مــسألة تفكيرنا في القيام برحلة إلى كسلا أمرًا مستحيلاً، واضطرتنا إلى سلوك طريق أقل خطرًا يقع في الوجه البحري.

على الرغم من ذلك، كنا متشوقين لزيارة مصر بطريقة غير تقليدية عن تلك الطريقة التي يتبعها الزوار العاديون، ونظرًا لأننا كنا نصطحب معنا معدات التخييم لرحلة طويلة، فقد استأجرنا بعض الإبل من السويس وسلكنا طريق القوافل الطويل

(*) الغاق: طائر مائي ضخم نهِم، تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من الأسماك. (المترجم)

القديم إلى القاهرة. وليس من الضرورى هنا الـتكلم كثيـرًا عـن رحلتنـا عبـر الصحراء. كانت الأيام الأربعة التى استغرقتها هذه الرحلة وحدها، ونحن بـصحبة الجمَّالة البدو، بمثابة الدروس العملية فى تعلم اللغة العربية – وفى الجزائر اعتمدنا اعتمادًا تامًا على الترجمان – كما قام هؤلاء الجمَّالة البدو بوضع أسـس علاقتنـا بقبائل صحراء الجزيرة العربية، تلك القبائل التى أصبحت فيما بعـد محببـة إلينـا وحميمة معنا. فى صبيحة اليوم الخامس دخلنا القاهرة، وجرت تحيتنا عند وصولنا إلى العباسية بطنين الدانات والطلقات التى كانت القوات الخديوية تطلقها على سبيل التدريب، والسبب فى ذلك أننا خيمنا بلا وعى أو قصد لقضاء الليل خلف أهـداف ضرب النار، ولكن تصويب المجنديـن كان غير مـحكم، ولم نصبْ بأى ضـرر أو أذى. ولم نفكر ولو للحظة فى ذلك الوقت، فى أهمية ما يفعله هؤلاء الجنود، ولم نفكر أيضًا فى أن مشاعرنا يمكن أن تكون معهم فى يوم من الأيام، عندما يدخلون الحرب ضد إخواننا المواطنين. ومع ذلك – وعلى الرغم من عدم تحمسى لهذا فى ذلك الوقت – كنت من أولئك الذين يؤمنون بقانون الإيمان المـسيحى الإنجليـزى العام، الذى مفاده أن إنجلترا لها مهمة سماوية فى الشرق، وأن حروبنا التى نـشنها هناك إنما تكون لأسباب بريئة ومفيدة، لم يكن غائبًا عن ذهنى سـوى أننـا نحـن الإنجليز يمكن أن نكون مذنبين كأمة، فى مسألة خديعة كبرى للعدالة عندما تتحدى مصالحنا الأنانية وحدها.

لست بحاجة هنا إلى قول أى شىء عن القاهرة التى سرنا خلالها بلا توقف، سوى السؤال عن خطاباتنا ومراسلاتنا فى القنصلية الإنجليزية. كان هدفنا ومبتغانا هو رؤية المناطق الريفية وليس مضيعة الوقت فى مدينة هـى أوروبيـة بعـض الشىء، كما فكرنا فى أن يكون مكان تخييمنا خلف النيل، أو بالأحرى مجاورًا لـه تمامًا. وعليه واصلنا السير . لم نفهم أو نتفهم توسـلات الجمَّالـة إلينـا بـالتوقف والسماح لهم ومعهم جمالهم بالعودة، ولم نفهم أيضًا أننا كنا نظلمهم ونسىء إلـيهم عندما أجبرناهم على كسر القاعدة القبلية التى تمنعهم بحكـم كـونهم بـدوًا مـن الصحراء الشرقية، من عبور الصحراء إلى الغرب. وعلى الرغم مـن توسـلات هؤلاء الجمَّالة البدو واصلنا سيرنا بأن عبرنا كوبرى (جسر) قصر النيل، وسـرنا

فى الطريق المؤدية إلى الجيزة. وهنا بدأت تتراءى لنا أهراماتها، وواصلنا سـيرنا فى اتجاهها بشوق وحنين، ولم نتوقف إلا عند انحسار النهار الـذى داهمنـا عنـد غروب الشمس بالقرب من قرية الطالبية Tolbiya الريفية الصغيرة، تلك القرية قبل الأخيرة قبل وصولنا إلى أهرامات الجيزة. وعند الطالبية توقفنا ونزلنا مـن فـوق إبلنا للمرة الأولى، على أرض النيل السوداء، التى جفت بالفعل من ميـاه فيـضان الخريف.

استقبلنا أهل الطالبية الطيبون، على طريقتهم الريفية الودية، استقبلونا بكل ما وسعهم من الكرم والضيافة. وعلى الرغم من أن هـؤلاء النـاس يعيـشون علـى الطريق السياحى المؤدى إلى أهرامات الجيزة، وعلى الرغم أيضًا مـن اعتيـادهم التعامل مع الرحالة الفرنجة على نحو يجعل منهم فريسة لهم إلى حد ما، فإن حقيقة نزولنا فى قريتهم لقضاء الليل أضفت علينا طابع الضيوف الذى تفهمـوه ووعـوه تمامًا. ولم يحدث أن توقف فى الطالبية أحد من الرحالة الأوروبيين الـذين مـروا عليها طوال سنوات كثيرة؛ لم يحدث أن توقف أحد منهم ولو لفترة قـصيرة أمـام أبواب هذه القرية الريفية. وعليه كانت علاقاتنا ودية بهؤلاء الفلاحين البسطاء منـذ البداية، وقد خدمتنا هذه الوقفة باعتبارها مقدمة إلى سلـسلة مـن العلاقـات مـع القرويين، بعد الأيام القلائل التى أمضيناها بين أهل الطالبية، وعندما واصلنا سيرنا بعد ذلك. لم يكن أمامنا خيار فى ذلك الوقت، سوى البقاء فى المكان الذى كنا فيه، نظرًا لأن البدو الذين كانوا يرافقوننا رفضوا فى الصباح مواصلة السير معنا حتـى ولو لميل واحد فقط، وبعد أن حصلوا على أجورهم رحلوا عنا ومعهم إبلهم. كان لا بد من العثور على إبل أخرى. وعليه أمضيت أسـبوعى الأول فـى مـصر فـى التجوال فى أسواق القرى المجاورة بحثًا عن الإبل وشراء السُرُج اللازمـة لهـا، وشراء قراب الماء وكل المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة .

كان الفلاحون فى ذلك الوقت يعانون معاناة شديدة من شظف العيش والفقر. كان الوقت يصادف العام الأول من الأعوام الثلاثة الأخيرة المخيفة من حكم الخديو إسماعيل؛ كان إسماعيل صديق Sadyk، المفتش سيئ السمعة، فى السلطة فى ذلـك

الوقت، وكان حملة الأسهم الأوروبيون يطالبون "بكوبوناتهم" Coupons، وكانت المجاعة تدق أبواب الفلاحين. وقلَّ في تلك الأيام أن يُرى رجل في حقله وهو يضع عمامة على رأسه، أو أكثر من قميص واحد يستر به جسمه. وفي المناطق المجاورة للقاهرة، وأيضًا في الفيوم التي شددنا إليها الرِّحال مباشرة بعد حصولنا على الإبل، كان الحال هو الحال بلا تغيير أو تبديل.شيوخ الريف أنفسهم لم يكن لديهم الكثير من الملابس، مجرد عباءة يلبسها الواحد منهم. وكان الحال هو نفسه في كل مكان. في بلدان الأقاليم كانت الأيام التي تنصب فيها الأسواق، تعج بالنساء اللاتي كن يبعن ملابسهن ومصاغاتهن الفضية للمرابين اليونانيين نظرًا لأن جباة الضرائب كانوا في القرية وسياطهم في أيديهم. اشترينا منهن صناديقهن الصغيرة، واستمعنا إلى قصصهن، وانضممنا إليهن في لعنهن وقذفهن في حق الحكومة التي كانت تعريهن. لم نكن نفهم، أكثر من هؤلاء الفلاحين أنفسهم، حقيقة الضغوط المالية الأوروبية التي كانت السبب الرئيسي وراء هذه الابتزازات التي لا تعرف الحدود؛ ونحن بدورنا وجهنا مثلهم اللوم إلى إسماعيل باشا، وإلى المفتش إسماعيل صديق، وراح يخامرنا شعور بأن هناك دورًا إنجليزيًا في ذلك اللوم والتبرم.

كان الفلاحون صريحين تمامًا. كان الإنجليز في ذلك الوقت معروفين في سائر أنحاء البلاد الإسلامية، إذ كان الناس ينظرون إليهم على أنهم أبرياء من الكيد والمكائد السياسية التي تحيكها الدول الفرنجية الأخرى، وكان الناس ينظرون إلى الإنجليز باعتبارهم أكثر أمنا ونزاهة من غيرهم في مجال التعاملات التجارية. وفي مصر بصفة خاصة، كان الإنجليز يبدون للمصريين وكأنهم نقيض طيب ولطيف للمغامرين الأفاقين القادمين من ساحل البحر الأبيض المتوسط – الإيطاليين، واليونانيين، والمالطيين، وكلهم من المرابين – والذين كانوا يمتصون دماء الحياة من أجساد الفلاحين المسلمين. كانت هناك بعض الشائعات التي وصلت القرى عن احتمال حدوث تدخل أوروبي؛ وفكرة هذا التدخل، واحتمال أن يكون إنجليزيًا لم تكن غائبة أو غير ذائعة بين الناس. واقع الأمر، أن الأحوال القائمة في ذلك الوقت كانت لا تطاق تمامًا، وكان الشعب الجائع ينظر أو يتطلع إلى أي تغيير من التغييرات على أنه غوث محتمل. كانت إنجلترا تبدو في أعين الفلاحين الشحاذين،

الذين كانوا يَسرقون ويُضرَبون ويموتون من الجوع، وكأنها غوث ودى وثرى، بل وشديدة الثراء ولا مصلحة لها، أى أنها مجرد مُصلح للأخطاء، وصديق للمغلوبين على أمرهم والمطحونين، لا أكثر ولا أقل، في واقع الأمر، وسبب ذلك أن السائحين الإنجليز في ذلك الوقت كانوا على هذا النحو، إذ كانوا يتجولون هنا وهناك بأيدى ممدودة ومعطاءة، كما كانت تعبيراتهم توحى بالتعاطف والمشاركة. هذا يعنى أن هؤلاء الفلاحين المطحونين لم يشكوا في الأنانية التجارية الهائلة، التى دفعتنا كأمة، إلى القيام بكثير من الاعتداءات على الأجناس الضعيفة في العالم .

في عام ١٨٧٦، كنت أنا أيضا، وكما سبق أن أوضحت، من المؤمنين بإنجلترا، وكنت أيضا من أصحاب فكرة أن حكم بريطانيا في الشرق هو من باب الإحسان إليه، ولم يخطر ببالى عن المصريين سوى أنهم ينبغى أن يتقاسموا مع الهند، التى لم أرها بعد، امتياز حمايتنا. كتبت أقول في يومياتى في ذلك الوقت: "المصريون طيبون، وهم أناس أمناء مثل سائر البشر في العالم كله – أعنى بذلك أولئك الذين لا يشغلون مناصب أو مراتب عالية. هذه النوعية من البشر أنا لا أعرف عنها شيئا. لكن الفلاحين لديهم كل الفضائل التى يمكن أن تساعد على تكوين مجتمع سعيد ميسور الحال. هؤلاء الفلاحون مرحون ومجدون ومطيعون للقانون، وهم أولا وقبل كل شىء غير مسرفين، لا في مسألة الشرب وحسب، وإنما في الملذات الأخرى التى تشد إليها الطبيعة البشرية. الفلاحون ليسوا مقامرين، ولا محبين للشجار، كما أنهم ليسوا فسقة؛ إنهم يحبون بيوتهم، وزوجاتهم، وأطفالهم. هم أبناء طيبون، وآباء طيبون، ورحماء بالحيوانات الخرساء، ورحماء أيضا بكبار السن، وبالشحاذين، وبالبُله. الفلاحون لا يتحاملون مطلقا على أى جنس من الأجناس الأخرى، ولا يسيئون أيضا إلى الدين. عيبهم الوحيد هو حب المال، لكن الاقتصاديين السياسيين يصفحون عن مثل هذا العيب عن طيب خاطر... ومن الصعوبة بمكان أن تجد في أى مكان من الأماكن مجموعة من السكان مؤهلة لتحقيق الهدف الاقتصادى الذى ينطوى على إسعاد أكبر عدد من الناس. في مجال السياسة، ليست لهؤلاء الفلاحين مطامح سوى أن يعيشوا ويتركوا الآخرين يعيشون، والسماح لهم بالعمل والاحتفاظ بحصائد أعمالهم، والسماح لهم أيضا بالبيع والشراء دون تدخل، والتهرب من الضرائب. هؤلاء الفلاحون أسيئت معاملتهم

على امتداد عصور طويلة دون أن يفقدوا طيبة قلوبهم؛ ولـديهم أيـضا قلـة مـن الفضائل المرموقة؛ وهم ليسوا مغالين في الوطنية، أو متشددين، أو مفـرطين فـي الكرم. لكنهم مبرءون من الرذائل الكبيـرة . كل واحد منهم يعمل لحساب نفسه – أو لحساب عائلته في أغلب الأحيان. هؤلاء الفلاحون لا يفهمـون أو يـستوعبون التضحية بالنفس من أجل الصالح العام، لكن هؤلاء الفلاحين مبرءون مـن التـآمر على استعباد إخوانهم... وعلى الرغم من الضغط والقمع الهائل الذي هـم ضـحايا له، فإننا لم نسمع أي كلام عن الثورة أو التمرد، وليس هـذا مـن بـاب النظـرة الخرافية إلى حكامهم، نظرًا لأن هؤلاء الفلاحين لا يعرفون التحامـل الـسياسي، وإنما هو من باب أن الثورة والتمرد ليسا من طبيعة هؤلاء الفلاحين، مثلمـا هـي الحال بين قطيع من الأغنام. تراهم يحيون ويرحبـون بمـلكة إنجلترا، أو البابـا، أو حتى ملك الأشانتي Ashantee بنفس الدرجة من الحماس، إذا ما جـاء أي مـن هؤلاء لهم حتى ولو بتخفيض بنس واحد في كل جنيه من الضرائب".

كانت هذه هي أفكاري عن مصر في الأيام الأولى من مطلع عام ١٨٧٦، لم تكن كلها أفكارًا غير دقيقة، على الرغم من أني كنت بعيدًا عن التشكك في رؤيـة نمو الأفكار السياسية في البلدان. ولم أفهم تمامًا التأثير الكامل الذي كـان للتمويـل الأوروبي على المصاعب التي كان الفلاحون المصريون يشتكون منها ويعـانون. وعلى الرغم من ذلك، وعندما عدنا إلى القاهرة في شهر مارس، شـاهدت الوجـه الآخر من الميدالية. كانت بعثة السيد كيف Cave المالية قد وصلت في أثناء قيامنـا بالجولة، واتخذت لنفسها مقامًا في واحد من القصور الواقعة على طريق شـبرا – ومن أعضاء هذه البعثة – التي كان من بين أعضائها واحدٌ من معارفي القدامى هو فيكتور بكلي Buckley، وهو من موظفي وزارة الخارجيـة، والعقيـد سـتونتون Staunton، قنصلنا العام – تعلمت شيئًا عن الشئـون المالية؛ وبعـد ذلـك بفتـرة قـصيرة ظهر الـسير ريفرز ولسون Rivers Wilson، وهو أيضًا من أصـدقائي، الذي تحتم فيما بعد أن يلعب دورًا بارزًا تمامًا في الشئون المصرية، ظهـر هـذا الرجل في القاهرة وانضم إلى أعضاء لجنة صندوق الدين الآخرين. وأنا في حـل من أن أتعرض لتفاصيل التقرير الذي أعدُّوه، لكني سوف أساعد في فهم الأمـر إذا ما أوردت هنا رواية مقتضبة عن هذا الموضوع، والطريقة التي جرى بمقتـضاها تشكيل أو تعيين هذه اللجنة التي تعد الأولى من نوعها في مصر.

كان عهد الخديو إسماعيل قد بدأ فى فترة على قدر لا بأس به من الازدهار المالى. كان سلفه سعيد (باشا) صاحب الأفكار النيرة، قد أحس بحتمية إعطاء كل التشجيع الممكن للفلاحين فى الشئون الزراعية. وكان قد تخلى عن مطالبه كوال عن السلطان ليصبح الإقطاعي الوحيد على ضفاف النيل، واعترف أيضًا بحقوق تملك الشاغلين الحقيقيين لهذه الأراضى، كما فرض ضريبة علـى الأرض بواقع أربعين قرشًا على الفدان. وقد أسفر ذلك عن ثراء عام للسكان؛ وراح الفلاحون، بعد أن تحرروا من نظام السخرة لدى الباشوات الشراكسة، يكدسون الثروات ويجمعونها في كل مكان. وبذلك لم تصبح مصر فى أواخر عهد سعيد مجرد إقليم زاهر من أقاليم الإمبراطورية العثمانية، وإنما واحدة من أكثر أقاليم العالم الشرقى تقدمًا من الناحية الزراعية. وعلى الرغم من أن الدخل كان أقل بالمقارنة بما هو عليه الآن، والذى ربما لا يتعدى أربعة ملايين جنيه إسترلينى، فقد كان يجرى جمعه بسهولة ويسر، وكانت المصروفات الإدارية تكاد لا تذكر، فى حين وصل الدين العام إلى ما يقرب من ثلاثة ملايين جنيه إسترلينى. صحيح أن سعيدًا كان قد أعطى فى أواخر عهده بعض الامتيازات للمغامرين الأوروبيين بشروط أصبحت تشكل عبئًا ثقيلاً على الدولة، لكن الثروة العامة للبلاد بلغت من الكبر حدًا لا يشكل معه ذلك العبء أى ضغط على نظامها الضرائبى الخفيف؛ يضاف إلـى ذلـك أن والى مصر كان لديه بعد الوفاء بالمتطلبات السنوية، ما لا يقل عن مليونين من الجنيهات الإسترلينية للإنفاق الحر. لم تشهد مصر مطلقًا عصرًا قبل هذا العصر كانت الكتلة السكانية مزدهرة فيه هذا الازدهار المادى؛ بل إن الفلاحين راحوا يتكلمون عن ذلك العصر ويدافعون عنه بأنه كان بالنسبة لهم عصر "الذهب". وعندما خلف إسماعيل سعيد باشا فى منصب والى مصر، كان بلا منازع أثرى الأمراء المسلمين وسيدًا على معظم من البلاد الإسلامية المزدهرة.

قبل أن يتولى إسماعيل منصب والى مصر، كان مالكًا ثريًا من ملاك الأراضى، وكان يدير ضيعاته الكبيرة فى الوجه القبلى طبقًا لأحدث الأساليب المستنيرة. وقد امتدحه الرحالة الأوروبيون كلهم على الآلات التى أدخلها والإنفاق الذى حوله إلى أرباح؛ ومن المؤكد أن إسماعيل كان له نصيب غير عادى من تلك

الفطنة الطبيعية والموهبة التجارية التي تميز أفراد أسرة محمد علي. كان تولي إسماعيل لمنصب والي مصر مفاجأة للرجل، الذي لم يكن طوال الأشهر القلائل التي تلت وفاة سعيد، الوارث المباشر لذلك المنصب، وكانت آماله المرتقبة هي آمال أي شخص من الأشخاص الخصوصيين. وربما كانت تلك الضربة غير المتوقعة من ضربات الحظ هي التي جعلت الرجل مبذرًا ومسرفًا منذ بداية عهده. ولما كان إسماعيل بحكم طبيعته مضاربًا ومحبًا للثروة، فقد راح ينظر إلى ميراثه وإلى السلطة المطلقة التي أصبحت فجأة في يديه، على أنها ليست أمانة عامة لديه، وإنما هي وسيلة قبل كل شيء، يجب أن تكون في خدمة تكديس ثروته الخاصة. وفي ذات الوقت كان إسماعيل محبًّا للمتعة ومغرمًا بها بشكل غير عادي؛ يزاد على ذلك أن منصبه الرفيع أدار رأسه، وهيأ له فرصة الظهور في العالم كواحد من أعظم أمرائه. وسرعان ما أحاط به المتملقون والمداهنون مختلفو الأنواع والأصناف: وطنيون وأوروبيون، وراحوا يعدونه من ناحية، بأنه سيكون أغنى الأغنياء، وأعظم حكام الشرق من الناحية الأخرى. وعندما كان إسماعيل يستمع إلى هذه الأشياء كانت مهارته وخبرته التجارية تخونانه، وتجعل منه أسيرًا لهذه الأشياء. كان إسماعيل، قبل اعتلائه للعرش، جامعًا عتيدًا من جُمَّاع المال طبقًا لأساليب جمع المال التي كانت سائدة في مصر في ذلك الوقت، وكان لديه تعليم من قبيل ذلك التعليم الذي كان الشرقيون يحصلون عليه من شوارع باريس الرئيسية، تعليم سطحي في كل ما يخص الأمور الجادة، لكنه يكفي لإقناعه بقدرته على التعامل مع أوغاد سوق الأوراق المالية بالأسلحة التي تناسب نذالتهم وخستهم. وجرى تضليل الرجل في الاتجاهين.

كان أول الأعمال التي قام بها إسماعيل لتنظيم نفسه بسيطًا وناجحًا. كان الدخل الذي يعتمد بصفة أساسية على ضريبة الأرض منخفضًا، فرأى أن يزيده بطريقة مضطردة إلى أن وصل من أربعين قرشًا عن الفدان في زمن سعيد إلى ١٦٠ قرشًا في عهده. وكانت البلاد في زمنه غنية واستطاعت في بداية الأمر تحمل أعباء هذه الزيادة. هذا يعني أن الناس كانوا يعطون في بداية زمنه بدافع من الفائض لديهم وليس بحكم الضرورة، وبقى الحال على هذا المنوال طوال سنوات

عدة بلا شكوى أو تذمر. ومع ذلك؛ كان ذلك التعزيز للدخل مجرد جزء فقط من برنامجه الجشع. وذكّره متملقوه من المواطنين أن الأرض فى زمن جده كانت تعد من ممتلكات الوالى شخصيًا، وأن محمد على احتكر لنفسه التجارة الخارجية على امتداد سنوات عدة. وخطط إسماعيل لإحياء هذه الحقوق لصالحه، وعلى الرغم من عجزه، أمام الرأى الأوروبى، عن القيام بأعمال المصادرة العلنية فيما يختص بالأرض، فإنه استطاع تحقيق أهدافه إلى حد بعيد باستعمال أساليب وطرق أخرى، وعلى نحو سريع استطاع معه أن يصبح لديه خمس مساحة الأراضى الزراعية فى مصر كلها. كان أسلوب إسماعيل يقوم على التخويف بأساليبه المختلفة، ويقوم أيضًا على الإجراءات والضغوط الإدارية التى تجعل من امتلاك الأراضى الزراعية عبئًا على أصحابها، وتضييق الخناق على حيواناتهم بشكل يضطرهم إلى بيع هذه الأراضى بأسعار تزيد قليلاً على الأسعار الاسمية. واستطاع إسماعيل، كما سبق أن أوضحت، بهذه الطريقة أن يتملك مساحة هائلة من الأراضى؛ والذى لا شك فيه، أنه كان يظن أن ذلك سوف يضمن له دخلاً شخصيًا هائلاً. لكن جشع إسماعيل فى هذا الأمر كان سببًا فى تدميره هو شخصيًا.

اكتشف إسماعيل من خلال الممارسة، أن ضِيَاعه عندما كانت تحت إدارته الشخصية كمالك صغير كانت على خير ما يرام، وعادت عليه بالثروة، ولكن ملكيته الشاسعة الجديدة عرَّضته للخسارة بمئات الطرائق. لقد أنفق مبالغ كبيرة على الآلات بلا طائل. وبلا طائل أيضًا حاول تسخير قرى وأحياء بأكملها لتوفير العمالة المطلوبة لهذه الأراضى. وأقام أيضًا المصانع بلا طائل على ضياعه وعزبه، واستخدم لذلك مدراء جلبهم من أوروبا نظير أجور عالية جدًا. لقد انتشر مندوبوه فى كل مكان، وعجز عن أن يجمع من أراضيه ولو معشار الدخل التى كانت تدفعه هذه الأراضى عندما كانت تدفع الضرائب، وقبل أن تصبح ملكًا له.

تلك كانت بداية صعوبات إسماعيل المالية، التى تصادفت مع الهبوط المفاجئ الذى طرأ على أسعار المحاصيل الزراعية، وبخاصة أسعار القطن ؛ وكان ذلك بداية أيضًا، لإفلاس الفلاحين، الذين كان مفترضًا تعويضهم عما حل بهم، لكن جرى إثقالهم بضرائب غير معتادة مختلفة الأنواع. كان إسماعيل صديق، المفتش سيئ السمعة، العامل الرئيسى فى هذا التاريخ المشئوم.

على كل حال، لم يمضِ وقت طويل قبل وقوع إسماعيل من جديد فى أيدٍ أكثر خطورة، ودخل أيضًا فى مغامرات أخرى أكثر شؤمًا من المغامرات السابقة. ناهيك عن المبالغ الضخمة التى كان يسرف فيها كالماء على ملذاته الشخصية، وعلى بناء القصور، وطيشه مع النساء الأوروبيات، وحماقاته فى الضيافة الملكية، كانت هناك بعض المخططات شديدة الطموح لاستنزاف حصيلة أية خزانة من الخزانات. ونحن لا نعرف على وجه الدقة عدد الملايين التى أنفقها إسماعيل فى إسطنبول بغية الحصول لنفسه على لقب خديو من ناحية، وتغيير نظام وراثة الحكم لتكون من نصيب أبنائه. ولا بد أن هذه الملايين كانت متعددة، فى حين أضاع الرجل ملايين أخرى فى المضاربة، وعلى ديونه التى تعاقد عليها مع الشركات الأوروبية. أخيرًا، جاءت هزيمة أعالى النيل، والغزو الفاشل لمملكة الحبشة. ولكى يفى بهذه النفقات الضخمة أجبر على طلب القروض، على نحو بسيط، فى بداية الأمر، من المصارف المحلية ومن اليونانيين المقيمين فى الإسكندرية، والذين كان لهم باع طويل فى سوق المال الأوروبية. وهنا كان نوبار باشا أسوأ مستشارى إسماعيل وعبقريته الفاسدة فى هذا المجال، وقد كان نوبار باشا هذا ممولاً أرمينيًا، تحول عن طريق جهل بعض أصحاب الرأى المصريين الذين يجهلون التاريخ، إلى "مصرى وطنى". ومع ذلك ، فإن هذا النوبار، هو فى واقع الأمر، الرجل الوحيد، بعد إسماعيل، المسئول عن الدمار والخراب المالى الذى نزل بمصر. بعدما قد كُلِّف من سيده بالبحث عن النقود بأى شكل من الأشكال، حتى يمكن لإسماعيل تلبية مظاهر إسرافه وتبذيره، ولذا راح نوبار يبرم قرضًا بعد الآخر من أوروبا، وبشروط لم تُلبِّ له سوى ستين فى المئة فقط من المبالغ التى طلبها على سبيل الدين؛ فى الوقت الذى وضع فيه نوبار ملايين عدة، فى جيبه الخاص على سبيل العمولة. ومن بين القيمة الاسمية التى تقدر بحوالى ستة وتسعين مليونًا من الجنيهات الإسترلينية لم تصل إلى يدى إسماعيل منها سوى أربعة وخمسين مليونًا فقط.

وعندما كنت أكتب هذا التاريخ لم يكن هذا الدَّين كله قد جُلب أو تم الحصول عليه، لكن الفائدة التى كانت تُدْفَعُ عن هذا الدين وصلت إلى حوالى أربعة ملايين جنيه إسترلينى فى العام الواحد؛ وعليه ومن أجل جمع الدخل الكافى للوفاء بتلك

الفائدة من ناحية، وتسيير دفة الإدارة من ناحية ثانية، والوفاء باحتياجات الحرب الحبشية من ناحية ثالثة، بدأ جلد الفلاحين، كما سبق أن أوضحت، وتجريدهم من القروش القليلة التى كانوا يدخرونها. وهؤلاء الذين يتحدثون هذه الأيام عن عهد إسماعيل، باعتبار أنه كان أميرًا تعيس الحظ وليس مذنبًا، وأنه يجب التعاطف معه فى الخديعة المالية التى وقعت البلاد فيها مع أوروبا، هؤلاء لا يعرفون شيئًا عن حقيقة هذا الأمر، ولا يفهمون أو يدركون مقدار الخراب والدمار الذى جرّته حماقة إسماعيل على رعاياه من الفلاحين. تقول الحسابات إن حكم إسماعيل لمصر كلفها مبلغًا يقدر بحوالى ٤٠٠ مليون جنيه إنجليزى، وهذا فى رأيى ليس تقديرًا مبالغًا فيه، نظرًا لأنه أدى إلى جباية مدخرات الفلاحين كلها التى جمعوها فى سنوات الوفرة والرخاء، كما أدى ذلك أيضًا إلى الاستيلاء على مدخراتهم الزراعية كلها، هذا بالإضافة إلى المديونية العامة، الأمر الذى أدى إلى إثقال هؤلاء الفلاحين بمبلغ يقدر بحوالى عشرين مليونًا من الجنيهات الإنجليزية للمرابين اليونانيين والمرابين المحليين.

كانت هذه هى أسباب المحنة المصرية كما عرفتها عندما كنت فى القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦. أما فيما يتصل بأصل تدخلنا المالى فيرجع فى ذلك الوقت بالذات إلى حماقة وسفه إسماعيل، ولم يكن – فيما أعلم – بسبب أى دافع من الدوافع السياسية المباشرة فى إنجلترا فى ذلك الوقت. والمؤكد أن إسماعيل التمس من الحكومة الإنجليزية مساعدته ماليًا، وجاء ذلك الالتماس أو الطلب عن طريق العقيد ستاونتون Staunton فى خريف عام ١٨٧٥، وجاء الطلب على نحو يحتم أن تتخذ هذه المعونة لنفسها طابعًا سياسيًا. والسبب وراء اختيار إسماعيل لإنجلترا بدلاً من فرنسا، لتكون محطًا لثقته هو أنها كانت، فى ذلك الوقت، هى الأفضل حالاً من الناحية المالية من حيث تقديم المساعدة. كانت الحكومة الفرنسية فى ذلك الوقت ما تزال مشلولة بسبب حربها مع ألمانيا عام ١٨٧٠، بل إنها كانت عاجزة، فى حقيقة الأمر، عن مساعدة إسماعيل مساعدة فاعلة، فى حين كانت هناك صداقة، كما سبق أن أوضحت، بين إنجلترا وتركيا، فضلا عن ابتعاد الإنجليز تمامًا عن الدسائس التجارية فى مصر؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك كله الرأى العام السائد فى الشرق

الإسلامي آنذاك، والذي مفاده أن إنجلترا لم تكن دولة عدوانية على الإمبراطورية العثمانية، نجد أن ذلك كان كافيًا لجعل إسماعيل يتقدم بطلب العون والمساعدة إلى إنجلترا، وبما أن خطة الحكومة الفرنسية في موضوع قناة السويس، كانت موضع شكه فكان من الطبيعي وقتئذ أن يتجه إسماعيل، عندما شرع في بيع أسهمه في قناة السويس، إلى إنجلترا وليس إلى فرنسا. وأنا أذكر جيدًا الأثر الذي أحدثته هذه العملية في إنجلترا في ذلك الوقت. كان الانطباع السائد يشير إلى الموافقة التامة من جانب إنجلترا، وَوُجه اللوم إلى دزرائيلي لأنه ورط الحكومة في تعامل ترتبت عليه نتائج سياسية. والذي لا يعرفه عامة الناس في مصر، أن الموافقة على شراء أسهم الخديو إسماعيل بمبلغ أربعة ملايين جنيه إنجليزي، لم تصدر عن طريق موافقة الحكومة الإنجليزية كلها، نظرًا لأن اللورد ديربي Derby كان يعارض ذلك، وإنما صدرت على مسئولية رئيس الوزراء الشخصية، والذي لم يتشاور فيها مع زملائه باستثناء اللورد ديربي، نظرًا لوجود بقية الوزراء خارج لندن؛ وقام رئيس الوزراء بعمل الترتيبات اللازمة مع آل روتشيلد Rothschild لتقديم المبلغ المطلوب. ولا يمكنني أن أقطع بذلك الذي كان يدور بخلد دزرائيلي من الناحية السياسية حول هذا الموضوع، لكني متأكد تمامًا أن اللورد ديربي، الذي كان وقتئذ في وزارة الخارجية، لم تكن لديه أية فكرة عن ارتباط هذه العملية بأي شكل من أشكال العدوان السياسي. كان اللورد ديربي رجلاً يتمثل رأيه في السياسة الخارجية، في عدم التدخل، ولم يكن دزرائيلي في ذلك الوقت قد نجح في تلقين حزبه أفكاره الإمبريالية (الاستعمارية) الخاصة. ومع ذلك جاءت هذه العملية نذير شؤم على مصر، وبخاصة بسبب الدور الذي لعبه آل روتشيلد. وسوف نرى فيما بعد، أن هذه العلاقة أو الصلة المالية القوية لهذا البيت اليهودي القوي مع مصر كانت هي السبب الرئيسي، بعد ذلك بحوالي ست سنوات، في تدخل إنجلترا العسكري في مصر[1].

(١) جرى بعد كتابة هذا الكتاب تداول كثير من المعلومات الخاصة بشراء أسهم قناة السويس، الأمر الذي أدى إلى تعديل الرواية التي أوردتها أنا عن هذا الموضوع، ومع ذلك تظل صلة آل روتشيلد ودزرائيلي بهذه الصفقة كما أثبتناها.

كانت بعثة السيد كيف Cave، التى أعقبت شراء أسهم القناة مباشرة، من صنع إسماعيل نفسه وبلا أدنى شك. كان الهدف الذى دار بخلد إسماعيل، كما هو واضح تمامًا، عندما طلب المساعدة والعون من إنجلترا، هو تشغيل منجم المساعدة السياسية الإنجليزية، الذى اكتشفه إسماعيل مؤخرًا، من أجل الحصول على المزيد من القروض. كان إسماعيل يود الحصول على شهادة عامة، فى شكل تقرير منشور، يوضح ويؤيد استمراره فى الوفاء بديونه، ومن ثم يفتح أمامه أسواق الأوراق المالية الأوروبية من جديد. كان ذلك هو الهدف الذى جعل إسماعيل يطلب إلى العقيد ستاونتون Staunton القيام باستعلام إنجليزى فى هذا الصدد، ونجح إسماعيل فى خطته إلى حد بعيد.

كان السيد كيف Cave الذى اختارته الحكومة الإنجليزية للقيام بذلك الاستعلام رجلاً فاضلاً وشريفًا، وأنا أعتقد أنه على الرغم من أنه كان رجلاً نزيهًا تمامًا، فإنه كانت تنقصه الخبرة بأمور الشرق، ولذلك كان من السهل خداعه وتضليله؛ يضاف إلى ذلك أن السيد كيف Cave كان يفتقر إلى الخيط اللازم للتعامل مع الحقائق تعاملاً شجاعًا. وعندما حان وقت الكشف عن حسابات إسماعيل، كان الرجل، شأنه فى ذلك شأن السواد الأعظم من المسرفين، قد أخفى قسمًا من تلك الحسابات، وذلك بعون ومساعدة من إسماعيل صديق، الذى قدم فى ذلك الوقت دخلاً خياليًا لإسماعيل باشا، الأمر الذى جعل السيد كيف Cave يقبله ويسلم به عن طيب خاطر. يضاف إلى ذلك أن "كيف" سمح بذر التراب فى عينيه إلى حد ما فيما يتعلق بالبؤس الذى أصاب الفلاحين. كانت خطة الخديو ترمى إلى تطويق كبار الزوار الماليين الذين كان يود الرجل فتنتهم وأسرهم باستعراض ثروته الكبيرة، فقد جرى استقبال البعثة استقبالاً حافلاً واصطحبها موظفو الخديو إلى كل مكان؛ وكان أولئك الموظفون قد رتبوا كل شيء من قبل، ومنعوا قدر المستطاع أفراد اللجنة من مشاهدة الأرض الجرداء. وتأسيسًا على ذلك، لم يكشف تقرير "بعثة كيف" عندما نشر، سوى جزء من الحقيقة.

وأنا أرى أن "كيف" كان بوسعه، لو كان صاحب شخصية قوية، الإصـــرار على كشف الحقيقة الكامنة خلف ضائقة مصر المالية، وهي تتمثل بصورة محـــددة في التأكيد القانوني على أن ديون إسماعيل إنما كانت ديونًا شخصية وليست ديونًـــا عامة في عرف العدل؛ وأنه كان يتعين التعامل مع هذه الديون من هذا المنطلـــق. كان ضعف كيف Cave في هذا الأمر، بمثابة بداية التدخل السياسي لصالح حملـــة الأسهم، وكان منطقيًا أن يؤدي التقرير الذي أعده الرجل إلى النظـــر إلـــى ديـــون إسماعيل باعتبارها التزامًا عامًا وليست التزامًا شخصيًا. يزاد على ذلك أن الـــسير ريفرز ولسون Rivers Wilson الذي جاء بعد "كيف"، وعلى الرغم من أنه كان أكفأ منه، كان يفتقر هو الآخر إلى الخبرة والتجربة، وجرى اختياره في ذلـــك الوقـــت، على حد ظني، لإتقانه اللغة الفرنسية. كنت أعرف هذا الرجل عن قرب، كما كنت أعرف كيف Cave أيضًا لكن بدرجة أقل، واســـتمر اتـــصالي بـــه عـــن طريـــق المراسلات طوال سنوات عدة، فضلاً عن معرفتي التامة بكل ما قام به في مصر.

لقد كانت آخر ذكرياتي من القاهرة في ذلك الشتاء، عن تلك الوليمة الهمجية التي أقامها الخديو للسيد كيف هو وأعضاء بعثته، والتي دُعيـــتُ إليهـــا مـــصادفة؛ جرى إقامة هذه الوليمة في الكشك الخديو في منطقة الأهرامات، وكانت واحدة من ولائم الإسراف والتبذير التي اعتاد إسماعيل أن يسترعي بها أنظـــار الأوروبيـــين واهتمامهم، ولم يكن هناك دليل أكثر من ذلك على التناقض الغريب الذي بين ثراء صاحب الوليمة والفقر المدقع الذي كان عليه أولئك الذين تحملوا نفقات إقامة هـــذه الوليمة. لقد أقيمت لنا هذه الوليمة على مسمع ومرأى من عيون جماهير الفلاحـــين الذين يتضورون جوعًا، هؤلاء الفلاحين الذين أوفد "كيف" لإنقاذهم مـــن الهـــلاك. ومع ذلك لم يستشعر أي أحد منا هذا التنافر أو التناقض علـــى الإطـــلاق. تناولنـــا الطعام، واحتسينا أفخر أنواع الشمبانيا، وذهبنا لحال سبيلنا، وأنا في هذه اللحظـــة، وبعد أن تعرفت الظروف كلها على نحو أفضل، أجدني أستعيد الطـــابع الحقيقـــي للمشهد، وما ينطوي عليه في واقع الأمر من تبذير، وما يحيط به من بؤس وشقاء، لأرى فيه عرضًا حقيقيًا لسببين من أسباب قيام الثورة القادمة.

الفصـــل الثـانـــى

بعثة السير ريڤرز ولسون

بعد مغادرة القاهرة في ربيع عام ١٨٧٦ قمنـــا بزيارتنـــا الأولـــى لحـــدود الجزيرة العربية. كان الأكثر اعتيادًا فى تلك الأيام عما هو عليـــه الحـــال الآن أن يسافر الرحالة من القاهرة إلى سوريا عن طريق الصحراء، وعليه لجأنا إلى إبلنـــا مرة أخرى ولجأنا أيضًا إلى حياة الخيام، ومعنا أيضًا البدو الـــذين رافقونـــا مـــن السويس، ثم عبرنا قناة السويس وقمنا برحلة طويلة عبر شبه جزيـــرة ســـيناء ثـــم واصلنا السير إلى العقبة ومنها إلى القدس. ونظرًا لأننا كنا غرباء فى البلاد التـــى نسير فيها، ونظرًا أيضًا لأننا كنا لا نزال نجهل اللغة العربية، ونظرًا أيضًا لأننا لم يكن معنا ترجمان – فقد دخلنا فى بعض المغامرات الخطيرة التى يحلـــو لنـــا الآن تذكرها، على الرغم من أنها فى حينها كانت كريهة إلينا وإلى نفوسنا. وربما يكون من المفيد أن نسجل هنا أمرًا يعد حادثًا غريبًا فى مجال الرحلات والرحالة، حـــدث فى أثناء سيرنا على شاطئ خليج العقبة، الذى تحفه الشعاب المرجانية فى بعـــض أجزائه، أن اضطررنا إلى التوقف لفحص هذه الشعاب المرجانية، والتمتع بألوانهـــا العجيبة: الذهبى، والوردى، والقرمزى الذى كان يتجلى فى عدد لا يحصى أو يعـــد من الأسماك الصغيرة التى تعيش فى هذه الشعاب المرجانية.

كنت واقفًا على حافة البحر، وكانت بندقيتى التى تعودت على حملها دومًـــا، فى يدى، وفجأة رأيت حركة كبيرة فى الماء بالقرب منى وقبل أن أتمكن من تبـــين السبب، ظهرت على أثرها سمكة قرش كبيرة، تركت بقية السرب واتجهت نحـــوى مباشرة فى المكان الذى كنت أقف فيه إلى أن أصبحت بالفعل على بعـــد يـــاردات قليلة منى، قبل أن أتمكن من معرفة النوع الذى تنتمى إليه، أو أنى هدف لهجومها. وما أن رفعت بندقيتى حتى استدارت سمكة القرش، مثلما يفعل هـــذا النـــوع مـــن الأسماك، واستلقت على جنبها وأخرجت نصفها من الماء كى تمسك بى، إلـــى أن أصبحت على مقربة منى تمامًا إلى حد أنى عندما أطلقت عليها طلقة صغيرة ماتت

على الفور دونما حاجة إلى طلقة ثانية، وبذلك استطعنا بمساعدة الوهق (*) سحب هذه السمكة إلى الشاطئ. كانت سمكة كبيرة الحجم، يصل طولها إلى حوالى عشرة أقدام تقريبًا، وأنا لا أشك فى أنى لو أهملت أكثر مما كنت عليه لكانت هذه السمكة قد جرتنى من فوق الصخرة إلى البحر. وقد ذكرنى ذلك الحادث بالخطر الذى كان شائعًا ذات يوم فى مصر، إذ كانت التماسيح تتهدد حياة الفلاحين فى الوجه القبلى، ومن هنا رحت ألتزم الحذر فى مسألة الاستحمام أو السباحة فى البحر اعتبارًا من ذلك اليوم.

دخلنا أيضًا فى بعض المتاعب مع بعض البدو فى هذا الطريق، وذلك بسبب جهلنا لقواعد وأعراف الصحراء. وعندما كنا نخيم خارج بلدة العقبة، قام بزيارتنا أبو نجاد Abunjad شيخ العلويين Alawin الشهير، وهم فرع من قبيلة الحويطات، الذى اعتاد أن ينال حق مرافقة الرحالة إلى البتراء (**) Petra، والذى دفعنا الجهل إلى مضايقته، الأمر الذى جعلنا نستأنف سيرنا بلا مرافق أو مرشدين، وكان رفيقانا الوحيدان عبارة عن صبيين عربيين تبعانا من جبل سيناء، ولا يعرفان شيئًا عن الأراضى الشمالية. بصحبة هذين الرفيقين غامرنا بالاتجاه شمالاً إلى فلسطين، وسرعان ما نفد الماء الذى معنا. واتضح أن الآبار التى عثرنا عليها مصادفة كانت جافة، وبعد مصاعب كبيرة فى الشمس الحامية وصلنا أخيرًا إلى أحد المخيمات العربية. وساءت أحوالنا وأمورنا ذات ليلة إلى حد أننا قررنا أننا إذا لم نتمكن عند ظهر اليوم التالى من العثور على الماء، فسوف نتخلى عن أمتعتنا ونفر ناجين بحياتنا إلى المنطقة الآهلة بالسكان. قبل ساعة واحدة من الموعد المتفق عليه، سمعنا نهيق جحش صغير، مما دلّ على وجود مخيم قريب منا، وفى الحال شاهدنا طفلاً عربيًّا، فوق تل من التلال، وعرفنا منه بالإكراه والتهديد، المكان الذى يشربون منه. كان ذلك المسقى عبارة عن بركة جميلة من ماء المطر، موجودة فى تجويف صخرة من الصخور، وعند هذه البركة بقينا طويلاً وأطفأنا ظمأنا وملأنا

(*) الوَهق – بفتح الواو: حبل فى طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار. (المترجم)

(**) بلدة تدمر حاليا. (المترجم)

قرابنا. ومن يمن الطالع، إن كان ذلك حظا حسنا، أن رجال المكان، وهم من عرب العزازمة Azazimeh، لم يكونوا بجوار البركة، وإلا فإنى أشك فى أنهم كانوا يسمحون لنا بأخذ حصة كبيرة من تلك "النعمة الربانية"، نظرًا لأن هؤلاء العزازمة كانوا يمتلكون مكانًا فى هذه المنطقة، وكانوا قد بذروا حبوب الشعير فى حقل صغير من هذا المكان، مثلما يفعل سائر البدو على الحدود السورية، انتظارًا لسقوط المطر، وأن هذا الماء الذى نحن بجواره حاليًا هو كل ما لديهم من ماء الشرب، إلى أن ينضج محصولهم. ولم يغضبوا حتى بعد أن عادوا إلى المكان، الأمر الذى جعلنا نلزم الحذر طول الليل مخافة الهجوم علينا. لم يأت هؤلاء الرجال إلينا إلا فى الصباح وهم يصيحون ويهددون، لكننا كنا قد حمّلنا إبلنا بالفعل، ولما كنا مسلحين تسليحًا جيدًا فقد مضينا فى طريقنا. وبعد أن أصبحنا الآن على علم بأساليب وتصرفات البدو، تأكدت من أنه لم يكن هناك داع للشجار معهم، وأننا بشىء من التوضيح ودفع مبلغ صغير نظير تعدينا على حقوقهم كان يمكن أن يستقبلونا استقبالاً طيبًا. لكن الواقع أننا كنا على بعد أنملة من مغامرة خطيرة وفاشلة، وكان يتعين علينا أن نشكر الله ﷻ أننا وصلنا فى اليوم التالى إلى الأراضى المعشوشبة فيما بين حبرون Hebron وغزة. فى هذه الأراضى استقبلنا العرب المستقرون استقبالاً طيبًا، وبعد أن تصادقنا معهم اختفت وإلى الأبد ذكرى الخطر الماضى. وبذلك ينتهى ترحال ذلك العام؛ ومن القدس عدنا مع بداية الصيف، عن طريق البحر إلى إنجلترا.

شهدنا شتاء عام ١٨٧٧- ١٨٧٨ ونحن فى الشرق مرة أخرى، لكن برنامجنا ومغامرتنا فى هذه المرة كانا أكبر من ذى قبل. زرنا حلب ونزلنا إلى نهر الفرات وصولاً إلى بغداد، وفى رحلة العودة تعرفنا القبائل البدوية الكبيرة فى بلاد الرافدين، وفى الصحراء السورية جنوب بالميرا(*). كنا قد بدأنا نعرف شيئًا من اللغة العربية، كما بدأنا نفهم أيضًا عادات العرب، ولم نرتكب أخطاء من قبيل الخطأ الذى سبق الإشارة إليه. ونحن مدينون فى ذلك إلى حد بعيد، إلى نصائح

(*) تدمر حاليا. (المترجم)

القنصل الإنجليزى السيد سكين Skene الذى كان فى حلب فى ذلك الوقت، والـــذى كانت لديه خبرة كبيرة بالبدو وأساليبهم، حيث علّمنا طريقة التعامل مع هؤلاء البدو والاقتراب منهم من ناحية الجانب النبيل والأصيل فى شخصيتهم، وأن نتخلى تمامًا عن مخاوف الوثوق بهم كأصدقاء، وأن نحتكم إلى قانون الـضيافة عنـدهم. وقـد قامت زوجتى بتدوين تاريخ هذه الرحلة الناجحة فى كتابها المعنون "قبائـل نهـر الفرات البدوية"، وهو عمل قمنا به معًا يمكن للباحثين المهتمين أن يقفوا منه علـى آرائى السياسية الأولى الخاصة بحرية العرب. وسيجد الباحثون أن تعـاطفى مـع العرب فى مواجهة الأتراك، الذين يناصبونهم العداء فى حرب مزمنة، لم يكن مبنيًّا على فكرة مسبقة، وأنه لم يرق بعد إلى مستوى الخطة السياسية، وإنما كان نتيجـة لما رأته عيناى، والمتمثل فى فساد وسوء الحكم فى المناطق التى يحكمها مسئولون عثمانيون، ومدى فرح وسعادة القبائل التى كانت لا تزال مستقلة. كانت تلك الفترة تنطوى على الكثير من سوء التنظيم المحلى.

كانت الحرب الروسية – التركية فى مرحلتها الأخيرة فى كل مـن كـارس Kars (القرم) وبلفينا Plevna، وعلى الرغم من أننا كنا نُكِنُّ أطيب تمنياتنا للجيوش الإسلامية فى مواجهة المسكوف Muscovites (الروس) الغزاة، فإن منظر القرويين السوريين هم وقرويى بلاد الرافدين، وهم يساقون على شكل سلاسل من المجنـدين إلى ساحل البحر كان يثيرنا إلى حد الغضب من ذلـك الحكـم الإمبريـالى، ذلـك الغضب الذى كانت تكشف عنه كراهية العرب المتزايدة للأتراك فى كل مكان. كان من قبيل المستحيل على أى إنسان محب للحرية فى تلك الأيام، التى كان الحكم فيها أسوأ بكثير مما هو عليه الآن، فعل أى شىء غير التعبير عن سخطه واستيائه مـن الحكم العثمانى الجائر والفاسد فى الأقاليم التى تتكلم اللغة العربية. كان الحكم يقـوم على الإكراه، والتضليل، والفساد إلى أبعد الحدود، واسـتُخدِمت فيـه كـل أدوات وآليات استعباد الناس وإذلالهم، كما كان المسلمون يلقون معاملة أسوأ من معاملـة المسيحيين، وكان يجرى سلب الجميع ونهبهم بواسطة الباشوات. لقد كان التركـى فى وطنه آسيا الصغرى، يتحلى ببعض فضائل الأمانة والرجولة، لكنه عندما يكون سيدًا فى بلد جرى غزوه أو الاستيلاء عليه، يتحول إلى طاغية جبار فـى معظـم

الأحيان. والولايات على اختلاف أنواعها كان يجرى شراؤها بالمال فى إسطنبول، وكان الوالى بدوره يقوم بجمع أكبر قدر من الثروة فى أثناء ولايته، من هؤلاء الذين نُصِّب حاكمًا عليهم. وكما رأينا، فإن أراضى بغداد، تحولت فى ظل الحكم العثمانى، إلى أراضٍ جرداء، وتحولت دمشق إلى مدينة متحللة. فى كل مكان كان الناس يرون الأرض وقد خلت من الزراعة، وكانت الحكومة مثل الطاعون المتفشى تَغذى الناس والسكان بفسادها. هل هناك ما يدعو إلى العجب، إذا ما كشفنا، فى ضوء كل ذلك الذى كان يجرى، وأعملنا فكرنا وعبرنا بقوة، على الرغم من تحالف حكومتنا فى ذلك الوقت مع الباب العالى، عن تعاطفنا ومساندتنا لأى مشروع من المشروعات التى يمكن أن تؤدى إلى استقلال الولايات العربية عن الإمبراطورية العثمانية؟

عندما عدت إلى إنجلترا وجدت محضرًا يفيد أنه فى اليوم الرابع عشر من شهر مايو من عام ١٨٧٨، اصطحبنى ابن عمى، فيليب كورِّى Philip Currie (اللورد كورِّى حاليا)، والذى كان فى ذلك الوقت سكرتيرًا خاصًا للورد، أحد كبار المسئولين فى وزارة الخارجية، لمقابلة اللورد سولسبرى الذى كان قد تسلم مقاليد وزارة الخارجية حديثًا، وعلى الرغم من أنى لم أعرف شيئًا عن هذا الموضوع، فإن الرجل كان على وشك توقيع المعاهدة السرية الشهيرة مع السلطان والتى تعرف باسم اتفاقية قبرص، وكانت رحلتنا فى أراضى الجزيرة العربية قد استرعت اهتمام الرجل إلى حد أنه كان يود أن يعرف منى شيئًا عن هذه الأراضى. وردًا على أسئلة اللورد سولسبرى أخبرته وبكل صراحة عن أفكارى كلها، وأذكر بصفة خاصة أنى اقترحت عليه احتمال استقلال سوريا فى يوم من الأيام، وأنها قد تضع يدها فى يد مصر فى مواجهة الحكم الفاسد من قبل الحكام الأتراك. وعند هذا الحد، رد علىَّ اللورد سولسبرى قائلاً: لا يمكن أن تكون هناك أية صلة سياسية بين هذين الإقليمين من أقاليم الإمبراطورية العثمانية؛ وإن حال كل منهما يعد منفصلاً تمامًا. ومع ذلك، تأثر اللورد سولسبرى، عندما رحت أتحدث حديثًا يعارض مشروع خط

حديد وادى الفرات(*)، الذى كثر الحديث عنه فى ذلك الوقت، وبضمان إنجليـزى، والذى رأيت فيه خطرًا جديدًا على حرية الجزيرة العربية؛ وكنت مقتنعًا أن حججى كان لها وزنها عند الرجل، إلى حد أنه رفض بعد فتـرة قـصيرة مـساندة وزارة الخارجية لذلك المشروع، الذى جرى التخلى عنه إلى يومنا هذا. ولَّد حوارى مـع الرجل فى هذه المناسبة، فكرة دقيقة تمامًا عن ذكاء اللورد سولسبرى فيما يتعلـق بأمور الشرق، وعلى الرغم من أن رأيه فى تلك الأمور لم يكن رأيى أنا بأى حال من الأحوال، كان يراودنى دومًا إحساس قوى باستقلالية الرجل الشخـصية، فـى الوقت الذى أدى ذلك فيه إلى بدء علاقة بيننا، وعلى الرغم من أن هذه العلاقة لـم تكن حميمة فى يوم من الأيام، فإنها كانت عامرة بالود من جانبه هو. وسمح الرجل لى إلى أبعد مدى، بالكتابة إليه عن هذه الأمور، وعلى الرغم من أنه كان لا يوافق على ما أكتبه، إلا فى أحوال نادرة تمامًا، فقد كان يرد على الرسائل التـى كنـت أرسلها إليه بين الحين والآخر، بما هو أكثر مما تقتضيه الآداب الرسمية المعتادة.

على كل حال، لقد تبددت آمالى فى إقناع اللورد سولـسبرى بـآرائى فـى العرب، جراء الموقف الذى اتخذه الرجل فى صيف ذلك العام فى بـرلين، عنـدما أُعلنت على الملأ سياسته التى تقوم على ضمان المحافظة على ممتلكات الـسلطان الآسيوية كلها. لقد أثرت المداولات السرية لمؤتمر برلين على مصر تأثيرًا عجيبًا، ومهمًا أيضًا، الأمر الذى يحتم علىَّ أن آتى على ذكره هنا بالشكل الذى عرفته بعد وقوع الأحداث مباشرة.

يجب ألا يغيب عنا أن شتاء عام ١٨٧٧ – ١٨٧٨ المخيف شهد آخر مشاهد الحرب بين روسيا وتركيا، وأن ربيع العام الجديد شهد جيش القيصر Czar علـى أبواب إسطنبول. هذه الفترة نفسها كانت فترة بؤس شديد فى مصر. وكانت بعثـة كيف Cave، التى سبق أن عاصرتُ وصولها إلى مصر، قد أعقبتها بعثات ماليـة أخرى أقل أمانة واستقامة من سابقتها، الأمر الذى أسفر عما يسمى اتفاق "جوشن –

(*) للمزيد عن هذا المشروع راجع كتاب "إيران فى عيون الإنجليز" للدكتور صبرى محمـد حـسن، وقـد نشرته دار التحرير للطباعة والنشر، فى سلسلة كتاب الجمهورية. (المترجم)

جوبير Goschen-Joubert" لتسوية ديون الخديو إسماعيل، وهذه عبارة عن تسوية جبارة، جرى بمقتضاها تحميل تكلفة خدمة الدين، التي تقدر بحوالى سبعة ملايين جنيه إنجليزى فى العام، على الدخل المصرى، هذا المبلغ الذى لا يمكن اعتصاره إلا من الفلاحين المعدمين، عن طريق إجبارهم، تحت ضرب السياط، مما اضطرهم إلى ارتهان أراضيهم لدى المرابين اليونانيين الذين كانوا يرافقون جباة الضرائب فى كل مكان فى أثناء دورانهم على القرى. يزاد على ذلك، أن الفيضانين النيليين الأخيرين كانا فى غاية السوء، وحدثت مجاعة فى البلاد بدءًا من البحر وحتى أسوان. وتوفيت آلاف مؤلفة من القرويين - رجال، ونساء، وأطفال - فى ذلك الشتاء بسبب الجوع ليس إلا. ولم تشهد البلاد مجاعة كهذه منذ بداية القرن.

فى ظل مثل هذه الظروف، كان واضحًا أن يعلن الخديو إفلاسه أو يجرى تخفيض الفائدة على الديون، بعد أن جرى التخلى عن اتفاق جوشن - جوبير: كان هذا الاتفاق هو الأعدل، والأصلح للبلاد، لكن رئى التخلى عنه حفاظًا على مصالح حملة الأسهم، وجرت محاولة أخيرة ناجحة قامت بها هذه البعثات، وكانت تلك المحاولة ترمى إلى تأمين التدخل الدبلوماسى من جانب الدول الكبرى بحثًا لتسوية جديدة بين إسماعيل ودائنيه. وهنا باتت اللحظة مواتية لبريطانيا تمامًا، لأن ذلك تصادف مع اتخاذ الحكومة الإنجليزية قرارًا، بتوجيه من دزرائيلى، بأن تلعب لعبة سياسية متقدمة، وتتولى دور القيادة فى شئون الإمبراطورية العثمانية. وهنا ارتأى اللورد ديربى Derby، الذى كان يساير رئيسه على غير رغبه منه فى سياسة المغامرة الإمبريالية الجديدة، أن يتوقف ولا يتحرك أكثر مما وصل إليه مع رئيسه، بل وصل به الأمر إلى ترك وزارة الخارجية، وبالتالى جرى، كما سبق أن أوضحنا، استبدال اللورد سولسبرى Salisbury به. جاء ذلك الاستبدال إشارة إلى تقدم دبلوماسى عام، لكنه لم يكن مصحوبًا بالتهديد أو الوعيد. وجرى إدخال الأسطول البريطانى عبر مضيق الدردنيل إلى بحر مرمرة، فمنع الجيش الروسى من دخول إسطنبول، وتحت ضغط المظاهرات الإنجليزية جرى إبرام معاهدة سلام على وجه السرعة بين قيصر روسيا والسلطان، وهذه هى معاهدة سان ستيفانو San Stefano. وعلى الجانب المصرى، جرى فى ذات الوقت، تعيين لجنة تحقيق،

التى على الرغم من طابعها الدولى شكليًا، فقد قصدت وزارة الخارجية البريطانية أن تكون لجنة إنجليزية خالصة، وهنا جرى اختيار صديقى السير ريڤرز ولسون ممثلاً إنجليزيًا. وفى اعتقادى، أن تعيين السير ريڤرز ولسون، كان أول التعيينات التى وقعها اللورد سولسبرى عندما تولى رئاسة مجلس الوزراء.

يجب ألا ننسى أيضًا أنه بعد ذلك بشهرين أبرم اتفاق سرى فى إسطنبول بين السير هنرى لايارد Henry Layard، صاحب الكفاءة والمعرفة الكبيرة بالشرق، والذى كان سفيرًا لإنجلترا فى إسطنبول فى ذلك الوقت، والذى استطاع أن يحظى بثقة السلطان الشاب عبد الحميد، وبمقتضى هذا الاتفاق جرى تأجير جزيرة قبرص إلى إنجلترا، وأُعطى السلطان عبد الحميد ضمانًا يقضى بالمحافظة على وحدة أقاليمه الآسيوية كلها، عوضًا عن وعود الإصلاح التى كان يتعين فرضها بسبب وجود بعض القناصل، والعسكريين الذين كان مطلوبًا منهم، فى آسيا الصغرى، تقديم النصح والمشورة والإبلاغ عن الشكاوى والمظالم. كانت الفكرة التى دارت بخلد كل من دزرائيلى وسولسبرى اللذين وقعا على المعاهدة، وفى ذهن السيد لايارد Layard مؤلفها، ترمى إلى إنشاء – أو بالأحرى إقامة – محمية إنجليزية غير رسمية لكن فاعلة، فى تركيا الآسيوية. وكانوا ينظرون إلى الحصول على قبرص على أنه أصغر أجزاء هذه الصفقة.

كانت الجزيرة عديمة القيمة تمامًا عند الإنجليز من الناحية العسكرية، ولم يكن اختيار قبرص لهذا الغرض ناجمًا عن مناسبتها للوفاء به، وإنما جاء ذلك الاختيار بمثابة نزوة خيالية جامحة من نزوات دزرائيلى؛ وكانت تلك النزوة مؤيدة بتقرير وردى عن الثروات المحتملة فى هذه الجزيرة، والذى أُرسل من قبل واحد من قناصلنا الذى كان صاحب مصلحة فى هذه الجزيرة.

كان دزرائيلى قبل ذلك بسنوات كثيرة، عندما كان شابًا، قد ذكر فى روايته المعنونة "تانكرد" Tancred، فكرة طريفة بعض الشىء عن إنشاء – أو بالأحرى إقامة – إمبراطورية آسيوية كبيرة تحكمها ملكية إنجليزية، على أن تدخل قبرص بصفة خاصة ضمن هذه الإمبراطورية، وذلك من باب إحياء الحقيقة التاريخية التى

مفادها أن ملكنا الإنجليزى ريتشارد Richard قلب الأسد، كان ملكًا على هذه الجزيرة فى يوم من الأيام. هذا الأمر كله كان من قبيل الشطحات الرومانسية، لكن دزرائيلى كان يود تحويل نكاته السياسية إلى حقائق واقعية، وأن يقنع أتباعه الإنجليز، الذين كانوا يحتقرونه ليهوديته، إقناعا تاما بأساليبه وألاعيبه الحمقاء. كان الهدف المهم الذى كان يرمى إليه السيد لايارد من المعاهدة – والمؤكد أن هذا الهدف كان من عنديات لايارد شخصيًا وليس من عنديات سولسبرى، الذى كان جديدًا على المنصب والذى جعلت منه خبرته التى اكتسبها من إسطنبول فى العام السابق، مجرد شخص مصطبغ بالصبغة التركية – هو الوصول إلى السيطرة الإستراتيجية على آسيا الصغرى، التى كان يُظن أنه ربما أمكن تحقيقها عن طريق المناصب والوظائف القنصلية التى ترتبت على هذه السيطرة الإستراتيجية. كان الهدف من هذه الوظائف أو المناصب القنصلية الإشراف على الإدارة المدنية فى المقاطعات، والتأكد من أن الفلاحين لا يجرى ابتزازهم أو سرقتهم من قبل أولئك الذين يجبون الضرائب، والتأكد أيضًا من أن مناطق التجنيد التابعة للجيش العثمانى لا تعانى من نقص فى عدد الأفراد بسبب سوء الإدارة. وبذلك يمكن – حسب الاعتقاد السائد – وقف التقدم الروسى صوب البحر المتوسط، وقصره على آسيا مثلما جرى وقف ذلك التقدم فى أوروبا عند سان ستيفانو San Stefano.

إذا ما استعدنا الموقف الآن، فى ضوء معرفتنا بالأحداث التى وقعت بعد ذلك، وبخاصة ما يتعلق بشخصية السلطان عبد الحميد، قد يبدو لنا أن توقيع السلطان على اتفاق من هذا القبيل يعد أمرًا غريبًا، لأنه إذا ما نُفِّذ فإنه سيضع تركيا الآسيوية فى أيدى العسكريين الإنجليز كما هو الحال فى مصر فى هذه الأيام؛ أو أن وزارة الخارجية كان يتعين عليها الوثوق بنجاح تلك المعاهدة، وبالتالى يمكن تبرير الكنية التى أطلقها جلادستون Gladstone على تلك المعاهدة، ليصفها بأنها "اتفاق أخرق". وهنا يجب ألا يغيب عنا أن السلطان عبد الحميد لم يكن أمامه خيار – وبخاصة أن الجيش الروسى كان ما يزال على أبوابه – سوى قبول التحالف الإنجليزى، حتى وإن كان يعنى الوصاية؛ يضاف إلى ذلك أن إنجلترا عند هذه المرحلة كانت تثبت أنها صديق لا مصلحة له ويمكن الاعتماد

عليه. كان "لايارد" من جانب آخر، يعي مدى ارتفاع نجمه وصعوده داخل القصر، وكان يعرف ويدرك أيضًا مدى الحظوة والنفوذ اللذين كان اسم الإنجليز يحظى بهما في الأقاليم الآسيوية. كان القنصل الإنجليزى فى تلك الأيام يشغل منصبًا سلطويًا مع الوالى، ومع كل فئات المسئولين العثمانيين، وربما كان ذلك القنصل يظن أيضًا أن ذلك المنصب يمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية. كان شرف إنجلترا عظيمًا فى عيون الأتراك جميعهم، إضافة إلى أن سياستها تجاه الإمبراطورية الإسلامية كانت تقوم على التعاطف الذى أدى إلى انعدام الشك فى نياتها الحسنة. كان "لايارد" هو الآخر من المؤمنين بالأتراك، وربما كانت تراوده أحلام لعب دور رئيسى فى القصر فى إسطنبول، وهو الدور الذى لعبه اللورد كرومر باقتدار عندما كان فى القاهرة. لكن المدهش بحق حاليًا، هو أن هذه الأحلام الإنجليزية التى من هذا القبيل كان يتعين القيام بها، وإلا أصبحت مسألة انتفاء مصالح بريطانيا أمرًا تدور من حوله الشكوك.

يجب ألا يغيب عنا أنه بعد شهر من التوقيع السرى على معاهدة قبرص، انعقد المؤتمر الأوروبى الكبير عام ١٧٨٧ فى برلين. بناء على طلب من دزرائيلى، واعتُبِرَ هذا الاجتماع أهم اجتماع للدول منذ مؤتمر باريس. كان هدف مؤتمر برلين مثل مؤتمر باريس السابق عليه، يرمى إلى تحديد مصير تركيا الأوروبية وتحديد مصير رعايا السلطان المسيحيين، أما بريطانيا فكانت تود مراجعة معاهدة سان ستيفانو. وفى ضوء النجاح الذى أصابه المؤتمر فى ذلك الاتجاه كان دزرائيلى قد وطَّد سمعته كرجل دولة. كانت إنجلترا قد سبق لها أن توسطت بناء على عرض من دزرائيلى، وعلى أعلى مستوى من مستويات الإدارة السياسية، باعتبارها أفضل وأنزه أصدقاء تركيا، وفى ضوء موافقة الدول الكبرى الأخرى على ذلك أصبحت مكانة دزرائيلى تعتمد على هذه الحقيقة فى الداخل وفى الخارج أيضًا . كانت مسألة نجاح المؤتمر تبدو حيوية عند دزرائيلى إلى حد أنه ذهب إلى المؤتمر بنفسه بصفته كبيرًا لوزراء الدولة البريطانيين المشاركين فيه، واصطحب معه اللورد سولسبرى، الذى كان لا يزال جديدًا على الدبلوماسية، ويشغل منصب سفير من الدرجة الثانية، فى حين كانت روسيا مُمَثَّلة بواسطة

الأمير جورتشاكوف Gortschakoff، أما فرنسا فكانــت ممثلــة بواســطة الــسيد وادنجتون Waddington، وأما إيطاليا فكان يمثلها الكونت كــورتي Count Corti، وكان الأمير بسمارك يشرف كمُضيِّف على الاجتماع كله. وهنا ينبغي أن أضــيف أن كورِّي Currie صحب اللورد سولسبري ليلعب دور كاتب أو مدون الملخصات في تلك المناسبة، كما صحب اللورد راوتون Rowton دزرائيلــي للقيــام بالــشيء نفسه.

وقائع ذلك المؤتمر معروفة للجميع بطبيعة الحال، وأنا لست بحاجة هنا إلى تناولها بالوصف، لكن الذي لم ينشر مطلقًا هو الحادث التالي المهم للغايــة، الــذي عرفته - كما سيأتي - بعد وقوعه بفترة قصيرة. كان المؤتمر قد انعقد في اليــوم الثالث عشر من شهر يونيو، ونظرًا لأن الأمور التي كانت ستجري مناقشتها كانت في غاية الأهمية، ونظرًا أيضًا لانعدام الشكوك بين الممثلين حول احتمــال تقــسيم تركيا، قُدِّم اقتراح منذ البداية مفاده أن كل سفير من السفراء يتعــين عليــه تقــديم إعلان مبدئي يؤكد فيه أن حكومته جاءت إلى المؤتمر وهي غير مقيدة بأي التــزام سري يتصل بالموضوع المطروح للجدل والمناقشة.

هذا الإعلان الذي باغت كلاًّ من دزرائيلي واللورد سولسبري، اللــذين لــم يكونا مستعدين للتبرؤ من أفعالهما وأعمالهما السرية مع السلطان، لم تكن لــديهما الشجاعة التي تجعلهما يرفضان، وعليه وافقا شأنهما شأن الممثلين الآخرين علــى تقديم هذا الإعلان – وهنا يجب ألا يغيب عنــا أن الاثنــين كانــا جديــدين علــى الدبلوماسية. وهنا يمكن أن نتخيل مدى المفاجأة والفضيحة التي حدثت في بــرلين عندما جرى بعد أسابيع قلائل، وبالتحديد في اليوم التاسع من شهر يوليــو، نــشر اتفاق قبرص المخبأ في لندن بواسطة إحدى الصحف المسائية. كــان ون مــارفن One Marvin، وهو رحَّال شرقي ولغوي أيضًا، ولا علاقة له بوزارة الخارجية، قد جرى استخدامه، بلا تَفَكُّر، بواسطة كورِّي Currie ليقوم بدور المترجم والمحــرر للنص التركي من الاتفاق، وقام هذا الرجل ببيع المعلومات التي لديه بمبلغ معتبــر لجريدة "جلوب" Globe المسائية. وجاء نشر هذه المعلومات مثل سقوط الرعد على

سفارتنا فى برلين، وعلى الرغم من مبادرة لندن إلى التشكيك فى أصالة النص، فإن الحقيقة لم يجر إخفاؤها طويلاً فى برلين. وهنا وجد سفيرانا نفسيهما وجهًا لوجه أمام حقيقة لا يمكن تفسيرها، مفادها أنهما ارتكبا خطأ كبيرًا فى حق زملائهم الأوروبيين، وبقيا متهمين بالكذب العمد المباشر والمسجل. وهدد ذلك الاكتشاف بنسف المؤتمر تمامًا. وأعلن الأمير جورتشاكوف عن غضبه، وانضم إليه فى غضبه هذا السيد وادنجتون Waddington من جانب فرنسا. وقدم الاثنان إنذارًا مفاده أنهما سوف ينسحبان على الفور من جلسات المؤتمر، بل إن السيد وادنجتون بادر إلى جمع أمتعته استعدادًا لمغادرة برلين. كان الموقف كئيبًا، ولم يجر إنقاذه إلا بمساعٍ حميدة مشوبة بالتهكم من جانب بسمارك، الذى ولَّد لديه دزرائيلى انطباعًا تعاطفيًا بأنه هو الآخر رجل تهكمى وصاحب أفكار جريئة. واستطاع المستشار الألمانى بصفته "وسيطًا أمينًا" التوصل إلى حل وسط أعلن السيد وادنجتون، ممثل فرنسا رضاه عنه واقتناعه به. وهنا أعلن السفيران المفوضان: الفرنسى والإنجليزى موافقتهما على هذا الحل الوسط، على النحو التالى:

١- يتعين السماح لفرنسا مع أول فرصة ممكنة، ودون اعتراض من إنجلترا باحتلال تونس وذلك من باب تعويض فرنسا عن حصول إنجلترا على قبرص.

٢- يتعين على فرنسا السير بخطى متساوية مع إنجلترا فيما يتعلق بالترتيبات المالية التى يجرى اتخاذها فى مصر.

٣- أن بريطانيا يتعين عليها الاعتراف بصورة خاصة بالمطالبة الفرنسية القديمة بحق حماية المسيحيين اللاتينيين فى سوريا.

وعندما أذعن دزرائيلى لهذه النقاط الثلاث وافق السيد وادنجتون على البقاء فى برلين والانضمام إلى السفراء الآخرين فى إعداد تسوية البلقان، التى جاءت فى نهاية المطاف على هدى من المقترحات البريطانية. وكان الثمن الذى دفعه دزرائيلى لفرنسا على شكل ولاية من الولايات التابعة لحليفه السلطان – وهذا أمر

عجيب – هو الذى مكن رجل الدولة هذا (دزرائيلى) من العودة إلى لندن بعد ذلك بفترة قصيرة، زاعمًا أنه أحرز انتصارًا شعبيًا، ومزهوا بملء شدقيه بأنه "استعاد السلام بشرف". هذا تاريخ عجيب بحق، ويتعين إبرازه باعتباره نقطة الافتراق التى بدأت إنجلترا عندها سياسة جديدة تقوم على السلب والنهب والخداع فى التعامل فى منطقة الليفانت (الشرق)، وكانت هذه سياسة غريبة على أساليبها التقليدية. كما أن هذه الدسيسة والمؤامرة القبرصية يمكن أن نعزو إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة نصف الجرائم التى شهد جيلنا ارتكابها فى حق الحرية فى الشرق وفى شمال إفريقيا. كنت قد اقترحت ضم البوسنة Bosnia إلى النمسا على الفور. وقد ساعد ذلك على إحباط إيجاد تسوية سليمة فى مقدونيا. فقد وُضِعت تونس تحت أقدام فرنسا؛ كما أدت هذه التسوية إلى بداية عهد تقسيم إفريقيا بين الدول الأوروبية، الأمر الذى سبب أوجاعًا كثيرة للسكان الوطنيين بدءًا من بيزيرتا Bizerta إلى بحيرة تشاد، ومن أرض الصومال إلى الكنغو. وفوق ذلك كله، أدت هذه التسوية، فى اللحظة الحرجة، إلى تخريب سمعة إنجلترا الطيبة فى الإمبراطورية العثمانية. وبذلك تكون إنجلترا قد ألَّبت قلوب المسلمين عليها عامى١٨٨١ و١٨٨٢.

كانت هذه التسوية، مثلما سأوضح فيما بعد، عاملاً قويًا فى الأحداث العنيفة التى وقعت فى هذين العامين المضطربين فى مصر. ونحن عندما نعمل العقل فى تعاون إنجلترا فى عملية الإصلاح نجد أن هذه التسوية بددت الهدف منها بكل تأكيد فيما يتصل بتركيا الأسيوية. وبذلك نجد أن أحداث المؤتمر فتحت عينى السلطان على الخطر الذى يمكن أن ينطوى عليه أى تعاون مع الإنجليز، كما أوغرت وقائع المؤتمر أيضًا قلب السلطان مما دفعه إلى اتباع سياسة على النقيض من النصح والمشورة الإنجليزية، والتى نجح السلطان فيها نجاحًا كبيرًا، والتى قامت على قمع كل ما يتعلق بالحرية والحكم الذاتى بين رعاياه الأتراك. وحزب الحرية فى إسطنبول مدين بالكثير لتلك السياسة وبخاصة اضطهادها الظالم الذى لا يرحم، ولن

أكون مبالغًا عندما أقول هنا: إنه مهما كانت الأوجاع والآلام التي أصابت الأرمينيين جراء الآمال الكاذبة التي صدرت عن مؤتمر برلين، بشأن تحرير الأرمن بفضل معاونة بريطانيا الأخلاقية لهم، فإن تضليل إنجلترا وعملها غير الأخلاقي جعلها عاجزة عن تقديم مثل هذا العون. وصل التأثير المباشر لهذا الحل الوسط، على مصر إلى حد قيام السيد م. وادنجتون بإرسال برقية من برلين إلى ولسون Wilson في الإسكندرية يطلب إليه فيها – وعلى نحو كدّر صفوه وأغضبه – أن يراعي في المهام المالية كلها ذات الطابع الرسمي، أن يكون لفرنسا نصيب مساوٍ تمامًا لنصيب بريطانيا فيما يدور. وجاء ذلك على الرغم من عدم علم ولسون به في ذلك الوقت، بمثابة السبب الرئيسي للسيادة الأنجلو – فرنسية المشتركة التي أُعلنت أو ذاعت بعد ذلك بعام واحد[٢].

كان ذلك هو حال الأمور العامة، في خريف عام ١٨٧٨ نفسه، عندما وجدتني متجهًا صوب الشرق من جديد. كانت الرحلة التي سبق أن قمت بها إلى بغداد في فصل الشتاء السابق، وبخاصة النجاح الذي أصبته في أمر كان عندي أهم

---

(٢) لقد أوردت قصة الجدل الذي دار مع السيد وادنجتون Waddington كما سمعتها أول مرة من اللورد ليتون Lyton في سملا Simla في مايو عام ١٨٧٩. وقد وردت تفاصيل هذه القصة في رسالة أطلعني الرجل عليها، جاءته من برلين، في الوقت الذي كان المؤتمر لا يزال منعقداً. وقد كتب هذه الرسالة زميل دبلوماسي سابق، وجرى بعد ذلك تأكيد هذه القصة لي من أكثر من مصدر آخر، على الرغم من وجود شيء من التباين في الروايات المختلفة لتفاصيل هذه القصة. وفيما يتصل بالمعلم الرئيسي في المعاهدة، والذي يتمثل في الترتيبات الخاصة بتونس، فقد رواها لي بكل تفاصيلها في خريف عام ١٨٨٤، الكونت كورتيCount Corti الذي كان سفيراً ممثلاً لإيطاليا في المؤتمر. واستناداً إلى رواية كورتي فقد جاءت صدمة انكشاف الأمر للعيان كبيرة جدًا على نفس دزرائيلي، الأمر الذي جعل الرجل يلزم فراش نومه، ولم يظهر خلال جلسات المؤتمر طوال أربعة أيام، تاركاً اللورد سولسبري يشرح الأمور بقدر ما يسعه الجهد. قال اللورد سولسبري إنه لم يكن هناك قطع صريح للعلاقات مع وادنجتون Waddington؛ وكان وادنجتون نفسه قد عرض الأمر على زملائه السفراء، الذين اتفقوا على أن الأمر لا يمكن مناقشته على الملأ أو بصورة علنية. وجاء الاتفاق شفاهيًا بين كل من سولسبري وودانجتون ، لكنه جرى تسجيله في رسالة كتبها بعد ذلك السفير الفرنسي في لندن، وذكر فيها سولسبري بالمؤتمر الذي انعقد في برلين Berlin، الأمر الذي نجم عنه إقرار ذلك الاتفاق كتابة.

بكثير من أمور السياسة، والذى يتمثل فى شرائى وجلبى للخيول العربية التى كانت بمثابة نواة لسلالتى الشهيرة من الخيول التى كانت فى مزرعة كرابت Crabet فـــى ذلك الوقت، كانت هذه الزيارة قد بدأت تثير اهتمامًا وفضولاً كبيرين فى إنجلتـــرا؛ وكنت قد أمضيت فصل الصيف فى إعداد وتجهيز يوميات زوجتى للنـــشر، وهـــى الآن تحت الطبع. لم نكن قانعين أو راضيين عن ذلك كله، وكنا قد عقـــدنا العـــزم على القيام برحلة جديدة أكثر مغامرة من أية رحلة من الرحلات التى حاولنا القيـــام بها من قبل، وكنا فى طريقنا إلى دمشق، التى اعتبرناها نقطة البدايـــة، وخططنـــا منها لاختراق وسط الجزيرة العربية وصولاً إلى نجد، المـــوطن الأصـــيل لمولـــد الجواد العربى. كان مقررًا لرحلتنا البحرية من مرسيليا أن تنتهى فى الإســـكندرية، وتصادف أن عثرت على صديقى السير ريفرز ولـــسون علـــى ظهـــر البـــاخرة مساجريس Messageries فى مرسيليا، وكان قد جرى تعيين الرجل منذ وقت قريب جدا وزيرًا لمالية مصر، ولذلك قمنا بالرحلة بصحبة هذا الرجل. وطـــوال الرحلـــة البحرية التى استغرقت ستة أيام سنحت لى الفرصة بأن أعرف منه كل ذلك الـــذى حدث على امتداد العامين الأخيرين فى القاهرة، وكان حال البلد الذى حكـــاه لـــى السير ريفرز فظيعًا وسيئًا للغاية. أذكر جيدًا تلك الرواية التى تـــدخل فـــى عـــداد الجرائم الكثيرة المثيرة التى ارتكبها الخديو إسماعيل، ومسألة قتله للمفتش إسماعيل صديق، ذلك العمل الخائن الشائن الذى باعد، دونًا عن سائر الأعمال الأخرى، بـــين الخديو والولاء له، ناهيك عن رعاياه المصريين بشكل عام، الذين فقد ولاءهم بالفعل، إضافة إلى فقدانه أيضًا ولاء تلك المجموعة من العبيد والخدم المحيطين به.

كان إسماعيل صديق جزائرى المولد، لكنه جاء إلى مصر فى سن مبكـــرة، وتدرج بفضل قدراته فى خدمة الوالى، وكانت أول صلة لإسماعيل صديق بالبلاط، على حد علمى، فى عهد عباس الأول، الذى عمل الرجل معه مشرفًا على إســـطبل خيوله. وفى عهدى سعيد وإسماعيل خدم فى مواقع مختلفة، وأثبت كمـــا ســـبق أن رأينا، أنه كان أداة إسماعيل باشا فى تجريد الفلاحين من آخر قروشـــهم. وعلـــى الرغم من قسوة إسماعيل صديق البالغة على هؤلاء الفلاحين – وقـــد أثبـــت أنـــه صاحب عبقرية لا تنتهى فى ابتكار وسائل السلب والنهب والابتزاز – فإنه احـــتفظ

لنفسه بسمعة شريفة إلى حد ما فى القاهرة باعتباره عربيًا جُبل على فضيلة الكـرم التقليدية، وسخيًا فى صرف وإنفاق الثروة التى اكتسبها، وعليه ذاع صيت الرجـل عندما تقدم فى السن. أمضى إسماعيل صديق السنوات الأخيرة مـن حياتـه فـى منصب وزير المالية، وقد أثبت لإسماعيل أنه خادم مخلص ومطيع. ولكن الخـديو إسماعيل قد خدعه، على الرغم من كل ذلك، قبل أشهر قلائل، الأمر الذى أدى إلى وفاة الرجل، قبل أن أكتب عن هذا الأمر، وجاءت تلك الوفاة فـى ظـل ظـروف مقززة، فأدت إلى صدمة وارتباك فى مصر التى اعتادت على تجـريم أصـحاب المناصب الكبيرة. كان هدف الخديو الأوحد ومبتغاة الأول هو تخليص وتبرئة نفسه بإلقاء اللوم على وزيره المخلص جدًا، فى بعض الحماقـات والاحتيـالات التـى ارتكبها الخديو إسماعيل نفسه، الذى أمَّن نفسه بأن أمر بقتـل هـذا الـوزير فـى حضرته.

جاءت التفاصيل التى أعطانى إياها السير ريفرز ولسون على النحو التالى: كان من عادة الخديو إسماعيل فى تعامله مع مختلف المفوضين الأوروبيين، الـذين كان يدعوهم من حين إلى حين لتحرى أحوالـه الماليـة، أن يخفـى عـنهم قـدر المستطاع الحقيقة الصارخة لإسرافه غير المسئول، واستطاع بفضل تعاون وزيره إسماعيل صديق، أن ينجح هذه المرة، مثل المرات السابقة، فى تقديم بيـان غيـر صحيح عن ديونه للجنة الجديدة. ومع ذلك، كان الـضغط الواقـع علـى الخـديو إسماعيل شديدًا، نظرًا لأن اللجنة استلمت تلميحًا إن صح تَذَكُّرِى، من رياض باشا، يفيد أن اللجنة يجرى الاستخفاف بها فى هذا الأمر، ونظرًا لخوفه مـن انكـشاف الحقائق، فقد قرر أن يكون بصحبته أولاً وقبل كل شيء، ثم يجعل منه كبش فـداء وضحية له. وأمسك إسماعيل باشا بخيوط التنفيذ كلها فى يديه. كـان مـن عـادة إسماعيل باشا مع وزيره، الذى كان يرتبط به بأوثق روابط الصداقة الشخصية، أن يقوم بزيارة الوزير المسن فى المساء فى وزارة المالية، ويصطحبه معه فى نزهـة بالسيارة فى قصر شبرا، أو أى قصر آخر من قصوره؛ وهذا هو ما فعله الخـديو إسماعيل فى هذه المرة، وركب الوزير، الذى لم يَرْتَبْ فى تصرف الخديو، السيارة إلى قصر الجزيرة، وعندما وصلا إلى القصر نزل الرجل مـن الـسيارة ودخـل

القصر. وما إن دخل الاثنان القصر حتى استأذن إسماعيل منتحلاً عـذرًا، وتـرك إسماعيل صديق وحده فى صالون من صالونات القصر، ثم أوفد إليه على الفـور ولديه الصغيرين حسينًا وحسنًا، ومعهما ياوره مصطفى بك فهمى، وبعد أن ضرب الأميران الوزير الأعزل وسبّاه، وُضع على ظهر باخرة من بواخر الوالى كانـت راسية ويتصاعد منها البخار بالقرب من الرصيف، وجرى وُضع الرجل المسن، بلا أية مقاومة من جانبه، على ظهر تلك الباخرة. واستنادًا إلى أقوال السير ريفرز ولسون، فإن الفاعل الحقيقى هو مصطفى بك فهمى، الذى كـان يتـصرف تنفيـذًا لأوامر الخديو؛ وأضاف الرجل أن الحقيقة جرى كشفها من خلال اليـاور الـشاب الذى أصابه المرض عقب تلك الفعلة، إذ مرض الرجل بالحمى، الأمر الذى جعلـه يحكى ذلك الذى حدث، فى أثناء الهذيان الذى انتابه جراء إصابته بـالحمى. ومـع ذلك، لدى من الأسباب ما يجعلنى أقول: إن العمل الذى قام به مصطفى فيمى كان من قبيل الخطأ، على الرغم من أن جميع الحقائق الأخرى جرى تأكيدها لى تأكيـدًا تامًا، وأن المفتش جرى تسليمه بواسطة مصطفى فيمى إلى إسحاق بك Ishak إلـى أن توفى الرجل وهو فى حوزته، على الرغم من عدم تأكيد مسألة إن كانت الوفـاة قد حدثت بعد التسليم مباشرة أو بعده بفترة قصيرة. يقول الـبعض: إن إسـماعيل صديق، جرى إلقاؤه، مثل آخرين قبله، فى النيل بعد أن ربطوا حجرًا فى قدميـه؛ ويقول بعض آخر: إن إسماعيل صديق جرى إرساله حيا إلى المنطقة الواقعة بـين وادى حلفا ودنقله، ثم جرى خنقه هناك. والذى لا شك أو مراء فيه هو أن إسماعيل صديق بعد أن ركب على ظهر الباخرة لم يره أحد حيا مرة ثانية، وأن الباخرة بعد أن أبحرت إلى أعالى النيل، جرى الإعلان رسميا بعد ذلك بأسابيع عدة، أن المفتش (إسماعيل صديق) كان فى مهمة فى الوجه القبلى لتغيير الجو، وأنه أسـرف فـى الشرب خلال هذه المهمة الأمر الذى أدى إلى وفاته. والمؤكد أيضًا أن مـصطفى فهمى، ذلك الشاب المعتدل، لم يكن معتادًا على مشاهد العنف، ولما كان مـصطفى فهمى من أصل جزائرى هو الآخر مثل إسماعيل صديق، فقـد أصـابه الرعـب والفزع جراء الدور الذى طُلب منه لعبه فى هذه العملية، الأمـر الـذى أدى إلـى إصابته بمرض خطير دام فترة طويلة. ولعل هذه التجربـة كانـت الـسبب وراء مشاركته بعد ذلك بعام فى عمل ضد سيده الخديو إسماعيل، والانضمام إلى عرابى

فى المراحل الأولى من ثورته عام ١٨٨١ – ١٨٨٢. هذا المصطفى فهمى هو نفسه الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء فى مصر على امتداد سنوات كثيرة .

تحدثنا عن هذه الأمور كلها بينما كنا على ظهر الباخرة مساجريس Messageries، وعن دور ولسون المهم باعتباره خلفًا لإسماعيل صديق. كان ولسون فى ذلك الوقت تراوده آمال كبار حول نجاحه الإدارى، وكشف الرجل عن اهتمام وتقدير كبيرين بالمهمة التى كُلِّف بها، وهى إعادة مصر إلى الازدهار وإنقاذ الفلاحين من قيودهم وأغلالهم المالية، لكن الرجل كان واعيًا تمامًا بالمصاعب التى كانت تعترض طريقه. فقد تعلم ريفرز ولسون كيف يفهم شخصية الخديو، وكان الرجل على استعداد أيضًا أن يفهم الخديو على أنه خصم عنيد صعب المراس. ومع ذلك كان ولسون يعول على أدبه ورقته وذوقه، ومعرفته للعالم، فى مسألة وفاقه مع الخديو، وتجنب القيام بالمخاطر الشخصية التى قد يقع فيها. اعتمد ولسون أيضًا على تعليمه الفرنسى، نظرًا لأنه عاش فترة طويلة فى باريس، الأمر الذى مكنه من المحافظة على وزارة أنجلو – فرنسية الطابع، كان هو جزءًا منها، وكان الرجل يعتمد أيضًا، وفى المقام الأول على نوبار Nubar، الذى وثق فيه بلا حدود، ظنًا منه أن الرجل وُلد ليكون رجل دولة شرقى من ناحية، ومخلص للمصالح البريطانية من ناحية أخرى. يزاد على ذلك، أن الرجل على حد ظنه، كان يرى أن وزارة الخارجية فى لندن، تقف من ورائه وتسانده، وكان يظن أيضًا، أن مصلحة وقوة آل روتشيلد، ذلك السند العتيد فى أوروبا، كانت هى الأخرى تقف وراءه وتدعمه وتسانده. كان ريفرز ولسون يعرف أن بوسعه الاعتماد على آل روتشيلد، لأنه أقنعهم فى أثناء مروره على باريس، بتقديم ذلك القرض المهلك الذى يقدر بحوالى تسعة ملايين جنيه إنجليزى بضمان ممتلكات الخديو، الأمر الذى سيربط تلك الممتلكات بالتدخل الأوروبى إذا ما تطلب الأمر ذلك من جانب حملة الأسهم. أما أنا بحكم معرفتى الوثيقة للسير ريفرز ولسون، وعلى الرغم من تعاطفى الكامل مع آمال الرجل الإنسانية، وطموحاته الشخصية، فقد بدأت تثور لدى بعض الشكوك حول موقف ولسون ووضعه وأن هذه الشكوك لم تكن بشير خير بنجاح هذا الرجل.

افترقنا فى الإسكندرية، ونحن نتطلع إلى توفيقه فى المهمة اليائسة فى ولاية مدمرة ومفلسة، وخطر ببالنا أن المشكلات التى تنتظر الرجل جسيمة وهائلة، وأنه على الرغم من خصاله الممتازة قلبًا وفكرًا، وعلى الرغم أيضًا من معرفته الكبيرة، فإننى كنت أخاف عليه. وقد أثبتت الأحداث صحة مخاوفى، فى زمن أقصر بكثير مما كنا نتوقعه نحن الاثنين.

فشلت مهمة السير ريفرز ولسون العملية باعتباره وزيرًا لمالية مصر نتيجة أسباب كثيرة. وأنا أرى أن بداية هذا المستقبل العملى القصير، أو بالأحرى هذه المهمة بقرض جديد وثقيل، إنما كانت نذير شؤم، نظرًا لأن عائدات ذلك القرض التى لم يجر الحصول عليها إلا بشق الأنفس، لم يجر وضعها أو توظيفها فى أهداف جادة. كانت هناك أيضًا أخطاء إدارية أوقعت الكثير من الظلم على الناس؛ وهذا، كما سنرى فيما بعد، هو الذى مهَّد الطريق لتبدِّى الاستياء العام. ومع ذلك، أنا لا أجدنى مضطرًا إلى الدخول فى هذه الأمور، لأنها تتعلق بعدم النزاهة وسوء السمعة التى نقابلها فى الكتب الزرقاء(*). عزاء ولسون الوحيد فى هذه الأمور يتحتم علينا الوقوف عليه فى الحقيقة التى مفادها أن الرجل كان يعتمد، فى مسائل السياسة الداخلية كلها، اعتمادًا كاملاً على توجيه نوبار له وإرشاده إياه، يضاف إلى ذلك أن ولسون بالغ فى تقييم قوة نوبار مبالغة كبيرة، فى التعامل مع هذه المشكلات. لو كان ولسون رجل دولة أكثر منه رجل مال وتمويل، لما تورط فى المصاعب السياسية، التى كان يمكن تحاشيها بشىء قليل من الخبرة فى فنون الحكم. كان نوبار مجرد قشة ضعيفة اعتمد عليها ولسون. ونظرًا لأن ولسون كان مسيحيا وأجنبيا، لم يكن من الصعب على رجل داهية مثل إسماعيل، إثارة الرأى العام الإسلامى ضده، يزاد على ذلك أن ولسون عندما كان يشغل نفسه باستعادة التوازن المالى، بدأ ذلك بسلسلة من التخفيضات فى النفقات بين المسئولين الوطنيين، وسرعان ما نشأت طبقة غاضبة، هيأت للخديو إسماعيل فرصة تحويل البغض والكراهية العامة عنه إلى وزرائه المسيحيين. ومما سهل الأمر على الخديو إسماعيل أن تلك التخفيضات فى المصروفات لم تنسحب على المرتبات الأوروبية، هذا يعنى أن هذه المرتبات لم يجر تخفيضها. وكان لا بد من أن يتحمل ولسون باعتباره ممسكًا بخيوط حافظة المال، كل الكراهية والبغض الذى ترتب على ذلك.

(*) الكتاب الأزرق: كتاب تصدره الحكومة حول موضوع معين. (المترجم)

زد على ذلك، أن ولسون، على الرغم من حسن نواياه، لم ينجح بأى حال من الأحوال، فى تخليص الفلاحين من أحمالهم الثقيلة. كما أن مسألة حتمية إيفاء الخديو إسماعيل بديونه، كانت تشكل جزءًا مهما من برنامج ولسون، وهذا بدوره يحتم المواظبة على سداد فوائد الدين بصورة مستمرة ومنتظمة. كانت الملايين التسعة من الجنيهات الإنجليزية، التى قدمت من آل وتشيلد على سبيل القرض، قد ذهب القسم الأكبر منها لسداد المطالبات العاجلة، ولم يجر تخفيض أية ضريبة من الضرائب أو تسوية أى طلب من الطلبات. وعلى العكس من ذلك، تواصل عهد السياط فى القرى، وبلا رحمة أكثر من ذى قبل، كما أُضيف المزيد من الفزع والرعب فى المجال الزراعى عن طريق مسح الأراضى الزراعية نفسها، وبتكلفة كبيرة، والتنفيذ الفاشل لمسألة مراجعة الدخل تحت إشراف إنجليزى، التى جرى وقفها والاعتراض عليها باعتبارها مقدمة لضريبة تفرض على الأراضى الزراعية، كانت موجودة بالفعل. أخيرًا، نجد أن المشروع، الذى اقترحه ولسون، والخاص بإبطال ما يسمى بنظام المقابلة Moukabalah، والذى كان يعنى مصادرة الملكية الزراعية لما يقرب من حوالى خمسة عشر مليونًا من السكان، مما أثار كثيرًا من الاضطراب فى أذهان ملاك الأرض، وأدى إلى الاعتقاد أن ما يمكن توقعه من هذا الوزير الإنجليزى قد يكون أسوأ بكثير ممن جاءوا قبله. وأنا الآن وبحكم معرفتى الجيدة لمصر، أجدنى مندهشًا لوقوع رجل فى ذكاء وفهم ولسون، فى مثل هذه الأخطاء، وأنا لا أشك أن بعض هذه الأخطاء أوحى بها لذلك الرجل من قبل الخديو إسماعيل نفسه لإرباكه والإضرار به. جاءت قمة التهور السياسى من جانب ولسون ونوبار، عندما جرى تسريح الجيش الوطنى الذى يقدر عدد ضباطه بحوالى ٢٥٠٠ ضابط، دون دفع مرتباتهم المتأخرة. فقد أدى هذا الأمر إلى وضع الوزارة الأجنبية فى قبضته الخديو إسماعيل فى الذى لم يضيع هذه الفرصة التى سنحت له.

يجدر بنا هنا أن نعيد سرد تاريخ الانتفاضة الشعبية التى حدثت فى فبراير عام ١٨٧٩، والتى أطاحت بوزارة نوبار – ولسون؛ ويجب سرد هذا التاريخ مثلما وقع فعلا لأن حقيقة هذه الانتفاضة لا يمكن العثور عليها فى أى مصدر من

المصادر المنشورة الأخرى. كان الخديو إسماعيل، كما سبق أن أوضحنا، يعمل جاهدا من أجل تحويل البغض والكراهية الشعبيين عنه إلى وزرائه الجدد، إضافة أيضا إلى رغبته الشديدة في تخليص نفسه من وصاية هذين الوزيرين الجديدين. لكن بناء على القانون الذى سمى باسم مرسوم عام ١٨٧٨ تنازل للرجلين عن سلطته المالية والإدارية ليكونا فى أيدى هذين الرجلين، ولما كان الرجل قد اعتاد أن يكون حاكما مطلقا على مصر طوال ثمانية عشر عاما، فقد تضايق كثيرا لفقدانه هذه السلطة. لقد وقع الخديو إسماعيل ذلك المرسوم باعتباره بديلاً عن إفلاسه، وبعد أن جرى تجنب إشهار الإفلاس رفض الرجل الالتزام بنصوص ذلك المرسوم. ولما كان الخديو إسماعيل رجلاً داهية فى الحكم على الشخصيات، فقد تبين على الفور ضعف الوزارة، وكيف أن ولسون هو وزميله الفرنسى، المدعو دى بلنيير De Blignieres، اعتمدا، بحكم جهلهما الأحوال فى مصر، على نوبار اعتمادا تاما فى تصرفاتهما، كما أدرك الخديو إسماعيل أيضا مدى عجز نوبار نفسه، باعتباره مسيحيا، عن حكم بلد إسلامى.

كانت الطبقة المسلمة من الرسميين تعرف نوبار على أنه مغامر أرمينى، استطاع أن يثرى باعتباره وكيلاً لمقدمى القروض الأوروبيين على حساب المصلحة العامة، كما كان نوبار شهيرا أيضا لدى الفلاحين باعتباره صاحب فكرة المحاكم المختلطة التى امتدحها الأجانب، لكنها كانت كريهة إلى الفلاحين وبغيضة على أنفسهم، لأن هذه المحاكم دون سائر الوكالات الأخرى وضعت هؤلاء الفلاحين فى قيود وأغلال المرابين اليونانيين. ولما كانت هذه المحاكم المختلطة تدار فى مصر فى ذلك الوقت، أصبح كل فلاح، من أولئك الذين سبق أن وقعوا على أى ورقة بسلطة مالية، معرضا للمحاكمة أمام قضاة أجانب وطبقا لإجراءات قضائية أجنبية، دون أن يعطى أدنى فرصة للدفاع عن نفسه إذا ما كان رجلاً فقيرا، أو أن يثبت، كما هو الحال فى معظم الأحيان، أن الأرقام قد جرى تغييرها، أو أن الورقة كلها مزورة، وأنه ربما يحرم من أرضه ومن كل ممتلكاته قبل أن يعرف الدعوى المرفوعة عليه حق المعرفة. كان نوبار شهيرا بذلك ولم يكن يصغى أو يستمع إلى أى شىء سوى ما يجىء من طبقة التجار الأجانب فى الإسكندرية. هذا يعنى أن الخديو إسماعيل استطاع الوقوف على ذلك النظام الجديد

من خلال نوبار، وأن هذا النظام يسهّل الهجوم عليه. كان المطلوب للإطاحة بهـذا النظام هو مجرد مظاهرة وطنية عامة ضد ذلك المسيحى الذى لا يحظى بالشعبية، وإذا ما أضفنا إلى ذلك استياء ٢٥٠٠ من الضباط نتيجة حرمـانهم مـن رواتـبهم ومعاشاتهم، فسوف يتضح لنا أن تدبير هذه المظاهرة أمر ممكن ويسير.

كان من عملاء الخديو إسماعيل الرئيسيين فى أحداث انتفاضة شهر فبرايـر الشعبية: شاهين باشا، أحد موظفى بلاط الخديو، وزوج أخـت شـاهين، المـدعو لطيف أفندى سليم، الذى كان فى مركز يناسب هذه الانتفاضة، إذ كان الرجل مديرًا للكلية الحربية. رتب هذان الاثنان مظاهرة لطلاب الكلية الحربية، راحـت تجـوب شوارع القاهرة فى الموعد المحدد وراح الطلاب يعلنون عـن مطـالبتهم بإقالـة الوزارة الكريهة، وانضمت الجماهير إلى طلبة الكلية الحربية، وبخاصـة الـضباط المطرودين من وظائفهم الذين تصادف أن كانوا فى طريـق المظـاهرة، وجـرى التخطيط للمظاهرة بحيث تصل إلى مكاتب الحكومة فى الوقت الذى يغـادر فيـه الوزراء مكاتبهم. وفى منطقة الدواوين تصادف أن وجد المتظاهرون نوبار باشـا وهو يستعد لركوب عربته، فسبَّه المتظاهرون، واعتدوا عليه بالضرب والإهانـة. وأعقب ذلك قيام مظاهرة شعبية، وهنا جاءت إلى مكان المظاهرة كتيبـة حـرس الخديو التى يقودها على بك فهمى، والتى كانت مستعدة لذلك الغـرض، ثـم جـاء الخديو إسماعيل بنفسه بعد ذلك. وأطلقت الكتيبة بعـض الطلقـات فـوق رءوس المتظاهرين، بعد أن أمر الخديو إسماعيل بانصراف المتظاهرين إلـى منـازلهم. وبذلك يكون البرنامج الذى جرى الاتفاق عليه مع عليٍ بك فهمى، قد حقق النجـاح المطلوب، وهنا أصبح الخديو إسماعيل فى وضع يمكنه من أن يطلب إلى القنصلين الإنجليزى والفرنسى، اللذين كان يتوسل إليهما، للموافقة على إقالة نوبار؛ وقد أقنع القنصلين أنه لولا تدخله القوى ولولا سلطته القوية لحدث ما لا تحمد عقباه. وهنـا نُصح نوبار بتقديم استقالته، ثم طلب إلى مسئول مسلم، هو راغب باشا، وهو مـن اختيار الخديو نفسه، أن يكون رئيسا للوزراء بدلاً من نوبار. ومع تـولى راغـب، وهو من الموالين للخديو إسماعيل، وزارة الداخلية، أدرك إسـماعيل أن ولـسون ودى بلنيير سيكونا بلا حول ولا طول فى إدارة البلاد، وأن سقوطهما أصبح قـاب قوسين أو أدنى.

بعد النجاح فى التخلص من نوبار، أصبحت مسألة تولى ولسون حقيبة وزارة المالية أمرًا مستحيلاً، من منظور حسابات الخديو إسماعيل؛ بل إن سقوطه عجّلت به بعض الظروف العارضة. كان فيفيان Vivian قنصلنا العام فى مصر (أصبح بعد ذلك اللورد فيفيان سفيرًا لنا فى روما) قد ابتعد عن ولسون على أثر مسألة شخصية حدثت بينهما، وعندما التمس ولسون، فى أثناء متاعبه السياسية، من فيفيان أن يقدم له يد العون والمساعدة، جاءت على سبيل الانتقام أو بالأحرى لم تقدم قط. وسرعان ما جاءت خيبة ولسون بعد ذلك؛ فقد جرى تريب حادث مماثل لحادث شهر فبراير؛ ولكن فى شهر مارس فى مدينة الإسكندرية، نتج عنه هجوم على ولسون هو وزوجته وإيذاؤهما بواسطة الدهماء، وعندما تقدم ولسون بشكواه إلى وزارة الخارجية، رفضت مساعدته تحت أى مسمى من المسميات. ونصحوه، مثلما فعلوا مع نوبار، بتقديم استقالته، وبذلك لم يكن أمامه خيار آخر، وتقاعد الرجل من وظيفته وعاد إلى أوروبا.

ولدى رسالة مهمة من ولسون حول هذا الموضوع. كتب الرجل فى اليوم الثلاثين من أبريل عام ١٨٧٩ يقول: "أنت بالقطع سمعت عن أنه جرى إقالتى ومضايقتى بواسطة ذلك النذل الصغير الخديو إسماعيل، إنه لم يحاول قتلى أو اغتيالى، لأن ذلك القتل سيكون بلا سبب أو مبرر، ولكنه رتّب للهجوم علىَّ فى الشارع، وإهانتى إهانة شديدة، والآن هو راض حاليًا عن التخلص منى تمامًا، زد على ذلك أن حكومة جلالته، بولائها المعتاد لمواطنيها، تركونى وشأنى للمصير المحتوم. وكريبى فيفيان Crepy Vivian هو السبب بل والمحرض الرئيسى على تجاهل التعليمات التى صدرت له بحمايتها، وبسبب الغيرة والحقد، وبسبب الافتقار إلى المعلومات الاستخباراتيه، إضافة إلى قدر كبير من الصلف والغرور انضم كريبى فيفيان إلى معسكر الخديو. الذى تقوم سياسته فى الحكم على التفرقة بين من يتعامل معهم، لا بد أنه كان يجد أن من المنطقى إحداث فرقه أو شقاق بينى وبين دى بلنيير، أو مع أى واحد منا أو نحن الاثنين ونوبار، لكنه لم يكن يحلم مطلقًا أو يتطلع أبدًا أن يصبح القنصل العام الإنجليزى أداته ووسيلته للإطاحة بالوزارة المفروضة عليه من قبل الحكومة الإنجليزية... سوف نغادر القاهرة فى اليوم

السادس من الشهر ونصل إلى لندن فى اليوم الخامس عشر تقريبًا. وأنا سعيد لابتعادى عن هذا المنصب. وليذهب كل شىء إلى الجحيم. البلد يعج بالفساد. الحكومتان الإنجليزية والفرنسية تبدوان خائفتين من القيام بأى عمل من الأعمال، والخديو فى الوقت الحالى هائج ومائج ويستنزف البلاد إلى آخر قطرة من دمها. لا يمكن تأجيل أو تأخير الضربة العنيفة أو الهجوم الساحق، لكن فى الوقت الحالى يصبح التفكير فى الأضرار والبؤس والمكائد التى يجرى تدبيرها أمرًا مخيفًا بحق".

الفصل الثالث

ترحال فى الجزيرة العربية والهند

في الوقت الذى كانت تدور فيه تلك الأحداث المهمة فى مصر، كنت بعيـدًا عنها، إذ كنت أنا وزوجتى نقوم بمغامرتنا الجديدة فى وسـط الجزيـرة العربيـة، وبالتالى كنا بعيدين عن الوقوف على هذه الأحداث، وعن شئون العالم الخارجى.

وفى طريقنا إلى دمشق، المكان الذى سنبدأ منه مغامرتنا، قد سبق لنا التوقف بضعة أيام فى جزيرة قبرص، من باب الفضول لإلقاء نظـرة علـى الممتلكـات الإنجليزية الجديدة، التى اكتسبناها نظير الكثير من الفـضائح وتـشويه الـسمعة، ووجدنا جزيرة قبرص تتلقى أولى دروسها عن الإدارة الإنجليزية على يدى الـسير جارنت وُلسلى Garnet Wolseley. كانت قبرص لا تزال فى فصل الصيف، إذ لـم يكن المطر قد سقط عليها بعد، وبالتالى بدت لنا أفضل من أرض جـرداء عـامرة بالتراب. قمنا بزيارة السير ولسلى فى منزله الحكـومى فـى نيقوسـيا Nicosia، ووجدنا الرجل يفيد إلى أبعد حد ممكن من وضع معزول ومنسى. وفى حديثه معنا أضفى السير ولسلى وجيًا مشرقًا على المظهر الخارجى لهذه "الجوهرة" الأخيـرة من جواهر "الإمبراطورية"، لكن كان واضحًا من ذهنية الرجل المهنية أن الجزيرة ليست لها فائدة كبيرة، وأن لها طبيعة تلك المجموعة من المناظر التى جرى جلبها من السوق التى قرأنا عنها فى رواية "قس ويكفيلـد" Vicar of Wakefield. ومـع ذلك، كان من الصعب تبين الطريقة التى تجعلنا نفيد من هذه الجزيرة، أو الطريقـة التى تمكننا من جعل تلك الجزيرة تدرُّ تكاليف إدارتـها. لقد أدى حصـولنا علـى هذه الجزيرة إلى الإساءة إلى سمعة الإنجليز، بل وصل الأمر إلى الحـديث عنهـا – فى ضوء ما وجدناه – بين المسلمين السوريين علـى أنهـا بقـشيش Backshish حصلت عليه إنجلترا نظير خدمات قدمتها للسلطان.

التقينا فى دمشق العديد من الشخصيات المهمة، وكان من بينهم بطل الحرب الجزائرية مع فرنسا السيد عبد القادر (الجزائرى)، كما التقينا رجلاً آخر، هو أيضًا بطل من ناحية أخرى، هو مدحت باشا Midhat، الزعيم السابق للحزب الدستورى

التركى. لم يكن انطباعى طيبًا عن مدحت باشا، من منظور ميلى وتعاطفى مع الإصلاح الإسلامى. كان مدحت باشا من الناحية الشخصية مثيرًا للرهبة أو الإعجاب، ولم يكن صاحب مظهر مميز، وكان أسلوبه فى التصرف يوحى بالتفاخر والتباهى والتأكيد على الذات الأمر الذى كان يوحى بأن الغرور والصلافة معلم من معالم شخصية هذا الرجل. فى حوار طويل مع مدحت باشا عن إعادة بعث أو تجديد النظام العثمانى، اكتشفت ضحآلة أفكار هذا الرجل، وأن تلك الأفكار كانت من النوع الأوروبى الشائع الذى يخدم الفكر العام فى الشرق وزيادة فى الإيضاح. كانت أفكار مدحت باشا عن إصلاح الإمبراطورية وعن إصلاح الولاية السورية التى عين واليًا عليها، كما شرحها لى، كلها أفكار مادية. مثل مد الخطوط الحديدية، وشق الترع، وإنشاء خطوط الترام، وكلها أفكار جميلة وممتازة من حيث المبدأ، لكن الرجل كان يدع جانبًا الضرورات الحقيقية اللازمة للإدارة؛ هذه الأفكار فى ظل عدم وجود الأرصدة اللازمة لذلك، كانت كلها ضروبًا من الوهم فى ولايته. وعندما تطرق الحديث إلى المسائل الأكبر مثل الاقتصاد، والعدالة، وحماية الفقراء، لم ينبس الرجل ببنت شفة، ولم يكشف حتى ولو بمثقال ذرة عن تعاطفه مع شعب الولاية التى جاء لحكمها. واقع الأمر أن مدحت باشا كان متشربًا لما هو أكثر من الكبر التركى المعتاد، واحتقار كل ما هو عربى، الأمر الذى جعله يسارع بإخفاء كل ما هو عربى، فضلاً عن وحشية الطرق والأساليب التى كان يتعامل بها مع البدو. هزنى ذلك كله بطبيعة الحال. وعلى الرغم من ذلك، لا يسعنى الآن سوى الندم لأنى لم أستطع، فى وقت ضائقته، بذل شىء من الجهد لإثارة الشعور العام لصالحه فى إنجلترا، الأمر الذى كان يمكن أن يخفف من العذاب الأليم الذى لقيه على يدى السلطان. على كل حال، فأننى فى ذلك الوقت لم أكن أعرف الحقائق كلها، والذى حدث أنى فى عام ١٨٨٤، عرفت من مصدر يمكن الاعتماد عليه التاريخ الحقيقى لمحاكمة مدحت بتهمة قتل باطلة ألصقت به قبل ثلاث سنوات. وهذا أمر غاية فى الأهمية ويجب أن أحكيه هنا بالتفصيل.

يجب ألا يغيب عنا أنى عندما كنت فى إسطنبول عام ١٨٧٣، شملنى برعايته فى أثناء المرض الخطير الذى ألمَّ بى، الطبيب ديكسون Dickson، الذى كان طبيبًا للسفارة البريطانية فى ذلك الوقت، والذى تصادقت معه صداقة

حميمة. هذا الرجل المحترم كبير السن، كان قد مضى عليه فى ذلك الوقت ما يقرب من خمسة وثلاثين عامًا فى تركيا، الأمر الذى أدى إلى اصطباغه بالصبغة الشرقية تمامًا، وأصبحت لديه خبرة واسعة ومعرفة كاملة بكل الأشياء والأمور العثمانية أكثر من أى رجل إنجليزى آخر كان على قيد الحياة فى ذلك الوقت. يزاد على ذلك، أن هذا الرجل كان يتعاطف تعاطفا حقيقيا مع هؤلاء الناس الذين عاش بينهم فترة طويلة من الزمن، واستطاع أن يحتفظ طوال هذا العمر الطويل بنزاهة عالية القدر وإحساس بالشرف الإنجليزى التليد، الأمر الذى جعل من هذا الرجل أوثق الشهود المتيسرين فيما يتصل بالأحداث التى وقعت على مرأى ومسمع منه. من هنا، فإن شهادة ذلك الرجل على ما سأرويه هنا تعد أمرًا حاسمًا فيما يتعلق بمضمون هذه الأحداث. فى عام ١٨٨٤ ذهبت مرة ثانية إلى إسطنبول، وفى هذه المرة أعطانى الدكتور ديكسون هذه الشهادة، وقد بدت لى هذه الشهادة مهمة جدا باعتبارها مصححة لتاريخ دونته أنا ذات يوم عندما سمعته. وجاءت شهادة الدكتور ديكسون على النحو التالى:

٣ نوفمبر عام ١٨٨٤

أوفد الطبيب ديكسون من قبل السفارة البريطانية لتحرى ظروف وفاة السلطان عبد العزيز؛ ووصف لنا ديكسون وصفًا دقيقًا كل ذلك الذى شاهده ورآه فى القصر فى ذلك اليوم. كانت مجموعة الأطباء مكونة من طبيب يونانى يدعى ماركو باشا Marco، ومن رجل إنجليزى كبير السن كان طبيبًا للورد بايرون، وعدة أطباء آخرين. عثروا على الجثة فى دار الحرس وفحصوها فحصًا دقيقًا. كان السلطان يرتدى قميصا من الحرير، وهو الرداء الذى يسمونه فى تركيا "كيكوج" Caiquejis، وهو قميص سادة وليس مخططًا، كما كان يرتدى بنطالاً وردى اللون. وعندما جرى تجريده من ملابسه كان الجثمان سليمًا وبلا خدوش ولا كسور، "أجمل جسم فى الدنيا كلها" باستثناء الجروح القطعية التى فى الذراعين من الداخل حيث توجد الشرايين. كان القطع الذى فى الذراع الأيسر عميقًا بحيث كان يكشف

عن العظم وقام الدكتور ديكسون بوضع إصبعه في الجرح الغائر. أما القطع الذى كان فى الذراع الأيمن فلم يكن كاملاً ولم يكن الشريان مقطوعًا. وكان واضحًا أن هذين الجرحين هما سبب الوفاة. اقتنع الأطباء الآخرون بالكشف والفحص وانصرفوا لحال سبيلهم؛ لكن الدكتور ديكسون هو والطبيب الإنجليزى الآخر أصرا على الاستماع إلى شهادة أم السلطان، وجاءت رواية الأم على النحو التالى: حاول عبد العزيز منذ عزله الانتحار مرتين؛ حاول فى إحدى المرات إلقاء نفسه فى بئر، وذات مرة فى البسفور، ولكنه مُنِع من ذلك؛ وحذرت السلطانة من إعطائه أية آلة يمكن أن يستعملها فى ذلك الغرض. وعندما طلب منها عبد العزيز المرآة ومقص كيما يشذب لحيته، اختارت أصغر المقصات التى لديها، وخطر ببالها أنه يستحيل أن يؤذى نفسه بهذين الشيئين. كانت السلطانة تشغل الغرفة المجاورة لغرفته، وكانت هناك دومًا بنت أو اثنتان لمراقبة الرجل فى أثناء غياب السلطانة أو عندما لا تكون معه. ومع ذلك، حدث فى أحد الأيام، فى فترة العصر، أن أمر السلطان البنتين بالخروج، ثم أغلق الباب بالترباس، قائلاً لهما: إنه يود الاختلاء بنفسه؛ ولم تجرؤ البنتان على عصيان الأمر. لكن بعد مضى نصف ساعة جاءتا على السلطانة وأخبرتاها، وفى البداية لم تكن السلطانة منزعجة، لكنها طلبت منهما الوقوف عند الباب والتنصت على ما يدور داخل الغرفة. وعادت البنتان إلى السلطانة ليقولا لها إنهما لم تسمعا شيئًا، وبعد مضى ساعة ذهبت السلطانة بنفسها، ومن خلفها البنتين، وفتحت السلطانة الباب عنوة. ووجدت السلطان متكئًا على جانب على الكنبة وميتًا على هذا الوضع.

وقد أوردت فى يومياتى ما يلى:

كانت كنبة الغرفة هى وستائر الغرفة من القطيفة حمراء اللون وأرضيتها صفراء. وقام زميل الدكتور ديكسون Dickson بفحص المكان فوجد ذراع الكنبة الأيسر مشبعًا بالدم، وعثر أيضًا على بركة من الدم المتجلط على الأرض؛ كما وجد أيضًا علامة صغيرة من الدم عند منتصف الكنبة مقابل للقطع الذى بالذراع اليمنى، وعلى الرغم من فحصه المكان فحصًا دقيقًا لم يعثر على أثر للدم فى أى مكان آخر، اللهم إلا بالقرب من الكنبة؛ الأمر الذى ينفى وجود أى صراع أو

مقاومة أو اغتيال. وعلى حد قول السلطانة: "إذا كان قد أُغتيل، فإن القاتل لا بد أن يكون أنا بذاتى، لأنى كنت فى الغرفة المجاورة ولا يمكن لأى أحد غيرى أن يكون قد اقترب منه. وفى أثناء محاكمة مدحت هو وآخرين بتهمة القتل، أحضر المدعون قميصًا من الكتان وليس من الحرير، وفيه قطع من الجنب كما لو كان ناتجًا عن طعنة سيف، وجاءوا ببنطال أخضر أو أصفر، وجاءوا بمبذَل(*) من الفرو، وذلك على العكس مما كان على الجثمان، وجاءوا أيضًا بغطاء قطنى مُطَبَّع للكنبة، وجاءوا أيضًا بستائر من القطن المُطَبع وملطخة بالدم، ولم تكن هذه الأشياء تخص الغرفة التى جرى العثور فيها على الجثمان. كان الطبيب ديكسون Dickson قد كتب بناء على ما حدث احتجاجًا أدلى فيه بما رآه وعرفه، وسلم ذلك الاحتجاج إلى اللورد دفرين Dufferin، ورجاه أن يتأكد من تسليمه لرئيس المحكمة. لكن دفرين رفض التدخل دون أوامر أو تعليمات، وفى الوقت الذى كان دفرين، يتظاهر بإرسال البرقيات أو كان يرسل البرقيات بالفعل، جرى إعدام مدحت. يقول الدكتور ديكسون: إن ماركو باشا كان مفروضًا أن يدلى بالشهادة مثلما فعل هو، وهذا يعنى أن القصة التى نسجت حول أناس شوهدوا وهم يتسلقون فى أثناء الدخول والخروج من النافذة، تعد من القصص التى تثير السخرية والاستهزاء، ونظرًا لأن النافذة أعلى من الأرض كثيرًا فذلك يعنى كسر أرجل هؤلاء الذين قفزوا من النافذة. يزاد على ذلك أن الطبيب ديكسون رجل دقيق وكبير فى السن، وهو ذلك النوع من الشهود، الذين تقبل شهادتهم عند أى هيئة من هيئات المحلفين على مستوى العالم. وأنا أصدق روايته تمامًا، التى تبدو غير محتملة من الوهلة الأولى، من منظور أن السلطان لا بد أن يكون قد قتل ولم ينتحر. كان مدحت هو والداماد Damad قد ماتا جوعا وهما مكبلان بالأغلال فى الطائف Taif قبل بضعة أشهر؛ وقد عُجِّل بوفاة مدحت عن طريق دُمّل كبير، لم يجر التخلص منه. كما أن شيخ الإسلام هو الآخر مات مؤخرًا فى الطائف لأنه هو الذى أصدر الفتوى التى تجيز خلع السلطان عبد العزيز. هذا العمل الإرهابى هو الذى أعطى عبد الحميد السلطة المطلقة التى يتمتع بها فى الوقت الحالى".

(*) المبذَل: بكسر الميم وفتح الذال هو ما نسميه "الروب دى شمبر". (المترجم)

الشخصية المهمة الأخرى فى هذا السرد، والتى التقيناها فى خريف عام ١٨٧٨ فى دمشق، هو السير إدوارد ماليت Edward Malet، الذى كان سكرتيرًا فى السفارة فى إسطنبول فى ذلك الوقت، والذى كان يقوم بجولة فى سوريا طلبا للمتعة الشخصية من ناحية وجمع المعلومات من الناحية الأخرى. وأنا على امتداد حياتى العملية فى المجال الدبلوماسى خدمت مرتين تحت رئاسة والده الممتاز، وكنت على علاقة حميمة بأسرته ومعه هو شخصيا منذ أن كنا ملحقين دبلوماسيين، وأنا حاليًا قادر على قراءة شخصية هذا الرجل، التى أسيء فهمها فى مصر، بحكم معرفتى وصلتى الوثيقة بذلك الرجل. كان السير إدوارد ماليت Malet صاحب قدرات عادية مرضية، وكان من الموهوبين بالجد والمثابرة، والحذر، والإحساس الطيب. ولما كان السير إدوارد ماليت قد ولد فى وسط دبلوماسى، وأدخله والده فى الخدمة فى هذا المجال عندما كان فى السادسة عشرة من عمره، ومن ثم اكتسب تدريبا مهنيا طيبا، ومع استمرار مضيه فى عمله واكتسابه لتقاليد هذا العمل أصبح موظفا عاما على درجة عالية من الكفاية. بوسعه كتابة رسالة تعبر عن التعليمات الصادرة إليه دون أن يورط حكومته فى شيء لا تقصده. هذا يعنى أن السير إدوارد ماليت، فى ظل ظروف الخدمة المعتادة التى ينتمى إليها، يمتلك أنفع المواهب التى من قبيل، الحصافة والحكمة، وقلة الكلام، وإنكار الذات عن طيب خاطر، وهذه بحق هى المواهب التى ينبغى أن تميز أى محام من محامى الولايات، ومهمة الدبلوماسى، اللهم باستثناء بعض الحالات النادرة، لا تختلف بأى حال من الأحوال عن مهمة محامى الولاية. وفيما يتعلق بالتخيل والخيال، نجد أن السير إدوارد ماليت ليس لديه شيء من هذا القبيل، وليس عنده أيضًا شيء من المبادأة أو قوة التعامل على مسئوليته الخاصة فى المواقف التى تتطلب عملاً قويا وقرارًا عاجلاً. وماليت هو آخر رجل فى هذا العالم يمكن أن يتولى أمر دسيسة أو يترأس موقفًا من المواقف الصعبة. على المستوى الشخصى نجد أن الرجل له قَبُول، لكنه بلا جانبية، يزاد على ذلك أن الرجل لا تزال فيه مسحة صبيانية ذهنية تتبدى بشكل واضح فى اللحظات غير الرسمية. كان جادا وسلوكه لا عيب فيه، كما كان يبدو شابا إلى حد بعيد وبشكل ملحوظ. وكان يفضل عمله بصورة دائمة بغض النظر عن أهمية ذلك

العمل، على أى شكل من أشكال المتعة، وحتى عندما كان يقــوم بإجــازة، كــان يمضى أمسيات فراغه فى تحرير الرسائل فى مبنى سفارة والده بدلاً من أن يجــد لنفسه أمرًا يُشغِله فى مكان آخر. وأنا أسجل هذا هنــا لأن الــسير إدوارد ماليــت وُصف فى مصر بأنه مفعم بروح القلق والطموح والدس والوقيعــة، وهــذا علــى العكس تمامًا من شخصية الرجل الهادئة. هذا الرجل لــيس لديــه أى شــىء مــن المغامرة فى المتعة أو فى العمل. فيما عدا ذلك، كــان بوســعه أن يرافقنــا إلــى الجزيرة العربية، كما اقترحت عليه، لكن الرجل لم يكن من أولئك الذين يحيــدون عن المسارات المطروقة ، وعلى الرغم من إثارتى لفضوله وانتباهه إلــى خطتــى المفعمة بالرومانسية والمغامرة؛ فإنه آثر اتباع الطريق السياحى العام، وترتب على ذلك، أن سافر إلى القدس بعد ذلك بأيام قلائل.

كانت رحلتى أنا وزوجتى رحلة مختلفة تمامًا، وثبت أنها كانت أهم بكثيــر مما كنت أنتظره منها. وقد نشرنا تفاصيل هذه الرحلة بالإنجليزية والفرنسية تحــت عنوان "حج إلى نجد"؛ وعليه سوف أتناول هذه الرحلة هنا تناولاً موجزًا. وســوف أوجزها هنا فى بضع كلمات: تنقلنا بطريق الحج إلى أن وصلنا إلــى المزاريــب Mezarib، ثم انتقلنا منها إلى جبل حوران Houran؛ وهناك زودنا واحد من الدروز من أسرة الأطرش برفيق Rafyk أو إن شئت فقل: مرشد، ثم مضينا قدمًا إلى وادى السرحان Wady Sirhan إلى أن وصلنا الجوف Jof، حيث يوجــد بعــض أقــارب محمد العروق Al Aruk، ابن شيخ تدمر، والذى كان يرافقنا فــى الرحلــة. ومــن الجوف، بعد أن أمضينا فيها بضعة أيام مع هؤلاء الأقارب، عبرنا صحراء النفود، ذلك الممر الخطر الذى يستغرق عبوره عشرة أيام، عبر الصحراء الرملية الكبيرة، لنصل بعد ذلك إلى حائل، وعلى الرغم من أننا لم يكن معنا رسائل تقديم أو ممثلين من أى نوع كان، فإن محمد بن الرشيد، سيد نجد المستقلة، استقبلنا بكــل ترحيــب وتكريم. كانت جنسيتنا الإنجليزية فى عينى الرجل أقوى من أى جواز من جوازات السفر، يزاد على ذلك أن أخبار الزيارات التى قمنا بها فى العام السابق إلى عــدد كبير من شيوخ العنزة وشيوخ الشمَّر كانت قد بلغت محمد بن الرشيد. كنا عند هذا

الحد قد تعلمنا قدرًا من العربية يمكن لنا معه الدخول فى المحادثة أو الحوار، وقد اكتشفنا أن ذلك الرجل جم الأدب وأنيس ولطيف، ومستعد للاستماع إلى كل ما نقوله له عن أحوال العالم الكبير الذى تنعزل عنه نجد انعزالا تاما بفعل الصحارى المحيطة بها. كان الرجل على استعداد أن يسمع منا كل ما لدينا من آراء عن الجزيرة العربية، وبخاصة طبائع وشخصيات مختلف رؤساء وشيوخ البدو، الذين يعادونه وينافسونه. لم يكن مهتمًا بالسياسة الأوروبية اهتمامًا كبيرًا، ولا حتى بسياسة إسطنبول أو مصر، لأن السلطان فى ذلك الزمان – وعلى الرغم من أن نجد كان يطلق عليها فى بغداد أنها واحدة من ولايات الإمبراطورية – لم يكن يحظى، بأى حال من الأحوال، باعتراف الأمراء الوهابيين به سلطانًا وسيدًا عليهم، وكانت العلاقات الوحيدة التى تربط هؤلاء الأمراء بذلك السلطان، على امتداد قرن من الزمن هى العلاقات التى تصطبغ بصبغة العداء. كانت ذكرى غزو محمد على باشا لنجد لا تزال ماثلة فى عقول هؤلاء الأمراء الوهابيين؛ يضاف إلى ذلك أن استيلاء مدحت باشا مؤخرًا على الأحساء، على الخليج الفارسى، وحملته الفاشلة التى قام بها على الجوف، كانا يثيران كثيرًا من الغضب والامتعاض فى حائل. وقد شفع لنا عند ابن الرشيد مجيئنا إليه بلا أية وساطة من السلطات العثمانية.

والنتائج التى ترتبت على هذه الزيارة الودية التى قمنا بها إلى عاصمة الجزيرة العربية المستقلة، هى ووجهة النظر التى حصلت عليها من هناك عن نظام الحكم القديم الموجود منذ قرون عدة فى وسط شبه الجزيرة العجيب، أكدا فى داخلى مشاعر حبى وحماسى وإعجابى بالعرق العربى. جاءت هذه الرحلة بمثابة "حبى" السياسى "الأول"؛ كانت بمثابة حكاية من الحكايات الرومانسية التى شدتنى وأخذتنى وشغلتنى، الأمر الذى جعلنى أصمم على بذل كل ما فى وسعى لمساعدتهم فى المحافظة على هبة الاستقلال الثمينة. كانت الجزيرة العربية تبدو لى أرضًا مقدسة، عثرت فيها على مهمة من مهام الحياة التى يتحتم علىّ القيام بها. وأنا لا أظن أنى أبالغ بأى حال من الأحوال، عندما أعدد الفضائل التقليدية التى رأيت الناس يمارسونها هناك.

ينظر المستشرقون كلهم إلى نظام الحكم البدوى باعتباره شكلاً من أشكال اللصوصية وقطع الطرق، وواقع الأمر أن هذا النظام، فى أبعاده الحضارية، ينزع إلى مثل هذه الأمور. لكن هذا النظام فى قلب الجزيرة العربية خلوٌ من هذه الأشياء. في نجد وحدها دونًا عن سائر بلاد الدنيا التى زرتها، سواء فى الشرق أو الغرب، تتجلى النعم الثلاث العظيمة التى نتفاخر بها نحن فى أوروبا، على الرغم من عدم امتلاكنا لها؛ هذه النعم الثلاث هى "حقائق واقعة" فى نجد: "الحرية، والمساواة، والأخوة"؛ هذه النعم الثلاث التى هى مجرد أسماء فى فرنسا، فى الوقت الذى يراها الناس مدونة على الجدران والحوائط، لكن كل رجل حر هنا فى نجد يتمتع بهذه النعم. هنا فى نجد الناس يحيون الحياة التى يحلم بها المثاليون منا، حياة خالية من الضرائب، وبلا شرطة، وبلا تجنيد، ودون قهر من أى نوع كان؛ القانون الوحيد فى هذا المجتمع هو الرأى العام، والنظام الوحيد فيه هو مبدأ الشرف. وجدت هنا أيضًا شعبًا فقيرًا لكنه قانع وراض، وفى ضوء احتياجاته البسيطة والقليلة يعيش أفراده حياة وفرة وفيض؛ هذا الشعب، أو بالأحرى هؤلاء الناس كانوا يجيبون على كل الأسئلة التى وجهتها إليهم (وكنت قد طرحت هذه الأسئلة فى بلاد كثيرة ولم أخرج منها خاوى الوفاض) قائلين: "الحمد لله، نحن لسنا مثل الأمم الأخرى، نحن هنا لنا حكومتنا الخاصة بنا، ونحن هنا راضين وقانعين". كان ذلك هو الذى ملأنى دهشة وسرورًا، حوّلنى من متفرج على محن وبلايا العالم الشرقى إلى شخص يمتلئ حماسًا إلى مد نعم الحرية هذه إلى الأمم الأخرى الواقعة فى إسار العبودية. وقد أسفرت رحلة عودتنا إلى العالم المتحضر الأقل سعادة وهناء فى كل من العراق وجنوب بلاد فارس، اللذان قمنا بزيارتهما فى فصل الربيع التالى، أسفرت عن زيادة قناعتى وتأكيد ذلك الذى ذهبت إليه فى تفكيرى. يا لبؤس المناطق السفلى من وادى الفرات إذا ما قارناها بنجد! هذه المناطق السفلى من وادى الفرات يسكنها الجنس العربى نفسه، لكنه جنس منحل، وفقير معدم، ومتوحش بفعل الحكم العثمانى! ويا لتعاسة منطقة عربستان الفارسية ! وأنا أبحث فى ذهنى عن بعض الوسائل التى يمكن بها إعادة هؤلاء العرب إلى كرامتهم الضائعة، ورفاههم الضائع، واحترامهم لأنفسهم، وفى غمضة عين وجدت أن

الحماية الإنجليزية، إذا ما أمكن إعطاؤها لهؤلاء العرب، يحتمل أن تكون هي الطريق إلى خلاصهم وإنقاذهم. ومع هذه الأفكار التى بدأت تتشكل وتتبلور في ذهني، بعد رحلة برية طويلة وصعبة من بغداد إلى بوشهر على الخليج الفارسى، ثم من بوشهر Bushire بطريق البحر إلى كراتشى، وجدت نفسى فى الهند في نهاية المطاف، التى كانت تنتظرنى فيها تجارب من نوع آخر ودرس جديد في اقتصاديات الأشياء الشرقية.

كان السبب وراء ذهابى إلى الهند، بعد الرحلة القاسية التى قمنا بها، يتمثل فى أننا عندما وصلنا إلى بوشهر، وجدنا بعض الرسائل فى انتظارنا وكانت من قبل اللورد ليتون Lytton الذى أجدنى بحاجة هنا إلى الحديث عن بعض سماته الشخصية، وذلك من باب الوفاء لذكراه الحبيبة، إذ كان الرجل مثلى من العاملين فى الخدمة الدبلوماسية؛ وكان قد سبق لى الخدمة معه في لشبونة Lisbon عام ١٨٦٥، وكنا نحن الاثنين نكتب الشعر ونعيش سويا، عيشة سعادة وود وهناء دامت بيننا منذ ذلك التاريخ. الآن، ونحن عام ١٨٧٩، يشغل الرجل منذ ما يزيد قليلاً على العامين منصب نائب الحاكم فى الهند، وفى الوقت الذى وصلنا فيه إلى سملا Simla كان الرجل قد وصل فى حملته الأفغانية الأولى إلى نهاية ناجحة، ووقع معاهدة جنداماك Gandamak خلال الشهر الأول من وجودنا معه. هذا اللورد ليتون Lytton صاحب المزاج الخرافى، على الرغم من عقلانية معتقداته الدينية، كان يمضى القسم الأكبر من وقت فراغه فى أثناء الحرب، على الرغم من دأبه وجده، فى عمل المناطيد، التى كان يطلقها بين الحين والآخر، متكهنًا بصعودها السريع أو البطيء حظا حسنا أو حظا سيئا لجيشه. لم يسمح اللورد ليتون لهذه النتائج وحدها تحديد مسار عمله، نظرًا لأن الرجل كان من العاملين المثابرين ومن أصحاب المنطق العقلانى السليم، وإنما كانت هذه النتائج تهدئ أيضًا من أعصاب الرجل، التى كانت مشدودة بصورة مستمرة، عندما يقوم بتلك الطقوس الخرافية الحميمة الصغيرة، التى كان يقنع نفسه بالإيمان بها. لقد أطلعنى الرجل على أفكاره الحميمة كلها، وقد تعلمت منه أشياء كثيرة فى مجال السياسة العالية التى لست في حل من الدخول فى تفاصيلها هنا، على الرغم من أن بعض جوانب هذه السياسة

موجود فى هذه المذكرات. أعرب اللورد ليتون عن تعاطفه مع أفكــارى العربيــة، باعتبارى رجلا رومانسيا وشاعرا، وأصدر تعليماته إلى السير الفريد لايال AlFred Lyall، الذى كان وزيرًا للخارجية فى ذلك الوقت، ليقوم بمناقشة ذلك الأمر معــى ويعطينى كل المعلومات المتيسرة.

لم تكن حكومة الهند البريطانية فى ذلك الوقت ميالة إلى المزيد من التقدم فى الخليج الفارسى. كان هناك منذ سنوات كثيرة مضت نوع ما من الحماية التى كانت البحرية الهندية تمارسها على الموانئ البحرية العربية؛ هذه الحماية كانت مقصورة تمامًا على منع القرصنة وفض المشاجرات بين القبائل فــى عــرض البحــر دون محاولة التدخل فى شئون هذه القبائل على البر؛ هذه الحماية كانت مفيدة تمامًا، يزاد على ذلك أن التأكيد الذى صدر مؤخرًا بإعادة السيادة العثمانية على هــذه القبائــل قوبل بالرفض من كالكتا Calcutta. كان السلطان عبد الحميد قد بدأ هو الآخر إثارة القلق بين سلطاتنا بدعايته عن الحركة الإسلامية، الأمر الذى كان يؤثر علــى ولاء المسلمين الهنود. وهنا راقت أفكار الاستقلال العربى لوجهــة النظــر الرســمية، وأرسل السير ألفريد لايال AlFred Lyall عنى تقريرًا طيبًا إلــى اللــورد ليتــون Lytton، إلى حد أن أصبحت هناك خطة شبه متفق عليها فيما بيننا تقضى بحتميــة عودتى فى الشتاء القادم إلى نجد، وأن أكون أنا حامل رسالة التهنئة من الوالى إلى ابن الرشيد. وأنا سعيد حاليا، عندما تعرفت على نحو أفــضل أســاليب الحكومــة الهندية، وإن هذا الإجراء أو الاقتراح لم تسفر عن نتائج عملية. ولو كان قد حــدث لوضعنى فى موضع مزيف، وجعل منى، فى أعينهم على غير وعــى منى – على الرغم من حسن النية إلى أبعد الحدود فى مساعدة العرب وخدمة قضية حــريتهم – أداة لسياسة ترمى إلى إخضاعهم والتحكم فيهم. فمن شــرور النظــام الإمبريــالى الإنجليزى، أنه لا يمكن أن يتطفل فى أى مكان بين أناس أحرار، حتى وإن كــان ذلك من باب النوايا الحسنة، دون أن يتسبب فى الشر أو الأذى فى نهاية المطــاف. هناك الكثير من المصالح الأنانية التى تعمل عملها حتى تحول البدايات الطيبة إلــى نهايات سيئة.

على كل حال، لم تكن هذه الأمور هي وحدها التي جرت مناقشتها والتحاور حولها مع اللورد ليتون هو ومرءوسيه. فقد قام السير جون ستراشي John Strachey وزير مالية اللورد ليتون، بإعطائي محاضرة عن التعليمات الخاصة بالمالية الهندية والاقتصاديات الهندية، وطرق التعامل مع المجاعات، والدخل العقاري، والعملة، والضرائب، كما ثقفني الرجل أيضًا في بعض المسائل الكبرى الأخرى التي كانت قيد الحوار والمناقشة في ذلك الوقت - كان السير جون ستراشي المسئول الرئيسي عما يسمى السياسة المتقدمة في الإنفاق العام - وأسفر ذلك عن نتيجة مفاجئة وغير متوقعة أدت إلى زعزعة ثقتي بالحكومة الهندية التي كنت حتى الآن أرى أنها الراعي الأمين للمصالح الوطنية. والمقتطفات التي أوردها هنا من بعض الرسائل التي كتبتها من سملا Simla في ذلك الوقت تبين كيف أن هذه النظرة الخاطفة أثرت عليَّ تأثيرًا كبيرًا: كتبت أقول: "لقد خاب أملي في الهند وأحسست بالإحباط؛ الهند تبدو لي محكومة حكمًا سيئًا مثل باقي دول آسيا، محكومة بمجرد النوايا الحسنة بدلاً من النوايا السيئة، أو من دون نوايا على الإطلاق. ها هي الضرائب الثقيلة نفسها، الأجانب هم الذين يحكمون الهند، وهذا هو تبذير الأموال القائم على قدم وساق في تركيا، وإذا كنا نرجو أن يكون المسئولون أغبياء بدلاً من أوغاد، فالنتيجة واحدة وأنا لا أرى فارقًا كبيرًا بين إجبار الهندوس الذين يموتون جوعًا على دفع مساعدات وضرائب لكاتدرائية في كلكتا Calcutta وإجبار البلغاريين على دفع ضرائب لتشييد قصر على مضيق البسفور. الفقر والعوز يأكلان هذه الإمبراطوريات العظيمة، متمثلان في حكوماتها المركزية، والحل الوحيد لازدهار هذه الإمبراطوريات الكبيرة هو تقسيمها إلى أقسام وترك هذه الأقسام تحكم نفسها بنفسها." كتبت أيضًا لصديق آخر، هو هاري براند Harry Brand، وهو عضو راديكالي في البرلمان، ويقال له لورد هامبدن Lord Hampden. "المواطنون، كما يسمونهم، هم جنس من العبيد، الخائفين، التعساء، والنحفاء بشكل مخيف. وعلى الرغم من أنني محافظ بمعنى الكلمة، وعضو في نادي كارلتون Carlton؛ فإنني أُصبت بصدمة جراء العبودية في مصر، التي يعيشها المواطنون. كما لقيت ثقتي بالمؤسسات البريطانية وثقتي

وإيمانى ببركات الحكم البريطانى، صفعة كبيرة. كنت أدرس أسرار المالية الهندية، فى ظل حكم "السادة الأفاضل"، الوزراء، والمفوضين، وما إلى ذلك منهم، وتوصلت إلى نتيجة مفادها إننا إذا ما استمرينا فى تنمية البلاد وتطويرها بالمعدل الحالى، فإن السكان سيلجئون، إن آجلا أم عاجلا، إلى الوحشية وأكل لحوم بعضهم بعضا، وسبب ذلك أنهم لن يجدوا أمامهم شيئًا سوى أكل بعضهم بعضنا. وأنا لا أفهم جيدًا الأسباب التى تجعلنا نحن الإنجليز نأخذ النقود من هؤلاء الهندوس الذين يموتون جوعًا لكى ننشئ بها لهم سككًا حديدية هم ليسوا بحاجة إليها، أو نقيم الطرق الرئيسية، أو مستشفيات الصحة النفسية، أو النصب التذكارية للسير بارتل فرير Frere، ولا أعرف الأسباب التى تدفعنا إلى الإصرار على أن نطعم من حفنات الأرز التى فى أيدى هؤلاء البؤساء جيوشًا كبيرة من رجال الشرطة والقضاة والمهندسين. إنهم لا يريدون شيئًا من ذلك كله. إنهم بحاجة ماسة إلى أرزهم، وهذا ما يدركه أى أحد من البشر عندما ينظر إلى أجسادهم وضلوعهم. وأنا أرى، أن هؤلاء الهندوس جرى تكبيلهم بالديون، والأشرف لنا أن نمتنع عن ذلك كله وألا نجعله دينًا على الهند. وأنا لا أرى أى شيء من الالتزام الأخلاقى الذى يجب أن تقر وتعترف به الحكومات عندما تفرض على الناس ضرائب لسداد ديون، هى التى تسببت فيها وليس الشعب. الديون العامة، حتى فى البلاد التى تحكم حكما ذاتيا، تحيط بها الشبهات والشكوك، فهذه الديون فى نظام إقطاعى أجنبى كما هو الحال فى الهند، هى مجرد عملية نصب واحتيال".

خلاصة القول، هذه الزيارة القصيرة التى قمت بها إلى مركز الرئاسة فى الهند كان لها تأثير كبير على صياغة وتشكيل أفكارى فى المسائل الأكبر الخاصة بالسياسة الإمبريالية، الأمر الذى جعل تلك الأفكار تنحو نحو المنحى الذى سارت فيه بعد ذلك. وأنا ما زلت أومن، لكن بثقة مضطربة، بالنوايا الحسنة، ولم أعد أؤمن بالنتائج الطيبة، المترتبة على حكمنا فى الشرق، وأنا أرى أن هذا الحكم يمكن أن يتحسن، وأن الشعب البريطانى سوف يصر على تحسين هذا الحكم إذا ما عرف حقيقة ما يجرى.

من بين ذكرياتى عن الشهرين اللذين أقمتيمــا مــع اللــورد ليتــون فــى "بيترهوف" Peterhoff، باعتبارها مقرا لنائب الحاكم، ذكرى تتعلق بحفــل العــشاء الذى جلست فيه بجوار كفاجنارى Cavagnari فى المساء السابق لقيامــه بمهمتــه المشئومة في كابول. كفاجنارى هذا كان رجلاً لطيفا، وعلى حد قوله، هــو حفيــد لواحد من التجار البنادقة، الذى قام، بعد احتلال الجيش الجمهورى الفرنسى مدينــة البندقية، بإقراض بونابرت Bonaparte مبلغا كبيرا من المال، لم يقم الرجل بسداده. من ناحية ثانية، كافأ الإمبراطور كافاجنارى، بأن اتخذ من ولده سكرتيرا خاصا له، الأمر الذى جعل من الرجل مواليا مخلصا للأسرة الإمبراطوريــة. كــان لــويس بونابرت كفاجنارى Cavagnari، الحفيد، من المؤيدين الأشداء لبونابرت، وبــسبب اسمه كان يظن أن هناك مستقبلا مرموقا جدا ينتظره. كان الرجل يؤمن "بطالعــه" Star الفلكى إيمانا راسخا، وقد تلمست ذلك ووقفت عليه من حواره معى فى تلــك الليلة – كان ذلك الحوار طويلاً وحميمًا – وكان آخر ما يمكن أن يفكر فيــه ذلــك الرجل هو الفشل أو الخطر الذى يمكن أن يحدق بحملته. ومع ذلك، لا بد أن يكون لويس بونابرت قد لقى تحذيرا من الأخبار الأليمة، التــى تحاورنــا فيهــا أيــضا، والخاصة بوفاة الأمير إمبريال Imperial فى جنوب إفريقيا. وعندما افترقنا وعدناه أنا وزوجتى بزيارته فى كابول Kabul فى فصل الخريف. قال الرجــل: "وعلــى الرغم من ذلك، يجب ألا تأتينا، قبل موسم الخريف، لأنى لن أكون قد تمكنت بعــد من تجهيز المقر على نحو يناسب إقامة السيدات". ولم ينوه الرجل عــن أى ســبب من الأسباب الخطيرة الأخرى.

كان كولى Colley من بين معارفى فى تلك الفترة أيضا، والرجل له صــلة بالتاريخ الأليم. فقد كان فى ذلك الوقت سكرتيرا عسكريا للــورد ليتــون Lytton، وقدر له أن يتوفى فى العام التالى على تل ماجوبا Majuba. كان اللورد ليتون يقدر مواهب كولى العسكرية حق التقدير، وفيما بينهما هما الاثنان كان يجــرى توجيــه وقيادة الحملة الأفغانية من منطقة سملا Simla. كان خطأ الرجل الوحيد يتمثل فــى ثقته الزائدة بنفسه عن الحد وطموحه الزائد عن الحد. قام الرجل باحتلال ماجوبــا لأنه لم يطق أن تنتهى الحملة دون تحقيــق مكــسب شخــصى. وكــان ملجونــد

Melgund، الذى يلقَّب حاليا باللورد منتو Minto، هو وبول كـــارو Pole Carew، وبرابازون Brabazon الذى كان ضابطًا معاونًا للورد ليتون، كل هـــؤلاء الثلاثـــة كانوا، ومعهم اللورد رالف كير Ralph Kerr كانوا من بين أصـــدقائنا فـــى ذلـــك الوقت؛ وكان من بين أصدقائنا أيضًا كل من بلودن Plowden وباتن Batten اللذان لهما زوجتان جميلتان. قمنا برحلة العودة من بومباى Bombay بـــصحبة ملجونـــد Melgund هو والرائد جاك نابيير Jack Napier، وغادرنا الهند فى اليـــوم الثـــانى عشر من شهر يوليو فى عنفوان الرياح الموسمية، ووصلنا إلى السويس فى اليـــوم الخامس والعشرين من شهر يوليو، لنصل بالقطار إلى الإسكندرية فى اليوم نفسه.

أظن أننا فى أثناء مرورنا على عدن، ونحن فى طريقنا إلى البحر الأحمـــر، علمنا بالخبر الكبير فى ذلك اليوم، ألا وهو عزل الخديو إسماعيل، وقد أسعدنا هذا العزل أيما سعادة، وما إن وصلنا إلى الإسكندرية حتى عرفنا التفاصـــيل الكاملـــة لدور الخديو إسماعيل نفسه فى هذا العزل؛ وقد وقفنا على هـــذه التفاصـــيل مـــن صديقى الحميم، منذ أيامى الدبلوماسية، فرانـــك لاســـيلز Frank Lascelles، الـــذى وجدته قائمًا بعمل القنصل العام فى الوكالة Agency البريطانية. لم يكن ما قاله لى لاسيلز مختلفًا عن الرواية التى جرى نشرها رسميا، وأنا لست بحاجة إلى تكـــرار ذلك هنا. على الجانب الآخر، نجد أن ما لا يعرفه عامة الناس هو الدور الذى لعبه آل روتشيلد فى هذا العزل، وهذا أمر لم يكن لاسيلز يعرفه فى ذلك الوقت، ولكنى سمعته بعد ذلك من السير رفرز ولسون. الواقع أن الـــسير رفـــرز ولـــسون، راح يتباهى بأنه استطاع من خلال آل روتشيلد أن يثأر لنفسه تمامًا. قال لـــى ولـــسون، بعد عودته من مصر، مكسورًا ومدحورًا، وبعد أن تخلت عنه حكومته، أنه اتجـــه مباشرة إلى آل روتشيلد فى باريس وراح يعرض عليهم الخطر المحدق بـــأموالهم نتيجة التحول الذى طرأ على الأمور فى كل من القاهرة والإســـكندرية. وأخبـــرهم أيضًا أن ينتوى إنكار الدين كله ويحمى نفسه فى ذلك بإعلان قيام حكومة دستورية فى مصر، وأنهم إذا لم يحولوا دون وقوع ذلك، فسوف يضيع كل شىء. و نجـــح السير رفرز ولسون فى إثارة الذعر فى نفوس آل روتـــشيلد، ممـــا دفعهـــم إلـــى استعمال نفوذهم السياسى الهائل لإحداث التدخل الفعلى. قام آل روتشيلد فى بدايـــة

الأمر بتحريك الأمور وجس النبض في مجلس الوزراء البريطاني وفي مجلس الوزراء الفرنسي لكن بلا جدوى. لم تكن الحكومة الإنجليزية في حال نفسي يسمح لها بالتدخل، فقد بدأت المتاعب تهل عليها من جنوب إفريقيا؛ ولم تكن باريس هي الأخرى مستعدة أو راغبة في ذلك التدخل. وعندما ازداد قلق آل روتشيلد على أموالهم راحوا يتضرعون إلى بسمارك Bismark في برلين؛ وبسمارك هذا هو الذي بسط، منذ أيام فرانكفورت Frankfurt نوعًا من الحماية على ذلك البيت العبري العظيم، ولم يذهب ذلك التضرع أدراج الرياح أو دون جدوى. حيث أفهم المستشار الألماني، أقوى الأقوياء، كلا من الحكومة الفرنسية والحكومة الإنجليزية أنهما إذا لم تكونا قادرتين على التدخل في مصر تدخلاً فاعلاً حفاظًا على مصالح حملة الأسهم والسندات، فإن الحومة الألمانية سوف تتبنى بنفسها قضية آل روتشيلد. فأدى ذلك إلى حسم الأمر، وجرى الاتفاق على أن أقل أشكال التدخل عنفًا يتمثل في أن يطلب من السلطان عزل تابعه الإقطاعي المسرف. وظل إسماعيل إلى آخر لحظة يرفض تصديق أن الباب العالي، الذي أغدق عليه ملايين كثيرة، ولا يزال المال في يديه – لأن لديه كنوزًا مخبأة – يمكن أن يتخلى عنه. كان الضغط من أوروبا قويا جدا. يزعم ولسون أن مسألة مَنْ سيخلف إسماعيل عُرضت عليه، وأن ذلك الخيار كان بين حليم باشا، الذي كان السلطان يفضله، وبين الأمير توفيق، وأن ولسون فضل توفيق من منطلق أنه يعرفه كشخصية ضعيفة وأنه سيكون أداة سياسية طيعة. وكان ما كان، لكن البرقية الحاسمة أرسلت إلى إسماعيل لتحمل إليه نبأ سقوطه وأن مهام وواجبات الحاكم المناب انتقلت منه إلى ولده. وكان من سوء حظ لاسيلز Lascelles، أن يحمل هو نبأ العزل إلى الطاغية العجوز الذي دام حكمه ثمانية عشر عامًا من الدمار واللامسئولية. وإشباعًا لرغبته في السلب والنهب، كان آخر عمل يقوم به، متمثل في تجريد الخزانة من حسابها الجاري، وكذلك جمع الأشياء الثمينة من جميع الأماكن التي استطاع الوصول إليها، ثم ينسحب بعد ذلك إلى يخته "المحروسة" ومعه غنيمة أخذها من رعاياه المصريين، قيل إنها تقدر بحوالي ثلاثة ملايين جنيه إنجليزي. ولم يهتم أحد باعتراض طريقه ولا حتى مساءلته ولم يطلب منه أحد البقاء ولو لساعة واحدة.

الفصل الرابع

السياسة الإنجليزية عام ١٨٨٠

انتهت مسألة وفاة كفانجارى Cavangari المأساوية فى كابول، والتى وقعت قبل صيف عام ١٨٧٩؛ هذه الكارثة أدخلت اللـورد ليتـون فـى حـرب جديـدة ومشكلات سياسية لا تنتهى، الأمر الذى أنهى المشروعات كليـا التـى أعـددناها للسفر فى هذا العام، سواء إلى أفغانستان أو الجزيرة العربيـة. وعليـه، أمـضيت حوالى اثنى عشر شهرًا فى إنجلترا، وكانت هذه المدة أكثر المدد الزمنية انـشغالاً فى حياتى. حتى ذلك العام، وعلى الرغم من أنى كنت فى العـام الأربعـين مـن عمرى، لم أكن قد اضطلعت بأى دور فى السياسة، أو إلقاء خطبة فى جمهور مـن الناس، أو كتبت أية مراجعة لأية مجلة من المجلات، أو خطابًا لأية صـحيفة مـن الصحف. ونظرًا لأنى كنت من النوع الخجول فى مطلع حياتى فقد ابتعـدت عـن الظهور والشعبية بكل أشكالهما، يزاد على ذلك أن التدريب الدبلوماسى الذى تلقيته زاد من كراهية حبى للظهور. الدبلوماسية سواء أكان أم لم يكن لديها مـا تخفيـه، تؤثر مسألة السرِّية فى أغلب الأحيان، وغالبًـا مـا ترتـاب فـى الكـلام العـام والمخادعات والمواربات الصحفية. ومع ذلك، وبعد أن أقنعت نفسى بأنى صـاحب رسالة ومهمة فى العالم الشرقى، ومهما كان غموض أو هلامية هذه المهمة، بدأت أتكلم وأكتب، بل وتغلبت على خجلى إلى حد أنى ظهرت علـى الحلبـة مـرة أو مرتين. كانت المرة الأولى فى حياتى التى تحدثت فيها إلى جمهور من الناس، فى اجتماع للرابطة البريطانية، انعقد فى مدينة شـيفلد Sheffield فـى اليـوم الثـانى والعشرين من شهر أغسطس، دُعيت إليه بصفتى رحَّالاً متميزًا، بالإضافة إلى كـل من إم. سربا بنتو Serpa Pinto، وإم. دى. بـرازًّا Brazza، والنقيـب كـاميرون Cameron، وكلهم شهيرون فى مجال الترحال فى إفريقيا، وفـى هـذا الاجتمـاع أعربت عن معارضتى لدفاع النقيب كاميرون عن خط حديد الفرات. كنت أتحـدث عن هذا الموضوع بالمزيد من الثقة والحجج والوعى أكثر من النقيـب كـاميرون نفسه؛ وسبب ذلك أن هذا النقيب عندما طبَّل وزمَّر قبل قيامـه باستكـشاف ذلـك

الطريق فى العام السابق، كان قد رجع عندما بلغ ذلك الجزء الوعر من ذلك المسار، أو إن شئت فقل: الطريق – هذا الجزء الوعر الذى يقع بين بغداد وبوشهر Bushire – فى حين قمنا نحن بقطع الطريق كله من البحر إلى البحر؛ واتبعت اعتراضى على ذلك الخط، بمقال، عن هذا الموضوع، هو المقال الأول فى حياتى، ونشرته مجلة Fortnightly Review. كان جون مورلى John Morley فى ذلك الوقت محررًا فى هذه المجلة، وكان اللورد ليتون Lytton قد قدمنى إليه، وأقنعه بالاهتمام بأفكارى عن الشرق. هاتان المغامرتان الصغيرتان، الشفهية منهما والقلمية، شجعتانى على عمل المزيد فى ذلك الاتجاه الذى أصبح الآن مجالاً لدعايتى، وكنت مشغولاً أيضًا بالشعر؛ هذا بالإضافة أيضًا إلى انشغالى بكتاب زوجتى عن الترحال "حج إلى نجد"، إذ كان مطلوبًا منى ترتيب هذا الكتاب وتحريره(*). وقد استغرق منى هذا العمل فصل الشتاء بكامله.

لم أشغل نفسى بمسألة السياسة الداخلية على الإطلاق، على الرغم من الأزمة التى كانت دائرة فى تلك الأيام، وكان جلادستون Gladstone، فى أعز ابتهالاته وصلواته نظرًا لأن انتخابات عام ١٨٨٠ كانت على الأبواب. وفيما يتعلق بإنجلترا كانت مشاعرى وتعاطفى لا تزال مع المحافظين، وفيما يتعلق بقضايا الشرق، كنت أنظر إلى جلادستون، بحكم حبى القليل للأتراك، أنه جَهُول ومتطرف. كان أصدقائى المقربين، باستثناء اثنين أو ثلاثة منهم: هارى براند Harry Brand، وإيدى هاميلتون Eddy Hamilton، كلهم من المحافظين، وقد أعمانى حبى للورد ليتون Lytton عن الخطايا الإمبريالية البشعة التى ارتكبها دزرائيلى. وتعلقت بفكرة أن إنجلترا فى الشرق، يمكن لها من خلال تفسير معاهدة قبرص تفسيرًا جيدًا، أن تكون أداة للخير، كما كانت تتقاذفنى آمال ومخاوف متعارضة فيما يتصل بوضعها الإمبريالى. وأنا لم أصل إلى خطة محددة إلا بعد أن اتضحت لى أفكارى بعد أن دونتها وطبعتها. كانت مسألة إنشاء إسطبل خيولى العربية من بين مشاغلى

(*) هذا الكتاب المعنون "حج إلى نجد" يقع فى جزأين، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن ونشره المركز القومى للترجمة، فى جمهورية مصر العربية. (المترجم)

الكبرى فى ذلك العام أيضًا. وقد أنشأت ذلك الإسطبل فى كرابت Grabbet، وتطلب ذلك منى الاستمرار فى الاتصال بالاتحاد العالمى لمربـــى الخيـــول والرياضــة العالمية، كما تواصلت أيضًا وبصورة علنية مـــع نـــادى جـــوكى Jockey Club. والعجيب بحق أنى بدأت مع السيد جلادستون Gladstone مجموعة مـــن الرســـائل الإنجيلية حول مسألة لحم الخيول. وبحكم هواية الرجل الـــشهيرة وحبـــه لليونـــان القديمة Greece، فقد زاد تطلعه إلى معرفة رأيى فى الخيـــول القديمـــة، وبخاصـــة السلالات المحتملة من خيول اليونان وطروادة Troy؛ ووصلتنى أيضًا رسالة مـــن خلال السيد نويلز Knowles، محرر مجلة: Nineteenth Century Review يطلـــب إلىَّ فيها إعداد مذكرة عن التاريخ النَّسبى والسلالى لهذه الخيول. هذه المذكرة، هى وحادث تعيين جلادستون، إدوارد هاميلتون، صديقى الحميم، سكرتيرا خاصا لـــه، الذى تولى المنصب خلفًا لدزرائيلى فى شهر أبريل، كانا بمثابة الرابطين اللذين أديا فيما بعد إلى تبادل الرسائل بيننا حول الشئون المصرية.

وفيما يلى أورد بعض النتف الصغيرة، من مذكراتى اليوميـــة التـــى بـــدأت كتابتها فى عام ١٨٨٠، وهى توضح تلك الفوضى الفكرية، والأدبية، والاجتماعيـــة التى عشتها أنا فى ذلك العام. هذه النتف أو المقتطفات بالشكل التـــى هـــى عليـــه، ترتبط بالشئون الشرقية بشكل أو بآخر، وأنا أجد هذه الشئون مدفونة فى كتلة مـــن الملاحظات التى تسجل أحداثًا ذات أهمية خاصة وأحداثًا ذات أهمية زائلة، لكنهـــا كلها لم تعدلها قيمة فى الوقت الحـــالى. المقتطـــف الأول يرســـم صـــورة للـــورد ستراتفورد ردكليف Stratford Redcliffe الذى عمل سفيرًا لنا فى إسطنبول علـــى امتداد سنوات كثيرة، والذى كان متقاعدًا فى ذلك الوقت وفى سن متقدمة جدا مـــع ابنتيه على حدود كل من كنت Kent وسسكس Sussex:

مارس ١٨٨٠

قمت بزيارة إلى اللورد ستراتفورد ردكليف فى بلدة فرانت Frant. وأعطانى بحثًا عن الإصلاحات فى تركيا، وهو يفكر فى إرسال هذا البحـــث إلـــى جريـــدة

"التايمز" Times، وقرأت ذلك البحث وأنا فى سريرى. حيث بدا من إعداد رجل متقدم فى السن، والبحث غامض ومفكك وغير مترابط، وقل أن تجد فيه مسحة من الحيوية. كبار السن يتعين عليهم ألا يكتبوا شيئًا سوى مذكراتهم. واللورد ستراتفور يبلغ من العمر أربعة وتسعين عامًا. ومع ذلك، فهو رجل عجوز عجيب، وصاحب محيا لطيف للغاية، وبشرته بيضاء مثل الحليب ولها لون أوراق الورد البلدى، وعيناه زرقاوان لامعتان، وشعره أبيض بياض الثلج. وعلى الرغم من أنه يكاد يكون أطرشًا أو أصما؛ فإنه لا يزال يتكلم بطريقة جيدة تمامًا. وكتبت له مذكرة ردا على رسالته ضمنتها آرائي عن تركيا الآسيوية، وأمضيت معه بعد ذلك صباحًا رحت أستمع خلاله إلى ذكريات الرجل عن العالم القديم. كان اللورد ستراتفورد قائمًا بالأعمال، فى سفارتنا فى إسطنبول، عندما مر عليها اللورد بايرون Byron فى رحلته المسماة شايلد هارولد Childe Harold، وقد رافقه اللورد ستراتفورد راكبًا معه طوال ستة أسابيع. كان بايرون رجلاً سائغًا ومقبولاً تمامًا، ولم يكن هناك شيء مقيت فى حواره. سبق للورد ستراتفورد (قبل ذلك) أن التقى بايرون فى ملعب الكريكت، فى أثناء المباراة التى كانت بين إيتون Eton وهارو Harrow، اللذين كانا يلعبان متنافسين. كان بايرون "يلعب الكريكت على قدر طاقته بحكم ضعفه وعجزه". أما اللورد ستراتفورد، فلم يكن على استعداد مطلقًا، أن يترك شيئًا يمكن أن يعكر الصفو بين بايرون من ناحية والسيدة كارولاين لامب Caroline Lamb من الناحية الأخرى. الانطباع الذى تركه لدى اللورد ستراتفورد هو الحنان، والطيبة البالغة، واللطف والرقة البالغة، وهذه كلها أمور غريبة على سمعة الرجل وصيته. وفضلت الجلوس والاستماع إلى هذه الاعترافات عن العالم القديم، على الحديث عن أجمل جميلات لندن".

١٦ مارس

تناولت الإفطار مع السير ريفرز ولسون، وتحاورنا حول شخصية العقيد جوردون Gordon. اتفقت الدنيا كلها على أنه رجل عجيب؛ حكم الرجل السودان

طيلة أربعة أعوام بلا معين، وقمع تجارة الرقيق قمعا تاما. وهو الآن يعــود إلــى إنجلترا ولم يفعل أى أحد شيئًا من أجله. يضاف إلى ذلك أنه لــن يحظــى بمقابلــة اللورد "بيكونزفيلد" Beaconsfield أو أى أحد آخر من الوزراء. لقد ارتكب اللــورد جوردون خطأ (منذ بداية علاقته بهذين الرجلين). كان الرجل فى أثناء مروره عبر باريس (وهو فى طريق عودته إلى إنجلترا) قد زار اللــورد ليــونز Lyons (فــى السفارة)، ورجاه أن يعمل على تعيين خلف أوروبى له فى السودان، وهدد الرجــل فى أثناء الحوار أنه إذا لم تفعل الحكومة الإنجليزية ذلك فإنه ســوف يتوجــه إلــى الحكومة الفرنسية بهذا المطلب. وتلا ذلك تبادل بعض الرسائل مع اللــورد ليــونز Lyons؛ وأنهى جوردون تلك المراسلات برسالة أخيرة مفرطة جاء فيها: "عزائــى الوحيد هو أنه فى خلال عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا ســوف لا يعنــى هــذا الأمر شيئًا لكلينا. صندوق أسود، طوله ستة أقدام وست بوصات وعرضــه ثلاثــة أقدام، سوف يضم ذلك الذى يتبقى من الغيــر، أو رئــيس الــوزراء، أو خادمــك المتواضع المطيع". هذه المقولة هى التى جعلت من الرجل مجنونــًا (فــى أعــين الرسميين) . هذا الرجل غادر أوروبا إلى زنزبار لتخليص نفسه مما هو فيه.

هذه الطرفة الصغيرة شيء شديد التميز فى جوردون وتنسجم مع كثير مــن مراسلاته وخطاباته، طوال السنوات الأربع الأخيرة مع الــسير إيفلــين بـــارنج Evelyn Baring. كان المسئولون كارهين دومًا لغوردون، نظرًا لأن الرجل كــان يخرق دومًا أعراف دبلوماسيتهم وأعراف حواراتهم الرسمية. ظن بعض الناس أن جوردون مجنونًا، وظن آخرون أنه كان متطرفا دينيا، يرجع إلى إنجيله كلما احتار بين أمرين بحثًا عن وحى إلهى، أو قد يلجأ إلى "تدوير العملة(*)" فى نهاية المطاف. فى اللحظة التى كنت أكتب فيها، وهى مطلع ربيع عــام ١٨٨٠، كــان جــوردون غاضبًا من الحكومة الإنجليزية للدور الذى قامت به فى عزل الخديو إسماعيل؛ كان جوردون يحب إسماعيل لسبب أو لآخر، وكان يكره خلفه توفيــق، ومــا إن علــم جوردون بما حدث وهو فى الخرطوم، تخلى عن حكمته، وغضب غضبًا شــديدًا، لأن باشا تركيًا، وليس أوروبيا، هو الذى حل محل إسماعيل باشا. كان جــوردون

(*) المقصود بتدوير العملة هنا: هو عمل قرعة للخيار بين أمرين. (المترجم)

رجلا عبقريا وفيه كثير من الخصال النبيلة، ومع ذلك كان الرجل حزمة من المتناقضات، وكان المسئولون على حق عندما نظروا إليه على أنه لم يكن بكامل قواه العقلية في كل الأوقات. كانت تلك هي وجهة النظر الرسمية، كما سيتضح فيما بعد، حتى عندما كان جرى تكليف الرجل من قبل وزارة الخارجية بالمهمة التي قام بها في السودان.

وفيما يلي أورد هنا أيضًا بنفس التاريخ، أي اليوم السادس عشر من شهر مارس، هذا الكلام المهم: "قمت بزيارة الكاردينال مانِنج Manning. ودار حديثنا عن السياسة. سألني الكاردينال عن الإدلاء بصوتي في الانتخابات. قلت: "ينبغي أن أصوِّتَ على اعتبار واحد فقط، نظير ورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات إنجليزية". الكاردينال: "هل تعني أنك لن تدلي بصوتك على الإطلاق؟" أنا: "أنا يمكن ألا أهتم بهذه الأشياء. أنا أنظر إلى الحضارة الأوروبية باعتبارها شيئًا فانيًا وزائلاً، وأنظر إلى السياسة باعتبارها دخيلة أو ذريعة لا تقدم النهاية أو تؤخرها". الكاردينال: "أنا أشاركك الرأي نفسه، لكن ربما لأسباب مختلفة. أوروبا ترفض المسيحية، ومع رفضها للمسيحية ترفض أيضًا القانون الأخلاقي. حكم القوة آخذ في الانتشار مرة ثانية، مثلما حدث في العصور السابقة، وسوف يترتب على هذه القوة سفك الدماء والخراب. وقد تقوم الكنيسة ببناء أو تأسيس شيء جديد على ذلك الخراب وتلك الأنقاض". وعندما راح الكاردينال يتكلم عن آسيا، قال: "إن رالف كير Ralph Kerr أخبره أن سكان الهند يعزون اعتدال حكامنا إلى الخوف. والهنود يحترمون الروس لأنهم يحكمون بالقانون العسكري". أنا: "الروس آسيويون. وهم يحكمون بطريقة آسيوية – بالغش والخداع والنصب، إن أمكن – وإذا لم يتيسر ذلك، يحكمون بالقوة. والآسيويون يفهمون ذلك". الكاردينال: "الروس، كما تقول أنت، آسيويون؛ وأنا أزيد على ما تقول أن العدميين(*) Nihilists بوذيين Bddhists. ومعروف أن العدمية هي نتاج شرقي وليست نتاجًا غربيًا".

(*) العدمية: مذهب ينكر أن يكون للمبادئ الأخلاقية أي أساس موضوعي، هذا يعني عند أصحاب أو أتباع هذه النظرية أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه. (المترجم)

يجب ألا يغيب عنا أن الانتخابات العامة التى جرت عام ١٨٨٠ خاضها المرشحون على نطاق كبير جدا حول مسائل السياسة الشرقية. كان جلادستون فى حملته الانتخابية يهاجم مشروع دزرائيلى هجومًا ضاريًا وبخاصة فيما يتعلق بالتوسع الإمبريالى، كما استنكر تدخل دزرائيلى لدى كل من إسطنبول وبرلين لصالح الأتراك موضحًا أنه عمل لا أخلاقى تمامًا، ونعت حصوله على قبرص بالنعت نفسه، وكذلك شراؤه لأسهم قناة السويس، وكذلك غزوه لمصر واعتداؤه عليها – كما وصف أيضًا الحملتين اللتين قام بهما ليتون Lytton على أفغانستان، وكذلك حرب البوير التى كانت لا تزال مستعرة فى جنوب إفريقيا بأنها أعمال لا أخلاقية تمامًا. فيما يتصل بمصر، كان جلادستون قد نشر آراءه عام ١٨٧٧، كما نشر هذه الآراء أيضًا فى مقال نشر فى عدد شهر أغسطس من "مجلة القرن التاسع عشر" Nineteenth Century Review، من ذلك العام. فى هذا المقال المعنون "العدوان على مصر والحرية فى الشرق" أعلن جلادستون بصورة واضحة وبأقوى التعبيرات والمصطلحات معارضته لأى عمل تقوم به إنجلترا ويترتب عليه أى شكل من أشكال المسئولية على وادى النيل. هذا المقال شهير تمامًا، ونافذ البصيرة بشكل عجيب، فى توقعه للشرور التى يمكن أن ينزلها دزرائيلى بمصر؛ وهذا هو ما يجعلنا نقتبس بعض الأشياء من ذلك المقال. يعارض جلادستون مثل هذا العدوان معارضة شديدة لجملة أسباب: أولاً، أن ذلك يزيد من أعباء إنجلترا فى حكم الشرق؛ وهذه الأعباء ثقيلة بالفعل؛ ثانيًا، أن توسعات الحكم الإمبريالى لا يمكن أن تحدث إلا عن طريق الأساليب والوسائل غير الأخلاقية؛ ثالثًا، فيما يتصل بمصر، فإن التظاهر بحماية الطريق المؤدى إلى الهند، عن طريق احتلال وادى النيل، يعد عذرًا أو سببًا واهيًا، نظرًا لأن طريق رأس الرجاء الصالح هو خط المواصلات الوحيد والحقيقى الذى تسلكه إنجلترا؛ ورابعًا، أن التدخل بأى شكل كان، فى قناة السويس أو فى القاهرة لا بد أن يؤدى إلى المزيد والمزيد من المغامرات فى إفريقيا. يكتب الرجل: "مكاننا الأول فى مصر سواء جاء عن طريق اللصوصية أو اشتريناه، سيكون بمثابة المكان الممتاز لإمبراطورية فى شمال

إفريقيا سوف تكبر وتنمو، إلى أن تصبح بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبـرت Albert، وهما مصدران للنيل الأبيض، داخل حدودنا، وإلى أن نضع أيدينا فى أيدى بعضنا بعضًا عبر خط الاستواء مع ناتال ومدينة الكاب، ناهيك عن الترنسفال ونهر أورانج Orange فى الجنوب، أو فى الحبشة، أو زنزبار اللتان يمكن ابتلاعيهما ونحن سائرين فى طريق رحلتنا – وبعد ذلك، وعندما تمتد إمبراطوريتنا العظيمة إلى أركان الدنيا الأربعة ... هنا يمكن أن نكون قانعين بالأرض، لكننا لن نكون هادئى البال أو مرتاحين". دافع جلادستون أيضًا عن استمرار الحكم الإسلامى الذاتى فى القاهرة". يقول: "المشاعر التى قد نسىء إليها فى مصر هى من النوع المنطقى والعادل. ومصر مأهولة بمجتمع مسلم منذ قرون كثيرة. وهذا المجتمع محكوم دومًا بالتأثيرات والقوى الإسلامية. وخلال جزء من هذه الفترة كان لمصر سلاطين خاصين بها. وفى الفترة الأخيرة، وعندما كانت مصر تابعة سياسيًا لإسطنبول، كان يجرى حكمها من الداخل من الناحية العملية، وهذا بحد ذاته يعد حادثًا سعيدًا فى أى بلد من البلدان، وبالتالى يتوجب علينا عدم تغيير وضع يكون من هذا القبيل. الضيم والظلم الواقع على الناس كبير بطبيعة الحال، لكن ليست هناك دلائل على أن ذلك الضيم والظلم يستعصيان على العلاج. الإسلام يبدو حاليا، فى ضوء الخبرة والتجربة عاجز عن إقامة حكم جيد أو متسامح يحكم الأعراق المسيحية المتحضرة؛ لكن ما هو الدليل الذى لدينا على أن المجتمع الإسلامى الخالى من المضاعفات العرقية، أو الدينية، أو المضاعفات الخاصة بالأعراف والتقاليد أو باللغة، لن تتحقق فيه أهداف المجتمع السياسى، كما يفهمها المسلمون، بشكل معقول ومقبول". أخيرًا. استشرف الرجل النزاع الذى يمكن أن ينشأ بين إنجلترا وفرنسا إذا ما حاولت إنجلترا احتلال مصر أو الاستيلاء عليها: "أنا على يقين، من أن اليوم الذى سيشهد احتلالنا لمصر سيكون بمثابة الوداع الأخير لكل تلك العلاقات السياسية الودية التى بين فرنسا وإنجلترا. قد لا يكون هناك صراع مباشر، قد لا تكون هناك دلائل أو مؤشرات خارجية، لكن سيكون هناك حقد وغضب صامت، سيكون هناك حقد وغليان وفوران، شبيه بذلك الحقد والغضب

الذى تملك أمريكا فى أثناء الحرب الأهلية، والذى انطفأت نيرانه فى الوقت الحاضر؛ هذا الغضب يتحين فرصة حدوث شىء من الحرج من جانبنا، ويتحين حلول السلام والارتياح على الجانب الفرنسى. الأمم والدول لها ذكريات طويلة".
وينهى الرجل مقاله بتحذير حاسم ومناشدة العلى القدير ﷻ أن يدحض دسائس مجالس الوزراء ويفندها، ويُؤَمِّن التحرير الكامل للشرق. ويختم الرجل مقاله قائلاً: "الأرض لم يباركها خلاص من هذا القبيل منذ قرون عدة. ونحن أهل هذا البلد (إنجلترا) نشعر بالحزن والألم لأننا لم نفعل شيئًا من أجل تحقيق هذا الخلاص. ومهما يحدث، لن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك الذى يقف أمام بابنا. دعونا نأمل ألا نضيف إلى مهمة التنازل عن العرش فصلاً آخر من فصول الأخطاء المستمرة".

هذه التصريحات النبيلة، التى جرى التأكيد عليها فى عشرات الخطابات فى أثناء حملة الانتخابات العامة فى عام ١٨٨٠، لا بد من تعاطفى معها؛ وليتنا أخذنا هذه التصريحات مأخذ الجد أو على أنها تمثل السياسة التى سينتهجها حزب الأحرار إذا ما وصل إلى الحكم. لكن جلادستون، لم يوح إلىَّ فى ذلك الوقت بأى شىء من الثقة، كما بدا لى أيضًا أن الفارق بين المحافظين والعمال طفيف جدا.

٢٠ مارس

تناول جون بولن John Pollen (السكرتير الخاص للورد رايبون Ripon فى ذلك الوقت) الغداء معنا. وتحدثنا عن الانتخابات واتفقنا على أن الفارق ليس كبيرًا بين المحافظين والعمال. وأنا لن أدلى بصوتى. على الرغم من أن سياسة اللورد سولسبرى كانت أقل تفاهة وخسة من سياسة اللورد جرانفل Granville أو سياسة اللورد جلادستون Gladstone التى تميل إلى الألمان وعلى نحو لم يعجبنى أو يروق لى. ومسألة شد ألمانيا إلى إسطنبول، سيكون خطأ أفدح من أى شىء يمكن أن تحققه روسيا.

٦ أبريل

باريس (انتهت الانتخابات وأسفرت عن أغلبية ليبرالية كبيرة). تناولت أنا وجودفرى ويب Godfrey Webb طعام الأفطار مع بترز Bitters (ولد عمى فرانسس Francis جور كورى Gore Currie)، ثم ذهبت بعد ذلك إلى السفارة. حيث التقيت شيفلد Sheffield (السكرتير الخاص للورد ليونز Lyons) الذى كان مهتمًا جدا بحكومة من الأحرار – واستمعت إلى ما قاله لهارتنجتون Hartington، وما قاله له جرانفيل. وعلى الرغم من ابتعادى عن السياسة، فإنى أقر بأنى أرى أن الانتصار الذى حققه جلادستون يعد كارثة كبيرة. الجانب الذى ينتمى إليه جلادستون قوى إلى الحد الذى سيجعلنا نشاهد كل أنواع التلاعب بدستورنا البريطانى. سيجرى تعرية قوانين اللعبة، وقوانين الأرض، كما سيجرى الكشف عن المستور كله. وسوف تعانى سياستنا فى آسيا معاناة كبيرة. المحافظون لا يعرفون شيئًا عن الشرق وسوف يخافون من معارضة سياسة العمال، وسوف يخشون أيضًا من مواصلة تلك السياسة أو اتباعها بشكل منطقى. سيحاول المحافظون إصلاح تركيا، وعندما يجدون أن ذلك الإصلاح أمرًا مستحيلاً، سيفقدون أعصابهم وقد يصل بهم الأمر إلى حد الدخول فى الحرب. أنا شخصيا أحس بالقلق إزاء هذا التغيير، نظرًا لأن اللورد ليتون سوف يستقيل من الوزارة، الأمر الذى سيعطل الزيارة التى نزمع القيام بها إلى الهند فى الشتاء القادم. لكن هذه الأمور كلها تعد أمورًا تافهة فى مسار التاريخ ومسيرته.

٩ أبريل: "ما زلت في باريس"

وصلتنى رسالة من آن Anne... مفعمة بالسياسة... "سيصبح هارتنجتون Hartington رئيسًا للوزراء، وسيتولى جوشن Goschen البحرية والأسطول، أما جلادستون فسوف يصبح وزيرًا للمالية. ولن يتغير شيء فى السياسة الخارجية!

سيتم الاحتفاظ بجزيرة قبرص، سيجرى اعتراض روسيا وعرقلتها، وسوف تــدار تركيا من جاليبولى Gallipoli... اللورد لايبون Lipon لا يعرف مكانًا له، إن كان هناك مكان على الإطلاق. بلغنى أن السيدة دى نوفيكــوف Novikoff(٣) لا يــزال الناس يصفونها بأنها الملاك الحارس لجلادستون..." تناولت الغــداء مــع آدمــز Adams (السكرتير الأول فى سفارتنا فى باريس) والتقيت هنـــاك بالــسير ريفرز ولسون، المسافر غدًا إلى مصر مع كل من ديــســى Dicey، وآرثـــر ســوليفان Arthur Sullivan المؤلف الموسيقى – وهذه صحبة طيبة". (كانت تلك آخر مهمـــة لولسون التى وضع فيها ترتيبات قانون التصفية).

٢٦ أبريل

العودة إلى إنجلترا، حيث كان جلادستون موضوع الساعة. كان الرجل قــد تولى منصب (رئيس الوزراء)، وأحاط نفسه بجماعة مــن غيــر الأكفـــاء مثــل: تشيلدرز Childers، وبرايت Bright، وجرانفيل Granville. كان هارتنجتون، الذى كان رجلاً من الدرجة الثانية، يتولى شئون وزارة الهند، فى حين يــسافر اللــورد رايبون Ripon نفسه إلى الهند. هذا الترتيب الأخير كان أمرا سريا.

كان تعيين اللورد رايبون نائبا لحاكم فى الهند، بمثابة المحاولــة الــسياسية الوحيدة الجادة التى قام بها جلادستون لتنفيذ ذلك الذى كان ينادى به يــوم أن كــان فى المعارضة. كان اللورد رايبون رجلاً أمينًا بمعنى الكلمة، لم تكن هناك جوانــب

---

(٣) السيدة دى نوفيكوف، امرأة جميلة جدا، كانت ترعاها الحكومة الروسية، كانت قد جاءت إلى إنجلترا قبل ذلك التاريخ بوقت قصير، وكانت أول زيارة لهذه السيدة لبريطانيا، إلى بلدة كرابت Crabbet التى أقيم فيها مع زوجتى آن Anne. كانت تحمل معها رسالة تقديم جاءت بها من السيدة دى لاجرينيه Lagrene، وهى صديقة روسية تعيش فى باريس، وحتى ذلك الحين لم تكن السيدة نوفيكوف تعرف أى أحد من الناس. بقيت معنا مدة أسبوع، لكنها عندما وجدتنى غير متعاطف معها أو مع أفكارها المعادية للإسلام ذهبت لحال سبيلها، لكنها سرعان ما توصلت إلى ارتباط سياسى مع السيد جلادستون.

ألمعية فى شخصية الرجل لكنه كان صريحا ومتحمسًا. وقد أخذ الرجل مأخذ الجد المهمة التى عهدت إليه بها الحكومة الجديدة، والتى تتمثل فى إقامة السلام على حدود الهند والمحافظة على هذا السلام؛ كما عهدت الحكومة الجديدة إلى اللورد رايبون ببدء سياسة جديدة تستهدف تنفيذ مطالبة صاحبة الجلالة بإقامة الحكم الذاتى بين المواطنين. والمدهش والمخزى أيضًا فى عالم المسئولين، أن اللورد رايبون أخذ معه جوردون ليكون له سكرتيرا خاصا؛ وجوردون هذا كان الناس ينظرون إليه باعتباره مجنونًا- ناهيك عن نوايا جوردون الحسنة والطيبة تجاه الهند الوطنية. ومع ذلك، لم يكن جوردون وهو بصحبة رئيس من قبيل اللورد رايبون، من النوعية نفسها التى منها السكرتيريون الخصوصيون الآخرون، ذلك أن الرجل لم تكد تطأ قدماه أرض بومباى Bombay حتى استقال من منصبه. وأنا لا أظن أن اللورد رايبون أخطأ فيما فعل، ولكن الخطأ كان من جانب جوردون الثائر على القواعد والأعراف. وسوف أتناول بالوصف، فى مرحلة لاحقة، عمل اللورد رايبون نائب حاكم، عندما أصل إلى رحلتى الثانية إلى الهند التى قمت بها فى عام ١٨٨٤. وهنا يكفى القول إنه إذا كانت مهمة رايبون فى الهند قد حققت القليل، فإن السبب فى ذلك راجع إلى الوزارة فى إنجلترا وليس إلى رايبون فى الهند. لقد مضى اللورد رايبون بشجاعة فى المسار الذى تحدد له منذ البداية، لكنه، شأنه شأن أولئك الصبية الذين يستغفلون، فى بعض الأحيان، رفيقهم الذى يكون فى المقدمة، بأن يتراجعوا إلى الوراء ويتوقفون، اكتشف ما أربكه بعد فترة قصيرة: اكتشف رايبون أنه هو وحده الذى ما زال يجرى، وأن الوزراء غيروا آراءهم دون أن يعلموه بذلك، وراحوا يسخرون منه جراء إصراره على الجرى. لا بد أن رايبون أحس بالمرارة عندما تحتم عليه الاستسلام للأمر الواقع. كان جلادستون قد أسند التعيينات الخاصة بالوظائف العليا كلها، إلى أعضاء حزب المحافظين. فكان اللورد جرانفل – وهذا أمر يهمنى جدا – قد حصل على حقيبة وزارة الخارجية؛ وجرانفل عبارة عن نبيل حلو المعشر كبير السن، يجيد اللغة الفرنسية، لكنه أصم، وكسول جدا، وتنتمى دبلوماسيته إلى المدرسة التى لا تؤمن بمبدأ لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، لأن الرجل نفسه كان يحب تأجيل عمل اليوم إلى الغد، إذ كان يقول: "توانى فى الأمور، واتركها وحدها تصحح نفسها بنفسها". ونحن لا يمكن أن ننتظر من

وزير من هذا القبيل أى شىء جديد فى السياسة، ولم يحاول الرجل القيام بأى شىء من هذا القبيل فى تركيا أو فى مصر أو فى أى مكان آخر. ولم يقم الوزير بتنفيذ معاهدة قبرص، أو تحويلها إلى رواية فعلية تحت أى سبب من الأسباب، وفيما عدا ذلك الضغط القليل المخادع الذى مُورس على السلطان فيما يخص موضوع حدود مونتنجرو Montenegro واليونان، بقيت الأمور على ما كانت عليه من قبل. أما التغيير الوحيد فكان يتمثل فى أن لايارد Layard، مؤلف هذه الاتفاقية، جرى استدعاؤه من إسطنبول، وتعيين جوشن Goschen محله، وجوشن هو الذى قام بعمل الترتيبات الظالمة الخاصة بحملة السندات فى مصر، قبل ذلك بحوالى ثلاث سنوات، وكانت شركته العائلية المسماة جُوشن وفروهلنج Goschen Fruhling من بين حملة السندات. العمل الوحيد الذى قام به وزير الخارجية الجديد والذى يثبت أنه لا يزال يتذكر تحذيرات اللورد جلادستون من الأتراك، كان يتمثل فى قيامه من باب إثبات أن جلادستون كان على حق فى حين أن دزرائيلى وسولسبرى لم يكونا على صواب – متحديًا القاعدة المعتادة فى مثل هذه الأمور فى وزارة الخارجية، بنشر رسالة سرية من رسائل اللورد لايارد Layard، وكانت تلك الرسالة تعارض كل ما كتبه السفير فى رسائله العلنية عن الموقف فى إسطنبول. أورد الرجل فى هذه الرسالة وبصورة مكشوفة الرذائل السرية ونقاط ضعف السلطان عبد الحميد، وتكلم أيضًا عن جبن الرجل وإصراره على هذا الجبن، وتأكيد ذلك بتفاصيل لا يعرفها العالم، لكنها ذائعة الصيت وسيئة السمعة، وبخاصة ما يتعلق منها بنظام الجاسوسية فى حكومته. وقد جاء نشر هذه الرسالة بمثابة عمل من أعمال الخيانة الكبرى للورد لايارد، والأهم من ذلك، أن نشر هذه الرسالة كان عملاً من أعمال الحماقة نتيجة الآثار التى أفرزتها هذه الرسالة على دبلوماسيتنا فى إسطنبول، والتى لم تنج من هذه الآثار إلى الآن. كان لايارد صديق السلطان عبد الحميد الحميم، وحصل منه على أفضال وعطايا لم يسبق أن حصل عليها أى مبعوث أوروبى من قبل. لقد كشف السلطان عوراته على لايارد كما لو كان صديقًا يُعتَمَد عليه، وأدى كشف ذلك الذى اعتبر خيانة من جانب لايارد، إلى فقدان نوايا السلطان الحسنة تجاه إنجلترا مدى الحياة.

على كل حال، وعلى الرغم من الوضع غير المشجع في وزارة الخارجيـــة، كنت مصرًا على أهمية الحصول على المساندة لخططي الجديدة مع رئيس الوزراء الجديد. وقد شجعني في ذلك المنصب الذي عرضه عليّ رئيس الـــوزراء، والـــذي يقضي بأن أتولى أمر مكتب واحد من أصدقائي الحميمين، وهو إيـــدي هـــاملتون Eddy Hamilton (حاليًا السير إدوارد هاملتون). عرض علي رئيس الـــوزراء أن أكون سكرتيرا خاصا لإيدي هاملتون، الذي عرفت منه أنه مهما كانـــت المطالـــب والمقتضيات العامة في الخارج في تلك اللحظة، فإن تعاطفـــات ومـــشاعر الـــسيد جلادستون لم تتغير أو تحد عما كانت عليه ولو قيد أنملة. لم أحصل من هـــاملتون على أية أسرار فيما يتعلق بخططي وآرائي الخاصة، وكان مـــن رأي الرجـــل أن كسب تأييد الوزير لهذه الخطط والآراء يحتم عليّ إعلانها على نطاق أوســـع عـــن طريق الطباعة. كانت هناك قنوات أخرى أيضًا، يمكن التأثير على جلادستون مـــن خلالها، وذلك عن طريق الإشارة إلى بعض هذه الأفكار والخطـــط الـــواردة فـــي يومياتي.

١٢ يونية

اصطحبني ياور هاملتون لزيارة السيدة ل... التي تعيش في منزل كبير في ميدان م...، وهي سيدة أو امرأة أيرلندية ممتلئة الجسم، حسنة الطبـــع وتبلـــغ مـــن العمر خمسين عامًا، وهي سيدة متهورة، وكثيرة الكلام، لكن ليس فيها أية مـــسحة من الجمال أو الأشياء الأخرى. كانت هذه السيدة واحدة من ملائكـــة جلادســـتون الحراس، وكانت زيارتنا لها دبلوماسية وتستهدف حقنها أو تلقينهـــا أفكـــاري، ثـــم توصيل هذه الأفكار عن طريقها إلى رئيس الوزراء. كانت هذه الـــسيدة متحمـــسة لهؤلاء العرب بالشكل الذي رأتهم عليه، كما تتظاهر باهتمام كبير بالشرق. وقرأت علينا هذه السيدة بروح عالية، مـــسرحية كانـــت تكتبهـــا عـــن هيـــرود Herod، وكليوباترا، ويوليوس قيصر، مسرحية حزينة، وأكدت لنا أن جلادســـتون معجـــب تمامًا بهذه المسرحية.

دعوت رولاند Rolland، وجون بولن Pollen، ولورانس أوليفانت Oliphant إلى الغداء. ولورانس أوليفانت شخص أنيق جدا. كان قد عاد لتوه من إسطنبول التي حاول فيها الحصول على موافقة السلطان على قيام بني إسرائيل باحتلال أراضٍ واستعمارها خلف نهر الأردن.

٢٢ يونية

دعوة آل بلودن Plowdens لتناول الغداء ومعهم إيدى هاملتون، الذى هو حاليا سكرتيرا خاصا لجلادستون. سيسافر بلودن إلى بغداد باكر ليشغل منصب الممثل المقيم. قدمت بلودن إلى إيدى من خلال الحديث عن المسألة الشرقية.

٢٦ يونية

انضم إلينا اللورد كالثورب Calthorpe، وبيرسى ويندام Windham فى مزرعة خيولنا فى كرابت، ورحنا نستعرض الخيول. يقول اللورد كالثورب إنه أطلع العديد من أعضاء نادى الخيل Jockey Club، على رسالتى التى أرسلتها إليه عن سباق الخيول العربية وعن سلالة تلك الخيول، وقال أيضًا إنه سوف يعرض هذه الرسالة فى اجتماع من اجتماعات النادى فى الشهر القادم؛ وإنه يتطلع إلى نجاح هذا الموضوع. وإذا ما استطعت جلب سلالة عربية أصيلة من الخيول إلى إنجلترا، وإذا ما ساعدت فى تحرير الجزيرة العربية من الأتراك، فذلك يعنى أن حياتى لم تذهب هباء. نشرت اليوم رسالتى الرابعة التى أرسلتها إلى جريدة "إسبكتيتور Spectator (عن السياسة فى وسط الجزيرة العربية)"، وجرى الإعلان اليوم أيضًا عن المقال الذى كتبته لجريدة Fortnightly بعنوان (ورثة السلطان فى آسيا). كان السير جارنت وُلسلى Garnet Wolseley هناك، وهو رجل رشيق متقلب، يصعب قبوله على أنه قائد كبير. ذكَّرت الرجل بزيارتنا لقبرص. فقال: "أظن أن السيدة آن Anne تكتب كتابًا". "نعم، لكننا لم نقل شيئًا عن قبرص فى هذا الكتاب". "أوه، أنتما لم تمكثا فى قبرص فترة طويلة". "وجدنا من الأفضل ألا نذكر شيئًا عن قبرص فى هذا الكتاب".

المقال المشار إليه هنا بعنوان "ورثة السلطان فى آسيا"، كان كما سبق أن قلت، مجرد استرعاء لاهتمام جلادستون الجاد بأفكارى، وكان ذلك بفضل هاملتون، الذى لفت انتباهه لذلك المقال. وقد نجحت هذه المحاولة تمامًا، على الرغم من الملمح المهم من ملامح هذا المقال، والذى استرعى انتباه الرجل رغم أنه ليست له أهمية سياسية عملية كبيرة، وهو المتعلق بمستقبل الولايات الأرمينية باعتبار أرمينيا دولة مستقلة. كانت الفكرة التى طرحتها فى المقال تفيد أنه إذا كان قسم كبير من تركيا الأوروبية قد حصل على استقلاله، فإن اضمحلال الإمبراطورية العثمانية يحتم تشجيع الولايات الآسيوية على أن تكون دولاً مستقلة، كل حسب جنسيته، وعليه رحت أتوسل إلى جلادستون وأناشده البر بوعوده، التى قطعها على نفسه مؤخرًا، وكانت لصالح حرية الشرق، وأن يفيد الرجل من الأداة التى ابتكرها أولئك الذين سبقوه فى هذا المنصب؛ والمقصود بهذه الأداة هو معاهدة قبرص، وألا يكون ذلك لمصلحة الإمبريالية الإنجليزية، وإنما لصالح شعوب الشرق. وقد أدى نشر هذا المقال فى عدد شهر يوليو من جريدة "فورت نايتلى" Fortninghtly، إلى دعوتى إلى مجلس الوزراء، حيث أتيحت لى الفرصة فيه كى أعرض أفكارى وآرائى الشخصية على رئيس الوزراء. ويجب ألا يغيب هنا أننى فى المرة الأولى لم أتأثر كثيرًا برئيس الوزراء؛ لكنهم شجعونى على تطوير أفكارى، واعتبارًا من ذلك التاريخ، أصبح رأيى الذى كان يصل إلى رئيس الوزراء عن طريق هاملتون، يحظى باهتمام جلادستون فيما يتعلق بأمور الشرق.

٢٧ يونية

زرت فلانًا الذى وجدت معه المركيز كوينزبرى Queensberry. وسرعان ما بدأ الرجل يشرح لنا نظرياته الدينية، وهو يتكلم بطريقة تنم عن الاهتياج والشغف. هذه النظريات تبدو وكأنها مجرد نظريات وضعية(*). هذا يعنى أن هذه النظريات تقول بأن هناك كائنًا أعلى وأسمى، وهو ليس ممثلا فى شخص إله،

(*) المقصود بالوضعية هنا، الوضعية اليقينية المبنية على فلسفة أوغوست كنت التى تعنى بالظواهر والوقائع اليقينية فحسب مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة. (المترجم)

وإنما يتمثل في من يهدى الإنسان ويرشده في بحثه عن الكمال. النظرية الرئيسية هنا هي "الإيمان بالإنسانية"، والواجب الرئيسي أو الأساسي هو "اكتمال الجسد والروح"، والجسد بصفة خاصة. المركيز ليس مفسرا واضحا، وقد اقترح أن يقرأ علينا إحدى القصائد بدلاً من قصيدة كان قد كتبها. وبينما كنا نتوقع حدوث ذلك دخل علينا فيليب كورّى Philip Currie، ومعه رجل كبير السن، صغير الجسم، طويل الأنف وله عينان سوداوان، واسمه مالكوم خان Malkum Khan، وهو السفير الفارسي. جلس هذان الرجلان وراحا ينصتان إلى ما يتلوه المركيز كوينزبري Queensberry. كانت القصيدة من الشعر المنثور، وغامضة، وتبدأ بداية طيبة ثم تتطرق بعد ذلك إلى الإنسانية. وعندما انتهى من إلقاء القصيدة تكلم الشرقي. قال: قد يهمك الاستماع إلى قصة دين تأسس قبل بضع سنوات مضت في بلاد فارس، وكنت أنا في وقت من الأوقات رئيسًا لذلك الدين. هذا الدين يمثل الطريقة التي نتجت عنها الأديان، وسوف ترى أن مذهب Doctorine الإنساني أساسي في آسيا مثلما هو أساسي في أوروبا. واقع الأمر، أن أوروبا عاجزة عن اختراع دين حقيقي، دين يستطيع تملك أرواح الرجال؛ كما أنها عاجزة أيضًا مثل آسيا عن اختراع منظومة للسياسة. الذهن الآسيوي تأملي، والذهن الأوروبي عملي. نحن في بلاد فارس ننتج كل يوم أكثر من "مسيح جديد". نحن لدينا "أبناء الله" في كل قرية، ولدينا شهداء دين في كل مدينة. وأنا شخصيا شاهدت مئات من الأبواب Babis(*) يعانون القهر والعذاب ويموتون لأنهم يؤمنون بنبي مذهبه هو صورة طبق الأصل من عقيدة المسيح ﷺ، وقد صُلبوا مثل المسيح تمامًا. المسيحية ليست سوى واحدة من مئات البشارات Preachings الآسيوية، التي بدأت تستلفت الانتباه من خلال اعتناق الذهن اليوناني لها وبعد أن أضفى عليها شكل منطقي وواجهة مادية. لو بقيت المسيحية على إنها إيمان آسيوي لماتت منذ زمن بعيد، شأنها في ذلك شأن مئات التعاليم الأخلاقية والصوفية التي ماتت وانتهت قبل المسيحية وبعدها. أنا أيضًا، عندما كنت شابًا صغيرًا، كما قلت لك، أسست دينًا ضم في وقت من الأوقات حوالي ٣٠٠٠٠ تابع. لقد وُلِدتُ مسيحيًا أرمينيًا ولكني تربيت ونشأت بين المسلمين، وعليه أصبحت نغمتي الفكرية مثل نغمتهم. أنا كنت أخًا غير

(*) الإشارة هنا إلى زعماء البهائية والبابية وأتباعهما. (المترجم)

شقيق للشاه، وعندما تولى الرجل العرش عينني رئيسًا للوزراء. وعندما بلغت سن العشرين أصبحت إقطاعيا عمليا في بلاد فارس. لقد شهدت الظلم الحكومي، وشهدت أيضًا اضمحلال الازدهار والرخاء الذي كانت تشهده البلاد، وهنا بدأت تراودني وتتملكني فكرة الإصلاح. سافرت إلى أوروبا ودرست فيها المنظومات الدينية، والاجتماعية، والسياسية الغربية. وتعلمت أيضًا روح المذاهب النصرانية المختلفة، وتعلمت أيضًا تنظيم الجمعيات السرية، وعرفت أيضًا الماسونيات الحرة، وفكرت في خطة ينبغي أن تجمع بين حكمة أوروبا السياسية وحكمة آسيا الدينية. كنت أعرف أن من العبث محاولة إعادة تشكيل بلاد فارس على الطريقة الأوروبية، وقررت تغليف إصلاحي المادي بثياب يفهمها شعبي، غلفته بثياب الدين. وعليه، قمت عقب عودتي إلى بلادي، بتجميع كبار شخصيات طهران، وجميع أصدقائي ورحت أتكلم معهم على انفراد عن حاجة الإسلام إلى الإصلاح، ورحت أستحث فيهم كرامتهم الأخلاقية وفخرهم بنسبهم ومولدهم. اللغة الفارسية فيها كلمتان بمعنى "رجل" Man هما: "إنسان" Insan وهي مأخوذة من اللغة العربية، والكلمة الثانية "آدم" Adhem، وهذه الكلمة فارسية الاشتقاق. الكلمة الثانية التي يقول لها الإنجليز Man، اسم جنس، أي نوع بعينه من الحيوان – الكلمة الأولى التي تدل على "رجل" تعني مخلوقًا أو كائنًا مفكرًا ومتميزا (وهي عند اللاتينيين Home و Vir). أنتم جميعًا تتباهون أن الواحد منكم أكثر من مجرد "آدم"، أي جنس بعينه ومن ثم فهو "إنسان" Insan. وأنا سوف أنصحكم، لتبرير هذا الادعاء، بأن تفعلوا هذا وذاك. ووقف الجميع على سلاسة منطقي، وفي خلال فترة وجيزة أصبح لدي حوالي ٣٠٠٠٠ من الأتباع والمريدين. وبذلك تمكنت تحت اسم إصلاح الإسلام من إدخال الإصلاحات المادية التي أود إصلاحها. والفضل ينسب إلى مذهبي في إدخال التلغراف، وإعادة تنظيم الإدارات الحكومية، وإصلاحات وتحسينات أخرى كان قد عفى عليها الزمن منذ وقت طويل. ومع ذلك، لم تكن لدي في بداية الأمر نية تأسيس ديانة من الديانات. هذا يعني أن شخصية القديس أو النبي فرضت عليَّ من قبل أتباعي. لقد أطلقوا على لقب الشبح المقدس "Ghost Holy"، كما أطلقوا على الشاه لقب "مصلح الإسلام Reformer Of Islam". ألفت كتابًا، أو إن شئت فقل: إنجيلاً عن ديانتي، وراح أتباعي يؤكدون أنني آتي

بالمعجزات. أخيرًا أنزعج الشاه من قوتي وسلطتي على هؤلاء الاتباع، هذه القوة التي أصبحت بالفعل أقوى من قوته هو. وعلى الرغم من صداقتنا القديمة، فكر الشاه في قتلي أو اغتيالي، ومن هنا راح أتباعي يفكرون هم أيضًا في قتل الشاه أو اغتياله. وعلى امتداد شهرين عشنا نحن الاثنين في خوف من القتل أو الاغتيال، ثم وصلنا بعد ذلك إلى شيء من التفاهم. ولأني كنت أحب الشاه وأقدره فقد طلبت منه أن يأذن لي بالسفر. وفارقت أتباعي وهم يبكون، وراح الملالي يقبلون قدماي. وقصدت إسطنبول، على أمل الحصول على موافقة السلطان لي بالإقامة في بغداد؛ وذهبت إلى بغداد وأصبح لي أتباع جدد من بين الفرس المقيمين هناك، وانضم إلى هؤلاء الأتباع بعض شيعة بغداد. لكن الأتراك خدعوني، وتعين على أن أترك عملي دون أن أكمله. حثني أتباعي في بلاد فارس على العودة، لكنني لم أعد لأسباب عديدة أولها هو أنني خشيت من اغتيالي بسبب دين أنا لا أومن به. وثاني هذه الأسباب هو ضعف صحتي، أما ثالث هذه الأسباب فهو زواجي من واحدة من النساء. وكتبت للشاه الذي رد عليَّ، يعرض منصبًا إذا ما أردت ذلك، وعليه آثرت البقاء في الخارج؛ وقبلت منصب السفير العام لدى البلاطات الأوروبية كلها". كان غريبًا بحق أن أستمع إلى هذا الرجل كبير السن صغير الجسم، الذي يرتدي ملابس أوروبية ويتكلم لغة فرنسية جيدة جدا، وهو يروي حكاية من الحكايات الشرقية الخالصة. مشيت مع ذلك الرجل بعد ذلك عائدًا إلى بيتي (إذ كان يعيش على الجانب الآخر من حديقة هايد بارك Hyde Park)، "وراح الرجل يُفصِّل لي أفكاره عن الشرق والغرب، اللذين يعرفهما، بل ويعرفهما معرفة دقيقة. تركت هذا الرجل الفارسي بعد أن تولد لديه انطباع بأنه أهم الرجال الذين التقيتهم في حياتي، تركته وهو يحس سمو الذهن الشرقي وتفوقه. من ذا الذي يستطيع في أوروبا أن يجعل رجلاً يحس كما لو كان طفلاً؟".

هذا اللقاء العابر، في منزل سيدة تقيم في بلجرافيا Belgravia في منتصف الموسم اللندني، أثر فيَّ تأثيرًا عميقًا، بل وبث الثورة في أفكاري إلى حد ما. وأنا أعزو ذلك إلى اللقاء الطارئ، وإلى الحوارات الأخرى التي دارت بيني وبين هذه الشخصية الفريدة، مسألة القناعة التي سرعان ما تملكتني، والتي تفيد أنني إذا ما

أردت أن أفعل شيئًا للعرب أو للشعوب الإسلامية الأخرى الخاضعة لتركيا، فإن ذلك يحتم عليَّ تعرف الأفكار الدينية لهذه الشعوب تعرفا تاما. وإلى الآن، كان مروري بين هذه الشعوب، وعلى الرغم من تعاطفي السياسي معها، هو مرور الغرباء على فكرها الجاد؛ وفي غياب التحامل الديني المسيحي بكل أنواعه، تعلمت احترام الإسلام، لكني لم أفهمه، ولم يحدث أن ناقشت تعاليم الإسلام مع أي من علماء الشريعة الإسلامية أو الضالعين في الفكر الإسلامي الحديث. وعلى الفور أدركت ضعف، بل وسخافة موقفي، ولذلك قررت قبل المضي قدمًا، تخصيص الشتاء القادم كله لدراسة الملامح والسمات الرئيسية، على أقل تقدير، للعقيدة الإسلامية من منطلق تأثير هذه العقيدة على السياسة الإسلامية. وفي ضوء هذا الرأي، وضعت خطة الشتاء القادم. فكرت في الذهاب إلى جدة، في موسم الحج أو قُبيله، وأثقف نفسي هناك قدر المستطاع، ثم أغتنم بعد ذلك أية فرصة يمكن أن تؤدي إلى المزيد من الحركة والعمل. تمنيت لو أخترق الجزيرة العربية مرة ثانية إن أمكن من خلال الحجاز، أو ربما اليمن إلى نجد. كانت تراودني فكرة مفادها أني ربما عثرت بين الوهابيين على مُعلِّم يمكن أن يلقنني المذهب الوهابي باعتباره مقابلاً للمذهب العثماني، أو بالأحرى "الإسلام الوهابي" باعتباره مقابلاً "للإسلام العثماني"، وأن أتمكن مع مثل هذا المعلم من ابتكار حركة للإصلاح، أضع أنا عناصرها السياسية، ويضع هو عناصرها الدينية. الواضح أن هذه الفكرة كانت واحدة من الأفكار المجنونة، لكني أخذتها مأخذ الجد في ذلك الحين، واعترافي هنا بذلك الذي فعلته، سوف يوضح للقارئ المصري الأسباب التي دفعتني إلى السير في هذا الخط بعد ذلك بعامين في القاهرة.

تأثرت أيضًا، في لندن، في ذلك الوقت بواحد من علماء الشرق يدعى صابونجي Sabunji، الذي تعرفت على شخصه بصفته مدرسًا للغة العربية. هذا الصابونجي، مثل مالكوم خان، كان هو الآخر من أصل نصراني، إذ كان عضوًا في نحلة من النحل الكاثوليكية في سوريا، بل إن صابونجي تولى عمل الكاهن،

وخدم في قدّاس الدعوة في روما؛ لكن الرجل تخلى مؤخرًا وخلـــع رداء الكهانـــة، شأنه شأن السفير الفارسي مالكوم خان، وازدادت مشاعره الطيبة وتعاطفه الطيـــب مع الإسلام عن مشاعره وتعاطفه تجاه نحلته الأصـــلية. ذاع صـــيت صـــابونجي وذاعت شهرته أيضًا بوصفه مدرسًا للغة العربية؛ وكان الرجل على دراية كبيـــرة بالمسائل شبه السياسية والمسائل شبه الدينية، التي كان يجرى الحوار حولها بـــين المسلمين في ذلك الوقت. وصابونجي هو الذي قام بالعمل الرئيـــسي نيابـــة عـــن المرحوم الدكتور بادجر Badger، في جمع القاموس العربي الإنجليزي، الذي صدر تحت اسم الدكتور بادجر؛ وصابونجي هو الذي كان يصدر في لنـــدن فـــي العـــام ١٨٨٠ الميلادي، جريدة عربية اسمها "النحلة"، والتي كان يجرى الكلام فيها عـــن الإصلاح الديني بواقع مرة واحدة كل شهر، وكان الحديث عن هذا الموضوع أكثر الخطوط الفكرية حداثة وتقدمًا. كان هناك شيء من الغموض يحيط بتمويـــل هـــذه الجريدة الصغيرة، ووراء التعجيل بإصدارها، لكني لم أتمكن من سبر أعماق ذلـــك الغموض. وصابونجي يروى أن راعية الأساسي في ذلك، كان هو سلطان زنزبار Zanzibar، ذلك الحاكم شديد الاستنارة وصاحب ذهن متحرر. لكني لم أقنع بـــذلك التفسير، وبدأت تراودني أفكار جعلتني أومن أن المبالغ التي تدعم هـــذه الجريـــدة، وأن اتجاهها السياسي، كان في بعض أجزائه من فعل الخديو إسماعيل المخلـــوع. كان إسماعيل في ذلك الوقت غاضبًا غضبًا شديدًا من السلطان الذي باعه لأوروبا، وكانت جريدة "النحلة" تتخذ موقفًا عنيفًا من السلطان عبد الحميد، وكانت الجريـــدة تستنكر ما أقدم عليه عندما اغتصب لنفسه لقب "أمير المؤمنين" و "الخليفة". وأنا لا أتذكر جيدًا إن كنت قد تعلمت أو عرفت، أول مرة، من مالكوم خان أو صـــابونجي الجانب التاريخي لمسألة الخلافة وكذلك جوانبها الحديثة، لكني بحكـــم معارضـــتي للحكم العثماني، خطر ببالي على الفور أن الإصلاح الذي أتطلع إليه إنما هو مـــن النوع بالغ الأهمية. ومن بين مذكراتي اليومية، شيء من هذا القبيل، فقـــد أرســـلت مذكرة للسيد جلادستون حول هذا الموضوع، ولدي خطاب وصاني من هـــاملتون يوضح أن هذه الفكرة لقيت اهتماما من جانب أعضاء مجلس الوزراء.

٣ يوليو

حفل شاى فى منزل فلان، حضره "جمع من المتصوفين"، رولاند Rolland العجوز، ودونرافين Dunraven، وأوليفانت Oliphant. عقدت أنا والاثنان الأخيران اجتماعًا فى إحدى الغرف الخلفية، أسفر عن اتفاقنا على العمل سويا فى المسألة الشرقية، مستهدفين بذلك التأثير على الرأى العام فى إنجلترا. وتقرر أن نجتمع اجتماعًا تمهيديا فى منزل دونرافين يوم الخميس.

٨ يوليو

"قمت بزيارة بيرسى وندام Windham وجعلته يعتنق مذهبى السياسى. وتلقيت زيارة حول الموضوع نفسه من السيد بريسى Bryce؛ وتناولت الغداء مع كل من دونرافين، وأوليفانت، وأوتواى Otway، وبيرسى ويندام Windham، وهارى براند، ويتّاكر Whittaker، وهو أحد المحررين فى جريدة الليفانت هيرالد Levant Herald، تناولنا كلنا غداءنا فى فندق ليمر Limmer، لتبين خط سير عملنا، من أجل التأثير على الرأى العام داخل إنجلترا، فيما يتصل بآسيا. ولم نصل إلى شيء محدد سوى تشكيل لجنة لتلقى الأخبار. ثم ذهبت بعد ذلك إلى منزل بريسى، حيث التقيت روبرتسون سميث Robertson Smith، الذى كان فى الحجاز مؤخرًا. (كان روبرتسون سميث واحدًا من أساتذة الجامعة الشهيرين).

١٣ يوليو

حضرت حفلاً فى منزل حرم جلادستون. وصلنا الحفل قبل مجيء الآخرين، ودار بينى وبين الرجل العظيم حوارًا استغرق عشرين دقيقة. فصلت للرجل أفكارى الخاصة بأحياء الشرق، وقد أبدى الرجل اهتمامه بهذه الأفكار،

نظرًا لاهتمامه بالشرق، اهتمام رجل جهول تمامًا بأبجديات هذه المسألة. وقد اندهشت لملاحظات الرجل، لأنها كانت سطحيه تمامًا، وكانت أسئلته التى طرحها علىَّ على النقيض تمامًا من تلك الأسئلة التى طرحت علىَّ من قبل اللورد سولسبرى قبل ثلاث سنوات. كانت باخرة من البواخر البريطانية قد فُتحت عليها النيران من قبل بعض العرب، فى أثناء وجودها فى نهر دجلة، وبدأ الرجل كلامه بملاحظة مفادها أنه يخشى أن تكون هذه الحقيقة مؤشر عداء لإنجلترا من جانب الجزيرة العربية. كان الرجل ينظر إلى حال الإمبراطورية العثمانية باعتباره أمرًا حرجًا للغاية. ويحتمل ألا يكون الشرق قد شهد فترات عصيبة أكثر مما هو عليه الآن، لو قدر لمعاهدة سان ستيفانو San Stefano أن تنفذ لأصبحت تركيا فى موقف أكثر دقة وحرجًا مما كانت عليه من قبل. على الجانب الآخر، أعتقد أنى نجحت فى أن أوصِّل إليه فكرتين، أولاهما تفيد أن الخلافة لا يتحتم أن تكون حكرًا على بيت آل عثمان، والفكرة الثانية، هى أن مدحت باشا كان أحمقًا، نظرًا لأنه لم يكن يثبت على أى أمر من الأمور، وكان يترك نفسه ينزلق بنفسه إلى ما ينزل به الدمار والخراب.

١٥ يوليو

حضرت اجتماعًا للمتهمين بالمسائل الآسيوية. وذهبت فى فترة العصر إلى آلدرماستون Aldermaston، ذلك المتنزه الجميل الذى ضم منزلاً حديثًا؛ كان السير لايارد Layaed هو ضيف الشرف. لقد تحاملت كثيرًا على هذا الرجل، لكننى اكتشفت أنه لطيف وليس متكبرًا، فيما يتعلق بمنصبه. وهو يجيد الحديث، وبخاصة عن ترحاله وأسفاره، ويفهم الشرق حق الفهم، الأمر الذى ذكرنى بعض الشيء بكل من سكين Skene ورولاند Rolland وكلاهما رحَّالان من رحَّالة الأيام الخوالى... ولو قدر لمذكرات لايارد أن تنشر فسوف تكون أهم مذكرات فى القرن الحالى. ذلك أن ارتقاء هذا الرجل من مجرد متشرد جوال بين الأكراد، ومن كونه كان رجلاً خارجا على القانون، إلى مركز السفير البريطانى لدى الباب العالى، ينطوى على الكثير من خيال وغرائب الحياة الإنسانية.

١٧ يوليو

مقابلة مع السير شارلز ديلك Charles Dilke (وزير الدولة) في وزارة الخارجية. شرحت للرجل فكرتي عن الذهاب إلى نجد في خريف هذا العام بصحبة عبد الله بن سعود، ودهشت عندما وجدت الرجل يوافق على ذلك. وعلى الرغم من قصر الحوار الذي دار بيننا؛ فإنه ترك لديَّ انطباعًا عنه بأنه رجل راق. كانت أسئلة الرجل واضحة وفي الصميم، وعقب تفهم هذه الأسئلة كتب ديلك مسودة إلى السيد جوشن Goschen في إسطنبول، محيلاً إياي إلى المزيد من التفاصيل من التنترددن Tenterden (المقر الدائم لوزارة الخارجية)، وقد اختمرت في ذهني حاليا فكرة الذهاب إلى الجزيرة العربية، وترؤس حركة لاستعادة الخلافة العربية. هناك أناس يصفهم الناس بالعظام لأنهم ضحوا بأنفسهم في سبيل أشياء صغيرة، لكني على قناعة أن هذا العمل جدير بالعناء والتعب والاهتمام بحق.

كان السير شارلز ديلك، الذي كتب عليه أن يلعب دورا مهما في أحداث العام ١٨٨٢ الميلادي في مصر، قد مضى عليه في العام ١٨٨٠ الميلادي أشهر قليلة فقط في وزارة الخارجية. فقد كان هو وتشمبرلين Chamberlain، صديقين سياسيين كبيرين، ويمثلان مع السيد برايت Bright العنصر الراديكالي(*) في الحكومة الجديدة. حصل تشمبرلين على رئاسة مجلس الحكم المحلي ومقعد في مجلس الوزراء، وحصل ديلك على منصب وكيل وزارة الخارجية، الذي أصبح بفضل رئيسه اللورد جرانفل في مجلس اللوردات، مركزا قويا، وعرف ديلك كيف يستفيد من هذا المنصب. لم يكن أي من هذين الرجلين ينتمي إلى الطبقة التي يجري منها اختيار الوزراء في إنجلترا، لكن كان ينظر إليهما باعتبارهما من رجال الطبقة المتوسطة، وأنا أذكر جيدًا مدى الاشمئزاز من تعيين ديلك في وزارة

(*) راديكالي، أي نزّاع إلى إحداث تغيرات جذرية في الأفكار والعادات السائدة أو في الأحوال والمؤسسات القائمة. (المترجم)

الخارجية، التى تشيع فيها مظاهر الأرستقراطية بين الكتبة والموظفين. ومع ذلــك، عجل ديلك بالكشف عن معدنه من خلال أدائه لعمله الذى أنيط به، والأهم من ذلك أنه كشف أيضًا فى حواره عن معرفته باللغة الفرنسية، وتلك أيضًا كانت سمة مــن سمات العمل فى وزارة الخارجية، الأمر الذى جعل ديلك، فى غضون أسابيع قليلة، لا يحظى بالقبول وإنما أصبح أيضًا ذائع الصيت. وعبد الله بن سعود الذى أشــرت إليه هنا هو عبد الله بن ثنيَّان بن سعود، وهو من أسرة آل سعود العريقة فى نجــد، وكان عبد الله قد شق طريقه إلى إسطنبول، حيث اتصل بالسفارة البريطانية طالبًــا إليها مساعدته فى استعادة منصبه السياسى فى بلاده. وكنت قد سمعت عن عبد الله هكذا من كُورّى Currie، وهنا قفزت إلى استنتاج مفاده أن تلك ربما تكون الفرصة التى أتحينها فى الجزيرة العربية، وعليه طلبت من وزارة الخارجيــة أن تجعلنــى على اتصال به وأن تؤيد رحلتى التى أود القيام بها. ومع ذلك، لم تصل الخطة إلى نتيجة، على الرغم من أنها، كما سبق أن أوضحت، لم تكن مرفوضة تمامًــا مــن وزارة الخارجية، لأن الأمر عندما أحيل إلى اللورد تنتــردن Tenterden، وكيــل الوزارة الدائم، قوبل بالرفض، من منطلق أن الأمر إذا ما تــم بعلــم مــن وزارة الخارجية سيجرى النظر إليه باعتباره "مهمة سرية" وأن المهام التى من هذا القبيل تتناقض مع التقاليد والأعراف السائدة فى الوزارة. وعليه جرى التخلى عــن هــذه الخطة. فى هذا الوقت أيضا، وصلت إلى لندن أخبار الهزيمة المزرية التى منى بها الجيش البريطانى بقيادة باروز Burrows، على أيدى الأفغان فــى مدينــة قنــدهار Candahar، وأنا أتصور أن هذه الهزيمة أدت إلى التزام الحرص تمامًا فى ســائر أنحاء مجلس الوزراء البريطانى. كما جاءت هذه الهزيمة بمثابة لطمة أخيرة للورد ليتون Laytton، من ناحية، ولسياسة المقامرة التى كان يأخذها على عاتقــه فيمــا وراء حدود الهند من ناحية أخرى؛ ولم يسبق، على ما أذكر، أن تــدنت حظــوظ إنجلترا الإمبريالية أكثر مما وصلت إليه فى ذلك الوقت. لقد أصاب هذا الخبر الدنيا كلها بالاكتئاب، بما فى ذلك أنا الذى لم أكن من المغالين فى الوطنية.

٥ أغسطس

سافرت إلى بورتسموث Portsmouth بالقطار، بعد أن وصلتني برقية تفيد أن آل ليتون Lyttons يُنتظر وصولهم الليلة أو غد. بورتسموث بلدة غريبة قديمة الطراز، ليس فيها إلى الآن لوكاندة محترمة أو معقولة؛ ونحن الآن في مـزّارة(*) يطلقون عليها اسم "ستار جارتر Star Garter". يوجد في المنزل المقابل تمثال نصفي لنيلسون Nelson، ومن النافذة يستطيع الناظر أن يرى "القديس فينسنت" وقوس "النصر". وهذا قليل عندما يكون الإنسان مهتمًا ببلده – والله يعلم أنى لست شوفينيًا – يستحيل على المرء ألا يتأثر بتلك التذكارات الخاصة بعظمة بريطانيا. وأنا حتى هذه اللحظة لم أكن قد أدركت مدى اضمحلالها الذى بدأ منذ ستين عامًا مضت. يا ليا من صدمة يمكن أن تصيب نيلسون هو ورفاقه إذا ما استطاع قراءة صحف هذه الأيام، العامرة بالتهانى الخسيسة باكتشاف أن عدد المفقودين فى هلموند Helmund لم يكن ألفى رجل وإنما ألف فقط؛ والتباهى أيضًا بأن اللورد باروز Burrows ولى الأدبار لأن الأمور أصبحت على غير ما يرام؛ وهذه الصحف عبرت عن مخاوف من أن تدخل إنجلترا الحرب وحيدة ضد تركيا، وأن تسعد فرنسا حين ترانا وقد وقعنا فى متاعب فى الشرق – حدث كل ذلك مع وصول اللورد ليتون إلى بورتسموث، ليتون الذى إذا ما قدر للأمور السير على غير ما يرام فى الهند، سيترك فى التاريخ اسمًا لأول نائب لحاكم فاشل فى الإمبراطورية البريطانية، والذى يعد أهم المسئولين عن ضياع الهند. أقول: إن ذلك كله يعطى الإنسان إحساس بالأسف الذى يستحيل وصفه. ومع ذلك فأنا لست مع أولئك الذين يبكون على سياسة اللورد ليتون، ولا يبكون على تنفيذها. صحيح أن سياسته كانت أمرا ضروريا، وأن تنفيذها كان جريئا وناجحا، فقد كان الرجل عليمًا وفقيهًا فى تاريخ تحلل إنجلترا لأنه هو نفسه كان رجلاً واضحًا. ولم يكن بمقدور الرجل منع تفاقم الأحداث. لقد جرفته الأحداث، وراح يتولى الإرشاد قدر المستطاع

(*) المزّارة، بتشديد الزين وفتحها، حانة لبيع الجعة. (المترجم)

لكن بلا حول ولا طول، إذ لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا غير ما حدث. لقد كان تحلل إنجلترا واضمحلالها يرتكز على أسباب وصلت من العمومية حدا يصعب معه أن يكون أى إنسان مسئولاً عن هذا التحلل. لقد فشلنا لأننا لم نعد بعد أمناء، ولا عادلين، كما لم نجد التصرف. حكومتنا عبارة عن مجموعة من الدهماء، حكومتنا ليست جسدًا مزودًا بأحاسيس وليست مدعمة بتعاطف الأمة. لقد اكتسبنا وضعيتنا فى العالم عن طريق الصناعة الهائلة، والإحساس الهائل، والشرف الهائل، والآن وبعد أن ولت تلك الصناعة الهائلة، وبعد أن زال ذلك الإحساس الهائل والشرف الهائل، وجدنا أنفسنا فى المستوى الطبيعى الذى ينبغى أن نكون عليه. كنا على امتداد مائة عام نفعل خيرًا فى العالم: وعلى امتداد مائة عام سنكون قد فعلنا الشر، وعندها لن تسمع الدنيا عن إنجلترا أى شىء بعد ذلك.

٦ أغسطس

بعد بضعة إنذارات كاذبة وصلت أخيرًا الباخرة هملايا Himalaya؛ وبعد أن التقينا بقية الجماعة الصغيرة من الأصدقاء الذين جاءوا لتحية اللورد ليتون، خرجنا للقاء الباخرة وركبنا على ظهرها فى المنطقة المقابلة لاوسبورن Osborne. وعلى طريقة العصابات وقطاع الطرق، وبلونه البنى مثل حبة الكرز، وفى ملابس يرجع عمرها إلى أربع سنوات مضت، ومن فوق رأسه قبعة هندية، كان اللورد ليتون يقف وفى فمه تلك السيجارة التى كلفته منصب نائب الحاكم فى الهند. يا لعجب النجاح يعتمد على أشياء تافهة! لو امتنع اللورد ليتون عن التدخين فى غير الموسم المخصص لذلك، ولو ذهب الرجل ومعه زوجته إلى الكنيسة، لكان الجمهور الإنجليزى الهندى قد غفر له أخطاءه كلها التى كانت واضحة للعيان. والذى حدث أن الرجل واجه ذلك كله طوال حكمه، واختل الميزان عندما انهزم سياسيا. لكن لولا ذلك الذى حدث لما جرى استدعاء اللورد ليتون من الهند مطلقًا. والرجل نفسه من منطلق وعيه بأنه فعل كل ما فى وسعه، ومن منطلق وعيه بأنه أبلى بلاء حسنًا، أصبح لا يهتم بهذه الأمور، وهو على صواب فيما يفعل. وأنا أغبط هذا الرجل على هذا الشعور وأغبطه أيضًا على فرحته بالعودة إلى موطنه

فى نيبورث Knebworth. وبعد أن التقيناهم على الشاطئ وتناولنا معهم الشاى فى الفندق ودعناهم. لقد سمعت حرم اللورد ليتون وهى تقول: "آه، يا لهؤلاء الناس السكرانين فى الشوارع! لأشد ما أحب هؤلاء الناس!.

٧ سبتمبر

نيبورث Knebworth. كتبت وقرأت فى فترة الصباح، لكنى ذهبت فى فترة العصر مع اللورد ليتون إلى منزل الصيد وتناقشنا فى المسألة الشرقية، ووجدت أن آراءه لا تختلف كثيرًا عن آرائى. واتفقنا نحن الاثنين أن عصر الإمبراطورية الإنجليزية آخذ فى الأفول على نحو سريع – وأنا من ناحيتى لا يهمنى معدل سرعة هذا الأفول. أما اللورد ليتون فكانت وطنيته زائدة.

٢٩ أكتوبر

أمضيت اليوم مع اللورد ليتون... وقرأ علىَّ دفاعه الذى سيقدمه لمجلس اللوردات. فقد كانت لديه قضية مهمة للغاية، ويتعين عليه إلقاء واحدة من أشهر الخطب فى هذا العصر، إذا ما سمحوا للرجل بتقديم كل المستندات التى فى حوزته. وقد أطلعنى على هذه المستندات والوثائق، كما أطلعنى أيضًا على المراسلات التى جرى الاستيلاء عليها من كابول، كما أطلعنى أيضًا على معاهدة سرية بين الشير على Shere Ali والروس. كما أخبرنى أيضًا أنه عندما كان ذاهبًا إلى الهند زاره شوافالوف Schouvaloff واقترح عليه تقسيم أفغانستان بين روسيا وإنجلترا.

هذا هو تقريبًا آخر ما سجلته فى يومياتى عن عام ١٨٨٠، والتى توقفت عن كتابتها طوال عامين بعد ذلك: لم يسمح مطلقًا للورد ليتون بتقديم الشرح والتفسير الكامل فى البرلمان، وجرى تجريد خطابه من نقاطه القوية، الأمر الذى جعل الخطبة مسطحة إلى حد ما عندما قدمها أمام مجلس اللوردات. وعلى الرغم من

ذلك، سوف أضيف أنا هنا مقطوعة أخذتها من رسالة كتبها هو لي في اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر، وهي بدورها ستؤدي إلى اكتمال هذا الفصل من قصتي. هذه المقطوعة لها قيمتها من منطلق أنها تعد تلخيصًا دقيقًا للموقف السياسي في تلك الأيام: كتب اللورد ليتون: "طالعت في صحيفة من الصحف، منذ أيام قلائل بيانًا مفاده أن شريف مكة الجديد (عبد المطلب)، الذي يعد مجرد أداة في يدي السلطان، يعمل بهمة ونشاط بناء على أوامر من إسطنبول، لإثارة المسلمين ضدنا في كل أنحاء الدنيا. والصيحة السائدة الآن هي أن "الخليفة في خطر". كان ذلك متوقعًا، وأخشى أن تكون الفرصة قد فاتت على الاستفادة التي كانت مرجوة من العرب قبل عام مضى. النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تترتب على العمل الذي يقوم به جلادستون هي، على حد علمي، تخريب نفوذنا لدى إسطنبول، ونقل هذا النفوذ إلى ألمانيا، دون أن يتم استبدال ذلك بأية وسيلة أخرى للسيطرة على العالم الإسلامي. إن خطبة القصر التي ألقاها (جلادستون)، والتي كان الناس ينتظرونها بفضول شديد، بدت لي على أنها اعتراف ضعيف بفشل سياسة الحكومة فشلاً ذريعًا، وأنهم يسقطون اليونان، وأرمينيا، وكل شيء آخر باعتراضهم، وأن أصابعهم احترقت بنار طرف العصى، الذي أمسكوا به منذ تسعة أشهر مضت. وهم في أيرلندا يدخلون في مصاعب كبيرة، قد تؤدي إلى حل مجلس الوزراء. الواقع هو أن السياسة التي تود الحكومة تنفيذها لا تلقى قبولاً من الأمة؛ والسياسة التي تود الأمة تنفيذها، ترفضها الحكومة، رغبة منها في الحفاظ على وعودها وتصريحاتها. والنتيجة، هي عدم وجود سياسة في الوقت الراهن. وفيما يتصل بي أنا شخصيا فأنا ألتزم الصمت، إلى أن يجتمع البرلمان، وذلك على الرغم مما يعتمل في داخلي.

جاءت الأسابيع الأخيرة من مقامي في إنجلترا في فصل الخريف شبه خالية من السياسة، إذ تركز القسم الأكبر من هذه الأسابيع الأخيرة في نشر ديوان شعر، أقنعني اللورد ليتون بنشره، وتركت له بروفات الطباعة كي يصححها هو بنفسه. كان ذلك الديوان بعنوان "سونيتات بروتيوس Proteus"، وقد أصاب نجاحًا كبيرًا، الأمر الذي أدى إلى إعادة طبعه مرات كثيرة. هذا الديوان أعطاني مكانة في عالم الأدب، الأمر الذي كان له تأثير كبير بعد ذلك على علاقاتي مع أصدقائي السياسيين.

الفصل الخامس

زعماء الإصلاح فى الأزهر

غادرت إنجلترا فى خريف عام ١٨٨٠ وبالتحديد فى اليوم الثالث من شـــهر نوفمبر، قاصدًا مصر فى المقام الأول، وبلا تخطيط سوى السفر من مـــصر إلـــى جدة لتعليم وتأهيل نفسى للفرص المستقبلية المحتملة. كانت مـشروعاتى العربيـــة تبدو غير عملية فى ذلك الوقت، وكان كل ما أصبو إليه هو الحصول علـــى أكبـــر قدر من المعرفة فيما يتصل بالمذاهب والاتجاهات الإسلامية الحديثة كيما تكون هذه الأمور فى متناولى إذا ما تهيأت لى الظروف وأصبحت مواتية ومناســبة. عنـــدما غادرت لندن كنت قد اتفقت مع هاميلتون على تبادل الرسائل والتواصل طوال فترة الشتاء، واتفقنا أيضًا على أن أطلعه على الأشياء المهمة التى يمكن أن تحدث فـــى فى أثناء رحلتى، على أن يقوم هو، بتوصيل ذلك إلى السيد جلادستون، الذى أكـــد لى هاملتون أنه، على الرغم من عدم لقائى معه، لا يزال مهتما بأفكـــارى. كـــان الناس فى وزارة الخارجية ينظرون إلىَّ على أنى شىء هلامى غير واقعى، ولست واحدًا يحتمل أن يؤثر فى الرؤية البريطانية للسياسة الإنجليزية فى الشرق، حتـــى فى عصر حكم رئيس وزراء راديكالى.

بعد وصولى إلى القاهرة بأيام قلائل، اكتشفت حدوث تغييـــر كبيـــر وإلـــى الأحسن. كان عزل إسماعيل الطاغية قد فتح الباب أمام عهد من الحكم البريطانى- الفرنسى المشترك لمصر. وكانت المسائل المالية قد جرى تنظيمها، كمـــا جـــرى إدخال النظام فى كثير من الإدارات الحكومية. وقد قمت بزيـــارة بعـــض القـــرى الصغيرة التى سبق أن رأيتها فى حال يرثى له قبل خمس ســـنوات، واكتـــشفت أن المتاعب والآلام التى كانت تؤثر فى أوضاع هذه القرى قد توقفت، ومع ذلك كانت تلك القرى لا تزال تعانى من الفقر والضرائب الكثيرة المرهقة، لاحظـــت أيـــضًا اختفاء الإحساس باليأس والقنوط بين الفلاحين؛ كان ذلك اليأس هو الذى دفع هؤلاء الفلاحين إلى أن يسردوا لى تاريخ أوجاعهم وآلامهم عندما عشت بينهم أول مـــرة، من منطلق أنى غريب متعاطف معهم. قصدت الوكالة البريطانية وسررت عنـــدما

وجدت صديقى ماليت Malet يشغل منصب القنصل العام، وأعطانى الرجل فكرة واضحة عن الإصلاحات التى جرى إدخالها أو الجارى إدخالها، نظرًا لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن حدث أى شيء من هذه الإصلاحات سوى ما يتعلق منها بالمسألة المالية. كل شيء كان يسير على ما يرام لكن ببطء على طريق التحسن، كما أخبرنى أيضًا أن السحابة الوحيدة التى يراها فى الأفق، كانت تأتى أولاً من ناحية السودان التى كانت تشكل استنزافًا ثقيلاً لموارد مصر، وثانيًا أنه لاحظ نوعًا من الاستياء فى الجيش. وامتدح ماليت الخديو الجديد توفيق امتداحًا كبيرًا. واصطحبنى ماليت لمقابلة الخديو توفيق فى القصر، واكتشفت أن الرجل إن لم يكن شخصية ممتعة جدا، فإنه، فى أضعف الأحوال، أمير صاحب لغة متحضرة وأفق ليبرالى. ومسحة التفاؤل هذه التى لدى ماليت يمكن الوقوف عليها من الرسائل التى أرسلتها من مصر فى ذلك الوقت، وقد عثرت على واحدة من هذه الرسائل، كنت قد أرسلتها إلى الرجل، وأنا أقتطف هنا شيئًا من تلك الرسالة:

"حدث تغيير كبير جدا هنا وإلى الأحسن، منذ أن غادرت مصر قبل خمس سنوات، وأيا كانت المآخذ والعيوب التى تعد الحكومة السابقة مسئولة عنها، فإن سياستها فى مصر كانت قد أصابت نجاحا كبيرًا. أهل الريف بدأت تظهر عليهم النعمة والازدهار، والقلة القليلة من الناس الذين تحاورت معهم من قبل وكانوا يشكون مر الشكوى من حالهم وظروفهم، أصبحوا الآن يمتدحون الخديو ويثنون على الحكومة. يبدو، من الوهلة الأولى، أن الحكومة تسير فى الطريق الصحيح، ولا تحدث تغييرات كبيرة فى نظام الحكم، وهى لا تهتم سوى بتغيير أولئك الذين تسببوا فى الفوضى والاضطراب. جاء التخلص من الخديو إسماعيل خبطة سياسية كبيرة، ولا يخامرنى شك فى أنه فى ظل الإدارة السليمة سيستقيم الرجل الحالى. مصر غنية جدا، وبلد رخيص يسهل حكمه وتصحيح أحواله المالية، إذا ما اقتصر طموح هذا البلد على تحقيق ازدهاره الطبيعى. لكن هناك صخرتان تقفان أمام هذا البلد أولاهما حكم السودان، الذى سيشكل دومًا سببًا للاحتفاظ بالجيش. وأنا لا أتخيل السبب الذى يجعل مصر تُحمّل نفسها مسئولية حكم النيل فى منطقة ما بعد الشلال الأول، الذى يمثل حدودها القديمة. ووقف

تجارة الرقيق فى إفريقيا نوع من الترف والتسلية لا يستطيع أحد تحمله سوى الدول الغنية. سيكون من سوء الحظ أيضًا لو أن هذه الحماية وهذا الإشراف الذى تحصل عليهما الحكومة من إنجلترا، جرى سحبهما بضع سنوات على أقل تقدير، إلى أن يكبر جيل جديد اعتاد على الأمور الأفضل بدلاً من الأمور القديمة. وأنا أتمنى وضع سوريا على وجه السرعة تحت نظام من هذا القبيل. وإذا لم تكن هناك نية فى السيطرة على الصحراء، فسوريا تعد بلدا غنيا ويمكن الاستفادة منه. لكن ليبيا ستكون بحاجة إلى حماية واضحة من أوروبا حتى يمكن إعفاؤها من تكاليف الاحتفاظ بجيش. يكفى فى سوريا الاحتفاظ بقوة صغيرة جدا للقيام بالأعمال الشرطية، وأنا على قناعة أن الناس فى إنجلترا يبالغون مبالغة شديدة فى مسألة صعوبة المحافظة على الأمن والسلام والهدوء بين السكان الذين هم خليط من المسلمين والمسيحيين فى هذا البلد. هذان الصنفان من السكان رزحا زمنًا طويلاً تحت استبداد واحد، الأمر الذى قضى على احتمال وجود أية حزازات بينهم".

فيما يتصل بمسألة الخطة التى وضعتها لتثقيف نفسى فى الإسلام وأصوله، فقد كنت محظوظا تمامًا منذ البداية. كان روجرز Rogers بك، ذلك الباحث الشرقى المتميز الذى عرفته قبل سنوات قنصلاً لبريطانيا فى دمشق، قد أصبح الآن مسئولاً عن وزارة المالية Finance Office فى القاهرة، الأمر الذى مكننى من الحصول منه على اسم عالم Alem شاب من علماء جامعة الأزهر، هو الشيخ محمد خليل، الذى كان يتردد علىَّ يوميا لإعطائى دروسًا فى اللغة العربية، وكان يجلس معى فى فترة العصر فى معظم الأحيان للتحاور والتحدث معًا. على كل حال، اتضح أن هذا الرجل لم يكن مجرد مدرس للغة القرآن، لقد كان محمد خليل، دونًا عن سائر المسلمين الذين عرفتهم، صاحب أفضل ذهن متفرد، ومسلمًا خالصًا، كما كان فى ذات الوقت أكثر أتباع المدرسة الفكرية السائدة فى ذلك الوقت حماسًا، وأقصد بالمدرسة هنا تلك المدرسة التى كانت سائدة فى مصر فى ذلك الوقت والتى كان يتزعمها أستاذه الكبير الشيخ محمد عبده. ويعجبنى من ذلك الرجل الصورة التى رأيته عليها فى ذلك الوقت شاب فى الثلاثين من عمره، جاد، وذكى، وطيب بحق وبلا نفاق ولا تظاهر، ومتدين، وفخور بدينه، وليس فى سلوكه أو تصرفاته أى أثر

ولو قليل من التظاهر بالتقوى أى "الفريسية"، أو التعصب المذهبى، أو تلك الغطرسة المتحفظة التى تشيع بين المسلمين عندما يتعاملون مع أناس لا ينتمون إلى عقيدتهم. كان محمد خليل على العكس من ذلك كله. منذ أول يوم من أيام تعارفنا أخذ الرجل على عاتقه مهمة تعليمى كل ما يعرف وبصدر رحب وسرور كبير. كانت مدرسة الرجل فى تفسير القرآن من النوع المتفتح واسع الأفق. كان يعترف بكل المذاهب والنحل التى تؤمن بوحدانية الله؛ فى حين كان الرجل يرى اليهودية والمسيحية شكلان ناقصان محرفان لدين إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام. لم يكن الرجل على استعداد للاستماع إلى أى شىء عن الظلم أو عدم التسامح، ولم يكن على استعداد أيضًا لقبول أى نوع من أنواع المرارة بين المؤمنين لأنهم إخوان. كان محمد خليل يقول: إن التعصب وعدم التسامح والمرارة هى الموروث الشرير الذى ورثناه عن الحروب القديمة، وكان الرجل يؤمن بأن الدنيا ماضية فى الطريق إلى حال من الكمال الاجتماعى سيرجى معه إلقاء السلاح وإعلان الأخوة الكونية بين الأمم وبين الملل والنحل والمذاهب. وعندما كان الرجل يفسر لى هذه الأفكار ويسندها بأحاديث ونصوص تؤكد أنها من تعاليم الإسلام، كنت أصاب بالدهشة وينتابنى الفرح والسرور – لأن هذه الأفكار كانت قريبة جدا من أفكارى – كما كانت تزداد دهشتى وفرحى أيضًا عندما كان يؤكد لى أن هذه الأفكار بدأ يعتنقها الطلاب النجباء من الجيل الصاعد فى جامعة الأزهر، كما يجرى أيضًا اعتناق هذه الأفكار فى أماكن أخرى من العالم الإسلامى. وحكى محمد خليل لى حكاية نشوء هذه المدرسة المستنيرة فى التفسير، على ما يذكر، فى جامعة الأزهر.

الغريب بحق أن مؤسس حركة الإصلاح الدينى الليبرالى بين العلماء فى القاهرة لم يكن عربيا، ولا مصريا، ولا عثمانيا، وإنما كان رجلا غريبا عبقريا، وهو الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى كانت خبرته الوحيدة فى الإسلام، قبل مجيئه إلى مصر، كانت مستقاة من وسط آسيا. وبحكم أن الرجل كان أفغانى المولد فقد تلقى الرجل تعليمه فى بخارى، وفى ذلك الإقليم النائى البعيد، ودون الاتصال مع أى أحد من علماء الدين فى مراكز الفكر الإسلامى المتحضرة، استطاع الرجل أن يخلص من خلال دراسته ومن خلال تأمله، إلى الأفكار التى أصبحت ترتبط باسمه

في الوقت الحالي. واعتبارًا من ذلك التاريخ راحت كل حركات الإصلاح الــديني في مجال الإسلام السني تسير بلا هدى من خطوط التقــدم وإنمـــا الرجــوع إلـــى الأصول. كان هناك عدد كبير من الدعاة، وبخاصة خــلال القــرنين الأخيــرين، يعلمون الناس أن تحلل الإسلام كقوة في العالم يرجع إلـــى أن أتبـــاع الإســـلام، أو بالأحرى المسلمين، تخلوا عن الأساليب القديمة البسيطة، وعـــن الاتبـــاع الـــسليم للشريعة بالشكل التي كانت عليه في العصور الباكرة للشريعة الإســـلامية. علـــى الجانب الآخر، كان هناك مصلحون في كل من تركيـــا ومــصر، قـــاموا بأوربـــة Europeanized الإدارة لأغراض سياسية، لكن هذه النوعية مـــن العلمـــاء أدخلـــت تغييراتها قسرًا، وذلك من خلال فتاوى وموافقات جرى الحصول عليها عنوة مـــن العلماء الذين لم يكونوا موافقين عليها، ودون أن يحاولوا بصورة جدية إيجاد نـــوع من التوافق بين هذه الإصلاحات وبين الشريعة الإســـلامية والأحاديـــث الـــشريفة. كانت الإصلاحات السياسية تفرض دومًا من أعلى، ولا تأتي على شكل مقترحـــات من الأسفل، وكانت هذه الإصلاحات تدان في الأغلب الأعم من قبل أصحاب الآراء المحترمة. كانت أصالة جمال الدين الأفغاني تتمثل في أن الرجل كان يحاول تغيير الفكر الديني في البلاد التي كان يقوم فيها بالدعوة، إلى حتمية إعـــادة النظـــر فـــي الموقف الإسلامي كله، وبدلاً من التعلق بالماضي، يجب إحـــداث حركـــة فكريـــة تمضي قدمًا بحيث تنسجم مع المعرفة الحديثة.

بعد أن انتهى جمال الدين الأفغاني من دراسته عام ١٨٧٠، وعنـــدما كـــان عمره حوالي اثنين وثلاثين عامًا، انتقل من خلال الهند، إلـــى بومبـــاي Bombay وانضم إلى قافلة الحج المسافرة إلى مكة، وبعد الانتهاء من فريضة الحج، جاء إلى القاهرة، ثم بعد ذلك إسطنبول. لم تزد زيارته الأولى إلى مصر عن أربعين يومًـــا، لكن تهيأت له الفرصة والوقت اللازمين للتعرف إلى بعض طـــلاب الأزهـــر، وأن يضع أساس التعليمات التي راح هو يدرسها بعد ذلك ويطورها. سرعان ما تجلـــت في إسطنبول فصاحة هذا الرجل وعلمه الغزير، فأعطي منصبًا في دار العلـــم، إذ راح الرجل يحاضر في الموضوعات جميعا، إذ كانت معرفته كونية وشاملة. كـــان جمال الدين الأفغاني حاضر البديهة، ويتمتع بذاكرة مدهشة، إلى حد أنه كان يقال:

إن الرجل بوسعه قراءة أى كتاب فى أى فرع، ويسترجع كل محتوياته كما لو كانت محفورة فى ذهنه إلى الأبد. وتطرقت محاضراته، التى بدأت بالنحو والعلوم، إلى الفلسفة ثم إلى الدين. كان جمال الدين الأفغاني يقول: إن الإسلام السنى قادر على تكييف نفسه مع مطالب الروح الإنسانية كلها، واحتياجات الحياة الحديثة. ولما كان جمال الدين الأفغانى سنيًا أصيلا، وعلى معرفة كاملة بالحديث الشريف، فقد كان الناس يصغون إليه باحترام، الأمر الذى عجّل باتباع شباب الطلاب له وباقتدائهم به. كان الرجل بحكم شجاعته الشخصية يوحى إلى مستمعيه ومريديه بالشجاعة، يزاد على ذلك أن معالجته النقدية للتعليقات التى كانت تصله، بما فى ذلك تعليقات الأحناف أنفسهم، كان يتلقاها أصحابها على نحو مختلف تمامًا كما لو كانت صادرة عن شخص آخر غير جمال الدين الأفغانى. كان الرجل يحاول جاهدًا تخليص ضمائر هؤلاء العلماء من الأغلال التى كبلت الفكر على امتداد قرون كثيرة، وأن يوضح لهم أن الشريعة الإسلامية ليست شيئا جامدا وإنما هى منظومة تناسب الاحتياجات البشرية المتغيرة فى كل عصر، وبالتالى تصبح هى نفسها عرضة أو قابلة للتغيير. هذا كله يتطابق تمامًا مع الصحوة الفكرية المسيحية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى أوروبا وتعديلها للاتجاهات المذهبية كى تتوافق مع الاكتشافات العلمية فى ذلك الوقت. ومع ذلك، نجد أن الغريب حقا، هو أن روح النقد الجديدة بدأت تدخل مجال الإسلام الغربى(*)، وعلى يد رجل تلقى تعليمه فى أراضٍ رجعية مثل آسيا الوسطى، وفى جامعة فى منطقة نائية تمامًا هى جامعة (بخارى).

كانت حياة الشيخ جمال الدين الأفغانى العملية فى إسطنبول حياة مزدهرة على الرغم من قصرها. الواقع أن جمال الدين الأفغانى كان حرا طليقا فيما يكتب ويقول فى إسطنبول؛ ومثل السواد الأعظم من الأفغان، لم يكن جمال الدين الأفغانى من الذين يركزون على الأشخاص والمراسم الاحتفائية السائدة بين كبار

(*) يذكر المؤلف لفظ Western Islam ولا نعتقد أنه يقصد المعنى الظاهرى، وربما قصد الناحية الغربية من العالم الإسلامى على اعتبار أن الأفغانى جاء من الشرق. (المراجع)

الشخصيات العثمانية، والتى تنظم الحديث بين علِية القوم وأولئك الذين يتعاملون معهم أو الذين يحظون برعايتهم. وعلى الرغم من تمتع جمال الدين الأفغانى بحماية بعض رجال الدولة الليبراليين له، وبخاصة على باشا وفؤاد باشا، اللذان وجدا في دعوته ومحاضراته دعمًا ومساندة لإصلاحاتهما السياسية غير الأصولية فى مواجهة العلماء التقليديين، فإن الرجل أغضب الشخصيات الدينية الكبيرة، وبخاصة فى ميله الشخصى تجاه شيخ الإسلام، وسرعان ما وجدت هذه الشخصيات الدينية فى محاضرات الأفغانى أمورًا كثيرة تستحق الإدانة والشجب. وجرى استغلال بعض المقتطفات من محاضرات الرجل لاتهامه أمام الحكومة بالإلحاد وتحريف الشريعة، وعندما رد المصلح الأفغانى بشجاعة مطالبًا بمواجهته بكبار من أقاموا عليه الاتهام، على أن تكون تلك المواجهة علنية وعلى الملأ؛ جاء ذلك صدمة وإزعاجًا للموقف الرسمي. فأسفر ذلك التحدى عن اضطراب هائل فى صفوف أهل العلم Softas، وانضم الشبان منهم إلى جانب جمال الدين الأفغانى، واتضح أن هذا النزاع سوف يؤدى إلى مشكلة خطيرة. وهنا صدرت مذكرة تفيد أن من الأفضل أن يغادر جمال الدين الأفغانى عائدًا إلى مصر والأراضى المقدسة. وبذلك يكون قد عاد إلى مصر تحت ظل ما يمكن تسميته بالاضطهاد الدينى، لكن تلك العودة حدثت بعد أن بذر الرجل بذور التساؤل والاستفسار التى نضجت وآتت أكلها فى إسطنبول فيما بعد على شكل مطالبة عامة من جانب أهل العلم Softas بإجراء بعض الإصلاحات الدستورية. هذا الجانب الدينى من الحركة هو الذى قدر له أن يتوج بالثورة السياسية التى قام بها مدحت باشا عام ١٨٧٦.

فى الأزهر، وعندما عاد جمال الدين الأفغانى إلى القاهرة فى عام ١٨٧١، كانت سمعته قد سبقته إلى هناك، وعلى الرغم من أن مصر كانت فى أحلك ليل جهلها الدينى، بسبب فساد الحكومة وبخاصة فى عهد الخديو إسماعيل، ذلك الفساد امتد ليشمل الطبقات كلها، كما أطفأ ذلك الفساد الخلقى موروث الشجاعة والاستقلال بين العلماء، الأمر الذى أثار كثيرًا من الفضول والتطلع إلى مجيء جمال الدين الأفغانى وعودته إلى القاهرة. رحبت تلك القلة القليلة من الأصدقاء الذين صادقوا الأفغانى وتحلقوا حوله فى زيارته الأولى، رحبوا بالرجل بعد عودته فى المرة

الثانية فى السر، إن لم يكن فى العلن، وسرعان ما أدت نيـران الحـوار العجيـب والحماسى، إلى التفاف عدد كبير من الأتباع المخلصين والمتحمسين حـول ذلـك الرجل. وكان أبرز هؤلاء الأتباع والمريدين الأزهريين هو الشيخ محمـد عبـده، الذى قُدِّر له أن يلعب دورا مهما فى الشأن العام فى مرحلة لاحقة، والـذى يـشغل حاليا منصب مفتى الديار المصرية؛ وكان الشيخ اللقانى(*) المعـروف، مـن بـين هؤلاء الأزهريين أيضًا الذين التفوا حول الأفغانى بعد عودته إلى القـاهرة، وكـان يحظى بشعبية كبيرة. كان جمال الدين الأفغانى يتواصل بـلا تحفـظ مـع هـذين الشخصين، وكان ينقل إليهما مخزوناته المتباينة من المعارف، ويبث فيهما شيئًا من روحه النقدية وشيئًا من شجاعته. كان كل من يود الكلام علانية فى القاهرة بحاجة إلى شىء من الشجاعة. لم يكن إسماعيل يطيق أى نوع من المعارضـة، واسـتغل سلطته فى البلاد استغلالاً أدى إلى اختفاء الكلام بحرية بل واختفاء الهمس أيـضًا من أفواه الناس، الذين راحوا يجأرون بالشكوى، هم فلاحو القرى، الـذين كـانوا يكابدون الآلام والمتاعب، كما جأر بالشكوى أيضًا أولئك الحضر الذين بلغوا مـن الفقر والحاجة حدًا لم يصبح معه لشكواهم أى صدى أو مردود. كان كبار علمـاء الدين، وكبار المسئولين ساكتين عن الظلم واخـتاروا الإذعان والرضـا دورًا لهم ما دام أن كل واحد منهم يحصل على نصيبه، مهما صغر، من الغنيمة العامة.

فى ظل هذه الحال المظلمة ظلاما فكريا وأخلاقيا، بدأت تظهر دعوة وتعاليم جمال الدين الأفغانى الشجاعة كما لو كانت ضوءًا غريبًا مفاجئًا، يضاف إلى ذلـك أن شجاعة الرجل ضمنت له وإلى فترة محددة إنصات الحكومة إلى ما يقوله مـع شىء من التحذير والعتاب. وربما كان نزاع الرجل فى إسطنبول هو جواز سـفر التسامح بينه وبين الخديو إسماعيل، وربما أيضًا كان الخديو إسماعيل ينظـر إلـى ذلك الأفغانى على أنه شىء يبلغ من الصغر والضآلة حدًا لا يدعو إلى الاهتمام ولا الاكتراث به. وربما حاول إسماعيل أيضًا، شأنه فى ذلك شأن على باشـا وفـؤاد

(*) ذكره المؤلف باسم Ibrahim el Aghani والأصح أنه إبراهيم اللقانى الذى كان مـن كبـار مريـدى الأفغانى. (المراجع)

باشا، جعل دعوة وتعاليم الأفغانى أمرًا ذا شأن فى حربه وصراعه مـــع القناصـــل الأوروبيين. وعلى الرغم من ذلك كله، سُمح لجمال الدين الأفغانى، طوال الفتـــرة المتبقية من حكم الخديو إسماعيل، بالاستمرار فى إلقاء المحاضرات، ولـــم يقـــبض على الرجل إلا فى عهد الخـــديو توفيـــق، وإنـــشاء الإدارة الإنجليزيـــة الفرنـــسية المشتركة، حين جرى إلقاء القبض عليه بأمر إدارى، وأرسل إلى الإسكندرية بـــلا محاكمة، وجرى نفيه بصورة مؤقتة. كان الرجل قد أنجز مهمته بالفعل؛ ويـــوم أن كنت أكتب هذا الكتاب كانت مبادئ الرجل عن الإصلاح الليبرالى، المبنـــى علـــى أساس دينى، قد بدأت تشيع وتنتشر فى الأزهر، الأمر الذى أدى إلى اعتناق هـــذه الأفكار بواسطة أصحاب الفكر من بين الطلاب. هذا يعنى أن عباءة المصلح ألقيت على عاتق جديرة بحملها؛ بل ربما أنها ألقيت على عاتق أقوى من عاتق صاحبها. لقد كان محمد خليل، ذلك المدرس صغير الجسم الذى كان يعلمنى اللغة العربية، لا يكل أو يمل من الحديث إلىَّ عن فضائل الشيخ محمد عبده وخصائـــصه الفكريـــة، والذى كان والدا روحيا له فى ذلك الوقت، وزعيم الأزهر المعترف به فـــى ذلـــك الوقت أيضًا، وكان يجىء فى المرتبة الثانية بعد جمال الدين الأفغانى فى معـــارك الإصلاح الليبرالى.

بين أوراقى مذكرة تفيد أن معلمى الفاضل، أخذنى فى الثامن والعشرين من يناير عام ١٨٨١ الميلادى، إلى منزل محمد عبده الصغير فى حى الأزهر، والذى لاحظت أنه يغلب على بنائه الحجر شديد البياض؛ حيث بدأت علاقتى بالشيخ محمد عبده على شكل صداقة بلغت من العمر خمسة وعشرين عامًا الآن، مع رجل مـــن أفضل وأعقل وأهم الرجال. وأنا عندما أستخدم هذه الكلمات فى وصف هذا الرجل، يجب ألا يُظن أن ذلك من قبيل الحكم الطائش غير الرصين أو من قبيل المبالغـــة. هذا الكلام مبنى على تعرفى شخصية هذا الرجل فى ظل ظـــروف مختلفـــة، فـــى مناسبات شديدة القسوة وشديدة الصعوبة أيضًا، من منطلق أن الرجل يعـــد داعيـــة دينية من ناحية، وزعيمًا لحركة من حركات الإصلاح الاجتماعى، ثـــم باعتبـــاره الرأس الفكرية لثورة سياسية من ناحية ثالثة؛ كما عرفت الرجل أيضًا وهو ســـجين فى أيدى أعدائه، وعرفته أيضًا منفيا فى أراضٍ أجنبية مختلفـــة، وعرفتـــه أيـــضًا

عندما كان تحت مراقبة الشرطة فى القاهرة بعد إلغاء نفيه؛ وعرفت هذا الرجل أيضًا من خلال قوة فكره وقوة أخلاقه، التى أكدت على وجود الرجل كمصدر من مصادر القوة فى بلده؛ وعرفته أيضًا عندما عاد إلى استئناف محاضراته فى الأزهر، وعندما أعيد إلى القضاء فيما يسمى محكمة الاستئناف، وعرفت الرجل أيضًا مؤخرًا فى هذه الأيام عندما كان مفتيًا للديار المصرية، وهو أعلى منصب قضائى دينى فى مصر.

كان الشيخ محمد عبده عندما رأيته أول مرة عام ١٨٨١، رجلاً يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا، متوسط القامة، قمحى البشرة، نشيط فى مشيته، حاضر البديهة، التى تتجلى فى عينيه النافذتين، وصريح وودود، وملهمًا بالثقة. من حيث الملبس والمظهر، نجد أن لباس الرجل ومظهره شرقيان تمامًا، فهو يضع فوق رأسه عمامة بيضاء ويرتدى قفطانًا داكنًا من النوع الذى يلبسه شيوخ الأزهر، ولا يعرف حتى ذلك الوقت شيئًا من اللغة الأجنبية، أو بالأحرى لا يعرف من اللغات سوى لغته فقط. ناقشت مع الشيخ محمد عبده، بعون من الشيخ محمد خليل، الذى يعرف شيئًا قليلاً من اللغة الفرنسية، ومستعينًا أيضًا بذلك القليل الذى أعرفه من اللغة العربية، ناقشت معه القسم الأكبر من المسائل التى سبق أن ناقشتها مع تلميذه، وفيما بين هذين الاثنين حصلت منهما، قبل مغادرتى القاهرة، على معرفة وإلمام كبير بأفكار مدرستهما الإسلامية الليبرالية، كما وقفت أيضًا على خوفهما على الحاضر، وآمالهما فى المستقبل. وقد جسدت هذه المخاوف وتلك الآمال، فى كتاب نشرته بعنوان "مستقبل الإسلام". كان الشيخ محمد عبده قويا عندما ذكر أن ما تحتاجه السياسة الإسلامية ليس مجرد الإصلاح وإنما هى فى بحاجة أيضًا إلى إصلاح دينى حقيقى. فى مسألة الخلافة كان رأى الرجل مثل السواد الأعظم من المسلمين المستنيرين، يقوم على إعادة تأسيس هذه الخلافة على أساس ينطوى على المزيد من الروح. أوضح لى الشيخ محمد عبده أن المزيد من الممارسة الشرعية لسلطة الإسلام يمكن أن توجه لإعطاء دفعة جديدة للتقدم الفكرى، وأنه على الرغم من صغر أولئك الذين حملوا ذلك اللقب على امتداد قرون طويلة فإنهم كانوا يستحقون القيادة الروحية للمؤمنين، وأن آل عثمان (العثمانيون) لم يهتموا بالإسلام

طوال قرنين من الزمان، وفيما عدا حكم السيف لم يكن هناك ولاء للإسلام. كان العثمانيون في ذلك الوقت لا يزالون هم أقوى الأمراء المسلمين، كما كانوا قادرين أيضًا على القيام بالقسم الأكبر من المنفعة العامة، وإذا لم يجر إقناع هؤلاء الأمراء بأخذ موقفهم مأخذ الجد، فمن الطبيعي أن يتطلع الناس إلى أمير جديد للمؤمنين. والمؤكد أن الأمر كان بحاجة ماسة إلى أساس سياسي جديد ترتكز عليه احتياجات الإسلام الروحية. كان كلام الرجل يتسم بنغمة الاعتدال فى التعبير عن آرائه المقنعة تمامًا فى حكمتها العملية.

قمت مع زوجتى فى فصل الشتاء بالزيارة التى كنت قد انتويت القيام بها إلى جدة، التى جمعت منها كثيرًا من المعلومات التى كنت أود جمعها حول آراء مختلف المذاهب الإسلامية. ولم يكن فى متناول الأوروبيين مكان أفضل من جدة للحصول على هذه المعلومات، وتمكنت من بعض المسلمين المهمين عن طريق شخص يدعى يوسف أفندى القدسى، الذى كانت تربطه علاقة بالقنصلية البريطانية. وكان الشيخ حسن جوهر من بين هؤلاء المسلمين المهمين، والشيخ حسن جوهر هذا عالم صومالى شديد الذكاء، وكان أيضًا الشيخ عبد الرحمن محمود، واحدًا من هؤلاء المسلمين، وهو من حيدر أباد فى الهند؛ هذا بالإضافة إلى كل من الشيخ مشعث المكى، وأعضاء كثر من أسرة البسام من عنيزة فى نجد، كما كان هناك شيخ بدوى آخر على قدر عال من التعليم وهو من جنوبى المغرب. لم يطل مقامى في مكة، نظرًا لإصابتى بحمى الملاريا واسعة الانتشار فى جدة، الأمر الذى قضى على فكرة التجول إلى مسافة أبعد من ذلك داخل البلاد. يزاد على ذلك أنى اكتشفت أن الوقت والظروف لم تكن مناسبة للقيام بشىء من هذا القبيل فى ذلك الوقت، وسبب ذلك هو معاداة السلطات فى مكة لإنجلترا. الواقع أن السلطان عبد الحميد كان قد بدأ يفرض على الآخرين الاعتراف بوجوده، وهذا أمر لم يكن معروفًا لكثير من الأجيال السابقة على العثمانيين، باعتباره الرئيس الروحى للإسلام، وفى الجزيرة العربية على وجه الخصوص راح الرجل يزداد حرصًا على سلطته، فى حين أدى نزاعه مع حكومتنا، إلى تشككه، أكثر من أى إنسان آخر، فى مظاهر النفوذ الإنجليزية. كان السلطان عبد الحميد، قبل أشهر قلائل من وصولى إلى جدة،

قد فرض وجود سلطته في مكة، بتعيين كبيـــر للأشـــراف، مـــن أصـــحاب الآراء الرجعية والآراء المعارضة لأوروبا. كان كبير الأشراف السابق حسين بن عـــون رجلاً صاحب أفكار ليبرالية، وشهير بعلاقاته الودية مع القنصلية البريطانية، الأمر الذي جلب عليه الغضب ومات ميتة شنيعة. وسواء أكان ذلك بترتيب من الـــسلطان نفسه، أم عن طريق الوالي التابع له، فهذا أمر لا يمكن القطع به، فقد تأكد أن ذلـــك هو ما كان يجرى هناك عندما كنت في جدة.

عرفت من عمر ناصف، وكيل الشريف حسين فـــي جـــدة، تفاصـــيل وفـــاة الشريف حسين، وقد ألقى عمر ناصف بتفاصيل هذه الوفاة على السلطان. واســـتنادًا إلى ما قاله، والذى تأكد لي بعد ذلك من مصادر سلطوية مختلفـــة، كـــان الـــشريف حسين قد عاد لتوه من مكة إلى جدة بعد انتهاء موسم الحج، طبقًا لما هو سار في تلك الأيام، لكي يبارك للحجاج قبل أن يغادروا جدة عائدين إلى بلادهم. كـــان الـــشريف حسين قد سافر على ظهر حصان من مكة إلى جدة في أثناء الليل، واتجه وهو علـــى صهوة جواده إلى الميناء، وبصحبته حرس مرافق قسم منه من العرب والقسم الآخر من العثمانيين، وكان الركب متجهًا إلى منزل عمر ناصف، وفجأة جاء إلى المقدمـــة حاج أفغاني فقير الحال، يرتدى ملابس بالية، كما لو كان يطلب صدقة أو إحسانًا، ثم قام بطعن الشريف حسين في بطنه. وعلى الرغم من إصابة الشريف بجـــرح، فقـــد واصل السير إلى أن وافته المنية في منزل وكيله، في غضون يوم واحـــد، نظـــرًا – على حد ما بلغني – لعدم العناية بعلاج الجرح الذي لم يكن قاتلاً بـــأى حـــال مـــن الأحوال. هناك ظروف مختلفة، تبعد هذا القتل عن دائرة التطرف أو القتـــل العـــام. القاتل لم يكن شيعيا، كما قيل في بداية الأمر، لكنه كان سنيا متشددا، وقد استخدم ذلك القاتل، بعد إلقاء القبض عليه، لغة تفيد أنه كان مأجورًا. قال عندما سألوه عن أسباب فعلته: "كان هناك فيل، أكبر حيوانات الغابة حجمًا، وأرســـلت إليـــه نملـــة، أصـــغر المخلوقات، وعضته (قرصته) النملة فمات الفيل". يزاد على ذلك أن هذا القاتـــل لـــم تجر محاكمته محاكمة علنية، وجرى إعدامه بعد أربعة أيام من إلقاء القـــبض عليـــه، في الوقت الذي جرى فيه إخفاء هذا الأمر إلى أبعد حد ممكن.

خلف الشريف حسين واحد من بيت زيد المنافس، وهو الشريف عبد المطلب، الذى كان ينتمى إلى واحدة من أشد مدارس الإسلام أصولية. كان الشريف عبد المطلب رجلاً كبير السن، وكان قد بلغ من السن مبلغًا مكنه من أن يكون شريفًا على مكة عندما احتلها الوهابيون، وهنا راح الرجل يتوافق مع المذهب الوهابى، من الناحية الشكلية فى أضعف الأحوال. فى هذه السن الكبيرة، جرى تنصيب الشريف عبد المطلب أميرًا لكى يعمل على نشر الآراء الخاصة بالجامعة الإسلامية التى جرى الاتفاق عليها فى إسطنبول. في عهد الشريف حسين كان بوسع أى رجل من الإنجليز التجوال خلال الحجاز بلا مضايقات، وقد حظى كل من دوتى والأستاذ روبرتسون سميث Robertson Smith بعون الشريف حسين لهما ومساعدته إياهما، كما حظيا أيضًا بحمايته. أما الآن فإن أى أمر من هذه الأمور، يدخل فى إطار الأخطار الشديدة. وواقع الأمر أن هوبر Huber الرحال الفرنسى، توفى عندما خاطر بحياته داخلاً إلى هذه الأراضى فى ذلك العام. وعليه عدت أنا وزوجتى إلى السويس، ثم سافرنا عن طريق الإسماعيلية إلى سوريا.

فى أثناء مرورى على السويس تسلمت الرسائل التالية من هاملتون ردا على رسالتين من رسائلى. هذه الرسائل مهمة لأنها توضح مدى تحول انتباه الحكومة عن أمور الشرق وتحول ذلك الانتباه إلى الاضطرابات والمتاعب التى تجرى فى أيرلندا. والشيء المحزن والعجيب، هو أن نلاحظ أن المهمة، التى تصور مجلس وزراء المحافظين أنها تتمثل فى قمع حركة القومية والحرية فى أيرلندا، كان لها رد فعل على المشاعر الطيبة التى أعرب الوزراء، وهم خارج وزاراتهم عن تعاطفهم مع الحرية الوطنية فى الشرق. كان جلادستون، الذى كان يميل إلى الحرية فى الاتجاهين، قد احتفظ بثقله فى مجلس الوزراء بفعل أولئك الوزراء المحافظين، الذين جبلوا على دفع الرجل إلى الاتجاه المعاكس. كانت أيرلندا على امتداد العامين الأخيرين قد أثبتت أنها حجر عثرة أمام سياسة الرجل، الأمر الذى أدى إلى تبنى سياسة القمع عام ١٨٨٢، كما اتخذ مجلس الوزراء نفسه قرارًا باستعمال سياسة القوة والقمع فى مصر. إن ارتباط سوء الطالع بين هذين البلدين، لم يكن نذير شؤم ومأساة لهذين البلدين فقط، وإنما كان نذير شؤم أيضًا للشرف الإنجليزى.

١٠ دوانج ستريت(*)، فى ٢٢ ديسمبر عام ١٨٨٠

... انتهزت الفرصة وعرضت رسالتك على عدد كبير من أولئك الرجال الذين يودون قراءة هذه الرسالة، بما فيهم اللورد جرانفيل Granville، وريفرز ولسون، وبمبروك Pembroke، وهارى براند Harry Brand. ومبلغ علمى أن رسالتك شرحت صدر ريفرز ولسون بصفة خاصة، لأنه ينظر إلى عمله فى مصر بعين فاحصة؛ وقد شعر الرجل بالارتياح عندما سمع من مصدر محايد، أن ذلك الذى كانت له فيه اليد الطولى، قد أسفر عن هذا الخير الوفير. وأنا أخشى أن يكون ولسون يظن أن إسهامه فى هذه النتيجة التى توصلنا إليها، كان هامشيا أو لم يجر تقديره حق قدره.

استمرت أيرلندا فى استنفاذ الوقت الحكومى كله والطاقات الحكومية كلها، وأنا أخشى المبالغة فى وصف الحال التى عليها الأمور فى ذلك البلد المتحيِّر. ونحن بحمد الله، على وشك أن نسمع عن إعادة اجتماع البرلمان. ويتبقى بعد ذلك إثبات ما إذا كانت الحكومة أخطأت أم لا، أطالت الصبر عندما بالغت فى التحمل. وعموما فإن الحال الحالية تعد عارًا لهذا البلد؛ يزاد على ذلك أن أعضاء الحكومة يعودون إلى المسار النمطى القديم الذى يقوم على الإجراءات التعسفية القوية التى تقوم هى بدورها أيضًا على القهر، وقد بدأت أشعر بالاستياء وعدم الرضا عن الفكرة التى مفادها أن الحكومة الدستورية لا تناسب أيرلندا، وأنا أقول أيضًا: إننا مهما حاولنا رفع الأضرار والمظالم والمساوئ عن أيرلندا فلن تعود إلينا مرة ثانية دون أن نُعيد إليها شيئًا شبيهًا بسياسة كرمويل. الحال ينفطر له القلب فى كل مكان، وما لم يحدث شىء من التغيير غير العادى فسوف يتعين علينا الاستسلام والخضوع فى ذلك البلد لقدر كبير من الإحباطات الحكومية على امتداد السنوات القلائل القادمة. وأنا أشعر بالحزن عندما أستشرف ذلك كله. هل يمكن لنا أن نطبق

(*) مقر مجلس الوزراء البريطانى. (المترجم)

فى أيرلندا ذلك الذى رأيته أنت فى مصر... هذا البلد الشقى (أيرلندا) هو الذى جعل الحكومة لا تعيش العصر فيما يتصل بالسياسة الخارجية. ومع ذلك، يتعين على الحكومة، أن توجد مكانًا ولو صغيرًا لليونان، ولا تترك المسألة تنفلت كلها، الأمر الذى يمكن أن يفضى فى نهاية المطاف إلى نشوب الحرب بين تركيا واليونان. اليونان لن ترضى مطلقًا أن تكون على انفراد مع تركيا؛ وتركيا إذا ما نشبت الحرب، سيكون ذلك بمثابة إيذان بقيام ثورة عامة فى شرقى روميليا ومقدونيا. وأنا ما زلت أثق فى وجود حل وسط لمسألة تغيير حدود مملكة الهيلنيين، وأن يتم ذلك عن طريق تدخل الدول والقوى الكبرى من أجل وجود شريحة صغيرة فى اتجاه الشمال، وقد يؤدى ذلك إلى تسليم جزيرة كريت Crete. وليس هناك من شك فى أن وجود وسيلة لتقوية اليونان وانفتاحها، سوف يؤدى إلى المحافظة على السلم مؤقتًا فى الشرق، كما سيؤدى أيضًا إلى وضع أسس لقوة تقف فى مواجهة القوميات السلافية...

١٠ داوننج ستريت، فى ١١ فبراير عام ١٨٨١

جرى تمرير رسالتك منذ أن تسلمتها، على أعضاء مجلس الوزراء. قرأت جزءًا من هذه الرسالة على جلادستون؛ هو واللورد جرانفيل والسيد جوشن، وأعتقد أن الاثنين الأخيرين يدرسان الرسالة ويتمعنان فيها، وأقول، على حد ما بلغنى، إنهما يدرسان الرسالة دراسة متأنية. الأهم من ذلك، أن اللورد جرانفيل أرسل صورة من حاشية رسالتك الخاصة بشئون الهند، إلى اللورد هارتنجتون. آمل ألا أكون قد زعزعت ثقتك بعد أن تحولت معلوماتك إلى تقرير رسمى. لقد أطلعت هارى براند Brand على هذه المعلومات. وقد واجه والد هارى براند، وهو رئيس مجلس العموم، بعض المصاعب، التى لم يسبق لأى رئيس سابق مواجهة نظير لها، لكن الرجل خرج من هذه المحنة وتغلب عليها بطريقة رائعة. لقد أمضينا أوقاتًا برلمانية مثيرة، على شكل جلسات لمجلس العموم لم يسبق لها مثيل استمرت طوال أيام وليالٍ عدة، فضلاً عن تعطيل كامل لكل أعضاء المجلس الذين

يعرقلون الأمور. ومع ذلك، أنا على ثقة أنه ستختفي العرقلة الناشئة عن الاستياء الشعبي الأيرلندي؛ وأنا على ثقة أيضًا بأننا إذا ما تجاوزنا إجراءات القمع أو بالأحرى الإجراءات الوقائية، وصار المشروع الخاص بالأراضي قانونيا، فلن نشعر بأي شكل من أشكال المضايقة من الكابوس الأيرلندي.

في ذات الوقت، كان الانتباه العام، بطبيعة الحال، مركزًا على ذلك البلد الشقي، ولم يتعب الناس أذهانهم ويشغلوها بالشئون الخارجية. ومع ذلك، لم تذهب القضية اليونانية إلى حيز النسيان. فقد كان اللورد جرانفيل يجذب الخيوط بطريقة، أعتقد أنها مصحوبة بشيء من النجاح. وواقع الأمر، أن حجر العثرة في هذا الموقف بالغ الصعوبة يتمثل في ذلك الدور شديد الدناءة الذي تلعبه فرنسا، الذي بدأ بداية ساخنة ثم تحول بعد ذلك إلى البرودة. على كل حال، لقد تشجع بسمارك Bismark على أخذ المبادأة عندما تقدم بمقترح جديد يمكن أن يفضي إلى نتائج طيبة. كان الشرط الأول للدول الكبرى يتمثل بطبيعة الحال، في المحافظة على السلم في أوروبا. ولولا أن اندلاع الحرب بين تركيا واليونان يمكن أن يؤدي حتمًا إلى اندلاع الاضطرابات والقتال في كل من بلغاريا وشرقي روميليا Romelia، ولولا أن اليونان لا تستطيع وحدها مقاومة تركيا وقتالها لكان من الطبيعي أن تحتكم إلى السيف حتى ترفع من قدرها إلى صفوف الدول الأوروبية. والرومان المحدثون، كان يستحيل عليهم أن يصبحوا مملكة متحدة، دون قتال أو كفاح من أجل هذه المملكة؛ واليونانيون المحدثون أيضًا لا يمكن أن يجأروا بالشكوى إذا ما واجهوا مصاعب وأخطار شبيهة بتلك التي واجهها الرومان. لكن إذا ما نحينا جانبًا الأخطار المترتبة على المعارك الدائرة حاليًا، نجد أن اليونان بحكم أنها محمية من المحميات الأوروبية، لا تصح التضحية بها الآن وإلقاؤها من فوق ظهر المركب إلى عرض البحر. إذا لم يمكن تنفيذ الحكم الصادر عن برلين تنفيذا سلميا – وفي ضوء تصرفات فرنسا والذي يبدو أمرًا مسلمًا به – فأنا أحسب أن مذبحة ذلك الحُكم جرى تحديدها في عبارة "بارثلمي سانت هيلير Barlhelemy de St. Hilaire الدبلوماسية" – بأن أفضل الخيارات يتمثل في إيجاد بديل مساوٍ لليونان – وأنا أعني بذلك تعويض اليونان في مكان آخر، عن ذلك الذي لم تحصل عليه، وأن يكون ذلك

التعويض فى تساليا وإبيروس Thessaly and Epirus، وهى بدورها سوف تقبل هذا التعويض، وسوف تساعدها الدول الكبرى على الحصول عليه. فاقتراح من هذا القبيل، يمكن أن يكون اتجاهًا جديدًا. وأنا أخشى، أن تكون علاجاتك، على الرغم من فعاليتها، تبلغ من الصرامة والشدة حدا بحيث يصعب على أوروبا أن تقبله.

أنا لا أذكر ذلك الذى ورد فى رسائلى وأدى إلى هذا الاستطراد الطويل فى موضوع اليونان، الذى لا يهمنى فى المقام الأول فى ذلك الوقت. وصياغة الرسالة وعباراتها شبيهة جدا برسالة السيد جلادستون، الأمر الذى يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن هذه الرسالة هى والرسالة السابقة ربما تكونان من إملائه وأنا أقتبس من هاتين الرسالتين الكثير لهذا السبب؛ يزاد على ذلك أن رواية الرجل عن المصاعب التى واجهت سياسته الخاصة باليونان هى التى أوحت إلى بالفكرة التى مفادها أنه مع احتمال قيام انتفاضة على الحدود اليونانية، فإن ذلك يمكن أن يشجع العرب على القيام بانتفاضة أخرى فى سوريا.

كانت رحلتنا من الإسماعيلية واحدة من الرحلات المهمة. فبعد عبور قناة السويس مضينا قدمًا فى اتجاه الشرق، عبر رقعة طويلة من الكثبان الرملية، إلى أن وصلنا إلى منطقة من التلال تعرف باسم جبل هلال Jebel Hellal. هذا الجبل، له بعض خصائص نجد لكن على مستوى صغير، من حيث الحياة النباتية، ومن حيث الأكوام الرملية؛ وفى هذه المنطقة أقمنا علاقة ودية مع كل من العيايدة Aiaidah والتياهة Teyyaha، كما تعرفنا أيضًا على قبائل الطرابين Terrabin فى اتجاه الشمال، كما عرَّجنا أيضًا على العزازمة Azazimah، الذين سبق أن التقيناهم قبل خمس سنوات. هذه القبائل كلها، كانت فى ذلك الوقت، مستقلة عن الحكومة العثمانية، وكانت تعيش فى الأرض الخلاء التى تشكل الحدود بين مصر وسوريا. وعلى الرغم من ذلك، كانت هذه القبائل فى صراع فيما بينها، كما هو الحال فى الجزيرة العربية المستقلة؛ وكانت هذه النزاعات تسفر عن ثارات من الدم على الجانبين، وقد تواصلت الحرب بين هذه القبائل، الأمر الذى أدى إلى امتداد الاضطرابات والقلاقل إلى حدود غزة. ومن باب وضع حد لهذه المتاعب والاضطرابات، لجأت الحكومة العثمانية إلى إحدى وسائلها. عندما قامت بدعوة

شيوخ القبائل الرئيسية إلى مؤتمر ودى حضره متصرف غزة، ثم القت القبض على هؤلاء الشيوخ غدرا وخيانة، وهم محبوسين فى سجون القدس حاليًا، كرهائن لضمان أمن الحدود وسلامتها. وفى ذلك الوقت، كان التأثير الإنجليزى الشديد، على تركيا، لا يزال قائمًا فى أذهان العرب، وفى أثناء مرورونا بين هذه القبائل، سعى أقارب المسجونين لدى كى أتوسط لدى الحكومة لإطلاق سراح هؤلاء الشيوخ المسجونين. وتعاطفًا مع هؤلاء الأقارب وافقت على بذل قصارى جهدى فى ذلك الموضوع. واصطحبت معى القائم بأعمال شيخ التياهة، وهو على بن عطية، ومعه الابن الأصغر لشيخ الطرابين، وقد رافقنا هذان الاثنان إلى القدس، ورحنا نشق طريقنا عبر التلال وليس عبر الطرق المعتادة، حتى وصلنا إلى القدس، أو بالأحرى إلى بيت لحم، دون الدخول إلى أى بلده أو قرية طوال الرحلة. وفى القدس، توجهت على الفور إلى القنصل مور Moore، وحصلت عن طريقه على أمر من الباشا يقضى بأن أقوم بزيارة السجون، التى وجدت فيها الشيوخ الذين كنت أبحث عنهم؛ وجدت هؤلاء الشيوخ فى زنزانات تحت الأرض بالقرب من مسجد عمر. كان هؤلاء الشيوخ فى حال يرثى لها، إذ كانوا يعانون من المرض والحبس الانفرادى لفترة طويلة، وهنا تقدمت بالتماس إلى الحاكم، نيابة عن هؤلاء الشيوخ المحبوسين، طالبًا العفو عنهم مقابل توقيع معاهدة سلام بين القبائل، وقد جعلت هؤلاء الشيوخ يوقعون على هذه المعاهدة ويختمون عليها بأختامهم. ومع ذلك، أعلن المتصرف أنه ليس من سلطته إطلاق سراحهم، ولذلك أحالنى الرجل إلى رئيسه، والى دمشق، لأنه هو المخوِّل بهذا الحق؛ وهنا تعين علينا الذهاب إلى دمشق، وبصحبتنا أيضًا على بن عطية، وعن طريق قافلة الإبل، على طريق وادى الأردن وسهل الحوران، وكانت رحلة شيقة وجميلة، نظرًا لأن المنطقة كلها سقط عليها وابل من الأمطار، فنبتت الورود كما لو كانت الأرض جنة من جنات عدن. فى سهل الحوران وجدنا حربًا دائرة بين القوات العثمانية والدروز، لكننا استطعنا المرور بين القوتين بلا مضايقات أو أذى، ووصلنا بعد ذلك إلى دمشق، التى نزلنا فيها أمام منزل صغير فى حى باب توما Touma؛ كنت قد اشتريت ذلك البيت قبل ثلاث سنوات عندما كنا نستعد للذهاب إلى نجد وكان له حديقة من الخلف.

كان منزلنا مجاورًا لمنزل سيدة إنجليزية شهيرة هي السيدة إيلنبورو Ellenborough، وكان الناس يسمونها السيدة دجبى Digby، وكانت، وهى فى سن متقدمة، قد تزوجت، بعد أن قامت بكثير من المغامرات العجيبة فى الشرق والغرب، من شيخ بدوى من قبيلة عنيزة وأصبحت تعيش مع زوجها مجول Mijwel، فى دمشق، بعد أن أصبحت غير قادرة على تحمل صعاب حياتها الصحراوية السابقة. حصلنا من هذه السيدة ومن زوجها الممتاز، الذى كنا نعرفه حق المعرفة، على نصيحة مفادها أننا يجب ألا نقدم طلب الالتماس بإطلاق سراح الشيوخ المسجونين إلى القنصل أو الوالى مباشرة، وإنما ينبغى تقديم ذلك الالتماس بطريقة غير مباشرة عن طريق وساطة صديقهم الشهير الذى تعرفت عليه عام ١٨٧٣، واسمه السيد عبد القادر (الجزائرى)، الذى كان له نفوذ كبير فى دمشق فى الأمور الخاصة بالعرب، أكبر من أى شخص آخر. كان سيد عبد القادر رجلاً كبير السن فى ذلك الوقت، وكان يحيا حياة زهد وتدين، وكان أهل المدينة كلهم يحترمونه ويجلونه، وكانت له كلمة نافذة بين العرب فى سوريا بصفة خاصة، نظرًا لأنه كان حاميًا لهؤلاء العرب. وهنا قال لى مجول: إن الأمر لن يتعدى أن يكون مجرد مسألة مالية مع الوالى، وإن سيد عبد القادر إذا ما قام بهذا الأمر وتفاوض بشانه وعرض مبلغًا كبيرًا فسوف ينتهى بسهولة ويسر. وعليه قمت بصحبة كل من مجول وعلى بن عطية، بزيارة السيد عبد القادر، الذى وجدناه بصحبة ولده الأكبر محمد، وهو رجل محترم جدا، أنجبه عندما كان فى الجزائر، من امرأة جزائرية، وشرحنا للرجل التماسنا، ووافق على أن يكون واسطة لنا عند الباشا، وأن يعمل ما فى وسعه، لإطلاق سراح شيوخ التياهة والطرابين بشرط إبرام اتفاق أو معاهدة سلام بين القبائل، وتركت لدى السيد عبد القادر كيسًا من النقود يحتوى على ٤٠٠ جنيه ذهبى فرنسى، فقال الرجل: إنها تكفى لتحقيق المطلوب. كانت الرشوة أمرا طبيعيا فى التعامل مع المسئولين العثمانيين فى تلك الأيام إلى حد أنى لا أعتقد أن السيد عبد القادر أو أنا أو أى إنسان آخر كان يتشكك أو يشعر بالحرج إزاء تقديم هذه النقود. كان المبلغ كبيرًا، لكن تعاطفى مع الشيوخ

كان قويا أيضا، ووضعت نصب عيناى مسألة عودة على ابن عطية إلى القدس ومعه أمر بإطلاق سراح شيوخ البدو. من هنا قمت بهذه التضحية، ومع ذلك فشلت المفاوضات في تحقيق المطلوب. وأعيد إليَّ الكيس كاملاً بعد ذلك بأيام قلائل بواسطة محمد بن السيد عبد القادر، ومعه رسالة من والده تقول: إن الوالى يحيينى وكان بوده تطييب خاطرى في الأمر المطلوب، لكن الأمر ليس بيده؛ وإن الأمر أحيل إلى إسطنبول، لأنها وحدها هى التى تستطيع البت في هذا الأمر.

لقد كانت عواقب هذا الحادث الصغير عجيبة تماما، ولها تأثير مباشر على أحداث العام الذى تلاه في مصر. عندما وجدت أن جهودى المحلية باءت بالفشل، كتبت، بناء على نصيحة الوالى، رسالة إلى جوشن Goschen سفير بريطانيا في إسطنبول، وعرضت عليه أمر إطلاق سراح الشيوخ المسجونين، وطلبت إليه أن يهتم هو شخصيا بهذا الأمر، تطلعا إلى احتمال احتياج حكومتنا، في يوم من الأيام، إلى تأمين قناة السويس من ناحية الشرق بخاصة عند دخول إنجلترا في حرب مع أى دولة أخرى. وقد بلغنى بحق، أن جوشن خطا بعض الخطوات في هذا الصدد، وعندما خلف اللورد دوفرين، بعد ذلك بأسابيع قلائل في منصب السفير، أوكل الأمر إليه، وفي النهاية وبعد انتظار دام طويلاً، جرى تحقيق ذلك الذى طلبته، إذ جرى إطلاق سراح الشيوخ المسجونين. ومع ذلك، أينعت ثمار الاقتراح الذى اقترحته، بشكل لم أكن أتوقعه؛ والذى حدث أنه في صيف عام ١٨٨٢، وبعد أن تقرر قيام حملة عسكرية بقيادة ولسلى Wolseley، تذكر جوشن، أو شخص آخر ممن تربطهم علاقات بالحكومة، علاقتى بهؤلاء البدو، وجرى على الفور إرسال مندوب سرى إلى أولئك البدو الذين تصادقت معهم في جنوب غزة، لكى يطلب إليهم التحالف مع القوات الإنجليزية في مواجهة الجيش الوطنى المصرى. وعلى حد قولهم في ذلك الوقت ممن ينطبق عليهم المثل السائر الذى يقول: "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها". كانت تلك هى مهمة بالمر Palmer التى يتعين عليَّ أن أتطرق إليها في حينها.

كانت سوريا هى والحدود العربية، تشهد غليانا سياسيا فى ذلك الوقت. حيث كان هناك تياران شعوريان بين المسلمين: التيار الأول يقوم على التشدد ويرعاه السلطان، أما التيار الثانى فكان تيارًا من تيارات الإصلاح الليبرالى، ويمثل جانبى حركة الجامعة الإسلامية، وفى دمشق قيل لى إن مشاعر العداء للسلطان وفساد الإدارة العثمانية قوية جدا إلى الحد الذى قد تندلع معه ثورة عامة فى أى وقت من الأوقات. تحدثت مع محمد بن السيد عبد القادر، حول هذه المشاعر، ووجدت أن الرجل هو ووالده كانا على الجانب الليبرالى، وأنهما مثل سائر العلماء الذين يتحدثون العربية، كانا يحبذان قيام خلافة عربية، إذا ما أمكن تحقيق ذلك. وخطر ببالى أنه لم يكن هناك أحد فى ذلك الوقت، من الأحياء، يحمل لقبًا يُمكنه من ترشيح نفسه لهذه الخلافة، أكثر من السيد عبد القادر نفسه. وهنا رجوت محمد أن يفاتح والده فى هذا الأمر، ويسأله إن كان يرغب فى ذلك، إذا ما قامت حركة من هذا القبيل، وأن يتزعم هو مثل هذه الحركة. قام محمد بذلك الدور وعاد إلىَّ برسالة من والده تفيد هذا المعنى، وعلى الرغم من أن سن الرجل لم تكن تؤهله للعب دور فى حركة من هذا القبيل، فإن أولاده كانوا مستعدين لذلك، وإنه لن يرفض تقديم اسمه باعتباره مرشحًا لمثل هذه الخلافة إذا ما عرضت عليه. وحركة من هذا القبيل فرص نجاحها ضعيفة اللهم إلا إذا كانت مسنودة من الخارج، نظرًا لأن الحكومة العثمانية كانت ذات بأس شديد من الناحية العسكرية، واتفقنا على أن أقوم بإبلاغ وجهة النظر هذه سرا إلى حكومتنا، للتأكد مما يمكن أن تقوم به بريطانيا فى حال قيام انتفاضة فى سوريا. وبالفعل قمت بهذا العمل، مستخدمًا فى ذلك قناة تواصلى مع السيد جلادستون، من خلال سكرتيره الخاص هاملتون Hamilton، طالبًا منه تحديد نوعية العون والمساعدة التى يمكن أن تعتمد عليها الحركة العربية. واقترحت فى الرسالة التى سبق الاقتباس منها، والتى أرسلتها إلى هاملتون، أن الحكومة ينبغى أن تأخذ حركة التى من هذا القبيل بعين الاعتبار، وبخاصة فيما يتعلق بالمتاعب التى يمكن أن تنشأ مع الباب العالى حول اليونان. كان حماس جلادستون واهتمامه بالشرق والسياسة الخارجية قد بدأ يفتر، وجاء رد هاملتون مقتضبًا ومخيبًا للآمال. كتب هاملتون يقول: "أرجو أن يكون هناك أمل طيب فى تحاشى نشوب الحرب بين اليونان وتركيا، وعليه فأنا أثق أنه لن يكون

هناك ضرورة للجوء إلى خطتك في سوريا. وأخشى أن أقول: إن الحال الذى تشير إليه وتقترحه، قد نحتاج إليه إذا ما اضطررنا إلى ذلك، لكننى أرى أن الأمر لا يتطلب ذلك فى الوضع الراهن. فهذا أمر غير واضح وغامض، وأخشى أننى لا أستطيع أن أقول ما هو أكثر من ذلك". واقتنعت بذلك، وعلى الفور قمت بإبلاغ النتيجة إلى السيد عبد القادر.

كانت بقية الرحلة فى ذلك الصيف خالية من الاهتمامات السياسية. وقمنا مرة ثانية بزيارة أصدقائنا من بدو عنيزة، الذين وجدناهم مخيمين بالقرب من تدمر، لكن تعاملنا مع هؤلاء البدو اقتصر على الخيول. فآل عنيزة لا يهتمون كثيرًا بالسياسة وذلك على العكس من بدو الصحراء، كما أنهم لا يعولون كثيرًا على الدين. ومن ثم فإن هؤلاء لا يمكن التعويل عليهم كثيرًا فى أمور الدين. ولا يمكن اعتبارهم مسلمين حتى من الناحية الاسمية، نظرًا لأنهم لا يصومون ولا يراعون الشعائر الإسلامية. وتتمثل علاقتهم الوحيدة بالإسلام فى أنهم يشتركون فى الأعراف الشرعية العربية القديمة التى تأسست عليها الشريعة الإسلامية، لكنهم، على حد علمي، لا يعتنقون أو يتمسكون بالمعتقدات الإسلامية، اللهم إلا باستثناء وحدة الخالق ﷻ التى لا يقرونها إلا على نحو غامض وسلبى. فآل عنيزة لا يحترمون النبى أو القديسين أو القرآن، ولا يعرفون شيئًا عن الحياة المستقبلية. تنقلنا مع هؤلاء البدو المترحلين فى اتجاه الشمال إلى آخر حدود تجوالهم، ووجدنا أنفسنا مع بداية حرارة الصيف فى منطقة حلب، ثم سافرنا بعد ذلك مباشرة عائدين إلى إنجلترا[٤].

---

(٤) ومن الجدير بالذكر إننا عندما كنا فى حلب فى هذه المرة تصادقنا على اثنين من الضباط الإنجليز، الذين أصبحت لهما فيما بعد صلة وثيقة بمصر والحرب السودانية، وهما العقيد ستيوارت الذى شارك مع اللورد غوردون فى الدفاع عن الخرطوم في مواجهة المهدى، والعقيد السير/ شارلز Charles ولسون Wilson الذى تولى قيادة الجيش البريطانى فى المتنه Metemneh بعد معركة أبو Abu كيليه Kelea. قام العقيد ستيوارت، بناء على اقتراح منى، بجولة فى صيف ذلك العام، بين بدو العنزه وبدو الشمر، لكنه فشل فى إقامة علاقات ودية معهم، والواقع أن ستيوارت لم يكن متعاطفًا مع الشرقيين. أما ولسون صاحب الأفق الأوسع، فقد صحبنا فى رحلة عودتنا إلى الوطن، إلى أن وصلنا إلى سميرنا Smyrna، التى وصلناها فى الوقت الذى ألقى فيه القبض على مدحت باشا. كان الاثنان فى ذلك الوقت قنصلين فى أسيا الصغرى، من نوعية القناصل التى جرى النص عليها فى اتفاقية قبرص.

الفصـــل السـادس

بدايات الثورة فى مصر

أمضيت صيف عام ١٨٨١، كله تقريبًا فى كرابت[*] Grabbet، فى كتابة كتاب يعد ثمرة الخبرة التى جنيتها فى فصل الشتاء: الكتاب هو "مستقبل الإسلام"؛ وقد ألفت هذا الكتاب فى عجالة وفى ظل ظروف غير مواتية لتحرى الأحكام تحريًا دقيقًا، وسبب ذلك، أننى وأنا أكتب هذا الكتاب راحت الأحداث تتراكم فوق بعضها بعضًا، وراحت أيضًا نذر الشؤم تتجمع فوق بعضها بعضًا، الأمر الذى جعل من التنبؤ الهادئ بمصير الإسلام فى ذلك الوقت أمرًا مستحيلاً تمامًا. ومع ذلك، وعلى الرغم من كثير من المثالب والنقائض، رحت أكتب الكتاب، لأهميته وقيمته فى ذلك الوقت، حتى وإن كانت هذه الأهمية تتمثل فى الجانب التاريخى، باعتبار أن ذلك سيوضح الحال التى كانت عليها الآمال الإسلامية والمخاوف التى كانت سائدة عند تأليف الكتاب. ألزمت نفسى فى هذا الكتاب وبلا تحفظ بقضية الإسلام من منطلق أنها "قضية الخير"، فى جزء شاسع من هذا العالم، وبأن هذه القضية يتعين تشجيعها وليس قمعها، بواسطة كل أولئك الذين يهمهم رفاه الجنس البشرى. قدمت فى ذلك الكتاب عرضًا لأصول الإسلام، وعظمته وانتصاراته وأمجاده، ثم تحلله الواضح، ذلك التحلل الذى كان شبيها جدا بذلك التحلل الذى أصاب النصرانية قبل الإسلام بحوالى أربعمائة عام، وإن ذلك التحلل يمكن أن يلقى مواجهة مثل المواجهة التى لقيتها النصرانية فى المتاعب التى واجهتها متمثلة فى الإصلاح الدينى وتحرير فكر النصرانية من قيود الموروث شديد الصرامة الذى يعرقل تقدم النصرانية وتطورها. عرضت أفكارى، كما تعلمتها من الشيخ محمد عبده، أستاذ المدرسة الليبرالية التعاليم، وأهبت والتمست إلى كل أولئك الذين يدخلون ضمن الصفوة من بين إخوانى المواطنين، التعاطف مع هذه التعاليم الليبرالية وتأييد أصحابها فى مواجهة المدرسة الرجعية، التى لا تتزحزح عن الأساليب الجامدة القديمة، والتى ليس لديها شيئًا تقدمه غير نشر التشدد والتطرف،

(*) مزرعة الخيول المملوكة لولفريد سكاون بلنت هو وزوجته. (المترجم)

والاحتكام إلى السيف مع أعدائها. وقد خاطبت بذلك إنجلترا، من بـاب اهتمامهـا الشديد بالإسلام ومستقبله، بخاصة أنها تسيطر على الهند، مناديًا ومحفزًا إياها على أن تكون سياستها قائمة على الصداقة مع أفضل عناصر الفكر الشرقى، فى أثنـاء مقاومتها للمساوئ، وألا تكون هذه السياسة قائمة على الاستفادة من هذا الانحطـاط ولزيادة مصالحها المادية. قلت: "الهدف الرئيسى، هو أنه يتعين على إنجلترا الوفاء بالوصاية التى قبلتها (إرث الإمبراطورية الموغولية Mogul التى آلت إليها وبحـق علاقتها القديمة بالشئون العثمانية)، وأن تعمل على تطوير، وليس تخريب، عناصر الخير الموجودة فى آسيا فى الوقت الحالى. إن إنجلترا غير قادرة ولـن تـستطيع القضاء على الإسلام أو تدميره ولا حتى أن تنهى علاقتها بالإسلام. وعليه يجـب عليها أن تأخذ بيد الإسلام وأن تشجعه على المضى فى طريق الفضيلة. وأنا أؤكـد هنا أن هذا هو الطريق السليم، بل والقويم أيضًا، وأؤكد ثانية أن هذا هو الطريـق الأعقل والأحكم والأجدى، من قرن كامل من الحروب الصليبية".

وهذا الكتاب الصغير كنت قد نشرت وفصوله فى أعداد شهرية فـى مجلـة Fortnightly Review، حيث كان لها تأثير كبير فى إنجلترا، وعلى الهنود الناطقين بالإنجليزية، وقد شقت تلك الفصول طريقها، إلى حد ما، عن طريق الترجمة إلـى أن وصلت إلى مصر. وبينما كنت أكتب هذه الفصول، كانت هناك أحداث حاسـمة وكبيرة على وشك الوقوع فى العالم الإسلامى، كما أنها بدأت تظهر للعيـان. فـى مطلع شهر مايو، لقد قامت الحكومة الفرنسية، ودون سابق إنذار، وطبقًا وتنفيذًا لما تم الاتفاق عليه سرا فى برلين قبل ذلك بثلاثة أعوام بـين الـسيد أم. وادنجتـون Wadington ووزارة خارجيتنا، قامت بغزو تونس، بزعم خيـالى مفـاده حمايـة حاكمها الباى Bey من الأخطار الوهمية التى تتهدده من رعاياه، فقامت الحكومـة الفرنسية باحتلال القسم الغربى من ريجنسى Regency وأعلنته محمية فرنسية. هذا العدوان المفاجئ على جار مسالم لا حول له ولا طول والذى لم يجر تبريره بسوء الحكم، أو الأخطار التى تلحق بالأوروبيين، أو حتى الضيق المـالى. كـان البـاى نفسه، شخصية معتدلة ومحترمة، ولم يضح بأى حال من الأحوال برفـاه شـعبه. وكان إلقاء القبض عليه بواسطة الجنرال بيريارت Breart الفرنـسى، واغتـصاب

السلطة منه باسم الجمهورية الفرنسية عملاً من الأعمال غير الشرعية التى لم يكن لها مثيل أو شبيه فى تاريخ الغزو الحديث للدول الضعيفة، إذا ما نحينا جانبًا الغزو الذى قام به بونابرت لمصر عام ١٧٩٩، والذى جرت إدانته بشكل عام فى إنجلترا التى كانت الشكوك لا تزال تدور فيها حول مسألة خديعة برلين. هذا الغزو أشعل فى العالم الإسلامى نيران الغضب وخيبة الأمل التى راحت تزداد حدة عندما بدأت تلك الحقيقة تروج بين الناس. لم يقم سكان غرب تونس الذين أخذوا على غرة وبطريقة مفاجئة، بإطلاق ولو طلقة واحدة على الفرنسيين، وأُجبر الباى على توقيع المعاهدة التى قدمت له على طرف السيف، بواسطة الجنرال بريرت Bereart، الذى قضى على استقلال المنطقة. لكن القبائل فى المناطق الشرقية من الصحراء رفعت السلاح فى وجه العدوان، وقبل انتصاف فصل الصيف كانت الثورة قد انتشرت لتصل إلى الصحراء الجزائرية، وبدأت موجة من الغضب ضد النصارى، تكتسح المناطق الشرقية، وراحت – كما سنرى – تؤثر على مصر تأثيرًا كبيرًا وخطيرًا، وهذه الموجة لا تزال مسئولة إلى يومنا هذا عن التعجيل بالأعمال التى يقوم بها المصلحون الليبراليون فى مصر، كما أنها هى التى عجلت أيضًا بقيام الجيش بالمطالبة بالحكم الذاتى.

يجدر بنا هنا أن نلاحظ، ومن باب الكشف عن تواطؤ حكومتنا فى هذا العمل المشين، أن اللورد جرانفل سمح لنفسه بالاكتفاء بالتأكيد الذى قدمته الحكومة الفرنسية، والذى مفاده أن احتلال منطقة ريجنسى إنما حدث فقط بهدف استعادة الأمن والنظام، على الرغم من أنه لم يكن هناك أى نذير أو إشارة توحى بالإخلال بالأمن أو الاضطراب، كما قالت الحكومة الفرنسية أيضًا أنها لن تبقى حتى ولا ليوم واحد بعد تأمين سلامة حكومة الباى، وهذا بحد ذاته نوع من الزيف حاكاه اللورد جرانفيل نفسه فى العام التالى بعد أن انعكس وضعا فرنسا وإنجلترا فى مصر. والذى يجب التركيز عليه وملاحظته هنا، هو أنه على الرغم من انعقاد البرلمان فى ذلك الوقت، فإن اللورد سولسبرى Salisbury زعيم المعارضة، التزم الصمت المطبق حول موضوع تونس، على الرغم من أن أتباعه الذين لم يعرفوا أسبابه السرية، كانوا يطالبون بتفسيرات لذلك الصمت. كذلك فإن بسمارك التزم

الصمت أيضا في برلين، ولم تعترض على ذلك الغزو أية دولة من الدول التي شاركت في مؤتمر برلين، على الرغم من استياء الشعب الإيطالي مما قامت به فرنسا. لقد كان السلطان العثماني هو الوحيد من بين هذه الدول الذي سجل اعتراضه واحتجاجه على ذلك، من منظور أن تونس كانت دومًا جزءًا من الممتلكات العثمانية. وسرعان ما قبلت الحكومات الأوروبية ذلك الذي قامت به فرنسا في تونس على أنه أمر واقع.

يجدر بنا هنا أن نحكي تاريخ تلك الانتفاضة التي حدثت في صيف عام ١٨٨١ وأصبحت تعرف بعد ذلك بالحركة الوطنية المصرية. هذه الحركة لها أصولها باعتبارها إحدى المحاولات العلمية اليائسة التي قام بها (الخديو) إسماعيل عندما اصطدم مع ولسون من أجل المحافظة على سلطته وقوته في مواجهه الوصاية القنصلية ، التي أوقعه فيها سوء تصرفه وديونه. حاول الخديو إسماعيل استعادة مركزى الأدبي الذي خسره، كما حاول أيضًا استعادة حسن ظن رعاياه تجاهه، بأن راح يناشدهم طالبًا منهم العون والمساعدة والتأييد؛ كما أعلن الخديو إسماعيل في ربيع عام ١٨٧٩ عن نيته عقد اجتماع للأعيان. وليس هناك شك في أنه تحت ستار المطلب الشعبي، كان يود التنصل من جزء من الدَّيْن ، وعلى الرغم من أن أحدًا في مصر، باستثناء بعض المقيمين الأوروبيين، لم يصدق الخديو فيما ذهب إليه، إلا أن فكرة الشكل الدستوري للحكومة باعتبارها علاجًا للأمراض وللمساوئ التي يعاني منها الناس، بدأت تشيع بين الناس في القاهرة. كانت مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغاني تؤكد بصورة مستمرة على أن السلطة المطلقة المتزايدة للأمراء المسلمين في الأزمان الحديثة هي على النقيض تماما من روح الإسلام، التي هي روح جماهيرية في الأساس، ويكون لكل مسلم بمقتضاها حرية الكلام في الاجتماعات، وأن سلطة الحاكم في الإسلام ترتكز على التزامه بالشرع وعلى موافقة الشعب عليه. لقد أدان المصلحون الأزهريون إسماعيل باشا لسببين أولهما خروجه على الشرع وثانيهما الاستبداد السياسي. وفي ربيع عام ١٨٧٩ ناقش رجال الأزهر فيما بينهم في السر الطريقة التي يمكن بها عزل الخديو إسماعيل، بل مسألة اغتياله إذا لم تتيسر طريقة يمكن بها عزل الرجل. إن شعور إسماعيل

بهذا الخطر المزدوج، عن طريق أتباعه في الداخل وعن طريق أوروبـا وكـذلك مسألة وعيه بالأراء الدائرة بين الأزهريين، هما اللتـان حملتـاه علـى الظهـور بالمظهر الدستوري. ويجب ألا يغيب عنا، أن الأفكار الدستورية بدأت تنتشر فـي الأجواء لا في مصر وحدها، وإنما في إسطنبول أيضًا، التي انعقد فيها اجتماع قبل خمس سنوات بأمر من السلطان. وعلى الرغم من قلة الثقة التي كان يحظـى بهـا الخديو إسماعيل من قبل المصلحين؛ فإن تحركه الجديد حظي بمـوافقتهم، وعليـه تبنت أجهزة هؤلاء المصلحين ذلك الحراك الجديد وشرحته ووسعته وأصبح أمـرًا واقعا تحت إشرافهم وتوجيههم في القاهرة. وإذا ما نحينا الأزهر جانبا نجد أنه كان هناك عدد كبير من المسئولين، في ذلك الوقت، يصطبغون بالـصبغة الدسـتورية ويناصرون الدستور، وبخاصة شريف باشا، وعلى باشا مبارك، ومحمود بك سامى البارودى. وكان هناك كثيرون آخرون يؤيدون ذلك الحراك. كان ولى عهد الخديو إسماعيل، محمد توفيق، الذى خلف والده، قد وقع تحت تأثير الشيخ جمـال الـدين الأفغاني، وبذلك أصبح محمد توفيق، على اتصال وثيق بالمـصلحين مـن خـلال الشيخ جمال الدين الأفغاني، وكان محمد توفيق قد أعطى المصلحين وعودا بأنه إذا ما اعتلى عرش الخديو فسوف يكون حكمه قائمًا في الأصل على أسس دسـتورية. لقد كانت آخر وزارات الخديو إسماعيل، والتي دامت ثلاثة أشهر، تضم كـلا مـن محمد توفيق، وشريف باشا، وهما دستوريان، وكانا فعـلاً مـشتركان فـي الإدارة عندما جرى عزل الخديو العجوز عن العرش.

رحب جمال الدين الأفغاني بوصول محمد توفيق إلى العرش، كما رحب به أيضًا المصلحون الآخرون واعتبروا ذلك ضربة من ضربات الحظ الحسن، وعلى الرغم من أسف هؤلاء المصلحين لعدم قدرة المصريين على عزل الطاغية، فـإنهم كانوا ينظرون إلى العهد الجديد باعتباره خطوة تحقيق أهدافهم. ومـع ذلـك، فـإن الخديو الجديد، شأنه شأن كثير من ولاة العهد الآخرين، قام بعد فترة قـصيرة مـن توليه السلطة بتغيير رأيه، وقبل أن يمضى عليه شهر فى السلطة كان الرجـل قـد نسي وعوده وتنكر لأصدقائه. كانت شخصية محمد توفيق شديدة الضعف، فهو ابن امرأة كانت تعمل مجرد خادمة في منزل والده، وكان منذ صغره يعاملـه الخـديو

إسماعيل بما لا يليق به، وربته أمه في جو من الخوف مستمر من الخديو، كما نشأته أمه أيضًا على عادات عدم الإخلاص، والنفاق، التي هي وسائل الأمان التقليدية في الشرق عند الضعفاء. نشأ محمد توفيق على هذه الخصال، بصحبة الحريم وليس بصحبة الرجال، ولم يستطع تخليص نفسه من الحياء الأنثوي الذي كان يدفعه إلى التعجيل بالاستسلام في الرأي في وجود إرادة أقوى من إرادته، ثم يعود بعد الاستسلام إلى موقفه السابق، إن تيسر له ذلك، بأساليب غير مباشرة، وطرق مُقَنَّعة كما هو حال النساء. يزاد على ذلك أن محمد توفيق كان فيه أيضًا كثير من خصال النساء مثل الغيرة والولع بالانتقام لأتفه الأمور. وفيما عدا ذلك، كان الرجل مستقيما تمامًا في حياته المنزلية بالقياس إلى من سبقوه، ولم يكن خلوًا من الفضائل المحترمة، ولكن شخصيته بلغت حدا من الضعف لم يكن يشكل معه أي خطر على أولئك الذين تعين عليهم التعامل معه. كان هم محمد توفيق الأول يتمثل في إخفاء الحقيقة وإلقاء تبعة الفشل على الآخرين من جراء خطأ من جانبه هو. لم يكن محمد توفيق يكشف عن غضبه بطريقة علنية وإنما عن طريق نشر الفضائح والإشاعات، وعن طريق الإيحاء الكاذب، وتحريض الناس بعضهم على بعض، عندما يود أن تكون له الكلمة العليا أو أن ينتقم من أحد من الناس. وقد ذكر عنه أنه لم يكن مخلصًا أو أمينًا في أي وقت من الأوقات، وأنه خذل كل أولئك الذين وثقوا به.

بعد أن تولى محمد توفيق العرش، وجد نفسه بين قوتين مختلفتين في الرأي، قوة أصدقائه الإصلاحيين الذين راحوا يحثونه على الوفاء بوعوده الدستورية من ناحية، وقوة مستشاريه الذين يمنعونه من التخلي عن أي جزء من سلطته، تلك السلطة التي ينوون ممارستها هم أنفسهم لكن باسمه هو؛ ووافق توفيق في البداية على اقتراح وزيره شريف باشا، والذي يقضي بأن يصدر توفيق مرسومًا بالدستور، لكنه بعد تحريض من القناصل رفض التوقيع على هذا المرسوم. وقد أدى هذا الإجراء إلى استقالة شريف باشا، وتعيين بديلاً له، معين من قبل القناصل هو رياض باشا Riaz Pashs، الذي عوَّل القناصل عليه في تنفيذ أفكارهم الخاصة بالإصلاح المالي، على أن يتركوا له كامل السلطة فيما عدا ذلك طبقًا للمرسوم

الصادر في عام ١٨٧٨، والذي يقضي بأن تكون الإدارة الداخلية حسبما يرتئيه الخديو، ودون أية قيود أو رقابة من أي مجلس من المجالس أو أية جمعية؛ وأن تكون تلك الإدارة باسم الخديو. جاء الضعف الذي كشف الخديو عنه في هذا الصدد، وباعتباره أول قرار مهم في حكمه، بمثابة السبب الرئيسي في متاعب الرجل فيما بعد. لو قدر لتوفيق أن يظل مخلصًا في وعوده التي أعطاها للإصلاحيين ولوزرائه، ولو قدر له أن يدعو إلى اجتماع مجلس الأعيان، لوقف رعاياه إلى جانبه وساندوه وكفوه مئونة الدسائس المضادة التي تميز بها العامان الأخيران، والتي مهدت الطريق أمام ثورة عام ١٨٨٢. الذي حدث، هو أن توفيقًا وجد نفسه، في ظل تنازله وإذعانه هذا، محرومًا من السلطة كلها، وكانت تجري معاملته من قبل القناصل، كما لو كان أميرًا دمية، إذ كان يتعين عليه وعلى وزرائه الخضوع لإرادتهم ورغباتهم.

وقد اختلفت الآراء حول شخصية رياض باشا، في أثناء زيارتي لمصر في خريف عام ١٨٨١، كان الناس يلعنون اسم رياض باشا، وبخاصة الوطنيون، باعتباره هو صاحب الإجراءات العنيفة التي أخذت لقمع الوطنيين والتي جرى إحباطها، لكنني الآن أرى أن هذه الإجراءات لم تكن كلها عادلة. كان رياض باشا واحدًا من رجال العهد القديم ولا يؤمن بشيء سوى الحكم المطلق بكل أشكاله؛ أضف إلى ذلك أنه مارس الحكم وهو في السلطة، طبقًا للأساليب والطرق التي كانت سائدة في زمن إسماعيل باشا، أي عن طريق التجسس، والحكم البوليسي وإلقاء القبض على الناس، والنفي. لكن الرجل على المستوى الشخصي لم يكن ظالمًا أو قاسيًا، يضاف إلى ذلك أن الرجل طوال حياته العملية العامة كان ينتابه إحساس حقيقي بالوطنية. كانت فكرة رياض باشا من وراء قبول المنصب في ظل السيطرة المشتركة من القنصلية البريطانية والقنصلية الفرنسية، وفي ظل المساعدة والعون الذي كان يقدمه رياض باشا لهذين القنصلين في مواجهة المعارضة الشعبية، كانت هذه الفكرة كما أكدها لي رياض باشا نفسه، تتمثل في تخليص مصر من مصائبها المالية وسداد الدين، وبذلك يمكن التخلص على وجه السرعة من التدخل الأجنبي، ولم يكن هناك شك في حدوث تقدم كبير، في العام الأول من

حكمه، فى تخليص الفلاحين من أعبائهم المالية. لكن يبدو أن مسألة سداد الدين كانت عملية بطيئة فى كل الأحوال، وليس هناك شك فى أن الرجل كان يمكن أن يكون أملاً فى تخليص مصر وتحريرها من الوصاية المفروضة عليها، أو رفع الأخطار الإدارية الكبيرة التى لا تزال تثقل كواهل الشعب والناس بصفة عامة. كان عهد السيطرة المشتركة لا ينظر إلا إلى المسألة المالية فقط، ولم يكن يعبأ بأى أمر من الأمور الأخرى. كان الفلاحون لا يزالون يُحكَمون بالكرباج Kurbash، وكانت المحاكم شديدة الفساد، وكان ملاك الأرض مدينين بصفة دائمة، وكانوا يخسرون أراضيهم لحساب دائنيهم، وكان الأتراك الأجانب وكذلك الشراكسة هم الذين يتملكون الأرض فى سائر أنحاء البلاد. لم يكن هناك، فى تلك الفترة، ما يدل بأى شكل من الأشكال، على نوع من التحسن المادى الذى تشجع عليه الحكومة، أو حتى مجرد التحسن فى النظام الإدارى. كان ذلك هو الجانب الضعيف من الحكم الإنجليزى – الفرنسى، بل والسبب الرئيسى فى فشل هذا الحكم فى كسب التأييد الشعبى. ومع ذلك، فنحن نتساءل عن مسألة حدوث الأزمة بهذه السرعة، دون النفاق والدسائس التى حاكها الخديو ضد وزيره. وأنا سبق أن قلت: إن محمد توفيق، من شيمه أن يستسلم ويوافق ظاهريا على الضغوط، لكنه يحاول فى الوقت نفسه تحقيق هدفه بطريقة أخرى. والذى حدث أن محمد توفيق كان قد أخذ رياض باشا إلى القنصلين قبل أن يبدأ الدس ضده والتآمر عليه. حيث كان ناقمًا على السلطة التى خولها لوزيره المستقل تمامًا. هذا هو التاريخ الحقيقى لسلسلة الأزمات التى مرت بها مصر عام ١٨٨١، بما فى ذلك إلى حد كبير، الاضطرابات العسكرية التى انتهت بسقوط رياض باشا وإبعاده عن السلطة.

إن تدخل الجيش فى شتاء عام ١٨٨٠-١٨٨١ بوصفه قوة سياسية فى مصر، أمر مهم جدا ويحتاج إلى شرح وتفسير دقيق. فى ذلك التاريخ، يمكن اعتبار الحملة الفاشلة التى قام بها الجيش المصرى على الحبشة، عنصرًا من عناصر الاستياء والغضب وعدم الرضا، نظرًا لأن فشل هذه الحملة قد دمر نفوذ الخديو وقلل من شأنه من ناحية، كما أن المصاعب المالية التى انطوت عليها تلك الحملة أدت إلى تأخير رواتب الجنود وعدم الانتظام فى صرفها. يزاد على ذلك أن

الجنود الذين عادوا من تلك الحملة لم يعودوا يكنون أى احترام أو تقدير لقادتهم، إذ كشف هؤلاء القادة عن عدم كفايتهم، يزاد على ذلك أن الضباط الصغار كانوا، فى معظم الأحيان، يهاجمون هؤلاء القادة أمام الجنود. وجاء ذلك أمرا طبيعيا تماما، نظرًا لأن المناصب الكبرى فى الجيش كان يشغلها الشراكسة الذين يتكلمون اللغة التركية؛ والمعروف أن هذه الطبقة هى التى كانت تحتكر السلطة الرسمية فى ذلك الوقت؛ والمعروف أيضًا أن الجنود العاديين هم والضباط إلى رتبة النقيب كان معظمهم، بل كلهم، من السكان الفلاحين الناطقين باللغة العربية. هذا الإحساس بالطبقية قوى تمامًا بين أولئك الذين كانوا يعانون المتاعب فى رواتبهم وأجورهم، فى حين بقيت رواتب الشراكسة الكبيرة على ما هى عليه، يتسلمونها دون تأخير أو إرجاء. وعلى امتداد السنوات الثلاث التى أعقبت ذلك كان صف وجنود الجيش يشاركون فى ذلك الاستياء الذى كان يعم البلاد كلها، بل وكانت هناك مؤامرات، فى السر، بين صغار الضباط، أوشكت فى لحظة من اللحظات على التحول إلى العنف. كان أحمد بك عرابى زعيمًا فى ظل هذا الإحساس الطبقى منذ عام ١٨٧٧، وكان الرجل يحمل رتبة المقدم فى ذلك الوقت، وتلك رتبة من غير المعتاد أن يحملها واحد من الفلاحين، هذه الرتبة أكسبت عرابيًا نفوذًا وتأثيرًا غير عادى على بنى وطنه الناطقين باللغة العربية. ولذلك أرى أن تقديم نبذة عن سيرة هذا الرجل لن تكون خارج نطاق موضوع هذا الكتاب.

وُلد أحمد عرابى سنة ١٨٤٠ لأب شيخ لقرية صغيرة، يملك ثمانية أفدنة ونصف فدان من الأرض الزراعية، فى قرية "هرية" Horiyeh، بالقرب من الزقازيق، حيث كانت أسرته مستقرة فيها منذ زمن طويل، وكانت تلك الأسرة تتمتع باحترام كبير من الناحية الدينية. هذه الأسرة، مثل أسر الشيوخ الآخرين، زعمت أن لها صلة بالسادات Seyyid(*)، على الرغم من سلالتها الفلاحية الأصيلة، وبناء على هذه الرواية، كان لدى هذه الأسرة موروث، يفيد أنها كانت أرقى إلى حد ما من جيرانها من أهل الريف. لكن فيما يتعلق بأصالة هذا الزعم – وما دار من حوله

(*) الذين قيل إن نسبهم يمتد إلى النبى (صلى الله عليه وسلم). (المراجع)

من نقاش – فأنا لا أعرف شيئًا، لكن هذا الزعم ولّد لديهم، في أضعف الأحوال، الرغبة في تعليم ديني أفضل من التعليم السائد في قرى الدلتا؛ يضاف إلى ذلك أن عرابيًا، مثل والده، أرسل إلى القاهرة التي أمضى فيها عامين في الأزهر. وفي سن الرابعة عشرة طلب إلى الجندية، ونظرًا لطوله لأنه كان صبيا يافعا، ونظرًا أيضًا لأن سعيد باشا الذي كان واليا على مصر في ذلك الوقت، يود تدريب أبناء شيوخ القرى ليكونوا ضباطًا في الجيش، لذلك كله، جرى دفع عرابي خلال رتب الجيش الصغيرة. في مطلع عامه السابع عشر حصل على رتبة الملازم، وفي سن الثامنة عشرة حصل على رتبة النقيب، وفي التاسعة عشرة حصل على رتبة الرائد، ثم حصل على رتبة قائمقام (مقدم) في سن العشرين. هذا التقدم السريع الذي لم يسبق له مثيل، فيما يتعلق بعرابي، يرجع في بعض أجزائه إلى رعاية الجنرال الفرنسي سليمان الفرنساوي الذي كان قائدًا لأحمد عرابي، كما يرجع هذا التقدم السريع أيضًا إلى أفضال الوالي، الذي كان يدعي أنه مصري، مثل سائر رعاياه، وليس مجرد عضو في طبقة أجنبية تركية مغلقة، وأن كل ما يريده هو أن يكون حوله ضباط فلاحون. لما كان عرابي شابا بهي الطلعة، فقد حظي برضا ودعم سعيد باشا له؛ الأمر الذي حدا بالوالي أن يعينه معاونًا له ، ويجعله يصحبه إلى المدينة (المنورة) في العام السابق لوفاته. لقد تلقى أحمد عرابي أفكاره السياسية الأولى خلال هذا الاتصال الوثيق الذي كان بينه وبين سعيد باشا؛ وكانت هذه الأفكار تتمثل في المساواة بين الطبقات واحترام الفلاح باعتباره عنصرا مهما من عناصر القومية المصرية. هذا اندفاع الخاص عن حقوق الفلاح هو الذي ميز عرابيًا عن سائر المصلحين في تلك الأيام. كانت حركة الأزهر تنادي بإصلاح إسلامي عام ، دونما نظر إلى العرق. لكن حركة عرابي كانت عنصرية(*) بالضرورة، الأمر الذي جعلها أكثر وضوحا وتميزًا على المستوى الوطني، وبالتالي كتب لها أن تحظى بشعبية واسعة.

(*) أي خاصة بالعنصر القومي المصري. (المترجم)

جاءت وفاة سعيد باشا المفاجئة ضربة كبيرة لآمال أحمد عرابى. فى عهد إسماعيل باشا جرى سحب الامتيازات من الضباط الفلاحين، وكان التفضيل كل التفضيل للشراكسة. ووجد عرابى نفسه يُعَامَلُ معاملة غير لائقة من هؤلاء الشراكسة، ولم تسند إليه سوى المهام الثانوية فى سلاح الإمداد، والوظائف شبه المدنية. وقد أدى ذلك إلى انضمام أحمد عرابى إلى صفوف المستائين، وجعله يتشدد أكثر من ذى قبل فى الدفاع عن حقوق طبقته. كان أحمد عرابى طلق اللسان وقادرًا على شرح أفكاره وآرائه باللغة التى يفهمها ويقدرها إخوانه المواطنين، هذه اللغة لم تكن دقيقة تمامًا، لكنها عامرة بالمجاز والاستعارات والنصوص القرآنية التى توفرت له بفضل دراسته فى الأزهر. وبذلك أصبح لأحمد عرابى تأثير ونفوذ كبيرين أيضًا على أولئك الذين كان على اتصال بهم، وطوال هذه الفترة كان عرابى على اتصال كبير بمجتمع الأوروبيين، وبخاصة فى الإسكندرية، التى أوفد إليها فى مهمة ليست عسكرية تمامًا وإنما كانت تتعلق بدائرة الخديو. كانت علاقات أحمد عرابى ودية مع الأوروبيين، وظل الرجل طوال حياته العملية بعيدًا عن أى شكل من أشكال الحساسية المفرطة أو التعصب الشديد تجاه المسيحيين. وفيما يتصل بالمسائل الدينية، فعلى الرغم من أن ممارسته للدين كانت صارمة وملتزمة؛ فإنه كان ينتمى إلى أكثر مدارس التفسير الإسلامى ليبرالية، إضافة إلى أن الرجل كان إنسانيا فى أفكاره بشأن الأُخوَّةِ بين الأمم والمللِ. ومع ذلك، لم يكن أحمد عرابى يعرف أى لغة أخرى غير لغته العربية، كما أنه على سلامته من الرذائل الأوروبية التى يسهل اكتسابها.

وقد خدم فى أثناء الحرب الحبشية وكانت هذه الخدمة فى خطوط المواصلات بين مصوَّع والجبهة، وعاد عرابى من الحملة ساخطًا مثل الآخرين، على الإدارة السيئة للمعركة. هذا السخط هو الذى حول انتباه أحمد عرابى إلى السياسة، وهو الذى زاد أيضًا من استيائه الذى أصبح موجهًا إلى الخديو بصورة مباشرة. وقد زاد هذا السخط عندما ألقى القبض عليه هو وضابط فلاح آخر هو على بك الروبى Roubi بتهمة ملفقة، مفادها أنه اشترك فى الهجوم على نوبار باشا، وتلك كانت مناورة من جانب الخديو إسماعيل حاول بها ستر دوره فى ذلك

الهجوم، وبعد إطلاق سراحه، انضم في لحظة من اللحظات إلى آخرين في خطة باءت بالفشل، كانت ترمي إلى عزل الخديو. والأرجح أنه، لو لم تتدخل أوروبا في الوقت المناسب، فإن هذه النتيجة كانت ستتحقق، إما من خلال عمل الجيش أو ربما عن طريق اغتيال إسماعيل باشا، لأن هذا الحل أيضا كان مطروحا بصفة جدية على مستوى الأزهر. والمؤكد أن جماعة الإصلاحيين ومعهم الجنود أيضا، فرحوا جميعا لسقوط إسماعيل باشا. ومن الخطأ التسليم بأن عرابيًا كان معاديا منذ البداية للنظام أو العهد الجديد. إذ لم يكن هناك أي نوع من الخلاف بين أحمد عرابي والقنصلين الأوروبيين أو مع الخديو توفيق. كان عرابي، على العكس من ذلك، يرى في الخديو توفيق نفوذا وديا، وكان يرى في القنصلين حماية للفلاحين من مستغليهم القدامى. يضاف إلى ذلك، أن عرابيًا تولى قيادة كتيبة من كتائب الحرس، وأقام في المكان الذي كان يبتغيه وهو الثكنات العسكرية في العباسية في القاهرة، لو استعملت الحكمة في التعامل مع الجنود ومع المسائل التي أدت إلى سخطهم، ولو كان وزير الحربية أقل عداء لتعيين الضباط الفلاحين، لما كان هناك أي سبب يجعل أحمد عرابي أو أي أحد من رفاقه الضباط يفكرون في اتخاذ موقف معاد للحكومة. هذا يعني أن مسألة الدفاع عن النفس جرى فرضها عليهم، ولذلك نجد أن غيرة الخديو من رياض باشا تعد سببا رئيسيًا من هذه الأسباب.

جاءت المتاعب على النحو التالي: تشكلت الوزارة الجديدة برئاسة رياض باشا، وفي هذه الوزارة عين عثمان رفقي، وهو باشا تركي من المدرسة القديمة، وزيرا للحربية. كان عثمان رفقي ممثلاً متطرفا للنظام الطبقي الذي كان ينظر فيه الأتراك والشراكسة إلى مصر منذ قرون إلى مصر منذ قرون، على أنها ممتلكاتهم وأن الفلاحين هم عبيدهم وخدامهم. من هنا جاء موقف عثمان رفقي منذ البداية معاديًا للضباط الفلاحين؛ وبناء على ذلك كان الرجل يفضل الشراكسة في التعيينات التي تجرى، على الفلاحين بصفة دائمة في وظائف الجيش. زد على ذلك أن الضباط كانوا مستائين من مسألة الاستعانة بهم في أغراض غير الأغراض العسكرية؛ وكان يجرى إخضاعهم لنوع من عمل السُخرة الشاق مثل شق الترع والأعمال الزراعية في الضياع المملوكة للخديو، وهذا عمل لم يتعود عليه أولئك

الضباط؛ وهنا اضطلع الضباط بمسئوليتهم، ورفض عرابى إصدار الأوامر لأفـراد كتيبته بالمشاركة فى حفر الرياح التوفيقى، وبذلك يكون أحمد عرابى قـد اسـتثار عليه غضب الوزير عثمان رفقى. كانت هناك أيضا مسائل أخـرى مثـل تـأخير صرف الرواتب؛ وفى العشرين من مايو عام ١٨٨٠ تقدم الضباط الفلاحون، وكان عرابى من بينهم، بالتماس يعبرون فيه عن مظالمهم.

لم ينطوِ الالتماس المقدم على أى شىء من السياسة، وجرى تقديمه بالطريق المعتاد إلى وزير الحربية، وقد نتج عن هذا الالتماس – بسبب القنصلين الفرنـسى والإنجليزى – أن جرى تحقيق رسمى أسفر عن عدالة مطالب الشاكين. وفى هـذا الموضوع وقف القنصل الفرنسى أم. دى. رنج Ring إلى جانب الـضباط لعدالـة شكواهم، وراح هذا القنصل، منذئذ يعطى هؤلاء الـضباط شـيئا مـن الحمايـة، وبخاصة أنه وجد نفسه فى أثناء التحقيق فى مواجهة ساخرة مع رياض باشا. لقـد كان عرابى، على الرغم من لعبه دورا قياديا فى هذه العملية، حريصا ومعتدلاً بـل إن القنصلين كانا يوافقان على تصرفاته. واعتبارًا من عودة أحمـد عرابـى إلـى القاهرة فى رتبة العقيد وقائدا للكتيبة الرابعة، قام الرجل بتجديد صلاته مع زعمـاء الإصلاح فى الأزهر من ناحية ومع دعاة الدستور أو الحزب الدستورى من ناحية أخرى؛ وعن طريق صديق مخلص من أصدقاء عرابى هو الـضابط علـى بـك الروبى، حيث تمكن الرجل من الاتصال باثنين من الوزراء هما: على باشا مبارك ومحمود بك سامى. هذان الوزيران، على الرغم من أنهما من الحزب الدسـتورى، ومن المؤيدين لشريف باشا، إذ كان أولهما وزيرًا للأشغال العامة والثـانى وزيـرًا للأوقاف، احتفظا بمنصبيهما، بعد طرد شريف باشا. ونشبت صـداقة قويـة بـين محمود سامى من ناحية وعرابى هو والضباط الفلاحين من الناحية الأخرى.

عندما تأزمت الأمور على هذا النحو، استشف الخديو منها بعض عناصـر الكيد لرياض باشا، وهنا بدأ الخديو الاتصال بالضباط عن طريق وسيط هو يـاوره على بك فهمى، وهو ضابط فلاح، لكنه التحق بخدمة الخديو عن طريـق زوجتـه الشركسية، التى جعلته مقربا إلى القصر؛ وكان على فهمى أيـضا قائـدا للكتيبـة

الأولى من الحرس. كما كان جديرًا بالاحترام، وعلى الرغم من أنه لم يشارك بأى شيء فى الالتماس الذى قُدّم لوزارة الحربية، كما لم يكن منحازا سياسيا، فإنه كان على وفاق مع عرابى وبقية زملائه، ولم يجد صعوبة فى إقناعهم أن الخديو هو الآخر يقف إلى جانبهم فى هذا النزاع، وأن الخديو أوفده ليحذرهم من التدابير السيئة التى يحيكها ضدهم كل من عثمان رفقى ورياض باشا، وأنهم إذا لم يفلحوا فى طرد هذين الرجلين فإنهم جميعًا سيتهددهم الخطر. كان عرابى أول المقتنعين بذلك نظرًا لأن رياض باشا كان قد ألقى القبض فعلاً على كثير من المطالبين بالإصلاح الدستورى، وأن بعض المقبوض عليهم كانوا أصدقاء لأحمد عرابى. وسرعان ما جرى التعامل مع الشيخ جمال الدين الأفغانى، وجرى أيضًا التعامل مع شاب من ذوى الأملاك من الشرقية هو حسن موسى العقاد، الذى كان من أصدقاء عرابى، بإبعاده أو نفيه إلى منطقة النيل الأبيض لمدة قصيرة؛ والسبب وراء هذا النفى هو أن الرجل طعن على "قانون المقابلة" الذى كان الخديو إسماعيل قد أصدره، وكان طعنه هذا ردا على خطاب نشره السير ريفرز ولسون. ومن ثم نصح الضباط أن يطلبوا إقالة عثمان رفقى، وهو طلب سيكون محل رعاية الخديو.

فى نهاية عام ١٨٨٠ وصل الأمر إلى حد الأزمة، عندما كان عرابى ذات مساء مع الضباط فى منزل نجم الدين باشا، علم عرابى أن الوزارة قررت أنه هو ورفيقه العقيد، (القائمقام) قائد الكتيبة السودانية عبد العال بك حلمى، سيجرى حرمانهما من القيادة وطردهما من الخدمة؛ وفى ذات الوقت جاءه خبر يفيد أن على فهمى موجود فى منزله ويود مقابلته. عندما عاد أحمد عرابى إلى منزله وجد على فهمى فى انتظاره ومعه عبد العال الذى أكد له ذلك الذى نما إلى سمعه، وبعد التشاور قرروا أن يكونوا هم الثلاثة يدًا واحدة – نظرًا لأن على فهمى أعرب عن رغبته فى أن يربط مصيره بمصيرهما – وأن يذهبوا إلى رئيس الوزراء ويصروا على وضع حد لاضطهادهم وذلك عن طريق إقالة عثمان رفقى؛ وفعلاً قاموا بهذا العمل فى اليوم التالى. والرواية التى رواها لى أحمد عرابى عن مقابلتهم لرياض باشا رواية مهمة وأنا لا أشك فى صحتها: يقول عرابى: "ذهبنا بالتماسنا إلى وزارة الداخلية وطلبنا مقابلة رياض. أدخلونا إلى غرفة خارج المكتب وانتظرنا فيها إلى

أن قرأ الوزير وثيقتنا فى الغرفة الداخلية. وخرج علينا فجأة وقال: (التماسكم هـذا مهلك Muhlik، أى أنه يؤدى إلى الشنق. ماذا تريدون؟ هل تريدون تغيير الوزارة؟ وما الذى ستضعونه مكانها؟ من هو الذى تريدونه أن يواصل الحكم؟) ورددت عليه قائلاً: (يا سعادة الباشا، هل مصر امرأة لم تلد سوى ثمانية أولاد ثم أصبحت بعد ذلك عاقرًا؟) كنت أشير بهذه العبارة إلى رياض باشا والوزراء السبعة الذين تحت رئاسته. وغضب رياض باشا من هذه العبارة، لكنه قال فى النهاية إنه سوف ينظر فى الأمر، وعليه تركناه فى مكتبه وانصرفنا لحال سبيلنا".

لعب الخديو دورًا خائنًا فى اجتماع مجلس الوزراء الذى أعقب ذلك الحادث مباشرة. وسعيًا إلى إدخال الوزارة فى صراع علنى مع الضباط، والذى كان يعلم أن الضباط سيحظون بحماية القنصل الفرنسى إم. دى. رنج Ring، اقترح الخديو على مجلس الوزراء إلقاء القبض على الضباط ووضعهم رهن المحاكمة العسكرية، لكن عثمان رفقى عارض ذلك الاقتراح لأنه هو نفسه سوف يقدم للمحاكمة، فى حين كان رياض باشا يعارض تمامًا جعل هذه المسألة فضيحة عامة، ومن ثم وقف إلى جانب الضباط. ومع ذلك، جرى توضيح الأمر لرياض باشا على انفراد، وأن معارضته سوف يُساء تفسيرها، وسوف ينظر إليها باعتبارها عملاً من أعمال عدم الولاء للخديو، وعليه سحب رياض باشا معارضته، وجرى التوصل إلى حل وسط يقضى بأن يتولى عثمان رفقى مسألة التعامل مع الضباط، وطبقًا للقواعد السائدة فى عهد الخديو إسماعيل. ولم يجر اتخاذ أى إجراء علنى ضد الضباط، وبذلك بقيت القضية دون أن يبت فيها مجلس الوزراء.

وكل ما حدث بعد ذلك معروف.. فبعد ذلك بأيام قلائل تلقى الضباط الثلاثة الذين وقعوا على الالتماس، دعوة للحضور إلى قصر النيل لعمل الترتيبات اللازمة مع الوزير استعدادًا للدور الذى ستقوم به كتائبهم فى الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأميرة جميلة. وعندما وصل الثلاثة إلى قصر النيل، وجدوا مع عثمان رفقى، بعض الضباط الشراكسة الذين يكبرونهم فى الرتب، وعلى الفور جرى إلقاء القبض عليهم وتجريدهم من سلاحهم، وقد سبوهم ولعنوهم. كان عرابى يؤكد دومًا

أن النية كانت متجهة إلى وضعهم على ظهر باخرة راسية فى النهر، لتنقليم إلـى أعالى النيل حيث يجرى إغراقهم هناك؛ وأنا لا أشك فى صحة هذا الكـلام. كـان هدف عثمان رفقى من هذا الإبعاد هو تحاشى المحاكمة، التى كان يمكن أن تكشف إجراءات هذا الرجل وأعماله الاستبدادية، وكان يمكن لهذه المحكمة أن تعنى طـرد الضباط من الخدمة وعودتهم إلى موطنهم. وعلى الرغم من ذلك كله، جرى إطلاق سراح عرابى ورفيقيه على وجه السرعة بواسطة جنود كتيبة على فهمـى، الـذين قاموا بقيادة الرائد محمد عبيد - ذلك الرجل الطيب المخلص والذى قتل بعد ذلـك فى التل الكبير- بالتحرك بناء على الأوامر التى صدرت إلـيهم، وفتحـوا أبـواب القصر واقتحموها عنوة. وهنا انسحب الضباط الشراكسة بأسرع ما يمكن، فى حين اضطر عثمان رفقى إلى الهرب غير المحترم من خلال نافذة فى الدور الأرضـى من القصر، وبعدها عاد الضباط الثلاثة على رأس قواتهم، التـى راحـت تقـرع الطبول، فى أثناء عودتها إلى ثكناتها. وهنا سطر الضباط الثلاثة خطابًا أوضـحوا فيه كل ما حدث، وأكدوا أن ما قاموا به كان من قبيل الدفاع عن النفس فقـط، ثـم قدموا هذا الخطاب إلى القنصل الفرنسى إم. دى. رنج، ورجوه أن يتوسـط لـدى الخديو، حتى يعين وزيرًا آخر بدلاً من عثمان رفقى، ووافق الخـديو علـى هـذا المطلب فى اليوم نفسه. ومن المؤكد، من ناحية ثانية، أن أحمد عرابى هو والقنصل الفرنسى دى. رنج بذلا جهدًا كبيرًا لإقالة رياض باشا من منـصبه، بحجـة أنـه باعتباره رئيسًا للوزراء يعد المسئول الأول عن الفوضى التى حدثت. ومع ذلـك، كان رياض باشا مسنودًا تمامًا من المراقبين الماليين Financial Controllers، ومن القنصل العام الألمانى، وأعتقد أيضًا أنه كان مسنودًا من ماليت Malet، الـذى لـم يكن فى ذلك الوقت - كما سبق أن قلت - ميالاً بأى حال من الأحوال إلى الضباط، وعندما أحيل الموضوع إلى كل من لندن وباريس، لم تلقيا بالاً أو تعتـدا برغبـة الخديو، وجرى بعد ذلك بفترة قصيرة استدعاء القنصل إم. دى. رنج بطريقة غيـر كريمة.

هذا الاضطراب العسكرى الأول فى قصر النيل فى أول فبراير عام ١٨٨١. عندما كنت فى مصر، لكنى بعد أن غادرت القاهرة ولا أذكر أنـى سـمعت اسـم عرابى يتردد قبل حدوث ذلك الاضطراب. غير أن الدور الشعبى الذى لعبه عرابى فى ذلك اليوم أدخله إلى مجال الشهرة، وأصبح اسمه على كل لسان، وبـدا وكأنـه رجل استطاع أن يتحدى الحكومة ويحدث تغييرًا فى الوزراء. وفى غضون أسابيع قلائل أصبح الرجل واحدًا من أصحاب السلطة والقوة فى البلاد، وعليه وطبقًا لمـا هو مألوف فى مصر، بدأت الالتماسات على اختلاف أنواعها تنهال عليه من أولئك الذين ظُلموا وراحوا يسعون إليه لإنصافهم. يضاف إلى ذلك أن الحقيقة التى مفادها أن ظهور عرابى فى هذا العمل وكأنه بطل للفلاحين فى مواجهـة تظـالم الطبقـة التركية الحاكمة، زادت من شعبيته خارج القاهرة، وهنا راح كثير مـن الأعيـان ومشايخ الريف يتواصلون مع الرجل. وكان يرد على خطابـات هـؤلاء الأعيـان والمشايخ ردودًا طيبة قدر المستطاع، ويساعدهم فى حـدود سـلطته المحـدودة، وعندما كان الناس يلقونه كان حديثه العذب وطلاقته وابتسامته الحلـوة وحـضوره الطيب يترك انطباعًا طيبًا لديهم.

من حيث المظهر الشخصى كان عرابى فى ذلك الوقت موهوبًا فى الـدور الذى أنيط به أما فى التاريخ المصرى باعتباره ممثلاً لبنى جنـسه. كـان عرابـى فلاحًا أصيلاً، طويل القامة، غليظ الأطراف، وئيد التحركات، وهـو رمـز للقـوة الجثمانية الكبيرة التى يتمتع بها الفلاحون فى الوجه البحرى. ولم يكن يتمتع بـأى شىء من الحذر أو اليقظة التى تميز الجنود، بل كان يتمتع بنـوع مـن التـروى والهدوء، الأمر الذى أضفى عليه ذلك الاحترام الذى يحظى به شيوخ القرى. كانت ملامح عرابى تبدو كئيبة عندما يكون مسترخيًا؛ وكانت عيناه توحيان بأنه شـخص حالم، وعندما كان الرجل يبتسم أو يتكلم كان يتضح ذكاؤه لكل من يستمع إليـه أو يتحدث معه. فكان وجهه يتهلل نورًا كما لو كان شمسًا تنير سـطح الأرض. كـان الباشوات الأتراك والشراكسة ينظرون إلى الرجل الذى من هذا القبيل علـى أنـه شىء مهمل ولا قيمة له، كما كانوا ينظرون إليه باعتباره واحدًا من الفلاحين السُذَّج الذين سادوهم أجيالاً طويلة واستعبدوهم، وأجبروهم على العمل لحسابهم دون أجر،

وقد استحال عليهم استخدام عرابى فى أى شىء آخر غير أن يكون مجرد أداة فى أيديهم الماكرة. كان رياض باشا يحتقر أحمد عرابى من البداية إلى النهاية، يضاف إلى ذلك أن المصلحين فى الأزهر لم يكونوا يعولون كثيرًا عليه باعتباره قوة سياسية. كانت ريفية أحمد عرابى ذات شأن عظيم بين طبقة الفلاحين. باعتباره واحدًا من أفراد هذه الطبقة، لكن الرجل قوَّى من صفات وخصائص هذه الطبقة ومجَّدها بفعل الطاقة والقوة التى منحوها له؛ يضاف إلى ذلك أن ثقافة الرجل الدينية التى اكتسبها من الأزهر كانت أرقى من ثقافة هذه الطبقة.

ويجب ألا يغيب عنا أنه على امتداد التاريخ المصرى كله، أو بالأحرى خلال ما لا يقل عن ثلاثة قرون، لم يحدث أن ارتقى فلاح واحد أى منصب من المناصب السياسية فى مصر، أو ظهر فى شكل مصلح من المصلحين، أو همس بكلمة عن احتمال قيام ثورة من الثورات. ومع ذلك، أنا أتشكك فى مسألة ما إذا كانت صفات أحمد عرابى، التى كانت كلها صفات سلبية، كانت كافية لأن تجعله يتقدم الصفوف باعتباره زعيما وطنيا، وإذا ما نحينا جانبًا الاضطهاد غير العادل الذى تعرض له أحمد عرابى من قبل رياض باشا خلال الأشهر التى أعقبت أزمة قصر النيل، والتى جرى تنفيذها من خلال أعداء الوزير السياسيين، نجد أن أحمد عرابى كان قادرًا دومًا على إحباط وتجنب كل هذه المصاعب. لقد كان يتخلص من هذه الدسائس التى كانت تحاك ضده بفضل محمود سامى بك، الذى كان يشغل منصب وزير الحربية بدلاً من عثمان رفقى؛ كان محمود سامى البارودى بك قد حل محل عثمان رفقى فى منصب وزير الحربية بفضل نفوذ القنصل الفرنسى إم. دى. رنج، وكان الرجل وزيرًا سابقًا فى وزارة شريف باشا، ومن ثم كان دستوريا محتمسا. وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف أحمد عرابى معرفة شخصية، فإنه كان ميالاً إليه، هو وأحد الضباط الفلاحين الآخرين، وهو على بك الروبى، وكان يشده إليهما نوع من الحميمية. وبعد أن أصبح محمود سامى بك وزيرًا للحربية، كان فى وضع يسمح له بمساعدة أحمد عرابى وعلى بك الروبى، وكان ينبههما بشأن المؤامرات التى كانت تحاك ضدهما عند سماعه عن مثل هذه المؤامرات؛ وكان البارودى فى وضع يمكنه من ذلك لإقلاله من مقابلة عرابى بصورة

ملحوظة، على الرغم من أنه كان على اتصال دائم به عن طريق علـــى الروبـــى. البارودى قد قطع على نفسه وعدًا أمام الضباط بأنه إذا ما وجد الخديو فى أى وقت من الأوقات يتآمر عليهم فسوف يقوم بإبلاغهم بذلك، وحتى إذا لم يقــم بتحــذيرهم مباشرة، فسوف تكون استقالته من الوزارة بمثابة تحذير لهم.

كان الدور الذى لعبه محمود سامى البارودى فى ذلك العام دورًا حاسمًا فى المسار الذى اتخذته تلك الثورة. لقد كان البارودى سليل أسرة شركسية استقرت فى البلاد منذ فترة طويلة، وبذلك أصبحت من الطبقة الحاكمة التقليدية. وكان مــصلحًا ووطنيا مثل شريف باشا. أما من الناحية الفكرية فقد كان أرقى كثيرًا من عرابـــى. كما كان على دراية كبيرة بالأدب سواء العربى أو التركى، كما كان علـــى درايـــة واسعة بالتاريخ المصرى، فضلاً عن كونه شـــاعرًا رقيقًـــا ومتميـــزًا. والكتـــاب الإنجليز، الذين تضللهم الكتب الزرقاء، يتحدثون عن البارودى باعتبـــاره متـــآمرًا ودساسًا، لكن الرجل كان أكبر من ذلك بكثير، ويجب ألا يغيب عنا أنه كان عنـــدما يدس، مثلما فعل ضد رياض باشا، كان يفعل ذلك ضدَ وزير لا ينتمى إلى حـــزب غير حزبه ولم يتطوع لخدمته، ففى الوقت الذى تولى فيه رياض باشا المنصب عام ١٨٧٩، كان محمود سامى البارودى فى الوزارة فعلاً، وكان هناك تفاهم مفاده أنه هو وعلى مبارك، وهما دستوريان، يجب أن يبقيا على اســتقلالهما فيمـــا يتعلـــق بوزارتيهما. وفى ربيع عام ١٨٨١ كانت هناك دسائس تحاك ضد ريـــاض باشـــا، تستهدف إعادة شريف باشا رئيس حزبهما إلى السلطة. ومن هذه الناحية يجـــب أن ينظر إلى ما يقوم به البارودى، وهذا العمل، فى تصورى، له أمثلـــة كثيـــرة فـــى سجلات مجالس الوزارات الإنجليزية على اختلاف مشاربها.

كان دور محمود سامى البارودى، من وجهة نظرى، وبخاصة فى المتاعب التى بدأت تهل على البلاد، دورًا مخلصًا تمامًا، لكل مـــن القـــضيتين الدســـتورية والوطنية؛ ولقد دفع محمود سامى البارودى ثمنًا غاليًا لثباته وإخلاصــــه وولائـــه، بحكم أنه كان واحدًا من الأثرياء، وبذلك تكون خسائر محمود سامى البارودى أكثر من أى إنسان آخر فى ذلك التمرد أو الثورة.

لم يكن دور الخديو طوال الأشهر السبعة التى تلت ذلك دورًا مستقيمًا. يبدو أنه كان طوال هذه الفترة، ممزقًا بين التردد، والغيرة، والمخاوف، والمطامح. كان أعداء رياض باشا قد أوحوا إليه بأن ذلك الوزير المتسيد، يتآمر عليه لخلعه من منصب الخديو؛ وهذا بحد ذاته أمر مشكوك فيه، ولم يكن الخديو يلقى له بالاً أو يهتم به بأى حال من الأحوال. كما أنه فى بعض الأحيان الأخرى كانت شعبية عرابى المتزايدة تثير غيرته، الأمر الذى كان يدفع بالخديو بصورة مستمرة من خوف إلى آخر، وبينما كان الرجل يطمح إلى استعادة سلطة والده الضائعة. كانت السيطرة البريطانية الفرنسية تثيره وتضايقه، وكان يعرف أيضًا أن السواد الأعظم من رعاياه يكرهونه ويحتقرونه.

كانت حاشية الخديو الشركسية، أو بالأحرى رجال البلاط الخديو، يعاملون الضباط الفلاحين معاملة عنيفة، وكانوا يحثون الخديو على اتخاذ إجراءات قوية ضد هؤلاء الضباط، فى حين كان شريف باشا هو والدستوريون يؤيدون استعانة الخديو بهؤلاء الضباط للتخلّص من السيطرة القنصلية عليه بنفس الطريقة التى جرى بها التخلّص من رياض باشا وذلك عن طريق القيام بمظاهرة أخرى.

كان ذلك هو حال الأمور فى شهر أغسطس، عندما اجتاح العالم الإسلامى ذلك الهياج والفوران العام الذى ترتب على احتلال فرنسا لتونس؛ هذا الاحتلال جعل الأمور فى القاهرة تصل إلى حد الأزمة الحادة.

الفصــل الســابــع

انتصار المصلحين فى مصر

من الصعب تحديد الدور الدقيق الذى لعبه الخديو فى الفصل النهائى من دراما الثورة، أو بالأحرى المظاهرة العسكرية التى حدثت فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر أمام قصر عابدين. واستنادًا إلى ما قاله "نينيه" Nient وبعض الكتاب الآخرين، كان هناك ترتيب كامل مسبق وجماعة عمل بين الخديو توفيق، والزعماء العسكريين فى ذلك اليوم، وكان الهدف من هذه المظاهرة هو إسقاط رياض باشا ومعه الوصاية القنصلية التى وجد الخديو توفيق نفسه محاصرًا بها. هذا الكلام صحيح بشكل عام. كان عرابى نفسه قد أكد لى دومًا أنه خلال صيف عام ١٨٨١ لم تكن بينه وبين الخديو أية علاقات شخصية، باستثناء العلاقات الرسمية التى كانت تمليها عليه واجباته باعتباره قائدًا من قادة كتائب الحرس. لم يكن عرابى قد التقى سموه إلا فى ثلاث مناسبات فقط؛ لم يكن خلال هذه المناسبات الثلاث قد تطرق إلى أى موضوع من الموضوعات السياسية. والمؤكد تمامًا فى ذات الوقت أن فكرة المظاهرة العسكرية المشار إليها، كان الخديو توفيق يطرقها بين الحين والآخر طوال فصل الصيف، ويوحى بها إلى الضباط من خلال على فهمى الذى كان ياورًا له. وعلى الرغم من تورط على فهمى مع عرابى فى مسألة قصر النيل، وعلى الرغم أيضًا من إلقاء القبض عليه؛ فإنه جرى استقباله ثانية ليحظى برضاء الخديو، الذى خطر بباله أنه يفيد منه فى دور الجاسوس المزدوج على الضباط الفلاحين. وأن يكون وسيطًا، إذا ما طلب هو ذلك، بين الخديو والضباط الفلاحين. يبدو أن الخديو توفيق كان يرى فى علاقة على فهمى بالبلاط الخديو من خلال الزواج ضمانًا لإخلاصه وولائه، ولكن انضمام على فهمى إلى جانب عرابى انضماما كليا، على الرغم من صلته بالقصر والبلاط، هو الذى أدى إلى استياء الخديو توفيق منه استياء كبيرًا. ومن جانب آخر، كان توفيق، كما سبق أن أوضحنا، رجلاً متقلب المزاج، وفى الوقت الذى كان يعوّل فيه على مساعدة الجيش له فى تخليصه من رياض باشا، كانت تتقاذفه أيضًا نوبات الغيرة من شعبية

عرابى الآخذة فى التزايد والنمو. هذه الشعبية زادت بشكل ملحوظ تمامًا طوال أشهر الصيف وعادت عليه وبالتواصل مع عدد لا يحصى من شيوخ البلاد وأعيانها الذين راقتهم فكرة تحرير الفلاح التى كان عرابى يدعو لها. بدأ الناس يتحدثون عن عرابى فى مختلف المديريات على أنه "الوحيد" El Wahhid، وفى واقع الأمر كان أهلاً لهذا الاسم، نظرًا لأنه كان الفلاح الوحيد الذى استطاع طوال قرون أن ينجح فى مقاومة استبداد الطبقة التركية والشركسية الحاكمة.

لا يمكن التأكيد بصورة قاطعة على أن الحركة الوطنية التى قامت عام ١٨٨١ كانت فى الأساس حركة فلاحية، تتخذ من تحرير الفلاحين هدفًا لها، وأنها كانت موجهة أصلاً ضد الحكومة التركية الظالمة، التى حطمت البلاد، أو أن الحركة بصفة أساسية كانت موجهة ضد السيطرة الإنجليزية – الفرنسية، وبخاصة عندما أعلنت هذه السيطرة المشتركة على الملأ مساندتها وتحالفها مع ذلك الظلم والاستبداد التركى. هذه الحركة كانت مرتبطة أيضًا ببعض المصالح الأخرى؛ وعلاوة على سعى أعيان الفلاحين إلى تلك الحركة والانضواء تحت لوائها، اكتشف عرابى أيضًا أن كثيرًا من الدستوريين المدّعين، والذين كان عدد كبير منهم ضمن العصبة الحاكمة، والذين كانوا معارضين لمسألة تحرير الفلاحين، مثل رياض باشا تمامًا، بدأوا يتقربون إلى أحمد عرابى ويتزلفون إليه.

كانت فكرة الدستور التى فى أذهان أناس من هذا القبيل، ومن هذه الطبقة من البشر، تعنى تخليص السلطة المطلقة من أيدى الخديو، وأنها يجب أن تظل فى أيدى القلة الحاكمة من الأتراك والشراكسة، الذين كانوا يظنون أنهم هم وحدهم هم القادرون على حكم البلاد. كان شريف باشا رئيسًا لتلك المجموعة الدستورية التركية، وشهد فصل الصيف شريف باشا وهو يتصل بعرابى اتصالاً غير مباشر ولكنه وثيق، باعتبار أن عرابيًا سيكون هو الوسيلة لتحقيق الدستور الذى سيكون وسيلته لتولى الحكم من جديد. ولما كان عرابى من المتعاطفين مع خطة رعاة الدستور، فقد استسلم تمامًا لفكرة شريف باشا، وبخاصة أن سلطان باشا، وهو صاحب أكبر مكانة بين أعيان الفلاحين، كان من الدستوريين الأشداء، وهو الذى

قام أيضا بدور الوساطة بين أحمد عرابى وشريف باشا. وجرى ترتيب ذلك كله بينهما وكذلك الاتفاق، على أنه عندما تجيء اللحظة المناسبة، فإن عرابى يتعين عليه أن يضيف ثقل قوة الجيش، إلى أى ضغط من الضغوط، حتى يمكن الضغط على الخديو، بغية الحصول على موافقته على المطلب الدستورى. ولم يكن الخديو معترضا بأى حال من الأحوال، على هذا المطلب، ما دام ينطوى على طرد رياض باشا، الذى يعده الخديو أمرًا بالغ الأهمية. وفى الوقت الذى كان ذلك الإحساس يعتمل فى ذهن الخديو توفيق ويسيطر عليه، راح من خلال على فهمى، يشجع عرابيًا على المضى قدمًا فى خطته، ويؤكد له موافقته المسبقة على تلك الخطة.

كانت الرسالة الأولى التى تلقاها أحمد عرابى بهذا المعنى نموذجا من أهم وسائل الدس التى يستعملها الخديو توفيق. فقد ذكر فيها أنه عندما كان يتحدث مع على فهمى عن الجيش باعتباره قوة سياسية: "أنتم الثلاثة، عرابى، وعبد العال، وأنت أيضا تعدون ثلاثة جنود – وأنتم معى نصبح أربعة جنود". وطلب من على فهمى توصيل هذه الرسالة إلى عرابى. وأعقبت هذه الرسالة مجموعة من التلميحات المباشرة إلى حد أنه بات واضحًا أن أية مظاهرة سيقوم بها الجيش وتطلب إقالة رياض باشا سوف تحظى بموافقة سرية من الخديو، إن لم يكن ذلك علانية. وكان من الضرورى، حتى يمكن إقناع القنصلين، أن يتظاهر الخديو بالإذعان لحكم القوة، عندما يوافق على تغيير الوزراء.

وعندما حان موعد التنفيذ الفعلى، لم يكن أحد متأكدا من الخط الذى سيسلكه الخديو. وحدثت الأزمة على النحو التالى: فى شهر أغسطس بدأ رياض باشا يحس بالخوف والذعر والانزعاج من حركة الفلاحين التى وصل احتقاره لها إلى حد جعله لا يفكر مطلقا فى خطورتها. كان رياض باشا يعتقد أن الدور الذى يلعبه الجنود فى هذه الحركة يمكن القضاء عليه بطريقة من الطرق غير المعتادة السائدة فى ذلك الوقت، وتحظى بموافقة الحكومة التركية. كان رياض باشا قد أحاط كلا من عرابى ورفاقه بالجواسيس، وكان يسعى بصورة مستمرة إلى توريطهم عن طريق الشرطة فى بعض المشاجرات الشخصية وبعض المشاجرات التى تدور فى

الشوارع، الأمر الذى يوقع هؤلاء الضباط تحت سلطته، لكن ذلك كله كان يبوء بالفشل. كان العسكر يتلقون إنذارات بكل التدابير الخطرة من خلال صديقهم محمود سامي البارودى فى وزارة الحربية، وبالتالى كانوا على اختلاف مشاربهم يأخذون حذرهم بصورة مستمرة. وكان الاتفاق قد تم بين عرابى ومحمود سامى البارودى، إنه إذا ما أجبر الوزير على ترك الوزارة، فإن ذلك يجب أن يكون إشارة للضباط الفلاحين بأمر سيئ سيحدث لهم، وحتى إن لم يسمعوا من الوزير نفسه أى شيء عن مثل هذا الأمر. وعليه، وبعد أن نفد صبر رياض باشا فى شهر أغسطس، تشاجر مع وزير الحربية، وأعلن عن استقالة محمود سامى البارودى، وهنا أدرك الضباط أن لحظة تحركهم لا يمكن تأخيرها عن هذا الموعد. كان رياض باشا قد أصر على إرغام محمود سامى على إبعاد القائدين ومعهما كتيبتاهما عن القاهرة، وتمكن من جعل الخديو، فى لحظة من لحظات غيرته من شعبية أحمد عرابى، أن يوافق على هذا الإبعاد، وعندما اعترض محمود سامى على ذلك، جرى إبلاغ الخديو بذلك، وكان الخديو ورياض باشا فى ذلك الوقت فى الإسكندرية لقضاء فصل الصيف، وجرى إبلاغ محمود سامى البارودى بأن يغادر القاهرة ليقيم فى قريته، وبذلك لم يكن أمام الرجل وقت حتى يتصل بأصدقائه العسكريين. هؤلاء الذين علموا أن هناك بعض المتاعب فى انتظارهم، نظرًا لأن من خلَف البارودى كان لواء شركسيًا من النوع الرجعى تمامًا، ويدعى داود باشا يكن Daoud Yeghen صهر الخديو، وكان العسكر يعرفون أن هذا الداود عدو لهم.

عاد البلاط الخديو إلى القاهرة خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر، وبعد أن تشاور الضباط مع سلطان باشا، وبعد أن تفاوضوا أيضًا مع أصدقائهم المقربين من المدنيين، أخذوا استعدادهم للتحرك المباشر. كان العسكر قد قرروا، بغض النظر عن موقف الخديو، القيام بالمظاهرة المحددة والمتفق عليها، وأن يصروا على المطالبة بتغيير الوزارة باعتبار ذلك ضمانا لسلامتهم الشخصية. لقد أدرك الضباط تمامًا أنهم إذا ما سمحوا بفصليم بعضهم عن بعض، وإذا ما تم إبعادهم عن القاهرة فسوف يسهل على رياض باشا تحطيم كل واحد منهم على انفراد. وأن أقل ما ينتظرونه من رياض باشا هو طردهم من الخدمة، ثم يجرى بعد ذلك إلقاء القبض

عليهم ومحاكمتهم على التمرد جزاء لهم على ما قاموا به في شهر فبراير. كان برنامج الضباط يتضمن أيضًا مسألة المطالبة بزيادة عدد الجيش، كما أضافوا إلى هذا البرنامج أيضًا المطالبة بالدستور، الذي كان يبدو بمثابة الضمان الوحيد للجميع في مواجهة الحكومة المستبدة.

حدثت الأزمة فجأة في اليوم الثامن من شهر سبتمبر. كان داود باشا، شأنه شأن السواد الأعظم من الطبقة التي ينتمي إليها، يحتقر الضباط الفلاحين إلى أبعد الحدود، ولم يكن يتوقع حدوث أية مقاومة من جانبهم، ولذلك أصدر أمره بإبعاد الكتيبتين: أي إبعاد كتيبة أحمد عرابي إلى الإسكندرية، وإبعاد كتيبة عبد العال حلمي إلى دمياط، وعقب تسلم هذا الأمر قرر الضباط التحرك على الفور. لقد كانوا معتمدين على تسامح الخديو، إن لم يكن على تعاطفه، يضاف إلى ذلك أن الضباط كانوا يعرفون شخصيته الضعيفة إلى الحد الذي لم يكونوا يشكون معه في أن ما يقرره مع رياض باشا في مجلس الوزراء يمكن أن يتحول عنه في يوم آخر إلى الجانب الأقوى. كان قلق الضباط الحقيقي يتمثل في موقف علي فهمي هو وكتيبته، التي تعد أولى كتائب الحرس الخديو، وهي الكتيبة الوحيدة التي استثنيت من أمر الإبعاد عن القاهرة، وكانت لا تزال في ثكناتها في عابدين، وإذا ما كان الخديو معاديًا لهم بحق، و إذا ما كان علي فهمي مطيعًا للأوامر، فإن الأمر قد ينتهي إلى نوع من الصراع والنزاع. وبغير ذلك تصبح المظاهرة في كل الاحتمالات نوعًا من المظاهرات السلمية. من ناحية أخرى، ومن باب تقليل الأخطار التي يمكن أن تنجم عن سوء الفهم أرسل الضباط كتابا إلى الخديو يبلغونه فيه بخططهم، وكدليل على عدم عدائهم له شخصيا، وأعلنوا أنهم لن يتجهوا إلى منزله في حي الإسماعيلية، وإنما سيتجهون إلى عابدين، القصر الرسمي، والتمسوا إليه أن يلقاهم هناك لكي يلتقي بهم ويستمع إلى شكاواهم.

بقية ما حدث بعد ذلك، يمكن إيراده على لسان أحمد عرابي، الذي يقول: "في صباح اليوم التالي، كتبت رسالة حددت فيها مطالبنا وأرسلتها إلى الخديو، في قصر الإسماعيلية وقلت فيها إننا يجب أن نتحرك إلى قصر عابدين في فترة العصر، لنتسلم رد الخديو. والسبب في ذهابنا إلى عابدين، وليس إلى قصر

الإسماعيلية الذى يعيش فيه الخديو، هو أن قصر عابدين هو المقر العام للخديو، ونحن لا نريد إزعاج الحريم فى قصر الإسماعيلية . لكنه لو قدر له عدم المجيء إلى عابدين فسيتعين علينا التحرك إلى قصر الإسماعيلية. وعليه عندما تسلم الخديو رسالتنا، أرسل فى طلب رياض باشا وخيرى باشا وستون Stone باشا (الأمريكى)، واتجهوا فى البداية إلى ثكنات عابدين، حيث قام كل من الخديو ورياض باشا بالتحدث إلى العسكر، وأصدرا أوامر إلى على فهمى، تقضى بأن يقوم مع كتيبته باحتلال قصر عابدين. ووافق على فهمى، ووزع رجاله فى الغرف العلوية بعيدًا عن الأنظار، حتى يتمكنوا من فتح النار علينا من النوافذ. لكننى لا أعرف ما إذا كانوا قد حصلوا على طلقات أم لا. ثم ذهب الخديو، ومعه القادة، إلى القلعة وتحدثوا هناك مع العسكر باللغة نفسها، حيث طلبوا من فوده Fuda بك مساندة الخديو ضدنا، وقد هدده الخديو قائلاً: "سوف أضعك فى السجن". لكن العسكر تجمعوا حول العربة، وخاف الخديو، ومشى بعربته مبتعدًا عن المكان، ووصل بناء على نصيحة من رياض باشا، إلى العباسية ليتكلم معى. ولكنى كنت قد تحركت بالفعل مع كتيبتى بطريق الحسينية Hassaniyeh إلى عابدين، فسألا عن المدفعية فقيل لهما إنها اتجهت أيضًا إلى عابدين.

عندما وصل الخديو إلى عابدين وجدنا نحتل الميدان، وكانت المدفعية والفرسان أمام المدخل الغربى، فى حين كنت أنا مع قواتى أمام المدخل الرئيسى. وكنت عندما وصلت أمام القصر قد أرسلت إلى على فهمى، الذى بلغنى، أنه كان موجودًا هناك، وجرى بينى وبينه حديث وقام بعده بسحب رجاله من القصر، ووقف هو ورجاله إلى جانبنا. ودخل الخديو من الباب الخلفى فى الجانب الشرقى من القصر، وسرعان ما جاء الخديو إلينا ومعه لواءاته وياوره، لكنى لم أر السيد كولفن Colvin معه، على الرغم من احتمال وجوده هناك. ونادانى الخديو، وطلب منى النزول من فوق الفرس، ونزلت بالفعل. وطلب منى التخلى عن سيفى، وتخليت فعلاً عن سيفى؛ لكن الضباط، أصدقائى، تقدموا معى منعًا للخيانة، كانوا حوالى خمسين ضابطًا، وضع البعض منهم أنفسهم بين الخديو والقصر. وبعد أن قدمت الرسالة وأعلنت عن مطالبى الثلاثة من الخديو؛ قال الخديو: "أنا خديو هذا

البلد، وأفعــل مـــا أشـــاء" Ana Khedeywi El Beled. Wa amal Zay Mainni Awze وردت عـــليه قائلاً: نحــن لسنـــا عــبيدا، ولن نكـــون إرثـــــا مـــن اليـــــوم" Nahnu Ma abid. Wa La Nurithu Bad El Yom. هذا يعني، "لن نكون مطلقًا مثل العبيد، ولن نكون موضوعًا للتوريث من سيد إلى آخر". لم يقل الخديو شـــيئًا بعـــد ذلك، ولكنه استدار ودخل إلى القصر. وسرعان ما أرسلوا إلى كوكسون Cookson ومعه مترجم، فأتى وسألنى، لماذا وأنا رجل عسكرى، أطلب طلبا برلمانيًا. وقلت: أنا أفعل هذا لأضع حدا للحكم المستبد، ثم أشرت إلى جمهـــور المـــواطنين الـــذين يقفون خلف الجنود ويساندوننا. ثم هددنى كوكسون قائلاً: "لكننا سوف نحضر جيشًا بريطانيًا"؛ ودار بيننا نقاش كثير. جعل كوكسن يدخل إلى القـــصر ســـت أو ســـبع مرات، إلى أن بلغنى فى نهاية الأمر أن الخديو وافق على المطالب كلها. وذكر أن الخديو أيضًا أن سيعين حيدر باشا بدلاً من رياض باشا فى رئاسة الوزارة، لكنى لم أوافق على ذلك. وعندما طلبوا منى أن أقترح خلفا له، سميت شـــريف باشـــا، لأن الرجل كان قد أعلن أنه ميل إلى تأليف مجلس للنواب Mejliss- El Nowwab. كنت قد سبق أن تعرفت على شريف باشا عندما كان يخدم فى الجيش. وفى الليلة نفسها أرسل الخديو فى طلبى، وذهبت إليه فى قصر الإسماعيلية، وشكرته على موافقتـــه على مقترحاتنا لكنه قال فقط: "هذا يكفى، اذهب الآن، واحتل عابدين، لكن يجب أن يتم ذلك بلا موسيقى فى الشوارع".

هذا الكلام، يبدو لى وكأنه رواية صريحة تمامًا، ويتفق أيضا مـــع الأشـــياء الأخرى التى عرفتها عن أحداث ذلك اليوم من شهود وطنيين، كما يتفق أيضًا مـــع ما هو وارد فى الكتب الزرقاء. لم يكن دور الخديو فى ذلك اليوم بطوليـــا حـــسب مجرى الأحداث، لكن جبن الرجل لم يصل إلى الحد الذى ذهبـــت إليـــه الروايـــة الإنجليزية عن ذلك اليوم. كان الخديو يعلم جيدًا أنه ليس فى خطر من العسكر، ولم يكن هناك أى شيء طلبه أولئك العسكر ولم يكن الخديو على استعداد للموافقة عليه أو الوعد به فى أضعف الأحوال. وعلى حد قولهم، لقد وقف الخديو موقفًا يجعلـــه رابحًا تحت أى ظرف من الظروف، كما كان الرجل يُسِرُّ أشـــياء كثيـــرة كانـــت غامضة على كل من كوكسون Cookson وكولفن Colvin.

هذان الرجلان الإنجليزيان اللذان أتى أحمد عرابى على ذكرهما هما السير شارلز كوكسون القنصل البريطانى فى الإسكندرية، والمسئول مؤقتًا عن الوكالة الإنجليزية نظرًا لغياب ماليت Malet فى إجازة فى القاهرة، والسير أوكلاند كولفن Sir Auckland Colvin المراقب Controller المالى الإنجليزى. كان هذان الرجلان الممثلان الوحيدان لهيئة المسئولين الأجانب فى مصر فى ذلك الوقت – نظرًا لأن إم. دى سنكفكز M. De Sinkiewicz، الوزير الفرنسى الجديد، لم يكن قد وصل بعد، كما كان إم. دى بلنيير M. De Blignieres ، زميل كولفن Colvin الفرنسى، غير موجود أيضًا. وكان هذان الرجلان، يلعبان الدور الرئيسى فى إسداء النصح للخديو، ثم إبلاغ ذلك إلى الحكومة البريطانية. كان كولفن مسئولا هنديا، على علم ومعرفة بالتقاليد الإنجليزية – الهندية فى فن الحكم، ولما كان الرجل على يقين من الخلاف الذى بين توفيق والضباط، ولما كان أيضًا من المحبذين لإجراءات العنف، لذلك كان من رأى الرجل أن يتخذ الخديو إجراءات عنف مشابهة حيال الضباط، مثلما كان يفعل محمد على باشا قبل ستين عامًا، لكن هذا السلوك لم يكن مناسبًا فى ظل الظروف الحاضرة. جاءت نصيحة كولفن على شكل اغتيال بإطلاق الرصاص على أحمد عرابى بعد حديث قصير، وأن يكون ذلك الاغتيال بواسطة مسدس وبيد الخديو نفسه. أما كوكسون الذى كان يعرف ضعف الخديو توفيق على نحو أفضل من كولفن فإنه، مع جهله بالاتفاق السابق بين الخديو والضباط، كان يرى أن الحل الوسط هو الأفضل، ذلك الحل الذى كان الخديو يتطلع إليه منذ زمن طويل، وهو طرد رياض باشا وإعادة شريف باشا. ويمكن الاطلاع على رواية كوكسون عن هذا الموضوع فى الكتب الزرقاء، كما يمكن أيضًا الرجوع إلى رواية كولفن عن هذا الموضوع فى جريدة "التايمز"، التى وافاها بالرواية المنشورة عن هذا الأمر، كما يمكن الوقوف على ذلك أيضًا فى جريدة "بول مول جازيت" Pall Mall Gazette التى كان مراسلاً منتظمًا لها. حظى إعلان هذين الرجلين عن العمل الذى قاما به، على شكر الحكومة الإنجليزية، وحظى كولفن على لقب فارس كما حصل أيضًا على منصب سياسى فى مصر لم يكن قد تحصّل عليه حتى ذلك الوقت. وانتهى الأمر على ذلك النحو. ولم يكن أمام رياض باشا، الذى اتعظ من المغامرات

التى قام بها كل من نوبار وعثمان رفقى، سوى البقاء الحذر داخل القصر، وعليه فقد تسلم رياض باشا، فى الليلة نفسها أمر إقالته فى الإسكندرية؛ ومنها سافر إلى أوروبا ليبقى هناك انتظارًا لأن تأتيه المساعدة والعون من الدول الحامية؛ وجرى ترشيح شريف باشا، الذى أبدى شيئًا من الممانعة فى البداية، رئيسًا للوزراء بدلاً من رياض باشا. واستيقظت مصر فى صبيحة اليوم التالى لتعرف أن المسألة لم تكن عصيانا، وإنما كانت ثورة، وأن الحكم الاستبدادى الطويل، قد انتهى إلى غير رجعة، حسب تصور المصريين. كان الخديو قد وعد بجمع الأعيان (النواب) ومنح الدستور، وبأن تحكم أرض الفراعنة والمماليك، والباشوات الأتراك، طبقًا لقوانين عادلة، وأن يديرها نواب الشعب المصرى نفسه بدلاً من الأجانب منذ الآن.

كانت الأشهر الثلاثة التى أعقبت ذلك الحادث الشهير بمثابة أسعد الأوقات السياسية التى شهدتها مصر. وأنا سعيد لأنى شهدت هذه الفترة بعينَىّ، الأمر الذى يجعلنى أقول: إنى لم أسمع عن هذه الفترة، أو أشك فى حقيقتها. كانت الجماعات الوطنية كلها، بل وكل سكان القاهرة كانوا جميعًا متحدين فى مسألة تحقيق الفكرة الوطنية العظيمة، ولم يكن الخديو نفسه أقل شعورا من هذه الجماعات. كان الخديو توفيق مسرورًا لأن الأزمة انتهت، بنجاح مؤامرته التى حاكها للتخلص من رياض باشا، ومعه أيضًا المراقبة الثنائية البغيضة، وكان الخديو توفيق على ثقة أن شريف باشا سوف يخلصه من عرابى فى مرحلة لاحقة. كان شريف باشا هو والأتراك الليبراليين فرحين بعودتهم إلى السلطة، كما فرح أيضًا الأتراك الرجعيين، الذين كانوا ذات يوم مع رياض باشا، فرحوا من باب أن ذلك يعد انتصارًا على أوروبا. وتخلص الجنود من كابوس الخطر الذى كان يكتم أنفاسهم منذ زمن طويل، كما ابتهج المصلحون المدنيون الذين بدأوا ينظرون إلى الحريات التى كانوا يتطلعون إليها، باعتبارها أمرًا بات واقعًا ومؤكدًا. أما هؤلاء الذين تشككوا فقد اعترفوا بأن نتائج الأحداث أثبتت أن الاحتكام إلى القوة هو الأمثل والأجدى. وفى سائر أنحاء مصر انتشر الفرح والسرور، على نحو لم يسبق أن رآه أحد من أبناء النيل منذ مئات السنين، ومن الصحيح أيضًا أن الناس فى شوارع القاهرة كانوا يستوقفون

بعضهم بعضًا، على الرغم من عدم تعارفهم، لكى يتعانقوا ويفرحوا ويبتهجوا لذلك الحكم الحر الجديد المدهش الذى بدا بصورة مفاجئة، مثل فجر بعد ليل طويل مخيف. وتحررت الصحافة، فى ظل رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة، من قيودها القديمة، وراحت تبادر بنشر الأخبار على وجه السرعة، وبذلك تمكن الناس من التجمع والكلام فى كل مكان من البلاد، بلا خوف من الجواسيس أو من تدخل الشرطة. هذا الإحساس بالفرح والسرور عم الطبقات كلها، عم المسلمين والمسيحيين واليهود، وأتباع الأديان المختلفة وأتباع الأعراق المختلفة، كما عمت هذه الفرحة أيضًا عددًا كبيرًا من الأوروبيين المتصلين اتصالاً وثيقًا وحميمًا بالحياة الوطنية. يضاف إلى ذلك أن القناصل الأجانب لم يجدوا أمامهم سوى الاعتراف بأن العهد الجديد أفضل من العهد القديم، وأن رياض باشا قد ارتكب أخطاء، وأن عرابيا إذا لم يكن على حق تمامًا، فإنه لم يكن مخطئًا تمامًا أيضًا.

كان موقف أحمد عرابى من كل من الخديو والوزراء الجدد موقفًا صحيحًا ومحترمًا. حضر أحمد عرابى لقاءات عدة مع الخديو توفيق؛ هذه اللقاءات كانت تثبت من جانب أحمد عرابى، أن الرجل شخصية أليفة وودودة. أما موقف الرجل مع كل من شريف ومحمود سامى البارودى (الذى أعيد وزيرًا للحربية) فقد بينت بشكل واضح، أنه كان يريد، بعد أن قام هو بعمله، وبعد أن حصل البلد على حريته، أن يتنحى ويترك أمر ترقية البلد لأصدقائه المدنيين. كانت خطابات أحمد عرابى كلها فى ذلك الوقت – ويمكن العثور على بعض منها فى الكتب الزرقاء- تدور حول هذا المعنى، وتوضح أن عرابيًا كان مشبعًا تمامًا بتلك الآراء الإنسانية الرومانسية الراقية، التى كانت تشكل معلما رئيسيا فى حياة الرجل السياسية. هذه الآراء لا تقوم على شىء سوى التعاطف الكبير مع أفراد مختلف الطبقات والنحل، كما يصعب أن تجد فيها أثرًا للسخط على المراقبة المالية الأوروبية، بل إن الرجل كان يعترف عن طيب خاطر بتأثير هذه المراقبة الطيبة على مصر. لقد مضى وولى ذلك الحكم التركى المطلق القديم – هذا هو الموضوع الرئيسى فى معظم

خطابات أحمد عرابى كلها – وبدأت فترة جديدة من الحرية الوطنيـــة، والـــسلام، وحســـن النية للنـــاس جميعًا. وبعد أسبوعين من تولى شـــريف باشـــــا منـــصب رئيس الـــوزراء، وغادر عرابى القاهرة على رأس كتيبة متجهًا إلى رأس الـــوادى Ras El-Wady وسط حماس عارم من مدينة تعبر عن الشكر والامتنان.

لم تظهر فى ذلك اليوم سوى سحابة واحدة فى السماء المصرية، تشير إلـــى احتمال معاداة السلطان لفكرة الدستور. كان السلطان عبد الحميد، بعد أن تلاعـــب فترة بالمسألة الدستورية فى إسطنبول، قد بدأ يكشف عن عدائه اللدود لهذه المسألة، بل إن الرجل، فى صيف ذلك العام، أصدر أوامر بمحاكمة مدحت باشا، محاكمـــة صورية وإدانته، ومعروف أن مدحت باشا كان مـــن أهـــم المـــدافعين عـــن فكـــرة الدستورية، يضاف إلى ذلك ظهور ما يسمى باللجنة الخاصة Special Commission التى زارت القاهرة فى مطلع شهر أكتوبر، وكانت تمثل السلطان، والـــذى خولهـــا سلطة التحقيق والتحرى فيما جرى ويجرى فى مصر، الأمر الذى حيـــر العقـــول، كما أنه عجّل أيضًا برحيل عرابى إلى رأس الوادى ورحيل عبد العال حلمى إلـــى دمياط. ومع ذلك، مرت زيارة اللجنة مرورًا هادئًا. واستطاع الوزراء الجدد تقـــديم تفسير مفاده أن الحركة السياسية الجديدة هى عبارة عن حركة وطنية تمامًا، وأنهـــا لا تنطوى على معاداة السلطان ولا على عدم الإخلاص له. وعلى العكس من ذلك، نجد أن مصير تونس أقنع المصريين أن سلامتهم الوحيدة من الغـــزو الأوروبـــى تتمثل فى تقوية، ارتباطهم بالإمبراطورية العثمانية وليس إضـــعافه، وأن الهـــدف الحقيقى من الثورة هو منع السيطرة المالية من كل من فرنسا وإنجلترا من إحـــداث المزيد من التعدى على استقلال مصر السياسى. وقالت اللجنة أيضًا: إن كل شـــىء على ما يرام، وأن البلاد أصبحت قانعة وراضية وهادئة. وبناء على ذلك، استطاع على نظامى Nizami باشا، رئيس اللجنة، أن يعود إلى إسطنبول حاملاً معه تقريرًا طيبًا عن الموقف، وقد أكد هذا التقرير أيضًا أحمد باشا راتب، الـــذى تهيـــأت لـــه فرصة التحدث شخصيا مع أحمد عرابى وهو فى طريقه إلى كـــل مـــن الـــسويس ومكة.

وكان لقاؤهما، الذى كانت له نتائج مهمة فيما بعد علـــى تطــور الموقــف السياسى، قد حدث بالقطار فيما بين الزقازيق والتل الكبير؛ وقد أكــد لــى أحمــد عرابى من ناحيته على هذا اللقاء، وقال: إنه كان لقاءً طارئًا، حدث فى أثناء ذهابه إلى الزقازيق لزيارة صديقيه أحمد أفندى الشمسى، وسليمان باشا أباظة، وأنه كــان عائدا من الزيارة. قال لى: "فى أثناء عودتى بالقطار إلى رأس الوادى، تصادف أن كان أحمد باشا راتب فى طريقه إلى السويس، لأنه كــان ذاهبــا إلــى مكــة لأداء فريضة الحج. ووجدت نفسى فى عربة واحدة مع الرجل، وتبادلنا التحية كما لو كنا غرباء وطلبت إليه أن أعرف اسمه، وطلب هو الآخر منــى أن يعــرف اســمى، وأخبرنى الرجل عن حجه وعن أشياء أخرى. لكنه لم يتحدث عن المهمة التى كان مكلفًا بها مع الخديو، وأنا بدورى لم أسأله عن ذلك. لكننى قلت لــه: إننــى مــوالٍ للسلطان ومخلص له باعتباره خليفتنا، وحكيت له أيضًا كل ما حدث، وقــال لــى: (خيرًا فعلت). وتركت أحمد باشا راتب عندما جاءت محطة رأس الوادى، وأرسل لى الرجل مصحفًا من جدة بعد ذلك، وبعد عودته إلى إسطنبول كتب لــى رســالة يقول فيها إنه تكلم فى حقى كلامًا طيبًا مع السلطان، وأخيرًا وصلتنى الرسالة التى أملاها السلطان على الشيخ محمد ظافر يخبرنى فيها بالأشياء التى تعرفهــا". هــذا يعنى أن اللجنة العثمانية قد مرت دون أن تسفر عن أى شىء من المتاعــب. وقــد تصادف ذلك مع وصول لنشين مسلحين أحدهما فرنسى والثانى إنجليزى، إلى ميناء الإسكندرية؛ هذان اللنشان المسلحان كانا قد صدرت لهما أوامر حكومتيهما بالتوجه إلى الإسكندرية عقب أن علمت الحكومتان بنبأ مظاهرة عابدين؛ وقد غادر اللنشان الميناء هما والمفوضان فى اليوم نفسه من شهر أكتوبر. كان ماليت Malet قد عاد فى ذلك الوقت إلى منصبه ووظيفته، كما عاد أيضًا سنكويز Sinkiewicz، واتفــق الاثنان على أن الأمر لا يحتاج إلى التدخل المباشر. وكتب ماليت فى ذلك الوقــت، كلامًا طيبًا إلى حكومته عن كل من الوزراء الجدد وعن عرابــى، وعــن أمانتــه ووطنيته، على الرغم من أنه لم يتصل به شخصيا، وكذلك أنه يؤمن بوطنية ذلــك الرجل ويثق فى أمانته.

وقد عدت إلى القاهرة في مطلع شهر نوفمبر عند تطور الأمور على هذا النحو في مصر. لم أكن قد تسلمت أية أخبار جديدة من أصدقائي في الأزهر، ولم أكن على علم بما جرى هناك طوال فصل الصيف، غير ما هو معروف للعالم كله؛ يضاف إلى ذلك أني عندما غادرت لندن لم أكن أنوي أكثر من مجرد المرور عبر قناة السويس في طريق عودتي (لأن تلك كانت خطتي في الشتاء) إلى الجزيرة العربية. كنت شديد الاهتمام بالأزمة الدائرة في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وكنت لا أزال أتطلع إلى القيام بدور شخصي في الأحداث الكبيرة التي توشك على الوقوع، غير أن هذه الأحداث التي لم أكن أعرفها، يمكن أن تكون عاملاً مساعدًا لحرية البلاد الإسلامية والعربية.

عندما حدث في الجزائر تمرد وعصيان على أثر الغزو الفرنسي لتونس، كنت قد كتبت لصديقي السيد محمد عبد القادر في دمشق طالبًا منه تقديمي لزعيم ذلك التمرد والعصيان، المدعو أبو يمامة Abu Yemama، لكن محمد عبد القادر لم يقدر على ذلك، وحاولت أيضًا وبلا طائل، العثور على المكان الذي يوجد فيه الشيخ جمال الدين الأفغاني في أمريكا، التي قيل إنه ذهب إليها بعد تجوال دام عامين في الهند، وهنا وجدت أفكاري تحملني مرة ثانية إلى الجزيرة العربية التي أصبحت أنظر إليها باعتبارها أرضًا مقدسة، أو بالأحرى مهد الحرية الشرقية، والدين الحقيقي. والغريب حقا أنني لم أشك أنه في أثناء الحركة الوطنية في مصر أصبح اهتمامي الكبير بالإسلام يبدو لي وكأنه شيء في متناولي تمامًا، وأن المصادفة البحتة هي جعلتني أقوم بدور فيما سيأتي حتى إن كان ذلك من موقف المتفرج.

سبب هذا التشويش واللامبالاة هو أن الأحداث التي وقعت في شهر سبتمبر، جرى تصويرها في لندن، من خلال الصحافة على أنها أحداث عسكرية صرفة، بل إن وزارة الخارجية البريطانية نفسها لم يكن لديها علم بالمغزى الحقيقي لهذه الأحداث. وأنا أشترك مع محبي الحرية في عدم الوثوق بالعسكر المحترفين باعتبارهم أبطالاً لأية قضية من القضايا باستثناء مسألة الاستبداد؛ وكان من

الصعب الاعتقاد – مثلما فعل ماليت Malet – بأن عرابيا كان شريف القصد فيما قام به. وعرفت أيضا أن الشيخ محمد عبده وبقية أصدقائي الأزهريين، كانوا يساندون انتهاج وسائل أخرى غير الوسائل العنيفة، وأن الإصلاحات التي كانوا يدعون إليها منذ زمن طويل، سوف يستغرق تنفيذها زمنا طويلا. وعز على هؤلاء الأصدقاء أن يفهموا أن أحداث صيف واحد كانت كفيلة بإحداث شيء من النضج فيما بينهم. وفيما يتعلق بالدستور الموعود، قالت الصحافة اللندنية، إن ذلك الوعد كان مجرد كلام، أو بالأحرى ذريعة من قبيل الذرائع التي أفاد منها الخديو إسماعيل السابق في مواجهته لويلسون Wilson؛ وقيل أيضا إن ماليت Malet أعلن هو الآخر أن الدستور سيظل مجرد وعد، والسبب في ذلك أن السلطان Sultan الذي قابله ماليت في إسطنبول وهو في طريق عودته إلى مصر، لن يسمح بذلك.

زادت اللجنة العثمانية من عدم ثقتي بالحركة كلها، وكذلك بحقيقة أن عرابيًا كان قد طالب بزيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ (ثمانية عشر ألف رجل). هذان الرأيان كانا هما السائدين في إنجلترا في ذلك الوقت، وليست لديَّ أية معلومات خاصة يمكن أن تكذبهما أو تصححهما. أذكر أنني قبل أن أغادر لندن بفترة قصيرة، وعندما قمت بزيارة ابن عمي فيليب كوري Philip Curie في وزارة الخارجية، أنه فاجأني بالتعبير عن رأي مفاده أنه ربما كان هناك في الحركة الوطنية في مصر، شيء أكثر مما يبدو على السطح. وأضاف: "ماليت يغلب عليه الآن تصديق ما يجري. وأنا أتساءل لم لا تذهب إلى هناك. وربما وجدت في عرابي ذلك الرجل الذي تبحث عنه". كان ابن عمي يعرف أفكاري بطبيعة الحال، تلك الأفكار التي لم يأخذها مطلقًا مأخذ الجد، ويرى أنها ليست أكثر من مجرد خيال رومانسي، يضاف إلى ذلك أن كلام ابن عمي كان فيه شيء من الاستخفاف وضحكنا سويا بلا نقاش. ومع ذلك رحت أستعيد تلك الأفكار وتعجبت من أني لم استجب لتلك الأفكار استجابة كاملة. يزاد على ذلك، أن أفكاري كانت متمركزة في اتجاه آخر.

يجدر بى هنا القول إننى قبل أن أبدأ تحركى فى حفل عشاء أقيم فى نـادى الرحالة Traveller فتمتعت بلقاء ثلاثة من أصدقائى الحميمين فى ذلـك الـوقت: جون مورلى John Morley، الذى أصبح محررًا فى جريـدة "بول مول جازيـت" Pall Mall Gazette، إضافة إلى كونه محـررًا فـى مجلـة "فورتنـايتلى ريفيـو" Review Fortninghtly، والسير ألفريد ليل Sir Alfred Lyall، وقنصلنا فـى جـدة السيد زوهراب Zohrab. وجرى بينى وبين هؤلاء الثلاثة حديث طويل عن الشئون الشرقية والإسلامية، واتفقت أنا ومورلى Morley على أننى إذا ما وجدت الإصلاح العرابى على الشكل الذى أبتغيه وجب علىَّ إبلاغ ذلك إلى مورلى، وسـيقوم هـو ببذل قصارى جهده ليضع حججه أمام الجمهور الإنجليزى. لم يكـن مـورلى قـد وصل بعد إلى البرلمان، ولكنه كان يشغل بالفعل منصبا مهما فى الحكومـة، مـن خلال علاقته الشخصية بتشمـبرلين Chamberlain؛ كانت صحيفته "بـول مـول" Pall Mall، واحدة من الصحف القليلة التى يقرؤها جلادستون Gladstone، وربمـا كانت الجريدة الوحيدة، فى اعتقادى، التى يثق جلادستون فى صدقها. كان العـشاء طيبا، وكان لنا جميعا آراء حماسية حول احتمالات تتعلق بمستقبل الإسلام. وفيمـا يتعلق بمصر، كان مورلى واقعا تحت تأثيرات أخرى غير تأثيراتى. وكان مراسل جريدة "بول مول Pall Mall" هو المفتش Controller المالى، السير أوكلاند كولفن Auckland Colvin، وعليه عندما حدثت الأزمة فى فصل الربيع اتضح أنـه يقـف على الجانب الإنجليزى الرسمى والمالى، وذلك على العكس مما كان يُنتَظـرْ منـه تمامًا؛ بل إنه كان من بين عتاة المؤيدين للإجراءات العنيفة فى قمع الحرية.

فى طريقى إلى مصر، وقع حادث سوف أعود إليه عندما يحين موعد النظر فى أهميته. فى محطة شـيرنج كـروس Charing Cross، وجـدت ديلـك Dike وسكرتيره الخاص، أوستن لى Austin Lee، فى طريقهما، إلى باريس، مثلى تمامًا، وعليه قطعت الرحلة كلها مصاحبًا لهما. كان ديلك فى تلك الليلة فى أعلى حالاتـه النفسية المعنوية. كان صديقه الحميم جامبتا Gambetta قد خلف، فى الخامس عشر من شهر نوفمبر، سانت هيلير Hilaire كرئيس للوزارة الفرنسية؛ أما ديلـك الـذى كان فى فرنسا يشغل منصب المفوض الإنجليزى فى باريس على امتـداد الأشـهر

السنة الأخيرة؛ كان يقوم بالتفاوض لتجديد المعاهدة التجارية مع فرنسا، ولكنه لم ينجح في ذلك حتى ذلك التاريخ؛ هذا الرجل كان عائدًا إلى عمله وهو على ثقة بأنه بعد التغيير الذى حدث فى كيه دوروسيه (مقر الوزارة الفرنسية) Quai D'orsay، لن يواجه أية مصاعب في مهمته. فمن ناحية جامبتا فقد كانت لديه خطة خاصة به، كما أن ديلك Dilke باعتباره وكيلاً للوزارة فى وزارة الخارجية، يمكن أن تكون له فائدة كبيرة فى هذه الخطة. كان سانت هيلير قد صنع مشكلة كبيرة من غزو تونس، حين ترك شمال أفريقيا كله مشتعلاً كي يتعامل معه ذلك الذى سيخلفه. بعد أن وصل جامبتا إلى المنصب قرر اتخاذ إجراءات قوية، أو كما يقول الناس: قرر "لم أطراف شجاعته لمواجهة الأزمة الشديدة بحزم وعزم"، ووضع الأمور كلها بين يديه. كان جامبتا خائفًا تمامًا من قيام انتفاضة جامعة إسلامية عامة، ورأى في الحركة الوطنية الجديدة فى القاهرة دليلاً جديدًا وخطيرًا على حركة إسلامية "متطرفة". يضاف إلى ذلك أن جامبتا، بحكم أصله اليهودى، كان على علاقة وثيقة أيضًا بالمصالح المالية الكبيرة التى لها علاقة بمصر؛ ومن ثم عقد الرجل العزم على أن يبرر غزو سانت هيلير لتونس بالحث على التدخل أيضًا فى مصر. كان جامبتا يهدف من وراء ذلك إلى انضمام حكومتنا إليه والاشتراك في حملة صليبية على الإسلام تحت اسم الحضارة، على أن يكون ذلك بمثابة أول إجراءات تقوية قبضة السيطرة الأوروبية المشتركة على القاهرة. كان ديلك كثير الكلام حول هذين الأمرين، المعاهدة ومصر، على الرغم من عدم وضع النقاط على الحروف، وكان يتعامل مع المعاهدة باعتبارها مصلحة إنجليزية خاصة، فى حين كان ينظر إلى مصر باعتبارها مصلحة فرنسية خاصة. كانت المسألة تتعلق بالشرف الحزبى للحكومة الليبرالية، التى كانت بالقطع حكومة تجارة حرة، كى تثبت للعالم أن تصريحاتها عن التجارة الحرة لم تمنعها من الحصول على المقايضة بالمثل من الدول الأخرى، أو الحصول على شروط تجارية أفضل، وكان ديلك يعرف أن تمكنه من تحديد الامتيازات والحقوق الفرنسية سيكون غُرّة فى جبينه. كان مهتما جدا بهذه العملية إلى حد أنى سمعته يقول وهو يحدثنى بصوت منخفض، عندما كنا نفترق فى محطة "جار دو نورد" Gare Du Nord:

"هذا الرجل يود أن يبيع مصر مقابل معاهدته التجارية". والحقيقة لم تُكذِّب ذلك، بل إنها أثبتت أن هذا الكلام كان نبوءة حقيقية. وسوف يتضح لنا بعد فتـــرة قليلـــة، أن حكومتنا الليبرالية ضحت بمسألة الحرية في مصر وبالإصلاح الإسلامي في العالم كله تقريبا نظير الحصول على بعض المزايا التافهة المتمثلة في بعض التخفيضات في جمارك السلع البريطانية الواردة إلى فرنسا. وبذلك تكون الحكومة قد ضـــحت بمكانتها.

كان سفري إلى القاهرة في ذلك الشتاء، كما ســـبق أن أوضـــحت، مـــسألة عرضية، أو بالأحرى مسألة تتعلق بإرادة العناية الإلهية، إذ لم أعلق أهمية كبيـــرة على عملي في مصر، وإعطائه مغزى ومعنى كبيرين، فالسفينة التي كان مقـــررًا ليا أن تنقل خدمي ومتعلقاتي بعد أن كادت تغوص في خليج بسكاي، شحطت فـــي قناة السويس مما اضطرني إلى الانتظار في السويس. سافرت من الـــسويس إلـــى القاهرة، بغرض الإقامة فيها أيامًا قلائل. كانت لندن قد بلغها أن علمـــاء الأزهـــر صاروا يتراجعون عن أفكارهم الخاصة بالإصلاح، وأنهم أصـــبحوا الآن يعتنقـــون أفكار السلطان الرجعية عن الجامعة الإسلامية. ولما كان الشك يراودني حول هـــذا الأمر، فقد قمت بإرسال رسالة إلى صديقي الأول في جامعة الأزهر، الشيخ محمد خليل، ثم حدث بعد ذلك حادث عجيب. ردا على الطلب الذي وجهته إليه للحضور للقائي في فندق النيل، الذي كنت أنزل فيه، فوجئت بشيخ آخر من شيوخ الأزهـــر يأتيني بدلاً من العالم الشاب الذي أعرفه حق المعرفة، كان ذلك الشيخ الذي جاءني يحمل اسم الشيخ محمد خليل الهجرسي، الذي هو غريب عليَّ تمامًا، وحياني تحية الغريب. كان هذا الزائر الجديد قد تسلم رسالتي؛ واعتقادًا منه أنها جاءته من تاجر أوروبي كانت له معه بعض المعاملات، المتعلقة بقريته في الشرقية، الأمر الـــذي جعله يهم لملاقاة مرسل الرسالة. هذا الشيخ محمد الهجرسي، على الرغم من أنـــه أقل أهمية من صديقي الحقيقي؛ فإنه كان شخصا مهما إلى حد مـــا فـــي الأزهـــر، وثبت لي أنه كان مهمًا عندي في تلك اللحظة أكثر من الشيخ محمد خليل، وذلـــك من منطلق أن الشيخ محمد خليل الهجرسي كانت له علاقات حميمة مع مـــا كـــان يسمى في القاهرة في ذلك الوقت باسم الحزب العسكري في القاهرة، وكان أيـــضًا

يعرف أحمد عرابى معرفة شخصية. لم يكن محمد خليل الشاب، وهذا هو ما اكتشفته على الفور، هو أو رئيسه الشيخ محمد عبده، قادرين على خدمتى فى لعب دور الوسيط مع أعضاء الحزب العسكرى فى القاهرة، لأنهما مثلما أوضحت، كانا غير موافقين على إقحام الجيش فى الشئون السياسية فى شهر سبتمبر، وعلى الرغم من ابتهاجهما بالنتيجة فإنهما بقيا متحفظين. على كل حال، وبعد أن أفاق الهجرسى من دهشته بعد أن وجد أنى رجلاً إنجليزيا، ولست الرجل الذى كان يتوقعه أو ينتظره، لم يجد غضاضة فى الحديث عن عرابى وعن أعماله، وعندما بدأت أشرح له آرائى عن الإصلاح على أسس عربية، وثق الرجل بى أكثر وشرح لى آراءه التى لم تكن مختلفة عن آرائى. كان الهجرسى واحدا من كبار مشايخ الأزهر، على المذهب الشافعى، على حد قوله، وكانت له علاقة وثيقة بحزب الإصلاح الليبرالى فى مكة، الذى كان يعارض السلطان عبد الحميد معارضة علنية، وكان يتطلع إلى خليفة جديد عربى. كانت هذه النقطة محلا لتعاطفنا نحن الاثنين، وسرعان ما بدأنا نتبادل آراءنا كلها؛ وأنا أرى أنه ليس هناك دليل على حرية الفكر وحرية الكلام اللتين ميزتا تلك الأيام فى مصر، أفضل من أن يقوم هذا الشيخ المتدين البارز، الذى كان يحتبس أسراره فى صدره قبل عام، لم يسر بها إلى أى أحد من أصدقائه، بإطلاق العنان للسانه ليتحدث بطلاقة ردا على أسئلتى، مفضيًا لى، وأنا الأوروبى الغريب عليه تمامًا، بأخطر آماله فى مجال السياسة. يرجع هذا الانفتاح إلى حد ما، إلى وجود صابونجى، المدرس القدير الذى كان يعطينى دروسًا فى اللغة العربية، والذى جلبته معى من لندن ليساعدنى على اكتساب هذه اللغة.

وبذلك أكون قد تمكنت عن طريق الهجرسى من معرفة تفاصيل ذلك الذى كان يدور فى القاهرة خلال الصيف، وعرفت أيضًا الموقف الحقيقى للعسكر فيما يتعلق بالحزب الوطنى، هذه الحقائق تأكدت لى فيما بعد من بعض المصادر الأخرى بما فى ذلك أصدقائى الحقيقيين محمد خليل ومحمد عبده. كان صابونجى، الذى يتمتع بعبقرية خاصة فى هذه الأعمال، مشغولاً فى ذلك الوقت بالتجول فى سائر أنحاء المدينة يبحث لى عن أخبار، إلى حد أننا تمكنا خلال أيام قلائل أن نعرف فيما بيننا كل ذلك الذى كان يدور فى المدينة. يضاف إلى ذلك أننا استطعنا

خلال وقت قصير التعرف إلى بعض الضباط الفلاحين الذين شاركوا أحمد عرابى فى مظاهرته، وبخاصة مع عبد دياب وعلى فهمي، اللذين تأثرت بهما تأثرا طيبًا. كانت الأمور التى يدور من حولها النقاش فى تلك الأيام تتمثل أولاً فى: شخصية الخديو – وهل يمكن أو لا يمكن الوثوق به، فى مسألة تحقيق الوعود التى قطعها على نفسه؟ لقد وعد الشعب بالدستور، لكن هل سيكون ذلك نقلا حقيقيا للسلطة إلى وزراء يكونون مسئولين أما نواب برلمانيين، أو مجرد دعوة إلى مجلس للأعيان له مجرد سلطات استشارية؟ كانت الشكوك تدور حول توفيق فى هذه المسألة، وكان الناس يعتقدون أن الخديو كان ينصح بالتخلص من هذا الالتزام، بعد أن جاءه ماليت Malet قادمًا من إسطنبول، وأعلن له أن السلطان لن يوافق مطلقا على قيام حكومة دستورية حقيقية.

كانت الطبقة المستنيرة من الوطنيين معادية عداءً مريرًا لأسرة محمد على كلها، وبخاصة ذلك الفرع الذى ينتمى إليه توفيق، وكذلك والده إسماعيل وجده إبراهيم، ذلك الجنس القاسى الخائن الذى جر على الفلاحين كثيرًا من الأوجاع، وحطم البلاد أخلاقيا وماليا، وتسبب عن طريق القيادة السيئة والتصرفات السيئة، فى حدوث التدخل الأجنبى. ثانيا، كانت هناك مسألة الإصلاحات. الآن وبعد أن تحررت الصحافة، بدأ الهجوم ينهال على الأخطاء الكبيرة على اختلاف أنواعها، كما بدأ ينهال أيضًا على السيطرة المالية الأجنبية، التى حابت الأوروبيين على حساب الأهالى؛ كما بدأ الهجوم أيضًا على المضاعفات التى لا لزوم لها الناجمة عن المناصب العالية التى يتقاضى فيها الأجانب وبخاصة الفرنسيون والإنجليز رواتب كبيرة؛ وبدأ الهجوم أيضا على سيطرة الأجانب والفرنسيين والإنجليز على إدارة السكك الحديدية، وعلى إدراة الأملاك التى انتقلت إلى أيدى ممثلى آل روتشيلد؛ وانصب الهجوم أيضًا على فضيحة الإعانة التى تقدر بتسعة آلاف جنيه إنجليزى فى العام، يجرى دفعها كل عام، لدار الأوبرا الأوروبية فى القاهرة. وقد تواصلت هذه الحملة، من جانب جريدة "الطائف" Taif، بصفة خاصة، التى كان يحررها شاب عبقرى مندفع ومتحمس، يدعى عبد الله النديم، على بيوت الدعارة والخمارات، ومغنيات المقاهى المبتذلات، وكل ما غزا القاهرة، فى ظل حماية

الامتيازات الأجنبية، الأمر الذى أحزن وأغضب المسلمين المتدينين. كانت تلك الجريدة أيضًا، تردد أصداء المرارة التى استشعرها المسلمون بسبب الغزو الفرنسى لتونس، والذى تأكد خلاله تدنيس المساجد واغتصاب النساء المسلمات. وعلى الرغم من ذلك، كانت المشاعر والعلاقات طيبة بين المواطن المسيحى والمواطن المسلم. كان الأقباط كلهم مؤيدين للثورة، وكان بطريارك الأقباط على علاقة حميمة بالوزارة التى كان بطرس باشا فيها عضوًا بارزًا ومحترمًا. يزاد على ذلك أن المواطنين اليهود هم وكبير أحبارهم، كانوا يؤيدون الإصلاح الدستورى. لقد كان الضباط يهتمون فى المقام الأول بزيادة الجيش الموعودة؛ تلك الزيادة التى أكد الضباط على أهميتها فى ظل ذلك الذى حدث فى تونس، التى وجد فيها الباى الحاكم نفسه، وهو غير مستعد تمامًا، يواجه قوة عسكرية كافية لغزو بلاده. كانت الزيادة القانونية المنصوص عليها فى الفرمان السلطانى الخاص بمصر، تصل إلى حوالى ١٨٠٠٠ رجل، ومن ثم رأى الضباط أن الجيش يجب أن يصل عدده إلى هذا العدد.

جاء تدخلى الباكر فى شئون الوطنيين، بشكل نشط، على النحو التالى. فى نهاية شهر نوفمبر أبلغنى صديقى الشيخ محمد الهجرسى عن استياء وغضب كان يجتاح طلبة الأزهر، وبخاصة أتباع المذهبين الشافعى والمالكى، وأنهم كانوا يريدون، فى واقع الأمر، عزل شيخ الإسلام، أو بالأحرى شيخ الجامع الذى يرأس المذهب الحنفى، ويدعى الشيخ محمد العباسى. والسبب وراء هذا العزل، هو أن الشيخ محمد العباسى الذى كان معينًا من قبل الخديو، لا يمكن الاعتماد عليه فى تقديم فتوى صحيحة، فيما يتصل بموضوع الحكومة الدستورية، وأن الطلاب يظنون أن الرجل سيجرى استغلاله فى رفض الفتوى التى تجيز هذا النظام الدستورى، الأمر الذى يجعل الخديو يتحلل من وعده.

كان المذهب الحنفى هو السائد فى المحاكم فى مصر، وكان الولاة الأتراك، قد اغتصبوا لأنفسهم، منذ عهد السلطان سليم، امتياز تعيين أعلى منصب دينى فى المحاكم، وكانت الحكومة تسمى دائمًا حكومة حنفية حتى أعلى المناصب فيها. لكن

السواد الأعظم من طلاب الأزهر، أى حوالى ١٥٠٠٠ طالب ينتمون إلى المذهبين الآخرين، ولذلك جرت محاولة، من باب مواكبة الأفكار الثورية القائمة فـي ذلـك الوقت، للعودة إلى الشكل القديم من أشكال التعيين، الذى يتم من خـلال الانتخـاب العام. قال لى الشيخ الهجرسي: إنه جاء إلىَّ يستشيرنى فى هذا الأمر، لأن هنـاك فكرة شائعة مفادها أن ماليت Malet كان يساند الخديو، فى تعضيده للشيخ العباسى، وفى خطته للتحلل من وعده الدستورى. كانت المشكلة فى نظر الهجرسي، تتمثـل فى ذهابى إلى ماليت واستخدام نفوذى لديه فى إزالة هذه العقبة، لأن ذلك سـيكون فى صالحهم. ووافقت فورًا على ذلك، لكنى اكتشفت أن ماليت كان جـاهلاً تمامًـا بهذا الأمر، وعلى استعداد للقول بأن مسألة الخلافات الدينية بـين العلمـاء كانـت خارج نطاق عمله، وأنه لن يتدخل لصالح أى جانب من الجـانبين. وفـى اليـوم الخامس من شهر ديسمبر، جرى عزل العباسى من منصبه بسبب أصوات الطلبـة ونداءاتهم، وجرى تعيين شيخ شافعى، هو الشيخ الإمبابى، خلفًا للعباسى. لـم يكـن الشيخ الإمبابى، هو المرشح الأكثر شعبية، نظرًا لأن غالبية الطلبة كـانوا ينـادون بتعيين الشيخ عليش مالكى المذهب؛ والشيخ عليش هذا كان رجلاً وافر الـشجاعة وشديد التدين، وقد لعب بعد ذلك دورا قياديا فى أثناء الحرب، وتوفى فى الـسجن خلال الشهر الأول من الاحتلال البريطانى، ويعتقد الناس أنه مات مـسمومًا كمـا اتضح من الشهادات التى ألقيت فى أثناء محاكمة عرابى. كان الشيخ الأمبابى، أقل من الشيخ عليش كفاءة، وقد حصل على هذا المنصب نتيجة حل وسـط، بعـد أن رفض الخديو تعيين عليش، فقد صَوَّتَ أربعة آلاف طالب فى ذلك الانتخـاب ولـم يمتنع عن التصويت سوى خمسة وعشرين طالبًا.

هذه الخدمة البسيطة التى قدمت لهم، ولَّدت الثقة فى نفوس أصـدقائى بـين الوطنيين، الثقة فى قدرتى ورغبتى فى خدمتهم، ولذلك طلبوا منى تأجيـل رحيلـى والبقاء بضعة أسابيع لمساعدتهم فى المشكلات التى قد تواجههم. وقد وافقت علـى ذلك عن طيب خاطر، نظرًا لأنى رأيت فى تطور هذه الحركة انسجامًا كبيرا جـدا فى أفكارى من ناحية، وأننى من ناحية أخرى يمكن أن أفيد هـذه الحركـة فائـدة

حقيقية، كشارح ومفسر لمطامحها المشروعة تمامًا، لدى كل مــن ماليــت Malet والوكالة البريطانية من ناحية ولدى جلادستون فى إنجلترا من الناحية الأخرى.

كنت ألتقى ماليت يوميا تقريبا طوال الأسابيع القلائل التى تلت ذلك، وأصبح لى تأثير كبير على الرجل. وعلى الرغم من أنه كان متعاطفًا مع الــوطنيين، فقــد وجدت أن لديه معلومات مغلوطة عن آراء الوطنيين وأهدافهم. لــم يكــن الرجــل يعرف من زعماء الوطنيين سوى شريف باشا، وكان الرجل يعتمــد فــى تــسيير الأمور على ما كان الخديو وشريف باشا يريان أنه هو الأنسب، وبالتالى يخبرانــه به. لم يكن لدى ماليت أحد يمكن أن يعتمد عليه، فى إبلاغه بذلك الذى يــدور فــى الشارع الليم باستثناء الترجمان اليونانى أرانجي Aranghi، الذى كان يتصيد أخباره من المقاهى ومن الحى الأوروبى. وبذلك تصبح وسائل الرجل فى فهــم الموقــف قاصرة؛ يزاد على ذلك أن زميله الفرنسى سنكفكز كان على شاكلته. كان ماليت فى حيرة بالغة فيما يتعلق بالرغبات الحقيقية لحكومته. كان اللورد جرانفيل قد أرســل لماليت الرسالة الشهيرة المؤرخة باليوم الرابع من شهر نوفمبر، والتى صرح فيها جرانفيل بشكل غامض عن تعاطف حكومة صاحبة الجلالة مع الإصــلاحات فــى مصر. لكن ذلك يمكن أن يعنى أى شىء، ولم يكن ذلك الكلام مرشدًا أو دليلاً إلــى الموقف الذى يتعين على ماليت اتخاذه فى حال نشوب صراع جديد بــين الخــديو والوطنيين أو بين هذين المراقبين الماليين. يزاد على ذلك أن ماليت كان متــشككًا فى رأى جلادستون فيما يتعلق بمسألة الدستور. من هنا، كان الرجل يتطلــع إلــى العثور علىّ باعتبار أن لدى سياسة معينة وواضحة، وأن هذه السياسة تتمثــل فــى وجوب مساندة ماليت للوطنيين.

استطعت أيضًا أن أؤكد لماليت أن جلادستون، رئيس الوزراء، إذا ما علــم بالحقائق، لا يتحتم أن يكون فى جانب الدستوريين. وقد حظى ما قلته لماليت بتأييد كثير من أصدقائى الإنجليز، الذين وجدتهم فى القاهرة، عندما كانوا يزورونها فــى فصل الشتاء، واستطعت إقناعهم بآرائى وأفكارى. كان مــن بــين أبــرز هــؤلاء الأصدقاء عضوان سابقان من أعضاء مجلس العموم: اللورد هوتــون Houghton،

الذى كان فى مطلع حياته مؤيدًا عتيدًا ومساندًا متحمسًا للحرية فى الشرق، والسير وليام جريجورى أحد أتباع جلادستون القدامى، وهو ليبرالى شهير. وفى منتــصف شهر ديسمبر كنت قد نجحت فى جعل العناصر الإنجليزية الموجودة فى القــاهرة، توافق على رأيى فى هذه القضية. أضف إلى ذلــك أن الــسير أوكلانــد كــولفن، المراقب المالى الإنجليزى، الذى سبق له قبل ثلاثة أشهر أن نصح الخديو باغتيــال عرابى رميًا بالرصاص، أعلن هو الآخر ارتداده عن رأيه السابق، وأصبح ميــالاً إلى تحسين علاقته مع الثورة.

الفصل الثامن

سياسة جامبيتا، المذكرة المشتركة

في اليوم السادس من شهر نوفمبر، وصل عرابي إلى القاهرة قادمًا من رأس الوادي Ras-El-Wady، ذلك الموقع العسكري القريب من التل الكبير، والتقيته لأول مرة في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر. كان أحمد عرابي قد استأجر منزلاً قريبًا من منزل علي فهمي، الذي أصبح معه قلبا وقالبًا، ولا يبعدان كثيرًا عن ثكنات عابدين العسكرية. كان ذلك، إذا لم تخنى ذاكرتي، بصحبة عيد دياب Diab، وكان معي أيضًا صابونجي وذهبنا ثلاثتنا إلى الرجل، وكان قد تم الاتفاق مع بعض أصدقائي على قيامي بهذه الزيارة. كان عرابي في ذلك الوقت في قمة شعبيته، إذ كانت البلاد بطولها وعرضها تتكلم عن عرابي باعتباره "الوحيد" El Wahid، وكان الناس يتدفقون على القاهرة من سائر الأنحاء لكي يضعوا أمامه مشكلاتهم ومتاعبهم. كانت غرفة عرابي الخارجية تغص بالشاكين، كما كان مدخل المنزل من الشارع يغص أيضًا بالشاكين، وكان الحال على هذا المنوال طوال الأيام كلها. كان أحمد عرابي قد سمع عني بالفعل باعتباري متعاطفًا وصديقًا لقضية الفلاحين، واستقبلني الرجل بكل الترحاب، وراح يتكلم معي بصفة خاصة، في حدود ما بلغه عني، عن علاقة أسرتي باللورد بايرون Byron، الذي على الرغم من عدم معرفته أي شيء من شعره، فإنه يكن له تقديرًا عظيمًا لما ألفه عن الحرية في اليونان. هذه النقطة جديرة بالملاحظة، لأنها تشير إلى موقف عرابي من الإنسانية بشكل عام دون تحيز للعرق أو الدين. لم يكن في الرجل أي شيء من التطرف، إذا كان التطرف يعني الكراهية الدينية، وكان الرجل على استعداد دائم للتعاون في مسألة الحرية مع اليهود، والمسيحيين، وكذلك الكفرة، على الرغم من ورعه وتقواه الواضحة.

تحدثت مع عرابي فترة طويلة بلا تحفظ، وتكلمنا في الموضوعات السائدة في تلك الأيام، ووجدت الرجل صريحًا وواضحًا. كان يعرب عن احترامه الكامل للخديو، وولائه له وكان يقول: "طالما حافظ (الخديو) على وعوده، وما دام

لم يحاول حرمان المصريين من الحرية التي وُعِدُوا بها". لكن كان من الواضح أن عرابيًا لا يثق بالخديو ثقة مطلقة، ووجد أن من واجبه أن يضع الخديو نصب عينيه مخافة الانحراف عن المسار المحدد. وفي الخطاب أو الرسالة التي كتبتها بعد ذلك مباشرة، أو بالتحديد في اليوم العشرين من شهر ديسمبر، للسيد جلادستون Gladstone، بعد أن التقيت بأحمد عرابي مرات عدة وتحاورنا سويا، قلت: "الأفكار التي يعبر عنها عرابي ليست مجرد تكرار للعبارات السائدة في أوروبا في الوقت الحالي، لكن أفكار الرجل مبنية على معرفة التاريخ وعلى الموروث الليبرالي في الفكر العربي، الموروث من أيام حرية الإسلام. وهو يفهم ذلك الإسلام بالمعنى الواسع(*) الذي وجد قبل مجيء محمد ﷺ، كما يعرف أيضًا رابطة العبادة المشتركة للإله الواحد الذي يربط عقيدته مع كل من اليهودية والنصرانية. وأنا أعتقد، أن أحمد عرابي ليس له مطامع شخصية من أي نوع، وليس هناك شك في ولاء الجيش والبلاد له.... والرجل يتحدث بتواضع شديد عن منصبه؛ يقول عرابي: "أنا ممثل الجيش لأن الظروف هي التي جعلت الجيش يثق بي؛ لكن الجيش نفسه ليس سوى ممثل للشعب، والجيش هو حارس ذلك الشعب إلى أن يجيء الوقت الذي يصبح الشعب فيه غير محتاج للجيش. نحن في الوقت الراهن نشكل القوة الوطنية الوحيدة التي تقف بين مصر والحكام الأتراك، الذين يمكن أن يجددوا في أية لحظة، إذا ما سنحت لهم الفرصة بذلك، تلك المظالم التي سادت في زمن إسماعيل باشا. السيطرة الأوروبية لا تعارض ذلك معارضة تامة، ولا تحاول تثقيف الناس في مسألة الحكم الذاتي استعدادًا لليوم الذي تتخلى فيه هذه السيطرة الأوروبية عن الرقابة المالية. هذا شيء يتعين أن نراه. لقد انتصرنا للشعب وللناس في حقهم في الكلام في مجلس النواب (الأعيان) Assembly Notables، ونحن نحرسهم منعًا من مداهمتهم أو تخويفهم كي يتركوا هذا المجلس. ونحن في ذلك لا نعمل من أجل أنفسنا وإنما من أجل أطفالنا ومن أجل أولئك الذين يثقون بنا ... نحن العسكر في وضعنا الحالي مثل أولئك العرب الذين لبوا نداء الخليفة عمر ﷺ،

(*) يقصد مسألة الوحدانية. (المراجع)

فى أواخر حكمه، عندما سألهم عما إذا كانوا راضين أو غير راضين عن حكمـــه، وعما إذا كان يسير أو لا يسير على طريق العدالة المستقيم. قالوا لـــه: "يـــا ابـــن الخطاب، لقد مشيت على الطريق المستقيم فعلاً، ونحن نحبك. لكنك تعرف، أننا لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا". وأنا على ثقة أن عنفًا من هذا القبيل لن يحدث وغير لازم. ونحن المصريين لا نحب الدم، ونتمنى ألا نهدر دمًا؛ وعنـــدما يـــتعلم برلماننا كيف يتحدث، سوف تنتهى مهمتنا. لكن إلى أن يجيء ذلك الوقـــت، نحـــن مصممون على المحافظة على حقوق الشعب مهما كان الثمن، ونحن لا نخاف، فى مواجهة كل أولئك الذين يودون إسكات الشعب طالما أن الله معنا".

هذه اللغة، المختلفة تمامًا عن اللغة التى يستخدمها السياسيون الشرقيون، فى حوارهم مع الأوروبيين، أثرت فيَّ تمامًا، وجعلتنى أدرك ذهنيا ذلك التناقض الحاد بين عرابى وبطل الحرية الآخر، مدحت باشا، الذى سبق أن التقيته وتحدثت إليـــه فى دمشق، وكان ذلك التناقض وتلك المقارنة لصالح أحمد عرابى. لم يكـــن لـــدى عرابى كلامًا فارغًا عن الخطوط الحديدية، أو الترع، أو الترام باعتبـــار أن هـــذه الأشياء وصفات لإنقاذ الشرق، وإنما ينصب كلامه على جذور الأشـــياء، ووضـــع مسئولية الحكومة الجديدة على الأكتاف التى تـــستطيع تحمـــل هـــذه المـــسئولية. وأحسست أيضًا أنه حتى فى مجلس العموم، الـــذى يعمـــر جـــوه بالـــشك وعـــدم الاكتراث، يمكن أن ينصت إلى هذه الكلمات – لو قدر لهـــا أن يـــسمعها أعـــضاء المجلس.

فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا، كان عرابى واضحًا تمامًا. قـــال لى: إنه لا يحب الأتراك، لأن الأتراك هم الذين حكموا مصر قرونًا طويلة، وهـــو ليس على استعداد لقبول التدخل من قبل إسطنبول فى شئون مصر. لكـــن الرجـــل يميز بين الحكم العثمانى والسلطة الدينية للسلطان، بحكم أن الـــسلطان هـــو أميـــر المؤمنين ما دام يحكم بالعدل، وعليه يجب طاعته وتكريمه. يزاد علـــى ذلـــك، أن مسألة تونس التى فصلها الفرنسيون عن الإمبراطورية، ثم قاموا بالاستيلاء عليهـــا بعد ذلك، أوضحت العلاقة التى تربطها بـــرئيس العالم الإسلامى. قـــال عرابـــى:

"نحن جميعًا أبناء السلطان، ونعيش كلنا مثل أسرة واحدة في منزل واحد. لكن وكما هو الحال فى العائلات فإن لكل واحد منا مقاطعته الخاصة من هذه الإمبراطورية، غرفة كل منا فى هذا المنزل العائلى، صاحبها هو المسئول عن ترتيبها بطريقته الخاصة، ولا يستطيع رب البيت التعدى على هذه الغرفة. لقد اكتسبت مصر هذا الوضع المستقل من خلال الفرمان الصادر بهذا الشأن، ونحن بدورنا سنحرص على محافظة مصر على هذا الاستقلال. مطالبتنا بما هو أكثر من ذلك، يعد ضربًا من المخاطرة الحمقاء، وربما أفقدنا ذلك حريتنا كليا(*)". سألت عرابيا سؤالاً عابرًا، عما إذا كان، بحكم ما كان مؤكدا فى تلك الأيام، على اتصال بإسطنبول، فلاحظت أنه كان متحفظًا، ورد على سؤالى ردا مراوغا. والذى لا شك فيه أن تَذَكُّرِه لحواره مع أحمد راتب، الذى لم أكن أعرف عنه شيئًا فى ذلك الوقت، خطر على باله، وتسبب فى هذا التردد والروغان، لكنه لم يشر إلى ذلك الحوار.

وأخيرًا تحدثنا فى علاقات مصر بالحكم الثنائى المتمثل فى كل من فرنسا وإنجلترا. فيما يتعلق بهذه المسألة اعترف عرابى بالخير الذى أصاب مصر عندما تحررت البلاد من إسماعيل باشا، وعندما جرى تنظيم المسائل المالية، لكن عرابيا قال: إن الدولتين يجب ألا تقفا فى وجه الروح الوطنية، عن طريق تأييدهما لسلطة الخديو المطلقة أو تحريض الباشوات الشراكسة عليهم. كان عرابى يتطلع إلى بريطانيا أكثر من فرنسا، طلبًا لمساعدتهم فى كفاحهم من أجل الحرية، وكان يتطلع إلى السيد جلادستون بصفة خاصة، الذى كشف عن نفسه باعتباره صديقًا للحرية فى كل مكان – هذه المقابلة الأولى هى التى كونت لدى فكرة طيبة عن ذلك الكولونيل (العقيد) الفلاح، الأمر الذى جعلنى أتجه مباشرة إلى صديقى، الشيخ محمد عبده، لكى أبلغه بذلك الانطباع الذى تركه لدى أحمد عرابى، واقترحت عليه عمل برنامج، بالمعنى الذى أوصله لى أحمد عرابى، وهذا البرنامج ينبغى إعداده، حتى يمكن إرساله إلى السيد جلادستون، اعتقادا منى بأن الرجل إذا ما عرف،

(*) السير وليام جريجورى، الذى قابل عرابيا فى الوقت نفسه الذى التقيته أنا فيه يسجل فى جريدة التايمز لغة شديدة الشبه باللغة التى يستعملها عرابى.

بطريقة رسمية، حقيقة الآمال الوطنية، فإنه سوف يتعاطف مع هذه الأفكار بطريقة ستكون في صالح الوطنيين. تحدثت أيضًا إلى ماليت Malet حول الموضوع نفسه، ووافقني على أن ذلك قد يكون خيرًا، وعليه قمت بالاشتراك مع محمد عبده وآخرين من الزعماء المدنيين، بإعداد بيان، صاغه صابونجي، يجسد تجسيدًا واضحًا آراء الحزب الوطني. وقد حمل محمد عبده هذا البيان إلى محمود سامي البارودي، الذي أصبح وزيرًا للحربية مرة ثانية، وحصل على موافقة الرجل على هذا البيان، كما جرى عرض هذا البيان أيضًا على أحمد عرابي ووافق عليه. بعد الانتهاء من ذلك، وبعد أن قدمت البيان لماليت ووافق عليه، قمت بتقديمه إلى السيد جلادستون، موضحًا له الموقف بكامله ودعوته إلى التعاطف مع حركة تتفق تمامًا مع مبادئه المعلنة. قلت في ختام رسالتي إلى جلادستون: "أنا لا أفهم سببًا للأسف على هذه المشاعر أو استهجانها، أو قمعها من قبل حكومة الأحرار البريطانية. وأنا أرى أن عشاق التقدم الغربي سوف يغبطون أنفسهم على هذه البادرة الغربية غير المتوقعة، من شواهد الحياة السياسية في أرض كانوا ينعتونها منذ زمن بعيد بأنها أقل مناطق الشرق الراكد تفكيرا. أذكر أنك يا سيدي قلت لي ذات يوم وعبرت لي عن اعتقادك بأن أمم الشرق يمكن أن تبعث نفسها عن طريق استرداد وتحديد إرادتها الوطنية الضائعة، وعليك أن تلاحظ أن هذه الإرادة قد ظهرت وتجلت في مصر تناضل لتجد الكلام الذي يمكن أن يقنع أوروبا بوجود هذه الإرادة".

بينما كنت أرسل "برنامج الحزب الوطني" إلى السيد جلادستون، قمت في ذات الوقت، بناء على نصيحة من السير وليام جريجوري Gregory، بإرسال هذا البرنامج إلى جريدة "التايمز". لم يكن ماليت موافقًا على هذا التصرف، ظنًا منه أن ذلك يمكن أن يؤدي إلى تعقيد الأمور مع إسطنبول، وهي فكرة كانت مترسخة في ذهنية الرجل الدبلوماسية الحريصة. لكن جريجوري أصر على نشر هذا البرنامج، إذ إنه بغير ذلك قد يهمل في مجلس الوزراء؛ وأنا أعتقد أن جريجوري كان محقًا في ذلك. لقد كان صديقًا شخصيًا من أصدقاء شينري Chenery رئيس تحرير الجريدة الممتاز في ذلك الوقت؛ وكانت خدمات شينري عظيمة في ذلك الوقت للقضية الوطنية في مصر. كان شينري رجلاً صاحب أفق واسع فيما يختص

بشئون الشرق، إذ كان باحثًا مرموقًا، فى الشئون العربية وسبق له نشر ترجمة إنجليزية مدهشة "لمقامات الحريرى"؛ ومن ثم كان بوسع الرجل تكوين رأى أوسع عن المسألة المصرية وذلك على العكس من الرأى الصحافى السائد الذى مفاده أن المسألة تخص بورصة لندن للأوراق المالية بالدرجة الأولى، هذا على الرغم من أن شينرى كان هو نفسه واحدا من حملة الأسهم المصرية. وبناء على ذلك، راح الرجل يولى رسائل جريجورى جل اهتمامه، وكتبت للرجل خلال الأشهر القليلة التى تلت ذلك مؤيدا الحركة الوطنية، وواصلت هذا الكتابة إلى النهاية، حتى بعد قيام الحرب. الواقع أن شينرى فى هذه الواقعة رحَّب ببرنامجنا أجمل ترحيب، وكتب أن هذا البرنامج تسلمه من عرابى نفسه، ولكن هذا الخطأ مكن ماليت، الذى كان يعرف حقائق الأمور، من أن يعلن أن البرنامج الذى نشر من خلال وكالة رويترز، كان غير دقيق.

قد يكون من المفيد هنا توضيح الطريقة التى جرى استمالة الصحافة اللندنية وبخاصة وكالة رويترز للأنباء بشكل رسمى فى القاهرة ووضعها فى خدمة الدسائس الدبلوماسية. قلة قليلة من الصحف اللندنية هى التى لها مندوبين فى مصر، وعلى حد علمى فإن جريدة التايمز وكذلك جريدة "بول مول جازيت" هما الجريدتان الوحيدتان اللتان كان لهما مندوبين فى مصر. كانت هاتان الصحيفتان، من الناحية السياسية، مملوكتين، أو بالأحرى فى يدى السير أوكلاند كولفن، ذلك المراقب المالى الإنجليزى، والمسئول السابق فى الهند، حامل موروث الدبلوماسية الهندية المتأصلة تمامًا فى ممارسته الدبلوماسية. كان لدى السير أوكلاند كولفن شىء من الخبرة الصحافية، إذ كانت له علاقة سابقة بجريدة البايونير (الرائد) فى الهند؛ والبايونير صحيفة إنجليزية – هندية لها طابع إمبريالى معلن وصريح، وكان لا يزال يراسل هذه الجريدة. يزاد على ذلك أن كولفن كان مراسلاً منتظمًا لجريدة "بول مول جازيت" التى يمتلكها مورلى. وسوف تتجلى لنا أهمية هذه الصلة غير المعلنة، عندما آل الرجل على نفسه تحقيق مسألة التدخل الإنجليزى. أخيرًا، كان كولفن يستلهم جريدة "التايمز" فى الأمور الدبلوماسية المهمة؛ وكان سكوت Scot،

المراسل الدائم لجريدة التايمز يعتمد على كولفن فى الحصول على معلوماته. وفيما يتعلق بوكالتى رويترز وهافاس Havaas، وهما وكالتان واقعتان تحت نفوذ المراقبة الثنائية الإنجليزية – الفرنسية، إذ كانت كل وكالة منهما تحصل على ١٠٠٠ جنيه إنجليزى كل عام من الميزانية المصرية الفقيرة. كانت وكالة رويترز بصفة خاصة خادم المفوضية الإنجليزية والمتحدث باسمها، وكانت البرقيات التى ترسلها إلى لندن تخضع لرقابة ماليت. هذا النوع من الاحتكار لأجهزة الأخبار العامة لمصلحة دبلوماسيتنا موجود فى كل العواصم تقريبًا، التى لنا فيها وكلاء سياسيون، ويشكل أداة خطرة فى تضليل المواطنين البريطانيين فى الوطن. هذا النفوذ لا يجرى ممارسته كقاعدة مسلم بها عن طريق المدفوعات المباشرة، وإنما عن طريق المحاباة فيما يتعلق بتقديم المعلومات السرية والقيمة، كما يجرى تقديم هذه المدفوعات أيضًا عن طريق الإعانات الاجتماعية. وهذه السيطرة على الصحف وأنباء كانت تتم سرا عادة، باستثناء لحظات الأزمات الشديدة التى تحتم وجود هيئة مراسلى الصحافة الخاصة فى القاهرة أو الإسكندرية وبأعداد يصعب السيطرة عليها. أما فى الأوقات العادية، يكون لمسئولينا السلطة الكاملة فى مسألة الأخبار التى يتعين إرسالها إلى لندن، وكذلك الأخبار التى يجب استقبالها من لندن، كى تنشر فى مصر. ومن الضرورى جدا على المؤرخين، عندما يرجعون إلى ملفات الصحف الخاصة بهذه السنوات، طلبًا للمعلومات وبحثًا عنها، أن يأخذوا مثل هذا المسألة بعين الاعتبار.

على كل حال، فى أواخر عام ١٨٨١، وباستثناء هذا الخلاف البسيط فى الرأى، بقيت علاقاتى ودية وحميمة تمامًا مع ماليت. فقد أسر الرجل إلىَّ بكل شكوكه ومتاعبه، وحرصه على اتباع وتنفيذ ذلك الذى تريده وزارة الخارجية، وخوف الرجل من أن يأتى، فى خلال إحدى الأزكات بشىء لا يحظى بالموافقة الرسمية. كان الرجل يعرب، وأعتقد أنه كان على صواب، عن تعاطفه الكامل مع رأيى فى المسألة الوطنية، وكان يعتمد علىَّ باعتبارى قادرًا، تحت أى ظرف من الظروف، على أن أحول بينه وبين أى عمل عنيف حتى يأتيه، قرار من مجلس

الوزراء البريطاني، يوضح السياسة التي ينبغي اتباعها. وقد حدث أن عثرت على مذكرة مفادها أني في اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر وجدت نفسي مطلوبًا من ماليت والسير أوكلاند كولفن، الذي كنت قد تعرفت عليه في ذلك الوقت، والذي كانت له آراء لا تتفق مطلقًا مع آراء ماليت في مسألة الوطنيين، وجدتهما يطلبان مني مساعدتهما في ورطة وقعا فيها حول مخصصات الجيش.

كان الوقت يصادف توقيت إعداد مشروع الميزانية الجديدة، وكان وزير الحربية الوطني محمود سامي البارودي، قد سبق أن طلب مبلغ ٦٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي مخصصات سنوية لوزارته. كانت تلك المخصصات تزيد زيادة طفيفة على مخصصات عام ١٨٨١، وذكر أن ذلك نتيجة للوعد الذي قطعه الخديو على نفسه بزيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ فرد حسبما ورد في الفرمان الخاص بذلك. كان الوزير قد أوضح إصراره على ذلك متعللاً بأن الرفض يمكن أن يتسبب في مظاهرة عسكرية جديدة، وهذا أمر يثر المخاوف في تلك الأيام؛ وطلب مني استكشاف آفاق المبلغ الذي يمكن أن يفي بمخصصات الجيش. كان كولفن قد رخص لي بالوصول إلى مبلغ ٥٢٢ ألف جنيه إنجليزي، وأن أقول لعرابي وللضباط إنه من المستحيل زيادة هذا المبلغ. وقال لي كولفن أيضًا: إنه لا يعارض زيادة عدد الجيش، لكن في حدود ما تم ربطه. كان كولفن يظن، بل يرى، أن المبلغ المقترح يكفي لزيادة عدد الجيش إلى ١٥٠٠٠ فرد. وعليه، ذهبت إلى عرابي وناقشت معه هو وضباط آخرين، هذا الأمر؛ وأقنعتهم مؤكدًا أن كلام كولفن يجب الوثوق به، وذلك منعًا للاعتراض من جانبهم. وقالوا لي: إنهم سيقبلون المبلغ المحدد بحوالي ٥٢٢٠٠٠ جنيه إنجليزي باعتباره مبلغًا كافيًا، وسوف يستخدمونه في زيادة عدد الجنود إلى أبعد حد ممكن. قالوا إنهم سيقتصدون، في بعض المسائل الأخرى، وكانوا يتمنون اكتمال العدد المطلوب كما قدر في الموازنة. ووعدوني أيضًا، في هذه المرة، أنهم سيصبرون ولن يقوموا بأية مظاهرات مسلحة، وقد تمسكوا فعلاً بذلك الوعد إلى النهاية. وجاءت آخر كلمات عرابي لي في هذه المناسبة بهذه العبارة: "من صبر ظفر". وفي اليوم نفسه أرسلت مذكرة إلى كولفن أعلمته فيها بالنتائج، وشكرني ماليت أيضا لأني ساعدتهما على الخروج من مشكلة كبيرة.

مع ذلك، فاجأني ماليت، عصر اليوم، بعد ذلك بحوالى أسبوع، أى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر، عندما كنت ألعب معه التنس، كما هى عادتى عندما أكون فى الوكالة Agency، بأن أرانى مسودة رسالة كان قد أرسلها إلى وزارة الخارجية، ويتحدث فيها عن زيارتى لمصر والتشجيع الذى أوليته للوطنيين، وذلك دون أن يأتى على ذكر أى شىء من الأشياء التى عاونته فيها، واشتكى فى تلك الرسالة أيضًا من إرسالى لبيان الحزب الوطنى إلى جريدة التايمز على غير رغبة منه. ولما كنا حتى ذلك الوقت نتصرف من منطلق ودى تمامًا، ولم يحدث أى شىء مكدر غير إرسال البيان إلى الجريدة، فقد رحت أبحث عن مبرر لقصده السيئ عندما تغاضى عن خدماتى الأخرى التى قدمتها لدبلوماسيته، إلى حد أننى أصررت على إلغاء هذه (البرقية) المضللة، الأمر الذى دفع الرجل إلى أن يكتب فى وجودى، برقية ثانية صحح فيها إلى حد ما الظلم الذى أوقعه عليَّ. ولم أفهم مطلقًا الدافع من وراء هذه المناورة العجيبة. حسبت أن السبب فى ذلك الوقت، قد يكون دافعًا من دوافع الغيرة، واستياء الرجل من الفكرة التى مفادها أنه يتعين على وزارة الخارجية أن تعلم أنه ليس مدينًا لى بأى شىء فى العلاقات الجيدة التى نجح هو فى إقامتها مع الوطنيين؛ لكنى عندما أمعنت فى الأمر توصلت إلى نتيجة مفادها، أن الرجل بحكم شخصيته الحذرة، إنما كان يُؤَمِّنُ نفسه ضد أية مسئولية عامة يمكن أن تُلْقَى عليه فيما يتعلق بآرائى الوطنية، إذا ما أدان مجلس الوزراء البريطانى هذه الآراء أو استنكرها. هذا هو التفسير الأرجح، نظرًا لأن ضمير الرجل كان يؤنبه فى هذه المسألة إلى حد أنه اعترف لى بما فعله من الناحية الرسمية. وعلى الرغم من قدمه على عدم الإخلاص فقد كان ذلك بمثابة إنذار لم أنساه مطلقًا؛ ومع أنى واصلت التردد على الوكالة بضعة أسابيع؛ فإنه كان لدى إحساس بأنى قد أُخْدع بأيدى ماليت. ومع ذلك، كنت دومًا على استعداد لمساعدة الرجل ومعاونته، ولم يمض وقت طويل، حتى اضطر ماليت من جديد، بحكم ظروف عزلته السياسية فى القاهرة، إلى اللجوء إليَّ؛ وعندما وجد نفسه غارقًا تمامًا فى مياه الطوفان، وتحتم عليه من جديد أن يرسلنى رسول سلام إلى عرابى هو والزعماء الوطنيين الآخرين.

سار كل شيء على ما يرام، في حدود معرفة كل منا، في الموقف السياسي، حتى نهاية عام ١٨٨١ وطوال الأسبوع الأول من العام الجديد عام ١٨٨٢ كان هناك تعاون طيب بين كل القوى العاملة في مصر، كان الجيش قد هدأ، واعتدلت لهجة الصحافة تحت رقابة محمد عبده، وأصبح الوزراء الوطنيون لا يتهددهم الخطر من أي اتجاه، وراحوا يعدون مسودة القانون الأساسي Law Organic الذي يعطي البلاد حرياتها المدنية. وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر دُعي مجلس النواب Chamber Delegates لمناقشة مواد الدستور الذي وعد به الخديو، في القاهرة؛ وافتتحت الجلسات بالتأكيد على ذلك من جانب الخديو بصفة خاصة، بعد أن تغير موقفه إلى الأفضل تجاه الحركة الشعبية، الأمر الذي تمكن معه ماليت في اليوم الثاني من شهر يناير من عام ١٨٨٢ من الكتابة إلى اللورد جرانفيل Granville ليقول له: "لقد وجدت سموه، لأول مرة منذ عودتي في شهر سبتمبر، متهلل الأسارير وبحالة نفسية طيبة، وينظر إلى الموقف نظرة أمل وتفاؤل. كان التغيير واضحًا. ويبدو أن سموه قبل الموقف عن طيب خاطر". كان عرابي نفسه قد توقف عن إشغال نفسه بمسألة رفع المظالم، وتم الاتفاق وبموافقة كل من المعتمدين الفرنسي والإنجليزي على وضع عرابي وأن يتحمل المسئولية المترتبة على الاعتراف بنفوذه السياسي، بأن يتولى مثلا منصب وكيل وزارة الحربية. لقد ظنوا أن ذلك يمكن أن يحجّم الرجل ويضعه ضمن دائرة النظام.

كانت الشكوك في ذلك الوقت تدور حول موقف النواب من نصوص الدستور الذي جرى جمعهم لمناقشته؛ وكانت غالبية هؤلاء النواب، مثل أصدقائي الإصلاحيين في الأزهر، ميالين إلى الاعتدال. فقد قال الشيخ محمد عبده: "لقد انتظرنا مئات السنين طلبًا للحصول على الحرية، فلا يشق علينا أن نصبر الآن حتى ولو لبضعة أشهر". في هذا التاريخ بالتأكيد كان ماليت وكولفن، وأعتقد أن سنكفكز كان معهما أيضًا، كانوا جميعًا ميالين إلى مطالبة الوطنيين بأن يكون لهم برلمان حقيقي. كان هؤلاء الثلاثة قد بدءوا يلاحظون أن مسألة البرلمان الحقيقي هذه أصبحت مطلبا وطنيا عاما، ويمكن أن يكون صمام أمان للأفكار شديدة الخطورة. ولو صدر إعلان عام وصريح من جانب الحكومتين الإنجليزية

والفرنسية عن حسن نواياهما تجاه الآمال الشعبية، لضمن حدوث ترتيب مقبول بين الحكومة الوطنية والحكم الثنائي، الأمر الذى كان يمكن أن يُؤَمِّن مصالح حملة الأسهم من ناحية وضمان الحرية لمصر من الناحية الأخرى. وقد ظننا يومئذ أن الحكومتين لن تتأخرا طويلاً.

فى اليوم الأول من العام الجديد جرى نشر البرنامج الوطني، الذى سبق أن أرسلته للسيد جلادستون، فى جريدة التايمز ومعه مقال افتتاحي وتعليقات تستحسنه. وعلى الرغم من تكهنات ماليت برد الفعل السيئ فإن البرنامج استُقبل استقبالاً حسنًا فى أوروبا، وفى إسطنبول، التى لم يُحْدِثْ البرنامج فيها أى نوع من أنواع التذمر أو الوعيد. لقد كانت نغمة البرنامج معتدلة تمامًا اعتدالاً مدروسًا، وكان منطقه مستقيما، على نحو يصعب معه إساءة فهم الوضع فى مصر. كان من غير المتصور تمامًا فى إنجلترا بصفة خاصة، وفى وجود أغلبية ليبرالية كبيرة جدا فى مجلس العموم، ووجود السيد جلادستون على رأس مجلس الوزراء، عدم استقبال ذلك البرنامج بروح ودية – لم نكن نتصور أبدا، نحن الذين كنا ننتظر بقلق شديد رد جلادستون علينا أن وزارة الخارجية البريطانية، فى اللحظة نفسها، كانت تعد العدة للإنذار والتدخل المسلح. ومن سوء الطالع، وعلى الرغم من أى أحد منا، بما فى ذلك ماليت نفسه، لم يكن يعرف أى شيء عن ذلك القرار فى ذلك الوقت؛ فإن القرار الناهض لآمال المصريين كان قد جرى اتخاذه بالفعل. فقد وصل البرنامج إلى يدى جلادستون، حسب تقديرى، متأخرًا مدة أسبوعين، فبينما كنا جميعًا ننتظر رسالة سلام، وصلتنا مثل الرعد فى ليلة صافية، تلك المذكرة المشتركة المشئومة المؤرخة فى السادس من يناير عام ١٨٨٢. لتبدد آمالنا كلها وتفسد حساباتنا وتلقى بمصر مرة أخرى فى بحر من المتاعب.

الواقع أن أصل هذه الوثيقة المنكودة، التى ترجع إليها بصورة مباشرة سائر المصائب والنكبات التى حدثت خلال ذلك العام، بما فى ذلك خسارة مصر لحريتها، وخسارة جلادستون لشرفه وكرامته، وخسارة فرنسا مكانتها المؤثرة على النيل، الواقع أن أصل هذه الوثيقة ينبغى التحدث عنه هنا. هذا الأصل يمكن

الوقوف على شيء منه في الوثائق المنشورة، سواء أكانت وثائق إنجليزية أم فرنسية، وسيكون ذلك بطريق غير مباشر؛ وربما كنت أنا الشخص الوحيد غير المسئول رسميا، الذى يمكنه أن يضع النقاط بدقة على الحروف. فقد كان من المسلم به لدى المصريين أن الأمور ما دامت قد تحولت لصالح الغزو الإنجليزى، فإن المذكرة قد وضعت فى وزارة الخارجية البريطانية، ولكن الواقع هو أن العكس هو الصحيح وأن المذكرة المشتركة إنما جرى إعدادها ليس فى مقر مجلس الوزراء البريطانى وإنما فى وزارة الخارجية الفرنسية Quai D'orsay، ولمصلحة المطامح الفرنسية السياسية – علما بأن هذه المصالح كانت مصالح مالية أيضا.

لقد سبق أن رويت كيف سافرت مع السير شارلز ديلك من لندن إلى باريس، كما تحدثت أيضا عن الحوار الذى دار بيننا فى أثناء السفر، وعن الانطباع الذى ولّده فيّ ذلك الحوار الذى مفاده أن السير شارلز ديلك على استعداد "لبيع مصر نظير معاهدته التجارية"؛ وهذا بالضبط هو ما حدث. كانت التواريخ، على حد ما تسعفنى به الذاكرة، على النحو التالى: فى اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر كان سانت هيلير Hilaire، قد ترك منصبه وخلفه جامبيتا Gambetta، الذى وجد نفسه فى مواجهة تمرد إسلامى عام مضاد للحكومة الفرنسية فى تونس والجزائر. وانزعج جامبيتا من ذلك الطابع الإسلامى الجامع لذلك التمرد وعزاه إلى دعاية السلطان عبد الحميد، وظن جامبيتا أنه رأى التأثير نفسه سيعمل عمله فى الحركة الوطنية فى مصر، وكذلك الدسائس التى قام بها إسماعيل باشا، وحليم وآخرون. كانت فرنسا معادية بصفة مستمرة لدعاوى سيادة الباب العالى على شمال إفريقيا؛ وجاء جامبيتا إلى السلطة وهو مصمم على إحباط هذه الدعاوى والتعامل معها من خلال إجراءات قوية. وهو بحكم أصله اليهودى، كان على علاقة وثيقة، بالدوائر المالية الكبيرة، فى بورصة باريس، كما كان على علاقة حميمة مع آل روتشيلد وبعض الرأسماليين الآخرين، الذين كانت ملايينهم مستثمرة فى السندات المصرية. لقد كان نوبار باشا، هو وريفرز ولسون يعيشان فى ذلك الوقت فى باريس، وكانا مستشارى جامبيتا فيما يتعلق بالشئون المصرية، ومن ثم كوّن رأيه عن الموقف من خلال هذين الشخصين.

وعليه، لم يمض على جامبيتا فى منصبه أيام قلائل حتى دخل فى مفاوضات مع وزارة خارجيتنا، مستهدفا بذلك جر إنجلترا إلى الانضمام إليه فى عمل عنيف ضد الحركة الوطنية، باعتبار ذلك الإجراء حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار نشر الحضارة وتنظيم أوضاع مصر المالية. وكانت هنالك، في لندن في ذلك الوقت رغبة قوية في تجديد الاتفاقية التجارية، مع فرنسا التى أوشكت على الانتهاء، بأسرع ما يمكن، ولذلك جرى انتهاز الفرصة فى وزارة الخارجية، وكذلك وعلاقة السير شارلز ديلك الحميمة مع رئيس الوزراء الفرنسى فى الإسراع بالمفاوضات وتوقيع الاتفاقية. كانت هناك لجنة مشكلة لهذا الغرض، ومكونة من أعضاء بريطانيين من بينهم كل من ديلك وولسون، وكانت تقيم في باريس اعتبارًا من شهر مايو، دون جدوى. كانت زيارة ديلك Dilke إلى باريس مرتبطة بالأمرين معًا، وجرى حسم الموضوع خلال أسبوع واحد من تولى جامبيتا منصب رئيس الوزراء الفرنسي. وإذا ما رجعنا إلى صحف تلك الأيام، وبالذات صحف شهر نوفمبر عام ١٨٨١، نجد أن المفاوضات بين الحكومتين حول الاتفاقية التجارية، كانت تمر بمرحلة خروجه تماما في ذلك الوقت، وقيل أن هذه الاتفاقية انهارت. لكن وجود ديلك في باريس بعث الحياة من جديد فى أفراد اللجنة، أو بالأحرى حال بينهم وبين الرجوع بخفى حنين. فى الفترة ما بين الثانى والعشرين من نوفمبر واليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر كان ديلك ينتقل بين العاصمتين؛ وفى التاريخ الأخير، نجد جامبيتا (الكتاب الأزرق مصر ٥، ١٨٨٢، صفحة ٢١) يتقدم إلى اللورد ليونز Lyons، سفيرنا فى باريس باقتراح يتضمن القيام بعمل مشترك فى مصر. كان من رأى جامبيتا أن "من الأهمية بمكان تقوية سلطة توفيق باشا؛ وأنه لا بد من بذل كل ما فى الوسع من أجل منح توفيق المزيد من الثقة فى مساندة كل من إنجلترا وفرنسا له، وأن تولِّد فى داخل الرجل الطاقة والحزم. ولا بد من إفهام مؤيدى إسماعيل، وحليم والمصريين بشكل عام أن فرنسا وإنجلترا لن ترضخا لعزل توفيق... وأنهما ترغبان فى القضاء على دسائس إسطنبول"، إلخ. جرى توصيل هذه الفكرة بواسطة اللورد ليونز إلى وزارة الخارجية البريطانية، وفى اليوم التاسع عشر نجد اللورد جرانفيل "يوافق على أن الوقت قد

حان، وأن الحكومتين ينبغي عليهما أن تفكرا في الطريق الأمثل الذي ينبغي السير فيه"، إلخ. ومن منطلق هذا التشجيع، انتهز جامبيتا في اليوم الرابع والعشرين من الشهر فرصة اجتماع مجلس النواب المصري وأصدر بيانا بشأن مظاهرة مشتركة من فرنسا وإنجلترا، لتقوية مركز الخديو توفيق باشا وإحباط مثيري الشغب." واجتمع المجلس المصري في اليوم السادس والعشرين، وفي اليوم الثامن والعشرين، يجري ديلك Dilke، الذي كان قد عاد إلى باريس في اليوم السابق، حوارًا طويلاً مع جامبيتا حول اتفاقية التجارة كما ذكرت "جريدة التايمز"، وفي اليوم نفسه أيضًا وافق اللورد جرانفيل على تقديم "توكيدات لتوفيق باشا عن تعاطف ومساندة كل من فرنسا وإنجلترا له، وتشجيع سموه على المحافظة على سلطته وتثبيتها".

هذا التوافق التاريخي كاف لتثبيت الصلة بين هاتين المسألتين، كما يوضح أيضًا اللحظة الدقيقة التي أمكن عندها إبرام الاتفاق التجاري؛ كما يوضح أيضًا أن توصيلي البرنامج الوطني إلى جلادستون، والذي أودعته البريد في اليوم العشرين من الشهر، لا بد أن يكون قد تأخر وصوله تمامًا الأمر الذي لم يساعد على تدارك الكارثة. في ذلك الوقت كان وصول الرسائل إلى لندن يستغرق أسبوعًا، يضاف إلى ذلك أن جلادستون كان يقضي فترة عيد الميلاد، وبالتالي لم يتوفر لديه الوقت لاستلام الرسالة، على الرغم من أنه كان يود لو أنه فعل ذلك، حتى يقوم بتسليمها إلى وزارة الخارجية. وبذلك تكون حكومتنا قد التزمت بسياسة جامبتيا الذي قدم في اليوم الحادي والثلاثين (الكتاب الأزرق، مصر ٥ عام ١٨٨٢) إلى ليونز المسودة، التي كتبها بخط يده، عن المذكرة المشتركة ليجري إرسال هذه المسودة إلى القاهرة، في ضوء التفاهم السابق في اليوم الرابع عشر من الشهر – ويجب الإشارة هنا إلى أن ذلك حدث في اليوم نفسه الذي جرت فيه مفاوضات تجديد الاتفاق التجاري، وإقراره وتجديده أيضًا. في اليوم الأول من شهر يناير، يرسل مراسل جريدة التايمز في باريس ملخصًا للمذكرة المشتركة إلى لندن، موضحًا فيه أنه يستطيع الآن تقديمها، بعد أن صرَّح له جامبيتا وأبلغه بالكشف عنها "في الوقت المناسب". وهذا يُفهم منه، نجاح ديلك Dilke في مهمته التجارية نجاحا تاما؛ وفي

اليوم التالى، المصادف لليوم الثانى من شهر يناير يعود ديلك إلى لندن. وعلى الرغم من ذلك، فأنا أستشف تأثير التماسى الذى قدمته إلى جلادستون، بتأخير مقداره خمسة أيام، بأنه كان هو المطلب نفسه الذى نادى به جرانفيل قبل التوقيع على المذكرة رغمًا عنه، وأستشفه أيضًا فى التحفظ الذى ينص عليه من جانب حكومة صاحبة الجلالة والذى مفاده أن "حكومة صاحبة الجلالة يتعين عدم اعتبارها ملتزمة بأى شكل من أشكال العمل"، وهذا تذييل اشتهر به جرانفيل، وأحسب أيضًا أن هذا التذييل يوضح تضارب الأفكار، الذى ظهر جليا بعد ذلك، بين وزارة الخارجية، ومن خلفها ديلك Dilke، وبين جلادستون باعتباره رئيسًا للوزراء.

هذا هو الدليل الذى يمكن التوصل إليه من الوثائق المنشورة فى ذلك اليوم إذا ما قرأنا هذه الوثائق قراءة دقيقة ومدققة. من ناحية أخرى، لدىَّ رسالة من السير ريفرز ولسون، يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك بقليل، وهى مؤرخة ١٣ يناير، وكانت ردا على واحدة من رسائلى إلى الرجل؛ وهذه الرسالة توضح الموقف كله فى بضع كلمات بسيطة. يكتب ولسون فيقول: "أولاً وقبل كل شىء، أنا مسرور لاهتمامك بالسياسة المصرية. وأنت تؤكد ذلك الذى أعتقد أنه يمثل المسألة كلها من ناحيتين، أولاهما، أن العسكر يعبرون عن مشاعر السكان، وثانيتهما، أن الخديو توفيق يعمل متعاونًا مع السلطان. فيما يتعلق بتعاون الخديو مع السلطان يتعين علىَّ القول هنا إن هناك ما يدعو إلى الدهشة. قال لى جامبيتا بالفرنسية منذ ستة أسابيع: "الخديو يتذلل إلى السلطان". لكن السبب واضح تمامًا. توفيق ضعيف وجبان. وجيشه معادٍ له. والحريم يكرهونه. وهو لا يجد عونًا أو مساعدة من أولئك الذين كان يتعين عليه طلب العون والمساعدة منهم بمعنى أنه كان ينشد هذا العون وتلك المساعدة عند الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وعليه تحول توفيق إلى المكان الوحيد الذى يمكن أن يحصل منه على التعاطف وربما المساعدة المادية. وقد جاءت المذكرة المشتركة لعلاج هذا الحال، بغض النظر عن التفسيرات التى قُدمت بعد ذلك سواء أكانت على شكل حواشى أم تفسيرات لاحقة؛ وأنا سوف أشعر بالإحباط وخيبة الأمل، إذا لم تحدث هذه الفكرة الأثر المطلوب وتجعل الضباط،

والعلماء، والأعيان المصريين يفهمون أن تجدد الاضطرابات يعنى التدخل المسلح من قبل أوروبا. حكومتنا قد لا يروق لها ذلك، لكنها مرتبطة حاليًا وملتزمة التزاما رسميا أمام فرنسا ولا يمكن أن تتراجع".

هذه هى الرسالة التى جاءتنى من ولسون فى باريس حيث مقر عمله، ولأن ولسون كان بالفعل صديقًا حميمًا وعلى وفاق مع كل من ديلك وجامبيتا، لذلك تعد وثيقة فائقة الأهمية من الناحية التاريخية، فهى تركز بلا أدنى شك على تحميل الحكومة الفرنسية مسئولية المبادأة فى التدخل المزعوم، وذلك على الرغم من أن الكتب الصفراء لم تصمت تمامًا هى الأخرى عن هذه المسألة. هذه الكتب الصفراء، على الرغم من معلوماتها المعيبة، لا تخفى أو تتستر على مسئولية جامبيتا المباشرة فى هذا الصدد. قد سمعت فى ذلك الوقت، وأصدق الآن أن التدخل المشترك فى مصر الذى خطط له جامبيتا، سيكون على شكل مظاهرة بحرية يقوم بها الأسطول فى الإسكندرية فى حين تقوم فرنسا بإنزال القوات. لو قدر لذلك أن يحدث لأصبحت لفرنسا اليد العليا حاليًا فى مصر. وقد أحبط ذلك التدخل فى شتاء ذلك العام، بسبب حادث سقوط جامبيتا غير المتوقع وخروجه من السلطة بسبب المعارضة البرلمانية فى أمر من الأمور الداخلية البرلمانية فى نهاية الشهر، نظرًا لأن جلادستون فى ذلك الوقت كان لا يحبذ مطلقًا الإجراءات العنيفة التى تقضى بإرسال جندى إنجليزى مع جيش فرنسى، قد يضطر إنزال قواته إلى البر.

هذا الحادث التاريخى يمكن أن نستخلص منه أكثر من درس مستفاد، وأهم هذه الدروس، ربما يتمثل فى الحقيقة التى مفادها أنه لا أحد من الوزيرين، على الرغم من مهارتهما من ناحية، وعلى الرغم أيضًا من نجاح كل منهما فى مشروعه من ناحية أخرى، استطاع تنفيذ هدفه وما يصبو إليه.

كان كل من جامبيتا وجرانفل طوال الأسابيع الأولى من شهر يناير مشغولين – وبلا أدنى شك – بتحقيق هدف مهم وتقوية رابطة الصداقة بين حكومتيهما عن طريق عمل مشترك. فقد حصل جامبيتا على المذكرة المشتركة، وحصل جرانفيل على المعاهدة التجارية. لكن أحدًا من هذين المحتالين لم يستطع فى واقع الأمر

العودة بغنيمته سالما إلى بلده. جامبيتا، مثلاً، وعلى الرغم من استخدامه لكامل نفوذه لدى البرلمان أملاً فى تجديد الاتفاق التجارى مع بريطانيا، فشل فى الحصول على الأغلبية، الأمر الذى أدى إلى سقوط الاتفاقية، وسقط معها أيضا زعم الأحرار أن حرية التجارة تجعل بريطانيا فى عزلة. وعلى الجانب الآخر، فإنه على الرغم من أن جامبيتا جعل جرانفل يوقع على غير رغبة منه، على المذكرة المشتركة، التى يود الاستفادة منها فى تعظيم شأن فرنسا، فإن جامبيتا اكتشف أنه قلد سلاحا لا يمكن له هو استعماله، وأن هذا السلاح انتقل بعد ستة أشهر إلى يد المنافس، فى حين أثبتت الاتفاقية الودية، فور التوصل إليها، أنها مجرد تدمير وتحطيم لكل المشاعر الودية بين الأمتين لمدة دامت حوالى جيل كامل. وأنا شخصيا، فى استطاعتى أن أفرق بين الإحباط الذى أصاب المحتالين، وبين تنافس المصالح بين الشعبين. والمؤسف فى ذلك كله أن الرجلين بسبب مطامحهما الحقيرة، وبسبب جشعهما الأحقر، تسببا فى تحطيم أمل وطنى كبير، كما تأجلت أيضا مسألة الإصلاح الدينى الكبير سنوات كثيرة .إن فرصة تحقيق هذا الخير التى ضيعها هذان السياسيان لا يمكن أن تتهيأ مرة ثانية قبل نصف قرن من الزمان.

جاء تحدى جامبيتا خطرا على الحزب الوطنى وعلى السلام فى القاهرة، لقد كنت بصحبة ماليت عندما وصلت المذكرة المشتركة، وسلمنى ماليت إياها كى أقرأها ثم سألنى عن رأيى. قلت: "سيعتبرونها إعلان حرب". رد علىَّ ماليت قائلاً: "المذكرة لا تحمل أى مضمون عدائى"، ثم شرح لى إمكانية تفسيرها بطريقة تناسب الآمال الوطنية. وطلب منى ماليت الذهاب إلى قصر النيل، وإقناع عرابى الذى أصبح بالفعل وكيلاً لوزارة الحربية، بقبول المذكرة على هذا النحو، وسمح لى بأن أقول لعرابى: "إن معناها كما تفهمه الحكومة البريطانية هو أن الحكومة الإنجليزية لن تسمح بأى تدخل من جانب السلطان فى شئون مصر، وأنها لن تسمح للخديو أيضا بالتعرض للبرلمان". قال لى أيضا، على الرغم من أنه لم يأذن لى بقول ذلك، إنه يتمنى الحصول على تصريح لكى يضيف إلى المذكرة تفسيرا مكتوبا لتعطى المعنى المشار إليه. وأنا أعلم أن ماليت أرسل برقيات عدة يطلب فيها مثل هذا الإذن، وأعرف أيضا أن الرجل كتب الكثير وراح يدين المذكرة بشده باعتبارها

إعلانًا غير سياسى وخطير. ومع ذلك، نحن لا نجد فى الكتب الزرقاء أى شىء من هذه الاحتجاجات والطلبات المبهمة، وذلك على الرغم من أن هذه الكتب توضح أن اللورد جرانفيل لا بد أن يكون قد لفت الانتباه إلى هذه الاحتجاجات والطلبات، إلى حد أنه كان على استعداد لتقديم تفسير من هذا القبيل للإعلان المشترك، لولا أنه كان ممنوعًا من ذلك من قبل جامبيتا. ويبدو أن سنكفكز هو الآخر كان قد طلب من حكومته السماح له بتفسير المذكرة، لكنه مُنع من ذلك. وقد أدان السير أوكلاند كولفن أيضًا الإعلان فى الحوار الذى دار بينى وبينه، إدانة شديدة مثلما فعل ماليت من قبل".

ذهبت بناء على ما تقدم، إلى قصر النيل قبيل الظهر من اليوم التاسع من الشهر (كان نص المذكرة المشتركة قد وصلنا فى اليوم الثامن من الشهر)، ووجدت عرابيًا وحده في مكتبه الرسمي. وهذه هى المرة الأولى بل والوحيدة التى شاهدت فيها عرابيا على هذا الوضع، كان الرجل غاضبًا. كان وجهه يشبه سحابة رعدية، وكانت عيناه تلمعان لمعانًا غريبًا. كان قد اطلع على نص المذكرة المشتركة، التى لم تكن قد نشرت بعد – الواقع أنها قد وصلت برقيا – وسألت عرابيًا عن فهمه لها. قال عرابى: "خبرنى أنت، كيف فهمتها أنت؟" حينئذ أديت رسالتى. فقال عرابى: "لا بد أن السير إدوارد ماليت يظن بحق أننا أطفال لا نعرف معانى الكلمات". قال: "أولا، إنها لغة تهديد. وليس فى هذه الإدارة كاتب يمكن أن يستعمل لغة من هذا القبيل بغير هذا المعنى". وأشار عرابى إلى ما جاء بشأن الأعيان فى الفقرة الأولى من المذكرة. وقال: "هذا تهديد لحرياتنا". يضاف إلى ذلك، أن الإعلان يوضح أن سياسة إنجلترا وسياسة فرنسا أصبحتا سياسة واحدة بمعنى، يعنى بأنه إذا ما احتلت فرنسا تونس، فإن إنجلترا بدورها سوف تغزو مصر. قال عرابى: "دعوهم يجيئون، وسوف يقاتلهم كل رجل وكل طفل من رجال وأطفال مصر. ليس من مبادئنا أن نكون نحن أصحاب الضربة الأولى، لكننا سنعرف كيف نرد مثل هذه الضربة". وفيما يتعلق بضمان عرش توفيق باشا قال عرابى: "العرش إن كان هناك عرش، هو عرش السلطان. الخديو ليس بحاجة إلى ضمانات أجنبية. يمكن لك أن تقول لى ما تريد، لكنى أعرف معنى الكلام أفضل من السيد ماليت". واقع الأمر أن تفسير ماليت للمذكرة المشتركة كان من باب الهراء والكلام الفارغ، الأمر الذى

جعلني أستشعر الغباء والحماقة أمام عرابى، كما أحسست أيضًا بالخجل لأني كنت أنا حامل هذه الرسالة الهراء إلى عرابى. لكنى أكدت لعرابى أنى قمت بتسليم الرسالة مثلما أعطانى إياها السير إدوار ماليت. ثم قلت له: "هو يطلب منك تصديق ما ورد في الرسالة، وأنا أرجو أن تصدقه". وعندما هممت بمغادرة المكان، تلطف عرابيًا بعض الشيء، وأمسكنى من ذراعى لكى يوصلنى إلى الدور الأرضى، دعانى إلى التردد على منزله مثلما كنت أفعل من قبل. قلت له: "سأجيء عندما تتوفر لدى أخبار طيبة لك"، وكنت ألمح بذلك إلى احتمال مجيئى إليه بتفسير جديد للمذكرة، على النحو الذى أبرق به ماليت إلى وزارة الخارجية طالبًا منها السماح له بمثل هذا التفسير. لم يأت رد من وزارة الخارجية. ولم أر عرابى بعد ذلك على امتداد ثلاثة أسابيع، عندما وصلتنى رسالة من السيد جلادستون، فسرتها أنا بمسحة كبيرة من التفاؤل، وكانت سببا في كثير من السرور.

وعندما عدت إلى المقر الدائم، سألنى السير إدوارد ماليت عما فعلت. وأجبته قائلاً: "إنهم غاضبون الآن ولا يمكن التصالح معهم". "لقد تسببت المذكرة فى ارتمائهم فى أحضان السلطان". الواقع أن هذه كانت النتيجة، ولم يكن ذلك الارتماء مقصورًا على العسكر وحدهم، لكن على قطاعات الحزب الوطنى كلها، حيث أدى أيضًا إلى ارتماء هذه القطاعات ومعها الخديو فى أحضان السلطان. وبذلك يكون جامبيتا قد أخطأ هدفه تمامًا، لو كان يريد تقوية موقف توفيق باشا. أما الخديو فكان خائفًا، فى حين امتلأ الوطنيون غضبًا بدلاً من الخوف. ووجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة. واعتبارًا من تلك اللحظة ربط الشيخ محمد عبده، هو ومصلحو الأزهر النابهون، مصيرهم بمصير الحزب الثورى. الكل، بما فى ذلك الشراكسة، كانوا مستائين من التهديد بالتدخل الأجنبى؛ وعلى الجانب الآخر نجد أكثر الناس عداء للأتراك من بين الوطنيين، ومنهم صديقى الشيخ الهجرسى، كان من رأيهم أن عرابيا كان على صواب فى اعتماده سرا على السلطان. وهنا نجد أن عرابيا زادت شعبيته واحترامه زيادة كبيرة، وعلى امتداد أيام كثيرة بعد ذلك لم يكن أحد من أصدقائى المصريين يتصل بى، ولم أكن أسمع منهم إلا كلاما عن الجامعة الإسلامية. بل لقد ذكروا أن: هذه هى سياسة روستان[٦] Roustan قد بدأت تظهر من جديد.

---

(٦) روستان هو الدبلوماسى الفرنسى الذى قام بوضع الخطط الفرنسية للهجوم على تونس.

لقد بذلت قصارى جهدى من أجل تلطيف الأمور والأجــواء معهــم لحــين وصول التفسير الذى وعدنا به ماليت؛ لكن جهودى كلها باءت بالفشل. وكنا جميعًا منزعجين طوال هذه الأسابيع الثلاثة، بدءًا من تسليم المــذكرة وانتهــاء بــسقوط جامبيتا وخروجه من السلطة. ثم وصلتنا أنباء عن أنه يجرى تشكيل قوة لتجبر بعد ذلك إلى طولون Toulon، وكان ذلك هو شكل التدخل المنتظر. الواقع، أنــى لــن أكون مبالغًا إذا ما قلت إن استقالة جامبيتا فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير هى التى أنقذت مصر من كارثة، هى أكبر بكثير مما كان يمكن أن ينزل بها بعــد ذلك، أو من غزو فرنسى معادٍ للإسلام عداءً صريحًا، ولخدمة المصالح الأوروبية وحدها.

الفصـل التـاسع

سقوط شريف باشا

من الواضح أن الأزمة السياسية التي حدثت في القاهرة، في منتصف يناير ١٨٨٢ جاءت على وجه السرعة. واقع الأمر أن هذه الأزمة كانت أمرًا محتومًا. فقد تصادف نشر المذكرة المشتركة مع تقديم مسودة اللائحة الأساسية الجديدة، أو بالأحرى القانون الأساسي الذي يحدد سلطة مجلس النواب في البرلمان الموعود. كان المراقبان الماليان، فيما يتصل بهذا الأمر، مصرين مع الوزارة على بقاء السلطة التي كانت لهما على امتداد العامين الأخيرين، أي إعداد الميزانية، طبقًا لرأيهما في متطلبات البلاد الاقتصادية؛ هذا يعني أن الميزانية يجب ألا تخضع للمناقشة أو التصويت عليها في المجلس؛ وكان شريف باشا قد سبقت له الموافقة على ذلك، وكان قد أعد مشروع القانون الذي لا يعطي أي حق في الأمور المالية. كانت غالبية النواب غير راضين تمامًا عن ذلك، ومعترضين من منطلق أن المراقبة المالية الأجنبية لها وضع فريد في البلاد، باعتبارها تشرف على ما يختص بمسألة الديون، وأنه نظرًا لأن فائدة الدين تقدر بحوالي نصف الدخل، فإن النصف الأخر يجب أن يكون تحت تصرف الأمة.

ومع ذلك، ليس هناك ما يدعو إلى القول بأن النواب كانوا سيصرون على المعارضة، وبخاصة أن سلطان باشا كان قد عين رئيسًا لهم، وكان مع شريف باشا عندما وجدا أن من الأوفق الإذعان، ولكن الأمور تغيرت في آخر الشهر على ما كانت عليه في بدايته. كان واضحًا للعيان أن وزارة الحربية قد توصلت إلى حل مع المراقبين الماليين في مسألة مخصصات الجيش. والآن، وفي ظل تهديد المذكرة المشتركة، لم يعد النواب في حال تسمح لهم بالمصالحة والمسالمة، ومن ثم واجهوا مسودة مشروع القانون التي قدمها شريف بمشروع مضاد من عندهم، أضافوا إليه بعض المواد إلى اللائحة، موسعين بذلك سلطات البرلمان توسيعًا كبيرًا، وأخضعوا نصف الميزانية التي لا علاقة لها بفوائد الديون للتصويت من قبل المجلس. وقد

أدى ذلك إلى دخول المراقبين الماليين فى صراع مع مجلس النواب. وهنا أعلن المراقبان الماليان أن من الضرورى جدا بقاء الميزانية بكاملها فى أيديهما بلا تقسيم، واستنكرا المشروع المضاد باعتباره مشروعا، ليس صادرا عن برلمان وإنما عن "مؤتمر" Convention. وهذه العبارة مشتقة من تراث الثورة الفرنسية، وهى بلا شك من عنديات بلنييرى، لكن كولفن استخدمها وفرضها على السير إدوارد ماليت.

إن هذا النزاع خطير يمكن أن يؤدى إلى ما كان ماليت يخشاه، وقد يعطى الفرنسيين ذريعة للتدخل على النحو الذى كانت تبتغيه فرنسا. لقد كان شريف باشا بعد أن تبنى رأى المراقبين الماليين، قد بدأ يتلقى منهما نصائح بالثبات على موقفه، فى حين كان موقف الخديو مذبذبا. ودار نزاع بين الخديو وبرلمانه فيما يتعلق بالمسألة المالية الخاصة بمصالح حملة السندات الأوروبيين، وجاء ذلك النزاع كما تتمناه الحكومة الفرنسية – إذ إن جامبيتا لا يزال فى منصبه – إذ يمكنهما التذرع بذلك فى للتدخل والإضرار بمصر.

فى ظل هذا الطارئ كان ماليت هو وكولفن غير موافقين على التدخل الفرنسى – على الرغم من رغبة كولفن فى المضى قدما فى دوره مراقبا ماليا- وطلبا منى معا مرة ثانية تقديم يد العون والمساعدة لهما، وأن أبذل محاولة أخيرة فى إقناع الثوريين من الوطنيين بالتنازل عن بعض مطالبهم، وبعد تشاورى مع الشيخ محمد عبده، الذى كان يناصر التروى والاعتدال، اتفقنا على مقابلة خاصة فى منزله، بحضور وفد منهم، وأن نناقش معهم المسألة، ونوضح لهم النتائج المحتملة التى يمكن أن تترتب على المقاومة – وبخاصة التدخل المسلح. وعليه ناقشت مسألة المراقبين الماليين مع كولفن، وحددت مع السير إدوارد ماليت نقاط وأساليب الجدل المختلفة التى يمكن أن أستعملها. وقد دونت هذه الأساليب فى بحث لى بعنوان "ملاحظات عما ينبغى علىَّ قوله لأعضاء البرلمان المصرى فى السابع عشر من يناير عام ١٨٨٢".

على هذا الأساس، وبعون من صابونجي والشيخ محمد عبده، ناقشت معهم القضية نقاشًا مستفيضًا، وأقنعت نفسي أنه ليس هناك أي سبيل للتراجع أو الاستسلام. الواقع أنهم وافقوا على تعديل ثلاث من بين المواد الأربع التي اعترض عليها المراقبان الماليان بصورة أساسية، باعتبار أن تلك المواد تعطي المجلس سلطات "المؤتمر" Convention، وجرى إدخال التعديلات التي اقترحها، فيما بعد، في اللائحة المنشورة. لكنهم أصروا إصرارا قويا على المادة الخاصة بالميزانية، على الرغم من العون والمساعدة التي أولاني إياها الشيخ محمد عبده. لم يتنازلوا حتى عن سطر واحد من هذه المادة، وعدت خاوي الوفاض لكي أخبر ماليت بالفشل الذي منيت به، واعتبارًا من ذلك التاريخ لم أقم مطلقًا بأية مهمة من مهام الوساطة بين السير إدوارد ماليت والوطنيين. لقد بذلت قصارى جهدي كيما يصل الرجل إلى حل سلمي لمتاعبه، لكن وجهتي نظرنا اعتبارًا من ذلك اليوم فصاعدًا، أصبحتا مختلفتين على نحو يصعب معه العمل مع هذا الرجل بعد ذلك. وعلى الرغم من أنني بذلت أقصى ما في وسعي لإقناع الأعيان (النواب) بالاستسلام والموافقة – لأني كنت في ذلك الوقت مقتنعا أن مصر مهددة بالتدخل – فإني لم أجد بدًا من موافقتهم على مطالبتهم بالسيطرة على نصف الميزانية، حيث إن هذا المطلب صحيح ومعقول، وذلك إن قدر للحكم البرلماني أن يصبح أمرًا واقعًا.

إن الرسائل التي أرسلها ماليت في تلك الفترة توضح أنهم جميعًا كانوا متفقين على هذه النقطة، بل إن سلطان باشا، ذلك الرجل الضعيف، الذي يسهل تخويفه، صرح للعلن بأن مشروع أو مسودة قانون شريف باشا كانت "شبيهة بالطبل؛ تحدث صوتًا كبيرًا لكنها مفرَّغة من الداخل". وفي الصراع الذي دار بعد ذلك بين شريف والأعيان (النواب) دفعني عدائي للأتراك إلى الوقوف في جانب الوطنيين بدلاً من الوقوف في جانب شريف باشا. وبناء على طلب من السير إدوارد ماليت إليَّ قبل ذلك بفترة قصيرة، قمت بزيارة لشريف باشا وناقشت الأمر معه، وحدث لدي انطباع غير طيب بعد هذا النقاش.

كان شريف باشا تركيا متأوربا، طيب النشأة والسلوك، ومـــع ذلـــك كـــان متغطرسًا ومحتقرًا للفلاحين كمسلك طبقته فى مصر. وكـــان لـــدى الـــسير إدوارد ماليت انطباع طيب وفكرة طيبة عن شريف باشا، باعتباره يجيد الفرنـــسية، ممـــا يسهِّل التعامل معه بالطريقة الدبلوماسية المعتادة، لكنى كنت أرى هذا الرجل، على النقيض تمامًا من أصحاب العقول المتزنة والرصينة الذين يشكلون العمود الفقـــرى للحركة الوطنية، الذين كانوا لا يرون شيئًا فى شريف باشا سوى رجل فرنسى من الطبقة الراقية ينظر إليهم من علٍ. كان شريف باشا مقتنعًا تمامًا بصلاحيته لحكمهم كما كان مقتنعًا أيضًا بعجزهم. ومرة قال لى: "المصريون أطفال وتجب معـــاملتهم باعتبارهم أطفالاً. لقد أعطيتهم دستورًا يصلح لهم، وإذا لم يكونوا راضـــين عنـــه فليبقوا دون دستور. أنا الذى أنشأت الحزب الوطنى، وسوف يتأكـــدون أنهـــم لـــن يستطيعوا المضى قدمًا دونى. هؤلاء الفلاحون بحاجة إلـــى الإرشـــاد والتوجيـــه". وعندما أصبح الصراع بعد ذلك بأسبوعين علنيا بين شريف باشا والـــوطنيين، لـــم يكن صعبًا علىَّ تبين الاتجاه الذى أوليه تعاطفى.

لم أكن موجودًا فى القاهرة عندما بلغنى نبأ استقالة شريف باشا فى الثـــانى من فبراير. كان فشلى فى المفاوضات سالفة الـــذكر مـــع النـــواب قـــد أصـــابنى بالاكتئاب. لقد أحسست أن قيامى بذلك التفاوض جعلنى أضحى بجزء كبيـــر مـــن شعبيتى وذيوع صيتى لدى أصدقائى المصريين، وربما لم يثقوا فى الجهـــد الـــذى بذلته لإقناعهم بالتحول عن الطريق الذى حددوه لأنفسهم؛ وعليه ابتعدت كثيرًا عن الصراع الذى لم أعد أقوى على السيطرة عليه أو المساعدة علـــى الوصـــول إلـــى هدف طيب. فى أثناء إقامتى فى فندق النيل فى الشتاء، كنت معظم الوقت أعـــيش فى مخيم فيه بعض الخيام والإبل وبعض الخدم من البدو. كان ذلك المخيم منصوبًا خارج المدينة، وكنت أتردد عليه بين الحين والآخر، لكنى الآن أقـــيم فيـــه بـــصفة دائمة. لقد كان منصوبًا فى أرض صحراوية تقع بين قصر القبة والمطرية، ثم نقل بعد ذلك إلى منطقة صحراوية صحية تسمى الزيتـــون، بهـــا بقايـــا لمـــا يـــسمى "الشادوف" Shaduf، الأثر الوحيد الذى يدل على أن المكان كان مأهولاً. كنا وحدنا تمامًا فى هذا المكان. لولا وجود مخيم آخر على بعد ميل واحد منا تقريبًا، خـــاص

بالأمير أحمد، وهو يقع خارج المطرية. لم تكن هناك أية مواصلات بين هذا المكان والقاهرة، وفي بعض الأحيان القليلة كنا نركب إبلنا إلى منطقة أو نقطة بين العباسية والفجالة، لنقوم باستئجار الحمير اللازمة لنقلنا إلى هذه المنطقة. بعد العباسية لم يكن هناك أي منزل في منطقة الرمال وفي اتجاه الشمال الشرقي. لقد تمكنت ولفترة قصيرة من نسيان السياسة، ورحت أتمتع بما أحبه حبا جما، الحياة في الهواء الطلق. ومع ذلك، كنت قد أديت خدمة أخيرة لأصدقائي بأن كتبت لهم في جريدة "التايمز" دفاعا حارا عن السياسة الوطنية المصرية. وقد حثني على ذلك صديقي، السير وليام جريجوري William Gregory، الذي سبق له إرسال أكثر من رسالة قوية بهذا المعنى، إلى الصحيفة التي كانت تقف في طليعة الصحف الإنجليزية في ذلك الوقت.

من الصعوبة بمكان المبالغة، في تلك الأيام، في أهمية رسالة على موضوع من الموضوعات، بنشر مثل هذه الرسالة في جريدة مثل جريدة "التايمز"؛ ومن الصعوبة أيضًا التأكد من أن مثل هذه الرسالة عن موضوع سياسي، سوف تقرأ من جانب السياسيين المعنيين ويُهتم بها. وليس من المبالغة في شيء أيضًا القول بأن رسالتي ورسالة جريجوري بصفة خاصة، كانتا بمثابة الوسيلة التي مكنت مصر وأعطتها مهلة لتجنب الأخطار المحدقة بها. وعندما عادت هاتان الرسالتان إلى القاهرة وجرت ترجمتهما ونشرهما في الصحف المحلية، وثق بنا إخواننا المصريون، مما أحيا ثقة أصدقائي المصريين بي بصفة خاصة. جاء ذلك، بطبيعة الحال، على حساب وُدّ السير إدوارد ماليت وحسن نيته. الذي كان شأنه شأن الدبلوماسيين جميعا يكره مسألة النشر هذه، ولذلك غضب الرجل منا، لأننا نحن الذين كنا نخدم الحكومة، اتصلنا بالصحافة من فوق رأس وزارة الخارجية، ومن فوق رأسه هو شخصيا. كان ماليت يعرف كيف يتعامل مع المراسلين الصحفيين العاديين، لكنه لم يكن يعرف كيف يتعامل معنا نحن الكتاب، أو ممارسة أي قدر من الرقابة على آرائنا. هذا يعني وضع حد للحميمية الشديدة التي كانت بيني وبين الرجل، في ذلك الوقت، وذلك على الرغم من بعض الخلافات الطفيفة التي كانت بيني وبين الوكالة. وهذا بحد ذاته أمر يرثى له، لأنه جعل ماليت، الذي كان بحاجة دومًا إلى من هو أقوى منه كي يتكئ عليه، يرتمي في أحضان أناس آخرين.

في الحادى والثلاثين من يناير، وهو اليوم نفسه الذى تغيرت فيه الوزارة فى باريس، وجدت فى انتظارى مذكرة مفادها أنى ذهبت إلى القاهرة والتقيت كولفن وجرى بينى وبينه حوار أصبحت له أهمية كبيرة فى الأحداث التى وقعت بعد ذلك، لأن هذا يعد التاريخ الذى تغيرت فيه طبيعة المراقبة الإنجليزية، ومعه أيضًا تغيرت دبلوماسيتنا تجاه الحركة الوطنية المصرية، يزاد على ذلك أن هذا الحدث، يضع على عاتق كولفن مسئوليته، عن الشرخ الكبير. الذى نجم عن مسلكه. سبق أن قلت بعض الأشياء عن شخصية السير أوكلاند كولفن. الذى كان مسئولا (إنجليزيا – هنديا) خالصا، وقويا، ومعتدا بذاته، وصاحب خبرة مارسها فى الهند فترة طويلة، لكن هذه الخبرة كانت لا تزال جديدة على دبلوماسيتنا الإنجليزية، التى تنطوى على تعاطف كبير مع الشخصية الشرقية دون حب لها، أملاً فى الاستفادة منها فى خدمة بعض الأغراض والأهداف الإنجليزية، لكن الرجل كان باردًا وغير جذاب. كنت فى مرحلة سابقة قد اصطحبت الشيخ محمد عبده لزيارته، أملاً فى إحداث نوع من التقارب والود، وقد حاولت الشىء نفسه مع الضباط المصريين. لكن سلوك السير أوكلاند كولفن أثار نفور الشيخ محمد عبده، يزاد على ذلك أن الضباط بلغوا من الحياء حدا منعهم من الذهاب معى لزيارة كولفن. الذى كان فى بعض الأحيان صريحًا بشكل مدهش. أذكر أنه قال لى ذات مرة، عندما كنا نتحدث عن نفاق الشرق وريائه، إننا نخطئ إذا ما قلنا إن الشرقيين هم سادتنا فى النفاق والرياء، فالإنجليزى الذى يجيد اللعبة ويعرف أصولها بوسعه أن يهزمهم مستخدمًا نفس أسلحتهم، وهم لا يعدون أن يكونوا أطفالاً فى مسألة الخداع إذا ما أرادوا منافستنا فى هذا المجال.

كان أوكلاند كولفن فى هذه المرة أكثر صراحة من ذى قبل، وكان الصراع بين النواب وشريف باشا على أشده، بل بلغ ذروته. وهنا سألت كولفن عن رأيه فى الموقف، فأبلغنى أن الموقف جد خطير. وبدا واضحًا أن الوطنيين مصرون على إسقاط شريف باشا، وإذا ما نجحوا فى ذلك، فلن يكون بين كولفن والوطنيين أية رابطة من الروابط، وأبلغنى كذلك أنه غيَّر رأيه فى الوطنيين تمامًا. كان الرجل يحسبهم قابلين للاقتناع، لكنه اكتشف أنهم ليسوا عمليين بالمرة، وأنه سوف يبذل

قصاری جهده لتدميرهم إذا ما وصلوا إلى السلطة. سألته عن الطريقة التى سيحقق بها هذا التدمير، للقضاء على حركة سبق أن وافق عليها، والتى أصبحت الآن خارج نطاق سيطرته أو سيطرة أى إنسان آخر - كيف؟ بغير هذا التدخل الذى كنا جميعًا نحاول تحاشيه منذ فترة طويلة. قال: إنه غيَّر رأيه أيضًا فيما يتصل بمسألة التدخل؛ وإنه يرى أن التدخل أصبح الآن أمرا ضروريا لا فكاك منه، وإنه لن يدخر وسعًا حتى يحدث. جادلته، من باب أن التدخل يعنى الحرب وأن الحرب تعنى الضم والإلحاق. قال: إنه يفهم ذلك حق الفهم. لقد شهدنا الشىء نفسه مرات ومرات فى الهند. لن تتنازل إنجلترا مطلقًا عن موطئ القدم التى حصلت عليها فى مصر، وأن من العبث الحديث عن الحقوق المعنوية وأخطاء المصريين. هذه الحقوق لن ينظر إليها مطلقًا. كرر الرجل ما قاله عن تدمير الحزب الوطنى، وأضاف أن رأيه لم يعد سرا. وأضاف أيضًا أنه سوف يعمل على حدوث التدخل، ولا بد أن يحدث ذلك، ثم الضم بعد ذلك. وأنا على يقين تمامًا من أنى لم أخطئ فى تسجيل كلامى عما دار فى ذلك الحوار. الذى لم يكن مجرد بضع كلمات عابرة قيلت، وإنما كان جدلاً دام قرابة نصف الساعة؛ وقد أثر ذلك فىَّ تمامًا مما جعلنى أحذر أصدقائى المصريين، الذين سبق أن عبرت أمامهم عن حسن نوايا كولفن تجاههم، وأنهم يجب أن يتوقعوا الشر منه. وردوا علىَّ بأنهم يعرفون ذلك، لأنهم وصلتهم بالفعل معلومات بهذا المعنى عن ذلك الرجل.

فتح هذا الحوار عينىَّ على خطر جديد. كنت قد استلمت فى اليوم السابق رسالتين مكتوبتين أولاهما من معسكر (الأحرار) والثانية من (المحافظين) فى إنجلترا، والرسالتان تحملان الإنذار نفسه والتحذير نفسه أيضًا، كان جون مورلى John Morley، فى رده على رسالة أرسلتها له أطلب إليه فيها التعاطف مع القضية الوطنية يقول: "أنا أشك فى أن ما تقوم به لن يحقق الكثير، من سوء حظ شعب مصر أنها ميدان للتنافس الأوروبى، وأن التسوية الأمينة لمصالح سكانها لن ترضى فرنسا. أنا لا أعرف طريقًا للخلاص من هذا المأزق. إنها لعنة العالم، المسماة بالسياسة العليا، التى ستفسد كل شىء". أما الرسالة الأخرى فكانت من ليتون Lytton الذى كتب يقول: "هذا القسم الصغير من الجمهور البريطانى، الذى

يهتم بالشئون الخارجية ويتعامل معها، عقولهم مشغولة ومضطربة بالوضع الزائف الذى انجرفنا إليه فى مصر، وهم يخشون ويتهيبون من الحديث بصوت عال عن هذا الموضوع. ويبدو لى أن أفكارهم عن هذا الأمر غير واضحة تمامًا. وأنا أرى دونما شك أن تلك هى الثمار الأولى لسياسة خاطئة تمامًا أفقدتنا التعاون مع ألمانيا والنمسا، ووضعتنا تحت رحمة فرنسا، تلك القوة التى لا يمكن أن يربطنا بها تحالف متين وصحيح". هاتان الرسالتان كانتا قد كتبتا قبل سقوط جامبيتا، وهنا بدأت تتناهى إلى مسامعى أصداء كلمات هاتين الرسالتين، وبخاصة كلمات مورلى التى تتحدث عن: "السياسة العليا Politique La haute"، والصادرة عن رجل، عقد العزم على إفساد وتخريب التسوية المخلصة، وأن ذلك لن يكون مناسبًا فقط لفرنسا وحدها وإنما لإنجلترا أيضًا. وقد أزعجنى تمامًا هذا الكلام. كنت فى أغلب الأحيان أحس بالأسف على كلامى الأخير مع كولفن الذى قلت فيه: "أتحداك أن تحقق التدخل أو الضم الذى تزعمه". أنا نادم على هذا الكلام لأنه أعطى الرجل حافزًا شخصيا علاوة على الحافز السياسى، فى العمل الذى قام به بعد ذلك. لقد جاء ذلك بمثابة اختبار للقوة فيما بيننا.

بعد ذلك بيومين، وبالتحديد فى اليوم الثانى من شهر فبراير، وبعد أن اكتشف شريف باشا عجزه عن جعل نواب الحزب الوطنى يوافقون على ما يريده هو، وتحت تأثير تهديد كولفن بالتدخل العسكرى، استقال شريف باشا من منصبه، وخلفه، بناء على اختيار ممثلى الحزب الوطنى، محمود باشا سامى البارودى فى منصب رئيس الوزراء، فى حين كان أحمد عرابى باشا وزيرًا للحربية، وبذلك تكون مصر قد حظيت بتركيبة وطنية(٧). سمعت هذا الخبر وأنا فى المخيم

---

(٧) كانت هناك نقطة ضعف أو نقطتان فى تشكيل الوزارة الجديدة، وكانت أهم هاتين النقطتين تتمثل فى اختيار وزير الخارجية. لم يكن محمود سامى، ولا أحمد عرابى، ولا أى زعيم من زعماء الفلاحين يعرف أية لغة من اللغات الأوروبية، ونظرًا لأن معرفة اللغة الفرنسية كانت أمرا ضروريا فى التعامل مع القنصليات، فقد جرى اللجوء إلى رجل من خارج حزبهم، ولا يعرف فكرهم، للقيام بهذه المهمة. هذا الرجل هو مصطفى باشا فهمى، وهو رجل صاحب أفكار ليبرالية إلى حد ما، لكنه عضو فى الطبقة الحاكمة القديمة، ومن أنصار شريف باشا، وكان ياورًا لإسماعيل باشا فى عام ١٨٧٨، وقد لعب دورًا خسيسًا فى اغتيال إسماعيل المفتش. وكان خوف مصطفى فهمى من بشاعة هذا العمل هو الذى جعله يتحول إلى الأفكار الدستورية. لكنه شأنه شأن شريف باشا كان يحتقر زملاءه الفلاحين. وفى ظل الأزمة التى حدثت بعد ذلك بشهرين، قام مصطفى فهمى بأداء هذه الخدمة السيئة فى المراسلات الرسمية رغم عدائه نفضيتهم. ولأن الوطنيين لم يكونوا قادرين على قراءة مذكرات الرجل أو برقياته، فإنهم أدركوا ذلك بعد فوات أوان العلاج.

الصحراوى بمزيج من أحاسيس الفرح والقلق؛ هذا القلق الذى لم يفارقنى إلا فى اليوم السابع والعشرين عندما وصلنى رد على رسالة كنت قد أرسلتها إلى جلادستون قبل ستة أسابيع وضمنتها برنامج الحزب الوطنى. والذى لا شك فيه أن التأخير فى الرد على الرسالة يرجع إلى الحرج والحيرة فيما يتعلق بالسياسة التى يتبعها اللورد جرانفيل فى التعامل مع جامبيتا. كان سقوط جامبيتا من حسن الحظ، قد أطلق أيدى حكومتنا إلى حد بعيد، وكان قد أدخل ضمن خطاب الملكة فى افتتاح البرلمان مجاز ضيق شبيه بالتعبير عن التعاطف مع الآمال الوطنية المصرية. وقد أرسل لى جلادستون هذا الخطاب فيما بعد، واختتم جلادستون رسالته بالكلام التأكيدى التالى: "أنا متأكد تمامًا أنه ما لم يحدث فشل محزن لكلا الجانبين أو لأحدهما، أو بالأحرى، فشل للأطراف كلها، فلن نستطيع الوصول بهذه المسألة إلى نهاية طيبة. لقد دونت أفكارى وآرائى الخاصة بمصر فى صحيفة (القرن التاسع عشر) قبل وقت قصير من تولى السلطة، وأنا لست على يقين من أن هناك من الأسباب ما يدعونى إلى تغيير هذه الآراء[٨]".

الإشارة هنا تقصد المقال الذى كتبه جلادستون بعنوان "العدوان على مصر"، وهذا المقال بالغ الأهمية، نظرًا لأن المقال كان استنكارًا ونقدًا لاذعًا لسياسة التدخل والضم التى حكى لى عنها السير أوكلاند كولفن. تسلحت بهذا البرهان الدال على حسن نية جلادستون، وعدت فرحًا إلى القاهرة وقلت لعرابى إنى لم أعرب له عن تعاطفى هباء. وجدت عرابيا فى وزارة الحربية ومن حوله أصدقاؤه، وكانوا يتحاورون مع بطريك الأقباط، ومع قبيلة كبيرة من المتملقين أيضًا، وبعض رجال من الشرق الأدنى ومن أوروبا، جاءوا جميعًا لتحية الشمس المشرقة. بين كل هؤلاء كان الوزير الجديد يتحرك بشىء من السمو المحترم زاده وقارًا على وقاره. لم يعد أحمد عرابى بعد ذلك العقيد قائد الكتيبة، وإنما أصبح رجلاً أكثر رصانة بسبب إحساسه بالمسئولية العامة، صحيح أنه لا يزال وطنيا، لكن من خلال أحمد عرابى السياسى. لقد انتحى بى جانبا وفرحنا نحن الاثنين بما حدث واعتبرنا ذلك فألاً حسنًا.

---

(٨) يرجى الرجوع إلى الملاحق حيث النص الكامل لهذه الرسالة.

على الجانب الآخر، لم يتعين علينا الانتظار طويلاً حتى نجنى ثمار عداء كولفن الأولى. وأنا لا أعرف بالضبط من هو منشئ هذه الكذبة، والأرجح أن يكون هو الخديو، الذى كانت غيرته وحسده يعملان عمليهما فى ذلك الوقت ضد وزرائه، لكن تقريرًا مكذوبًا أو غير حقيقى كان قد أرسل إلى أوروبا عن طريق البرق من وكالة رويتر، مفاده أن العمل الذى قام به النواب ضد شريف باشا يمكن رده إلى التهديد العسكرى. كانت هناك قصة قد حُكيت وجرى تكرارها باستفاضة فى جريدة "التايمز" مفادها أن سلطان باشا ، رئيس المجلس، لم يستسلم إلا بناء على التهديد الشخصى، وأن عرابيا سحب سيفه على سلطان باشا، وهدد بجعل أطفال الرجل كبير السن أيتامًا. تلك كانت قصة حمقاء، نظرًا لأن سلطان باشا لم يكن له أطفال، وسخر الناس كلهم فى القاهرة من هذا الكلام، وبخاصة أن هؤلاء الناس كانوا يعرفون حقيقة الأمر، وأن أحمد عرابى وسلطان باشا كانت تربطهما صداقة حميمة؛ لكن هذه القصة الملفقة كانت كافية "لتدمير الوطنيين"، وأدت بسهولة إلى فرض الرقابة على الوكالة وبخاصة على برقيات ماليت Malet، نظرًا لوجود قصة مشابهة، جرى إرسالها عن طريق البرق، ومفادها أن قبول الخديو لاستقالة شريف باشا جرى انتزاعها فى ظل ظروف مماثلة.

ومع ذلك، فإن الشيء المضحك فى هذه الحكاية هو استياء سلطان باشا منها، ولما كنت فى ذلك الوقت معروفًا بأنى صديق للنواب فقد طلب منى سلطان باشا زيارته وأن أبلغ السير إدوارد ماليت باستنكار سلطان باشا لهذه الحكاية كلها. وعليه قصدت منزل سلطان باشا، حيث جمع عددًا كبيرًا من النواب وكبار الشخصيات، ومن بينهم سيادة المفتى العباسى، وعبد السلام بك المويلحى، وأحمد بك السيوفى، وأحمد أفندى محمود، وهمام أفندى حمادى، وشديد بطرس، وهو نائب قبطى بارز. كل هؤلاء هم وسلطان باشا، استنكروا تمامًا وكذبوا الفكرة التى مفادها أنهم تصرفوا تحت أى نوع من الضغوط، وتحدث سلطان باشا وهو مستاء من سخافة تلك الحكاية فيما يخصه هو. قال سلطان باشا: "أحمد عرابى بمثابة ابن لى، ويعرف ما يخصنى وما يخصه هو. مكانه وزارة الحربية، ومكانى فى البرلمان. وهو الذى يتلقى منى النصح ولا يمكن أن يجرؤ على إسداء النصح لى

فيما أقوم به، أما فيما يتعلق بسحبه سيفه عليَّ فإنه لن يفعل ذلك مطلقًا إلا إذا هاجمني أحد أو اعتدى عليَّ أعدائي. هذه حكايات لا يمكن لأحد ممن يعرفوننا حق المعرفة تصديقها مطلقًا، وهي كلها حكايات كذب في كذب. يجب أن تتأكدوا أن أقل الأعضاء الممثلين للشعب هنا هم الأقدر على معرفة ما يريدون أكثر من قادة العسكر". هذا الكلام الذي أوردته هنا عن سلطان باشا مقتبس عن مذكرة أعددتها أنا عن هذا الكلام في ذلك الوقت. تحدث أيضًا سلطان باشا العجوز حديثًا مريرًا عن تشجيع ماليت لصُنَّاع الأخبار، ورجاني أن أُبلِّغ هذه الحقائق لماليت، وأن أبرق بها أيضًا إلى جلادستون، وأن أنشرها في الصحف اللندنية. ونفذت ذلك بقدر المستطاع. وأرسلت تقريرًا كاملاً عن هذا الموضوع إلى جريدة "التايمز"، على الرغم من عدم نشر ذلك التقرير، إذا لم تخني ذاكرتي، لسبب أو لآخر، كما أرسلت برقية بنفس المعنى إلى السيد جلادستون، كما أرسلت له رسالة أخرى مطولة أوضحت له فيها رأيي في الموقف العام.

اتجهت من منزل سلطان باشا قاصدًا ماليت ودخلت معه في نقاش ساخن. لكن الرجل أصر على صدق الحكاية، التي سمعها، وقال لي في بداية الأمر إنه سمع هذه الحكاية، من سلطان باشا نفسه، ثم عاد وقال إنها سمعها من مصدر آخر "من شخص يمكنه الاعتماد عليه"، وعندما ألححت عليه أن يكشف عن ذلك الشخص، هاج وماج وقال ليس من حقي استجوابه. كان ذلك هو آخر حديث بيني وبين ماليت في مسائل السياسة. وقد أثبت لي موقف ماليت الجديد، أنه مثل كولفن تمامًا، قد انضم إلى معسكر الأعداء، وأصبح منذ ذلك الحين لا يمكن الوثوق به. وهنا تبينت أن الموقف أصبح جد خطير، لأنهما – ماليت وكولفن – كانا على صلة وثيقة بالصحافة ووزارة الخارجية، وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء في إنجلترا كان يحب الاستماع إلى آرائي ويأنس لي، وعلى الرغم أيضًا من ذيوع صيت آرائي في جريدة "التايمز"، فقد أحسست أني أقاومهما بشكل غير متكافئ. وعليه قررت عدم تأخير عودتي إلى إنجلترا، التي أستطيع فيها خدمة المصالح المصرية بشكل أفضل مما لو كنت في القاهرة، وذلك عن طريق المشافهة وعن طريق

الاتصال الشخصى بجلادستون. وقبل سفرى إلى إنجلترا جرت بينى وبين النواب البارزين محاورات؛ كما جرت بينى وبين أصدقائى فى الأزهر حوارات، وأبلغتهم عن خطتى، التى وافقوا عليها جميعًا؛ واتفقت مع السير وليام جريجورى، أن يواصل بعد رحيلى، دفاعه عن القضية الوطنية، التى كان متحمسًا لها مثلى تمامًا، وذلك فى جريدة "التايمز" وعن طريق الرسائل التى يرسلها إلى أصدقائه فى إنجلترا. كما عزمت على العودة إلى القاهرة بعد بضعة أسابيع لكى أشارك فى التطورات التى قد تنشأ بعد ذلك.

قمت بزيارة أخيرة لعرابى صباح يوم سفرى إلى لندن المصادف لليوم السابع والعشرين من شهر فبراير. وكان قد مضى عليَّ فى مصر ما يزيد قليلاً على ثلاثة أشهر، بدت لى وكأنها حياة كاملة، استغرقتنى طوالها المهام والمصالح التى كلفونى بها. كنت أنظر إلى مصر باعتبارها وطنا ثانيا ومن ثم قررت أن أربط مصيرى بمصير المصريين كما لو كانوا أبناء وطنى. كنت أحس بأنى غريب على أبناء وطنى من حيث الدم والنسب، باستثناء جريجورى، الذى كان يشكل الجالية الإنجليزية الصغيرة فى القاهرة، فى ذلك الوقت. واتباعًا لكولفن Colvin ذهب كل الإنجليز الموجودين فى القاهرة يؤيدون مثل الأغنام فكرة التدخل ويناصرونها، وهنا ينبغى التنويه إلى أن التدخل هنا ليس هو التدخل الفرنسى الذى يجرى الحديث عنه وإنما التدخل الإنجليزى، وسرعان ما تحولت حقارة العدوان فى عيون الإنجليز، إلى واجب. وهذا الذى كان يثير الاشمئزاز والغثيان فى زمن جامبيتا أصبح الآن يروق للإنجليز باعتباره شيئًا عادلاً ومطلوبًا ووطنيًا عندما يقترحه جرانفل Granville. وبالطريقة نفسها نجد رئيس الوزراء فى فرنسا فريسينيه Freycinet، بعد أن عكس سياسة سلفه الخاصة بالتدخل، كانت الجالية الفرنسية تعيش فى سلام مع الوطنيين، كل أفرادها اللهم إلا باستثناء دى بلنييرى Blignieres، هو وأولئك الذين كانت لهم مناصب رسمية وخافوا الضغوط التى يمكن أن يمارسها عليهم العهد الجديد.

راح كل من كولفن ودى بلنييرى ينشر القلق والفزع بين أصحاب الوظـائف والمناصب الفارغة، ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا كيف أن الـشاعر اللـورد هوتون Houghton تخلى تمامًا وبصورة مفاجئة عن موقفه الرومانسي المتعـاطف مع الحرية المصرية، عندما أبلغه زوج ابنته فيتزجرالد Fitzgerald، أحد شـاغلى هذه الوظائف الفارغة، أن مسألة الحرية المصرية هذه تهدد مصدر رزقه.

من المعروف، أن جزءًا من البرنامج الوطنى يتمثل فى تخفيض الإنفاق فى الرواتب غير الضرورية وضغط الوظائف والمناصب المتكررة. لم يعزُ كولفن ذلك التخفيض والضغط إلى أسبابه الحقيقية، وهى أسـباب اقتـصادية صـرفة، وإنمـا "للتطرف"، تلك الكلمة المناسبة التى راج استـعمالها وذاع فـى وصـف الحركـة الوطنية المصرية. من جانب آخر، أعتقد أن الشيء الآخر الذى كان محطًا لمزيـد من الانتقاد والإدانة فى ذلك الوقت، من قبل مجموعة صـغيرة مـن المـسئولين الإنجليز، هو التصميم الحاسم من جانب البرلمـان المـصرى، إذا مـا قـدر لـه التصويت على الميزانية، على تخفيض الإعانة المقدرة بألف جنيه إنجليـزى فـى العام، والتى تقدم لوكالة رويتر. فمن دون ذلك سوف يستحيل على هـذه الجاليـة الإنجليزية الصغيرة أن يعرفوا فى القاهرة أخبار سباق القـوارب بـين جـامعتى أكسفورد وكمبردج، أو معرفة أخبار سباق الخيل، أو أخبار الجائزة الكبـرى فـى التنس. كان هناك أيضًا تلميح سيئ وأسود، إلى احتمال تخفيض مبلغ تـسعة آلاف جنيه إسترليني كل عام، والتى تمثل منحة من الميزانيـة لمـساعدة دار الأوبـرا الأوروبية، وتأسيسًا على الدليل القاطع على "التطرف" راح فيتزجرالد يتحرك مـن باب أنه المسئول عن رعاية الباليه. هذه الأشياء هى وأشياء أخرى تافهـة، جعـل منها الإنجليز الذين كانوا يعارضون هذه التخفيضات جريمة ارتكبها النـواب هـم والوزارة الجديدة. كان من عادتى الاستماع إلى شكاواهم من خلال جريجـورى، الذى أصبح على اتصال أوثق بهم أكثر منى. وردًا على هذه التهديدات بالتـدخل، والتى بدأت تؤثر على سوق الأوراق المالية وتدفعها إلى الانخفاض، وبخاصة فـى أسعار السندات المصرية وأسعار الأطيان والممتلكات فى مصر، لذا قـررت فـى ذلك الوقت تقديم دليل على ثقتى فى الثروة الوطنية، بأن اشتريت ضـيعة صـغيرة لإقامتى المستقبلية فى ضاحية قريبة من القاهرة، هى حديقة الشيخ عبيـد، وهـى ضيعة تقدر مساحتها بحوالى أربعين فدانا، تقع فيما بين المرج والمطرية.

من الميم للقارئ المصرى أن يعرف أسعار الأرض فى تلك الضاحية فـــى ذلك الوقت. لم يكن هناك فى ذلك الوقت، كما سبق أن أسلفت، مجرد بيـت واحـد مبنى على الشريط الصحراوى بين العباسية وكفر الجاموس، وكانت الحكومة تـود بيع هذا الشريط بواقع بضعة قروش للفدان الواحد، وهنا خطر ببالى فى لحظة من اللحظات تثبيت نفسى على الأرض، فى المنطقة المقام عليها مخيمى الحالى، وهنـا رحت أتحرى الأمر عند صديقى روجرز Rogers بك، الذى كان يعمل فـى إدارة الأراضى فى وزارة المالية، وعثرت بين أوراقى على مسودة طلب كنت قد أرسلته لشراء مساحة مائة فدان، الموجود عليها ضاحية الزيتون الحالية، والتى عرضـت شراءها، بناء على اقتراح من روجرز، بخمسة عشر قرشًا (ثلاثة شـلنات) ثمنًـا للفدان الواحد. هذه الأرض نفسها ونحن الآن فى العام ١٩٠٤، يساوى الفدان منهـا ما لا يقل عن مائتى جنيه. لكنى عندما كنت أتفاوض بشأن هـذه الأرض بلغنـى مصادفة أن حديقة الشيخ عبيد معروضة للبيع، فقمت بشرائها "علانية" مـن لجنـة الممتلكات الأميرية بمبلغ ١٥٠٠ جنيه إنجليزى؛ كانت حديقة الشيخ عبيـد أفـضل الحدائق المثمرة فى مصر، وكان يحيط بها سور، وماؤها غزير ووفيـر، وكانـت تضم حوالى ٧٠٠٠٠ شجرة من أشجار الفاكهة، وكلها منظمة تنظيمًا طيبًا ورائعًا.

تاريخ هذه الحديقة جدير بالتسجيل. الحديقة قطعة من الأرض الخصبة تقـع على حافة الصحراء، كانت مملوكة فى مطلع القرن التاسع عـشر لإمـام جـيش إبراهيم باشا فى أثناء الحملات التى قام بها على الجزيرة العربية، لكن الإمام بعـد أن نزلت به ضائقة وظروف قاهرة، اشتراها منه الباشا، وسور ثلاثة وثلاثين فدانًا منها بسور، وحفر لها السواقى المطلوبة، وجعلها منـذ مطلـع الثلاثينيـات تبـدو بالصورة التى هى عليها الآن. أشجار الفاكهة التى زرعت فى هذه الحديقة جُلِـب جزء منها من الطائف فى بلاد الحجاز، وجُلِب الجزء الآخر مـن سـوريا. كـان إبراهيم باشا يتمتع بعاطفة قوية تجاه زراعة الحدائق، ولم يدخر الرجل وسعًا فـى جعل هذه الحديقة أبهى وأروع أنواعها، وفى زمنه وزمن ابن أخيه مصطفى، الذى آلت إليه ملكية هذه الحديقة، كانت الحديقة تعطى دخلا سنويا يقـدر بحـوالى ٨٠٠ جنيه إنجليزى، وكانت العمالة فيها تجرى بواسطة السخرة للفلاحين مـن القـرى

المجاورة. بلغ رمان هذه الحديقة من الكبر حدا، أصبح من المتعارف عليه بين البساتين أن ثلاثين فحلاً من هذا الرمان تشكل حملاً لجمل من الجمال، وأن ذلك الرمان كان يرسل كل عام إلى إسطنبول على سبيل الهدية للسلطان. والمؤكد أنه في عصر توفيق باشا، حفيد إبراهيم باشا، وعندما كان يعيش في قصر القبة، في أثناء حكم والده إسماعيل، كان من عادة نسائه أن ينقلن إلى هذه الحديقة في يوم الجمعة في فصل الربيع لتمضية اليوم هناك. وفي عام ١٨٧٩، وفي أثناء الدمار الذي حاق بإسماعيل باشا، عادت الحديقة إلى مفوضي الأملاك الأميرية، وأصبحت واحدة من الضيعات المعروضة للبيع، وبذلك يكون عثوري عليها من باب المصادفة. كنا ونحن في طريقنا إلى سوريا في العام السابق قد خيمنا مدة ليلة واحدة خارج أسوار هذه الحديقة ورحت أتعجب من جمالها، عندما كانت أشجار المشمش مزدهرة. وما إن سمعت عن خبر عرض هذه الحديقة للبيع، أوقفت تمامًا كل مشاريع الشراء الأخرى؛ وهأنا اليوم جالس في أحد مساراتها الظليلة أكتب مذكراتي عن هذا اليوم.

أعود ثانية إلى زيارة التوديع التي قمت بها إلى أحمد عرابي. ناقشنا وتحدثنا سويا في هذه الزيارة في المسائل التي كانت مثار حديث الناس في تلك اللحظة وبخاصة الوطنيين وخططهم الإصلاحية وآمالهم ومخاوفهم في الداخل والخارج. يضاف إلى ذلك أن الأسابيع القليلة التي مضت على عرابي في هذا المنصب العالي صقلته وقوته، وناقش معي أشياء من مختلف جوانبها ولغتها. وأكد لي أحمد عرابي أنه هو ورفاقه الوزراء يتطلعون إلى التوصل إلى فهم كامل مع الحكومة الإنجليزية حول المسائل مثار الجدل والخلاف بين الوزراء الوكالة في القاهرة؛ ورجاني الرجل أن أنقل إلى جلادستون رسالة رسمية بهذا المعنى. واشتكى أحمد عرابي، من جانب آخر، من كل من ماليت وكولفن، اللذين كشف عملهما والدور الذي لعباه في تشويه الحقائق في الصحف، عن عدائهما للوطنيين، قال عرابي: "لن تشهد القاهرة الهدوء، ما دمنا أننا سنتعامل مع هذين الاثنين، نظرًا لأننا نعرف أنهما يتآمران علينا في السر، إن لم يكن في العلن. سنحيدهما ونبتعد عنهما. لكننا لهذا السبب لا نود الشجار مع إنجلترا. لعل جلادستون يرسل لنا أولئك الذين يود لهم أن

يتعاملوا معنا وسوف نستقبلهم بأذرع مفتوحة". تكلم عرابى باستفاضة أيضًا عن الإصلاحات العملية التى سيقوم بها محمود سامى هو والوزراء الآخرون، والتى اعتبرت ضمن المزايا التى حصلت عليها البلاد فى ظل الاحتلال الإنجليزى، وقال عنها اللورد كرومر إنها من إنجازه هو، كإلغاء السُخْرة التى كان الباشوات الأتراك يفرضونها على القرويين، وأيضًا إلغاء احتكارهم للماء فى زمن الفيضان، وحماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين كانوا يسيطرون عليهم، وحمايتهم من الإضرار بهم عن طريق المحاكم المختلطة، كما جرى إنشاء بنك زراعى تحت إدارة الحكومة، ذلك الذى يتباهى به اللورد كرومر، لكى تعالج المظالم الزراعية.

كانت مسألة العدل والعدالة من بين المسائل الأخرى التى ناقشناها، وكان الفساد متفشيًا فيها فى ذلك الوقت، وناقشنا تعليم الرجال والنساء، وطريقة الانتخاب التى ينبغى السير عليها فى البرلمان، كما ناقشنا أيضًا مسألة العبودية (الرقيق). وأطنب عرابى وأطال فى هذه النقطة، نظرًا لأن الموظفين الأوروبيين فى الإدارة العاملين فى مجال إلغاء الرق، بدأوا يتخوفون مثل سائر الموظفين الأجانب الآخرين، من أن رواتبهم فى المشروع الاقتصادى الوطنى الجديد، سيجرى تخفيضها، كما كانوا يدعون أن إحياء النظام الإسلامى سوف يؤدى إلى إحياء نظام الرق والعبودية وتجارتها. وأثبت لى عرابى أن تلك الادعاءات واهية وليس لها أساس من الصحة، كما أوضح لى أيضًا أن الأشخاص الوحيدين فى مصر الذين لا يزالون يحتفظون بالعبيد ويودون أن يكون لديهم عبيدهم الأمراء الخديويون والباشوات الأغنياء، الذين ثار عليهم الفلاحون؛ وقال لى أيضًا: إنه فى ضوء الإصلاح الليبرالى فإن الرجال اعتبارًا من ذلك التاريخ فصاعدًا متساوون وبلا أى تمييز من ناحية العرق، أو اللون، أو الدين. وإحياء العبودية هو آخر ما يمكن أن يتماشى مع هذه الإصلاحات. أخيرًا، وفيما يتصل بمسألة الاستعداد للحرب المحتملة، والتى يضعها على رأس اهتماماته كلها بحكم عسكريته وبحكم أنه وزير الحربية، راح الرجل يتكلم باستفاضة ووضوح وقوة. الحكومة الوطنية لن تلقى سلاحها أو تسترخى إلا بعد إقامة النظام الدستورى على أسس راسخة وعلى النحو الذى تعترف به أوروبا وتقره. وتمنى الرجل ألا تتجاوز المخصصات الحربية التى

جرى الاتفاق عليها مع كولفن، أو إذا ما دعت الضرورة إلى زيادة عدد المجنـــدين عن ١٨٠٠٠ جندى الواردة فى الفرمان. ومع ذلك، إذا ما استمر التهديد بالتـــدخل المسلح طويلاً فإنهم قد يلجأون إلى استعمال النظام البروسى Prussian الذى يجعـــل مدة الخدمة العسكرية قصيرة، الأمر الذى يترتب عليه وجود عدد كبير من القوات الاحتياطية تحت السلاح. سألنى أحمد عرابى عن رأيى فى مسألة الصراع، وقلـــت له بمنتهى الوضوح: من واقع ذلك الذى تباهى به كولفن أمامى عن نيته فى التدخل العسكرى، وفى ضوء الاستياء الصحفى الذى ولَّده كولفن لدى الـــصحافة تمهيـــدا لذلك التدخل، فأنا أرى أن هذا الخطر أمر حقيقى؛ قلت ذلك أيضًا ومن باب تحييـــد حملة الأكاذيب قدر المستطاع، التى كانت قد بدأت حول مسألة ذهابى إلى إنجلترا. كانت مهمتى فى السفر إلى إنجلترا تنطوى على قضية الـــدعوة للـــسلام وحـــسن النوايا. فى ذات الوقت لم أنصح عرابى بأكثر من الثبات علـــى مبدئـــه. وأفـــضل فرص السلام هى أن تكون مستعدًا للدفاع. ألد أعـــداء الحكومـــة المـــصرية هـــم الممولون الأوروبيون وليست الحكومات الأوروبية؛ هـــؤلاء الممولـــون يفكـــرون مرتين فى الحث على الهجوم المسلح والتحريض عليه، إذا ما استشعروا أنهم لـــن يستطيعوا ذلك ودون المخاطرة بتدمير مصالحهم فى مصر عن طريق حرب طويلة ومكلفة. ويندر أن تُهْزَم أمة تسلحت، وصممت واستعدت للدفاع عن نفسها. أذكـــر أنى قرأت لعرابى بعض أبيات من شعر اللورد بايرون كنوع من الاستشهاد "لا تثق فى الفرنجة عند طلب الحرية"، ووافق عرابى تمامًا على ذلك الاقتباس؛ وكان ذلك آخر كلام بينى وبينه. ووعدته إنه إذا ما ساءت الأمـــور فـــسوف أعـــود وأربـــط مصيرى بمصيرهم فى قضيتهم من أجل الاستقلال.

الفصـــل العـاشـــر

مرافعاتى فى مجلس الوزراء البريطانى (داوننج ستريت)

هذا هو التاريخ الكامل للدور الذى لعبته فى شتاء ذلك العام فى مصر. وقد اعتمدت فى دقة الحكى على تذكرى للأحداث الرئيسية التى دونتها ضمن الرسائل والملاحظات القصيرة، التى أمكننى العثور عليها بين أوراقى، وبخاصة تلك الرواية التى دونتها بنفسى طوال الحرب التى فى دارت خلال عام ١٨٨٢، والتى نشرت فى عدد شهر سبتمبر من مجلة "القرن التاسع عشر" من ذلك العام. وأنا فى الوقت الراهن لا يَعْلَقُ فى ذاكرتى من تلك الرواية سوى الصدى. وما أورده هنا سيكون شيئًا جديدًا تمامًا، لأنه على الرغم من تدوين القسم الأكبر منه بطريقة مفككة وغير مترابطة، لم تتهيأ لى مطلقًا اللحظة التى يمكننى فيها إكمال هذا العمل. وفيما يتعلق بالتواريخ والأحداث، لدى ما يكفينى من المواد ذات القيمة المعاصرة، منها أولاً على شكل مفكرة يومية مختصرة، بدأت التدوين فيها اعتبارًا من أول يوم وصلت فيه إلى إنجلترا، ومنها ثانيًا كثير من الرسائل المنشورة وغير المنشورة التى لا تزال فى حوزتى، والتى جرى تبادلها مع مختلف الشخصيات العامة، التى وجدت نفسى أتبادل معها الرسائل طوال الأشهر الأربعة التى انقضت فيما بين وصولى إلى إنجلترا وقصف الإسكندرية بالقنابل؛ وبعد التل الكبير، مع أولئك الذين كانوا يقومون بمحاكمة عرابى. هذه الأشياء والأمور تشكل مجموعة من الأدلة، التى سوف أقتبس عنها إذا ما دعى الداعى إلى ذلك، وسيكون ذلك الاقتباس فى ثنايا نص روايتى، أو قد يكون ذلك فى الملاحق التى فى نهاية الكتاب. هذه الأشياء إذا ربطناها مع بعضها، مع تزويدها بالتفسير الضرورى، تشكل تاريخًا كاملاً لتلك الحرب. كان الموقف السياسى الذى وجدته فى لندن عندما وصلت إليها فى اليوم السادس من شهر مارس، على النقيض تمامًا من الموقف الذى خلفته ورائى قبل أسبوع فى القاهرة. كان جلادستون قد مضى عليه عامان فى منصبه، وكان حماسه للوطنيين فى الشرق وحرية الشرق، اللذان أوصلاه إلى السلطة فى انتخابات عام ١٨٨٠، قد خمدا وفترا فى كل مكان، وفى المحافل

الرسمية حيث بدأت أفكار القهر الإمبريالى تحل محل هذا الحماس وتلك الحرية، وبخاصة فيما يتعلق بالوطنيين فى أيرلندا، الأمر الذى كان له انعكاس طيب على مصر. كان مجلس الوزراء منقسمًا إلى قسمين فى الرأى. كان كبار الزعماء المحافظين الذين كانوا يتولون إدارات رئيسة فى الإدارة، مثل هارتنجتون، ونورثبروك Northbrook، وشيلدرز Childers، كانوا جميعهم يؤيدون الإجراءات العنيفة والقوية، لكن جلادستون وهاركورت وبرايت Bright، وحدهم كانوا يميلون للمسالمة، وكان الشعور العام فى البلاد عنيفًا فى مواجهة "العصيان ومخالفة القانون" Law Lessness فى كل مكان. وعليه جرى فى أيرلندا تعليق قانون هابياس Habeas، وجرى أيضًا احتجاز بارنل Parnell ومعه حوالى عشرين آخرين من أعضاء البرلمان الوطنيين بلا محاكمة فى مدينة كيلمنهيام Kilmainham. وجرى الاعتراض على هذا العمل فى مجلس العموم من قبل باقى الأعضاء الأيرلنديين، وتحول اسم الوطنية Nationalism نفسه عند حزب الأحرار إلى مجرد كلمة ثانوية ولعنة أيضًا. لم يكن الجو السائد فى الوستمنستر Westminister (مجلس الوزراء) والمكاتب العامة مناسبًا بالمرة للدعاية الدائرة للوطنية فى أرض النيل. كان الأشخاص المهتمون بمصر يتمثلون فقط فى أولئك الذين يحملون الأسهم والسندات المصرية، وهؤلاء أمكن إقناعهم عن طريق الصحافة بالتضليل من قبل كولفن؛ ثم إقناعهم بأن عرابيا هو والحزب الوطنى يشكلون مجموعة متشددة ومتطرفة، يمكن أن تؤدى إلى إحراق وهدم سوق الأوراق المالية إذا ما أتيحت لهم الفرصة، وأنهم نجحوا بالفعل فى تخفيض قيمة الودائع وإحداث حالة من الاضطراب فى الأرباح.

وفى وزارة الخارجية كان الموقف على النحو التالى. وجد جرانفل، ذلك الرجل العجوز الأصم الكسول نفسه، قد تخلص من كابوس سياسة جامبيتا، وراح يمشى طبقًا لما تمليه عليه غريزته التى لا تدفعه إلى عمل شىء وترك الأمور تسوى نفسها بنفسها حسبما تسمح به الظروف. لم يكن الرجل يود التدخل أو القيام بعمل عدائى ضد الوطنيين، أى عمل من أى نوع كان؛ بل إن الرجل لم يكلف نفسه حتى قراءة البرقيات، وترك مسألة معرفة ما يجرى لسكرتيريه الخصوصيين،

وبالذات وكيل الوزارة السير شارلز ديلك، الذى كان يقوم بغربلة الأخبار وتقديمها لجرانفل، كما كان يضع أمامه أيضا الحقائق التى تروق له شخصيا، هى والآراء والمواقف التى يختارها بنفسه.

لقد كان ديلك مع جامبيتا، المسئول عن المذكرة المشتركة المؤرخة فى السادس من يناير، ومن هنا وجد نفسه بعد اختفاء جامبيتا وابتعاده عن توجيه الأمور فى فرنسا، اللاعب الرئيسى وبطريقته الخاصة فى سياسة التدخل الأجنبى، وكان يعمل بالاشتراك مع كل من كولفن والممولين من أجل جعل ذلك التدخل حقيقة وأمرًا واقعًا، وبذلك يضطر رئيسه الرافض لذلك التدخل، إلى الإذعان والموافقة عليه رغمًا عنه. وعلى الرغم من أن ديلك لم يكن هو نفسه وزيرًا فى مجلس الوزراء، فإنه كان يعتمد على مساعدة كبيرة من وزارة تشمبرلين Chamberlain، الذى كان صديقا شخصيا وحليفا لديلك، نظرًا لأن تشمبرلين لم يكن يتقن الشئون الخارجية، مما جعله يعتمد على ديلك. كان الاثنان قد ذاع صيتهما باعتبارهما أكثر الراديكاليين تقدمًا فى الوزارة، الأمر الذى جعل لهما وزنا كبيرًا فى هذه المسألة لدى ذلك القطاع من حزب الأحرار، والذى لم يكن ميالاً إلى المغامرات الأجنبية. كانت أغلبية الراديكاليين فى مجلس العموم لا تعرف شيئا عما يدور، ولم تكن مهتمة بمناقشة الأمور التى تجرى فى مناطق بعيدة عن البلاد.

على الرغم من ذلك، اكتشفت أن بوسعى أنا شخصيا جذب المزيد من الاهتمام. لقد كانت رسائلى إلى جريدة "التايمز" تقرأ على نطاق واسع، وكان هناك فضول غريب إلى الاستماع إلى ما أقول. وأفلحت أنا وجريجورى فى إحاطة عرابى بهالة رومانسية، يستحقها فعلاً باعتباره بطلاً فى مكافحة المظالم التى تنزل بالفلاحين، ومن منطلق، هو أن الناس تقرأ وتستمع إلى ما أكتب. وانتشرت من حول عرابى شائعات كثيرة ومتباينة، حكايات كيدية تنطوى على السخرية والاستهزاء وتصور الرجل على أنه فرنسى أو إسبانى يرتدى ثيابًا مصرية؛ وصوروه أيضًا على أنه العميل المأجور للخديو إسماعيل، وأنه عميل للأمير حليم المطالب بالعرش، واتهم أيضًا بأنه عميل للسلطان، لقد وصفوه بكل ما ليس فيه. وأنا الذى رأيته والتقيته قادر على تفنيد ذلك كله. لم تكن هذه الشائعات تشغل أى إنسان بأى حال من الأحوال، ولكنها، كما سبق أن أوضحت، مجرد فضول كبير ليس إلا.

جاءت أول زيارة بعد وصولى إلى لندن إلى مقر مجلس الوزراء البريطانى فى ١٠ داوننج ستريت. على الرغم من أنى لم ألتق جلادستون نفسه؛ فإنى عثـرت على صديقى هاميلتون، سكرتير جلادستون الخاص، ودار بيننا حوار مقنع تمامًا. كنت متشككًا إلى حد ما فى مسألة استقبال جلادستون لى، بعد الشجار الذى دار بينى وبين ماليت. لكن هاميلتون سارع إلى إبلاغى والتأكيد لى على أن "تدخلى" فى دبلوماسية ماليت لم يؤد إلى استياء رئيسه من هذا التدخل. وعلى العكس من ذلك، كان جلادستون ممنونًا لى كثيرًا على الرسائل التى كنت أرسلها إليه، والخط الذى كنت أسير عليه فى مصر. كان جلادستون مشغولاً تمامًا فى ذلك الوقت، وبخاصة فى هذا الوقت من العام، إذ كان الوقت يصادف الأسابيع القليلة السابقة لعيد القيامة، وكانت أفكار الوزراء وفكرهم مركزة فى اتجاهات أخرى غير مصر. كانت المشكلة الأيرلندية تسيطر على كل ما عداها فى ذهن جلادستون. ومع ذلك، كان بوسعى أطمئن نفسى من ناحية الأخطار التى توشك أن تحل بالقاهرة. هذه الأخطار لا يمكن أن تفضى إلى متاعب خطيرة. وأيا كانت تلك الأفكار التى طرحت فى وزارة الخارجية، فإن جلادستون سوف يتأكد من عدم وضعها موضع التنفيذ. هذا يعنى أن التدخل المسلح، أو مجرد التفكير فيه فى أثناء وجود جلادستون فى السلطة، يعد "أمرًا مستحيلاً". بل ومدعاة للسخرية والاستهزاء. وسوف أتحدث عن هذا الأمر مرة ثانية، بخاصة أننى سوف أقابل جلادستون بعد ذلك. فضلا عن أن هاميلتون سوف يبلغ اللورد جرانفيل بوصولى. وتركت هاميلتون وأنا واثق ومتأكد تمامًا من حقيقة الأمور.

قمت بزيارة أخرى فى اليوم نفسه إلى ابن عمى ألجرنون بورك Algernon Bourke (المعروف آنئذ عند أصدقائه باسم بتون Button). كان دور ابن عمى المخصص له فى مصر دورا مهما، ولهذا فإن اسم الرجل، أو بالأحرى اسمه المستعار يتردد كثيرًا فى مفكرتى. كان مركزه فى الحياة، مركز شاب يعيش حياة عصرية وعلى ارتباط وثيق بالدوائر الرسمية، فقد كان هو أصغر أبناء اللورد مايو Mayo الذى كان نائبا للحاكم فى الهند، كما كان ابن أخ روبرت بورك Robert Bourke (الذى أصبح فيما بعد اللورد كونيمارا Connemara)، الذى سبق أن شغل

منصب وكيل وزارة الخارجية، ثم أصبح الآن، عام ١٨٨٢، زعيمًا للمعارضة العمالية فى مجلس العموم فى كل ما يتعلق بالشئون الخارجية. كان بتون Button صاحب منصب أيضًا فى مجلس إدارة جريدة "التايمز"، لا من منطلق أنه كاتب، وإنما لكونه وسيط المحرر شينرى Chenery، لدى الشخصيات السياسية. وباعتباره الابن الأكبر لواحد من اللوردات كان من حقه الدخول إلى مجلس البرلمان، الأمر الذى مكنه من معرفة الناس جميعًا وكل ما يدور داخل المجلسين، وكان الرجل على علاقة حميمة مع الناس فيما يتصل بالبلاط الملكى، وكانت له علاقة حميمة أيضًا مع عالم المال، وعلى علاقة أيضًا مع الشخصيات المهمة فى الوزارات المختلفة. كانت علاقتى بهذا الرجل علاقة وثيقة، وبقى طوال الأشهر الصعبة التى تلت ذلك بمثابة مستشارى الثقة، وكانت خبرته فى المسائل الدنيوية أكبر مما كنت أتصور، وكان يتمتع بقريحة خصبة وعجيبة. وأنا مدين لهذا الرجل بنشر قسم كبير جدا من آرائى فى الصحافة، ومدين له أيضًا بالمساعدة التى قدمها لى فى البرلمان. عندما وصلت إلى لندن حكيت للرجل كل ما دار خلال فصل الشتاء فى مصر، كما حكيت له أيضًا عن خططى المستقبلية. كانت وجهة نظر "بتون" Button فيما يتعلق بالوضع مختلفة تمامًا عن وجهة نظر هاميلتون، نظرًا لأن "بتون" كانت له علاقة حميمة مع آل روتشيلد، الأمر الذى جعله على بينه من الأوتار المالية التى كان يجرى شدها فى لندن بغية حدوث التدخل الأجنبى؛ يزاد على ذلك أن بتون كان لا يقدر قدرات جلادستون حق قدرها وبخاصة فى مسائل الشئون الخارجية، أو إدارة أية مشكلة تكون أموال أسواق المال الأوروبية معنية بها. وكان دائمًا ما ينصحنى بالمحافظة على العلاقة التى أصبحت بينى وبين مجلس الوزراء، واستعمال نفوذى إلى أبعد حد ممكن وبأفضل الصور الممكنة، وأن أتحفظ مخافة أن يخذلنى جلادستون، هو وأصدقاؤه من المعارضة؛ ووعدنى أيضًا بأن يقدم لى يد العون والمساعدة إذا ما دعا الداعى إلى ذلك. ونصحنى فى الوضع الراهن بأن أفضل ما يمكن عمله هو أن أحكى ما أعرفه لأعضاء البرلمان من الجانبين، وأن أواصل إرسال الرسائل إلى جريدة "التايمز" وعلى الفور رحت أعمل بهذه النصيحة الطيبة.

قرأت فى مفكرتى أنى فى اليوم التاسع من شهر مارس ذهبت للقاء جورج هوارد Howard هو وزوجته (حاليًا اللورد كارلسلى Carlisle والسيدة كارلسلى)، وأنى نجحت فى استمالتهما، وبخاصة السيدة كارلسلى، إلى خططى المستقبلية. كانت السيدة فى ذلك الوقت، كما هى الآن، سياسية قوية، وكانت تؤمن إيمانا قويا بما يفعله جلادستون، ونصحتنى بأن أثق بالرجل وثوقا تاما، وفى أنه سيبذل قصارى جهده من أجل منع حدوث ما يسيء إلى الحرية. كان زوجها أقل منها حصافة، لكنه أعرب عن استعداده لإصطحابى عصر ذلك اليوم إلى مجلس العموم، الذى كان عضوًا فيه، ويقدمنى لأصدقائه فى المجلس من حزب الأحرار، لأنه كان يظن أن ذلك سيفيدنى تمامًا. ذهبنا سويا إلى مجلس العموم، وتعرفت على دلوين Dilwyn، وبريس Bryce، وبعض الأعضاء المؤثرين الآخرين الذين كانوا مهتمين بشئون كل من بلغاريا وأرمينيا وقت انعقاد مؤتمر برلين. كل هؤلاء وعدونى بمساعدتهم، كما وعد السيد شيسون Chesson بالمساعدة أيضا، فضلاً عن الحديث والحوار الطويل الذى دار بينى وبينه ومعنا ليولف ستانلىLyulph Stanley صهر السيد هوارد فى غرفة الشاى فى البرلمان. وعلى الرغم من أن شيسون لم يكن عضوًا فى البرلمان، فإنه كان صاحب سلطة سياسية كبيرة، نظرًا لأنه آل على نفسه، باعتباره سكرتيرًا لجمعية حماية السكان المحليين، تنظيم الاحتجاجات بشأن القضايا التى تهدد بالعدوان على الشعوب غير الأوروبية؛ وثبت لى أن الرجل كان مهما لى تمامًا، نظرًا لأنه كان على اتصال يومى مع أفضل الأعضاء الراديكاليين. من جانب آخر نصحنى هوارد بعدم وضع قضيتى فى أيدى "المحترفين الذين لا يؤيدون التدخل أو يحثون عليه"، وأن تكون دعايتى لقضيتى دعاية مستقلة. فى ذلك الوقت، كنت جديدًا تمامًا على السياسة الإنجليزية وغريبًا فيها؛ غربة إلى حد أننى على الرغم من أنى كنت قد بلغت من العمر إحدى وأربعين عامًا، فإن تلك كانت المرة الأولى التى كنت فيها داخل أروقة مجلس العموم. واعتبارًا من ذلك التاريخ أصبحت زائرًا مترددا على المجلس، الأمر الذى جعل اتصالى حرا باللوبى الداخلى فى مجلس العموم.

جرى فى اليوم نفسه حوار بينى وبين فيليب كرًى Philip Currie فى وزارة الخارجية، ودار بيننا نقاش طويل حول مصر. وجدت الرجل فى بداية الأمر يقف إلى جانبى ويصبر علىّ فيما كنت أفعله فى القاهرة، وتحدث معى عن شكوى ماليت منى، وتظاهر بأنه يؤمن بما أفعله وأن الدور الذى ألعبه "هو عبارة عن لعبة عملية كبيرة على حساب وزارة الخارجية". لكن هذا الموقف لم يدم طويلاً، واستطعت إقناع الرجل بخطورة الأمر، واهتمامى بالموضوع، إذا لم تكن أرائى صحيحة، ورتب الرجل لى لقاءً مع ديلك Dilke فى اليوم التالى، كما رتب لى أيضًا لقاءً آخرَ فى اليوم نفسه مع جرانفيل.

وجدت أيضًا فى مفكرتى أن حوارًا دار بينى وبين اللورد ميلتاون Miltown، وهو نبيل أيرلندى؛ وهذا الحوار يكشف عن الصلة العجيبة بين مصر وأيرلندا فيما يتصل بالأفكار السياسية فى تلك الأيام. "رواية ميلتاون عما يحدث فى أيرلندا، شبيهه تمامًا عما يرويه المسئولون الأوروبيون عن مصر. فهو يرى أن المشكلة والمصاعب التى تحدث فى أيرلندا هى من فعل المحرضين؛ وأن الفلاحين الأيرلنديين ليسوا منضمين إلى الحزب الوطنى، وكان يعتقد أيضًا أن التدخل المسلح سوف يصحح الأمور".

التقيت ديلك فى اليوم العاشر من الشهر فى وزارة الخارجية، بعد أن قصدت منزله فى البداية فى شارع سلون Sloane. كان الرجل فى حال من هياج نفسى، وبدلاً من الاستماع إلى ما يجب أن أقوله إليه، انفجر الرجل فى سيل من الشكاوى ضد الحكومة المصرية الجديدة. "لقد أنفقت حكومة عرابى نصف مليون جنيه إنجليزى على الجيش منذ مجيئها إلى الحكم"، فضلاً عن بعض السخافات الأخرى. كنت أعلم أن رواية من هذا القبيل لا يمكن أن تكون صحيحة، نظرًا لأن الوطنيين لم يكونوا قد تسلموا الحكم إلا منذ حوالى ستة أسابيع فقط. وقصدت بعد ذلك إلى ساندرسون Sanderson، الذى كان سكرتيرا خاصا للورد جرانفيل (هو حاليا السير توماس ساندرسون مدير وزارة الخارجية)، وطلبت إليه أن يبحث مسألة نصف المليون من الجنيهات هذه، وعندما رجع الرجل إلى البرقية المرسلة فى هذا الصدد، وجدنا أن هذا المبلغ أنفق لا خلال الأسابيع الستة الماضية، على حد قول ديلك، وإنما فى العام الماضى.

هذا التصريح غير الصحيح تماما من جانب ديلك، والذى أبلغنى إياه على أنه أمر لا يرقى إليه شك، كان يمكن أن يكون خطأ فادحا، لكنه تكرر فى صحافة ذلك اليوم، التى كان الكثير منها يستلهم أخباره من ديلك؛ كما يعد هذا التصريح غير الصحيح مثالاً جيدًا على الأخبار المسيئة والسخيفة والتى كان يتناولها ديلك للإساءة إلى الوطنيين المصريين.

كان مورلى Morley أيضًا قناة من القنوات الرئيسية التى يستغلها ديلك وطوال فصل الربيع ومطلع صيف عام ١٨٨٢، وكانت مجلة "البول مول Pall Mall" (الجريدة الوحيدة التى كان جلادستون يقرؤها قراءة واعية) قد تحولت من خلال نفوذ كل من ديلك وكولفن، إلى قناة من قنوات الكذب، بل وتحولت أيضًا إلى مدافع عنيد عن مسألة التدخل الأجنبى. وأنا يمكننى القول عن قناعة: إن مورلى أقنع نفسه، بأن الأشياء التى تقولها تلك الصحف إنما هى حقائق، الأمر الذى جعله يتصرف عن حسن نية، لكن المؤكد تماما أن مسئولية إقناع جلادستون باللجوء إلى العنف الذى يعد الخطيئة الرئيسة فى مستقبل جلادستون السياسى، تقع بالدرجة الأولى على كاهل مورلى وحده أكثر من أى صحافى من صحفيى ذلك الزمان.

لم يكن موقف مورلى، مستقلاً فى ذلك الوقت، ولم يكن هو سيد نفسه فى الأفكار المنشورة، كما لم يكن قد أصبح بعد عضوًا فى البرلمان، وإنما كان ينتظر خلو مقعد من المقاعد، وكان همه الأول فى مستقبله العملى السياسى يتمثل فى رعايته لأصدقائه السياسيين ديلك وشامبرلين، إلى حد أنه لم يكن حر الاختيار، حتى وإن لم يؤد ذلك إلى التضحية بمطامحه، سوى أن يسير على الخط الذى رسمه له ديلك عن الشئون المصرية. لقد ندم مورلى ندمًا شديدًا على هذه الحماقة فيما بعد، وهو لا يحب مطلقًا استعادة ذكريات الدور الذى لعبه فى ذلك الوقت. لكن الذى لا شك فيه أن مسئولية مورلى عن قيام الحرب كانت كبيرة جدا. وقد تحدث مورلى عن شئون مصر فى كتابه المعنون "حياة جلادستون"، بطريقة عرضية فى ثنايا صفحات قليلة. لكن التاريخ هو التاريخ، ولا بد من تسجيل هذا الخطأ الذى ارتكبه مورلى.

تسوية الأمر مع ساندرسون وكورى Currie دفعنى إلى مقابلة اللورد جرانفيل، الذى لم أكن قد تعرفت إليه من قبل، وجرى بينى وبينه حوار آخر. كان اللورد جرانفيل رجلاً صاحب سلوكيات فريدة ومتحضرة، وبدأ حواره معى عن الحديث عن إسطبل الخيول العربية التى راح يطريها ويثنى عليها بعبارات دمثة ومهذبة. ثم تطرق حوارنا بعد ذلك إلى الموضوع المصرى "أبلغنى أن لديه معلومات تفيد أن عرابيا جرى شراؤه من قبل إسماعيل باشا، وأن الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد دسيسة لإعادة الخديو السابق !" وتلك كانت قصة من القصص الرائجة الأخرى التى أقحمت على وزارة الخارجية وعلى الجمهور للإساءة إلى الموقف من مصر. وعلى حد علمى، كانت وزارة الخارجية قد عرفت من خلال برقية من البرقيات، أو قد يكون ذلك من خلال رسالة خاصة جاءت من السير أوغطس باجت Augustus Paget ، الذى كان سفيرًا لبريطانيا فى روما فى ذلك الوقت، أن الخديو إسماعيل كان يتباهى أمامه فى نابولى أنه استطاع وضع عرابى فى جيبه.

ليس صعبًا علينا الوقوف على الدافع الذى ربما يكون قد دفع إسماعيل باشا إلى مثل هذا التأكيد فى مثل هذه اللحظة، والسبب فى هذا أن كلام إسماعيل باشا من النوع الذى لا يعول عليه كثيرًا، فى حين نجد أن مستقبل عرابى العملى يثبت ويؤكد العكس من هذا الكلام تمامًا. موقف عرابى فى ذلك التاريخ كان معاديا تماما للباشوات الشراكسة، أتباع إسماعيل، والذين كانوا يدسون له عند توفيق باشا. ربما كان لإسماعيل أهداف فى جعل الأمر يبدو وكأن المتاعب التى حدثت لمصر كانت على حسابه وبسببه هو. كان إسماعيل متعلقًا دومًا بالفكرة التى مفادها أنه سيجىء اليوم الذى ستندم عليه الدول الأوروبية على عزله، وأنها سوف تعود إليه باعتباره الحاكم الممكن الوحيد لبلد مهلهل ومنقسم، لأنه لم يكن موجودًا فيه حتى يسيطر عليه ويتحكم فيه.

في ذلك الوقت لم أكن أعرف المكان الذى استقيتُ منه هذه القصة، ولم يكن بوسعى أيضًا تكذيبها سوى أن أروى للورد جرانفل كيف أن ذلك الزعيم الوطنى الفلاح كان يناصب الخديو السابق العداء منذ فترة طويلة[٩]. قمت بذلك، وسلمت أيضًا الرسالة التى حمّلنى عرابى إياها للسيد جلادستون. كان رد جرانفل الوحيد على شكل سؤال: "هل سيتوقفوا عن المطالبة بتصويت البرلمان على الميزانية؟" قلت له إنى أخشى ألا يوافقوا على ذلك، نظرًا لأن النواب كانوا جميعًا على رأى رجل واحد. قال جرانفل: "أنا أنظر إلى قضيتهم باعتبارها شيئًا ميئوسًا منه. وأرى أن هذه القضية يجب أن تنتهى إذا ما قمعناهم بالقوة". قلت له: أنا لا أصدق أن الحكومة الإنجليزية يمكن أن تتدخل بدعوى قمع المطالبة بالحرية. لكن الرجل أصر على موقفه وتركته وهو غير راض، بعد أن قررت ألا أضيِّع المزيد من الوقت في محاولة إقناع وزارة الخارجية أكثر من ذلك، ولكنى سوف أمارس عليهم أكبر قدر من الضغط من الخارج. "لا بد أن ألتقى جلادستون".

التقيت مورلى Morley فى اليوم نفسه أيضًا فى مكتب جريدة التايمز، فى محاولة منى لتحييد الأكاذيب والافتراءات التى كانت تنهال عليه من كل جانب، لكنى أخشى أن يكون ذلك هباءً منثورًا. كان مورلى ممن يؤمنون بكولفن بصورة ضمنية وغير معلنة، وكان كولفن أيضًا هو المراسل الدائم للسيد مورلى فى القاهرة، وكانت هناك مؤثرات أخرى، كما سبق أن قلنا؛ تعمل عملها، على نحو كان يصعب معه علىَّ شطبها من ذهنه.

---

(٩) منذ أن نشرت هذا الكلام وجدتنى أعود إلى المدخل الخاص بهذا الأمر فى مفكرتى عن عام ١٨٨٤، وهذا المدخل يؤكد ويصحح ذلك الذى يقال عن علاقة باجيت بهذه المستعمرة (مصر): فيينا، ٢٠ سبتمبر. تناولت الغداء فى السفارة. وكان لقاء السير باجت وديًا للغاية، تحدثنا عن مصر. وأتى الرجل على ذكر نوبار ترجمان عباس. وطلب منى رأيى فى عرابى، وسألته أنا فى المقابل عمّ إذا كان إسماعيل قد قال له إن عرابى أصبح فى جيبه. ورد علىَّ قائلاً: إنه لم يحدث له أن تكلم مع إسماعيل عن عرابى، لكنه يذكر أن إسماعيل باشا قال: "Ce Gaillard L á M'a Conté Les Yeux Latete". أى ما معناه أن عرابيًا أرهقنى كثيرا.

تغديت في اليوم الحادي عشر مع بتون Button الذي كان قد دعا إلى الغداء مجموعة من الناس للقائي أنا بصفة خاصة. هؤلاء المدعوون هم: فرانسيس نوليس Francis Knollys، وسكرتير أمير ويلز السيد ريجنالد بريت Reginald Brett (حاليًا اللورد إيشر Esher)، الذي كان في ذلك الوقت سكرتيرًا للورد هارتنجتون Hartington، وكليفورد Clifford، كاتب رئيسي من كتاب جريدة التايمز، واللواء السير جون آدي John Adye، الذي كان صديقًا للسيد ولسلي Wolseley، وكان يخدم تحت قيادة ذلك الرجل في ذلك العام ضمن الحملة على مصر، والذي بقي تعاطفه مع المصريين طوال الوقت، وكان يؤدي، كما سنرى خدمات طيبة في المجال الإنساني الإنسانية بعدما حدث في التل الكبير. وقد أمضينا أمسية طيبة، وكشف جميع الحاضرين عن اهتمامهم بآرائي في مصر وتواصل كلامي مع البعض منهم إلى الساعة الواحدة صباحًا. كان نوليس Knollys مبهورًا بما قلته له، لكن بريت Brett الذي كان من أصدقاء آل روتشيلد، والممولين الآخرين الذين كانوا ينادون بالتدخل، أثبت فيما بعد أنه كان واحدًا من أعدائنا. كان بريت في ذلك الوقت يعمل لحساب مورلي في جريدة "بول مول جازيت Pall Mall Gazette"، وكان يوحي، إذا لم يكتب، ببعض المقالات التي كانت تؤثر على جلادستون.

التقيت جوشن Goschen في اليوم الثالث عشر، باعتباري موفدًا إليه من قبل هاميلتون وكان ذلك بناء على اقتراح من السيد جلادستون، باعتباري رجلاً، ليس عضوًا في الحكومة، إلا أنني كنت محل ثقتهم وأسدي لهم النصح وبخاصة فيما يتعلق بالشئون المصرية. ودخلت مع الرجل في تفاصيل أكثر من التفاصيل التي تطرقت إليها مع كل من ديلك أو جرانفيل وبخاصة ما يتصل بموضوع القضية الوطنية. كشف الرجل عن المزيد من تعاونه معي، وربما كان ذلك أكثر مما كان يتوقعه هو، وكان مهتمًا بأن يترك لدي انطباعًا بالفكرة التي مفادها أنه لم يكن ينظر إلى الأمر من الوجهة المالية. وهذا بطبيعة الحال أمر لا شك فيه، نظرًا لأن دور هذا الرجل في الماضي، كان يتمثل في أنه ممثل لدائني الخديو إسماعيل. وجدت الرجل يتصرف بطريقة مقبولة، وصوته يفيض سحرًا، وأمضيت معه ساعتين كاملتين. كانت آخر كلماته لي: "يجب أن تكون متأكدًا من أمر واحد على

أقل تقدير، ألا وهو أنه أيا كان تصرف الحكومة فى مصر، فإن ذلك سيكون من خلال السياسة، وليس من أجل مصالح حملة الأسهم والسندات". كان ذلك أمرًا مرضيًا ووجدت أنه يتفق مع الموقف فى تلك اللحظة، نظرًا لأن خبر استقالة دى بلنيير من وظيفته فى القاهرة كان قد نشر فى ذلك اليوم فى الصحف. والمعروف أن دى بلنيير كان يشغل منصب المراقب المالي الفرنسى فى القاهرة. وجرى تفسير هذا الحدث فى لندن على أنه إشارة إلى أنه شجار بين الحكومة الفرنسية والوزارة الوطنية، لكنى كنت أعرف أن هذه ليست هى الحقيقة. كان دى بلنيير أبكر من كولفن فى السعى للتعجيل بالتدخل الأجنبى؛ وقرأت استقالة الرجل بمعناها الحقيقي، أى أن هذه الاستقالة كانت للإطاحة به من قبل الحكومة. ولو قدر لكولفن أن يجبر على الاستقالة فى الوقت نفسه – ولو قدر للأمور أن تقترب من ذلك – لأمكن تحاشى المتاعب التى تلت ذلك. كان كولفن مسنودًا تمامًا من قبل ديلك، وعلى نحو يستحيل معه إقالته من منصبه.

ذهبت من منزل جوشن Goschen لتناول الغداء مع بتون Button ووجدته بصحبة اللورد دى لا وور De La Warr ذلك النبيل الإنجليزى الجدير بالاحترام والذى ينتمى إلى حزب العمال، والذى يسكن بجوارى فى مقاطعة سسكس Sussex، والذى كان قد أمضى العام السابق فى تونس، وتعاطف أيضًا فى أثناء وجوده هناك مع العرب ضد الغزو الفرنسى. بعد ذلك رحنا نعمل سويا من أجل المسألة المصرية، وثبت أن الرجل صاحب مروءة إذا ما دعى الداعى، وبخاصة عندما تأزمت الأمور فى شهر يوليو. كنت فى ذلك الوقت أحث على إرسال لجنة تحقيق وتقصى للحقائق إلى القاهرة. وقد تبدى لى أن اللورد دى لاوور ربما كان هو الأنسب فى هذه المهمة.

فى عصر اليوم نفسه التقيت هاميلتون فى مجلس الوزراء. وكانت جريدة البول مول Pall Mall قد نشرت مقالاً عنيفًا بعنوان "نيران تتأجج فى مصر"، وكان ذلك المقال أفضل قليلاً من بدايته إلى منتهاه من تلك السلسلة من قصص الحقد التى تنشرها، لكن المقال كان فيه أيضًا بعض التحاملات على الوطنيين. وقد أشار

هاميلتون إلى تلك التحاملات باعتبارها دليلاً مقنعًا؛ ولما كان قد رأى هذه التحاملات منشورة فى الجريدة فذلك يعنى أنى لا بد أن أكون مخطئًا، ثم قال: "وإلا، لماذا تحتم على مورلى، الذى هو رجل ليبرالى تمامًا، السير فى خط غير ليبرالى تمامًا أيضًا؟" شرحت لهاميلتون موقف كولفن من مورلى، والذى لم أكن قد فعلته من قبل، ورحت أحثه على أن يتكرم علىَّ بالسماح لى بلقاء رئيسه. عند هذه المرحلة، وبدافع من الإحساس بالولاء لرجال كانوا من بين أصدقائى، والذين سبق أن تعاملت معهم فى مراحل سابقة، امتنعت عن الشكوى منهم، على الرغم من أن ماليت لم يتورع عن الشكوى منى. لكنى اكتشفت عند هذه المرحلة أن سكوتى أكثر من ذلك يمكن أن تترتب عليه أضرار كثيرة، ولذلك عقدت العزم على أن أحكى لجلادستون كل شىء عن هؤلاء الرجال. كان مورلى قد حذرنى فى اليوم السابق من هذه المقالة وطلب إلىَّ ألا أعلن عنها. لكنى غضبت إلى حد أنى اكتفيت بملاحظة قصيرة موجزة؛ وأعقبت ذلك الرد المقتضب بزيارة قمت بها فى اليوم التالى إلى شارع نورثمبرلند Northumberland ورحت ألوم الرجل لنشره وطباعته كلامًا فارغًا لا ينطوى إلا على الحقد. ومع ذلك، كان الشر قد وقع بالفعل نظرًا لأن النشر كان قد سبق لنقاش المتعلق بمصر الذى أثاره السير جورج كامبل Campbell فى مجلس العموم، وجرى فيه استغلال هذه الحكايات والقصص المغرضة. كنت موجودًا فى أثناء هذا النقاش الذى دار حول هذا الموضوع؛ وكان جوشن Goschen هو المتحدث الرئيسى باسم الحكومة فى ذلك النقاش، ووقف الرجل موقف المصالحة، لكنه لم يكن مخلصًا تمامًا للحركة الوطنية المصرية. وربما أنقذنا الحوار الذى جرى بيننا فى الصباح من إصدار تصريح سيئ. ومع ذلك لم يصدر قرار محدد يساند الحرية.

ورد فى مفكرتى بتاريخ ١٤ مارس حوار دار بينى وبين السير هنرى رولنسون Henry Rawlinson، الوزير السابق إلى بلاد فارس؛ والرجل مؤرخ شرقى متميز، وآراؤه من طراز الآراء التى يرددها الإنجليز المقيمين بالهند. قال رولنسون: المصريون كانوا عبيدًا فى الماضى، ولا بد من بقائهم عبيدًا. وسيجرى ضم بلادهم مع بقية آسيا إى إنجلترا أو روسيا. وقال إن معرفته للآسيويين بلغت

من الدقة حدا يجعله لا يصدق أو يؤمن بأنهم يتطلعون إلى الحكم الذاتى أو يريدونه. وتشير مفكرتي أيضا إلى حوار آخر جرى بيني وبين ولتر Walter، صاحب جريدة "التايمز"، والذى أقترح على بتون Button أن أقوم بزيارته. تحاور الرجل معى بأقوال مبتذلة على امتداد نصف ساعة، ووعد في النهاية بإرسال مراسل خاص إلى القاهرة للحصول على أنباء مستقلة ومحايدة. (لكن ذلك لم يحدث، نظرًا لرفض ماكدونالد، مدير الجريدة، لهذا الموضوع بسبب التكلفة الكبيرة).

ذهبت فى اليوم الخامس عشر للقاء السير جارنيت وُلسلى Wolseley في منطقة حراس الخيل Guards Horse وجرى بينى وبينه حوار يستحق التنويه عنه. بعد أن تحدثنا قليلاً عن قبرص، تطرقنا إلى مصر وإلى احتمال المقاومة من جانب الوطنيين فى حال التدخل، وسألنى الرجل عن رأيى فى هذا الموضوع. وأجبته، بأنهم سيقاومون وليس العسكر وحدهم وإنما الشعب أيضًا، وقد يستعملون بعد ذلك طرقًا وأساليب أخرى. ورفض ولسلى فكرة مقاومة الجيش رفضا باتسا. لكننى أصررت على العكس. "وأكدت لولسلى أنهم إذا ما أرسلوه لغزو مصر في ظل الظروف النفسية الحالية، فلا بد له من أن يكون معه ما لا يقل عن ٦٠٠٠٠ رجل". وقد بالغت فى ذلك، من أجل الإشارة إلى خطورة الموقف وصعوبته البالغة، وأن على الحكومة أن تفكر مرتين قبل الإقدام على هذا العمل. تطوع الرجل بإبلاغى ما مفاده أنه جرى استطلاع رأيه مرتين أو ثلاث مرات خلال فصل الشتاء، حول مسألة الاحتلال المباشر. ومع ذلك، أكد الرجل لى، أن لا أحد يريد التدخل، وأكد لى أيضًا أن احتلال مصر، سوف لا يحظى بأى قدر الترحيب فى الجيش، وأنه نفسه سوف يأسف لذهابه إلى مصر من أجل هذا الغرض. كان الرجل يفضل تسريح المصريين لجيشهم والوثوق بالحماية الأوروبية. لكننى قلت له: أنا لا يمكننى أن أنصحهم بذلك؛ وقلت له أيضًا: إن الشعب الذى ينوى المقاومة لا ينبغى أن يهاجمه عدو. قال: "واقع الأمر أن الشرف لا وجود له فى زمن الحرب، وإذا ما كانت هناك مقاومة، فإنهم يتعين ألا يثقوا بنا أكثر من دول أخرى". ثم تحدث وُلسلى بعد ذلك عن الطرق العسكرية المؤدية إلى القاهرة، وعن الطريق

الذى سلكه بونابرت، وعن الضفة اليسرى للنيل، كما تحدث بصفة خاصة عن الطريق الصحراوى بين قناة السويس والدلتا، الأمر الذى أكد لى تمامًا أنه إذا ما تم إنزال الجنود فإن ذلك سيكون على هذا الجانب. لكنى حرصت على عدم إعطائه أية معلومات يمكن أن يفيد منها، وضحكت عندما سألنى بشكل جدى إلى حد ما عما إذا كنت سأذهب معه وأريه الطريق إذا ما وصل الأمر إلى حد القيام بحملة على مصر. كان انطباعى عن وُلسلى "أنه رجل أيرلندى أنيق، مجرد جندى صغير، أيرلندى اللهجة إلى حد ما، مرح، وجاد. لكنه لم يُولِّد لدى إحساسًا بأنه عبقرى – ذلك الذى كان يصفه به نابليون بأنه "قائد على عشرة آلاف رجل". يجدر بنا هنا القول: إنى عندما كتبت للشيخ محمد عبده، من خلال سكرتيرى، صابونجى، بعد هذا الحوار الذى دار بينى وبين وُلسلى، كنت قد أشرت إلى الخطر الذى يمكن أن يترتب على التدخل الأجنبى، وأن الهجوم على مصر سيكون من ناحية الإسماعيلية؛ وأنا أعتقد أنه بناء على ذلك التلميح بدأ تفتيش خطوط التل الكبير بناء على أمر من أحمد عرابى.

التقيت فى اليوم نفسه ليال Lyall، الذى كان على وشك السفر إلى الهند، التى عُيِّن فيها نائبا عن الحاكم العام Lieutenant-Governor للمقاطعات الشمالية الغربية. اكتشفت أن ليال لم يكن يرتاب فى الحزب الوطنى فى مصر، شأنه فى ذلك شأن السواد الأعظم من الإنجليز – الهنود. تناولت العشاء مع هاميلتون وجودلى Godley فى فترة المساء؛ وهذان الرجلان هما السكرتيران الخاصان لجلادستون، وأطلعتهما على مسودة الرسالة التى سبق أن أرسلتها للورد جرانفيل، والتى أوردت فيها رسالة عرابى عن النوايا الحسنة تجاه الحكومة الإنجليزية، تجاه حكومة ماليت، كما أوردت ضمن الرسالة أيضا شكوى عرابى من كل من كولفن وماليت، تلك الشكوى التى لم آت لجلادستون على ذكرها، للسبب الذى سبق الإشارة إليه، عندما التقيت جلادستون فى وزارة الخارجية. وافق السكرتيران تمامًا على مسودة الرسالة، وبخاصة جودلى Godley، الذى كان الأعلى مركزًا بين الاثنين، والذى طلب منى حذف عبارة أوردتها على سبيل الاعتذار عن التدخل فى

مسألة مهمة من هذا القبيل. وقال جودلي مؤكدا: "تدخلك لا يحتاج إلى الاعتذار". كان جودلي رجلاً صاحب أفق واسع، وهو يمثل الجانب الأفضل والأكثر حماسًا من شخصية جلادستون العامة، والذي يتمثل في التعاطف الكبير مع كل ما هو خير في هذه الدنيا واحتقار كل ما هو دنيء. اللهم إلا باستثناء قدرة الرجل العملية الكبيرة على أداء عمله الرسمي؛ كان الرجل على النقيض تمامًا من أولئك الرجال الذين نراهم ونصادفهم في مكاتبنا العامة، فضلاً عن أنه كان طوال الأزمة المصرية يخصني بدعمه وتعاطفه الزائد. أما هاميلتون، فعلى الرغم من تعاطفه معي أيضًا، فقد زاد تعاطفه أكثر بحكم أنه من أصدقائي المقربين، وذلك بغض النظر عن القضية التي كنت أدافع عنها. أنهيت رسالتي باقتراح مفاده إرسال بعثة إجراء تحريات وتحقيقات رسمية بشأن ما يجري في القاهرة للوقوف على الحقائق وبروح ودية تجاه المصريين. حضني السكرتيريان على إرسال الرسالة، وعليه قمت بإرسالها، بعد ذلك بأربعة أيام في اليوم العشرين من شهر مارس. أهمية الرسالة هي التي تملي عليَّ إيرادها هنا:

لندن، في العشرين من مارس عام ١٨٨٢

إن التعطف الذي أوليتموني إياه، هو الذي جعلكم تتفضلون عليَّ بالاستماع إلى بعض نقاط الموقف السياسي في مصر، وهذا التعطف هو الذي شجعني على أن أعرض على سيادتكم هذه النقاط كي تحظى باهتمامكم:

إذا كنت قد فهمت سيادتكم تمامًا، فإن حكومة صاحبة الجلالة لا ترغب في تعجل الأمور في ذلك الاتجاه، إذ إنها على استعداد لقبول حل سلمي، إذا ما أمكن التوصل إلى حل من هذا القبيل، وذلك فيما يتعلق بالنزاع القائم بين المراقبة المالية والحكومة المصرية، وأنها سوف تتدخل أو تلجأ إلى القوة في اللحظة التي يجري فيها تهديد المصالح السياسية البريطانية تهديدًا خطيرًا، أو إذا ما قام الحزب الوطني الموجود حاليًا في السلطة بنقض الاتفاقات الدولية.

فإننى الآن على معرفة كاملة بآراء ذلك الحزب، أو بأبرز زعمائه، فى أضعف الأحوال، وأستطيع القول مؤكدًا الحقيقة التى مفادها أن أقرب شىء إلى رغبات هؤلاء الزعماء هو حسن التفاهم مع حكومة صاحبة الجلالة. وواقع الأمر، أنى مفوض من قبل أحمد بك عرابى لأؤكد لسيادتك، أن الرجل إذا ما جرى التعامل معه بطريقة ودية، فإنه سوف يستخدم نفوذه داخل حزبه إلى أبعد حد؛ ونفوذ هذا الرجل كبير جدا على نحو يجعله قادرًا على التخفيف من المشاعر المريرة التى نشأت بين المصريين والإنجليز والمسئولين الأجانب الذين يعملون فى البلاد، وأن الرجل سوف يصل إلى حل وسط فى المفاوضات التى ستجرى وذلك ابتغاء التوصل إلى تسوية سلمية. وقد رجانى عرابى أن أضع أمامك مصاعب الوضع الذى وُضع الرجل فيه نتيجة موقف العداء الشخصى الذى يقفه منه المراقب الإنجليزى العام Controller-Generall من ناحية، وموقف وزير (أو ممثل) صاحبة الجلالة من الناحية الأخرى.

سيادتكم تعلم جيدًا الدور السياسى البارز الذى لعبه السير أوكلاند كولفن فى التغيرات الوزارية المختلفة، والدور الذى لعبه الرجل أيضًا فيما يمكن أن نسميه الثورة، التى شهدتها الشهور الستة الأخيرة فى مصر. فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر كان أوكلاند كولفن هو الذى نصح الخديو بإلقاء القبض على أحمد بك عرابى وإعدامه رميًا بالرصاص، وعرابى هذا هو وزير الحربية فى الوقت الحالى؛ ولم يألُ الرجل جهدًا فى إخفاء الحقيقة، لأنه على حد فهمى، كان قد سبق له إبلاغ تفاصيل ذلك الذى حدث إلى الصحف الإنجليزية. المصريون يعرفون حق المعرفة أيضًا أن السير أوكلاند كولفن كان ولا يزال على علاقة بالصحافة من موقف معادٍ للحزب الوطنى، وبخاصة الجيش، وأن الرجل صرَّح بلا تحفظ عقب استقالة شريف باشا، أنه ينوى استخدام كل ما فى وسعه من أجل استخدام الوسائل المتاحة له كلها من أجل تدمير الحزب الوطنى وجر التدخل الإجنبى على مصر. ولو كانت هذه الأشياء لا يعرفها سوى عرابى لأغفلها وتغاضى عنها؛ لكن من سوء الحظ أن هذه الأمور دخلت فى نطاق الأمور العامة سيئة السمعة، الأمر الذى يجعل من المستحيل على عرابى أن يكون على علاقة ودية مع صانع هذه الأشياء.

فيما يتعلق بالسير إدوارد ماليت فقد أعرب الرجل عن مثل هذا وإن بدرجة أقل، لأنه لا يزال إلى حد ما يسير على خط كولفن. ومن سوء طالع السير إدوارد ماليت مع المصريين أن الزيارة التى قام الرجل بها إلى إسطنبول تصادفت تمامًا مع دعوة تركية قوية إلى التدخل التركى فى مصر، كشفت عنها الصحف الإنجليزية فى الخريف الماضى، وأنا نفسى على قناعة بأن الحكومة الفرنسية مسئولة عن الفكرة التى ترسخت فى الأذهان فى القاهرة، والتى مفادها أن السير إدوارد ماليت هو الذى كان يقترح القيام بعمل عسكرى فى كثير من الأحيان. أنا شخصيا، أعرف أن هذا غير صحيح، وأن السير إدوارد ماليت كان، على العكس من ذلك، لا يستحسن مثل هذا العمل أو الحل؛ ومع ذلك تبقى بعض الحقائق التى يمكن أن تلقى بظلالها على هذه الفكرة. منها أن السير إدوارد ماليت كان إلى يوم اجتماع البرلمان المصرى رافضًا مطلب الحركة الوطنية بحكومة دستورية واعتبار أن هذا المطلب جاد؛ يزاد على ذلك أنه انضم إلى السير أوكلاند كولفن فى الكشف عن تحزبه مع شريف فى الصراع الذى دار بينه وبين النواب؛ واعتبارًا من ذلك التاريخ راح ماليت يسىء أكثر من خلال إعلان تصديقه قصة مختلفة مفادها، أن رئيس النواب سلطان باشا، الرجل الذى يحظى باحترام الجميع قد جرى سبه وإهانته من قبل عرابى.

أيا كان الوضع، فى المؤكد أن كلا من السير إدوارد ماليت والسير أوكلاند كولفن، بدلاً من أن يكونا فى وضع يمكنهما من إسداء النصح والتهدئة، أصبحا منبوذين من الحكومة المصرية. هذا يعنى أن هذين الرجلين كانا منعزلين عن المصادر الحقيقية للمعلومات فيما يتعلق بخططهما، وأنهما أُجبرا على إفساح المجال للدساسين والمتآمرين من الجنسيات الأخرى، الذين لا مصلحة لهم فى إسداء النصح بالاعتدال، أو الرغبة فى تجنب الشقاق.

إذا كنت فخامتكم لا ترى مبررًا للجدل فيما عرضته، فأرجو أن تسمح له باقتراح ما يلى:

"الوزراء الوطنيون مشغولون حاليا بإعداد سلسلة من الشكاوى الخطيرة من النظام الذى أقامته إنجلترا وفرنسا وصدقت عليه المراقبة المالية، وبعض هذه الشكاوى ترتكز على أسس وأسباب قوية. هؤلاء الوزراء الوطنيون على استعداد للتعامل مع التحقيق بروح ودية ومعتدلة، لكن المؤكد أنهم سيتعاملون مع التحقيق هذه الشكاوى بروح العداء إذا ما استمر موقف العداء من جانب المراقبة المالية وإن الأمور المتنازع عليها هى فى معظمها أمور حقيقية، إذا ما تعاملنا معها بروح العدل، وإذا ما اتخذت حكومة صاحبة الجلالة موقفا أخلاقيا منها، ومن ثم يتعين علينا دراسة هذه الأمور دراسة محايدة تماما فى ظل دلائل وبراهين مصرية وأوروبية متساوية. وأنا أقدم هنا هذه الدلائل، وهى ليست فى متناول ممثلى صاحبة الجلالة، من الدبلوماسيين والماليين، ويضاف إلى ذلك أن هذا الحياد قد يصبح محل شك من قبل المصريين. ومن ثم فإن من الأوفق خلال الأشهر الستة المتبقية على انعقاد البرلمان المصرى، وقبل الدخول فى الصراع، إرسال شىء شبيه بلجنة التحقيق إلى مصر، لتحرى الحقائق محل الشكوى، تحريا يوحى بالود والصداقة، التى هى السبيل الوحيد الممكن لتحاشى الكارثة".

أواصل حديثى من مفكرتى، فأجد فيها أنى فى اليوم السادس عشر، كتبت بمساعدة صابونجى، رسالة طويلة إلى عرابى، أخبره فيها أنى كنت أطالب بتشكيل لجنة، وأن آمالى كانت كبيرة بخصوص هذا الموضوع، لكنى طلبت من الرجل أن يلزم الحرص والحذر؛ وطلبت ذلك إلى جريجورى الذى كان لا يزال فى القاهرة. كان الموقف فى مصر فى ذلك الوقت، يتمثل فى أن مجلس النواب، كان مصرًا على المطلب الذى نادى به الأعضاء، والذى يقضى بأن يُصَوِّت البرلمان على النصف الآخر من الميزانية ذلك النصف الذى لم يكن له علاقة بدفع فوائد الدين الأجنبى، وكانوا يطالبون أيضًا بلائحة جديدة، أو قانون أساسى، يمنحهم دستورًا مثل الدساتير الأوروبية، وأن يكون ذلك القانون أو اللائحة ممهورًا من الخديو ومنشورًا أيضا. كان الوزراء قد قدموا أيضًا لمجلس النواب قائمة بالإصلاحات العملية المطلوبة، والتى جرى تنفيذ القسم الأكبر منها، بعد مضى سنوات عدة. وبعد أن فرغ البرلمان من ذلك كله انفض انعقاده إلى فصل الخريف. لقد عم

الهدوء الكامل طوال هذه الفترة، سائر أنحاء البلاد، وأصبح السبب الرئيسي للنزاع مع أوروبا هو مسألة التصويت على الميزانية، ذلك النزاع الذى لم تـزداد حدتـه طيلة ستة أشهر، إلى أن بدأ وضع الميزانية الجديدة. ليس هناك شك فى أنه لو كان كولفن قد اقتنع بالانضمام إلى زميله الفرنسي دى بلنيير، فى الابتعاد عن مـصر، ولو كان اقتراحى الخاص بإيفاد لجنة، قد نفذ لهدأت الأمور فى مصر، واختفت كل الأسباب الداعية إلى التدخل المسلح. لم تكن الوزارة المصرية تريد شـيئًا سـوى العيش فى سلام مع العالم كله، والتفاهم مع حكومتى المراقبة الثنائية حول المسائل المتنازع عليها كلها.

فى العشرين من مارس

تناولت الغداء فى منزل بتون Button كيما ألتقى عمـه، روبـرت بـورك Robert Bourke، الذى كان مطلوبًا منه عرض المـسألة المـصرية رسـميا فـى البرلمان فى الأسبوع التالى. وكان بصحبته عضو آخر من حزب المحافظين، هـو مونتاجو جست Montague Guest، الذى كان مهتمًا بالمسألة التونسية. التى كانـت محط اهتمامى الثانى، فى حال خذلنى اللورد جلادستون. ثم حـضرت بعـد ذلـك اجتماعًا للجمعية الآسيوية، التى كان قد جرى مؤخرًا انتخابى عضوًا فيهـا، وفـى المساء تناولت العشاء مع ريفرز ولسـون Rivers Wilson. "وتـشاجرت شـجارًا مخيفًا مع ولسون حول مصر". فقال لى: إنه عاون فى وضع بيان جديد، فى وزارة الخارجية، جرى إرساله بالبرق إلى ماليت يشدد على وفـاء مـصر بالالتزامـات الدولية"، وهو بيان قُصد به أن يكون تهديدًا جديدًا للحزب الوطنى، لكنى أعتقـد أن هذا البيان لم يرسل مطلقًا وقد يكون قد ألغى تمامًا، لأنه لا وجود له فـى الكتـاب الأزرق. وربما كانت رسالتى التى أرسلتها إلى جرانفيل هى السبب فى إلغاء ذلـك الإعلان.

لقد أصر ولسون على أن الحركة الوطنية كلها كانت من اختراع إسماعيل باشا؛ وأصر أيضًا على أنه "لو قدر للخديو السابق أن ينزل على أرض الإسكندرية في الغد، فإن كل مصري سوف يأتي إليه جاثيا على يديه وركبتيه". ومن هذا العشاء ذهبت لحضور حفل في منزل السيدة كينمار Kenmare، حيث التقيت حرم سولسبري، التي أخذتني جانبا، وراحت توجه إليَّ أسئلة كثيرة، بشيء من التعاطف المصطنع، عن المسألة المصرية؛ ووضعت أمامها القضية وشرحتها لها بأقصى ما وسعني جهدي، يقينًا مني بأن ما قلته لها سوف تنقله إليَّ زوجها. واقع الأمر أن التعاطف بمعناه الحقيقي ليس معروفًا لدى أعضاء حزب المحافظين، وبخاصة اللورد سولسبري، لقد كان من المناسب للمعارضة أن تتعاون معي بالقدر الذي يفيدها في التشكيك في مصداقية الحكومة. وكان سولسبري من المؤيدين للتدخل.

عدت إلى المنزل في تلك الليلة ومعي هاميلتون، الذي كنت قد التقيته في الحزب، حكيت له تباهي ولسون بالإعلان الجديد، وطلبت إليه أن يدبر لي لقاء عاجلاً مع رئيسه، وحثني هاميلتون على إرسال رسالتي على الفور إلى جرانفل وصورة منها إلى جلادستون. ففعلت ذلك في الصباح التالي، وطلبت منه توصيل الرسالتين. وكان هاميلتون قد رتب بالفعل لقاء مع رئيسه بتاريخ الحادي والعشرين من شهر مارس. وكان هناك حفل عشاء في منزل روبرت بورك Bourke حضره الجنرال تيلور، الناطق بلسان المعارضة، والسيدة إيلي Ely وعدد آخر من أعضاء حزب المحافظين.

في الثاني والعشرين من مارس

أهم الأيام كلها. كان قد مضى عليَّ في ذلك الوقت في إنجلترا أسبوعان كاملان، وعلى الرغم من أني كنت أتعجل ولا أؤجل فقد فشلت إلى الآن في لقاء رئيس الوزراء. اليوم، حدثت فيه ما سعيت إليه. فقد ذهبت قبل الموعد المحدد، بوقت قصير إلى مقر مجلس الوزراء في ١٠ داوننج ستريت، حتى أتمكن من

تبادل حديث قصير مع هاميلتون، الذى أبلغنى أن رئيسه قرأ رسالتى؛ وبعد مضى عشرين دقيقة بعد الساعة الثانية عشرة استقبلنى رئيس الوزراء. كان السيد جلادستون الذى يبدو أفضل وأكثر شبابا عما كان عليه فى آخر زيارة قمت بها لسيادته، قبل عامين تقريبا. فى ذلك الوقت كان الرجل يبدو متدهورا أما الآن فهو يبدو مليئًا بالحيوية، يقظ الذهن والبدن. استقبلنى الرجل استقبالا وديا للغاية. كانت رسالتى التى كتبتها إلى جرانفل موضوعة على مكتبه، وبدا عليه استعداده للإصغاء إلى ما كنت أود قوله. طلب الرجل منى أن أحكى له كل شيء، وراح يصغى إلىَّ ولا يتكلم إلا قليلاً. كانت طريقته توحى بالتشجيع والتعاطف الأمر الذى سهّل علىَّ الكلام وأطلق لسانى بشكل لم يحدث لى من قبل. وتبينت أن كل كلمة كنت أقولها كانت تمسه وتحظى باهتمامه. تركنى الرجل أتكلم مدة ربع ساعة، وكان يتكلم بين الحين والآخر قائلاً: "أنت لست بحاجة إلى أن تقول لى ذلك كله، لأنى أعرفه". لأنى أود أن أقف على حقيقة الشعور الوطنى فى مصر. من الواضح أن رئيس الوزراء كان متعاطفًا تعاطفًا شديدًا مع الحركة.

سألنى رئيس الوزراء بعد ذلك سؤالاً عن وضع الجيش وعن سبب الدور البارز الذى يلعبه فى الشئون العامة. كان جلادستون متشككًا فى ذلك الدور. فشرحت لسيادته تاريخ ذلك الدور وأكدت له أن تدخل العسكر مبالغ فيه إلى حد بعيد، وقلت له أيضًا أن القصص التى تروى عن تخويف العسكر للنواب قصص غير صحيحة؛ وقلت: إن السبب الوحيد وراء الاستعدادات العسكرية الحالية هو التخوف من التدخل الأجنبى. شرحت أيضًا مشاعر الحزب تجاه السلطان والأسرة الخديوية – تجاه كل من توفيق باشا، والخديو إسماعيل، والأمير حليم. وسألنى إن كنت قلت ذلك كله للورد جرانفيل، فقلت: "أوقفنى الرجل منذ البداية بأن قال لى: إن عرابيا جرى شراؤه من قبل الخديو إسماعيل باشا! فماذا أقول؟" فى هذه اللحظة دخل شخص إلى مقر مجلس الوزراء يقول إن اللورد جرانفيل فى المنزل، وهنا تملكنى الخوف، خوفًا من أن يسمح له السيد جلادستون بالدخول، الأمر الذى يمكن أن يحول بينى وبين إكمال روايتى. لكن الرجل خرج وعلى وجهه علامات

الضيق، وصرف اللورد جرانفيل إلى حال سبيله، وعاد إلى الغرفة وهو يفــرك يديــه مثلما يفعل الإنسان عندما يتخلص من مصدر من مصادر القلق والإزعاج. جاءت هذه الحركة بمثابة تشجيع غير عادى لى، وطلب منى رئيس الوزراء مواصلة حديثى.

سلمت الرسائل كلها التى حمّلنى عرابى إياها عن تجــارة الرقيــق، وعــن مشروعات الإصلاح الأخرى، ثم تطرقت بعد ذلك إلى الحديث عن وضع كــولفن وماليت. قال جلادستون متعاطفًا: "ما الذى يمكن أن نفعله؟ إنهم موظفون عموميون محترمون وقد جرى تكريمهم على عملهم فى مصر". وركز جلادستون على كلمة "التكريم". ثم طلب الرجل منى بعد ذلك أن أقول له شيئًا عن الزعماء المدنيين فــى الحزب الوطنى، وشرحت الوضع الخاص ببعض هؤلاء الزعماء مثل محمد عبده، وأحمد محمود، وسعد الله حلبى، وحسن شريعى، ونواب آخرين، فضلاً عن الــسيد عبد الله النديم الصحفى والخطيب. مما لفت نظر جلادستون، إلى حد أنه دوّن اســم الرجل على قصاصة من الورق. ويمضى الوقت علينا إلى أن أصــبحت الــساعة الثانية عشرة، وحيث كان هناك موعد آخر لرئيس الوزراء. هذا يعنى أنى أمضيت مع الرجل حوالى أربعين دقيقة – أربعون دقيقة انقضت على وجه السرعة. وبينما كنت أخرج من المكتب استدرت وسألت الرجل، نتيجة فكرة طرأت لــى، عمــا إذا كان بوسعى أن أرسل لعرابى أية رسالة من رئيس الوزراء، ردا علــى رســائله. وفكر الرجل لحظة ثم قال: "أنا لا أعتقد ذلك". ثم قال بعد ذلــك بــبطء واهتمــام شديدين: "لكن لك الحرية فى أن تنقل له انطباعك عن مشاعرى"، ثم قال بعد ذلــك متحدثًا بنوعية الصوت الذى يشيع استخدامه فى مجلس العموم، والذى جاء علــى النقيض تمامًا من النغمة الودية والإنسانية تمامًا التى غلفــت حــوار الرجــل: "إذا أرادوا الحكم على الأمور، فعليهم بقراءة ذلك الذى نقوله فى البرلمــان، وبخاصــة ذلك الذى أقوله أنا، نظرًا لأنى اعتنى تماما بحديثى إلى البرلمان. نحن فى خطبنــا العامة نكون مقيدين بالرأى الأوروبى، الذى يتعين علينا أخذه بعين الاعتبار، وهــذا ليس فى صالح المؤسسات الليبرالية فى مصر. لكن يتعين عليهم قــراءة خطبنــا". كان الرجل قد استدار عائدًا إلى مكتبه إذ كنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق داخل الغرفة، ثم تناول ورقة كانت على المكتب، كانت عبارة عن برقية جرى توقيعهــا

بالفعل، وأحسست يقينًا أنها كانت تلك البرقية التى سبق أن حكى لى عنها ولسون وأنه ساعد فى صياغتها، وكان رئيس الوزراء على وشك أن يطلعنى على هذه البرقية – لكنه امتنع عن ذلك وأعادها إلى المكتب مرة ثانية. وعادت إلى الرجل أخلاقياته وحميميته الطبيعية. ثم شكرنى مرة ثانية على رسائلى وعلى كل ما قلته له، وطلب منى إبلاغه بكل ما يجد فى هذا الأمر. وقد تأثرت كثيرًا بحرارة مصافحة الرجل لى، وكنت على وشك البكاء، وخرجت من مكتبه وأنا متأثر بطيبته وعظمته، ورحت أتعجب كيف لرجل طيب من هذا القبيل أن يصل إلى منصب رئيس الوزراء. "الحمد لله. الحمد لله". ورحت أكرر بينى وبين نفسى "نصر من الله وفتح قريب".

كان هذا هو جلادستون الذى التقيته وهو بلا قناع وعلى حقيقته فى ذلك اليوم – رجل يتعاطف تعاطفًا كبيرًا مع الخير، وأنا على يقين، من أنه لا يمكن أن ينحرف ولو مقدار شعرة عن طريق الحق. لكن للأسف، كان هناك جلادستون آخر، ذلك السياسى الانتهازى، الذى يختلف عن جلادستون الأول، والذى سرعان ما رأيته وهو يتلاعب علانية، بحيل خيالية تبكى الملائكة تأثيرا بها. "وسوف أرسم هنا شخصية، استقيتها من ملاحظتى لذلك الرجل بصورة قريبة، على امتداد السنوات العشر التى تلت ذلك".

قلت إن جلادستون عبارة عن شخصيتين، الجانب الإنسانى فى هذه الشخصية يشرح الصدر، وهو لديه قدرة وطاقة هائلة من التعاطف، ولديه أيضًا ما يمكن أن أسميه دفق زائد عن الحد من الحماس والتحمس للأشياء التى تسترعى انتباهه وتجذبه إليها، والرجل فيه أيضًا قدر كبير من التواضع، مع أولئك الذين هم أقل منه، الأمر الذى كان يُكسبه حب هؤلاء الناس، والرجل فيه أيضًا بعض نقاط الضعف الإنسانية القليلة التى لم تجد لنفسها مكانًا فى المذكرات التى جرى نشرها. كل هذه الخصال أدت إلى إكساب الرجل حب الناس، وبخاصة الشباب منهم، والنساء اللاتى عرفنه حق المعرفة، سواء من هن طيبات ومن هن غير ذلك. كان ذلك هو الجزء السعيد من شخصية الرجل. أما حياة هذا الرجل العامة فقد كانت

خداعًا إلى حد ما – وهذا هو حال حياة كل برلماني من البرلمانيين. كانت خصائص الخداع في الجدل محفورة في ذهن هذا الرجل. لقد بدأ في تعلمه البرلمان منذ أن كان في المدرسة، وفي الكلية قبل أن يدخل مجلس العموم؛ وعندما بلغ الرجل الثلاثين من عمره كأن مقياس الصواب والخطأ في الأمور العامة هي أصوات قد تعلم. واحترامًا لذلك أهمل ميوله بالسياسة، إلى أن تحولت نوازعه الشخصية إلى الخير، إلى مجرد أذواق أكثر منها مبادئ. هذا يعني أن هذه المبادئ كانت عنده مثل الذوق الموسيقي، الذوق في استعمال الأدوات المصنوعة من الخزف، مثل ذوقه في التحف، تحولت إلى مشاعر يميل إليها لكنه يقيد إحساسه تجاهها لصالح مهمة أكبر، تتمثل في تأمين الأغلبية البرلمانية. كان ذلك هو السبب الرئيسي الذي يقف وراء أعمال هذا الرجل، ضميره الحي الذي كان يضحي من أجله بآماله وتطلعاته النبيلة كلها. يزاد على ذلك، أن حياة الرجل العامة الممتدة، كانت قد ولدت فيه، كما هو الحال في الممثلين، نوعا من خداع الذات.

أدى لعب جلادستون لأدوار هي في واقع الأمر ليست أدواره، إلى اكتساب الرجل القدرة على تقمص الشخصية التي يريدها، وذلك في اعتقادي، على العكس من أعمق أعماق أفكاره. فقد يضطر أن ينتهج سياسة جديدة كريهة، فإنه يلجأ إلى إقناع نفسه باعتقاد مفاده أن هذه السياسة تناسبه في واقع الأمر، ويستمر الرجل على هذا المنوال إلى أن يقنع نفسه بالارتداد عن السياسة القديمة إلى السياسة الجديدة، مؤلفًا عبارة أو حجة قد تحظى باستحسانه. وبذلك كان الرجل يتحاشى تدقيق الناس الشديد في خداعاته، ذلك أن الرجل (جلادستون) مثل البطل المأساوي عند شارلز ديكنز، وإذا ما تعين عليه أن يقوم بدور أوثللو Othello، كان يقوم بطلاء نفسه باللون الأسود. أنا على يقين أن ما أقوله هنا ليس تقييمًا عادلاً لشخصية جلادستون العامة. لكن من المؤكد أن ذلك هو الضوء الذي تبدت لي فيه أعماله، وبخاصة في خيانته للقضية المصرية في ذلك العام.

ومع ذلك، وإلى الآن، لم تكن لدى هواجس، وأخذت طوال الأيام القلائل التى تلت ذلك أرسل رسائل إلى أصدقائى فى القاهرة أقص عليهم تفاصيل الأخبار الطيبة، فوجود جلادستون إلى جانبنا، يجعلنا لا نخشى شيئا، كل ما كنت أرجوه منهم هو التحلى بالصبر إلى أن تصل اللجنة التى طلبت تشكيلها وإرسالها إلى القاهرة. الكتب الزرقاء تبين أن اللورد جرانفيل أسهم بعض الشىء فى تنفيذ المقترح الذى تقدمت به. لكن قلب جرانفيل لم يكن مع ذلك المقترح، أو إنه ربما يكون قد منع من ذلك بواسطة ديلك أو أى أشخاص آخرين في وزارة الخارجية. كتب لى جرانفيل فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر يدعونى لتناول الغداء معه، حيث ستتاح لنا فرصة مناقشة مسألة اللجنة، لكن مصادفة، والأرجح أنها لم تكن مصادفة، لم تصلنى هذه الدعوة إلا بعد فوات الأوان، وهذه المناورة جرى تكرارها بعد أسبوع، وأسفرت عن النتيجة نفسها، أى عدم مناقشة مسألة اللجنة. الكتب الزرقاء تسجل قليلاً من المفاوضات الفاشلة مع فرنسا فيما يتعلق بمسألة تقصى الحقائق، لكن سرعان ما أُوقف ذلك التفاوض وبدأ اتباع طريقة اللورد جرانفيل فى ترك الأمور تحل نفسها بنفسها، والتى تعد مسئولة عن كل ما حدث بعد ذلك. وقبل انقضاء بضعة أسابيع كان الدساسون فى مصر قد حققوا هدفهم بأن أثاروا الاضطراب والفوضى من جديد، وتزايدت مسألة إصلاح الأمور صعوبة على صعوبتها.

يجدر بنا هنا أن أُورد مختصرًا للجلسة القصيرة التى عقدها البرلمان قبل عيد القيامة فى لندن. كنت قد سافرت إلى كرابت Crabbet بضعة أيام قلائل أرعى خلالها شئونى الخاصة، لكن ذلك لم يمنعنى من الكتابة لأصدقائى فى مصر: عرابى، ومحمد عبده، وعبد الله النديم لكى أخبرهم بالنجاح الذى أصبته مع جلادستون، وأطلب منهم الحرص والصبر.

وفى اليوم السادس والعشرين تلقيت رسالة من بتون Button، وبداخلها بيان من شخص يشغل منصبا مهما جدا، والذى لا يزال ضمن أوراقى. هذا البيان قصير وعامر بالمعلومات ولذلك فأنا أورده هنا كما هو:

"فى الثانى والعشرين، أشتاق جدًا لأن أرى السيد ولفريد بلنت يلتقى مع ناتى Natty روتشيلد، الذى لا تحتاج مصالحه فى مصر إلى شرح أو تفسير. الرجل يداوم على الذهاب إلى اللورد جرانفيل ووزارة الخارجية بصورة مستمرة، وهو فى هذا الأمر "يموت كل يوم" كما يقول القديس بولس وسوف يقدم خدمة عظمة إذا استطاع أن يوفق بينهم. أنا أرغب منك أن تدعو ولفريد بلنت لتناول الغداء فى نيو كورت New Court يوم الجمعة القادم الساعة الواحدة بعد الظهر، إذا ما تمكنت أنت من ذلك. وهذا اللقاء سيكون مفيدًا من نواحى كثيرة".

هنا، بطبيعة الحال، يكمن لب الموقف، قرض روتشيلد البالغ تسعة ملايين جنيه إنجليزى والذى يتهدده الخطر فى مصر، والذى أبلغنى بتون بنفسه، أن نصف هذا القرض لا يزال محتجزًا لدى آل روتشيلد أنفسهم. وبناء على ذلك، قصدت إلى لندن فى فترة الصباح، أقصد صباح اليوم السابع والعشرين، وهو اليوم المحدد لتناول الغداء؛ وقصدت لندن تحت مظلة بتون، لكن من سوء الحظ أنى وجدت أن "ناتى" Natty كان قد استدعى فى صباح ذلك اليوم إلى الخارج بسبب مرض أو وفاة واحد من أقرب أقاربه، (نسيت اسم ذلك القريب). ترتب على ذلك أننا لم نلتق الرجل، لكنه كان قد ترك لنا رسالة، طالبًا إلىَّ فيها أن أكتب له عن آرائى ووجهات نظرى. وأنا آسف لذلك الحادث الذى منع لقاءنا، لأن هذا اللقاء كان يمكن أن يكون لقاء مهمًا، على الرغم من يقينى من أنه لم يكن ليسفر عن نتائج طيبة. منذ ذلك الحين، وأنا أتعجب من معنى "يوفق بينهم" فقد تشككت أيضا فى أن الغرض الحقيقى من هذا التفاهم هو المساعدة فى رشوة عرابى، الأمر الذى يؤدى إلى فقدان الثقة فيه، ويبدو أنه قد جرى تجربة أشياء من هذا القبيل مع عرابى، بعد ذلك بشهرين من خلال قناة أخرى. ومع ذلك، لم تسفر الزيارة عن شىء، اللهم باستثناء كتابة مذكرتى الطويلة على نحو يصعب معه إيرادها هنا، وكان الهدف من هذه المذكرة، من الناحية السياسية، التوصية بأن الممولين الذين لهم مصالح فى مصر يتعين عليهم التسليم بالثورة التى حدثت، وأن يستفيدوا منها إلى أبعد حد ممكن، وتنبأت بأن حملة الأسهم والسندات سوف يخسرون الكثير إذا ما قامت الحرب بدلاً من المصالحة. وقد بلغنى بعد ذلك أن روتشيلد، بعد المحنة الكبيرة

والقلق النفسي الذي أصابه جراء قصف الإسكندرية بالقنابل، وبعد أن ضاعت نقوده، وفقدانه الأمل في استرجاعها ثم استردها راح يأسف ويندم على نبوءتي، وكأنها صدرت عن نبي كاذب. لكن ذلك لا يهمني في كثير أو قليل. لم تكن مذكرتي مكتوبة لصالح ناتي روتشيلد باعتباره دائنا، وإنما كتبتها لمصلحة المدينين المصريين.

هناك مدخل عجيب آخر في مفكرتي، بتاريخ ٢٨ من شهر مارس، يُلَمِّحُ إلى الأفكار التي كانت شائعة في ذلك الوقت في ميدان المطبعة Printing House Square. هذا يعني أن تلك كانت أول مرة أذهب فيها إلى مكتب جريدة التايمز، وكان بتون Button دليلي في هذه المرة أيضًا إلى هذا المكان. التقينا ماكدونالد في مكتب الجريدة؛ وماكدونالد هو مدير هذا المكتب، وكان مبتغانا من لقائه هو أن ندفعه إلى إرسال مراسل جديد إلى القاهرة، لكي يعطي الجريدة أخبار محايدة؛ وهنا راح ماكدونالد يفكر في إيفاد ماكنزي والاس Mackenzie Wallce للقيام بهذه المهمة. لكن ماكدونالد بسبب حرصه الإسكتلندي لم يجرؤ على تحمل التكاليف. كان مكتفيًا من الناحية العملية، على حد قوله، بالأخبار التي كان يرسلها له سكوت Scott، مراسل الجريدة في الإسكندرية. وقد قال ماكدونالد إن: الشعب الإنجليزي مهتم بأمرين في مصر، قناة السويس والسندات والأسهم، وآراء سكوت Scott في هذين الأمرين هي ما يريده الشعب الإنجليزي. فيما عدا هذين الأمرين، الإنجليز لا يهتمون بأي شيء آخر في مصر. هنأني الرجل على رسائلي، على الرغم من عدم حصولي على أي مقابل لها، وقال: إنهم يسعدهم دومًا أن ينشروا كل ما عندي. لكن، من وجهة نظرهم، فإن الأمر لا يحتاج إلى إيفاد مراسل خاص.

كنت في ذلك الوقت على اتصال بألين Allen، سكرتير مكافحة تجارة الرقيق، وهو رجل محترم لكنه صاحب آراء متزمتة. كان السير وليام موير Muir قد انتقدني لأنني كنت قد أكدت في واحدة من رسائلي لجريدة التايمز، أن من بين مهام الحركة الوطنية في مصر، قمع البقية الباقية من الرق في مصر، لكنه لاقى الأمرين ليثبت من سور القرآن وآياته، أن الرق العادات التي كانت ولا تزال لها صفة دينية عند المسلمين. وجدت أيضًا أن آلين، مستاء من حديثي عن مناصرة

عرابى لفكرة القضاء على العبودية وتجارة الرقيق، التى كان آلين يرى أنها مهمة مقصورة على أعضاء جمعية مكافحة تجارة الرقيق فى القاهرة. كان غضب آلين شديدًا مثل غضب الكلاب صائدة الثعالب، عندما ترى أن القضاء على الثعالب وتدميرها إنما يكون من عمل فلاح من الفلاحين. كان يقول: إن المسلمين لا علاقة لهم بالقضاء على العبودية وتجارة الرقيق، وإلا فماذا سيتركون للجمعية! كان ذلك هو الانطباع الذى تولّد لدى من جدل هذا الرجل.

عثرت في مفكرتى فى آخر المطاف على ملاحظة مفادها أن دعيت فى اليوم الأول من شهر أبريل، إلى مقابلة أمير ويلز، الذى أراد أن يقابلنى على العشاء. كان مُضيّفى فى هذه المناسبة هو هوارد فينسنت Vincent Howard، الذى كان فى ذلك الوقت، على علاقة وثيقة مع صاحب السمو أمير ويلز. بلغت من الغباء مبلغًا منعنى من الذهاب إلى العشاء، الذى ربما أفادنى، لكن من سوء حظى أنى كان لدى موعد آخر فى اليوم نفسه، كى ألتقى الأميرة لويز أوف لورن Louise of Lorne فى هواردز Howards، ولم أكن راغبًا فى الفكاك من ارتباطى، الذى كان هو الآخر موعدا مهما. ومع ذلك، ذهبت فى المساء إلى منزل فينسنت Vincent، ودار حوار بينى وبين أمير ويلز عن مصر، لكن فى أمور غير الأمور التى تهمنى.

يمكن القول هنا: إن هذه المرحلة تعد نهاية الفصل الأول من حملتى الإنجليزية. فإلى هنا تكون الأمور قد سارت، على الرغم من المصاعب الجمة، على ما يرام فيما يتصل بالدعاية التى كنت أقوم بها. كانت دعايتى لأجل القضية الوطنية المصرية تستقبل استقبالاً حسنًا فى كل مكان، وكان الكلام عن التدخل الأجنبى قد قل وانحسر. وفى لحظة من اللحظات كانت آمالى تحلق فى عنان السماء، نظرًا لأن بتون كان قد أكد لى أن اللجنة التى اقترحتها أنا كان يجرى الإعداد لتشكيلها وإرسالها إلى القاهرة، بل إن الرجل حدد لى أيضًا اسم الرجل الذى وقع عليه الاختيار للقيام بهذه المهمة. لكن المؤسف، أن هذا الكلام تحول إلى شائعة لا أساس لها من الصحة. وبعد ذلك خرج الجميع من لندن لتمضية عيد القيامة، وقبل عودة المسئولين من الإجازة طالعتنا مؤامرة من تدبير الشراكسة، فكانت تلك المؤامرة بداية لنهاية مشئومة.

الفصل الحادى عشر

المؤامـــرة الشــركسية

يمكن معرفة الحال الذى كانت عليه الآمال المرتقبة فى مصر خلال الأسبوع الأول من شهر أبريل، على الرغم من الشائعات الكثيرة عن الاضطراب والفوضى؛ التى كان يجرى نشرها فى أوروبا، ويمكن الوقوف عليه من خلال الرسالتين التاليتين اللتين أرسلهما لي كل من أحمد عرابى والشيخ محمد عبده فى ذلك الوقت. لقد كانت طبيعة الشيخ الراقية وكذلك صراحته الصارمة، إضافة إلى المنصب الجليل الذى يشغله الرجل حاليا باعتباره مفتيًا للديار المصرية(*)، كل ذلك يضفى على شهادة الرجل قيمة تاريخية لا يمكن المبالغة فيها بأى حال من الأحوال، ويمكن أن تكون على النقيض أو العكس من الأقاويل الزائفة متعددة الأشكال، والتى نطالعها فى الكتب الزرقاء. لقد كان فى ذلك الوقت رئيسا لتحرير الصحيفة الرسمية ورقيبًا على الصحافة فى القاهرة، مما وضع الشيخ محمد عبده فى وضع معرفى يسمح له بالوقوف على ما يدور فى مشاورات ومداولات الوزارة الوطنية، الأمر الذى يستحيل على كل من ماليت أو كولفن أو أى أوروبى آخر الوصول إليه. وأنا هنا ألفت انتباه المؤرخين بصفة خاصة إلى هذه الوثائق المُقنعة.

القاهرة، فى الأول من أبريل عام ١٨٨٢

إلى صديقنا المحترم، المخلص، الصديق، صاحب الفكر الحر، السيد ولفريد سكاون بلنت، أحيا الله جهوده.

"بعد الحمد لله، قاهر الأقوياء، وناصر الحق، أود القول: إن رسالتك المؤرخة اليوم العاشر من شهر مارس، قد وصلتنى وأسعدتنى سعادة بالغة. والذى لا شك فيه أن هذه الرسالة سوف تسعد كل إنسان حر أن يرى رجالاً أحرارًا من أمثالك، وصادقين فى أقوالهم وأفعالهم، ومصممين على المضى قدمًا فى مشروعاتهم الراقية لفائدة الإنسانية بشكل عام، وفائدة بلادهم بشكل خاص.

(*) وقت تأليف الكتاب وليس عام ١٨٨٢. (المراجع)

محتويات رسالتك تؤكد أنك مغرم بحرية الجنس البشرى، وأنك تبذل قصارى جهدك لخدمة مصالح أمتك الإنجليزية، إدراكا منك أن هذه المصالح فى الشرق، وبخاصة فى مصر، يمكن تأمينها إلى الأبد عن طريق مساعدة المصريين فى نيل حريتهم وبذلك تحظون بحبهم. الإنجليز الأحرار يتعين عليهم تمامًا مساعدة أولئك الذين يناضلون من أجل استقلال بلادهم، ومن أجل إصلاحها، ومن أجل إقامة حكومة عادلة. ونحن لا نشك، أن جهودك ومحاولاتك الطيبة، سوف تضمن لك اسمًا مشرفًا عند بنى وطنك، عندما يفهمون ويكتشفون الجهد الكبير الذى بذلته من أجل إماطة اللثام عن القناع الزائف الذى ارتداه أصحاب المصالح أمام أعينهم.

وفيما يتصل بنا، فنحن نشكر لك خدماتك الطيبة فيما يتصل بمصر وإنجلترا؛ إنجلترا ذلك البلد الذى نتمنى أن يكون أقوى الأصدقاء فى مساعدتنا على إقامة نظام جيد على أساس من الحرية، يحاكى الأمم الحرة المتحضرة. أتمنى على الله أن يكلل جهودك بالنجاح، وعليه فنحن نرى أن وصولك إلى بلادك فى سلام، فألاً حسنًا للنجاح.

فيما يتصل بالنصيحة التى أسديتها إلينا، نحن مدينون لك بالشكر، وأرجو أن تسمح لى بأن أقول: إننا نبذل قصارى جهدنا من أجل المحافظة على الهدوء والنظام، لأننا نعد ذلك أحد واجباتنا المهمة، ونحن نحاول النجاح فى ذلك. وأنا أؤكد لك أن كل شىء هادئ الآن. السلام يعم البلاد؛ ونحن ومعنا كل إخواننا الوطنيين نبذل كل ما فى وسعنا من أجل الدفاع عن حقوق أولئك المقيمين فى بلدنا، بغض النظر عن البلاد التى جاءوا منها. كل المعاهدات والالتزامات الدولية يجرى احترامها احتراما تاما؛ ونحن لن نسمح لأى إنسان بالمساس بهذه المعاهدات والالتزامات الدولية طالما أن الدول الأوروبية تحافظ على التزاماتها وعلاقاتها الودية معنا.

فيما يتصل بتهديدات كبار المصرفيين ورجال المال الأوروبيين لنا، سوف نتحمل تلك التهديدات بحكمة وحزم. ونحن نرى، أن هذه التهديدات ستضرهم هم أنفسهم، وسوف تضر أيضًا الدول التى يضللها هؤلاء المصرفيين ورجال المال.

هدفنا الرئيسى هو تخليص البلاد من العبودية، ومن الظلم، ومن الجهل، وأن نرفع شعبنا إلى المكانة التى تحول بينه وبين العودة إلى الاستبداد الذى حطم مصر فى الزمن الماضى.

هذا الكلام الذى أرسله إليك، يمثل أفكار المفكرين المصريين ومحبى هذا البلد من أصحاب الفكر الحر.

تحياتى للسيدة حرمك وتقبل تحيات صديقك المخلص،

أحمد عرابى.

القاهرة، فى السادس من أبريل عام ١٨٨٢.

إلى صديقنا المخلص، السيد ولفريد بلنت.

بعد شكر الله ﷻ على الحرية والإصلاحات التى بارك الله لنا فيها وأسبغها علينا، أود أن أبلغك بأنى تسلمت رسالتك الثانية بعد أن أرسلت لك ردا على رسالتك السابقة. وأنا أنتهز هذه الفرصة وأكرر لك خالص شكرى لجهودك ومحاولاتك. أرى أن من واجبى، ومن واجب كل ضمير حى، بل ومن واجب الرجال جميعًا، أن أشكر لك خدماتى الطيبة. والاعتراف بالفضل يقوى روابط الصداقة بين الناس، وبين الدول أيضًا. نحن نتطلع تمامًا إلى التوصل إلى تفاهم بشأن الصداقة والمصالح المتبادلة الخاصة بنا والمصالح الخاصة بالدول التى تربطنا بيا بعض الالتزامات، لأنه من خلال الصداقة وحدها يستطيع أصحاب الحقوق في بلادنا التمتع بثمار المعاهدات والعقود، التى نرى أن من واجبنا احترامها والدفاع عنها. وإذا ما حدث أى شقاق، فإنه لن يؤثر علينا وحدنا، وإنما سيؤثر على الدول الأخرى كلها، وبخاصة بريطانيا العظمى. السياسيون أصحاب الأفق الواسعة لا يمكن أن يفشلوا فى الوقوف على المزايا التى يمكن أن تعود على بريطانيا من مصادقتنا، ومساعدتنا فى كفاحنا ونضالنا.

وفيما يتعلق بالرقابة المالية، لك أن تتأكد من أننا لن نعوقهما في أدائهما لواجبها، طبقًا للحقوق المنصوص عليها في المعاهدات الدولية. لم يحدث مطلقًا أن انتوينا، أو انتوى أحد من شعب هذا البلد، المساس بحقوق المراقبة المالية، أو التغاضي عن أية معاهدة من المعاهدات الدولية.

إن قُدِّر لمندوبي الدول في هذا البلد أن يكونوا أمناء مع واجبهم، وأمناء أيضًا على مصالح بلادهم، فإنهم يتعين عليهم مساعدتنا في مشروعنا الوطني، وعليهم أن يثبتون بالأعمال ذلك الذي يقولونه لنا بالأقوال.

لقد عقدنا العزم على أن نبذل كل ما في وسعنا لكي نهيىء لبلدنا مكانًا بين الأمم المتحضرة عن طريق نشر المعرفة في سائر أنحاء البلاد، محافظين على الاتحاد والنظام، وتحقيق العدالة للجميع. ولن يضطرنا أي شيء إلى التراجع ولو مقدار بوصة واحدة عن هذا العزم والتصميم؛ فالتهديدات والإنذارات لن تحول بيننا وبين ذلك؛ نحن لا نستسلم إلا للمشاعر الودية، التي نقدرها حق قدرها.

فيما يتصل بالهدوء في البلاد، ليس هناك ما يؤدي إلى الإضطراب. نحن نحاول محو الآثار المتخلفة عن الحكومات السابقة.

وفيما يتعلق بالأسئلة التي تطرحها علينا، أفيدكم بأنني أرسلت لك إجابات عنها من خلال الشيخ محمد عبده عن طريق البرق. الواقع أن الشائعات المنتشرة في أوروبا عن الإنفاق العسكري المبالغ فيه، لا أساس لها وهي عارية من الصحة. الميزانية العسكرية لم تزد حتى ولو باره Para واحدة، ولم تنقص درهمًا واحدًا. والميزانية هي كما كانت عليه في اليوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٨٨١، في زمن شريف باشا. وعليه اطمئن أن الشائعات التي كلفت نفسك مئونة الحديث عنها إنما يُروجها أولئك الذين لا يميزون. ونحن نأسف عندما نرى أن ذلك الزيف يشق طريقه بصورة مستمرة إلى صحف أوروبا المتحضرة.

ندعو الله أن يهدى المفكرين السياسيين الأوروبيين إلى الحق والحقيقــة، وأن يعرفوا ظروف بلادنا حق المعرفة. وبذلك يمكن أن يخدموا بلادهم وبلادنا أيــضًا عن طريق تقوية روابط المشاعر الطيبة. وفقنا الله إلى التمتع بنعمة الأمن والسلام والتفاهم الودى.

أحمد عرابى.

هاتان الرسالتان اللتان جاءتا علــى شــكل رد لرســالتى التــى ضــمنتها "انطباعاتى" عن مشاعر رئيس الوزراء الطيبة؛ قدمتهما مترجمتين، عقب تــسلمى لهما، إلى جلادستون؛ وكان يمكن لهاتين الرسالتين أن تحظيا باهتمام الرجل، لــولا أنه كان خارج لندن فى ذلك الوقت ومشغولاً بما هو أهم عنده بكثير من هذا الأمر - لأنه كان يهدد وجود حكومته - فقد كان الوضع شبيه تمامًا بما يشبه الثــورة فــى أيرلندا. ولم تتح لى فرصة لقائه هو أو هاميلتون إلا بعد انتهاء فترة عيد القيامة فى نهاية الشهر. كانت الأحوال، فى مصر فى ذلك الوقت، قد بدأت تزداد حرجًا مــن جديد جراء ما يعرف تاريخيا باسم المؤامرة الشركسية Circassian، التى وصــلت أخبارها إلى لندن فى الأسبوع الثالث من شهر أبريل. لم أولى تلك المؤامرة اهتمامًا كبيرًا فى ذلك الوقت، من منظور أنها شائعة من الشائعات التى كان يجرى نشرها فى تلك الأيام. لكن سرعان ما تحولت هذه المؤامرة إلى شىء خطير تمامًا، لا فى حد ذاته، وإنما لأن هذه المؤامرة تهيئ لدبلوماسيتنا الفرصة التى كانــت تنتظرهــا حتى تُدخل الخديو فى صراع علنى مع الوزراء. كان ماليت فى ذلك الوقت، قد تم إخضاعه تمامًا بواسطة كولفن Colvin، وأصبح اعتبارًا من ذلك الوقت ينقــاد فــى عمله بفعل مقترحات كولفن.

كان مؤلف هذه المؤامرة، هو الخديو إسماعيل السابق بلا أدنى شــك. وأنــا أعلم ذلك، من خلال بعض مصادر المعلومات الأخرى، المتمثلة فى سكرتيره فــى ذلك الوقت، إبراهيم بك المويلحى. كان الخديو السابق فى منفاه فى نابولى، لا يزال يتلاعب بأوتار الحزب الوطنى فى القاهرة، ويسدى النصح إلى ولده توفيــق مــن خلال هذه الأوتار. كان عميل إسماعيل باشا الأول هو راتب Ratib باشــا، الــذى

أذكر أني سمعت عنه الخريف السابق، أنه من بين ألد أعداء الوطنيين، وأنه جرى تنفيذ المؤامرة الشركسية خلاله. كانت فكرة المؤامرة تقوم على أساس الاتصال بضباط الجيش الشراكسة والاختلاط بهم وتحريضهم على القيام بحركة رجعية الضباط الفلاحين. وكانت المؤامرة تقضي باغتيال عرابي وكبار الضباط الفلاحين، ثم تحدث بعد ذلك ثورة مضادة، كان الخديو إسماعيل يتطلع من ورائها إلى استعادة حكمه في أثناء الفوضى التي قد تنجم عن مثل هذه الثورة. وأنا على قناعة أن الفرصة لا يمكن أن تسنح بذلك بأي حال من الأحوال، لكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن رفرز ولسون Rivers Wilson كان يرى أن ذلك أمر ممكن، وكان لديه فكر مفاده أن ذلك يمكن أن يكون مفيدًا من الناحية المالية باعتباره بديلاً لضعف الخديو توفيق الكامل، وعجزه عن مساعدة المراقبة المالية. كان توفيق، كعادته حائرًا بين طريقين: طريق المضي قدمًا مع الوزارة الدستورية وعرابي، الذي أصبح يغار منه الآن غيرة شديدة، وطريق الانضمام إلى رد الفعل التركي مخاطرًا بذلك بإعادة والده. كان شريف وماليت يعملان سويا، وأصبح منزل شريف باشا مركزًا للدس الدبلوماسي والتآمر على الوزارة بإيحاء من كولفن. أنا لا أقول هنا: إن كولفن أو ماليت، أو ربما حتى شريف باشا كانوا على علم بتلك اللطمة أو الضربة، لكن كان معروفًا للجميع أنهم سوف يقفون إلى جانب الحزب الذي يستطيع الإطاحة بالوزارة، الأمر الذي زاد من ثقة المتآمرين. ومع ذلك، جرى إفشاء سر هذه المؤامرة لعرابي قبل أن تنضج وتصل إلى مرحلة التنفيذ، على الرغم أن ذلك لم يحدث إلا بعد محاولة اغتيال عبد العال بك الفاشلة، وهنا جرى إلقاء القبض على الضباط وإيداعهم السجن. تفاصيل هذه المؤامرة يمكن الوقوف عليها، هي وبعض المعلومات الأخرى المهمة، في الرسالة التالية التي تسلمتها في ذلك الوقت، من الشيخ محمد عبده والمؤرخة اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل:

الخامس والعشرين من أبريل

فيما يتعلق بمسألة ترقيات الضباط التي تكثر الصحف الأوروبية الحديث عنها، اسمح لي أن أوضح لك حقائق هذا الأمر. أولاً، إن هذه الترقيات لم تجر بناء

على رغبة عرابى باشا أو إرضاء له، ولم تكن أيضًا رشوة لكسب ولاء الضباط لعرابى. لقد جرت هذه الترقيات تنفيذًا لقانون عسكرى جديد، ينص على أن الضباط بعد سن معينة، أو فى حال المرض، أو العجز أو عدم اللياقة يتعين عليهم التقاعد نظير معاش معين. هذا القانون العسكرى بدأ تنفيذه فى عهد شريف باشا، وعليه جرى وضع عدد ٥٥٨ ضابطًا على قائمة التقاعد. بعد ذلك جرى إرسال ٩٦ ضابطا آخرين إلى حدود الحبشة وزيلع، وبعض الأماكن الأخرى، فى حين ترك ١٠٠ ضابط آخرين الجيش والتحقوا ببعض الوظائف المدنية. وبذلك يبلغ عدد الضباط المتقاعدين حوالى ٧٥٤ ضابطًا. وكان طبيعيا فى مثل هذا الحال عمل حركة ترقيات لشغل المناصب الشاغرة. ولا يزال عندنا حوالى ٥٠ منصبا شاغرًا، نحتفظ بها لطلبة المدرسة العسكرية.

يزاد على ذلك أن لقب الباشا لم يفرض على عرابى من قبل السلطان وإنما من قبل الخديو، الذى أصر على أن يحمل وزرائه كلهم ذلك اللقب.

سمح لى أن أزيل من الأذهان كليا، وإلى الأبد، الفكرة التى مفادها أن عرابيا، أو الحزب العسكرى، أو الحزب الوطنى، أدوات فى أيدى الأتراك. كل مصرى، سواء أكان من العلماء، أم من الفلاحين، أم من الحرفيين أم من التجار، أم من العسكر أم من المدنيين، سياسى أم غير سياسى، كلهم يكرهون الأتراك ويمقتون ذكراهم السيئة. ليس هناك مصرى واحد يتطلع إلى فكرة نزول أى تركى على أرض بلاده، دون أن يندفع إلى إشهار سيفه لطرد ذلك المعتدى.

الأتراك مستبدون خلفوا وراءهم فى مصر مصائب لا تزال تتعب قلوبنا إلى يومنا هذا. نحن لا نود عودتهم إلينا مرة ثانية، ولا نود التعامل معهم بأى حال من الأحوال. يكفى أن الأتراك ثبتوا أنفسهم فى مصر عن طريق الفرمانات. ويجب أن يقفوا حيث هم الآن ولا يحاولوا القيام معنا بأى شىء اعتبارا من الآن. لكن إذا تناهى إلى علمنا أى شىء من هذا القبيل، فسوف نستقبله على أنه شىء غير مرغوب تماما. نحن لدينا ما يشبه الإحساس المسبق بشىء من هذا القبيل، وهذا هو السبب وراء الاستعدادات التى قمنا بها. سوف نفيد من هذا الحادث، إذا ما وقع،

فى استعادة استقلالنا الكامل. سياسيونا أصحاب العقول النيِّرة يراقبون كل تحركات السياسة التركية فى هذا البلد لكى يوقفوا هذه التحركات إذا ما تعدت الحدود المرسومة لها. أنا لا أنكر أن هناك أتراك وشراكسة فى مصر يدافعون عن الباب العالى، لكن هؤلاء لا يعدون شيئا قياسًا إلى أولئك الذين يحبون بلدهم.

فيما يتعلق بتآمر الشراكسة على حياة عرابى باشا، فهو لا يشكل خطرًا كبيرًا.

إن الخديو السابق إسماعيل، يعتبر ألد أعداء مصر إلى الآن، فهو لا يزال يغار من سعادتها، ويحيك المؤامرات منذ زمن طويل للإطاحة بالحكومة الحالية، اعتقادًا منه أنه عندما يفعل ذلك فإنه يمهد الطريق لعودته. لكن الله ﷻ أحبط آماله وجعلها تذهب أدراج الرياح، والسبب فى ذلك أن كل مصرى يعلم أن عودة إسماعيل تعنى خراب مصر ودمارها. ومع ذلك، فإن هذا الطاغية (الفرعون) أرسل إلى مصر واحدًا من أتباعه هو راتب باشا، الذى سبق طرده من البلاد؛ لقد حصل راتب باشا هذا، عن طريق الألاعيب السرية، على موافقة على دخول مصر فى زمن شريف باشا، لينضم إلى أخيه محمود أفندى طلعت البكباشى، واستطاع أن يضم إليه يوسف بك نجاتى، ومحمود بك فؤاد، وابن أخت خسرو باشا، وعثمان باشا رفقى (وهؤلاء كلهم من الشراكسة). كل هؤلاء كانوا يعملون من أجل تنفيذ خطتهم، التى كانت ترمى إلى تحطيم الوزراء الحاليين، وقتل كبار الضباط فى الجيش، بدءًا بعرابى باشا. ونتيجة جهود هذه المجموعة انضم إليها، حوالى أربعين ضابطًا من صغار الضباط، بعد أن أقسموا لهم على الولاء، لكن جرى تأجيل هذا الجزء من الخطة لعدم وجود مبررات. وقد حدث أن استاء تسعة من الضباط الشراكسة، الذين عارضوا الأمر الصادر لهم بالخدمة فى السودان. وهناك بدأ فريق راتب باشا يعرف طبيعة ما يدور بين هؤلاء الضباط واستغلوا الموقف، وأوحوا إلى هؤلاء الضباط الشراكسة التسعة برفض السفر إلى السودان قبل ترقيتهم.

كانت وزارة الحربية تتشكك منذ زمن طويل فى أن متاعب ستحدث، وكان محمود سامى البارودى، رئيس الوزراء الحالى، ووزير الحربية عندما عاد راتب باشا أول مرة إلى مصر، قد طلب من شريف باشا، فى حضور الخديو، طرد

راغب باشا من البلاد. حيث استشعر فى ذلك الوقت شيئًا من الخطـر فـى تـرك راتب باشا للخديو فى نابولى بصورة مفاجئة. لكن رفض شريف باشا طرد راتـب باشا، على الرغم من تحذير محمود سامى له بأنه سيصبح مسئولاً عن كل ما يمكن أن يترتب على ذلك فى يوم من الأيام. وهذا الرفض راجع إلى أن راتب باشا كان صهرًا لشريف باشا، على حد قول الناس، وربما أيضًا لأن شريف باشا كان شريكًا له فى خطة إعادة إسماعيل إلى الحكم.

على الجانب الآخر، حدث أن دعت جماعة راتب ضابطًا شركسيا، هو راشد أفندى أنور، إلى الانضمام إليها، ولكن ذلك الضابط رفض أن يرتبط بهذه الجماعة بأية خطة من الخطط، وترك هذا الضابط المتآمرين حيث كانوا، واتجه مباشرة إلى عرابى وكشف له المؤامرة. وبذلك جرى إلقاء القبض على أفراد هـذه الجماعـة، وتقديمهم إلى محكمة عسكرية.

تسبب ذلك الحادث فى إثارة شيء من الفوضى لدى عامة الـشعب. أصـبح الناس جميعًا يعرفون أن حياة عرابى، وحياة أناس آخرين يتهددها الخطر كل يوم. يزاد على ذلك أنه لا يمكن لرجل، مهما كانت عظمته، أن يحظـى بحـب النـاس جميعًا. لكننا نضحك إذا ما قيل: إن إنجلترا كانت على حافة الفوضى لأن مجنونـًا، عسكريا، أو مدنيا حاول إطلاق النار على ملكتكم.

عدد الشراكسة فى الجيش يقدر بحوالى واحد وثمانين شركسيا، وبالتـالى لا يحـق لصاحب العقل الانزعاج من وقوف عدد صغير كهذا ضد الحكومة.

وفيما يتعلق بتجارة الرقيق. فإن الوزارة الحالية تحاول جاهدة قمـع تجـارة الرقيق الداخلية. والدين الإسلامى لا يشكل أية عقبة أمام قمع هذه التجارة والقضاء عليها؛ وعلى العكس من ذلك، فإن العقيدة الإسلامية هى وأتباعها لا تبيح ولا تسمح للمسلمين بأن يكون ليم عبيد إلا من الكفار، الذين يقاتلون المسلمين، أو أولئك الذين لا تحميهم المعاهدات أو الاتفاقات. لكن لا يسمح باتخاذ المسلم عبدًا. يـزاد علـى ذلك، أنه إذا كان الشخص كافرًا، لكنه ينتمى إلى دولة ترتبط بمعاهدة سـلام مـع أمير من أمراء المسلمين، فإنه لا يمكن اتخاذه عبدًا. من هنا فإن الدين الإسلامى لا

يعارض فقط إلغاء العبودية بالشكل الذى هى عليه فى زماننا الحالى، وإنما يدين استمرارها أيضا. وهؤلاء العلماء الأفاضل فى كل من إنجلترا وفى البلدان الأخرى الذين لهم آراء غير ذلك يتعين عليهم أن ينيروا لنا ويعلمونا، نحن مشايخ الأزهر الأمناء على عقيدتنا وإيماننا. لو حدث ذلك سيكون منظرا مشهودا. سوف يُخسرس العالم الإسلامى كله عندما يعلم أن مسيحيا آل على نفسه، القيام فى أعظم الجامعات الإسلامية فى العالم كله، بمهمة تعليم العلماء، والأساتذة ورجال الدين أحكام دينهم، وطريقة شرح القرآن وتفسيره.

سوف تصدر خلال أيام قلائل فتوى عن شيخ الإسلام يؤكد ويثبت فيها أن إلغاء العبودية وتجارة الرقيق إنما تتفق مع روح القرآن، وتتفق أيضا مع الأحاديث النبوية الشريفة، ومع العقيدة الإسلامية أيضا.

سوف تحاول الحكومة المصرية إزالة العقبات كلها التى تعترض هذا الإلغاء، ولن ترتاح إلا إذا استؤصلت العبودية من الأراضى المصرية.

محمد عبده.

بذلك تكون المؤامرة قد أحبطت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل، وكان يمكن ألا تؤدى إلى المزيد من المضاعفات الخطيرة، لولا العمل الذى قام به ماليت فيما يتصل بهذه المؤامرة. وبدلاً من أن يقوم الرجل بمساندة الوزارة التى حيكت ضدها هذه المؤامرة، راح يولى عطفه ومساندته للمتآمرين. هؤلاء الذين جرت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية وجرى توقيع عقاب بسيط عليهم تمثل فى نفيهم إلى النيل الأبيض، تلك العقوبة التى كان يجرى توقيعها فى مصر بصورة مستمرة فى عهد المراقبة الثنائية. من جانب آخر، كان ماليت قد كتب فى إنجلترا عن بشاعة الحكم، وأنه مساوٍ لحكم الإعدام، فى الوقت الذى سمح فيه لمراسل جريدة "التايمز" بنشر قصة زائفة تماما، مفادها أن عرابيا زار السجن زيارة خاصة، حيث جرى تعذيب المسجونين على مرأى ومسمع منه وأمام عينيه. وهنا ينبغى التأكيد على أن هذه القصة عارية من الصحة. ومع ذلك راح ماليت يعيرها اهتمامه فى البرقيات التى كان يرسلها، إلى حد أنه كان يشير إليها باعتبارها حدثت

بالفعل وجرت على الألسن، ويقول أيضا أنه سمع الصراخ كان ينبعث من السجن في أثناء الليل. ومن المؤكد أن ماليت اتخذ من هذه القصة ذريعة للإيقاع بين الخديو والوزراء، بأن راح هو يتولى زمام الأمور بدلاً منهم، مغيرًا الحكم إلى النفي فقط، وهذا عمل ليس من حق ماليت طبقًا للدستور الجديد.

ولنعد من جديد إلى يومياتي في لندن، وأجد في تلك اليوميات، أنني في اليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل ذهبت إلى مقر مجلس الوزراء، في داونتج ستريت، وأنا "غاضب إلى حد ما"، من عدم فعل أي شيء من أجل مصر، لكن هاميلتون طلب مني أن أصبر قليلاً وأبلغني أن فكرتي بتشكيل لجنة ترسل لي مصر قد جرى تبنيها. وفي اليوم التالي، هنأني بتون Button على نجاحي. وقال لي: "إنه كانت هناك أزمة مخيفة بخصوص مصر؛ وأن السلطان يؤيد إرسال قوات إلى هناك، لعزل توفيق وتنصيب الأمير حليم مكانه، وإعدام أحمد عرابي. ومع ذلك. منعت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية حدوث ذلك، وستقومان بمساندة عرابي وإرسال اللجنة". وفي يوم الثلاثاء سوف يصدر بيان من الحكومة في مجلس اللوردات حول سياستها في مصر، ويبدو أن خبر تدخل السلطان كان في ذلك الوقت أزمة تسبب فيها آل – روتشيلد بتأييد من بسمارك. وبذلك توترت العلاقات في مصر، بين إسطنبول والحزب الوطني طوال الأسابيع القليلة التي تلت ذلك، في ظل ظروف يتعين علينا هنا التطرق إليها وشرحها، وفي ظل الاتصالات الغريبة أيضا التي جرت خلال شهر فبراير بين السلطان وأحمد عرابي؛ وهذه الاتصالات غاية في الأهمية، لأنها تثبت سلطة عرابي السياسية المتنامية في مصر، والتي كانت تتفوق على سلطة رفاقه الوزراء.

يجب ألا يغيب عنا أن بعثة السلطان عندما زارت مصر في خريف العام ١٨٨١ الميلادي قام أحمد باشا راتب (ويجب ألا نخلط بين هذا الاسم واسم راتب باشا الذي كان عميلاً للخديو السابق)، الذي كان من بين هؤلاء المفوضين، وكان ياورًا أيضا للسلطان، بلقاء أحمد عرابي في القطار وهو في طريقه إلى السويس ومكة، وتبادل الاثنان الأفكار وتصادقا ووعد الباشا أن يقول كلامًا طيبًا في حق

عرابى عند سيده (السلطان) وأن يصوره كمسلم طيب وموالٍ للخلافـة. وقـد أدت هذه الصداقة إلى تبادل الرسائل بينهما، وأنا لـدى أصـول الـوثيقتين المهمتـين التاليتين. اللتان وصلتاني عندما كانت تجـرى محاكمـة أحمـد عرابـى. هاتـان الرسالتان جرى كتابتهما فى غضون ثلاثة أسابيع بعد تشكيل حكومة محمود سامى البارودى، فى فبراير عام ١٨٨٢، والتى كان عرابى فيها وزيرًا للحربية. الرسالة الأولى من أحمد راتب، والثانية من الشيخ محمد ظافر Zafir أحد كبار رجال الدين فى إسطنبول، والذى كُلِّف فى ذلك الوقت مكلفا بتولى مراسلات السلطان الـسرية؛ وجرى تحرير الرسالتين بأمر من السلطان شخصيا.

إلى وزير الحربية المصرى، أحمد بك عرابى

حكيت لصاحب الجلالة السلطان الحوار الذى دار بيننا فى السكة الحديد فيما بين محطتى الزقازيق ومهدة Mahda عند عودتى إلى إسطنبول، وقد أسـعد ذلـك الحوار صاحب الجلالة، وأمرنى جلالته بأن أنقل لك تحياته الإمبراطوريـة. وقـد حكيت لجلالته عن المعاملة الطيبة التى لقيتها منك، والأدب والكياسة التى لمـستها عندما كنت فى القاهرة إلى الحد الذى أدى إلى ازدياد رضـاه واقتناعـه بولائـك وإخلاصك زيادة كبيرة. كان الناس قد جعلوا جلالته يسىء الظـن بكـم، وأنـا لا أعرف كيف حدث ذلك، وهذا على العكس من الحقيقة، ونجحوا أيضا فـى إفـساد فكرة جلالته عنك، لكن الآن وبعد أن عرضت على جلالته حقيقة الأمر، فأنا أقـسم لك أن صاحب الجلالة يندم تمامًا على استماعه لتلك الأقوال الكاذبة؛ وكدليل علـى ذلك، أمرنى صاحب الجلالة أن أكتب هذه الرسالة إليك لأعبر لك عـن المـشاعر التالية:

مسألة من هو خديو مصر أمر لا يهم. لكن أفكار حـاكم مـصر ونوايـاه وسلوكه لا بد أن توجه بعناية كبيرة، نحو المحافظة على مصر وتـأمين مـستقبلها وأن يعلى سيادة الخليفة، فى الوقت الذى يتعين عليه فيه أن يرفـع لـواء الإيمـان عاليا، وأن يحافظ على حقوق البلاد. هذا هو المطلوب ممن يعتلى العرش الخـديو.

قدم إسماعيل باشا هو ومن سبقوه الرشاوى إلى كل من على باشا، وفـؤاد باشـا، ومدحت باشا وممثليهم لدى الباب العالى، من الخونـة؛ وبعـد أن أعمـوا أعـين المسئولين، تجرءوا على ظلم المصريين وقمعوهم. وعلاوة على ذلك، وقعوا فـى ديون كبيرة، ووضعوا على أعناق المصريين نيرًا ثقيلاً. واليوم، وعلى مرأى مـن العالم كله، أصبح حال المصريين يدعو إلى الشفقة، لكن الوضع بكامله دقيق للغاية ويتطلب علاجًا أكيدًا وسريعًا. وعليه، تقع عليك مسئولية منع أى شـىء يمكـن أن يؤدى إلى التدخل الأجنبى، ويجب ألا تحيد عن الطريق السليم القويم، وألا تـستمع إلى الكلام الكاذب، وأن تحاول بكل الطرق، وأن تكون حذرًا، وأن تعمل على منع إثارة الفتنة التى يدبرها الأجانب. وهذا هو أمل السلطان الأكبر.

ولما كنا أنا وأنت سنتبادل الرسائل مستقبلاً، فيجب أن تحتاط، لمنع رسـائلنا من الوصول إلى أيدى الغرباء. وأسهل الطرق إلى ذلك الآن، وأكثرها أمنا، هو أن تسلم رسائلك إلى ذلك الرجل الثقة الصادق الذى يحمل إليك هذه الرسـالة، وهـو الشيخ محمد ظافر.

أود أن أضيف أن من الضرورى أن ترسل سرا ضابطا يعرف جيـدًا ذلـك الذى يدور فى مصر، وأن يكون من أصدقائك الذين تثق بهم، وأن يقـدم لجلالتـه تقارير مفصلة عن أحوال البلاد.

أرجو أن ترسل الرد مع حامله إليك.

أحمد راتب، ياور السلطان.

اليوم الرابع من ربيع الآخر،

المصادف للثانى والعشرين من فبراير ١٨٨٢.

إلى صاحب السعادة وزير الحربية المصرية.

عرضت رسالتيك المخلصتين على صاحب الجلالة السلطان، ومن خلال هاتين الرسالتين وقف جلالته على مشاعرك الوطنية، ويقظتك، وبخاصة أن جلالته راضٍ رضاء تاما عن وعودك التى قطعتها للمحافظة بصدق وإخلاص على مصالح جلالته، الأمر الذى حدا بجلالته أن يأمرنى بالتعبير لك عن سروره وعطفه عليك، كما طلب منى جلالته أيضًا أن أكتب لك ما يلى: "لما كانت المحافظة على نزاهة الخلافة واجبًا يمس شرف كل واحد منا، فذلك يحتم على كل مصرى أن يناضل من أجل تدعيم سلطتى وقوتى، لمنع مصر من الخروج من أيدينا إلى قبضة الأجانب، مثلما حدث لولاية تونس، وأنا أضع ثقتى كلها فيك، يا ولدى، حتى تستخدم نفوذك وتبذل كل جهد ممكن للحيلولة دون ذلك. ويجب عليك أن تعى دومًا، ولا تغيب عنك ولو للحظة واحدة، هذه النقطة المهمة، وألا تغفل أى إجراء من الإجراءات الوقائية التى يتطلبها العصر الذى نعيش فيه، وأن تضع نصب عينيك بصورة مستمرة، هدفًا دائمًا هو الدفاع عن عقيدتك وإيمانك وعن بلدنا؛ ولا بد أن تصر بصفة خاصة على المحافظة على ثقتك بنفسك، وعلى الروابط التى تلتزم بها".

هذا البلد (مصر) له أهمية بالغة عند كل من إنجلترا وفرنسا، وعند إنجلترا بصفة خاصة، هناك بعض الدسائس التحريضية فى إسطنبول، تنتهج الخط الذى تسير فيه هاتان الدولتان، منذ زمن مضى. والقائمون بها من الدساسين مشغولون بمشروعاتهم الخائنة اللعينة، ونظرًا لأنهم يعملون لفائدتهم وحسابهم، فقد نشطوا فى دسائسهم وتحريضهم فى مصر، وصاحب الجلالة يود منك أن تكون يقظًا ومفتوح العينين على هؤلاء الأشخاص. واستنادًا إلى البرقيات والأخبار المرسلة من قبل الخديو توفيق باشا، وهو واحد من أفراد هذه الجماعة، فنحن نرى أن الرجل ضعيف ويسير وفق أهوائه؛ ويجب الانتباه أيضًا إلى أن برقياته لا ترتبط ببعضها بعضًا، وإنما هى كلها متناقضة. يزاد على ذلك أنى أقول لك: "إن على نظامى باشا وعلى فؤاد بك، تكلما مع صاحب الجلالة وقالا فى حقك كلامًا طيبًا، كما أن

أحمد راتب باشا كرر وأعاد على جلالته الحوار الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديد فيما بين محطتى الزقازيق وميدة Mahda، ونظرًا لأن صاحب الجلالة يثق ثقة عمياء فى أحمد باشا، فإنه يود منى أن أعبر لك عن ثقته بك، وأن أقول طالما أن جلالته يُعِدُّك رجلاً نزيهًا تمامًا وجديرًا بالثقة، فهو يطلب منك قبل كل شيء، أن تمنع مصر من الوقوع فى أيدى الغرباء، وأن تنتبه حتى لا تعطيهم أية ذريعة للتدخل فى شئون مصر".

"سوف تصلك الأوامر التى ستصدر إلى أحمد باشا راتب حول هذا الموضوع. رسالتى هى ورسالة أحمد باشا راتب، جرت كتابتهما بناء على أوامر صاحب الجلالة، بواسطة واحد من السكرتيرين الخصوصيين لصاحب الجلالة، ثم جرى بعد ذلك وضع أختامنا عليهما، كما ختمنا المظروفين بخاتم خاص أيضًا".

وأنا أقول لك بصفة خاصة وفى السر إن السلطان لا يثق فى إسماعيل، أو حليم أو توفيق. لكن الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر، ويقوى الروابط التى تربطها بالخلافة؛ الذى يقدم فرائض الطاعة والاحترام لصاحب الجلالة والذى ينفذ فرمانات السلطان؛ الرجل الذى يؤكد استقلاله فى إسطنبول وغيرها. الرجل الذى لا يرشى تلك الطغمة الخائنة من صغار المسئولين؛ الرجل الذى لا يحيد ولو قيد أنملة عن خط واجبه؛ الرجل الذى يعرف اسمه فى الدسائس والمكائد التى يحيكها أعداؤنا الأوروبيون؛ الذى سوف يتحوط لهم ويراقبهم دومًا، وذلك حفاظًا منه على بلده وإيمانه – الرجل الذى يفعل ذلك سيشرح قلب السلطان وينال رضاه وامتنانه.

وأنا إذا كنت لم أدخل المزيد من التفاصيل فى رسالتى هذه، فأرجو أن تعذرنى نظرًا لأن أحمد راتب باشا لم يصل إلا منذ ثلاثة أيام فقط، ومع ذلك، وخلال هذه الفترة القصيرة، وفى ضوء ما قاله الرجل عن إخلاصك ونواياك، عبّر صاحب الجلالة عن ثقته الكاملة بك. وأنا لم أتسلم الرسالة التى أرسلها إليك إلا أمس فقط. آمل أن أتمكن من خلال بريد الأسبوع المقبل من أن أرسل لك رسالة فيها المزيد من التفاصيل. وفى كل الأحوال، تأكد واحرص على ألا تقع أية رسالة

من رسائلك إلينا فى أيدٍ غريبة، لكن حاول أن يكون لك مراسل خاص، وفى الوقت الحالى، يفضل أن ترسل ردك على هذه الرسالة مع حاملها إليك.

خادمك محمد ظافر.

اليوم الرابع من ربيع الآخر،

الموافق الثانى والعشرين من فبراير عام ١٨٨٢

هاتان الرسالتان عبارة عن وثيقتين لهما أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، إلى حد أنه لو قدر لمذكراتى أن تنشر فإنهما سوف يجرى ضمهما إلى هذه المذكرات باعتبارهما جزءًا من تلك المذكرات. هاتان الرسالتان تفسران ذلك الذى حدث فى شهر يونية فى زمن بعثة درويش Dervish Mission، وهما تثبتان أنه إذا كان عرابى قد آل على نفسه عندئذ، وطوال أشهر الحرب، القيام إلى حد ما بدور المستبد فى مصر، فإن ذلك كان له ما يبرره من الناحية الشرعية، فلديه أوامر الخليفة باعتباره رئيسًا للمسلمين، وحماية لمصر من اعتداء النصرانية. هاتان الرسالتان توضحان أيضًا السبب الذى جعل عبد الحميد فى شهر أغسطس يتكاسل عن إعلان عصيان عرابى، كما تبين أيضا أن تهمة التمرد التى وجهت إليه فى أثناء المحاكمة كانت تدعو إلى السخرية والاستهزاء.

مع ذلك، يجب ألا نفترض أن عرابيا جعل من نفسه أداة للسلطان فى أى أمر من الأمور التى تتصل باستقلال بلاده الإدارى. كان موقف الرجل من هذه النقطة ثابتا. كان أحمد عرابى يكره الأتراك، وكان على استعداد أن يقاوم بالسلاح أية محاولة للتدخل العسكرى من قبل إسطنبول. ورسالة الشيخ محمد عبده تعد خير برهان على ذلك، كما أنها تتفق تمامًا مع ما قاله لى عرابى كله. هذا يعنى أن وضع عرابى فى بلاط دولة الخلافة كان وضعًا متغيرًا ومتأرجحًا. كان لعرابى فى بلاط الخليفة أصدقاء أقوياء مثل أحمد راتب ومحمد ظافر، لكنه كان له أعداء لدودين هناك أيضًا. كان ثابت Sabit باشا، السكرتير التركى للخديو، واحدًا من

هؤلاء الأعداء، وكان يقوم بإبلاغ كل ما يصله أو يعرفه عن أحمد عرابي إلى قصر يلدز Yildiz. وعليه، عندما جرى إلقاء القبض على الضباط الشراكسة المتآمرين، وكان من بينهم عثمان باشا رفقي، وبعض الأتراك الميمين الآخرين، يحتمل أو يرجح أن يكون السلطان قد غضب على عرابي واستاء منه كثيرا. لكن لا يبدو أن هذا الغضب استمر، واعتبارًا من اللحظة التي بدأت المسألة فيها تتخذ شكل مقاومة أوروبا، بدأ عرابي يحظى من جديد برضا السلطان. وفيما بين توفيق، صنيعة الإدارة الإنجليزية- الفرنسية، وعرابي الذي يدافع ضد الدولتين النصرانيتين، من أجل استقلال دولة إسلامية، تصبح مسألة تعاطف الخليفة أمرًا لا يحتاج إلى التردد.

ومما يؤسف له أن رغبة السلطان في عزل توفيق وتنصيب حليم مكانه لم تنفذ. وعلى الرغم من أن عرابيا لم يكن من حزب حليم في مصر، فإنه لم يكن ليتعرض على ذلك بعد أن انضم توفيق إلى الإنجليز في مواجهته، وكان يمكن لعدد كبير من أعيان مصر أن يوافقوا على حليم الذي كان أذكى من توفيق وأكثر منه ليبرالية في أفكاره وآرائه. من هنا، كان يمكن قبول تدخل السلطان باعتباره تدخلاً سلميا، وبخاصة أنه لن يرسل جيشا لفرض هذا التدخل. وبصفة عامة كان ذلك أفضل الحلول. على الجانب الآخر، كانت الحكومة الفرنسية تعارض تدخل السلطان في شئون مصر معارضة شديدة، وكانت دبلوماسيتنا في القاهرة تحظى بحب توفيق يومًا بعد يوم. كل ذلك الذي نتج عن فكرة التدخل التركي، وعن اللجنة التي طلبت إرسالها، والتي وعد بها المسئولون، وكانت نهاية هذه المساعي أن اقترح ليوز Lyons على فرينسيه إرسال فريسنيه فرنسي، وآخر إنجليزي وثالث تركي للسفر إلى مصر "لإعادة النظام إلى الجيش المصري". ويجب هنا أن نلاحظ، أن اللورد ليونز، كان لديه مبرر خاص لقبول وجهه نظر ماليت في الموقف في مصر، ذلك أن ماليت ظل لسنوات عدة سكرتيرا خاصا وخادما مخلصا للمهنة.

من هنا يمكن القول: إن ما قيل لى فى مقر مجلس الـوزراء فـى داونـنج ستريت لم يعمل به، هو وتلك الكلمات القليلة التى وعد جلادستون أن يقولهـا فـى البرلمان، والتى رجا جلادستون عرابيا أن ينتظر وصولها إليه، لم ينفذ منه شـىء فى حقيقة الأمر. ومن باب التزامن، وهذا أمر مأساوى لمصر، كانت أزمة القاهرة وصلت إلى ذروتها، تزامنت مع تلك الأزمة الخانقة التى كانت دائرة فى أيرلنـدا، حيث كانت التهديدات والضغوط فى زمن فورستر Forster، السكرتير الرئيـسى، تجرى طوال فصل الشتاء. وجرى وضع أفراد البرلمان فى السجن بلا محاكمـة، وبدأت إجراءات القهر البوليسى تعمل عملها، أكثر من السنوات السابقة، ولم يسفر ذلك عن أى شكل من أشكال التهدئة.

كان جلادستون قد أقنع الوزارة باللجوء إلى إجراءات المصالحة. واسـتنادًا إلى اتفاق سرى جرى إبرامه مع بارنل Parnell، الزعيم الأيرلندى، عندما كان فى السجن فى كيلمنهام Kilmainham، والتى عرفت باسم معاهـدة كيلمنهـام، جـرى إطلاق سراح كل من بارنل، وصديقه السياسى ديللـون Dillon؛ ونتيجـة لـذلك، استقال فورستر Forster من منصبه فى اليوم الثانى من شهر مايو، وراح يهـاجم الحكومة لجبنها فى مجلس العموم. هذا اليوم نفسه، أى اليوم الثانى من شهر مايو، تحدد لإلقاء بيان وزارى عن مصر، بناء على طلب من اللـورد دى لا وور فـى مجلس اللوردات، ولذلك أورد ما وجدته فى مفكرتى اليومية بهذا الشأن:

فى الثانى من مايو

التقيت اللورد دى لا وور فى مجلس اللوردات. أدخلنـى الرجـل مكتبـه، وتوقعت أن أستمع منه إلى البيان الخاص بمصر، لكنى استمعت بدلاً من ذلك إلـى إعلان اللورد جرانفيل استقالة فورستر فى أيرلندا. كانت تلك عملية مثيرة تمامًـا. وقد بدا الخجل والكسوف على اللورد جرانفيل. وقاطعه اللورد سولسبرى مـرة أو مرتين ... وسمعت روزبرى Roseberry يقول كلمـات قلائـل بطريقـة مـؤثرة ومحترمة للـغاية. إلخ إلـخ. لقد تأجلت الشئون المصرية باعتبارها ليست مهمـة

أو ملحة". واستحوذت أيرلندا فى الأسابيع التى تلت ذلك على اهتمام الإنجليز كلــه بما فى ذلك اهتمامهم بمصر، إلى أن جاء اليوم السادس عشر من الشهر، وعنــدما أخذت رسالة محمد عبده المهمة، التى توضح المؤامرة الشركــسية، إلـــى الــسيد مورلى Morley، الذى رفض الرجل نشرها لطولها من ناحية ولأن "أحدا لا يهــتم بمصر" من ناحية ثانية.

على كل حال، لم يكن ذلك سوى مجرد الفصل الأول من المأساة القادمــة. فى اليوم السابع من الشهر جرى اغتيال اللورد فريدرك كافندش Cavendish، شقيق اللورد هارتنجتون Hartington، وصديق حميم لجلادستون، والذى عُيِّن سـكرتيرًا بدلاً من فورستر، لتنفيذ سياسة المصالحة الجديدة، قُتل فى مدينة دبلن ومعه الــسير بيرك Burke، المسئول الرسمى الرئيسى، بأيدى أعضاء الجمعية السرية الأيرلندية، والذين يعرفون باسم "الذين لا يقهرون" Invincibles. هذان الاثنان لم تكــن لهمــا صلة بحزب أو جماعة بارنل البرلمانية، لكن الجمهور لم يميز بين هذين الاثنــين، وجاءت النتيجة على شكل صيحة عامة تطالب بإجراءات قوية ضد التمــرد بكــل أشكاله. ظل جلادستون يقاوم هذه الصــرخة فترة من الوقت، واقترح عــلى ديلك – باعتباره راديكاليا أصيلا – الذى كان هو وتشمبرلين فى ذلك الوقت على ود مــع اتباع بارنل، أن يتولى المنصب الخطر فى دبلن، ويستمر باعتباره خلفًا لكافنــدش، ويقوم بعملية المصالحة فى أيرلندا. لكن ديلك لم تعجبه الحال التى كانــت عليهــا الأمور، ورفض المنصب، وأصبح من الصعب العثــور علـــى مــن يقبــل ذلــك المنصب. والذى أدى إلى التخلى عن سياسة المصالحة هو الموقــف الــذى وقفــه هارتنجتون، الذى وراح ينظر إلى اغتيال أخيه، الذى حزن عليه حزنًا شديدًا، على أنه مسألة شخصية ولا بد من الانتقام لذلك الاغتيال. واعتبارًا مــن تلــك اللحظــة أصبح ديلك ألد أعداء القومية الأيرلندية. وهنا تحتم على جلادستون أن يختار بــين الاستقالة أو التخلى عن سياسته، وعندما وجد أن أغلبية وزرائه يعارضونه، آثــر التخلى عن سياسته. وجرى إرسال تريفليان Trevelyan إلى دبلن، وتقرر اللجــوء إلى اتخاذ إجراءات حازمة. وحدث الشىء نفسه بالنسبة إلى مصر. إلى هذا الحــد، وعلى الرغم من وجهات النظر المتسمة بالمخاصمة والتشدد التى كانت سائدة فـــى

وزارة الخارجية، استطاع جلادستون، باعتباره أرقى أعضاء مجلس الوزراء، أن يستعمل حق النقض (الفيتو) ضد أى شكل من أشكال التدخل المسلح الفعلي. لكنه سرعان ما وجد نفسه يحصل على عدد قليل من الأصوات، وجرى إلقاء مصر هي الأخرى فريسة للذئاب. يبدو أن رفاقه كانوا يقولون له: "انظر، لعلك تقف على ذلك الذى ساقتنا إليه سياسة المصالحة التى اتبعتها فى أيرلندا". وأنا فى حدود معلوماتى الوثيقة، أرى أن سياسة القهر فى أيرلندا، وسياسة التدخل المسلح فى مصر جرى اتخاذ قرار بشأنيهما من مجلس الوزراء نفسه فى الأسبوع الثانى من شهر مايو. وأنا هنا أجدنى أورد بعض المقتطفات من مفكرتى كى أوضح بها هذا الموقف المزدوج.

فى الثامن من مايو

تأسيسا على الموقف الكئيب الذى وصلت إليه الأمور فى مصر كنت قد كتبت بلاغا نهائيا لجلادستون أتوسل إليه فيه أن يعفينى من المصيبة التى أنا فيها، والتى نتجت عن صمت الحكومة. فقد كان يتحتم علىّ قول الحقيقة إذا لم يقلها اللورد جرانفيل. من جانب آخر، كانت الدنيا كلها متلهفة على أخبار أيرلندا. أمس وصلنى الخبر المروع عن مقتل كل من اللورد فردريك كافندش هو بيرك فى أيرلندا وبالتحديد فى دبلن. فى البداية، بدا الأمر وكأن الحكومة سوف تستقيل، لكن بارنل كتب اليوم نافيًا أى علاقة لأيرلندا بهذه الجريمة، وأنا أرى أن جلادستون سيكون هو الأقوى فى هذه العملية.

فى يوم الجمعة وعندما كنت فى رواق مجلس العموم، أوضح لى بارتى براند Aartie Brand، (وهو ابن المتحدث الرسمى باسم المجلس) أن "المتآمرين الأيرلنديين الثلاثة" يتكلمون سويا. بارنل رجل طويل، بهى الطلعة عمره حوالى اثنين وثلاثين عامًا، وليس له أية علاقة بمسألة الاغتيال. ديلون Dillon، رجل طويل شاحب اللون قمحى البشرة، ويشبه جاى فاوكس Guy Fawkes إذا ما ارتدى عباءة وعلق فى وسطه خنجرًا. كان الاثنان يشبهان جنتلمانين وهما بين الناس الذين يقفون فى الرواق.

في الحادى عشر من مايو

وصلت أخبار سيئة من مصر. رفض الخديو التوقيع على الأحكام الصادرة ضد الشراكسة، وأبلغ عرابى ذلك إلى البرلمان وهم يتحدثون عن عزل توفيق باشا. ذهبت على الفور إلى مقر مجلس الوزراء فى داوننج ستريت والتقيت جودلى Godley، وأوضحت للرجل أهمية أن يعطينى ردا عاجلا، لكن جلادستون لم يكن فى المجلس وإنما خارجه لحضور جنازة اللورد فريدرك، وتعين علىَّ الانتظار إلى الغد أملاً فى الحصول على الرد المطلوب، لكن جودلى وجدنى متحمسًا ووعد بالحصول على الرد. الواقع أنها "لحظة تعيسة بحق". وأنا ما زلت أتذكر تعاطف جودلى معى فى تلك المناسبة. كنت أنا أيضًا متأثرًا تمامًا بهذه المناسبة. بدا الموقف لى مأساويا إلى حد أن مصير أمة بكاملها ومصير أفضل الآمال المعلقة على الإصلاح الدينى، كان يتحتم تعليقهما على إمكانية لفت انتباه رجل عجوز واحد مدة نصف ساعة، لأنى كنت متأكدًا وعلى يقين من مقدرتى على إقناعه. بطبيعة الحال، أنا لم أكن أعرف الموقف الحقيقى لمجلس الوزراء، لكن جودلى كان يعرف ذلك الموقف بالتأكيد، وكان أيضا يستشعر الموقف مثلى تمامًا. كنت أعرف أن جودلى يعارض السياسة التى تنتهجها وزارة الخارجية فى مصر، وأعتقد أيضًا أن الرجل كان يستشعر العار المترتب على إسهام جلادستون فى هذه السياسة، وذلك على العكس من خطاباته التى ألقاها، والتى ظهر فيها مدافعًا عن الحرب ضد حرية الشرقيين من أجل المصالح المالية. وعقب تغيير رئيسه لسياسته بفترة قصيرة ترك الرجل منصبه إلى مكان آخر، وأنا لا أشك أن الرجل فعل هذا دليلاً على احتجاجه على جلادستون.

فى الثانى عشر من مايو

كان فريسنيه قد أعلن أنه لن يسمح للأتراك بالتدخل، وعليه بدأت أستشعر المزيد من الارتياح... وذهبت بعد ذلك إلى منزل جورج هوارد الذى وافق على

خطتي (نشر الحقيقة كاملة). كل شيء جاهز لدى حاليا... وسوف تنشرها جريدة "التايمز". يبدو أن روتشيلد كان يعمل دائبًا مع فريسنيه من أجل جعل الحكومة الفرنسية تتصنّب حليم بدلاً من توفيق... وفي ذات الوقت، كان كل ما حدث حتى ذلك الحين، هو إصدار الأمر للأسطول بالاستعداد خلال أسبوعين في بليموث Plymouth... ثم التقيت إدي Eddy هامليتون. ووعدني بالحصول على الرد في فترة المساء. كان آل- هوارد غاضبين من ديلك لأنه رفض أن يتولى رئاسة أيرلندا. وسوف يؤدي ذلك إلى فقدان الرجل لمكانته واحترامه بين الناس. كانوا ينظرون إلى الامتناع عن هذه المساعدة باعتباره تجنبًا للأخطار، لكن ربما كان ديلك سعيدًا ببقائه حيث هو، في وزارة الخارجية، وهو يعزف على أوتار جرانفيل فيما يتعلق بأوروبا. وربما كان ذلك هو الأفضل لمصر لو وافق الرجل على ذلك".

في الثالث عشر من مايو

وصلني رد جلادستون؛ لم يكن بوسع الرجل أعطاني الكثير من التفاصيل، لكن اللورد جرانفيل سوف يتكلم في يوم الاثنين، ولذلك فهو يرجوني الانتظار إلى ذلك الموعد. ولم يعدني الرجل بشيء سوى أن سياسة الأحرار يجب أن تكون متفقة مع مذهب الأحرار. رضيت بذلك. كنت قد كتبت (لجلادستون) أعرض عليه الخروج للعب دور الوسيط بين عرابي والخديو. وعليه أرسلت الرسالة التالية لأحمد عرابي: "أرجوك أن تصبر. لا تفعل أي شيء من باب التهور والاندفاع ودون علم البرلمان. أجّل العمل ضد الخديو. أنا أعمل بجد من أجلك، لكن لا بد من إعطائي الوقت الكافي. هناك خطر حقيقي". عند الساعة الخامسة، وصلني رد من جلادستون مفاده أن رسالتي مفروض أنها كتبت قبل مجيء الخبر الأخير. وأنا لم أفهم ذلك الذي يعنيه جلادستون بهذا الكلام، نظرا لخلو الصحف المسائية من التعليق على هذا الموضوع... تسلمت في ساعة متأخرة من الليل ردا من أحمد عرابي: "١٣ مايو. أشكرك على نصائحك. الخلاف عرض على النواب، الهدوء كامل. ليس ثمة أي خوف على الأوروبيين. أحمد عرابي"(*).

(*) وردت هذه الرسالة بالفرنسية. (المترجم)

كانت الأزمة التى حدثت خلال الأسبوعين الأولين من شهر مايو فى القاهرة، والتى علمت بها فيما بعد، على النحو التالى: فى اليوم الثانى من شهر مايو، وجد الخديو نفسه تحت ضغط عرابى، وزير حربيته، ومطلوبًا منه التوقيع على الأحكام بالنفى على الضباط الشراكسة، الذين كان البعض منهم أصدقاء شخصيين لجلالته؛ وهنا استدعى الخديو ماليت Malet لأخذ رأيه فى الأمر، وعمل الخديو بنصيحة ماليت، المؤيدة بوعد بالتدخل الإنجليزى والمساندة الإنجليزية لصالح الخديو، وأن يرفض جلالته التوقيع على تلك الأحكام؛ وأن هذه هى اللحظة التى قرر الخديو عندها الاعتماد على الحماية الإنجليزية والارتماء فى أحضانها فى نزاعه مع وزرائه. وهنا قام ماليت بكتابة برقية مهمة منشورة فى الكتب الزرقاء، يُعْلى فيها من شأن شخصية الخديو، باعتباره من الأشخاص الذين يستحقون الثقة الكاملة من جانب حكومة صاحبة الجلالة. وهنا رفض الخديو توفيق التوقيع على الأحكام، على الرغم من أنه من الناحية الدستورية يستحيل على الرجل عدم التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية.

تفاقم ذلك الرفض، بفعل الحقيقة التى أصبحت معروفة للجميع، ومفادها أن هذا الرفض إنما جاء نتيجة، إيحاء من قنصل من القناصل الأجانب، الأمر الذى أثار غضب الوزارة الوطنية، وقام محمود سامى البارودى، رئيس الوزراء، بإرسال رسائل إلى أعضاء البرلمان الوطنى، يطلب إليهم الحضور إلى القاهرة. والذى لا شك فيه أن ذلك الإجراء لم يكن طبيعيا، نظرًا لأن البرلمان لا يجرى انعقاده إلا بأمر من الخديو، وولد ذلك شيئًا من الريبة فى نفوس بعض النواب، الذين تضايقوا من استدعائهم من منازلهم إلى القاهرة فى فترة غير مناسبة من العام. ومع ذلك حضر قسم كبير من هؤلاء النواب تلبية لنداء محمود سامى البارودى، وعلى الرغم من أنهم لم يعقدوا جلسة رسمية؛ فإنهم قرروا فى اجتماع عقدوه فى منزل سلطان باشا، تأييد الوزراء، وتقرر بأغلبية أربعين إلى ثلاثين، أنه إذا ما أصر توفيق على التآمر والدس مع القنصلين الإنجليزى والفرنسى على النواب والوزراء، فليس هناك من مخرج سوى عزله. على الجانب الآخر كان ماليت فى ذلك الوقت قد تسلم برقية استحسان من وزارة الخارجية البريطانية،

وعندما وجد الخديو وهو ترتعد فرائصه، أبلغه أن الأسطولين الإنجليزى والفرنسى صدرت لهما الأوامر بالتحرك إلى الإسكندرية بزعم حماية الرعايا الأوروبيين. وبناء على ذلك أرسل الخديو فى طلب سلطان باشا رئيس المجلس، وعرض عليه الموقف، معتمدًا على مخاوفه من ناحية، وعلى حقد شخصى من جانب سلطان باشا، على أحمد عرابى، فى إقناع سلطان باشا بالانضمام إليه، وأن يعتمد على المساندة الإنجليزية بدلاً من المخاطرة بالحرب. بعد ذلك، وفى اجتماع غير رسمى عقده النواب، أعلن سلطان باشا وقوفه إلى جانب الخديو فى مواجهة الوزراء، وانضم إليه فى هذا الموقف أيضًا ستة نواب آخرين، على الرغم من بقاء أغلبية النواب على ولائهم للوزارة. تصادف عند هذا المنعطف أن تسلم عرابى برقيتى التى أرسلتها إليه فى القاهرة، ويبدو أن هذه الرسالة كان لها تأثير إلى حد ما على سلطان باشا الذى جرى عرض هذه البرقية عليه. لكن الصحف الإنجليزية الصادرة فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو كانت قد انضمت إلى الخديو فى مواجهته لأحمد عرابى، وفى اليوم الخامس عشر من شهر مايو استقال محمود سامى البارودى. وأنا أورد هنا ما ورد فى مفكرتى عن هذا الأمر:

فى الرابع عشر من مايو

المصادف ليوم الأحد، فى كرابت[*] Crabbet أقرأ فى جريدة "الأوبزرفر" البريطانية أن سلطان باشا ذهب بالأمس إلى الخديو لإجراء مصالحة بينه وبين عرابى؛ وعليه استنتج من ذلك أن رسالتى وصلت فى الوقت المناسب. الصحف كلها تقول إن سلطان باشا هو والبرلمان كله وقفوا إلى جانب الخديو فى مواجهه عرابى، لكن لن أصدق ذلك إلا بعد الاستماع إلى المزيد. الأرجح هو أن سلطان باشا جرى إخراجه من البرلمان، حيث إنه حضر بلا استدعاء رسمى، وفى وقت غير مناسب من العام. لقد كان للجيش أيضًا تأثير كبير على الوزارة، التى لم تقف

(*) كرابت: مقر مزرعة الخيول التى كانت مشاركة بينه وبين زوجته أن بلنت. (المترجم)

منه موقفا عدائيا. صحيح أنه كان هناك غيره، لكنها لم تكن زائدة عن الحد. كان الأمر كله قد جرى تدبيره بواسطة كل من ماليت وكولفن، وتشجع الشراكسة عندما علموا بفكرة التدخل التركي. لقد أمر الاثنان السفن بالإبحار إلى الإسكندرية، الأمر الذى أدى – وأتمنى ألا أكون مخطئًا – إلى توحيد الجميع فى مواجهة الأوروبيين.

"وصلتنى فى المساء برقية محيرة من الشيخ محمد عبده"، "لا يوجد خلاف بين سلطان باشا والبرلمان. الذنب (يقصد الخديو السابق إسماعيل) المشارك فى مؤامرة الشراكسة، والوارد اسمه فى رسالتى التى أرسلتها إلى صابونجى يعد شريكًا فى المؤامرة. هناك خلاف كبير جرت إحالته إلى مجلس النواب. الأمن العام مستقر"(*).

كان فان بننجيسن Van Benningsen، القاضى الهولندى المرموق، والذى يحمل لقب Un Juge Mixte، وله مؤلف كبير من بين كثير من المؤلفات القيمة عن مصر، فى زمن المراقبة الثنائية، كان الرجل معى فى كرابت فى ذلك الوقت، ووجدت فيه تعاطفًا شديدًا مع الوطنيين فى مصر.

فى اليوم التالى الموافق لليوم الخامس عشر من شهر مايو، كان هو اليوم الموعود لتقديم الشرح المنتظر من الحكومة لسياستها فى مصر، وسافرت إلى لندن وكلى أمل فى حدوث الخير، وكنت أستشعر القوة نتيجة البرقية التى كنت أحملها معى. ومع ذلك خاب أملى مرة ثانية. وعلى الرغم من مناقشة موضوع مصر فى مجلس اللوردات، لم يكن لدى جرانفيل ما هو أفضل من تقديم الوعود للمصريين بدلاً من تكرار تهديد جامبيتا الذى جاء فى البيان المشترك، وكانت العبارة التى أحسست أنها غير صحيحة، تتمثل فى القول: إن النواب هم والبلاد كليا يؤيدون الخديو فى نزاعه مع الوزراء. كانت تلك هى "السياسة الليبرالية" التى وعدنى بها هاميلتون. أحسست هنا أنى فى حلٍّ من التزام التحفظ عن الكلام مع جلادستون،

(*) هذه البرقية وردت باللغة الفرنسية، وقد جرت ترجمتها بواسطة المختصين فى جريدة البروجرى الفرنسية التى تصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر. (المترجم)

الذى يبدو أنه تلاعب بى وخدعنى. غادرت مجلس اللوردات فور انتهاء الخطبة وأنا غاضب تمامًا، وقررت أنه اعتبارًا من تلك اللحظة سوف أتصرف دون حرص أو تحوط من جانبى، أو محاولة إرضاء الحكومة. وبعد أن تدبرت الأمر فى أثناء الليل وأنا حائر قلق، قررت أن أخطو خطوة جريئة، قررت إفساد الدسيسة التى كنت أعلم أنها تدور على قدم وساق. وما إن فتحت محلات التلغراف أبوابها فى صباح اليوم السادس عشر من شهر مايو حتى قمت بإرسال البرقيتين التاليتين إلى القاهرة:

"إلى عرابى باشا، وزير الحربية. يقول اللورد جرانفيل فى البرلمان إن سلطان باشا هو والنواب قد انضموا إلى جانب الخديو فى مواجهتك. إذا كان ذلك غير صحيح، اطلب من سلطان باشا أن يرسل لى برقية تزيل هذا التضارب. أنتم إذا ما اتحدتم لن يكون هناك ما يخيفكم. هل بوسعك تشكيل وزارة يكون فيها سلطان باشا رئيسًا للوزراء؟ لكن اثبت على موقفك".

"إلى سلطان باشا، رئيس مجلس النواب. أنا على ثقة أن كل من يحبون مصر سيتوحدون مع بعضهم بعضًا، لا داعى للتنازع مع عرابى، الخطر كبير جدا".

كما أرسلت برقية أيضًا إلى كل من النواب التاليين: بطرس باشا، وأبو يوسف، ومحمود باشا الفلكى. هل الحزب الوطنى موافق حاليا على أحمد عرابى، الحكومة الإنجليزية تدعى العكس؟"، إذا ضيعتم اتحادكم فإن أوروبا ستضمكم إلى أملاكها"(*).

وأرسلت هذه البرقية الأخيرة نفسها إلى الشيخ محمد عبده، وإلى الشيخ الهجرسى، وإلى الخطيب عبد الله النديم، ووقعت البرقيات الثمانية باسمى، وكنت

(*) وردت هذه البرقيات باللغة الفرنسية وقد جرت ترجمتها فى جريدة "البروجرى" الفرنسية، فى مصر. (المترجم).

أعرف أن إرسالى هذه البرقيات سيجر علىّ غضب وزارة الخارجية، إن لم يكن غضب جلادستون نفسه، نظرًا لأن هذه البرقيات لن يصعب التعرف عليها من الوكالة فى القاهرة، نظرًا لشيوع البرقيات المرسلة من قبل شركة التلغراف الشرقية فى ذلك الوقت. كنت قد عقدت العزم على القيام بهذه المغامرة، وكان شاغلى الأول هو التعبير الواضح عن طبيعة الخطر الذى سبق أن حذرت النواب منه. بدا لى أن الكلمات "أوروبا سوف تضمكم"، هى خير معبّر على ما أريد، لأنه على الرغم من أن حكومتنا، التى ربما لم يكن لديها أية تفكير فى ذلك الضم، هى والحكومة الفرنسية أيضًا؛ فإن النهاية المنتظرة بدت لى مؤكدة، وكانت كلمات كولفن تدوى فى أذنى؛ كما أنى لم أكن أجد لى أى مبرر آخر غير هذا التبرير. بعد أن أطلقت هذه الطلقة عدت مرة أخرى إلى الريف فى كرابت انتظارًا لما يمكن أن يحدث. وجاء الرد أسرع مما كنت أتوقع، وفى مساء اليوم نفسه، وبينما كنت جالسًا لتناول الغداء، وصلتنى البرقية التالية من سلطان باشا:

"اختفى الخلاف القائم بين الخديو والوزراء تمامًا ونحن كلنا متفقون على المحافظة على الهدوء والنظام والسكينة ومساعدة الوزارة الحالية. سلطان"[*].

وطرت فرحًا، وأرسلت هذه البرقية على الفور إلى جلادستون، وإلى جريدة "التايمز" لنشرها.

فى السابع عشر من مايو

عدت إلى لندن مرة ثانية وروحى المعنوية مرتفعة تمامًا، وأنا فى طريقى إلى لندن وصلتنى بعض الردود.

(*) وردت هذه البرقيات باللغة الفرنسية، وقد جرت ترجمتها فى جريدة "البروجرى" الفرنسية فى مصر. (المترجم)

من الشيخ الإمبابى شيخ الإسلام

"الخلاف الذى بين الخديو والوزارة انتهى، والحزب الوطنى راض عن عرابى. والأمة والجيش متحدان".

ووصلتنى أيضًا برقية أخرى، غير موقعة، وهى بلا أدنى شك من أحد من النواب: البلد كله مع عرابى ورئيس الوزراء محمود سامى. الفلاحون، والبدو، والعلماء كلهم متحدون. وليس بيننا سوى واحد فقط، هو الذى يعترض على حرية مصر ويسعى لتضليل الرأى العام"(*).

ووصلتنى برقية ثالثة شبيهة بهذه البرقية من الشيخ محمد عبده.

يزاد على ذلك، ومن باب تأكيد الخبر الطيب، أعلنت الصحف الصباحية أنه فى عصر يوم أمس، ومن خلال وساطة سلطان باشا عفا الخديو عن الوزارة. كان واضحًا أنى حققت أول انتصار دبلوماسى. وبعد أن أصبحت هذه البراهين القوية بين يداى، ذهبت إلى مقر مجلس الوزراء وعرضت عليهم البرقيات التى وصلتنى، والتقيت هناك كلا من هاميلتون وجودلى اللذان هنآنى على نجاحى. حكيت لهما عن البرقيات التى أرسلتها، وأنها كلفتنى مبلغ عشرين جنيهًا إسترلينيا وقال هاميلتون لا بد من سداد هذا المبلغ لك من صندوق الخدمة السرية. وعلى الرغم من أن ذلك قيل على سبيل النكتة؛ فإنه يثبت، من جانب جلادستون فى أضعف الأحوال، أن النتيجة التى توصلت أنا إليها، وجاءت سبقًا على وزارة الخارجية، جرى الترحيب بها ترحيبًا كبيرًا. يزاد على ذلك، ونظرًا لأنى لم ألتق جلادستون بنفسه، فقد نصحنى كل من هاميلتون وجودلى أن أكتب لجلادستون رسالة رسمية ثانية، وأقوم بالتأكيد على ما وصلت إليه أنا وذلك على النقيض مما ذهبت إليه وزارة الخارجية، وبخاصة فيما يتعلق بالمعلومات المكذوبة، ووافقت على كتابة هذه الرسالة، وأمضيت الليل كله فى كتابتها، بعد أن قمت بترتيب الأمور مع

(*) وردت هذه البرقيات باللغة الفرنسية، وقد جرت ترجمتها فى جريدة "البروجرى" الفرنسية فى مصر. (المترجم)

بتون Button، على أنه إذا ما دعت الضرورة، فإن الرسالة سوف تنشر في جريدة "التايمز"، وأرسلت في الوقت نفسه برقية إلى سلطان باشا طالبًا إليه نقل تحياتي إلى الخديو.

ومع ذلك، طالعني الصباح بما يشبه العكس تماما، إن لم يكن هزيمة ساحقة. في ساعة مبكرة، وبعد أن أمضيت الليل في منزلي الموجود في المدينة، والواقع في ١٠ جيمس ستريت، في بكنجهام جيت، أرسلت في طلب صحف الصباح، ووجدت في الصحف كلها برقية صادرة عن وكالة رويترز في القاهرة، وتنشر بها نص برقيتي التي أرسلتها إلى النواب، البرقية التي تنتهي بالعبارة "أوروبا ستضمكم"، باعتبار أن هذه البرقية صادرة مني إلى شيخ الإسلام، وأن شيخ الإسلام شجب وأنكر البرقية التي جاءتني باسمه. وكانت جريدة "ستاندارد" Standard هي الأخرى قد نشرت برقية من مراسلها في القاهرة تقول: إن سلطان باشا خوله سلطة إنكار البرقية المرسلة منه، والتي جرى نشرها أمس في جريدة "التايمز"، وأن هذه البرقية جرى كتابتها تحت التخويف العسكري. وعلى الفور قمت وكتبت رسالة ثانية إلى جلادستون، وأرسلت له البرقيتين قبل وقت الظهيرة، وأرفقت بالرسالتين ملحوظة إلى هاميلتون قلت فيها: إني أفضل نشر البرقيتين سويا. وقد وجدت على بتون في منزله، فأطلعته على الرسالتين، اللتين وعد بنشرهما في صبيحة الغد في جريدة "التايمز". وقد انشرح قلب الرجل لهاتين الرسالتين، وأكد لي أنهما سيكون لهما وزنهما[١٠].

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الرسالتين قد جرى تجهيزهما للطباعة، نظرًا لأني كنت قد تركت منهما صورًا لدى بتون فأنهما لم ينشرا. وقد أوردت سبب عدم نشر هاتين الرسالتين في مفكرتي. عند الساعة السادسة وصلتني من هاميلتون ملاحظة تفيد، أنه سيكون في منزله طوال فترة العصر، وعليه ذهبت إلى الرجل في بيته. قال إنه يعتقد أن البرقية التي أرسلت إلى شيخ الإسلام إنما تعد برقية غير موفقة؛ ونصحني مشددًا بعدم النشر. "طلبت من الرجل أن يعطيني تأكيدًا يفيد أن

---

(١٠) هاتان الرسالتان وردتا ضمن رسالتي التي نشرت في العشرين من يونيو. راجع الفصل ١٤.

العنف لم يكن مقصوذا فى الإسكندرية. قال لى: إن الأسطول الذاهب إلى هناك كان القصد منه حماية أرواح الرعايا البريطانيين. ولم يخطر ببال الرجل مطلقًا أنه سيكون هناك تسريح للجيش المصرى أو إنزال للقوات. وأكد لى أيضًا أن لجنة، من قبيل اللجنة التى اقترحتها أنا، سيجرى إرسالها إلى مصر. ورضيت تمامًا عما قاله الرجل، وأرسلت خادمى (ديفيد) إلى مكتب جريدة "التايمز" لوقف نشر الرسالتين".

وأنا لا يراودنى شك فى أن التأكيدات التى أعطيت لى من مجلس الوزراء فى هذه المرة إنما أعطيت كتعبير عن حسن النية والثقة، لكن سرعان ما بادرت وزارة الخارجية إلى تكذيب تلك التأكيدات، وأدى صمتى على البرقيتين، إلى جعلى، اعتبارًا من تلك اللحظة، محطًا لأسئلة الجمهور وتساؤلاته. تحدثت جريدة "سان جيمس جازيت" عنى فى ذلك المساء باعتبارى "مشعلاً للحرائق عن عمد"، فى حين حذت بعض الصحف الأخرى حذو الصحيفة الأولى عندما وجدتنى لم أرد عليها. وانعكست لغة هذه الصحف على الحكومة، كما انعكست أيضًا على جلادستون، على الرغم من معرفته للحقيقة، التى لم يعرفها الجمهور إلى الآن. صحيح أننى واصلت اتصالاتى بعد ذلك، وواصلت ترددى على مقر مجلس الوزراء فى داوننج ستريت، لكن هذه الزيارات لم تكن تحظى بالترحيب السابق. لهذا السبب، أنا نادم على سماحى لنفسى بالامتناع، عن نشر الرسالتين، حسبما تم الاتفاق عليه فى الليلة السابقة فى جريدة "التايمز". لو كانوا فعلوا ذلك لما كان هناك داعٍ لصدور الإنذار النهائى الذى صدر فى الخامس والعشرين من مايو وكان يمكن تحاشيه وعدم إصداره.

الفصـــل الثانى عشر

الدسائس والدسائس المضادة

إن تاريخ الأسابيع الستة في مصر، التي بدأت اعتبارًا من وصول الأسطولين الإنجليزى والفرنسى إلى الإسكندرية وانتهت بقصف المدينة بالقنابل، ليس سوى محاولة يائسة، بصورة أو بأخرى، من جانب دبلوماسيتنا لاستعادة نفوذها الضائع، أو إحداث نوع من الصراع إذا ما فشلت في ذلك. هذا التاريخ عبارة أيضًا عن محاولة لا تقل طيشًا أو يأسًا من جانب وزارة الخارجية في إنجلترا، لإجبار جلادستون على القيام بعمل عنيف. هذا الذى حدث كان كله خلوًا من السياسة، أو إن شئت فقل فن إدارة شئون الدولة، أو النفوذ المالى، وإنما كان غلا وحقدا شخصيا. لم تكن النغمة السائدة في الحكومات الأوروبية أو في سوق الأوراق المالية مسألة عاجلة أو ملحة على النحو الذى يجعل من تسوية المسألة تسوية سلمية أمرًا مستحيلاً.

كانت فرنسا، بزعامة فريسينيه Freycinet، قد انسحبت تمامًا من مخططات جامبيتا العدوانية، وكانت على استعداد للاستفادة على أفضل نحو ممكن، وفى أية لحظة، من الموقف السياسى اليائس في القاهرة من جميع النواحى وبكل المعايير، في حين كانت ألمانيا هى والنمسا، باعتبارهما ممثلتين للمصالح المالية، وبخاصة مصالح آل روتشيلد، كانتا تناصران وتؤيدان تكرار العلاج الذى ثبت نجاحه في عام ١٨٧٩، المتمثل في تدخل السلطان، على شكل فرمان جديد، يقضى بتنصيب حليم بدلاً من توفيق. كان ذلك يمكن أن يكون بمثابة حل سهل للصراع الذى دار بين توفيق ووزرائه، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن الحل المثالى الذى يتطلع إليه الوطنيون، فإنه كان يمكن قبوله من قبل الأطراف كلها على أنه إنهاء للصراع والأزمة. كانت الدول الأوروبية الأخرى تناصر وتتعاطف مع الحركة الوطنية، كانت سويسرا وبلجيكا تدعمان هذا الموقف دعما قويا، في حين بلغ حماس إيطاليا حدا، وصل في إحدى المناسبات، وعلى الرغم من مساندة الحكومة للسياسة الإنجليزية، إلى حد أن قام مينوتى غاريبالدى Menotti Garibaldi بتشكيل فيلق من المتطوعين لمساعدة العرب. وفى إنجلترا، ومن خلال تلاعب الصحافة بالرأى العام بطريقة منظمة، وبتلقين من دبلوماسيتنا، جرى استثارة الناس والقيام بعمل قوى.

من السهولة بمكان تفهم العنصر الشخصى فى هذا الصراع. كان كل من ماليت وكولفن، قد الزما نفسيهما عند تغيير الوزارة فى شهر فبراير، بموقف يقوم على العداء السافر للوطنيين، وكانا يريان أن أى حل للأزمة يمكن أن يسفر عن بقاء الوطنيين فى السلطة فى القاهرة سيكون عارًا لهما. كان واضحًا أن كولفن كان يتعين عليه السير فى الخط نفسه الذى سار عليه زميله الفرنسى ديبلنيير، عندما تقاعد، وكان سيترتب على ذلك أيضًا إبعاد ماليت إلى وظيفة أقل، يكون فيها الدمار الناتج عن تصرفاته أقل خطرًا ولا ينطوى على نتائج شديدة السوء. ووزارة الخارجية هى الأخرى، كان لا بد من احترامها لكرامتها. كان ديلك رجلاً طموحًا، ولم يكن يود لنفسه الفشل، كما أن جرانفيل العجوز، وعلى الرغم من حبه للراحة، كانت له عباراته الشعبية التى يستحسنها الناس. وعليه، فإنه اعتبارًا من منتصف شهر مايو إلى اليوم الحادى عشر من شهر يولية، وهو تاريخ قصف الإسكندرية بالقنابل، كنا جميعًا نرى مشهدًا، هو عبارة عن سلسلة من المناورات الدبلوماسية التى لا يمكن الدفاع عنها دفاعًا مستميتًا؛ وكانت هذه المناورات كلها متباينة عن مبادئ السياسة الميدلوثية Midlothian التى يتبناها جلادستون، والتى بلغت من انعدام الضمير والأخلاق حدا جعلنى أتشكك فيما إذا كانت حوليات وزارة خارجيتنا تحتوى على شيء شبيه بمثل هذه المبادئ.

على الجانب الآخر، وفى مصر الوطنية، نجد الحزب الوطنى فى اللحظة التى أمن فيها للبلاد حق الحكم الذاتى، وبعد أن تحققت الحرية الشخصية والمدنية التى لم ينعم بها الحزب فى تاريخه الطويل، وبعد أن اجتمع برلمان البلاد، وجرى تأجيله بعد ذلك، وبعد أن أصبح ذهن الحزب مشغولاً بمشاريع الإصلاح، وبعد أن أصبح الاتجاه العام يميل إلى الراحة والهدوء ومسالمة العالم كله، بعد هذا كله وجد الحزب نفسه مهددا بالخروج من هذا الهدوء والدخول فى بحر من المخاوف الخارجية والخيانة فى الداخل، والمدعومة بالدس الأجنبى. فى بداية هذه الأزمة وصلتنى ثلاث رسائل مكتوبة، اثنتان منها من عرابى نفسه أما الثالثة فكانت من جون نينيه John Ninet، ذلك الرجل السويسرى كريم المحتد، الذى بقى فى القاهرة، بين المتعاطفين مع قضية الفلاح الوطنى، وشارك مع الجيش فى أثناء الحرب، هذه الرسالة توضح الشعور الذى كان سائدا فى القاهرة قبل الحرب.

القاهرة فى الخامس عشر من مايو عام ١٨٨٢،

إلى صديقى العزيز المخلص السيد بلنت،

الحمد لله، وصلتنى رسالتك المؤرخة بتاريخ اليوم العشرين من شهر أبريل. قرأت هذه الرسالة بكل سرور، ونحن نتطلع إلى أن نجنى ثمار جهودك فى القريب العاجل. الواقع أن كل محبى الحرية من أصحاب العقول الحصيفة يشهدون لك بجهودك الخيرة، لقد زاد سرورى عندما عرفت منك أن رسالتىَّ قد وصلتا إليك فى اللحظة المناسبة، ولعل الله برحمته يريح بالنا أيضا، ويُحسِّن أحوالنا، ويوفقنا إلى ما فيه خير بلادنا.

فيما يتصل بنشر رسالتىَّ، أنا لم أكن أود بهما سوى تكذيب الهجوم الذى شنه علىَّ أعدائى، هؤلاء الذين اتهمونى بأنى رجل مسرف فى أفكاره، ويسعى إلى السلطة الاستبدادية. هذه كلها مجرد افتراءات، وأنت تعرف ذلك جيدًا. وأنا أرى أنه من الأفضل تذكيرك أنى بصفتى عضوًا من أعضاء الحكومة المصرية، فأنا مسئول بصفتى وزيرًا للحربية عن الأعمال الداخلة فى نطاق منصبى، شأنى فى ذلك شأن المسئولين عن الوزارات الأخرى. وأنا ليس لى سوى صوت واحد فى مجلس الوزراء، ولذلك أنا أتصرف طبقًا للسياسة المفروضة علىَّ من قبل رئيس الوزراء، كما هى مبينة فى الرسالة التى قدمها للخديو عندما شكل الوزارة أول مرة. أرجو أن تأخذ كلامى مأخذ الصدق، على أننا جميعًا قلقون على بلدنا، ونحاول حكمه طبقًا لمبادئ وأسس عادلة، وعقدنا عزمنا جميعًا، بفضل من الله، على التغلب على الصعاب كلها. وإذا كان هناك من بين الأمم الأوروبية، المحبة للبشر والحضارة، من يستطيع الأخذ بيدنا ومساعدتنا فى نضالنا وكفاحنا، فسوف نكون له من الشاكرين. وإذا لم يوجد أى من هذه الدول، تعين علينا أن نشكر الله وحده، الذى كان عونًا وسندًا لنا منذ البداية.

فيما يتعلق بحال البلاد، فهى فى أمن وسلام تام، وكل ما يزعجنا يتمثل فى الأكاذيب التى ينشرها من لا ضمير عندهم فى الصحافة الأوروبية. هذا نوع من العداء غير المبرر، لكننا نأمل أن يسقط قناع الإساءة من على وجوه هؤلاء الأعداء.

أحمد عرابى.

القاهرة فى الحادى والعشرين من مايو عام ١٨٨٢

بعد خالص التحيات وأطيب التمنيات، نشكرك على جهودك، وعلى اهتمامك برفاه بلدنا، وسؤالك الدائم عنا عن طريق البرقيات أو الرسائل، وبخاصة بعد الأحداث التى كانت تجرى فى بلادنا، وقد قمنا بالرد، مثلما فعل الآخرون، موضحين لك حقيقة الأمور. أود هنا أن أضيف إلى ما سبق بعض التوضيحات القليلة.

الناس كلهم فى سائر أنحاء البلاد غاضبين ومستائين من إرسال السفن الإنجليزية والفرنسية، وهم ينظرون إلى ذلك باعتباره إشارة إلى سوء النوايا من جانب الدولتين تجاه المصريين، كما يعدون ذلك أيضًا تدخلاً فى شئوننا، بلا ضرورة أو مبرر. والواقع أن المصريين عقدوا العزم على عدم الاستسلام لأية قوة أو دولة ترغب فى التدخل فى شئون إدارتنا الداخلية، والشعب مصمم أيضًا على المحافظة على تأكيد امتيازاته المثبتة فى المعاهدات مع الدول. لن يسمح مطلقًا بانتقاص هذه الامتيازات، حتى ولو بأقل القليل، ما بقى دم الحياة يجرى فى عروقه. وسوف يبذل هذا الشعب قصارى جهده من أجل حراسة المصالح الأوروبية وحياة الرعايا الأوروبيين، وممتلكاتهم، وكرامتهم، ما دامت هذه الأمور فى نطاق الحدود التى لا تتعارض مع القانون.

نحن جميعًا نحاول القيام بواجبنا، ونعتمد علـى الله ﷻ فـي الـدفاع عـن حقوقنا، ونتطلع من خلال عونه ﷻ، إلى الحصول على ما نريده ونبتغيـه. هـذا الذى نريده هو رفاه بلدنا وسلام أولئك الذين يعيشون فيه، ونحن أيـضا نثـق فـى عدالة أوروبا، وألا تبدأ دولها العدوان علينا، وإنما على العكس من ذلك، تقوم هـذه الدول بالتصرف تصرفًا حكيمًا معنا، لأن ذلك هو الأفضل لتحقيق رغبـات هـذه الدول، والمحافظة على مصالحنا فى بلادنا.

ومن الأفضل لبريطانيا العظمى عدم الاعتماد على ممثليها فى هذا البلد، لأن هؤلاء الممثلين لهم دوافعهم الشخصية التى يودون خدمتها ومراعاتها، ونحن نعتقد أنهم إذا ما نجحوا فى ذلك فسوف يكون ذلك النجاح فى غير مـصلحة حكـومتهم. يكفى هذا فيما يتصل بالأحوال الحالية، والمستقبل كفيل بسرد الباقى.

وأنا أرفق طية رسالة مرسلة إلى السير وليام جريجورى، وأرجو أن تتلطف بتسليمها إليه. أرجو تبليغ تحياتى للسيد صابونجى، وإلى السيدة آن بلنت، وخـالص شكرى لكم جميعًا.

أحمد عرابى.

رسالة نينيه لها أهمية خاصة، نظرًا لأنها مؤرخة بتاريخ اليوم التاسع عـشر من شهر مايو، آخر أيام مصر من الحكم الذاتى الآمن. وجاءت الرسالة على النحو التالى:

"باعتبارى رجلا وطنيا سويسريا عجوزا، فإن قلبى ينزف دمًا حاليا من ذلك التدخل الظالم دون سائر التدخلات كلها. البلد كله موحَّدٌ تمامًا تحت لـواء زعيمـه الأمين، الذى نشأ مثل الفلاحين من طين النيل الأسود اللـون. لقـد قبـل الـشعب المصرى صاغرًا دينه الذى أبرم عقوده مستبد لا ضمير له، شخص بعثـر خـلال ستة عشر عامًا أكثر من ثلاثمائة مليون جنيه إنجليزى، ليملأ بها جيوبه وجيـوب الدبلوماسيين، كبارهم وصغارهم، وجيوب المرابين يهودا ونصارى... هذه ثـورة سلمية، مصحوبة بوقفة الشعب وإرادة الأمة. لم يحدث أن قامت الحكومـة بعمـل

غير لائق طوال فترة ذلك التغيير، لكن اهتمام أوروبا بجملة السندات والأسهم ازداد بشكل خطير، بدلاً من الاهتمام بآمال الشعب وتطلعاته، وراحت أوروبا أيضًا ترسل الأساطيل. لماذا؟ لأن مجلس النواب وجد أن من المناسب بل ومن حقه أن يطلب مناقشة الميزانية! أين الجريمة إذن؟ ... على افتراض أن وزيرًا من وزراء ملكتكم حدث بينه وبين الملكة خلاف، فهل يُتوقع أن تصل مثل هذا الوزير أخبار مفادها أن قوة أسطولية مشتركة من الدول الكاثوليكية، سوف تذهب إلى أيرلندا لتهدئتها؟ ومع أن القياس قد لا يكون كاملاً فإن مصر هادئة، وليس فيها أوروبي واحد أو مسيحي يشكو من أي شيء. هل معنى ذلك أن الوضع لا يطاق؟ ... عرابي عاقل وهادئ، ينتظر المستقبل كما لو كان واحدًا من حكماء الزمن الماضي. الجيش والريف والحضر كلهم مع عرابي. القنصل العام الفرنسي التزم الصمت، والسير إدوارد ماليت راح ينشر الخوف في القاهرة بدلاً من طمأنة الناس، وأنت ليست لديك فكرة يا سيدي عن الكذب المقيت الذي يجري إرساله يوميا بالبرق إلى جريدة التايمز، وإلى جريدة إستندارد وإلى الديلي نيوز، عن طريق مكاتب البرق والتلغراف... حسن، نحن لم نسمع مطلقًا كلمة إساءة واحدة من السكان، نحن هنا كما كنا من قبل مثل جمهور من المصلين الإنجليز في يوم الأحد في حديقة ريجنت. الأساطيل متوقع وصولها غدًا".

هناك رسائل بتواريخ لاحقة لهذا التاريخ توضح ذلك الذي كان يجري في مراحله الأخيرة. هذا الهجوم فادح الظلم على المصريين من قبل إنجلترا، ذلك البلد دون سائر البلدان الأخرى، الذي ارتبط في أذهان المصريين بحب إنجلترا للحرية، والمذاهب الإنسانية التي كانت من دعاتها أيضا، هذا الهجوم الصارخ الظالم أثار أذهان الناس، وأيقظ فيهم مشاعر غضب غريب على طبيعتهم. في ظل التهديد المستمر، من إنجلترا تارة والتحريض من قبل السلطان تارة أخرى، وفي ظل عدم معرفة من يمكن الوثوق به، وفي ظل الخوف من الغش والخداع في أي مكان، ليس من المستغرب أن نجد الأفكار الطائشة الخرقاء تبدو في تعبيرات الهادئين والعقلاء من الناس. وفي ذات الوقت نجد أن من الصعب علينا تبين تلك الأخطاء القليلة التي ارتكبها أو وقع فيها الزعماء في ظل مثل هذا الموقف الصعب المتغير

بصورة مستمرة، ونحن عندما ندقق فى هذه الأخطاء نجد أنها تحسب لصالح هؤلاء الزعماء. وعندما فشلت دسائس عملائنا، الذين خذلهم المنتفعون الواحد بعد الآخر، وجدوا أنفسهم يواجهون هزيمة دبلوماسية ساحقة، ومن ثم لجأوا إلى حـل عنيف يقوم على مدافع الأسطول، هذا التقلب اليائس هو الذى اضطر المصريين فى نهاية المطاف إلى الخروج عن موقفهم الهادئ، وهو أيضا الذى مكّن وزارة خارجيتنا من إدعاء النصر.

هذا يمكن تأكيده دون أن ننسب إلى عرابى أو إلى الآخرين صفات الزعماء من الدرجة الأولى، فهؤلاء الزعماء لم يكونوا مـن حيث الإدارة أو السياسة أو العسكرية من الكفاءة حتى يمكن مقارنتهم بالخصوم، كما أن السواد الأعظم منهم كانوا عديمى الخبرة فى فنون الحكم والمكائد التى تنطوى عليها السياسة الدولية. وأنا أرى أن فضيلة عرابى كانت تتمثل فى تصميمه وعدم تراجعه ولو قيد أنملة عن موقفه الذى سبق أن أعلنه، وبخاصة عندما أعلن أنه سيكون صديقًا للدنيا كلها، كانت مهمة عرابى تتمثل فى الدفاع عن بلده ضد أعدائها. وقد أنجز الرجل فى هذا الصدد خدمات لا تحصى ولا تعد لإخوانه المواطنين خلال الأسابيع القليلة الأولى، والتى من الصواب تذكيرهم بها. لا شيء أكثر يقينًا من الحقيقة التى مفادها أنه لو كان عرابى أقل عنادًا مما كان عليه عندما تم التهديد أو الرشوة كى يغادر مصر، وما لم يحارب المصريون لبقى الفلاحون فى إسار العبودية المزدوجة التى كانوا عليها فى عام ١٨٨٠. كان الفلاحون عبيدًا لسادتهم الأتراك وعبيدًا أيضًا لأوروبا. ما الذى كان يمكن أن ينتج، فى رأى أى وطنى من الوطنيين، عن إذعان عرابى وخضوعه؟ أى شكل من أشكال الحرية؟ استمرار الحكم الذاتى؟ حكم أجنبى أقل صرامة من الحكم الموجود حاليا؟ الواقع أنه لا شيء من هذا. ذلك الذى كان يمكن أن يحدث بيّن وواضح تمامًا فى نظام الحكم الذى أقيم فى القاهرة عقب الحرب مباشرة. هذا النظام كان يمكن أن يكون نظامًا شُرطيا استبداديا، يقوم على الجاسوسية والعصابات السرية، لا يهادن أو يتعاطف مع الاهتمام بالقومية المصرية من منظور المعنى الأخلاقى الأوروبى.

يمكن القول إنه من الناحية الشكلية جرى تشكيل مجلس للنواب، وسُمح لــه بالبقاء لبضع جلسات في شكل هيئة استشارية. لكن هذا المجلــس كــان يمكــن أن يكون بلا حول ولا طول وخاليا من الوطنية. كان بوسع الحكم الشركسي التركــي العودة ثانية وعلى نحو قاس لا يرحم، وكان يمكن أيضا تقويــة الرقابــة الماليــة، وتخويلها سلطات جديدة وقصرها تمامًا على المصالح المالية ومصالح الأوروبيين، وبالتالي يتعذر عليها تحرير الفلاحين من سادتهم الأتراك، الذين هم بدورهم عبيــد لأوروبا. هذا كان يمكن أن يعني زوال صفة الوطنية التي عرفت عــن الفلاحــين زوالاً مشينا؛ فالأمة التي لا تجرؤ على القتال دفاعا عن وجودها يحــق للنـــاس أن يحتقروها ويقللوا من شأنها. كان بالإمكان جعل الصحافة الوطنية تصل إلى الحـــال الذي وصلت إليه الصحافة الوطنية في تونس. كان يمكن ألا تكون هنــاك حريــة مدنية أو حرية شخصية أو أي اعتبار للحقوق الوطنية. بل تكون الحال في مــصر عندئذ مثلما كانت عليه عام ١٨٨٣، مجرد بلد لا يمكن لأي أحــد فيهــا أن يرفــع صوته عاليا، أو يأمن جاره. لقد أنقذ عرابـــي، فـــي أضـــعف الأحـــوال، إخوانــه المواطنين من ذلك كله، وعندما وصل الأمر إلى حد الاقتتـــال الفعلـــي اتـــضح أن الرجل كان عاجزًا من الناحية العسكرية، إنهم لا يزالون يدينون له بـــالكثير. لقــد منعهم من أن يَجُرُّوا على أنفسهم قمة الخزي والعار لأنهم لم يقـــاتلوا مطلقًــا فـــي الفرصة الوحيدة التي هيأها لهم التاريخ كي يصمدوا ويدافعوا عن حريتهم.

أما وقد قلت الكثير أعود إلى قصتي. القصة الحقيقية للبرقيات، كما عرفتهـــا فيما بعد في القاهرة، وكانت على النحو التالي: كانت البرقيات قد وصلت في لحظة بالغة الحرج، حيث كان موقف النواب فيها، هم وبعض مـــن الزعمـــاء المـــدنيين الضعاف، متذبذبًا ومترددًا. كان ماليت قد نصح الخديو بمناصبة الوزراء العـــداء، وكان الخديو قد أقنع هو الآخر سلطان باشا بالانضمام إليه، مستغلاً غيرتـــه مـــن أحمد عرابي، نظرًا لأن محمود سامي البارودي لم يشركه في وزارة شهر فبراير، الأمر الذي خيَّب آمال الرجل، فضلاً عن أن الخديو أبلغ سلطان باشا أن الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في طريقهما إلى الإسكندرية، فانضم إلـــيه ســـــلطان باشـــا، الذي أقنع ثلاثين نائبًا بالانضمام إليه، مقابل خمسة وأربعين. هذا الأمر هو الـــذي

دفع ماليت إلى أن يبرق إلى وزارة الخارجية بما مفاده أن المجلس كان يؤيد الخديو. كانت برقياتي قد شجعت الخائفين، وشكلت ضغطًا كبيرًا على سلطان باشا، مما جعله يتجه على الفور إلى الخديو (الذى كان مشغولاً بإعداد قائمة جديدة بالوزراء الذين سيكونون تحت رئاسة مصطفى فهمى، وزير الخارجية الذى لم يكن له لون سياسى)، وقام الخديو بمصالحة سلطان والبارودى، مما جعل الجميع يرون أن تلك الأزمة الوزارية قد انتهت. لكن لم يلبث هذا الترتيب أن انهار من جديد، وصلت أخبار البرقيات إلى ماليت حتى بادر بطلب سلطان باشا، واستطاع عن طريق التهديد بالأسطول تارة، وعن طريق الوعيد تارة أخرى، إقناعه بالوقوف مرة ثانية إلى جانب المراقبة الأوروبية.

كان سلطان باشا، الذى ندم فيما بعد ندمًا شديدًا على تركه صف القضية الوطنية فى ذلك الوقت العصيب، يؤكد بصورة دائمة، أن ماليت، سعيًا منه إلى الحصول على دعم ومساندة سلطان باشا له، قد أعطى سلطان باشا كلمة شرف مفادها احترام حقوق البرلمان المصرى. وقد أبلغنى رفاق سلطان باشا، أن الرجل توفى وهو يؤنب نفسه ويلومها، من منطلق أنه بلغ من الحماقة حدا جعله يصدق ذلك الذى قاله له ماليت. ومع ذلك، وباستثناء سلطان باشا، لم يجرؤ أحد مهما كان قدره بين النواب على السماح لنفسه بالانفصال عن القضية الوطنية مرة ثانية. لقد صدقنى كل أولئك الذين وصلتهم برقياتى ولم يصدقوا ماليت، وقويت سلطة عرابى بشكل كبير بعد ذلك بحوالى عشرة أيام عندما وقعت الأزمة الجديدة. كانت مسألة إحداث انقلاب عن طريق الأسطول، والتى كان ماليت يهدد بحدوثها، قد أخفقت إخفاقا تاما. كانت عملية إرسال الأسطول من قبل اللورد جرانفيل مجرد تهديد أجوف، يقصد به تحقيق المطلوب دون اللجوء إلى العنف الحقيقى. كان جرانفيل مؤمن تمامًا بهذا الأسلوب، والذى أدى نجاحه فى العام السابق، عندما جرَّبه فى دولسجنو Dulcigno فى موضوع أزمة الحدود اليونانية، إلى اقتناع جرانفيل بهذا الأسلوب، فراح يتيه به عجبا. كان ذلك مبدءًا من مبادئ جرانفيل "التهديد له فعل الضربة". وكان ماليت – الذى كان يعرف ذلك الذى كان يدور فى ذهن اللورد جرانفيل – يعتمد، بل ويركز على تحقيق الانتصار دون إراقة الدماء،

وكان من الواضح أن ماليت لم يحسب جيدًا قوة الشعور الوطني. يزاد على ذلك أنه عندما وجد أنه أخفق دبلوماسيا، بسيره على الطريق الذى رسمه كولفن، بدأ يجهز للجوء إلى القوة. التواريخ تقول إنه فى السابع عشر من مايو استطاع ماليت، فى نهاية المطاف، الحصول على تأييد ومساندة سلطان باشا لسياسته. واليوم العشرين من الشهر نفسه يشهد بوصول الأسطولين إلى الإسكندرية. وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر نفسه يصدر كل من ماليت وسنكفيز Sinkiewiez إنذارهما النهائى الذى يقولان فيه إن هذا الإنذار جاء بإيحاء من سلطان باشا. كان ذلك الإنذار يطالب باستقالة الوزارة وإبعاد عرابى عن مصر. وفى اليوم السابع والعشرين من شهر مايو استقالت وزارة محمود سامى البارودى، وفى اليوم الثامن والعشرين تثور القاهرة وتصر مطالبة ببقاء عرابى وزيرًا، فيعاد تعيينه وزيرًا للحربية، ويخوّل الرجل سلطات دكتاتورية.

كانت النظرة العامة إلىَّ فى إنجلترا طوال هذه الأزمة نظرة سوداء، بل إنها ازدادت سوادًا على سوادها، عندما غير صديقى جريجورى موقفه من القضية فى تلك اللحظة التى كنت فيها بحاجة ماسة إلى عونه ومساعدته. كان جريجورى قد ألزم نفسه تأييد الحزب الوطنى فى مراحله الأولى مثلما فعلت أنا، وكان الرجل قد كتب بعض الرسائل القوية تأييدًا لأحمد عرابى فى جريدة التايمز، وكان نفوذه أكبر من نفوذى فى الدوائر الرسمية لدى شينرى Chenery رئيس تحرير جريدة التايمز. وقد انزعج جريجورى من احتمالات القتال التى قد تنتج عن وصول الأسطولين، وبدأ الرجل فى رسائله الأخيرة يشكك فى آرائه المنشورة ويعيد تصنيفها وتوصيفها. وبعد أن غادر جريجورى مصر فى شهر أبريل راح يتجول فى أنحاء أوروبا، وكنت أتطلع يوميا إلى عودته إلى لندن حتى يشد من أزرى لدى الحكومة. ولكن على العكس من ذلك خيَّب آمالى، حين وجدت أنه كان يسدى إلينا مجرد خدمة صغيرة، إن لم يكن يعادينا تمامًا. كان مقررًا لنا نحن الاثنين أن نعقد اجتماعًا لمقاومة دعاة العدوان، لكن الرجل (جريجورى) رفض حضور هذا الاجتماع. وأنا أورد هنا فى مفكرتى ذلك الذى دار حول هذا الموضوع:

فى التاسع عشر من مايو

خيَّب جريجورى آمالنا. لقد تناول الغداء أمس مع شـيترى Chenery الـذى أخافه، وهو حاليًا يرفض المشاركة فى هذا الاجتماع. ذهبت إلى ذلـك الاجتمـاع وألقيت خطبتى، ورددت على بعض الأسئلة التى طُرحت علىَّ، ورويـت بـصدق تاريخ البرقيات، وأيد دلوين Dilwyin رئيس الاجتماع، سلوكى الوطنى".

فى العشرين من مايو

بلغنى أن اللورد جرانفيل كان مغتاظًا منى بسبب البرقيات.

فى يوم الأحد المصادف للحادى والعشرين من مايو، أى فى اليـوم التـالى مباشرة، حضرت اجتماعًا محرجًا مع اللورد جرانفيل. كنت أنا وزوجتى قد دعانـا ابن عمها ، اللورد بورتسموث Portsmouth الحالى، لقضاء الفترة من يوم الـسبت إلى يوم الاثنين فى هرتسبورن Hurtsbourne، وكانت أسرة جرانفيل مدعوة أيضًا، إضافة إلى أشخاص عدة آخرين من المهتمين بالسياسة بشكل أو بآخر. خطر ببالى أن جرانفيل ربما كان يريد مقابلتى "بالمصادفة" على حد كلام الدبلوماسيين. لكـن وقعت خلال هذه الفترة أحداث جسام وخطيرة، ولم أهتز عنـدما وجـدت الرجـل موجودا فى هرتسبورن، لأنهم لم يبلغونى بذلك. كان اللقاء تعيسًا، لأننا فى صـباح ذلك اليوم أحضرنا معنا جريدة الأوبزفر التى أوردت الرفض الذى لقيه الأسـطول فى الإسكندرية. "وصلنا مع لويل Lowell (الوزير المفوض الأمريكـى)، ووجـدنا المنزل خاليًا ليس فيه أحد، كان الجميع قد انصرفوا لحضور قدّاس الـصباح فـى الكنيسة. وعندما عادوا لاحظت، بشىء من الفزع، أن اللورد جرانفيل هو وحرمـه قد حضرا، وكانا يمشيان فى الخلف مع بقية الجماعة. وسارت الأمور علـى مـا يرام، نظرًا لأن السواد الأعظم من المجموعة كانوا متعاطفين معى، وبخاصة أننـا كنا قد أحضرنا معنا أنباءً مفادها أن وصول الأسطولين إلى الإسكندرية جرى الرد عليه بنداء من عرابى إلى حمل السلاح، وأن حوالى ٤٠٠٠ رجل مـن الرديـف

(جنود الاحتياط) لبوا ذلك النداء. وبدت الحيرة على وجه اللورد جرانفيل، هذا يعنى أن جدلى وحججى عن الوطنيين كان لها مغزاها. دخلت فى حديث طويل مع اللورد جرانفيل، تكلمنا خلاله عن كل الموضوعات العالمية باستثناء مصر. والواقع أن اللورد جرانفيل شخصية لطيفة ورفقته طيبة، وهو راوٍ بارع من الطراز القديم، وكل قصة يرويها تكون محبوكة ودقيقة ولا تكون مكررة، وإنما تناسب المقام. وجرت مناقشة قضية مصر مع باقى الجماعة، وكانت المناقشة مطصبغة بصبغة المرح والتعاطف. كان هنرى كوبر Cowper رائعًا، وكان كل من لويل Lowell وستيوارت رندال Stuart Rendall من أشد الحاضرين تعاطفًا لأنهما كانا آخر المتكلمين عندما كان اللورد جرانفيل غير منتبه... كان يومًا لطيفًا تجولنا خلاله فى الحدائق والمتنزه، فى حين راح هنرى كوبر يحكى لنا قصصًا شيقة، ومن بين هذه القصص كانت هناك قصة تتعلق بالمسألة الشرقية، أو بالأحرى قصة دزرائيلى. قال كوبر إنه سمع دزرائيلى يقول إنه يستشهد بكتاب "تانكرد" Tancred، "كتاب أستشهد به دومًا لا لمجرد المتعة، إنما طلبًا للتعليم". كان لويل، كما سبق أن أوضحنا، من المؤمنين تمامًا بالحزب الوطنى طوال فصل صيف ذلك العام، وكان يساندنى ويدعمنى فى حواراتى حول هذا الموضوع.

يجدر بنا هنا أن نشير، بصدد هذه الزيارة التى قمنا بها إلى هرتسبورن، إلى أن اللورد جرانفيل بعد ذلك بيومين، أو بالأحرى فى اليوم الثالث والعشرين من مايو، كان قد أرسل البرقية المشئومة التى تخول ماليت سلطة التصرف حسبما يراه مناسبًا، الأمر الذى أدى إلى إرسال الإنذار النهائى فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو. كان المنظر السائد فى مصر، حسبما نشره جون مورلى فى جريدة "بول مول"، على النحو التالى: "الأمور لا تزال حرجة تمامًا فى القاهرة. عرابى Ourabi[11] لا يزال يتخذ موقف المتحدى. وهو يلعب بورقته الأخيرة. يجرى استدعاء جنود الاحتياط من القرى - وهم مربوطون بالسلاسل - ويجرى التعجيل

---

(١١) هذا الهجاء الفرنسى لاسم عرابى الذى استخدمه P.M.G، مأخوذ على حد علمى، عن زميل كولفن الفرنسى، دى بلنبير، وقد أخذ به الرجل هو والبارون ملوريت Mallorite الذى كان مع كولفن، وهو المراسل الوحيد لمورلى فى ذلك العام فى القاهرة.

بإرسال القوات إلى ساحل البحر لمقاومة عملية الإنزال، كما يجرى أيضا إرسال رجال المدفعية إلى الإسكندرية، والذين بدأت مدافعهم، بالشكل التي هي عليه، تطوق سفننا المدرعة. هذا كله من باب التهويش، حتى يحصل لنفسه على أفضل الشروط". يقول مورلى: "تجربة المظاهرة الفعلية التى قامت بها السفن المدرعة فى الإسكندرية تمت بصورة جيدة، لكن الذى لا شك فيه أن هذه التجربة باءت بالفشل الذريع".

فى الثانى والعشرين من مايو

سافرت إلى لندن. يقول هارى براند، الذى التقيته فى النادى، إن ديلك يقول له: "لا بد أن ينتهى الأمر إلى التدخل".

أرسل لى هوتون العجوز يقول لى: إنه يود أن يستشيرنى فى أمر يخص مصر، وجرى حوار طويل بينى وبينه فى أروقة مجلس اللوردات. ونصحت الرجل، إذ كان ممن يحثون الحكومة على إنزال قواتها فى مصر، بأن يطلب إلى ابنته العودة فورًا إلى إنجلترا.

فى الثالث والعشرين من مايو

رد اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردات على طلب معلومات عن مصر ردودًا ساخرة.

فى السادس والعشرين من مايو

تحدث جلادستون عن مصر حديثًا طويلاً، كان أبرز ما فيه هو التعبير عن ثقته بالحل السلمى... وكان القنصلان قد قدما إنذارًا ينص على أن هدفهما هو إعادة السلطة إلى الخديو، ويطالبان بنفى أحمد عرابى.

فى السابع والعشرين من مايو

سلطان باشا ينكر أن بنود الإنذار كانت بإيحاء منه... ورفض الإنذار... وقابلت جريجورى على أثر ذلك. نحن نرى أن المصريين سيقاتلون، ولدى إحساس بالخروج والاشتراك معهم فى ذلك القتال... وصول برقية فى المساء تفيد استقالة وزارة عرابى.

فى الثامن والعشرين من مايو

المصادف ليوم الأحد فى مزرعة كرابت للخيول. الأمور كلها تتداعى فى مصر، أنا أرى أن سلطة الخديو الشخصية سيجرى إحياؤها من جديد فى ظل المراقبة الثنائية، وإذا ما غادر عرابى البلاد وجرى تسريح الجيش، أو إذا ما أعيد تشكيله تحت قيادة ضباط شراكسة، فإن مصر قد تودع الحرية، وسوف يئول مصيرها إلى ما آلت إليه تونس.

فى التاسع والعشرين من مايو

لم يغالبنى النوم، ولذلك رحت أتجول هنا وهناك بعد الساعة الثالثة. حزنت لأنى لم أستطع الذهاب إلى مصر عقب استماعى إلى كلام اللورد جرانفيل مباشرة. لو حدث ذلك لأنقذت الأمور، لكن بدأت الأمور تتحسن من جديد. وهذه هى الصحف، فى تحول عجيب جدا تعلن أن القاهرة قد ثارت ونيضت وراحت تطالب بإعادة تعيين عرابى وزيرا للحربية، وها هو الخديو يوافق على ذلك. يبدو أن هذه الأنباء تبلغ من الحسن حدا يستحيل معه تصديقها، لكن هذا أمر لا يمكن التشكك فيه لأن الصحف غاضبة، وهذا بدوره ينقل الأمور إلى مكان غير المكان التى كانت فيه، ولم يعد هناك أى مصدر للخوف أو التخوف سوى الباب العالى،

وهنا عقدت العزم على السفر إلى مصر فورًا. وعليه سافرت إلى لندن، والتقيت جريجوري، وتناولت الغداء مع آل هوارد، وكتبت رسالة إلى إيدى Eddy هاميلتون أعربت له فيها عن نواياى. ونصحتنى حرم هوارد أن أثق بكل ما يقوله جلادستون، وقد نفذت ذلك بطريقة ضمنية فى الرسالة التى كتبتها إلى هاميلتون. كل ما فى الأمر هو أن مغادرة إنجلترا فى شهر يونية تعد أمرًا صعبًا، وسوف يتعين على مواجهة الحر القائظ فى القاهرة. وعلى الرغم من ذلك كنت أحس بالسعادة، نظرًا لأنى أحس أنى أفعل كل ما فى وسعى وأقوم بواجبى أيضًا، وهذه هى آن زوجتى، ستسافر معى".

كانت الرسالة التى أرسلتها إلى هاميلتون بفعل تأثير الجو الجلادستونى علىَّ فى بالاس جرين Palace Green ، على النحو التالى:

فى التاسع والعشرين من مايو عام ١٨٨٢

عزيزى، إيدى

على الرغم من تخوفى من استياء السيد جلادستون منى بسبب البرقيات التى أرسلتها إلى مصر قبل أسبوعين، فإنى لا أود القيام بخطوة مهمة دون علم منه. وأنا واثق أنه سيغفر لى ذلك فى يوم من الأيام، ويوافقنى على ما كنت أنوى القيام به. وأنا أثق فى الرجل تمامًا، وأنه سوف يتصرف مع مصر تصرفا مبنيا على أسباب ليبرالية، تلك الأسباب الذى سبق أن تحدثت أنت عنها، عقب وقوف الرجل على حقائق الموقف. وأنا ما زلت أرى أنى يمكن أن أفيد إنجلترا ومصر أيضًا فى ظل الظروف التى قد تحدث بعد ذلك، ومن منطلق هذه الفكرة، وما لم يحدث أمر من الأمور غير المتوقعة، سوف أسافر يوم الجمعة القادم إلى القاهرة.

سأقول لك بالضبط تلك النصيحة التى سأسديها إلى الزعماء الوطنيين، سوف أنصحهم أولاً وقبل كل شىء بإسقاط كل الخلافات التى بينهم وهم يواجهون خطرا

عاما. سأحثهم، مثلما كنت أفعل من قبل، بألا يتشاجروا مع الخديو، وإذا ما أتيحت لى الفرصة سوف أنصح الخديو بألا ينقاد للقنصلين ويدخل فى نزاع مع الشعب. وسوف أدعم عرابى وأؤيده فى تصميمه على الاحتفاظ بإدارة الجيش كله فى يده عن طريق بقائه في منصب وزير الحربية، لكنى سوف أنصحه بترك المناصب الأخرى كلها للمدنيين، وبخاصة أعضاء مجلس النواب. سوف أطلب إلى المصريين الإبقاء على علاقتهم بالسلطان فى أحسن أوضاعها قدر المستطاع، وألا يسمحوا بدخول جنوده إلى البلاد، وأن يكونوا على علاقة طيبة مع الدول الأوروبية، وألا يتنازلوا عن حقوقهم الدستورية. وفى الوقت نفسه أنصح لهم بشدة، مثلما فعلت في شهر يناير، أن يتنازلوا بعض الشيء للمراقبين الماليين، عن بعض مطالبهم الخاصة بالميزانية، أى بتأجيل مطالبهم للعام القادم فى أضعف الأحوال. سوف أشرح لهم الموقف، على حد فهمي له، موقف الحكومة الإنجليزية التى لا تود القضاء على استقلالهم، والتى ارتبطت، على العكس من ذلك، مع أسلافهم بروابط ومواثيق. سأقول لهم إن الحكومة الفرنسية من عادتها أن تدفع قواتها إلى البحر المتوسط، وأنها تضطر إلى فعل ذلك بسبب المموَلين. سأقول لهم إن الحكومة الألمانية، تريد إبعاد الفرنسيين عن الشئون الداخلية، وتفك التحالف مع الإنجليز. وسوف أتحدث إليهم أيضًا عن السلطان وأحلام الخلافة، وهم يفهمون هذه الأمور حق الفهم مثلى تمامًا.

أنا لا أود لنفسى الاشتراك فى العمليات العسكرية، إذا ما حدث شىء من هذا القبيل، اللهم إلا إذا دعت الضرورة القصوى إلى ذلك، وأن يكون ذلك ضد الأتراك، وذلك لأنى لا أعرف شيئًا عن الأمور العسكرية، وأخاف الحرب وأخشاها. لكنى سوف أحث المصريين على مقاومة الغزو من أية جهة كانت، وعلى أنهم إذا ما انهزموا تعين عليهم مواصلة سياسة رفضهم للضرائب التى تفرض عليهم من خارج قوانينهم، فى حين إذا لم يحدث أى تخويف، سوف أنصحهم بسداد دينهم إلى آخر مليم. وأنا لست بحاجة إلى الحديث عن التطرف لأن المصريين ليسوا متطرفين، لكنى سوف أضم صوتى إلى عرابى تأييدًا للتفسير الإنسانى لقوانين الحرب. أتمنى أيضًا أن أكون موجودًا عند الحاجة إلىّ، كى أحمى المقيمين الأوروبيين، إذا ما بدأت العمليات العسكرية.

أنا لا أظن أنى وأنا أقول لك ذلك أتصرف تصرفًا غير مسئول، وفكرتى عن السياسة التى يجب اتباعها مع مصر تتمثل فى أنهم (المصريين) يجب أن يتصرفوا طبقًا لقاعدة تخالف ما يجرى عليه الشرقيون. أود منهم أن يقولوا الحق حتى لأعدائهم، وأن يكونوا أكثر إنسانية من الجنود الأوروبيين، وأن يكونوا أكثر أمانة من دائنيهم الأوروبيين. إذا ما فعلوا ذلك سيكونون قد أحدثوا ذلك الإصلاح الأخلاقى، الذى يراه زعماؤهم الدينيون".

المخلص، وبكل الحب، دبليو. إس. بى

وجدير بالإشارة أن نذكر الأقوال التى نشرتها صحيفة "بول مول" فى تلك الفترة، نظرًا لأن هذه الأقوال توضح ذلك الموقف السخيف غير الواقعى فى مصر، والسبب فى ذلك هو وزارة الخارجية الإنجليزية، المدعوم من قبل كل من كولفن وديلك وآخرين.

كانت البرقيات المرسلة من قبل ماليت هى التى جعلت وزارة الخارجية تعتقد أن عرابى لا تقف من ورائه أية مساندة شعبية غير الجيش، وأن الخديو يؤمن به رعاياه، وأن الأمر فى ذلك الوقت لم يكن يحتاج إلا إلى شىء قليل من المساعدة الخارجية من إسطنبول، التى كانت فى ذلك الوقت مستعدة لتقديم الدليل على تفضيلها لتوفيق، وأنها إذا لم تجبر الجيش على الخضوع فإن ذلك يمكن أن يؤدى إلى حرب أهلية قد تتطلب التدخل.

تقول جريدة "بول مول" الصادرة فى الخامس والعشرين من مايو: "إن الإنذار الذى قدمته كل من إنجلترا وفرنسا إلى الوزارة المصرية، قد يقبل أو يرفض خلال أربع وعشرين ساعة. ويتعين إنهاء هذه الأزمة عصر هذا اليوم، ويجب أن ينتهى أيضًا الأمر الذى أبرق إلى إسطنبول لطلب القوات العثمانية التى ستقوم باستعادة سلطة الخديو تحت إدارة كل من إنجلترا وفرنسا".

ونشرت الجريدة نفسها فى السابع والعشرين من مايو: "ساعات قلائل قد تحدد ما إذا كان سيجرى حل الأزمة فى مصر بطريقة سلمية أم أن البلاد ستكون

مسرحًا للحرب الأهلية والاحتلال الأجنبى. لقد استقالت الوزارة، وبذلك يكون قد جرى الالتزام بشرط الإنذار الإنجليزى الفرنسى... على الجانب الآخر، يُتوقع أن يخلع عرابى القناع وينبرى سافرًا فى مواجهة الخديو... ولو أعطى عرابى إشارة بدء الحرب الأهلية فقد يكون قد ضحى بحياته".

ويجرى توضيح الحرب الأهلية المتوقعة فى صحف اليوم التالى المصادف لليوم الثامن والعشرين من مايو: "نام الخديو الليلة الماضية فى قصر الإسماعيلية وكان يحيط به اثنا عشر ألفًا من البدو المخلصين له. وجود أبناء الصحراء فى العاصمة المصرية يشكل نوعًا من التأمين المادى ضد أى بيان قد يصدر عن المتمردين الجدد New Pronunciamento. والذى لا شك فيه أن ذلك مشهد مخيف، مشهد الحرب الأهلية فى شوارع القاهرة بين البدو والجيش النظامى. لكن احتمالية هذه الحرب هى الدافع إلى التوصل إلى حل سلمى للأزمة... موقف عرابى الحالى، ليس كموقفه السابق، يزاد على ذلك أن قوة الاحتكام إلى السيف ليست فى يده وحده فى الوقت الحالى. وإذا لم يستطع الخديو بسيوف البدو وسفن إنجلترا وفرنسا المدرعة ومساندة مجلس النواب، إذا لم يستطع بكل ذلك إخضاع عرابى، فإن الوضع يمكن أن يتفاقم إلى وضع ليس مثيل له من قبل".

يا لها من رواية مثيرة، تلك التى أشاعت أن اثنى عشر ألفًا من البدو المخلصين يحيطون بقصر الإسماعيلية ويخيمون حوله. ومجلس النواب موالٍ للخديو! وعرابى يقف وحده ويخيفهم جميعًا! هذه الأكاذيب هى التى أذاعها مورلى باعتباره بوقا شعبيا؛ الأمر الذى أقنع جلادستون بأن يطبق ذلك العلاج المدهش على الوطنية المصرية العنيدة، بأن راح يجر عليها "قوات الباشبوزق" التركية مخيفة الاسم المعروفة بالفظائع التى ارتكبتها فى بلغاريا، كما راح يجر عليها أيضًا قوة "رجل الخطايا" السلطان عبد الحميد. هذا التصوير الوهمى لشعبية الخديو لم يدم سوى ثمانية وأربعين ساعة.

ثم نقرأ بعد ذلك فى جريدة "بول مول" فى اليوم الثلاثين من مايو: "لقد حان موعد العمل العاجل فى مصر، الخديو حبيس قصره. لقد تبخر أولئك البدو الذين بلغ عددهم اثنى عشر ألف رجل، تبخروا جميعًا واختفوا فى الهواء"... إلخ إلخ.

فى ذات الوقت كنت أنتظر وصول رد من مجلس الوزراء الإنجليزى، وكنت أعد العدة للسفر فورًا إلى مصر. كان جلادستون خارج المدينة، بصحبة اللورد روزبيرى Rosebery فى دوردانز Durdans، وأنا أرى فى هذه الصحبة نذير شؤم. كنت أعرف جيدًا رأى اللورد روزبيرى فى المسألة المصرية، ذلك أنى قبل أسابيع قليلة التقيته فى مقر مجلس الوزراء، عندما كان بصحبة هاميلتون، وكنت قد تمشيت معهما فى مخرج الحديقة الصغيرة خلال منتزه القديس جيمس. وفى أثناء مسيرنا سألت اللورد روزبيرى عن آرائه فى مصر، ورد الرجل على أسئلتى بإجابات مقتضبة جدا، "أنا لا أرى فى هذا الموضوع مطلقًا سوى آراء حامل الأسهم والسندات". كان الرجل، من خلال زوجته، واحدًا من آل روتشيلد، لا يهمه أى شىء سوى الجانب المالى من القضية، ولذلك كنت أرى فى زيارة جلادستون للورد روزبيرى، فى ذلك الوقت بالذات، نذير شؤم وشر. لم يكن اللورد روزبيرى فى السلطة فى ذلك الوقت، لكن كان له نفوذ عند جلادستون، وعرفت من خلال بتون Button أنه كان يجرى دفعه إلى الأمام وتحريضه من قبل آل روتشيلد، ليقوم هو بأعمالهم السياسية نيابة عنهم. دام هذا الحال سنوات عدة، كما أن مهمته فى برلين فى عام ١٨٨٥ كانت بإيحاء من آل روتشيلد، وحققت النجاح المطلوب بسببهم أيضًا، ثم راح يعمل بعد ذلك بإخلاص فى وزارة الخارجية لخدمة مصالحهم فى المسألة المصرية، على الرغم من معرفتى أنه قد تخلص من أسهمه المصرية قبل أن يبدأ ممارسة مهام وظيفته.

فى الثلاثين من مايو

لم يصلنى أى رد من إيدى Eddy، عرفت أن جلادستون خارج المدينة فى دوردانز. كل شىء يسير على ما يرام فى مصر، عرابى هو سيد الموقف...

عثرت على ملاحظة أرسلها لى هوتون Houghton بالأمس يطلب إلىَّ مقابلته، وذهبت إلى الرجل فى بيته فى "ماى فير" May Fair، وأخبرته عن خطتى فى الذهاب إلى مصر. من خلال تصرفات الرجل عرفت أنه مكلف من قبل اللورد جرانفيل بجس نبضى... كنت قد طلبت من البنك (السادة جلين، وميلز، وكورّى Currie) أن يعطونى ما قيمته ١٠٠٠ جنيه إنجليزى نقدا ذهبيا فرنسيا، والتى تعد قوة فى زمن الحرب. أنا أحس أنى متكاسل ولا أريد الذهاب، ولكنى سعيد، لأنى متأكد أنى أفعل ما هو صحيح ... وسيذهب معى صابونجى أيضًا.

فى الحادى والثلاثين من مايو

سافرت إلى لندن فى ساعة مبكرة ووجدت فى انتظارى مذكرة أخرى من هوتون يؤكد علىَّ فيها بعدم السفر. وأنا على يقين من أن هذا تلميح غير رسمى. كانت مذكرة هوتون محددة: "عزيزى بلنت، أفضل لك ألا تذهب إلى مصر فى الوقت الحالى. إن كل ما ستفعله أو تقوله هناك سوف يبالغون فيه، وقد يُساء فهمه أيضًا. التحالف الذى بين الحزب العسكرى والباب العالى يبدو أنه تحالف كامل، وبالتالى لن يتفق مع آرائك، وبوسعك إبلاغى بما تراه أنت دقيقًا ومفيدًا. ابنتى ما زالت موجودة فى الإسكندرية، لكنى أشعر بالقلق على فيتزجيرالد Fitzgerald الذى لا بد وأن يكون مكروهًا من الجيش بسبب اقتصادياته العسكرية. وتقبل تحيات المخلص هوتون. حاشية: إذا أردت الذهاب فأحضر معك (العربى) [يقصد صابونجى] وتعاليا لتناول الغداء معنا هنا".

وصلتنى أيضًا برقية من إيدى Eddy. "تسلمت رسالتك، وأنا أرجوك ألا تفعل شيئًا إلا بعد أن تلقانى. سأعود مساء هذا اليوم". إيدى موجود حاليا فى سولسبرى. عند الساعة الخامسة والنصف وجدت إيدى فى مقر مجلس الوزراء فى داوننج ستريت. رجانى الرجل ألا أسافر، نظرًا لأن وضعى فى مصر وعلاقتى المعروفة بجلادستون سيساء فيمهما، ويتسببان فى جلبة كبيرة ومخيفة. وعدنى إيدى بأنه لن يكون هناك إنزال للقوات أو تدخل على الإطلاق. وبناء على هذا

التأكيد وافقت على عدم السفر. قلت له، من ناحية أخرى، إنى أتمنى ألا يعتبرونى مسئولاً عن الأحداث التى قد تنجم عن هذا الموقف، وأن الهدف الرئيسى من سفرى هو منع وقوع هذه الأحداث. قال إنهم لن يعتبرونى مسئولاً عن ذلك.

وصلتنى بطاقة كبيرة من السيدة حرم اللورد جرانفيل تدعونا للذهاب إلى وزارة الخارجية فى اليوم الثالث من شهر يونيو لحضور الاحتفال بعيد ميلاد الملكة! وسوف أحتفظ بهذه البطاقة كرد على اتهام هارى براند Harry Brand إياى بالخيانة... أنا راض ومقتنع تمامًا حاليا. سيسافر صابونجى بدلاً عنى، وسوف يفعل ما سأفعله تمامًا. كان صابونجى قد أرسل، بناء على أمر منى، برقية إلى عرابى ردا على الرسالة التى وصلتنى منه. وجاء الرد على النحو التالى: "تسلمت الرسالة. لا تخف من السفن، لا تدخل، أصدر إعلانات عامة فى سائر أنحاء البلاد تدعو إلى المحافظة على سلامة الأوروبيين". جاء هذا الرد بناء على اقتراح من إيدى Eddy.

فى الأول من يونية

يبدو أن كل شىء يسير سيرًا طيبًا. وأصبح عرابى سيدًا للموقف فى مصر، يبدو أن السلطان يقر هذا الموقف أيضًا فى إسطنبول. يظن بتون Button أن جريدة "التايمز" سوف تدفع ثمن كل برقية من البرقيات التى يرسلها إليها صابونجى. إن صح ذلك، فهو الأفضل بطبيعة الحال. كنت قد وافقت على إعطاء صابونجى مبلغ ٣٠ جنيها إنجليزيا فى الشهر علاوة على مصروفاته... (ذهبت إلى مجلس العموم بصحبة نيجل كينجسكوت Nigel Kingscote الموظف فى بلاط أمير ويلز Wales)، الذى أدخلنى إلى رواق المتحدث الرسمى. كان جلادستون يلقى إعلانه عن انعقاد مؤتمر فى إسطنبول باعتبار أن ذلك هو جوهر الأمر كله، وأنه لن تجرى تعبئة قوات من الهند، أو إنزال قوات على أرض مصر، وأنه ينظر إلى ذلك باعتباره أمرًا يهدد حياة الأوروبيين. وهذا هو ماكون Mccoan رئيس تحرير جريدة "ليفانت هيرالد" الأسبق يتساءل حول ما إذا كنت على وشك

"التحرك إلى مصر، لأضع نفسى على رأس التمرد". ورد عليه ديلك قائلاً: "إنى كنت قد تخليت عن هذه النية". وهنا أصدر جلادستون ذلك البيان المدوى الذى مفاده أن عرابى "قد خلع القناع"، وهدد الخديو بالعزل وتنصيب حليم على العرش فى مصر. وهذا كلام يتنافى مع العقل، ومن واجبى توضيح ضرره، ورفضه على الفور، كما أن مسألة نشر هذا البيان يوضح مدى الجهل الذى كانت عليه وزارة الخارجية. والأرجح أن جلادستون غاضب الآن من ماليت جراء الورطة التى أوقعه فيها. وهذا هو فرانك لاسيلز، الذى كان عائدًا معى من مجلس اللوردات إلى بيته يقول لى: إنه رأى برقية ماليت الخاصة بهذا الموضوع، وإن فحوى هذه البرقية هو أن الخديو هو الذى قال لماليت هذا الكلام، وأنه لا يستطيع تأكيد صحة هذا الكلام. وهذا هو حال الأمور!.

برقية ماليت كما هى مسجلة فى الكتب الزرقاء (مصر، رقم ١١ عام ١٨٨٢) تقول ما هو أقل من ذلك. البرقية على النحو التالى: "أرسل الخديو فى طلب سنكفيز وطلبى أيضا صباح هذا اليوم، وأبلغنا أنه نما إلى علمه أن العسكر ينوون عصر هذا اليوم عزله وتنصيب حليم باشا خديويًا على مصر... وقال الخديو: إنه لا يقطع بصدق هذه المعلومة". ومع ذلك، وتأسيسًا على شائعة بسيطة من هذا القبيل، يتعلق جلادستون بها، مع أنه قد سبق أن أعلن لى أنه لا يلقى القول جزافا فى البرلمان، وقد سبق أن رجانى الانتظار إلى أن أستمع إلى خطابه فى مجلس العموم باعتباره رسالة عن حسن النية تجاه المصريين، يقوم بإطلاق إعلان لكى يعطى زخمًا لخطابه؛ على الرغم من أنه عارٍ تمامًا عن الصحة، ويعد أول إعلان محدد من قبل هذا الرجل منذ أن التقيته للتحدث معه فى موضوع مصر. وهذا يعد تعليقًا عجيبًا على الأساليب التى يتبعها الوزراء وألاعيب ذهن جلادستون. أدى تأثير خطاب رئيس الوزراء علىَّ إلى تخليصى تمامًا من الوهم، ولم يحدث بعد ذلك مطلقًا أن وثقت بهذا الرجل، أو التمست له الأعذار، حتى عندما برز إلى مكان الصدارة باعتباره بطلاً من أبطال الحكم الذاتى فى أيرلندا، وعندما أوليته مساندتى، ورحت أنظر إليه باعتباره شخصًا آخر غير ذلك الشخص البرلمانى الذى عرفته فيه. وأنا هنا لا أقول إن الرجل فى الليلة العظيمة الثانية والعشرين من شهر مارس لم يكن صادقًا عندما تحدث معى بطريقة إنسانية تمامًا،

لكن كان من الواضح أن تعاطف الرجل مع قضية الحق، وعلى الرغم من صدق ذلك التعاطف، لم يكن هو القانون الذى يحكم عمله العام، ذلك العمل الذى كان مدفوعا إليه، هو والآخرون، بدوافع نفعية. هذا الاكتشاف دمر فى داخلى وهمًا عن هذا الرجل لم أستعده بعد ذلك مطلقًا.

فى الثانى من يونية

اجتمع اللورد دى لا وور Dela Warr، هو وجريجورى وبراند وبتون فى منزلى، وكانوا جميعًا، باستثناء بتون، مسرورين سرورًا بالغًا بالموقف. هذا هو هارى لا يزال يصفنى بالخائن، ويقول أيضًا: إن عرابى جمع ثروة طائلة، وإنه لا بد من قمعه وإخراجه من مصر. واتفق بتون هو وصابونجى على كود معين من الإشارات يستخدمه فى إرسال الأخبار إلينا. وأعطيت صابونجى ١٠٠ جنيه إنجليزى على سبيل المصروفات، وسوف يكون مسئولاً عن تقديم تقريره لإنفاق هذا المبلغ. سيجرى إرسال البرقيات إلىَّ أنا شخصيا على أن أقوم بتبليغ هذه البرقيات إلى بتون لحساب جريدة "التايمز". كنت قد أعطيت صابونجى تعليمات مفادها أن أهم أمرين فى مصر هما: أن يهادن عرابى الخديو توفيق، وأن يذهب إلى إسطنبول بطريقة علنية. لقد ودعنا صابونجى، لكنه قلق من احتمال احتجازه فى الإسكندرية. يقول بتون، إنه لو قدر لى أن أموت فى أثناء السفر، فإن الأوامر كانت ستصدر إلى السير بوشامب سيمور Beauchamp Seymour بمنع نزولى على أرض مصر، وبقائى فى الباخرة... أنا أشعر حاليا بالارتياح.

لو قدر لى الاستماع إلى خطبة جلادستون قبل الاتفاق مع هاميلتون على رفض رحلتى إلى مصر، ربما كنت قد أصررت على ما عقدت العزم عليه، ولكن فى ظل مجريات الأحداث، أجدنى أشك فى حدوث خير من وراء هذا الأمر. وحتى لو منعونى من النزول إلى البر، سيكون من الصعب علىَّ التأثير على عرابى والزعماء الآخرين، وإن هذا التأثير يمكن أن يكون أقل بكثير عن التأثير الذى أحدثته من خلال صابونجى. كان صابونجى عميلاً مدهشًا فى عملية من هذا القبيل، ويستحيل أن يخدمنى أحد فى هذا الاتجاه أكثر مما قدمه، لأنه كان رئيس

تحرير سابق لجريدة "النحلة" Nahleh، تلك الصحيفة التى أشيع أنها كانت تدعم بواسطة الخديو إسماعيل بحق أو بغير حق، مما جعله يدافع دومًا عن الآراء المستنيرة الخاصة بالتقدم الإنسانى، والإصلاح الإسلامى؛ وهذا بدوره جعل لصابونجى مكانة عند المصلحين الأزهريين أصحاب النفوذ، يزاد على ذلك أنه كان مع هؤلاء الإصلاحيين قلبًا وقالبًا فى الحركة الوطنية. وباعتباره ممثلاً لى كان يجرى استقباله بالأحضان فى كل مكان من قبل الوطنيين، وكانوا يثقون به وثوقًا تاما، وكان الرجل جديرًا أيضًا باحترامى واحترامهم، وقد قام بتوصيل الرسائل التى أرسلتها لهم، وقال لى بصدق وإخلاص ذلك الذى قالوه له. هذه الرسائل لا تزال شاهدة ودليلاً قيمًا، بل ربما كانت هى الدليل الوحيد المتبقى، على الأفكار الداخلية التى كانت مطروحة فى تلك الأيام، وقد أوردت فى ملحق هذا الكتاب ملخصًا لتلك الرسائل. وصل صابونجى إلى الإسكندرية فى اليوم السابع من شهر يونية، وبقى فيها إلى اليوم السابق لضرب الإسكندرية بالقنابل[١٢].

---

(١٢) بقى صابونجى يعمل معى إلى نهاية عام ١٨٨٣، ثم تركنى وذهب لزيارة الهند، حيث يوجد بعض من أقاربه، وبعد كثير من العثرات انجرف الرجل إلى الملاذ العام للثوار الشرقيين، الذى يسميه الأتراك سراى يلدز Kiosk Yildiz ، حيث حصل على وظيفة سرية مع السلطان عبد الحميد، كان يعمل بمقتضاها مترجما خاصا للسلطان، فيما يتعلق بالصحف الأوروبية، وأنا أعتقد أنه لا يزال يشغل هذه الوظيفة إلى الآن [أى إلى عام ١٩٠٧].

الفصل الثالث عشر

بعثة درويش

وصلت إلى مرحلة من مراحل هذه الدسيسة العجيبة التى - إذا لم يتوفر لى فيها مادة منشورة شبه رسمية، وبالقدر الذى يسمح بتأييدى ودعمى - سيكون من العبث محاولة إقناع المؤرخين بأنى لم أكن أسبح فى بحر الرومانسية والخيال. وأنا لا أصدق تمامًا كيف أن حكومة ليبرالية إنجليزية، لديها مثل هذا الرجل العظيم جلادستون على رأس هذه الحكومة، تحتم عليها لأى سبب فى الدنيا، سواء أكان ماليا أم سياسيا، أم بحكم الضرورة الخاصة، الإقبال على تبنى خطة لا أخلاقية تمامًا من قبيل الخطة التى سأرويها أنا هنا. كان جون مورلى John Morley فى كتابه عن سيرة جلادستون قد مر مرورًا سريعًا على المغامرة المصرية المثيرة بكاملها فى ذلك العام، من خلال فصل قصير طوله حوالى خمس عشرة صفحة، فى كتاب يقع فى ألف وخمسمائة صفحة، من المديح والإطراء، وإن هذا المديح والإطراء له ما يبرره من وجهه نظره هو، وسبب ذلك أن الرجل لم يكن بوسعه فعل ذلك عن طريق التماس الأعذار. ومن الضرورى أيضًا للمؤرخين الذين يقل التزامهم بالسرية، أن توضع التفاصيل أمامهم واضحة وبيّنة، نظرًا لأن التأريخ للاحتلال البريطانى لا يمكن أن يساوى الورق المكتوب عليه ما لم يسجل هذه التفاصيل البيّنة الواضحة.

فى الأول من يونية اعترف الجميع بفشل سياسة التخويف عن طريق التهديد، حتى وإن كان ذلك التهديد مصحوبًا أو مسنودًا بوجود الأساطيل. كانت وزارة محمود سامى البارودى قد استقالت بالفعل، لكن هذا النجاح المبدئى سرعان ما تبعته خيبة وارتباك كاملين. كان الإنذار المقدم يطالب بحتمية مغادرة عرابى لمصر، والأمر لم يقف عند حد عصيان عرابى لذلك الإنذار ورفضه، لأن الخديو اضطر تحت ضغط المناداة الشعبية إلى إعادة عرابى وزيرًا للحربية، وبسلطات أوسع من السلطات التى كانت مخولة له من قبل، وبمزيد من التشريف والتوقير. وهنا وجدت وزارة خارجيتنا نفسها فى موقف يحتم عليها إما سحب كلامها

الأجوف بطريقة علنية تمامًا، أو أن تستغل هذا الكلام ضد إنسان أصــبح معروفًــا على مستوى أوروبا كلها باعتباره بطلا وطنيا. كما أن فرنسا رفيــق حكومتنــا أو وزارة خارجيتنا فى هذا الأمر، كانت قد كشفت منذ زمن طويل عن رغبتهــا فــى الخروج من هذه المغامرة والابتعاد عنها، الأمر الذى جعــل حكومــة جلادســتون تتصرف وحدها، إذا ما أرادت مواصلة ذلك الذى تريــده، وبطريقتهــا الخاصــة. والأسلوب الذى استقر الرأى على اتباعه يعد واحدًا من أغرب الأساليب أو الخطط التى يمكن أن تلجأ إليها حكومة متحضرة فى العصر الحالى، وتعد هــذه الخطــة أيضًا آخر ما كنا نتوقعه من حكــومة يعد جلادستون رئيسًا لوزارتهــا. كانــت الخطة تقضى بطــلب العون من السلطــان، وأن تطلب منه الحكــومة التدخل لــ "إزاحة عرابى والتخلص منه"، لا من منطلق ممارسته لسلطاته فقط، أو عن طريق تحريض العثمانيين الذين يطلق عليهم اسم "الجندرمة" Gens D'armes الذين ســبق الحديث عنهم، وإنما باستخدام واحدة من تلك المؤامرات العثمانية القديمة المعروفة التى تقوم على الغدر والخيانة، والتى شاع استعمالها من قبل البــاب العــالى فــى تعامله مع الرعايا المسيحيين والرعايا الآخرين فى التمردات التى أصابت نجاحًــا كبيرًا ضد الباب العالى.

فى البداية نجد إشارة طفيفة إلى هذه الخطة فى جريدة "بــول مــول"، وقــد وردت هذه الإشارة فى واحدة من المقالات غير الرئيسية، يعود تاريخها إلى اليــوم الخامس عشر من شهر مايو. فى هذا المقال الذى يشرح فيه جون مــورلى، عــن طيب خاطر، سياسة الحكومة الخاصة "بكبح جماح" الخــديو، وأن "عرابيًــا ســيتم التخلص منه خلال وقت قصير جدا". الخطة كاملة لم يجر تــدوينها فــى الكتــاب الأزرق، لكن جرى الكشف عنها بعد ذلك بطريقة ساذجة فى جريدة "بول مــول"، يسهل معها تمامًا وضع النقاط على الحروف. الخطة كما عرفتها فى ذلك الوقــت تقضى بأن يرسل السلطان مبعوثا عسكريا إلى مصر، وأن يكون ذلــك المبعــوث واحدًا من العسكريين القدامى المتحمسين، يمكن أن يرعــب وجــوده الــوطنيين، فيخافون ويترددون فى مسألة مقاومتهم لبريطانيا، أما فيما يتصل بأحمد عرابى إذا لم يمكن إغراؤه بالصعود إلى ظهر إحدى السفن بحيث يجرى إرساله بعد ذلك إلى

إسطنبول، فإن المبعوث العسكرى يوجه له دعوة إلى مؤتمر ودى، ثم يقوم بفتح النار عليه، إذا ما تطلب الأمر ذلك، ليرديه قتيلاً. هذا المقترح كان شبيهًا بالنصيحة التى أسداها كولفن إلى الخديو، والتى تفاخر بأنه أسداها قبل ذلك بحوالى تسعة أشهر، وأنه ليس هناك ما يمنع من اللجوء إليها مرة أخرى. وهنا جرى استدعاء مبعوث عسكرى إلى إسطنبول، وجرى اختيار شخص يدعى درويش باشا Dervish Pasha، وهو رجل صاحب شخصية وصاحب سوابق، مثل أولئك الذين يكلفون بمثل هذه المهام، ثم جرى بعد ذلك إرساله إلى القاهرة.

هذا هو مورلى يصف بامتياز وصول ذلك المبعوث العثمانى الخارجى Deux Ex Machina إلى القاهرة، وصفا حماسيا من خلال فقرة يمتدحه فيها، حيث يقول: "وصلت الأزمة المصرية إلى ذروتها، وأخيرًا يبدو أن هناك رجلاً فى القاهرة قادر على السيطرة على الأحداث. هناك شىء ما مشهور جدا فى وقار درويش باشا الهادى الذى لا يتحرك، هذا الرجل بكل تأكيد هو رجل هذا الموقف. بعد كل التغييرات والالتواءات التى قام بها الدبلوماسيون وبعد الكشف المؤسف عن الضعف فى جانب الممثلين الرئيسيين فى هذه الدراما المصرية، يجىء العثور على إنسان لا يزال رجلا قويا بمثابة غوث كبير، وبخاصة أن هذا الرجل من خلال حضوره الشخصى، يمكن أن يجعل كل إنسان ينحنى أمام إرادته. هذا الرجل لا يفصح عن شىء سوى التأكيد على القوة والسلطة، وليس هناك من شىء سوى إشارة هذا الرجل بين الحين والآخر إلى مذبحة القلعة. درويش رجل حديدى، وقد يتضاءل عرابى تمامًا أمام عينى درويش باشا. مجرد كلمة نابية واحدة كفيلة بأن تجعل رأس عرابى تهوى متدحرجة على البساط، ودرويش قادر على تكذيب عرابى، لا بالمعنى الغربى وإنما بالمعنى الشرقى لهذا المصطلح. يبدو أن الثورة المصرية قد وجدت لنفسها سيدًا فى هذا العثمانى الصارم".

وها هى جريدة "بول مول" تكتب مرة ثانية فى اليوم الخامس عشر عن الموضوع نفسه فتقول: "حياة درويش باشا العملية مليئة بالأحداث التى تؤكد وترسخ الانطباع العنيف الذى يتركه الرجل فى نفس القاهرة. درويش باشا، بلا

منازع، هو أشد جنرالات الجيش العثماني حيوية وأكثرهم تمييزًا. وعلى الرغم من أنه في السبعين من عمره، وعلى الرغم أيضًا من قدرته على نصب مذبحة من المذابح مثل مذبحة المماليك التي أقامها محمد علي باشا نفسه... على الرغم من ذلك كله فإن درويش باشا اكتسب خبرته العسكرية من قتاله للجبليين (أهل الجبل الأسود)، الذين ينظرون إليه بصفة دائمة باعتباره أخطر القادة الذين حاربوهم. في واحدة من نوبات العداء الأخيرة والشديدة (التي وقعت في عام ١٨٥٦) بين الباب العالي وهؤلاء الجبليين (أهل الجبل الأسود)، اخترق درويش باشا بلادهم إلى أن وصل إلى جراكوفو Grakovo، آخر كنتونات الفلاديكات Vladikate، كما كانت تسمي في ذلك الوقت، وقطع الرجل خط انسحاب الفوافود Voivode إلى الجنوب، الأمر الذي جعلهم، يلوذون إلى كهف من الكهوف، هو المخبأ المعتاد الذي يلوذ به الناس عندما يواجهون الغزوات المفاجئة؛ كان ذلك الكهف يقع في مكان يصعب معه الاستفادة من منافع الهجوم المعتادة، وذلك عن طريق إخراج من هم بداخل الكهف بإشعال النار عند مدخله. وبذلك أمكن صد محاولات الأتراك للتقدم بسهولة ويسر، الأمر الذي جعل درويش باشا يدخل في مفاوضات معهم، أسفرت هذه المفاوضات عن استسلام مشروط بالحفاظ على حياة وممتلكات المحاصرين. وتواصلت المعارك التركية، مما أدى إلى استئصال أرواح أفراد عائلة الفوافود كلهم. وسيق الأسرى إلى تربنجي Trebinji حيث ألقي بهم في زنزانة القلعة، بعد ربط الواحد مع الآخر ظهرًا لظهر بحيث إذا قتل واحد لا يبقى الآخر على قيد الحياة ولو للحظة واحدة، من ثقل رفيقه الميت... يزاد على ذلك أن أسلوب عمليات درويش باشا في الحملة التي قام بها مؤخرًا على ألبانيا، ليس معروفًا للناس جميعًا. لقد دخل الرجل ألبانيا لفرض عملية التجنيد التي فشل فيها تمامًا، وعلى الرغم من أنه لقي معارضة عسكرية خفيفة جدا، فإن السواد الأعظم من المعارك التي خاضها كانت أسطورية تمامًا. ومع ذلك نجح في خطة عمليات أخرى، تمثلت في تمركز الرجل في ضياع Estates كبار البكوات، الذين راح يستنزف منهم المال إلى آخر جنيه استطاع اعتصاره منهم، قبل أن ينتقل إلى الضِّياع التالية. وراح الرجل يرسل إلى إسطنبول مبالغ كبيرة من النقود، لكنه لم يرسل مجندًا واحدًا. ونحن إذا ما

أردنا الحكم على المهمة الأخيرة الموكلة إلى درويش باشا، فى ضوء المهام التى كُلِّف بها من قبل، تعين علينا القول: إنه سينجح مع أحمد عرابى مثلما نجح مع الجبليين والألبان... على الرغم من أن المصريين ليسوا محبين للحرب مثل الألبان، لكن بالإمكان أيضًا حل عقدة المسألة المصرية باستعمال السيف".

هذه الأقوال العجيبة، التى إذا ما تذكرها جون مورلى فإن عليه أن يشعر بالخجل والكسوف من الدور الذى أقنعه أصدقاؤه فى وزارة الخارجية أن يلعبه فى صيف ذلك العام، وأن يقوم بدور المدافع عن جرائمهم وظلمهم. ويجب ألا نندهش لاستبعاد الرجل للمسألة المصرية من تاريخه عن طريق كتابة صفحات قلائل عن هذه المسألة. وهذه أعمال عجيبة أيضا من جلادستون الذى لا يستطيع تفسيرها أمام ضميره غير المهنى أو حتى المهنى أيضًا! ولعل طيف خيال دزرائيلى يقف مبتسمًا من وراء ذلك كله!

لم تكن بعثة السلطان الجديدة، من ناحية أخرى، وحسبما رتب لها عبد الحميد، مجرد عمل بسيط من أعمال النذالة والخسة، مثلما تصورت وزارة الخارجية البريطانية. ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن يود، فى حقيقة الأمر، أن يجعل من نفسه مخلب قط للدول الغربية، بأن يقوم هو بأعمالهم الخسيسة والشريرة نيابة عنهم. صحيح أنه كان سعيدًا بذلك التدخل، لكن هذا التدخل يجب أن يكون على بصيرة، إضافة إلى أن الرجل لم تكن لديه صورة واضحة عن الوضع الحقيقى فى مصر، فضلاً عن رغبته التحوط للطوارئ والاستعداد لها. كان عرابى لا يزال له أصدقاء فى البلاط، يمثلونه باعتباره مدافعا عن الدين فى القاهرة، وأنه لا يثق فى توفيق باشا أو فى عبد الحميد. كان عبد الحميد لا يزال يود استبدال حليم بتوفيق، وكان الرجل يتبع فى ذلك أسلوبه المعتاد الذى يقضى بإقصاء عميل عن طريق عميل آخر، وأضاف السلطان إلى تعيينه درويش باشا مفوضا عاما، تعيين مفوض ثان يناسب أحمد عرابى ويروق له، وهو الشيخ أحمد أسعد Assad، أحد مشايخ الطرق الصوفية فى المدينة (المنورة)، الذى كان يقيم فى إسطنبول، وكان من عادته استخدام هذا الرجل فى تعاملاته السرية مع الرعايا الناطقين باللغة العربية،

بأن كان يستشيره فى كل الأمور المتصلة بدعايته الخاصة بالجامعة الإسلامية. وبذلك ومن باب المصادفة أن كانت البعثة العثمانية عندما وصلت إلى الإسكندرية، تحمل طابعين فى حقيقة الأمر: الطابع الأول هو التهديد المتمثل فى وجود درويش باشا، أما الطابع الثانى فيتمثل فى المصالحة المتمثلة فى وجود الشيخ أسعد. كانت مهمة ذلك الأسعد تتمثل فى إبلاغ السلطان بحقيقة المشاعر العربية فى مصر، وبخاصة مشاعر علماء الأزهر، وكان الشيخ أسعد قد جرى تزويده بشفرة خاصة، لا يعرفها درويش باشا، ويستخدمها فى مراسلة سيده السلطان. عرف عرابى هو وزملاؤه أخبار هذه البعثة، وكانوا يرون أنها ليست فى صالحهم بالمرة، وكان الطرفان يعربان عن سرورهما بوصول البعثة. كان الأتراك والشراكسة مسرورين لظهور درويش باشا، وكان المصريون مسرورين لوصول شيخ المدينة (المنورة).

قام كل من الخديو توفيق باعتباره رئيسًا للدولة، وأحمد عرابى باعتباره رئيسًا للحكومة، بإيفاد ممثليهما إلى الإسكندرية لاستقبال البعثة، كان ذو الفقار باشا ممثلاً للخديو، فى حين كان يعقوب باشا سامى، وكيل وزارة الحربية، ممثلاً للوزارة، وجرى استقبال المبعوثين استقبالاً طيبًا. كان عرابى، قد كلف عبد الله النديم الخطيب أيضًا، بالذهاب قبل ذلك بأيام قلائل إلى الإسكندرية، لإعداد الرأى العام، حتى يستقبل المبعوثين استقبالاً فيه شيء من النفاق، وأن يحتج النديم، فى الوقت نفسه، احتجاجًا شديدًا على الإنذار الذى قدمه أخيرًا كل من ماليت ورفيقه الفرنسى. وعليه، وعندما جرى تجهيز الموكب للمرور فى الشوارع قاصدًا محطة السكة الحديد، ولما كان مع كل مبعوث من المبعوثين فى عربته الخاصة ممثلاً من الممثلين، كان هناك صياح وابتهاج عام من جانب الجماهير التى كانت تهتف قائلة: "الله ينصر السلطان" وكانت الجماهير تهتف أيضًا "اللائحة مرفوضة مرفوضة" بمعنى: الإنذار مرفوض، مرفوض! وكانت الجماهير تهتف أيضًا "أبعدوا الأسطول!" هذا الصياح وتلك الهتافات كان لها تأثير قوى على المبعوث الرئيسى، فقد جعلت درويش باشا يلزم الحذر. فى الإسكندرية وفى القاهرة أيضًا استقبل

المبعوث العام فى الصباح وفوذا من الأعيان والتجار والمسئولين، وكان الرجل يرد على أسئلة الجميع بإجابات عامة. السلطان سوف يحقق العدل، وأنه هو، أى درويش، إنما جاء لاستعادة النظام أو سلطة السلطان. ولم يخبر درويش باشا أحدا غير الأتراك بأن أحمد عرابى سوف يرسل إلى إسطنبول على وجه السرعة، وقال للمصريين أيضًا إنه يود أن يرحل الأسطول على وجه السرعة. وراح الشيخ أسعد من ناحية أخرى وعلى انفراد، يؤكد لعرابى أن السلطان لا ينوى به شرًا.

وفيما يتصل بالموقف المنطوى على الدجل الذى عزته وزارة خارجيتنا لدرويش باشا، والذى أشار إليه مورلى بكثير من الفخار مثلما ورد فى المقطوعة السابقة، نجد أن هذا الموقف لم يكن من المواقف المحددة تمامًا. سبب ذلك أن درويش كان رجلاً كبير السن، ومعنيًا بملء جيوبه أكثر من الدخول فى صراع شخصى مع الفلاح البطل. كان توفيق باشا قد جمع مالاً مقداره ٥٠٠٠٠ خمسون ألف جنيه إنجليزى على سبيل "البقشيش" ، وقدم أيضًا هبات قيمتها ٢٥٠٠٠ جنيه إنجليزى على شكل مجوهرات، الأمر الذى أدى إلى وقوف الرجل إلى جانب الخديو، لكنه لم يقم بأية محاولة جادة لإحداث انقلاب على عرابى، وعندما حاول ذلك استطاع الوطنيون أن ينقلوا له خطورة الموقف. وفى يوم الجمعة التالى لوصول درويش باشا إلى القاهرة قام بجولة فى المساجد، وأعرب عن ضيقه من تجرؤ بعض العلماء، الذين قدموا له وهو يغادر الأزهر، التماسًا، بل إن الهيئة الرئيسية للعلماء زارت الرجل فى عصر اليوم نفسه وعبروا له عن آرائهم بحرية لم يعهدها من قبل. كل هؤلاء المشايخ – باستثناء الشيخ العباسى، شيخ الإسلام الأسبق – بما فيهم الشيخ البحراوى والشيخ الأبيارى والشيخ السادات، الذين كانوا يناصرون قضية الخديو، أعلنوا تأييدهم لعرابى بقوة، وحثوه على رفض الإنذار، وبخاصة تلك الفقرة منه التى تطالب بنفى عرابى. وهنا طلب منهم درويش باشا الإمساك بألسنتهم، قائلاً لهم: إنه جاء لإصدار أوامر، وليس للاستماع إلى النصح والإرشاد، ثم طرد المشايخ كلهم، وحيا شيخ الإسلام هو والمنشقين الآخرين، ومنحه وساما عثمانيا.

لقد تجلى الشعور الشعبى عقب ذلك مباشرة، على نحو لم يخطئـه درويـش باشا، حيث عاد مشايخ الأزهر من اجتماعهم وهم غاضبون، وأبلغوا الجميع عقـب عودتهم بالمسار الذى تسير فيه الأمور، وفى مساء اليـوم نفسـه جـرى إرسـال مندوبين بواسطة الزعماء الشعبيين إلى المديريات، عن طريق القطارات المسائية، لتنظيم احتجاج. وجرى عقد اجتماعات خاصة شديدة الطابع فى القاهرة فى أثنـاء الليل، وراحت تلك الاجتماعات تستنكر مجيء المبعوث، وفى صبيحة اليوم التالى، المصادف ليوم السبت، عقد اجتماع عاصف للطلاب فى الجامع الأزهر احتجاجًـا على الإهانة التى وجهت للمشايخ. ودُعِى عبد الله النديم إلى الجامع الأزهر ليخطب فى الناس من فوق منبر الأزهر، وقام الرجل بهذا الدور بطلاقته المعتـادة، وممـا ترتب على ذلك أن التقرير الذى نشر عن هذه الخطبـة أدى إلـى زعزعـة ثقـة درويش بنفسه، فعقب وصول أنباء هذه الخطبة إليه أرسل فى طلب أحمد عرابـى الذى كان يرفض مقابلته حتى ذلك اليوم، كما أرسل فـى طلـب محمـود سـامى البارودى أيضًا، وتحدث إليهما من خلال مترجم فى مسألة الصلح، وكان بـصحبته أيضًا الشيخ أسعد Assad الذى راح يسانده أيضًا باللغة العربية. فى هذا الاجتمـاع، وعلى الرغم من أنه لم يقدم القهوة أو السجائر (وقد لاحظنا أن ذلك كـان متعمـدًا) ووقف منهما موقفًا لا يتسم بالود أو الصداقة؛ فإنه أجلسهما بجانبه وشـرح لهمـا الموقف بصراحة تامة، فقال درويش باشا: "نحن هنا جميعًـا إخـوة. كلنـا أبنـاء السلطان. وأنا بلحيتى البيضاء يمكن أن أكون أبًا لكم جميعًا. نحـن جميعًـا هـدفنا واحد، وهو معارضة الأسطول ورحيله، الذى يعد عارًا وفضيحة عنـد الـسلطان وتهديدًا لمصر. نحن جميعًا يتعين علينا العمل سويا لتحقيق هذا الهدف، وأن نكشف عن حماسنا وحبنا لسيدنا". وقال مخاطبًا عرابى: "وذلك عن طريق تنازلـك عـن سلطتك العسكرية لتكون فى يدى – من الناحية النظرية فى أضـعف الأحـوال – وسفرك إلى إسطنبول لكى تشرح صدر السلطان". ورد عليه عرابـى بأنـه علـى استعداد للتنازل عن القيادة. لكن نظرًا لتوتر الموقف، ونظرًا أيضًا لأنـه يتحمـل مسئولية كبيرة فى المحافظة على النظام، فإنه لن يوافق على أى حل من الحلـول الوسط، وإنه إذا استقال فإن تلك الاستقالة ستكون قولاً وفعلاً، لكنه لن يقوم بذلك إلا

بناء على بيان تنحية مدون ومكتوب. يزاد على ذلك، أنه لا يعد مسئولاً عن الأشياء والأمور التى جرى اتهامه بها والتى هو منها براء. لقد اتهموه اتهامًا باطلاً بالقيام ببعض الأعمال الاستبدادية، اتهموه بالفساد والاختلاس وأمور أخرى، وأنه لن يترك مكتبه إلا بعد حصوله على تبرئة كتابية وأن يبرئ المشتكون ساحته. وقال أيضًا: إنه سوف يؤجل رحلته إلى إسطنبول إلى أن تستقر الأمور، ثم يذهب بعد ذلك باعتباره مسلمًا لأداء فريضة الطاعة والولاء للخليفة. لم يكن درويش باشا مستعدًا لتقبل إجابة من هذا القبيل، فلم يقبلها أو يستلطفها، ومن ثم تغير لون وجهه، لكنه قال: "دعونا نقول إن الأمر قد جرت تسويته". ثم أشار إلى الاضطرابات التى حدثت فى الإسكندرية، وأضاف قائلاً: "سوف تبرق حالاً لعمر باشا لطفى [مدير الإسكندرية] وإلى قائد الحامية الموجودة فى الإسكندرية، وتبلغهما أنك تنازلت لى عن مهمتك، وأنك تعمل معى بصفتك مساعدًا لى، وفى يوم الاثنين سيجرى عقد اجتماع لكل من القنصلين والخديو، وفى ذلك الاجتماع سنعطيك ما يبرئ ساحتك". ومع ذلك، رفض عرابى الموافقة على ما قاله درويش باشا، وأعلن أنه إلى أن يتم حصوله على هذه التبرئة، سيظل محتفظًا بمنصبه وبمسئوليته. وعليه، ودون تفاهم محدد بينهما، انصرف أحمد عرابى ومعه محمود سامى البارودى.

هذا هو ما حدث، وأنا أظن أنه صحيح، وقد جاء ذلك على لسان نينيه، وأيده آخرون ممن عرفوا تفاصيل هذا اللقاء. حدث ذلك اللقاء قبيل ظهر يوم السبت، المصادف لليوم العاشر من يونية، وهذا الذى حدث له أهمية خاصة من نواحٍ كثيرة، وبخاصة لصلة هذا الكلام الوثيقة بما حدث بعد ذلك فى اليوم التالى المصادف لليوم الحادى عشر من شهر يونية فى الإسكندرية. فى صباح ذلك اليوم سيئ السمعة، قامت مظاهرة نشأت أصلاً من شجار دار بين حمَّار مصرى ورجل مالطى؛ ووقعت هذه المشاجرة عند الساعة الواحدة تقريبًا قبل الظهر واستمرت إلى الساعة الخامسة، الأمر الذى أسفر عن مقتل ما يزيد على مائتى شخص، بما فى ذلك، صف ضابط من البارجة "سوبريت" لصاحبة الجلالة؛ كما قتل فى هذه المشاجرة أيضًا حوالى مائتى أوروبى. يزاد على ذلك أن كوكسن Cookson القنصل الإنجليزى أُصيب هو الآخر إصابة خطيرة، كما أصيب أيضًا كلٌ من

القنصل اليونانى والقنصل الإيطالى بإصابات طفيفة، ولم تنفض تلك المشاجرة إلا بعد وصول القوات النظامية . كان ذلك أول فصل من فصول العنف الشعبى، طوال أعوام الثورة فى مصر، وانتشرت أنباؤها فى سائر أنحاء أوروبا عن طريق البرق؛ هذه الأنباء تسببت فى إثارة المشاعر فى إنجلترا بصفة خاصة.

فيما يتصل بالمسئولية عن هذا الاضطراب، الذى كان نذير شؤم على القضية الوطنية فى مصر، فقد ألقيت على كاهل الرجل الذى أضرت به أبلغ الضرر، وهو عرابى، ونظرًا لأن وزارة خارجيتنا هى والإمبريالية قد استغلتا هذا الحادث، هو ومبررات أخرى ظالمة، فى ضرب الإسكندرية بالقنابل وفى الحرب التى تلت ذلك، فإن الذريعة كانت تقوم على أن "مصر فى حالة من الفوضى"، وهنا يتعين علينا قبل أن نمضى قدمًا فيما نحن فيه حاليا، أن نضع المسئولية على أكتاف أولئك الذين تسببوا فى هذه الجريمة. عندما بلغتنى هذه الأخبار فى لندن، قلت: إن هذا الذى حدث إن لم يكن هو ما قالته الصحف، فإنه لا بد أن يكون دورًا من أدوار المؤامرة، التى جرى تدبيرها من خلال درويش باشا فى وزارة الخارجية، استهدافًا لخداع عرابى والإمساك به، لكننى لم أستطع الوقوف على التفاصيل كلها إلا بعد الحرب، ولو كان بوسعى لفنَّدت الاتهامات الزائفة التى ألصقت بالوطنيين بعد ذلك بوقت قصير، من أنهم هم الذين دبروا هذه المؤامرة ونفذوها. الحقيقة كانت على العكس من ذلك كله تمامًا. ونحن جميعًا نعرف من هم الذين كانوا يعملون فى السر فى ذلك الوقت، وقت العراك. وعلى الرغم من أن هذه المؤامرة بدت مفاجئة؛ فإنه كان قد سبق التجهيز لها قبل بضعة أسابيع عن طريق مجموعة الخديو، باعتبار أن هذه المؤامرة يمكن أن تسىء فى اللحظة المناسبة إلى سمعة عرابى باعتباره رجلاً غير قادر على المحافظة على النظام فى بلاده.

كانت الأحوال فى الإسكندرية على النحو التالى: كانت الإسكندرية، دون سائر بلدان مصر كلها، مدينة أوروبية إلى حد بعيد، وكان يسكنها مع المسلمين بعض من المستوطنين اليونانيين والإيطاليين والمالطيين، وكلهم كانوا يعملون بالتجارة، وكان كثير منهم من المرابين. وكانت المودة قد توطدت بين هاتين

الطبقتين منذ زمن بعيد، وأدى وصـــول الأســاطيل، بذريعـــة حمايـــة المــصالح الأوروبية، إلى تلويث المشاعر الطيبة. كان الأمر يتطلب مزيدًا من الولاء والحزم واللياقة والذوق من جانب مدير المدينة وهو يحافظ على النظام، ويتطلب أيضًا من جانب الأسطول المزيد من التعقل والحذر. ومن سوء الطالع، أن مدير الإســكندرية عمر باشا لطفى، كان واحدًا من المعارضين تمامًا للوزارة الوطنية. عمــر باشــا لطفى هذا كان شركسيًا، أى عضوًا من أعضاء الحاشية، وعميلاً من عملاء الخديو السابق إسماعيل. وفى زمن حدوث المؤامرة الشركسية، كان عمر باشا لطفى قــد أسدى إلى توفيق خدمة عندما دخل فى عملية الاتــصال بالبــدو، وبخاصـــة بــدو الصحراء الغربية، أملاً فى أن يكسبهم إلى جانب الخديو. وبذلك يكون الرجل قــد شجع، بدلاً من أن يقمع، عنصر الاضطراب فى السكان المسلمين. علــى الجانــب الآخر، بدأ اليونانيون يسلحون أنفسهم، وذلك بمساعدة من رئيس جــاليتهم المــدعو أمبرواز سينادينو Ambroise Sinadino، الذى هو رجل مـــن رجـــال المــصارف الأثرياء، وكان أيضًا عميلاً لآل روتشيلد فى مصر. أما الجالية المالطيـــة، وهـــى أكبر عددًا من الجالية اليونانية، فقد فعلت الشىء نفسه من خـــلال تــستر كوكــسن Cookson القنصل الإنجليزى عليها. وهنا يمكن القول إن الأمور كلها كانت توحى بالاستعداد للقيام بمظاهرة كبيرة فى الأسبوع الأخير من شهر مايو، تحــسبًا لتلــك "الحرب الأهلية" Civil War، والتى يجب ألا يغيب عنا أن جريدة "بول مول" ســبق أن تنبأت بها، باعتبارها بديلاً متفقًا عليه، إذا ما رفضت الحكومة الوطنيـــة تقــديم استقالتها، وإذا لم يوافق عرابى على عملية إخمادها.

ليس هناك من شك فى أن الاضطراب، باعتباره دليلاً على الفوضى، كـــان البعض ينظرون إليه أو يتطلعون إلى حدوثـــه وبخاصـــة القـــائمون علـــى أمـــر دبلوماسيتنا فى القاهرة. هؤلاء الدبلوماسيون كانوا يرون أن الاضطراب ليس فـــى مصلحة سياسة "القمع" التى يمارسونها. يزاد على ذلك أن عمر باشا لطفى كانت له مصلحة شخصية فى قمع عرابى، وأن هذا الأمر ليس من الصعب إثباته أو التدليل على صحته. البرقيات التى أرسلت فى ذلك اليوم، أى قبيل تقديم الإنـــذار، تـــورد قائمة بالوزارة الشركسية والخديوية الصرفة، التى يجـــب أن تحـــل محـــل وزارة

محمود سامى البارودى فى حال استقالتها، هذه القائمة تضم من بين الأسماء اسم عمر باشا لطفي على أنه سيخلف أحمد عرابى في وزارة الحربية. هذا الإعلان لم يكن بلا أساس، نظرًا لأننا عرفنا بعد أيام قلائل أن عمر لطفي جرى استدعاؤه، في حقيقة الأمر، بواسطة الخديو توفيق في قصر الإسماعيلية وأعطيت له هذه الوظيفة(١٣). وجرى تسليم الإنذار في اليوم الأول من شهر يونية، واستقال الوزراء في اليوم الثاني، بعد أن بقوا يومًا نظرًا لأن الخديو كان قد أبلغهم بأنه سوف يبرق أولاً لإسطنبول لطلب النصيحة، في حين أنه عندما جاءوا إليه في اليوم التالي، أبلغهم أنه قرر قبول الإنذار على الرغم من أنه لم يتلق ردا من إسطنبول. ونحن، من جانب آخر، عندما نعرف أن الخديو اضطر في اليوم الثالث من شهر يونية، تحت ضغط التظاهر الشعبى لصالح عرابى، وبتأييد ومساندة من القنصلين الألمانى والنمساوى اللذين كانا يريان أن عرابيًا هو أقدر الرجال على المحافظة على النظام في مصر، اضطر إلى إعادة تعيين عرابى وزيرًا للحربية، مما خيب آمال عمر لطفي والوهم الذى كان يعيش فيه، والذى مفاده أنه كان يود أن يقدم دليلا عمليا على فشل ما ذهب إليه القنصلان الألمانى والنمساوى.

ولدينا أيضًا علاوة على ذلك دليل آخر مفاده أن الخديو لقى رفضًا وصدًّا لا يقل بحال من الأحوال عما لقيه عمر لطفى، فقد أرسل برقية إلى عمر لطفي نصها كالتالي: "لقد ضمن عرابى النظام العام، وقد نشر ذلك في الصحف، وجعل نفسه مسئولاً أمام القناصل وإذا ما نجح عرابى فى هذا الضمان فسوف تثق به الدول، وسيضيع احترامنا واعتبارنا. يزاد على ذلك أن الأساطيل موجودة في مياه الإسكندرية، وأذهان الناس مضطربة ومنفعلة، كما أن المشاجرات ليست أمرًا بعيدًا بين الأوروبيين والآخرين. وعليه يجب أن تختار بنفسك ما إذا كنت ستخدم

---

(١٣) أوردت صحيفة "بول مول" الصادرة في الثامن والعشرين من مايو ما يلى: "القاهرة، فى ٢٧ مايو، اجتمع عمر لطفى وشريف باشا وراغب باشا وسلطان باشا رئيس مجلس النواب عند ظهر ذلك اليوم فى قصر الإسماعيلية ... وسوف تكون رئاسة المجلس لشريف باشا على الأرجح أو عمر باشا لطفى.... وسيكون عمر باشا وزيرًا للحربية".

الضمان الذى قدمه عرابى أم ستخدمنا نحن". وعقب ذلك التلميح قام عمر لطفى على الفور باتخاذ إجراءاته. وعمر لطفى باعتباره مديرًا مدنيا، كان من بين سلطاته تولى قيادة ما يسمى المستحفظين Mustafezzin، والمقصود بالمستحفظين هم قوات الشرطة شبه العسكرية فى مدينة الإسكندرية، ومن خلال هؤلاء المستحفظين راح عمر باشا لطفى يصدر تعليمات تقضى بجمع النبابيت(*) Nabuts فى مراكز الشرطة، حتى يجرى استلامها فى الوقت المناسب. واتخذ الرجل أيضًا بعض الترتيبات الأخرى لإحداث نوع من الاضطراب. وهناك المزيد من الأدلة، منشورة فى الكتب الزرقاء، تفيد أن الشرطة كانت ضالعة فى ذلك الأمر، على الرغم من الخلط الذى يحدثه دومًا أصحاب هذه الأدلة، بين قوة المستحفظين وبين القوات النظامية، ويدخلون المستحفظين ضمن القوات الشرطية النظامية، ويصفون قوات الشرطة بأنهم جنود. هذا يعنى أن القوات النظامية لم تكن تحت قيادة القوات المدنية وإنما كانت تحت قيادة الحكام العسكريين، ولم تشارك فى هذا الاضطراب إلا بعد استدعاء عمر لطفى لها فى ساعة متأخرة، عندما وجد أن المظاهرات وصلت إلى حدود لا قبل له بالسيطرة عليها أو التحكم فيها. ويجب أن نلاحظ هنا أيضًا أن السيد قنديل، رئيس المستحفظين، وهو أحد الموالين تمامًا لعرابى، رفض المشاركة فى أحداث ذلك اليوم، متعللا لعمر لطفى بالمرض فى ذلك اليوم.

هذا يعنى إن الاضطراب والمظاهرة جرى التجهيز لها بالفعل، كى تبدأ عندما يصل درويش باشا ورفيقه المبعوث فى اليوم الثامن من يونية إلى الإسكندرية. والأرجح أن هذه المظاهرة كان مجهزًا لها أن تتزامن مع مؤامرة إلقاء القبض على أحمد عرابى، وأن تثبت لمبعوث السلطان أكثر من أى أحد آخر، أن عرابيا لم يكن قادرًا على المحافظة على النظام فى البلد الذى يطالب به. من ناحية أخرى، أنا لست مقتنعا مطلقًا أن درويش باشا كان على جهل بما يدور، وأرجح أن هذا الرجل سبق له معرفة ذلك الذى يدور قبل التقاء أحمد عرابى، وأنه لو نجح فى جعل أحمد عرابى يتنازل عن مسئوليته، لأمكن مواجهة التظاهر والإضراب.

(*) النبابيت: بتشديد الباء وضمها، عبارة عن عصا غليظة طويلة، قد تنتهى بقطعة من الحديد. (المترجم).

الواقع أن ذلك التظاهر حدث قبل الموعد المحدد، وأن الفرصة السانحة لذلك التظاهر، والمتمثلة فى العراك الذى دار بين الحمَّار المصرى والرجل المالطى، كانت مسألة عارضة، لكن الأرجح أن الشرطة لم تتلق أوامر مضادة، ولذلك رُئى أن تسير الأمور على ما هى عليه طبقًا للبرنامج الموضوع. ومن المؤكد أن كلا من الخديو هو وعمر لطفى، وكون الأول فى القاهرة والثانى فى الإسكندرية، احتكرا الاتصالات التلغرافية بين المدينتين، إلى حد أن عمر لطفى كان يتنصل بعذر أو بآخر ومن ساعة لأخرى، من استدعاء العسكريين الذين لا يمكن لهم التحرك دون أوامر منه، باعتباره الحاكم المدنى فى حال التظاهر، وأن القصر كان ينظر إلى هذا الحدث باعتباره أمرًا مبهجًا ومفرحًا، فى حين كان عرابى هو والوطنيون ينظرون إلى ذلك الحدث باعتباره أمرًا مؤسفًا. زد على ذلك، وهذا أمر مهم أيضًا، أن اللجنة التى جرى تعيينها من قبل الخديو لتحرى أسباب ذلك التظاهر والإضراب، كانت مشكلة من مناصرى الخديو وزبانيته، كما تأكد الخديو أيضًا من انعدام فعالية هذه اللجنة، بالاكتفاء بقيامها بإلقاء الضوء على المثيرين الحقيقيين لذلك التظاهر، كما جعل عمر لطفى رئيسًا أيضًا لهذه اللجنة. يزاد على ذلك أن العلاقة بين عمر لطفى والخديو توفيق واضحة ومبينة، فى الحقيقة التى مفادها، أنه فى الوقت الذى سمح له بالتغيب عندما ثارت من حوله الشكوك بين القناصل؛ فإنه لم يظهر إلا بعد ضرب الإسكندرية بالقنابل، ثم انضم إلى الخديو، وحصل على المنصب الذى كان يريده وهو وزير الحربية. وقد شغل عمر لطفى هذا المنصب حتى مايو عام ١٨٨٣، عندما رفع عليه اللورد راندولف تشرشل Randolph Churchill قضية هو والخديو فى البرلمان، الأمر الذى اضطر الرجل إلى التقاعد فى نهاية العام. وهناك أدلة أكثر من ذلك على تواطؤ هذين الاثنين فى ملحق هذا الكتاب.

ما زالت هناك فى هذا الأمر الخطير نقطة تحيرنى كثيرًا، وهى مسألة تحديد المسئولية تحديدًا دقيقًا فيما يتصل بممثلينا فى كل من القاهرة والإسكندرية. ففى البرقيات التى أرسلها ماليت، نجد بعض المقطوعات التى توضح وتثبت أن الرجل كان يتطلع، فى ذلك الوقت تقريبًا أو عندما جرى أخذ الاضطرابات بعين الاعتبار

أول مرة، إلى حل مصاعبه الدبلوماسية عن طريق العنف، وليس هناك من شك فى أن ذلك كان ديدن هذا الرجل منذ وقت مضى، بخاصة عندما كان يجادل فى مسألة الحكومة الوطنية، ويرى أنها سوف تتسبب في الفوضى. ومؤكد أيضًا أن كوكسون كان يتآمر أيضًا عندما سلّح الرعايا المالطيين فى الإسكندرية. وأنا أقول أيضًا إن الفرق كبير جدا بين تسليح المالطيين وبين التواطؤ فى رسم خطة لافتعال مظاهرة من نوع خاص، يزاد على ذلك أن كل ما أعرفه عن شخصية ماليت، وعن تصرفاته فيما يتصل بالمظاهرة، يقنعنى أن الرجل لم يكن على علم بتلك المظاهرة التى كانت تدبر فى الإسكندرية. كان ماليت من المؤمنين بتوفيق باشا، وأنه أمير يمكن الوثوق به، وأنه كان يتقبل الحكايات التى كان ماليت يرويها له، وأنا أعرف أيضًا أن الرجل أزال الغشاوة عن عينيه تمامًا بعد الحرب مباشرة. الشىء نفسه يُقال أيضًا عن كولفن، الذى كان هو الآخر جاهلاً تمامًا بتفاصيل الخطة، مثل جهله تمامًا بما فعله الخديو فى العام السابق فى عابدين، على الرغم من أنه يصعب علينا تصور أن الاثنين، أقصد ماليت وكولفن، لم يستطيعا تخمين حقيقة ما يدور. كان الاثنان قد ربطا نفسيهما بحزب الفوضى، وعندما تصدر هذا الحزب الساحة قبلا ما قاله الخديو توفيق دون تحرٍّ دقيق، لأنهما راق لهما أن يقبلا ذلك الكلام، الذى استفادا منه واعتبراه حجة، كانا بحاجة إليها، فى تدمير الحركة الوطنية فى مصر عن طريق التدخل المسلح، وهذا هو كل ما يتعلق بالجريمة التى ألصقها أنا بهما.

يتعين علىَّ هنا أن أوجز ما حدث بعد ذلك قبل أن أعود إلى مفكرتى مرة ثانية. لم يكن الأثر الناتج عن المظاهرة المفتعلة على النحو الذى يرضى كلا من الخديو وأصدقائه. هذا يعنى أن المظاهرة ذهبت إلى ما هو أبعد من المحدد لها، وصلت إلى الحد الذى كان لا بد معه من تدخل القوات النظامية (الجيش)، وبدلاً من خذلان عرابى راح الجيش يخيف المقيمين من سكان مناطق البحر المتوسط (الليفانت)(*) فى الإسكندرية، إلى الحد الذى جعل هذه الجالية الضعيفة تنظر إلى الجيش باعتباره حاميها الأوحد. أجمع القناصل كلهم على هذا الرأى باستثناء

(*) الليفانت: سكان البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط. (المترجم)

القنصل الإنجليزى، وأدى النجاح الذى أصابه الجيش فى حفظ النظام فى الإسكندرية والقاهرة إلى زيادة نفوذ عرابى. وأنا على يقين من أنه، وعلى الرغم من أن ذلك كان فى ساعة متأخرة من النهار، لو كان عرابى حاكما قويا بحق، أو لديه القدرة على الحكم على الرجال واغتنام الفرص، أو باختصار، لو كان عرابى رجل أعمال، ولم يكن ما كان هو عليه، مجرد شخص حالم، لكسب اللعبة الدبلوماسية من خصومه. وعلى الجانب الآخر، كان هذا هو السبب وراء استنكاره ومعاقبته لأولئك الذين قاموا بالمظاهرة؛ وكان لا بد للرجل أن يثبت وبذراع قوية أنه هو السيِّد فى مصر، وأن من سيجرؤ على الإخلال بالنظام سيتحمل عاقبة عمله. وبعد ذلك، كان يمكنه التحدث مع السلطان ومع أوروبا حديث رجل قوى؛ وبالتالى كان لا بد من أخذ ذلك الحديث مأخذ الجد. لو حدث ذلك لتصرفت حكومتنا فى إنجلترا، والتى لم تكن حكومة أبطال منذ البداية، شأنها شأن بقية الدول. ومن سوء طالع الحرية أن أحمد عرابى لم يكن ذلك الرجل القوى، وإنما كان مجرد حالم إنسانى كما سبق أن قلت، ولم يكن فيه من العناد والإصرار سوى الشيء القليل، والمعروف أن الإصرار والعناد هما أمران مهمان فى تحقيق أهداف هذا الرجل. كان أحمد عرابى جاهلاً تمامًا بأوروبا، أو بالأحرى جاهلاً تمامًا بفنون الدبلوماسية وألاعيبها، وهذا أدى إلى ضياع الفرص منه، وضاعت منه أيضًا اللحظات المناسبة، وسرعان ما نجد أن الأوروبيين الذين أخافهم كل من ماليت وكولفن، اللذين كانا يلعبان دورًا مزدوجًا مع أحمد عرابى، بأن جعلاه يحافظ على النظام والأمن، فى الوقت الذى كانا يجهزان فيه لضرب الإسكندرية بالقنابل، أصبحوا لا يثقون بالرجل، وبذلك تضيع الفرصة من بين يديه. واعتبارًا من تلك اللحظة ضاع الأمل فى الوصول إلى حل سلمى، وراح السير بوشامب سيمور Beauchamp Seymour يلعب مع عرابى لعبة الذئب والحمل . وكان سيمور قد أقسم على الثأر من السكندريين لمقتل خادمه الخاص، المدعو ستراكت Strackett، الذى قُتل فى أثناء المظاهرة، وأعقب ذلك مباشرة قصف الإسكندرية بالقنابل. وأنا أقول: لو كان هناك رجل أعظم من عرابى لساعده على اجتياز هذه المرحلة الخطرة. لكن واقع الأمر أن عرابى لم يكن سوى فلاح نابه، لديه قلة قليلة من

الأفكار الطيبة، ولذلك فشل فيما كان يود القيام به. ومع ذلك، فالرجل لا ذنب له في اللوم الذي ألقي عليه من قبل إخوانه المواطنين، ولم يحاول أحد منهم أن يفعل ما هو أحسن مما فعله عرابي(١٤).

أعود ثانية إلى مفكرتي:

في الثالث من يونية

حضرت حفل حرم اللورد جرانفيل في وزارة الخارجية، حيث حضر أهل السياسة كلهم، وكل من كانت تربطهم صلة بوزارة الخارجية، وذلك من باب التباهي والمفاخرة ليس إلا. تحدثت عن الموقف مع ولسلي Wolseley ورولنسون Rawlinson، ومع الوزير المفوض الأمريكي لويل Lowell وآخرين. كما دار حديث طويل بيني وبين السير ألكسندر Alexander وحرم السيد ماليت، اللذين كانا يحنوان عليَّ على الرغم من الشجار السياسي الذي دار بيني وبين ولدهم. يبدو أن الناس مرتاحون للتأجيل الذي طرأ على الأزمة في مصر، لكن ولسلي يخبرني أن السلطان رفض المؤتمر. وكان ابن عم الخديو، عثمان باشا المتين، موجودا في ذلك الحفل، كما حضر الحفل أيضًا كل من أمير ويلز، وأمير أدنبره، والأمير ليوبولد Leopold، ودوق كمبردج، فضلاً عن بعض الأشخاص الآخرين عظيمي الشأن. دهشت عندما وجدت هنري ستانلي Henry Stanley في الحفل أيضًا. قال

---

(١٤) ربما يكون عرابي قد تراجع عن القيام بعمل صريح وعلني ضد عمر باشا لطفي بسبب التضامن القوي الذي كان سائدًا وقتئذ في جميع المشاجرات، بين المسلمين وغير المسلمين من ناحية، وشكوك عرابي في تآمر الخديو من ناحية أخرى، والمعروف أن هذه الشكوك أصبحت حقائق فيما بعد. كان عرابي كارهًا للشجار مع توفيق باشا في ذلك الوقت، نظرًا لأنه قد جرت مصالحته على الخديو، وقبل ذلك بأيام قلائل كان عرابي قد أقسم على حماية حياة الرجل مثل حياته تمامًا. وعليه فضل عرابي، بطريقته الخاصة، إلقاء اللوم على كل من كوكسون وسينادينو، اللذين لم يكونا بعيدَيْن عن دائرة اللوم في حقيقة الأمر؛ وهذا ما سنراه في رسائل صابونجي والوثائق الأخرى الخاصة بالمظاهرة، والتي أدرجتها ضمن الملحق.

هنرى ستانلى إنه معجب بأحمد عرابى بوصفه بطلاً من أبطال العقيدة والإيمان، وإنهم سوف يُرقون الرجل، على أن يبقى هو وتوفيق فى القاهرة. وعليه، فما دام عرابى يمثل آراء إسطنبول فأنا أرى أن الخطر لا يُتَوقَّعُ من هذه الناحية. يبدو أن اللعبة قد انتهت الآن؛ الأمر الذى يمنع وقوع أحداث جديدة.

هذه الإشارة الأخيرة إلى اللورد ستانلى، لها أهميتها. فقد كان صديقًا قديمًا من أصدقائى الحميمين، لكننا كنا مختلفين فى المسألة المصرية. كان ستانلى، قبل سنوات عدة، في زمن اللورد ستراتفورد دى ردكليف، ملحقًا على سفارتنا فى إسطنبول، وكان الرجل قد تشرب وهو فى إسطنبول محبة الأتراك الذائعة عند الإنجليز فى ذلك الوقت. فى العام ١٨٦٠، أى فى أثناء تجوال هنرى ستانلى فى جزر الهند الشرقية، اعتنق الدين الإسلامى، وحدث أن تعرفت عليه بطريقة غريبة للغاية. كنت فى طريقى، فى فصل الخريف فى ذلك العام، من أثينا وإسطنبول إلى إنجلترا، وكنت متجهًا إلى أعالى نهر الدانوب، وصعدت إلى ظهر باخرتنا فى ميناء من الموانئ الرومانية عائلة هسبودار، وبصحبتها رجل إنجليزى غير واضح المظهر تمامًا، بسيط إلى حد ما، فظ السلوك، حسبته مدرسًا أو سكرتيرًا لتلك العائلة. ونظرًا لأن رحلتنا استمرت أيامًا عدة، فقد صادقت ذلك المسافر، ووجدت أنه مهم من منطلق معرفته الدقيقة بالشرق، لكن الرجل لم يخبرنى أو يقل لى اسمه. وعندما وصلنا إلى فيينا، اقترح علىَّ أن يذهب معى إلى السفارة، ثم اكتشفت بعد ذلك من يكون هذا الرجل، وسافرنا سويا إلى مدينة ميونيخ، حيث يوجد أخوه الأصغر ليولف Lyulph ستانلى، الذى كان طالبًا يدرس اللغة الألمانية فى بليول Balliol، وبهذه الطريقة أمكننى التعرف شيئًا فشيئًا على باقى أسرة هذا الرجل. بدأت أتعرف هذا الرجل حق المعرفة، وأنا أنتهز هذه الفرصة لأقول هنا، إنه على الرغم من تطرف أفكار هذا الرجل بلا أدنى شك، فإنه بقى طوال حياته واحدًا من أخلص الرجال الذين عرفتهم فى حياتى وأقلهم حماقة، فهو بصفته مسلمًا كان جادا تماما فى كل الأحوال، وكان متعاطفًا مع أفكارى من نواحٍ كثيرة، لكنه لم يكن يلقى بالاً لتفضيلى العرب على الأتراك، الذين كان يعدهم الزعماء الحقيقيين للإسلام.

وعندما يكون أن لندن تتوثق علاقاته بالسفارة العثمانيـــة، ورأى هـــذا الرجـــل أن الوضع القائم بين السلطان وعرابى له قيمة تاريخية شديدة الأهمية، حيـــث كانـــت أخبار مهمة درويش باشا قد شاعت بين الناس.

فى الرابع من يونية،

الأحد: أمضيته فى كرابت Crabbet. هذا يعد أول يوم من أسابيع لم أشـــغل بالى خلالها بالتفكير فيما يدور فى مصر. وأنا أرى أن الأمر قد جـــرت تـــسويته الآن، ومارست لعب التنس طوال فترة العصر وأنا أحس بالفرح والتهلل. عاد كـــل من ونتورث Wentworths، ونويلز Noels، وفرانك لاســـيلز Lascells، وهنـــرى كوبر Cowper، ومولونى، عادوا جميعًا ومعهم آخرون قادمين من لندن. الطقـــس كان رائعًا".

فى الخامس من يونية

"عدت إلى لندن ثانية... أبلغتنى حـــرم جريجورى أنهـــم مـــستاءون مـــن كولفن، ويعتبرونه غير مناسب للوظيفة التى وضع فيها فى مصر، هذا مـــا قالـــه اللورد نورثبروك Northbrook. أرسل اللورد جرانفيـــل يستـــشير الـــسير وليـــام جريجورى حول هذا الموضوع. ويجب أن نعلم أن حرم جريجورى كانـــت أكثـــر تصلبًا وتشددًا من زوجها مع المسألة الوطنية فى مصر، وإن قاما بعد ذلك بتقـــديم خدمات مهمة لعرابى فى مرحلة لاحقة، وبخاصة فى أثناء محاكمته. كانت الصحف اللندنية فى ذلك الوقت قد شرعت تبدى اهتمامًا غير عادى بالشئون المـــصرية، إذ قام السواد الأعظم من هذه الصحف بإرسال مراسلين خصوصيين لها فى القـــاهرة أو الإسكندرية، وكانت جريدة "الديلى تلجراف" من بين هذه الصحف، والتى تحول مراسلها إلى مراسل عتيد فى الشئون العربية.

في السادس من يونية

جريدة "الديلي نيوز" تجهز نفسها بالفعل لتغيير الوضع الراهن السابق للإنذار، ويبدو أن بقية الصحف ستحذو حذوها، كل الصحف، باستثناء جريدة "التايمز" وجريدة "بول مول"، وهما الجريدتان الوحيدتان اللتان قبلت لهما الحقيقة ولكنهما رفضتاها. على الجانب الآخر، الرأى العام الإنجليزى لا يمكن أن يكون مجرد قشة في مهب الريح... جرى حوار آخر مطول بيني وبين لاسيلز Lascelles، وآمل أن أكون قد غيرت رأيه إلى حد ما. وفي المساء، ركبت مع برترام كورّى Bertram Currie، الذى يراهن على أن عرابى كان بالإمكان القضاء عليه خلال أسبوعين. (ملاحظة مهمة: برترام هو الأخ الأكبر لفيليب Philip كورّى، وهو مصرفي، ومن المؤيدين الأشداء لجلادستون، الذى كانت تربطه به علاقة حميمة. ورأى هذا الرجل يعكس الرأى الذى كان سائدًا في مجلس الوزراء في ذلك الوقت).

في السابع من يونية

زارتني حرم السيد جريجورى وأبلغتني بعض الأخبار. تقول إن اللورد جرانفيل يقول لزوجها إن آماليم حاليا معلقة على المهمة التي كُلف بها درويش باشا من قبل إسطنبول. يضيف جرانفيل: "درويش، رجل جاد تمامًا، وسوف يتخلص من عرابى بصورة أو بأخرى". وأنا أسلم أن ذلك سيكون عن طريق الرشوة[١٥]. الواقع أن اللورد جرانفيل ربما قال ما هو أكثر من ذلك، وربما يعني أيضًا قتله عن طريق "القهوة". وأنا لا أخشى من هذه المسألة؛ ذلك أن هدف

(١٥) ورد في مفكرتي عن عام ١٨٨٨ ما يلي: "٢٢ ديسمبر، القاهرة. ذهبت لتناول طعام الإفطار مع زبير Zebehr باشا... تكلم الرجل كلامًا طيبًا في حق عرابى، وقال إنه كان موجودًا في أثناء الحوار الذى دار بينه وبين درويش باشا، والذى عرض فيه درويش باشا على عرابى مبلغ ٢٥٠ جنيهًا إنجليزيا كل شهر إذا ما ذهب إلى إسطنبول، وكان عرابى قد سبق أن قال لدرويش إنه حتى وإن كان على استعداد لذلك، فإن هناك ١٠٠٠٠ رجل سيقفون بين عرابى وبين البحر، ليحولوا بينه وبين هذه السفرة".

السلطان من استدراج عرابى إلى إسطنبول ليس القتل وإنما الاحتفاظ بالرجل رهينة. وأنا قلق أيضًا لأن صابونجى لا بد أن يصل هو الآخر، فلا يمكن أن أتصور محاولة منعه من النزول إلى أرض مصر، لأنهم يعرفون طبيعة الصلة التى تربطنى بهذا الرجل. وقد وصلتنى من صابونجى مذكرة كتبها لى وهو فى القطار، إضافة إلى الكود المتفق عليه بيننا، والذى يعد عملية لطيفة جدا... التقيت جريجورى بعد ذلك، الذى أكد لى كل ما قالته زوجته عن المقابلة التى جرت بينه وبين اللورد جرانفيل. جريجورى يرى أن كلا من كولفن وماليت لا بد من استدعائهما إلى إنجلترا... وقال أيضًا: إن بمبروك Pembroke يكتب لجون John ما مفاده أن وزارة الخارجية غاضبة تمامًا منى. ما عليك... التقيت أوستن لى Austin Lee، سكرتير ديلك Dilke، في النادى، وسألنى الرجل عن آخر أخبار مصر. قلت: "يقولون إنك ترسل برميلاً من الملح لتضعه على جرح عرابى". رد الرجل على الفور: "أنا أرسل هذا الملح لتخليل هذا الرجل". ... قمت فى المساء بنزهة مع سيريل فلور Cyrill Flower (الذى تزوج واحدة من آل روتشيلد)، ونصحته بأن يبيع سنداته المصرية... وتناولت الغداء مع برترام Bertram الذى وجدت أنه أكثر عطفًا ولطفا. الرجل مؤمن بجلادستون، ومؤمن أيضًا باستقلال أيرلندا. يقول: "من سوء الحظ أن جلادستون يسبق جيله بجيل". وسوف يتعين علينا خلال عشرين عامًا، الاهتمام بشئوننا الخاصة.

كان فريدريك هاريسون Frederic Harrison، قد كتب فى جريدة "بول مول" يحتج على التدخل فى مصر. وجاء مقال الرجل قويا، إذ كان يحمل عنوان: "المال المال يا سيدى"، ثم أتبع الرجل ذلك المقال ببعض الرسائل الأخرى. وقد ندمت تمامًا لأنى لم أتعرف من قبل على هذا الكاتب، الذى هو أدق وأعمق وأشجع الرجال فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فى حزب الأحرار فى ذلك الوقت، بل إنه كان أكثر هؤلاء الرجال حركة وحيوية وإنتاجًا. لو قدر لنا أن نلتقى قبل شهر أو شهرين، فلربما منع ذلك الرجل حدوث الحرب، وسبب ذلك أنه على الرغم من عدم كونه عضوًا فى البرلمان فإنه كان صاحب نفوذ كبير. ومن سوء طالع الموقف الشعبى فى ربيع ذلك العام، أنه لم يكن هناك رجل واحد له وزن فكرى كبير فى الحزب – باستثناء هاريسون – حرًا من الارتباطات الرسمية... فى أثناء

حفل في منزل حرم اللورد سولسبرى تحدثت مع ميلتاون Miltown، الذى كان غاضبًا ومستاء إلى حد ما، ظننت أن استياء الرجل سببه ما أفعله أنا فى مصر، ولم يكن الرجل مؤدبًا فيما يتصل ببرقياتى. كما كان اللورد ستراذنيرن Strathnairn موجودًا، العجوز الذى كان يود القيام "على رأس عشرة آلاف رجل ويقوم بإعدام عرابى". وتحدثت أيضًا مع عثمان باشا وكامل باشا ابنا عم الخديو، ولم يجر الحديث فى المسائل السياسية... كانت بعثة السلطان قد وصلت إلى مصر.

فى الثامن من يونية

وصول برقية من صابونجى تفيد وصوله إلى الإسكندرية، مما قلل إحساسى بالقلق. يقول صابونجى إن اللجنة التركية سافرت إلى القاهرة... رفض هارى براند Harry Brand الحضور إلى حفل التنس الذى أقمته فى مزرعة كرابت إلا بعد أن يفهم ما آلت إليه الأمور فى مصر. أحس وكأن للرجل مبالغ كبيرة فى مصر وأنه سوف يخسر هذه الأموال.

فى التاسع من يونية

نشرت رسالة أخرى من رسائل فريدريك هاريسون فى جريدة "بول مول". وقد كتبت للرجل أعرض عليه الاطلاع على مراسلاتى مع جلادستون. التقيت آل جريجورى. البعثة التركية يجرى استقبالها بنوبات البروجى(*) فى القاهرة، لكننى أتصور أن ذلك إشارة إلى الوصول إلى حل وسط. أرسل صابونجى برقية تفيد أن عرابى أعلن على الملأ والشعب أنه سيقاوم إنزال القوات التركية. لا يزال صابونجى فى الإسكندرية، وهذا هو ما يقلقنى، المفروض أن يكون فى القاهرة. تناولت الغداء فى وينتورث هوس Wentworth House كيما ألتقى السير بارتل Bartel فرير، ذلك الرجل الذكى معسول الكلام.

(*) آلة نفخ موسيقية عسكرية تستخدم فى أداء التحية. (المترجم).

في العاشر من يونية

تناولت الغداء مع السيد جرين وزوجته، وهما من المتعاطفين تمامًا مع مصر. (ملاحظة مهمة: هذا الرجل هو جرين المؤرخ، كانت صحته متدهورة. وأنا مازلت أتذكر تمامًا تعاطفه الشديد معي ومع القضية التي كنت أدافع عنها، كان الرجل يفتقر إلى الفهم الصحيح للمسألة السياسية). أنا أشعر بالقلق ولأول مرة منذ أسبوعين. الصحف المسائية تقول: إن درويش باشا نجح في مهمته، أي إنه استمال جزءًا من الجيش، وأعلن نفسه قائدا عاما، وراح يطلب من عرابي الاستسلام والخضوع. وما لم يقف عرابي الآن وقفة حازمة سيضيع كل شيء. وبعد تفكير كبير أرسلت البرقية التالية إلى صابونجي: "الساعة السابعة مساء. تابع البعثة، ولا تخف من أحد سوى الله ﷻ". يجب أن تكون هذه المتابعة بالشفرة في بعض أجزائها. تتمثل مشكلتي في مسألة عدم ذهاب صابونجي إلى القاهرة، وإلا فلماذا لم يُبرق لي الرجل حول هذا الأمر؟ هل يمكن أن يكون قد حدث ما حال دون ذلك؟... تناولت العشاء في منزل ليولف ستانلي، حيث التقيت برايت وبعض الأشخاص الآخرين. وجدت برايت شديد التعاطف مع مصر، وتبادلت معه أطراف الحديث، قلت للرجل ما يدور بخلدي بطريقة واضحة. المسألة الآن تتمثل في الجرأة من جانب الحزب الوطني. أعتقد أن بعثة درويش جاءت لجس النبض حول هذا الموضوع، وأنه إذا ما وجد الحزب الوطني مصرًا على موقفه فيتعين عليَّ تأييدهم ومساندتهم، وإلا فإن بوسعه سحقهم، إذا ما تمكن من ذلك بمساعدة من الضباط الشراكسة. لكني على ثقة أن الحزب الوطني قادر على سحق درويش باشا، أو إخافته في أضعف الأحوال. هذا يعني أن السلطان لن يستطيع إخماد الحركة الوطنية بالقوة.

في الحادي عشر من يونية

الأحد: استقللت قطارًا مبكرًا إلى مزرعة كرابت. كنت عصبيا تماما وأنا أتصفح الصحف مخافة أن يكون هناك هجوم مباغت. لكن جريدة "الأوبزرفر"

تقول: إن ذلك الهجوم لم يحدث بعد. هناك الأخبار والقصص نفسها التى تتردد عن تودد درويش باشا إلى كل من العلماء والضباط. هذا لا يهم... عند الساعة الثانية حضر كل من الأمير عثمان والأمير كامل، وابن عمهما الفقيه المرافق لهما عارف بك، وبصحبة معلمهم الخاص الإنجليزى لامبيرير، حضروا جميعًا لكي يتفرجوا على خيولنا. وبينما كنا نريهم إياها وصلتنى من صابونجى برقية مشفرة تقول: "القاهرة، الساعة ١٢ صباحًا، من اليوم العاشر من شهر يونيو. لقد جئت توًا من لقاء أحمد عرابى، البرلمان يؤيده، والأزهر[*] يؤيده، والجيش يؤيده، الجميع يؤيدونه باستثناء سلطان باشا هو وشيخ الإسلام. الأمة مصممة على عزل الخديو. الباب العالى لا تعجبه المقترحات الأوروبية. عرابى مصر على أنه لن يكون هناك سلام أو هدوء ما دام ماليت وكولفن موجودين هنا. سيقاوم عرابى الغزو التركى. لن يسافر عرابى إلى إسطنبول. الشيخ عليش أصبح رئيسًا للأزهر. قرر الباب العالى عزل الخديو. راح ماليت يحاول فرض المقترحات الأوروبية على البعثة. خطب عبد الله النديم، فى تجمهر عام قوامه حوالى ١٠٠٠٠ رجل معترضًا على المقترحات الأوروبية ومعترضًا أيضًا على الخديو". لو قدر لأبناء عم الخديو (الأميرين ومرافقيهم)، الذين كنا نستضيفهم قراءة هذه البرقية، لأفسدت عليهم زيارتهم. تشاورنا فى الأمر، سوف نبرق لهم وننصحهم بإعلان الجمهورية فى حال عزل الخديو توفيق. لقد ضاع منى القلق وأصبحت أرى صابونجى كما لو كان بجانبهم.

إن ما أقوله هنا عن الأمير عثمان وعن الأمير كامل فيه كثير من الظلم. هذان الأميران لا يحبان الخديو توفيق، نظرًا لأن والدهما (مصطفى فاضل) جرى طرده من مصر وتجريده من ممتلكاته بواسطة الخديو إسماعيل، هذا فضلاً عن أن الأميرين لديهما قدر كبير من الوطنية. وأبسط دليل على ذلك موقفهما فى أثناء الحرب عندما كانا بين أكثر الناس تأييدًا لعرابى. يزاد على ذلك أن شقيقتهما نازلى هانم بذلت جهدًا كبيرًا لمساعدتنا فى أثناء محاكمة عرابى. كان عارف بك شابًا صغيرًا صاحب قدرات عظيمة، وهو كردى المولد، لكن الدم العربى يجرى فى

(*) فى الأصل كلمة Universty والمقصود بها جامعة الأزهر أو الجامع الأزهر. (المراجع)

عروقه، وهو متعلم تعليمًا جيدًا وصاحب مكانة مرموقة. أصبح عارف فيما بعد سكرتيرًا لمختار باشا في القاهرة، وكان محررًا في إحدى الصحف الأدبية، لكنه ورط نفسه في مختلف أنواع الدسائس، ثم اختفى بعد ذلك. الشخص الرابع في هذه المناسبة هو ذلك التركي المتفرج، أحد أفراد أسرة سلطان باشا، لكن اسمه ليس مدونًا في مفكرتي. تكلمنا سويا في السياسة الشرقية، وإن لم نتكلم عن السياسة المصرية بحرية ونحن نتناول طعام العشاء، تكلمنا أيضًا عن سياسة الجامعة الإسلامية، وتطرق الكلام إلى أن كلا من فرنسا وإنجلترا سترحلان إن آجلاً أم عاجلاً من شمالي إفريقيا.

ويجدر بي هنا أن أورد رسالة كتبتها لصابونجي في اليوم التاسع-من يونية، ورسالة أخرى تلقيتها أنا منه بنفس التاريخ الذي أرسلت إليه فيه رسالتي.

(١٠) شارع جيمس في ٩ يونية عام ١٨٨٢

خلصتني برقيتك التي تخبرني فيها بوصولك إلى مصر، من كثير من القلق. أتمنى بوصول هذه الرسالة إليك أن تكون في القاهرة وعلى اتصال بأصدقائنا. وأنا أرى أنهم لا يمكن أن يفعلوا الآن ما هو أحسن مما فعلوه، وأن يكونوا على اتصال تام وبأفضل الطرق مع البعثة. الشيء الوحيد الذي يجب أن يحذروه هو ألا يثقوا بهؤلاء المبعوثين. وأنا أعرف أن آمالاً كبارًا يعلقها أعداء مصر على درويش باشا باعتباره رجلاً مجردًا من الضمير والمبادئ الأخلاقية، وبخاصة فيما يتعلق بتعامله مع المتمردين. ستحاول كل الجهود دفع عرابي إلى السفر إلى إسطنبول، لكنه يجب ألا يقبل على مثل هذه الخطوة. سيحاولون رشوة الرجل وإقناعه أن سفره سيكون من أجل مصلحة بلده. يجب أن يحذر عرابي من هذا الخداع. من الممكن أيضًا أن يحاولوا إلقاء القبض عليه، أو دس السم له، على الرغم من عدم ترجيحي لمثل هذا العمل. على الجانب الآخر، إذا ما وجدوا الرجل يقف موقفًا راسخًا، وأن البلد يقف من ورائه، فلن يتشاجروا أو يختلفوا معه. نصيحتي القوية لعرابي أن يعلن خضوعه على الفور لمحمد توفيق باعتباره الوالي النائب عن السلطان، وذلك

بشرط احتفاظه بمنصبه وزيرًا للحربية. وإذا ما أعلن عرابى ذلك، فلن يكون هناك مبرر لإنجلترا أو فرنسا فى الصراع مع عرابى؛ وهنا، إذا ما اجتمع المؤتمر الأوروبى، فإنه لن يسمح لهما بالتدخل. وأنا على يقين من أن حكومتنا لن تصر على الإنذار، وبخاصة فيما يتعلق بمغادرة عرابى لمصر. لكن حكومتنا هى والحكومة الفرنسية يتعين عليهما مساندة محمد توفيق وتأييده باعتباره سيدًا اسميا على مصر. ومن الخطورة بمكان على عرابى أن يناصب توفيق أو السلطان العداء فى الوقت الراهن. المطلوب منه هو أن يوطد موقفه باعتباره الحاكم الفعلى للبلاد... الناس هنا غاضبون منى، لكن لا يهمنى ذلك، ما دامت مصر ستحصل على حريتها".

وأنا أورد هنا بصورة مكثفة تمامًا، رسالة كتبها لى صابونجى من القاهرة فى اليوم الذى حدثت فيه مظاهرة الإسكندرية، لكن قبل أن تصلنى أخبار هذه المظاهرة.

القاهرة، فى ١١ يونية عام ١٨٨٢

عقب وصولى قمت بزيارة عرابى باشا ومحمود سامى وآخرين من أعضاء الحزب. حيث استقبلونى استقبالا حماسيا وسألونى عنك. قال لى محمد عبده، إنه بلغه أنك نُصحت من قبل بعض الناس المهمين بعدم المجىء إلى القاهرة. غمرنى عرابى بالفرح والمرح عندما رآنى. قبل وصولى بأسبوع خطب عرابى فى جمهور كبير من الناس وقرأ عليهم خطابًا كنت قد أرسلته إليه، وركزت فيه على أهمية الوحدة فيما بينهم.

الموقف حاليًا كما يلى: حكيت لك فى برقيتى عن كل ما ترتب على اكتشاف المؤامرة الشركسية إلى يومنا هذا. قام الشيخ عليش، شيخ الأزهر الذى يحظى بمكانة دينية رفيعة، بإصدار فتوى صرح فيها بأن الخديو الحالى حاول بيع بلده للأجانب عندما جعل يتبع نصائح القناصل الأوروبيين، وعليه لا يجدر به أن يكون حاكمًا على مسلمى مصر، ويتعين عزله. وافق شيوخ الأزهر كلهم على هذه الفتوى، وبخاصة أنهم ينظرون إلى الشيخ عليش باعتباره رئيسا روحيا لهم.

وقد ذهب الشيخ محمد خضير، أحد مشايخ الأزهر، ومعه عشرون نائبًا لمقابلة درويش باشا، وقدموا له التماسًا موقعًا من عشرة آلاف شخص يطلبون فيه رفض مقترحات الدول وعزل الخديو. هناك أربع عشرة مديرية في مصر، ليس من بين مدرائها من يعارض عرابى سوى ثلاثة مديرين فقط. الفلاحون، أقباطًا ومسلمين مجتمعون معًا على تأييد عرابى... أما الشيخ الإمبابى (شيخ الإسلام)، فإنه يقف بمعزل عن الطرفين تخوفًا من الخديو ومن الحزب الوطنى، وهو يتجنب السياسة من باب أنه معتل الصحة. قال لى عرابى إنه لن يستسلم مطلقًا لأوروبا أو تركيا، دعهم يرسلون قوات أوروبية أو تركية أو حتى هندية، وسوف أواصل دفاعي عن بلدى طالما بقيت على قيد الحياة، وعندما نموت جميعًا فسوف يستولون على بلد مخرَّب، وسيُقال عنا حينئذ إننا متنا فداء لوطننا. ليس هذا فقط، وإنما ستعقب الحرب السياسية حرب أخرى دينية، وستقع المسئولية عن مثل هذه الحرب على عاتق من أشعلوها". الرجل مصمم على المقاومة ولن يسافر إلى إسطنبول، وهو يحظى حاليا بمساندة السواد الأعظم من الأمة. تسعة فقط من النواب هم الذين يعارضون عرابى. سلطان باشا تخلى عن عرابى وانضم إلى الخديو، نظرًا لتخوفه من ماليت ومن الأسطول. المصريون جميعا ينظرون حاليا إلى كل من الخديو وسلطان باشا على أنهما خائنان... حضر النواب من جميع المديريات للقاء درويش باشا ومطالبته بعزل الخديو، وهذه حقيقة لا يمكن تفسيرها من منطلق أن عرابيا ضغط عليهم ليفعلوا ذلك... تسعون ألف شخص وقعوا على التماسات قُدّمت لدرويش لرفض المقترحات الأوروبية والإبقاء على عرابى فى منصبه وزيرًا للحربية.

كل مشايخ الأزهر يؤيدون عرابى، باستثناء كل من الشيخ الإمبابى (شيخ الإسلام)، والشيخ العباسى، والشيخ السادات، وكذلك عبد الرحمن البحراوى. عقد عبد الله النديم اجتماعًا كبيرًا حضره حوالى ١٠٠٠٠ شخص فى الإسكندرية، وتحدث النديم فى ذلك الاجتماع عن رفضه للمقترحات الأوروبية، وأثبت عدم صلاحية الخديو للحكم. وجاء النديم بأدلة من القرآن ومن الحديث ومن التاريخ

الحديث، ليثبت ما يقول ويقنع مستمعيه. عرابى هو الآخر استنكر فى خطبة ملتهبة مساوئ وأخطاء الأسرة الحاكمة بدءًا من محمد على باشا إلى توفيق باشا. تحدثت مع كل من الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وآخرين، حول الحصول على خطابات وتوقيعات من النواب والعلماء والفلاحين والتجار وآخرين، لكى يرسلوها إليك لتكون لك دليلاً وبرهانًا على الحركة الوطنية. وقد وافقوا على إحضار هذه الوثائق خلال عشرة أيام، وسوف أرسلها إليك".

لقد اكتشفت أننا كوّنا فكرة سيئة عن محمود باشا سامى. جرت بينى وبين الرجل أحاديث كثيرة وحصلت من خصومه على معلومات عنه، فاكتشفت أنه كان واحدًا من أولئك الذين خططوا للحركة الوطنية منذ عهد إسماعيل. عانى الرجل كثيرًا بسبب آرائه الحرة، ومع ذلك ظل متمسكًا بمبادئه. العديدون من زعماء الحزب من أمثال النديم ومحمد عبده، بل وحتى عرابى نفسه، يعترفون أنهم مدينون بسلطتهم لمساعدة هذا الرجل لهم ومثابرته. حاول إسماعيل إقناعه بالتخلى عن الحزب، لكنه رفض المال على أى صورة، لقد كان ينفق ماله كله على الحزب، ومنزله شبيه بالنزل أو الخان. حياة الرجل الخاصة مثل حياة الفيلسوف، فهو لا ينفق على نفسه سوى القليل، وراض بما قسم الله له وبكل ما يمكن أن يحدث له. الرجل ليس إنسانًا جاهلاً، وهو ضليع فى الأدب العربى، وأفضل من عرابى فى هذا الصدد، وإذا كان الأتراك يكرهونه فالسبب فى ذلك هو وطنية هذا الرجل. سيكتب محمود باشا سامى رسالة إلى اللورد جرانفيل ليثبت له وجود الحزب الوطنى فى مصر، وليعرب عن صداقة الحزب لإنجلترا، التى ينظرون إليها باعتبارها بطلة الحرية، وباعتبارها أيضًا أمة تساعد أولئك الذين يناضلون من أجل الحرية. اقترحت إرسال رسائل مماثلة إلى جرانفيل من كل من عرابى والشيخ الإمبابى؛ وأن ترسل رسائل مماثلة أيضًا إلى جلادستون، ووعدتهم بترجمة الرسائل وإرسالها على عناوينها الصحيحة.

عندما سرت شائعة مفادها أن السلطان كان يهدف من وراء إرسال درويش باشا إلى إقناع عرابى وحثه على قبول الإنذار، سافر عبد الله النديم إلى الإسكندرية وعقد مؤتمرًا حضره حوالى عشرة آلاف شخص، وتحدث مدة ساعتين عن الإنذار، واقترح على الحاضرين أن يقوم كل واحد منهم بالاعتراض على ذلك

الإنذار والاحتجاج عليه. وسرعان ما استجاب الناس عن طيب خاطر لذلك الخطيب المفوه. وعندما عاد الرجال إلى منازلهم علموا زوجاتهم وأبناءهم كيف يحتجون على الإنذار. واقع الأمر أن درويش عندما نزل إلى أرض مصر سمع الأطفال وهم يصيحون فى الشوارع ويقولون: "اللائحة، اللائحة"، بمعنى (الإنذار، الإنذار) "مرفوضة، مرفوضة". وهنا تعلم درويش باشا درسًا من ذلك واحمرَّ وجهه خجلاً...

وها هو الشيخ الإمبابى، الذى ظل أيامًا قلائل معاديًا للحزب الوطنى لأنهم نادوا علانية بعزل الخديو، بدأ منذ الأمس فقط يهادن أعضاء الحزب الوطنى. لكن سلطان باشا خيب آمال الناس جميعًا، وانضم إلى الخديو انضمامًا أعمى، بفعل تخوفه من التدخل الأوروبى من ناحية، ولأن ماليت أكد له أن عرابيا لن يبقى فى منصبه. وبذلك وقع المسكين فى الفخ الذى وقع فيه شريف باشا، وضاعت شعبية الرجل ولم يحصل على شىء نظير انقلابه السياسى.

وقع بالأمس حادث غريب آخر. عندما دعى درويش العلماء كى يأخذ رأيهم فى أفضل الإجراءات التى يمكن اتخاذها وصولاً إلى السلم، لم يقف إلى جانب الخديو سوى اثنين فقط من العلماء، أما بقية العلماء فكانوا يناصرون ويؤيدون القضية الوطنية. وتضايق درويش وفض الاجتماع وراح يجمِّل الشيخين المعارضين: البحراوى والأبيارى. وعندما نشرت هذه التطورات فى الصحف أدت إلى خلق حركة ثورية فى الأزهر، وقد حضرت الكثير من اجتماعات العلماء والشخصيات الأخرى، وكانت كلها تعبر عن استياء عام. وكان المتحدثون يقتبسون من القرآن والحديث ما يثبت عدم صلاحية محمد توفيق لحكم مجتمع مسلم. ولم يكتف العلماء بتلك الاجتماعات الخاصة، لكنهم أصروا فى أثناء وجودى على عقد اجتماع عام فى الأزهر احتجاجًا على الإهانات التى وجهت إليهم، وعليه جرى عقد الاجتماع فى الجامع الأزهر فى المكان نفسه الذى يصلى الناس فيه، وطلب العلماء إلى عبد الله النديم أن يتحدث إلى ذلك الاجتماع الذى ضم ما يزيد على أربعة آلاف شخص، وليس لدى متسع من الوقت كى أصف التأثير الذى أحدثته خطبة عبد الله النديم. أنت نفسك قابلت النديم وتعرف كيف يستمع الناس إليه بشغف، وكيف تستثيرهم طلاقة لسانه.

الفصل الرابع عشر

الاستغاثة الأخيرة بجلادستون

كان ذلك هو حال الشعور العام في دوائر الحزب الوطني في القاهرة عندما قامت مظاهرة الإسكندرية، وقد ذهبت في اليوم التالي إلى لندن وأنا في روح معنوية عالية، وأحمل معي برقية من صابونجي مؤرخة في العاشر من يونيو كي أطلع هاميلتون عليها وطالعتني أخبار المظاهرة وأنا في محطة القطار.

في الثاني عشر من يونية

مظاهرات في الإسكندرية، إصابة كوكسن وقتل ضابط من الضباط العظام، وقتل ما بين خمسين أوروبيا وستين. أدى ذلك إلى كثير من الهياج، وأنا لست على يقين ما إذا كان ذلك في صالح عرابي أم لا. سيثبت ذلك أن عرابيا هو سيد الموقف، اللهم إلا إذا كانت تلك المظاهرة مجرد شرك نصبه درويش لاستدراجه للذهاب إلى الإسكندرية ليلقى القبض عليه هناك... اتجهت إلى إيدي هاميلتون وأخبرته أن بحوزتي معلومات لا يرقى إليها الشك، مفادها أن عرابيا هو الذي يقود البلاد، وأن توفيقا يعاني خطر عزله بفعل الشعور العام السائد في البلاد، وأنهم إذا لم يكونوا يريدون اللجوء إلى حل عنيف لهذه المشكلة فالأفضل لهم التوصل مع عرابي إلى حل وسط على وجه السرعة. وعدني إيدي هاميلتون بأنه سوف يبلغ ما قلته للسيد جلادستون. الواضح لي حاليا أنهم سوف يمسكون بتلابيب أي حل وسط يحفظ لتوفيق بقاءه على العرش.

اتجهت إلى مجلس العموم، وطلب هاري براند من والده، المتحدث الرسمي باسم المجلس، تذكرة دخول "لبلنت المتمرد"، فقال الرجل: "هو لا يستحق تذكرة"، لكنه أعطاني إياها. أجاب ديلك على أسئلة متباينة عن مصر، مفترضا أن درويش هو والخديو يمسكان الخيوط كلها في أيديهما. وقد أخافني ذلك لأن هناك تقريرا يفيد أن عرابيا سافر بصحبة درويش إلى الإسكندرية (ثبت عدم صحة ذلك)،

وأنا أتخوف من الخيانة وأخشاها. كان صابونجى قد أرسل برقية جديدة تقول: "التقيت عرابى منذ فترة وجيزة. سلمته رسالتك. كل شيء هادئ. خطب عبد الله النديم في أربعة آلاف شخص فى الأزهر، وهاجم البعثة التركية والخديو. سحبت البعثة المقترحات الأوروبية، وأتمنى أن يعم السلام. الشراكسة يدسون ويتآمرون. شيخ الإسلام انضم إلى عرابى، أما سلطان باشا فلم ينضم إليه وبقى مع الخديو. المظاهرة لا تهم". وقد جهزت ردا على هذه البرقية وأنا بالقطار، وأرسلته من ثرى بردجز ونصه: "درويش ينتوى الشر، والرشوة، وربما الاغتيال. أدعوكم إلى اجتماع عام بقيادة عبد الله النديم ومحمد عبده وعلماء الأزهر، أى حوالى مائة شخص، لعلهم يصرون على رحيل درويش. وإذا ما رُفض ذلك سيجرى القبض عليه بواسطة الشرطة وإبعاده عن المكان. اتفقوا مع الخديو. احرصوا على عدم مضايقة القناصل. لعل النديم يكون هو المحرك. يجب على عرابى هو والجيش أن يبتعدا عن هذا الصراع". أنا لا أشعر بالارتياح.

جرى حوار طويل بينى وبين فريدريك هاريسون قبل أن أغادر لندن، وكان الرجل قد كتب لجريدة "بول مول" مؤخرًا عن مصر. وأطلعته على الرسائل التى أطلعت عليها جلادستون. يمكن أن يكون هاريسون مصدرًا لمساعدة طيبة... وبينما كنا نغادر شارع جيمس اندفعت حرم ماليت مقبله علينا، طالبة منى توضيح حقيقة ذلك الذى كنت أفعله فى مصر. قلت لها الموضوع بصورة شبه واضحة. وقالت إن سمعتى مهددة بالخطر إذا لم أبرئ نفسى من تهمة الدس لبلدى. رجتنى أيضًا أن أعمل على تهدئة الأمور هناك، ووعدتها أنى سوف أرسل رسالة لعرابى بألا يمس شعرة واحدة من شعر رأس ولدها. سوف أكتب للرجل مع بريد الغد، لكن برقيتى كافية لتحقيق ذلك فى ذات الوقت، وأنا لا أعتقد أن ولدها معرض لأى شكل من أشكال الخطر. مسكينة حرم ماليت! أنا آسف لها. قالت إن الناس أخبروها أنى وجلادستون نتآمر لإحباط سياسة ابنها فى مصر. أكدت لها أن جلادستون برىء تمامًا من برقياتى، وأنى أتحمل المسئولية كاملة عن كل ما أفعله. وعدتنى بأنها ستحضر للقائى، لكن – هذا هو حال الحياة السياسية – هى تعتبرنى من قتلة إدوارد Edward.

فى الثالث عشر يونية

بقيت عصبيا طوال الليل، أتوقع سماع ما مفاده أن عرابيا جرى إلقاء القبض عليه أو اغتياله. لكن الصحف عرضت الرجل باعتباره سيئا للموقف، وأن الخديو يشكل وزارة جديدة، سيكون عرابى فيها وزيرا للحربية مثلما كان من قبل. وعليه، أنا واثق من أن الرجل عمل بنصيحتى فيما يتصل بالتصالح مع توفيق. كل الذى أمامهم حاليا هو إبعاد درويش باشا، وبعدها يسير كل شيء على ما يرام.

كان ذلك هو الفكر السائد في الصحف كلها فى لندن، أما جريدة "بول مول" فكانت الجريدة الوحيدة التى لم تؤيد هذا الرأى السلمى للحل الذى أمكن التوصل إليه، وجاءت تعليقات الجريدة، بتحريض من وزارة الخارجية، توضح مدى عداء مسئولينا وتصميمهم على ألا يكون هناك شروط تسمح ببقاء الوطنيين في السلطة. يكتب مورلى Morley عن هذا الموضوع فيقول: "لن يكون هناك خطأ أفدح من الخطأ الذى وقعت فيه جريدة التايمز صباح هذا اليوم، عندما تُخْطِئ وتَعُدُّ الاتفاق المرحلى المؤقت الذى توصل إليه كل من الخديو والقنصلين العامين ودرويش وعرابى من أجل المحافظة على الهدوء والنظام، هو بمثابة التسوية النهائية للمسألة المصرية. الإثارة هائلة فى مصر إلى الحد الذى يُعَرِّض حياة الأوروبيين للخطر. القوة المسيطرة الوحيدة التى يمكن أن تثير الفزع والخوف فى نفوس الناس هى الجيش، الذى هو فى يد عرابى. وليس هناك من مَخْرَج الآن سوى الاستفادة من عرابى فى منع حدوث مذبحة. لكن نظرا لأن درويش باشا يعد عرابيا مسئولاً عن المحافظة على النظام، فإننا نستنتج أن الرجل تخلى عن نيته فى تعزيز الوضع الراهن، أكثر من توصل كل من إنجلترا وفرنسا إلى اتفاق مع عرابى، لأنهما تصران على حتمية استخدام عرابى لقواته فى قمع المظاهرات التى فى الإسكندرية". لقد فوجئنا فى إنجلترا مثلما فوجئ عرابى فى القاهرة، بتلك الهدنة الخائنة التى وافق عليها كل من ماليت وكولفن، ولم نتشكك لحظة واحدة فى خواء تلك الهدنة. وفى تلك المناسبة أعطى عرابى كلمة شرف لتوفيق، بأنه بغض النظر

عن الأحداث، سوف يحافظ على حياة الخديو كما لو كانت حياته هو شخصيا وهذا الوعد استخدمه الخديو لمصلحته، بينما لم يكن يضمر لعرابى سوى الخيانة، وأساء استعماله إلى آخر مدى.

امتدادا لمفكرة ذلك اليوم أجد ما يلى: "أبلغنى بتـون بـالأمس أن روتـشيلد عرض على عرابى ٤٠٠٠ جنيه إنجليزى (أى حوالى مائة ألف فرنك) فى العـام مدى الحياة إذا ما غادر مصر[١٦]... وبينما كنا فى طريقنا إلى لندن وصلتنا البرقية التالية: "القاهرة، اليوم الثانى عشر من شهر يونيو الساعة الحادية عـشر صـباحًا. التقيت عرابى منذ برهة وهو يرسل إليك سـلاماته. وهـو يـرى أن المقترحـات الأوروبية قد اختفت، وأن الهدوء والنظام أمكن إقرارهما. عرابى هو سيد الموقف هنا. سافر درويش باشا. سافر الخديو إلى الإسكندرية، وأمسك عرابى بذراعه إلى أن أوصله إلى المحطة. انتصر الحزب الوطنى... طوال هذه الفترة وأنا واقع بـين الضحك والبكاء. اتجهت على الفور إلى مقر مجلس الـوزراء فـى ١٠ داونـنج ستريت وأبلغت كلا من إيدى Eddy هاميلتون هـو وهـوراس سـيمور Horace Seymour بما حدث. يبدو أنهما كانا يظنان أنه حق، والساعة قـد وصـلت إلـى الحادية عشرة صباحًا، سوف يعترف جلادستون بأخطائـه، أو بـالأحرى أخطـاء ماليت، وأنه سوف يهادن عرابى. بتون يرى أن ذلك أمر ممكن أيضًا. لكن وزارة

---

(١٦) فى رد عرابى على سؤال من أسئلتى طرحته عليه حول هذا الموضوع، قال لى الرجل بعد ذلك بسنوات عدة إنه لم يسمع قط عن معاش قُدِّم له من قبل آل روتشيلد. من جانب آخر، قال إنه عقب الإنذار المؤرخ فى السادس والعشرين من مايو زاره القنصل الفرنسى، الذى عرض عليه بعد أن سأله عن راتبه ضعف هذا المبلغ - أى حوالى ٥٠٠ جنيه مصرى فى الشهر- من الحكومة الفرنسية، إذا ما وافق على مغادرة مصر إلى باريس لتجرى معاملته فيها مثلما حدث مع عبد القادر الجزائرى. ورفض أحمد عرابى هذا الموضوع رفضا باتا، وقال للقنصل الفرنسى إن واجبه وعمله يتمثل - إذا ما دعا الداعى - فى القتال دفاعا عن بلده والموت فى سبيله، وليس التخلى عنه. لدى مذكرة عن هذا الحوار لكنها ليست مؤرخة. قارن هذا الكلام بما قالته جريدة "بول مول" فى الثامن عشر من مايو: "يقال إن عرابى يفكر فى زيارة أوروبا وإجراء فحوص طبية، وتلك نية محمودة، ولن يكون هناك ضرر إذا ما أعطى الرجل بدل سفر معتبر شريطة ألا يعود إلى مصر".

الخارجية سوف تتصلب... تناولت العشاء في المنزل وذهبت لحضور حفل في قيادة البحرية، والتقيت آل جريجوري هم والسير فريدريك جولدسمد Goldsmid هناك، ودار بيننا حوار عن مصر مع اللورد نورثبروك، عبرت خلاله للرجل عما يدور في ذهني تعبيرًا صادقًا وصريحًا. قلت: "مسألة سفك الدماء من عدمها في مصر تعتمد عليك أنت اعتمادا تاما".

في الرابع عشر من يونية

أنا منهك تماما. قالت لي حرم السيد هوارد التي التقيتها في المنتزه إنني تغيرت. والواقع أن مصر منذ بداية الأزمة لم تكن تفارق ذهني سواء أكنت نائمًا أم مستيقظًا... أمضيت فترة الصباح وتناولت طعام الإفطار مع جولدسميد، الذي سيسافر مساء هذا اليوم في مهمة خاصة إلى إسطنبول، وأعلمت الرجل بآرائي تمامًا، وأطلعته على الرسائل التي جرى تبادلها بيني وبين جلادستون". (ملاحظة مهمة: هذا الجنرال جولدسميد جرى استخدامه فيما بعد رئيسًا لإدارة الاستخبارات، من قبل ولسلي في أثناء الحملة التي قادها. كان جولدسميد رجلاً لطيف الكلام، سبق أن تعرفته في القاهرة في العام السابق.).

"تناولت الغداء مع آل لاسيل Lascelle، ويبدو أنهم متفقون مع آرائي عن مصر". (كان هناك حديث يدور في وزارة الخارجية، في ذلك الوقت، حول إرسال جولدسميد إلى القاهرة ليحل محل ماليت، نظرًا لأن الرجل كان يعرف مصر بالفعل، وكان بوسعه أن يبلي بلاءً حسنًا إذا ما أوفد في مهمة صلح. ومن سوء الطالع أن ذلك لم يتحقق.).

الصحف تؤكد اليوم على أخبار صابونجي، وبخاصة جريدة "الديلي التلجراف". تنظر الصحف الأخرى إلى هرب كل من الخديو ودرويش باشا، على أنه من قبيل الرغبة في استعادة النظام في الإسكندرية. هذه الصحف الأخرى تقول: إن درويش سيضع نفسه على رأس ١٢٠٠٠ رجل جرى تجميعهم هناك، للهجوم

على عرابى الموجود وحده حاليا فى القاهرة. كنت قد أبرقت إلى عرابى لأقول له: "الحمد لله على النصر والسلام".

كانت هذه هى المرحلة الأخيرة التى يمكن عندها القول إنى انتصرت عندها فى اللعبة الطويلة التى كنت ألعبها ضد كولفن، لتحاشى الحرب، ولكن اعتبارًا من ذلك الوقت فصاعدًا أصبحت المعركة معركة خاسرة، رغم أننى مضيت فيها إلى نهايتها. كان السبب الحاسم عند جلادستون، الذى كان الناس يعلقون الخلاص عليه هو وحده، يتمثل على حد علمى فى ذلك الوقت، فى أن بعض المدن الصناعية فى شمال إنجلترا احتجت على سياسة الحكومة المائعة والبطيئة تجاه المسألة المصرية، وذلك من منطلق أن إطالة أمد الأزمة فى مصر إنما يضر بالصناعة والتجارة فى إنجلترا. وقد استغل تشمبرلين هذا السبب بإيعاز من ديلك للضغط على رئيس الوزراء.

فى الخامس عشر من يونية

أنا أشعر بالقلق إزاء ما يدور فى الإسكندرية، لكن بفرض أن عرابيا سيعتمد على رجاله. هناك حالة من الفرار العام، وفى القاهرة أيضًا. وأنا أشكر الله أن ماليت غادر القاهرة. أما درويش فلا يزال باقيًا فى الإسكندرية. لقد ذهب هو والخديو إلى قصر رأس التين، تحت حماية مدفعية الأسطول... وصلتنى برقية أخرى من صابونجى تقول: "أثار رحيل الخديو الشكوك. استياء. نشاط فى تجهيزات واستعدادات الجيش. عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ومعهما الجيش يتحدون الباب العالى تحديا علنيا. عرابى معتدل ويقظ. مؤامرة لقتل عبد الله النديم. هناك خطر من حدوث اضطرابات خطيرة على الجانب الأوروبى. درويش باشا يرفض التراجع أو الانسحاب إلا بعد سحب الأسطول. استعيدوا ماليت حفاظًا عليه. الكل يلعنون ماليت وسيقتلونه إذا ما استمر وجوده فى مصر". ذهبت فورًا إلى إيدى هاميلتون ورجوته أن يأمر ماليت بالصعود إلى ظهر الباخرة. "جرى تحقيق ذلك" ثم أرسلت له (هاميلتون) بعد ذلك رسالة أحذر فيها الحكومة بألا تعوّل على

القوات التركية. ثم أرسلنا بعد ذلك ردا لصابونجي على برقيته: "المبعوث التركـــي يطلب قوات من إسطنبول. والأرجح أن هذه القوات لن تُرسل. لكن استعد. حـــافظ على النظام قدر المستطاع ومهما كانت التكاليف. حدوث مظاهرة أخرى أمر مهلك ومدمر تمامًا. ماليت سوف يغادر مصر حالاً. اصبر". تناولت العشاء فـــي منـــزل اللورد دى لا وور... اكتشفت عندما عدت إلى بيتى أن البرقية المرسلة إلى القاهرة قد أوقفت بسبب هروب كتبة شركة التلغراف الشرقية. هذا الموقف يزعجنى بعض الشىء.

في السادس عشر من يونية

ذهبت لزيارة بتون، شديد التفاؤل. لكنى بدأت أفقد ثقتى بجلادستون، ورحت أظن أن الحكومة الإنجليزية تنوى السوء. سلمت بالأمس مراسلاتى مع جلادستون إلى كيجان بول Kegan Paul لكى يطبعها، حتى يمكن أن تكـــون جـــاهزة إذا مـــا تأزمت الأمور... جرى تمرير البرقية المرسلة إلى القاهرة... أنـــا بحالـــة نفـسية سيئة. وصلتنى برقية أخرى من صابونجى تقـــول: "وصـــول المبعـــوث الجديـــد بتعليمات مجهولة. الأمة والجيش يتشاوران يوميا فى وضع الخطط الدفاعية. همـــا لا يثقان بالبعثة المشتركة. أخبرنى عن سياسة جلادستون، وعن سياســـة اللـــورد جرانفيل. عرابى حازم. كل الصحف أغلقت أبوابها ما عدا جريدة "الـــوطن" هـــى "والجريدة الرسمية". الرعب يسود بين الأجانب. الخـــديو يـــشكر عرابـــى علـــى محافظته على النظام والأمن. كل شىء هادئ. جرى منع عبد الله النديم من إلقـــاء الخطب فى الاجتماعات العامة".

أبلغنى إيدى عندما قابلته أمس أن من الأفضل لى ألا أعود إلى مقر مجلـــس الوزراء، نظرًا لأن زياراتى للمكان أصبحت محلاً للملاحظة، وطلب منى أن أكتب له عن الأخبار التى تصلنى. وها أنا أكتب له اليوم رسالة أخرى، وأكتشف حقيقـــة السياسة التى يتبعها جلادستون، ويجىء رد إيدى غير مرضٍ تمامًا. هناك إعـــلان حساس فى (جريدة سانت جيمس) عن قوات بريطانية صدرت الأوامر لها بالـــسفر

إلى مصر. عدت إلى منزلى فى كرابت وأنا بحال عصبية تمامًا. أعرف أن دعـوة وجهت بالأمس إلى عقد اجتماع عاجل لمجلس الوزراء فـى مكتـب جلادسـتون الخاص. ترى هل الأمر الذى صدر إلى القوات كان نتيجة لذلك الاجتماع العاجل؟ أنا لا أطيق التفكير فى مسألة دفعهم للأمور فى اتجاه التدخل. على الجانب الآخر، من الواضح أن الفرنسيين بدأوا يهادنون عرابى".

لم يكن الفرنسيون وحدهم هم الذين بدأوا يهادنون عرابى، وإنما كانت هناك دول أوروبية أخرى، وبخاصة ألمانيا والنمسا، اللتان كانتا فى ذلك الوقت فى حـال نفسى يسمح لهما بتلك المهادنة والتضحية بتوفيق، وذلك من باب المحافظـة علـى الأمن والنظام. تقول جريدة "بول مول" الصادرة فـى ١٦ يونيـو: "المفتـرض أن القوى الألمانية (ألمانيا والنمسا) تتبنى اتفاقًا مع عرابى يقوم على تنازل توفيق عن منصبه لصالح ابنه ولى العهد... هذا الاتفاق له مزايا كثيرة، على الـرغم مـن أن (الالتزامات الجادة لكل من إنجلترا وفرنسا) قد تجعل من المستحيل عليهما ألا يفعلا شيئًا سوى الوقوف إلى جانب الرجل الذى اتبع مشورتهما ونصحهما - وبخاصـة نصائح الممثل الإنجليزى - فمن المفهوم تمامًا أن الفشل العملى للخـديو توفيـق، سواء على المستوى الشخصى أو السياسى، لا بد وأن يكـون قـد أوحـى للـدول الأخرى بالتعجيل بإيجاد البديل الأكثر كفاءة وقدرة". قارن ذلك مع البرقيـة التـى أرسلها ماليت أيضًا فى ١٤ يونيو، والتى يقول فيها: "أبرق ممثلا كلٍ مـن ألمانيـا والنمسا إلى حكومتيهما بأن الآثار الناجمة عن أى شكل من أشكال التدخل المسلح، بما فى ذلك التدخل التركى، سوف تُعرِّضُ حياة مواطنى هاتين الـدولتين للخطـر. وهما تعدان المسألة السياسية فى المرتبة الثانية بعد أمن وسلامة رعاياهما. وهمـا لهذا السبب تريان ترك الأمر كله للباب العالى، وهما تعتقدان أن الوسيلة الوحيـدة لتجنب المصائب الكبرى تتمثل فى رحيلى أنا والأسطول عن الإسكندرية". بلغنـى أن ماليت المسكين تكلم مع أصدقائه عن مستقبله المهنى، وأن هذا المستقبل قد دُمِّر وانهار بالفعل. من هنا أصبح همه وهم كولفن يتمثل فى وقوع الاشتباكات على أى شكل من الأشكال.

في السابع عشر من يونية

"ليلة متعبة تمامًا. لكن صحف اليوم لم تؤكد على موضوع القوات، والنهار صحو تمامًا، وهأنذا أحس بالفرح من جديد. السلطان لم يجرؤ على التدخل. لقد ثبت ذلك بصورة مؤكدة. لقد توصل الفرنسيون إلى اتفاق مع عرابى، وهناك بعض الإشارات إلى أن ألمانيا والنمسا تسيران فى الاتجاه نفسه. وعليه فإن إنجلترا لا تمانع فى ذلك".

فيما يلى أورد أسماء الجماعة التى كانت فى مزرعة كرابت: إبرنجتون Ebrington، وليمنجتون Lymington، وجرانى فاركوهار Granny Farquhar، وإيدى هاميلتون Eddy Hamilton، ودالاس Dallas (من وزارة الخارجية)، ونيجل كنجسكوت Nigel Kingscote (الصغير)، وبتون بورك Button Bourke، وولتر سيمور Walter Seymour. وقد تضاربت الأخبار حول إرسال القوات. يبدو أن كل شيء يسير على ما يرام. واتفقنا على عدم التحدث عن مصر. لكن هذا أمر لا يطاق ولا يمكن تحمله.

في الثامن عشر من يونية

الأحد: وهو يوم عيد معركة وترلو Waterloo، ولم يحدث أن كانت إنجلترا أحمق مما هى عليه فى هذا اليوم. وصلتنى وأنا أتناول طعام الإفطار برقية عن وزارة جديدة للحربية تولى تأليفها راغب وعرابى، ومن الواضح أن الدول الجرمانية (ألمانيا والنمسا) هى وتركيا كانت موافقة على ذلك. ونحن بناء على ذلك نطلق الزغاريد.

أنا هنا يتعين علىَّ إدراج ثلاث رسائل أخرى من رسائل صابونجى، التى كتبها فى الأيام الأخيرة. هذه الرسائل تلقى ضوءا قيما على ما يدور فى الذهن الوطنى فى القاهرة:

القاهرة، فى الرابع عشر من يونية عام ١٨٨٢

"زرت اليوم عرابى باشا، بعد لحظات قليلة من تسلمه برقيتك. تحدثنا سويا مدة ساعة ونصف الساعة. سألته عن سبب الرعب الذى يكتنف البلاد ما دام قد توصل هو والخديو إلى اتفاق. قال: (فيما يتصل بى أنا شخصيا فأنا أعتقد أن الخديو سيكون أمينًا فى تعاملاته معى، إذا ما بقى بمعزل عن نصائح السير إدوارد ماليت. لقد أصبح الخديو مقتنعًا الآن أن ليس من بين أعضاء حكومته من يستطيع السيطرة على البلاد والمحافظة على الأمن والنظام سوى الرجل الذى يحتقره الساسة الأوروبيون، وهو أحمد عرابى. الخديو يهادننى حاليا، وفى وجود ممثلى الدول الأوروبية الست وفى وجود درويش باشا، طلب الخديو منى تحمل مسئولية السلم والنظام العام. قبلت أمر الخديو، وأعطيت كلمة شرف وأقسمت أن أدافع عن حياته وحياة كل من يسكنون مصر، من مختلف الملل والأمم، وطالما بقيت على قيد الحياة، وطالما لم يتدخل أحد فى عملى، فسوف أحافظ على الوعد الذى قطعته والقسم الذى أقسمته. لكن إذا ما نظر أحد إلى هذا السلم باعتباره سلما وهميا وزائفا – وهذه هى نظرة الخديو – فأنا عن نفسى، أمين فى تعاملى مع كل من يلتزمون الأمانة فى تعاملهم، لكن هؤلاء الذين لا يتعاملون من منطلق الأمانة والصدق، فأنا أتعامل معهم بنفس طريقتهم، وسأكون مخادعًا مع كل من يحاول خداعى أو الاحتيال علىَّ. لقد علمنا الزمن هو وإسماعيل، على الرغم منا، الكثير من الخداع والغش والاحتيال التركى. ونظرًا لأننا بدأنا نستفيد من أسلحتنا ومدافعنا وذخيرتنا فقد تركونا، ولذلك فنحن الآن نحاول الاستفادة من خداعهم وغشهم، والأتراك هم الذين أجبرونا على ذلك. لن نكون نحن البادئين بالعدوان، لكننا سوف نقاوم أولئك الذين يحاولون الهجوم علينا. نحن أمة مخلصة وأمينة، ونحن شاكرون لكل أولئك الذين يأخذون بأيدينا إلى إصلاح بلادنا. نحن لا نريد شيئًا سوى الإصلاح) (قال هذا الكلام وهو يؤكد تمامًا على ما يقول). (لكن أولئك الذين سيخدعوننا أو يغشوننا فإنهم سيجدوننا أشد خداعا منهم، فأوروبا، وبخاصة إنجلترا، تنظر إلينا

باعتبارنا برابرة غير متحضرين. يقولون إنهم قادرون على قمعنا خلال أربع وعشرين ساعة. حسن، إذا كانوا راغبين في ذلك فلعلهم يجربون، لكنهم سيخسرون ٨٠ مليون، هي مقدار الدين العام، ويخسرون أيضًا ٢٠ مليون أخرى هي ديون الفلاحين للبنوك. وأول طلقة سوف تكون سببًا في تحريرنا من هذه الالتزامات، والأمة في هذا الصدد لا تريد سوى الحرب).

أنا أسمع اللغة نفسها تقريبًا من الناس كلهم هنا. استعدادات كبيرة تقوم على قدم وساق. عُثر على كميات هائلة من البنادق والذخيرة، كان إسماعيل باشا قد خبأها وكدسها عندما انتوى الاستقلال عن السلطان (الباب العالي). سوف يفيد الناس من هذه الأسلحة المكدسة. لكني أقول لهم إن الأمر لن يصل إلى هذا الحد. يقولون إنهم قادرون على المقاومة سنوات عدة، لأن الله ﷻ مَنَّ عليهم هذا العام بمحصول ضعف المحصول الذي يحصلون عليه كل عام في سنوات الخصب والنماء."

"سمعت عرابيا وهو يتكلم عن الأمير حليم، ووجدته يفضله على توفيق، لكنه يقول: لو يستطيع توفيق تحرير نفسه من ماليت وتأثيره سيصبح كل شيء على ما يرام. ويضيف: لقد ضلل كولفن ماليت، الأمر الذي جعله يتسبب في ضرر كبير لبلاده ولمصر أيضًا، وذلك عن طريق تحريف الحقائق".

في السابع عشر من يونية

"ذهبت الليلة الماضية إلى منزل الشريعي باشا، حيث كان عرابي هو ومحمود سامي وعبد العال وعلي فهمي وعبد الله النديم والهجرسي مدعوين إلى العشاء هم وأناس آخرون كثيرون. وبعد تناول العشاء وبينما بدأنا التدخين والتحدث في السياسة، دخل علينا ضابط يحمل رسالة من امرأة إنجليزية تطلب الحماية، لأنهم طلبوا منها مغادرة القاهرة. رجوني أن أكتب لها رسالة على الفور لكي أطمئنها أن لا خطر في ذلك، وأنه إذا ما حدثت لها بعض المتاعب فإن عرابيا

سيحميها مثلما يحمي نفسه. هذا يعني أن عرابيا أصبح بطلاً في عيون كثير من النساء الأوروبيات، اللائي سمعتهن وهن يطرين عرابيا نظرا للحماية التي وفرها لهن، وعرابي عندما يتجول في الشوارع يهرع الناس إلى النوافذ والشرفات لرؤيته، وأنا أحاول أن أجعل أكبر عدد من الأوروبيين ينضمون إلى الحزب الوطني".

في الثامن عشر من يونية

"عند ظهر يوم أمس، وعندما أُرسلت برقية إلى راغب باشا ليكون رئيسًا للوزراء، ذهبت للقاء عرابي. قرأ عليَّ برقية جاءته من الخديو وطلب فيها إليه التعاون مع راغب باشا، وبأن يكون هو وزيرًا للحربية. بعد تقديم القهوة كتب عرابي برقية شكر للخديو وسلمها لي. كانت البرقية مصاغة صياغة مهذبة. ثم قال بعد دقائق قليلة: هيا بنا نقوم بجولة في المدينة كي نوحي للناس بالثقة والأمان. ركب عرابي وعلي فهمي في عربة واحدة، وركبت أنا وعبد الله النديم في العربة الثانية. تجولنا في الفجالة، وكان يتقدمنا موكب، ثم وقفنا عند باب دار الشيخ الإمبابي (شيخ الإسلام)، وقال عرابي: ادخل، سوف أقدمك لشيخنا (Pope). وعندما دخل غرفة الجلوس خلع نعليه، واستدار إليَّ وقال: نحن نعد هذا المكان مسكنًا مقدسًا لشيخنا. فعلت مثلما فعل عرابي عندما دخلنا المنزل. نهض الشيخ الذي كان يجلس على ديوان منخفض، وتقدم بضع خطوات قليلة ناحية أحمد عرابي، الذي حياه وقبّل يديه. واكتفيت أنا بمصافحة الشيخ، ودعانا الشيخ إلى الجلوس. كان هناك عدد من مشايخ الأزهر بصحبة الشيخ، وكان ولد الشيخ العروسي من بين هؤلاء المشايخ. في البداية تكلموا عن الموقف وعن الوزارة، ثم تطرق الحديث بعد ذلك إلى ما يفعله الشيخ الإمبابي مع الخديو خلال الأحداث الأخيرة. ومن كل ما رأيته استنتجت أن ما قيل عن موجة الفتور والبرود التي بين عرابي والإمبابي لا أساس لها من الصحة. وبينما كان الشيخ الإمبابي ينهي كلامه قُدمت لنا القهوة، ثم قدمني عرابي للرجل بطريقة رسمية، وشرح للحاضرين أنني من

أصدقاء السيد بلنت. شرح لي الشيخ الإمبابي بعد ذلك كل ما يتعلق بالبرقية. قال إنه كتب الرد بخط يده، متخيلاً أن البرقية موجهة إليه، لكنه لم يحدث مطلقًا أن اعتذر للخديو عن ذلك. والشيخ الإمبابي يعتقد أن إدوارد ماليت عرف بخبر هذه البرقية عن طريق سلطان باشا، أو من خلال بعض المناصرين للخديو".

"أطلع عرابي بعد ذلك الشيخ الإمبابي على إعلان تعهد بمقتضاه بضمان حياة وممتلكات سكان مصر كلهم بغض النظر عن ملتهم أو أمتهم، وطلب عرابي من الشيخ الإمبابي كتابة إعلان مماثل، يبين فيه بصفته شيخًا للإسلام، أن الدين الإسلامي بعيد كل البعد، بل ويحرم على المسلمين إيذاء المسيحيين أو اليهود أو أصحاب النحل الأخرى، بل إن الدين الإسلامي يأمر المؤمنين بحمايتهم. وافق الشيخ الإمبابي على ذلك، وفي وجودي ووجود المشايخ الأربعة الآخرين، ودعا الله أن يساعده ويعينه في إصلاح البلاد. ووعد أيضًا بأن يساعد عرابي في تقوية السلام بين المسلمين وغير المسلمين، من منطلق أن الجميع إخوة بغض النظر عن نحلهم ومعتقداتهم".

"ذهبنا بعد ذلك إلى أرتين Artin بك، حيث استقبلنا استقبالاً طيبًا، ثم سرنا بعد ذلك في شارع كلوت بك، ووصلنا إلى الموسكي Mouski وإلى أجزاء أخرى من المدينة، في حين كان الناس يقفون على الجانبين ويقولون: قوّاك الله.

في نهاية الجولة أبلغني عرابي أنه مدعو لتناول العشاء بمنزل السيد حسن موسى العقاد، واصطحبني معه، ومع الباشوات والضباط والمشايخ والعلماء. وازدحم بنا منزل مُضَيِّفنا، كنت مع عرابي ومحمود سامي وأحمد باشا والشيخ محمد عبده، وعبد الله النديم في غرفة الجلوس الرئيسية، حيث كنا نلقي الشعر، وننظم المرثيات والهجائيات، ونسلي أنفسنا ونهجو راغب باشا. وألف عرابي هجائية. وألف الشيخ محمد عبده اثنتين، وألف عبد الله النديم أربع هجائيات، وألف محمود سامي اثنتين. وعند تناول العشاء جلست بجوار أحمد عرابي، كانت الأطباق والأصناف المقدمة تقترب من حوالي ثلاثين صنفًا من الأطباق العربية، إضافة إلى الكعكات الشرقية والأوروبية والحلوى والفاكهة".

"بعد العشاء تكلمنا بمنتهى الحرية فى السياسة، وعن الخطط المختلفة وعن أشكال نظم الحكم. وفضلنا كلنا الشكل الجمهورى؛ وقام محمود سامى البارودى، الذى كشف عن معرفته الواسعة وعبقريته، بتبيان مزايا الحكم الجمهورى لمصر، وقال: "كنا نهدف منذ بداية حركتنا إلى تحويل مصر إلى جمهورية صغيرة مثل سويسرا، وعندها كانت سوريا ستنضم إلينا، وبعد ذلك كان الحجاز سينضم إلينا. لكننا وجدنا أن بعض العلماء لم يكونوا مستعدين لذلك، وكانوا متخلفين عن زماننا. ومع ذلك، سنحاول جعل مصر جمهورية قبل أن توافينا المنية، نحن نتمنى أن نرى (عصرا ذهبيا) Saturnia Regna من جديد.

فى التاسع عشر من يونية

"كنت أنا ومحمد عبده وعبد الله النديم ومحمود سامى نتحدث الليلة قبل الماضية عن الوسائل السلمية التى يمكن اتخاذها للتغلب على المشكلة المصرية. قال الشيخ محمد عبده إنه عقد العزم على إحضار المستندات والوثائق كلها التى فى حوزته، وكذلك المستندات والوثائق الأخرى الخاصة بالشئون المصرية، وأن يسافر إلى إنجلترا ويضع بنفسه هذه الوثائق والمستندات أمام جلادستون هو والبرلمان الإنجليزى. وقال إنه سيصحب معه رجلاً محترمًا آخر بصفته ممثلاً لكبار التجار فى البلاد؛ وشخصًا آخر ممثلاً من الأحرار عن الفلاحين. وافق محمود سامى على هذه الفكرة، وقال إنه يتمنى أيضًا السفر إلى أوروبا فى هذه المناسبة، وبدأ الشيخ محمد عبده التجهيز لهذه الرحلة. كما بدأ التجهيز أيضًا لهذه الرحلة كل من عبد الله النديم وحسن موسى العقاد، التاجر العربى الشهير والكبير فى القاهرة، وهذا الرجل صاحب ثروة طائلة ونفوذ كبير، وصاحب وطنية أيضًا".

"جرى تعيين راغب باشا رئيسًا للوزراء، لكن الناس غير راضين عنه باستثناء الشراكسة، بسبب سياسته التركية. الناس متشككون فى وجود دسيسة

عثمانية في الأمر، ولذلك فهم يشعرون بـــالقلق. وأنـــا أحـــاول تهدئـــة مخـــاوفهم وأنصحهم بالتزام الهدوء".

"أدت الأحداث التي وقعت مؤخرًا إلى زيادة الكراهية في قلوب العرب ضد الأتراك والشراكسة، بل وللسلطان نفسه. سمعت الشيخ محمد عبده هـــو وعبـــد الله النديم يلعنان السلاطين العثمانيين والجنس التركي كله بدءًا من جنكيز خـــان إلـــى هولاكو وصولاً إلى عبد الحميد. وهما يُعِدان الشعب هنا لنظام الحكم الجمهـــوري. هناك حزب كبير يجري تشيكله وإعلانه بحماس Cresecit Eundo. وسوف يعـــض هذا الحزب بالنواجذ على أول فرصة تتهيأ له للظهور. هذه الجماعـــة أو الحـــزب كانت تنتظر التدخل التركي المسلح بكل سرور وامتنان في هذه الأزمة الأخيرة. لو حدث ذلك لكانت تلك الفرصة السانحة للاستقلال عن الباب العالي. لكـــن الأتـــراك الماكرين استشفوا الخطر وامتنعوا عن ذلك التدخل. قال لي عبد الله النديم بالأمس، في أثناء عودتنا من شبرا، إنه يتعين عليه، هدم عرش الـــسلطان قبـــل أن توافيـــه المنية، وأضاف: "هذا هو هدفي، لعل الله يكتب لنا النجاح".

"يتعين عليَّ أن أخبرك أنني استُقبلتُ هنا استقبالاً كريمًا ومحترمًـــا ومؤدبًـــا على نحو لم أكن أحلم به مطلقًا. الباشوات كلهم والضباط والمشايخ والتجار كلهـــم يستقبلونني بأذرع مفتوحة، ويغمرونني بمودتهم وتمنياتهم القلبية الخالصة. اتخـــذت بعض الترتيبات مع عبد الله النديم لإقامة حفل غداء لكل زعماء الحزب الـــوطني، وذلك على شرفك، ولشكرك على مساعدتك لهم في كفاحهم".

القاهرة، ٢٢ من يونية

"قصدت الليلة الماضية منزل محمود سامي، حيث التقيت هنـــاك أصـــدقاءنا كلهم، كما التقيت الباشوات أيضًا وزعماء آخرين. تكلمنا في السياسة طول الليـــل، وأوصلت إلى الجميع محتويات رسائلك التي استقبلها برنـــديزي Brindisi اليـــوم. أعطيتهم أيضًا ملخصًا للصحف الإنجليزية، التي أرسلتها أنت والسيدة أن حـــرمكم.

ثم قدمت بعد ذلك لمحمود سامى، فى وجود عبد الله النديم، التماسا من جانب فريق من الحزب الوطنى، وهم يطلبون فيه من السيد جلادستون إرسال قنصل إلى مصر يفهم مصالح بلادهم. وافق محمود سامى على الالتماس وقال: إنه سوف يجرى توقيع ذلك الالتماس من عرابى باشا عندما يعود إلى القاهرة، ثم يجرى تقديم الالتماس من خلالك إلى السيد جلادستون. وفى نهاية الجلسة أبلغونى أن السير إدوارد ماليت حرَّض توفيق للمرة الرابعة على إلقاء القبض على كل من الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم ومحمود سامى البارودى وعلىَّ أنا".

فى الثالث والعشرين من يونية

بعد أن صدَّق الخديو على راغب باشا فى منصب رئيس الوزراء، كان أول أمر يصدره الرجل يتمثل فى استدعائى، أنا، إلى الإسكندرية ومعى عبد الله النديم. وفى ليلة يوم الاثنين أرسل وكيل الوزارة عربته إلى الفندق الذى أنزل فيه ومعيا مندوبه، الذى أبلغنى أن حسن باشا الدرمللى يود مقابلتى، وأنه أرسل لى عربته. ذهبت بصحبة النديم تحاشيا للذهاب بمفردى. وعندما وصلنا إلى هناك جرى استقبالنا استقبالاً طيبا، ثم أبلغنى أن راغب باشا كلفه برسالة مفادها أنه يود منى الذهاب للقائه فى الإسكندرية فى ديوان الإدارة. رددت عليه قائلاً: "هذا شىء طيب تماما"، وقال النديم إنه أيضا سيذهب معى. وعليه فقد غادرنا المنزل عاقدين العزم على أن لا تكون لنا علاقة براغب باشا".

"وعليه، ففى الوقت الذى كنت أرسل إليك برقيتى، (التى أرجوك فيها أن تستدعى ماليت وإلا سيقتله المتعصبون)، كان الخديو توفيق يحرِّض على إلقاء القبض علىَّ، وكنت عندما أرى الشبان الغاضبين يفكرون فى اغتيال كل من ماليت وكولفن، كنت أبين لهم حماقتهم، وأبين لهم أن ذلك لن يعود بالخير على القضية الوطنية".

في الرابع والعشرين من يونية

هذا هو محمود باشا الفلكي، الذى تخلى عن القضية الوطنية بسبب عدم حصوله على منصب في وزارة محمود سامي البارودي، جرت مصالحته وترضيته، حيث أعطاه عرابي منصب وزير الأشغال العامة".

يصف صابونجي بعد ذلك الأزمة التي سبقت استقالة محمود سامي البارودي، كما يصف أيضا مناشدة عرابي للسلطان، كما يصف مهمة بعثة درويش، وبعثة عثمان بك، وكيف أن هؤلاء الناس كانوا يتملقون عبد الحميد بحديثهم على الملأ حول حماسته لموضوع الخلافة. "أما فيما يتصل بقناعات هؤلاء الرجال الحقيقية، فهم يهتمون بعبد الحميد اهتماما مبالغا فيه عندما يحاولون الاستفادة منه ما دام مصدرا مستمرا لتلك الفائدة، وإلى أن يصلوا هم من القوة حدا يتمكنون معه من إعلان أنفسهم جمهورية مستقلة. كان ذلك هو الأساس الذى بني عليه هؤلاء برنامجهم منذ البداية، وإن رأوا أن يسيروا في خطتهم بصورة متدرجة. أكد لي محمود باشا سامي، في وجود كل من الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم، أنهم يتعين عليهم، قبل أن توافيهم المنية، أن يعلنوا استقلالهم عن الباب العالي، وإعلان مصر جمهورية. وعبد الله النديم شرع يبذل جهوده في زرع هذه الفكرة في أذهان الجيل الجديد. وأنا منذ وصولي إلى هنا كنت أنا والنديم نرافق بعضنا بعضا ليل نهار. نحن نجلس نتكلم ونبتكر الخطط إلى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا كل يوم. ونختلط بسائر طبقات المجتمع، المشايخ والعلماء والأعيان والتجار والضباط، وكلهم يستقبلوننا بأذرع مفتوحة، ونحن أيضا نحدثهم عن جهودك والخدمة التي أسديتها للقضية الوطنية. الكل هنا، مشتاقون لرؤياك، ويقدمون لك خالص الشكر. الواقع أن شعبا طيبا وحانيا بهذا الشكل يستحق كل الاهتمام والعون والمساعدة".

والواقع أنني عاجز إلى الآن عن تحديد تاريخ محدد ودقيق للخطة التي بدأت عندها قسوة قلب جلادستون على المصريين، والتي قرر فيها اللجوء إلى العمليات

العسكرية، بعد أن كان قد استطاع إقناع نفسه بأنه لن يدخل في حرب، لكــن هــذا الموعد لا بد أن يكون فيما بين اليوم العشرين من شهر يونيو ونهاية الشهر، وربما كانت الاعتبارات التي جعلت الرجل يتخذ هذا القرار، هي اعتبارات برلمانية فـــي المقام الأول. كان أتباع جلادستون من الأحرار Whig على وشك الثورة والتمـــرد عليه، وكان تشميرلين يضغط على الرجل بالحـــديث عـــن القلـــق المنتـــشر فـــي المقاطعات. يزاد على ذلك أن الهزيمة الدبلوماسية التي منيت بها وزارة الخارجيـــة بلغت من الوضوح حدا يصعب معه إخفاؤها. هذا هو جرانفيل، بمعاييره التسويفية ومماطلاته واعتباره أن التهديد بالحرب يساوى الحرب، راح "يضيع الوقت ســـدى" في مصر، إلى أن أصبحت إنجلترا أضحوكة أوروبا. في ســـوق الأوراق الماليـــة كانت الأوضاع سيئة للغاية، وأخذت التجارة تعاني من أزمة طويلة. تجربـــة مـــا يسمونه "مصادر الحضارة"، أو بمعنى أوضح، الكذب والخيانة والتدليس، كل ذلـــك جرت تجربته من قبل وزارة الخارجية، وإلى أقصى الحدود الممكنة، ولكن ثبت أن ذلك كله بلا طائل أو نفع في مواجهة العناد الوطني.

صدرت الأوامر من كل أصحاب السمو الملكي في إنجلتـــرا إلـــى عرابـــي بمغادرة مصر، لكنه عصى هذه الأوامر كلها. وعلى العكس من ذلك بـــدأ الرجـــل يحظى بشعبية هائلة في سائر أنحاء العالم الإسلامي، وذلـــك كلـــه علـــى حـــساب إنجلترا. بدا للكثير من الناس أن ذلك يمكن أن يؤدى إلى ثورة جامعة إسلامية فـــي الهند. وأنا أقول كما سبق أن قلت في يوم عيد ووترلو Waterloo: لم تكن إنجلتـــرا أكثر حمقًا مما هي عليه. وقد انزعج كبار المسئولين من ذلك، ولما كانت شـــوفينية الإمبراطورية قد دخلت في طور النوم اعتبارًا من هزيمة دزرائيلي البرلمانية فـــي عام ١٨٨٠، فقد هبت هذه النزعة الشوفينية فجأة من جديد، وراحت تصيح مطالبة بالدماء. وتحجر قلب السيد جلادستون، وسمح لضميره بالتغيب، ولست أظـــن أنـــه عمد إلى حسم الأمور بنفسه، وإنما بترك الأمور "للإدارات" و"لرجال الميدان"، أي أنه ترك الأمر لقائد البحرية السير بوشامب سيمور Seymour، وإلى كولفن (نظـــرًا لأن ماليت قد سحب من مصر) كيما يتوصلا إلى حل بطريقتهما الخاصة. وبـــذلك نكون قد كسبنا تمامًا المباراة مع وزارة الخارجية. هذا يعني أن الدور جـــاء علـــى قوات إنجلترا المقاتلة.

فى التاسع عشر من يونية

"تخوُّف فى سوق الأوراق المالية بعد استقالة برايــت Bright وتــشمبرلين" (هذا التخوف يوضح جهل الجمهور بحقيقة وضع تشمبرلين، الذى يساوى الجمهور بينه وبين برايت).

فى العشرين من يونية

"مقال أكثر منطقية واعتدالاً جرى نشره فى جريدة "الــديلى نيـوز". وقــد نصحنى فريدرك هاريسون Harrison، بأن أكتــب لجلادســتون رســالة مفتوحــة وأنشرها. والرجل يضمن حسن تأثيرها على المقاطعات، وعليه بدأت فى كتابة هذه الرسالة".

فى الحادى والعشرين من يونية

"أنهيت الرسالة المطلوبة وعرضتها على آل هوارد Howard للموافقة عليها. طلب منى (جورج هوارد) تعديل بعض الجمل، حتى لا يسىء الأمر إلى شــخص جلادستون. وافقت حرم هوارد على الرسالة موافقة تامة. كــان فرانــك لاســيلز موجودًا أيضًا. وعليه جرى عمل الترتيبات المطلوبة لنشر الرسالة فــى صــبيحة الغد، أو يوم الجمعة على الأكثر، وأُرسِلت الرسالة إلى جلادستون".

فى الثانى والعشرين من يونية

"التقيت بتون فى ساعة مبكرة. وكلانا يظن أنهم يقصدون الإضرار قبل كل شىء. وقد كتب هارى براند ما مفاده أن الفرنسيين إذا ما أصروا على الإنذار فذلك

يعنى أنهم يودون التدخل فى مصر، وذلك على الرغم من ألمانيا. وأنا مع ذلك أتشكك فى استعداد فرنسا لذلك التدخل. وسوف أتبع الرسالة التى أرسلتها (إلى جلادستون) برسائل أخرى، إذا ما تطلب الأمر ذلك. وأنا على يقين من أنه إذا ما أقدمت إنجلترا على إنزال قوات فى أى مكان من مصر، فإن السلطان سيعلن الجهاد، وإن مسلمى الهند سيثورون. هذا يعنى أن الأمور جد معقدة".

جرى نشر الرسالة التى أرسلتها إلى جلادستون، فى جريدة "التايمز" فى صبيحة اليوم الثالث والعشرين من يونيو، المصادف ليوم انعقاد المؤتمر فى إسطنبول. أحدثت الرسالة نوعًا من الاهتياج. وجاءت الرسالة على النحو التالى:

فى الحادى والعشرين من يونية ١٨٨٢

"سيدى"

إن خطورة الوضع الحالى فى مصر ومصالح الأمة الإنجليزية، التى يتهددها الخطر هناك، هى التى تجبرنى على الكتابة إليك على الملأ عن الخطوات الدبلوماسية التى أدت إلى الموقف المشوش والمعقد، وأن أضع أمام سيادتكم الحقائق التى يتعين على الدول أخذها بعين اعتبارها فى المؤتمر القادم.

تعلمون، يا سيدى، أننى كنت وسيطًا، خلال الشتاء الماضى، فى مجموعة كبيرة من المفاوضات المختلفة التى دارت بين كل من السير إدوار ماليت والسير أوكلاند كولفن من ناحية، وزعماء الحزب الوطنى المصرى من الناحية الأخرى، تلك المفاوضات التى تشرفت فيها بالولاء لصاحبة الجلالة. وتعلمون أيضا يا سيدى أننى كنت على صلة وثيقة بأولئك الزعماء منذ عودتى إلى إنجلترا، وبالتالى فأنا فى موقع يسمح لى بالكلام بثقة ويقين عن طبيعة ونوايا الحركة الشعبية فى مصر. زد على ذلك، أنكم تعرفون أنى كنت من وقت لآخر، أحذر حكومة صاحبة الجلالة

من الأخطار الدائرة هناك، نظرًا لأن الحكومة لم تقدر الحقائق تقديرًا طيبًا ولم تأخذها مأخذ الجد، وتعرفون أيضًا أنني كنت أحث الحكومة بصورة متكررة على ضرورة التوصل إلى شكل من أشكال التفاهم مع أولئك الذين بأيديهم مقاليد توجيه الحركة. أخيرًا، سيادتك تعرف أني مراعاة للحق والعدل، وبرًا بالوعد الذى قطعته على نفسى مع المصريين، قمت بالتفاوض معهم بأقصى ما عندى من جهد، فى الأزمة الأخيرة، ولم آلُ جهدًا فى حثهم على التوصل إلى تسوية لمشكلاتهم مع الخديو محمد توفيق، وهو ما توصلوا إليه حاليا مع الخديو، وهم سعداء بما وصلوا إليه. فى هذه التسوية بذلت كل ما فى وسعى وحمَّلت نفسى مسئولية كبيرة، لكننى أعتقد أن هذه المسئولية بررتها الأحداث وأثبتت صدقها.

كانت النقاط الماضية على النحو التالى:

١. ساعدت فى شهر ديسمبر الفائت الحزب الوطنى على نشر برنامج يلخص آراءه، التى هى آراء عادلة وليبرالية، التزموا بها واعتنقوها منذ ذلك التاريخ. واعتبارًا من ذلك الوقت وإلى موعد نشر الإنذار الثانى فى اليوم الثامن من شهر يناير، لم يكن بين إنجلترا والمصريين ما يدعو إلى الخلاف أو العراك. ولم يكن بينهم وبين الخديو توفيق أو المراقبة الثنائية أى نوع من الخلاف أو الشقاق، بل إن المصريين كانوا يثقون بالإنجليز والمراقبة الثنائية، وبأنهم سوف يسمحون بتطوير الحرية السياسية فى البلاد، فى اتجاه قيام برلمان وحكم ذاتى دستورى. لقد كان ولا يزال هدف الوطنيين فى مصر أن تكون مصر فى وضع الدولة، التى تقوم بسداد ديونها، وإصلاح القضاء فيها. وهم وثقوا فى الماضى، ويثقون حاليا بالجيش، الذى كان ولا يزال خادمًا لهم فى الحصول على هذه الحقوق، ويثقون أيضًا ببرلمانهم فى تحقيق وتأمين هذه الأهداف. وهم على استعداد بصفة مستمرة للمضى قدمًا وبصورة معتدلة ومتدرجة فى المسار الذى رسموه لأنفسهم.

٢. إن المذكرة المشتركة، أو بالأحرى التهديد الثنائي الذى رسمه جامبيتا مستهدفًا بذلك جعل إنجلترا شريكًا فى سياسته المعادية للمسلمين، والذى فهمه المصريون منذ الوهلة الأولى على أنه خطوة أولى على طريق سياسة مماثلة لتلك السياسة التى جرى اتباعها مؤخرًا فى تونس، هو الذى زعزع هذه الثقة وحولها إلى تخوين عميق لا يعرف الحدود. هذا الإنذار عجَّل بعمل المصريين ونشاطهم وحركتهم بدلاً من تخويفهم. هذا الإنذار الثنائى هو الذى جعلهم يصرون على استقالة شريف باشا، الذى دارت من حوله الشكوك، وأنه هو الذى كان يخطط لخداع المصريين، وهو أيضًا الذى ساعد الخديو فى تشكيل وزارة وطنية. هذا الإصرار، الذى صورته الصحف الإنجليزية على أنه من عمل الجيش، كان فى حقيقة الأمر من عمل الأمة والشعب، من خلال ممثليها النواب. وأنا هنا أورد لك كثيرًا من الأمثلة التى تؤيد ذلك.

٣. أدى السقوط المدوى لجامبيتا إلى عدم تنفيذ التهديد بالتدخل المسلح الذى كان ينطوى عليه الإنذار الثنائى. وعلى الرغم من ذلك، جرى الإصرار على رسم خطة للتدخل غير المباشر. المراقبان العامان الإنجليزى والفرنسى احتجا على الدستور الذى منحه الخديو فى اليوم السادس من شهر فبراير، وسحبت الحكومة الإنجليزية والحكومة الفرنسية موافقتهما على ذلك الدستور، وبخاصة المادة التى تخول البرلمان المصرى حق التصويت على نصف الموازنة، الذى لا علاقة له بسداد الدين، وقالتا إن ذلك يعد خرقًا للاتفاقات الدولية. وبنت الحكومة الإنجليزية والحكومة الفرنسية حججهما فى ذلك على بعض الفرمانات الصادرة عن الباب العالى، وبعض المراسيم الصادرة عن الخديو، وعلى أن المصريين يغفلون هذه الأمور بصورة دائمة.

٤. يجب أن نسلم أن الوكلاء الإنجليز فى القاهرة كانوا يتصرفون طوال الأشهر الثلاثة الماضية، وبصورة منتظمة، على أمل إحداث ثورة مضادة لإرادة الشعب من ناحية ومضادة أيضًا للحريات التى منحهم إياها الوالى. إن المراقب العام الإنجليزى، الذى يحصل على راتبه من الحكومة المصرية، لم يتورع هو الآخر عن المشاركة فى مسألة الثورة المضادة هذه، كما أن الوكيل الإنجليزى المقيم لم يتورع عن إحداث نوع من الشقاق بين الخديو ووزرائه. يزاد على ذلك أن المراقب العام، الذى يجلس فى مجلس الوزراء باعتباره مستشارهم الرسمى، سحب مشورته ونصائحه، معتمدًا فى ذلك على الأخطاء التى يمكن أن يقع فيها أولئك الأشخاص الجدد على المناصب، وراح يتصيد هذه الأخطاء فى صمت. يزاد على ذلك أن مراسلى الصحف الإنجليز، كانت تجرى السيطرة عليهم من خلال الوكيل المقيم، فجرى السماح لهم بنشر الأخبار التى تشكل خطورة على الوزارة، والتى اتضح أنها كانت أخبارًا مكذوبة وغير حقيقية. وأنا لا يسعنى هنا إلا أن أشير وأستعيد بعض أخبار التخويف التى جرى نشرها فى أوروبا فى خلال ذلك الوقت: التخويف من قطَّاع الطرق فى الدلتا، والتخويف من احتمال انتفاضة يقوم بها البدو؛ والتخويف من احتمال قيام ثورة فى السودان، والتخويف من نشوب حرب إثيوبية، والتخويف من الإنفاق العسكرى الباهظ، والتخويف من رفض الناس دفع الضرائب، والتخويف من استقالة محافظى الأقاليم، والتخويف من إهمال عمليات الرى، والتخويف من الخطر الذى يمكن أن ينزل بقناة السويس، والتخويف من تحول عرابى باشا إلى عميل مرتشٍ، وكذلك إسماعيل وحليم والسلطان.

بعض هذه التخويفات لا وجود لها على الإطلاق، ولا أبالغ إن قلت إن هذه التخويفات كلها لم يكن لها أى أساس من الصحة.

٥. **في العشرين من مارس**(*) تحدثت مع اللورد جرانفيل، وأبلغته بمطالب عرابى باشا فى هذا الصدد، وأوضحت له أيضا الخطر الذى يتهدد السلام فى مصر من خلال الوكلاء الإنجليز، وألححت فى مسالة إرسال لجنة إلى القاهرة للتحقيق فى مظالم المصريين".

وفى شهر أبريل انتهز القنصلان العامان الإنجليزى والفرنسى، اكتشاف المؤامرة التى حيكت لاغتيال الوزارة الوطنية، ونسبها هذان القنصلان إلى عميل من عملاء إسماعيل باشا، كى يجبر الخديو على الدخول فى مواجهة علنية مع وزرائه. وكان المتورطون فى هذه المؤامرة، الذين جرت إدانتهم ومعاقبتهم بالطرد، من أصحاب المناصب من الأتراك والشراكسة، وبذلك يكونون من العرق والمجتمع نفسه الذى ينتمى إليه الخديو. يزاد على ذلك أن الخديو كان يرفض التصديق على الأحكام الصادرة ضدهم، وقاسى الكثير من إقناعه برفض التوقيع على تلك الأحكام. وقد أدى ذلك إلى الصدْع الذى سبق أن جَهَّز له العمل الدبلوماسى الذى قام به القنصلان العامان. ترتب على ذلك قيام محمود سامى باشا باستدعاء النواب إلى القاهرة ليحكموا بين الخديو والوزراء، ولبى النواب تلك الدعوة. على الجانب الآخر، رفض سلطان باشا، بدافع من الحسد والغيرة، ترأس أية جلسة من الجلسات الرسمية. وهنا راح القنصل العام يستغل الموقف، ويشجع كل أولئك الذين يعارضون الحزب الوطنى على الالتفاف حول الخديو والوقوف إلى جانبه. وقف قسم من المصريين الأثرياء إلى جانب الشراكسة، وانخدع القنصل العام بفعل المظاهر، وحاول إحداث انقلاب. وقام القنصلان بإرسال إنذار، هما اللذان أملياه، إلى الوزراء، يصران فيه على استقالة الوزارة ورحيل عرابى باشا عن البلاد. بدت هذه الخطة وكأنها أصابت شيئا من النجاح، نظرا لأن الوزارة استقالت بالفعل. على الجانب الآخر اتضح على الفور أن مشاعر البلد لم يجر

(*) لا يوجد رقم (٥) فى الأصل، وقدرنا أن مكانه هنا. (المراجع)

حسابها بصورة دقيقة من قبل دبلوماسيتنا، وعاد عرابي في اليوم التالي إلى السلطة من جديد بفعل إرادة الأمة الواضحة والقاطعة.

أنا لا يمكن أن أفهم أن العمل الذي قام به قنصلنا العام في هذا الصدد كان مبررًا بأي مبدأ من مبادئ الأحرار؛ يزاد على ذلك أن هذا التصرف لم يصادفه النجاح أيضًا.

٦. عندما طُلب إرسال الأسطول إلى الإسكندرية، حاولت تحذير المسئولين، من وجهة نظري الخاصة، وبنيت هذا التحذير على كل ما شاهدته في الشتاء الماضي، وبخاصة التغير الذي طرأ على مزاج الشعب المصري، إلى حد أن وجود رجال الحرب الإنجليز في ميناء الإسكندرية في ذلك الوقت، وبخاصة عندما كان البحارة يتظاهرون بالنزول إلى البر، كان قد أوشك تمامًا على إثارة بعض الاضطرابات الخطيرة، وأنا نفسي كنت أنتوي السفر إلى مصر كي أفعل كل ما في وسعي من أجل التخفيف من النتائج المتوقع حدوثها.

٧. في هذا الوقت نفسه تقريبًا، وافقت الحكومة الإنجليزية على إرسال مبعوث تركي إلى القاهرة. كانت هناك فرضية مفادها أن سلطة السلطان في مصر بلغت من العظمة حدا يجعل إطاعة الأوامر التي يحملها مندوب السلطان أو ممثله أمرًا لا يقبل الرفض بأي حال من الأحوال. ومن جانب آخر، كان الباب العالي يتصرف بطريقته الخاصة، وعليه جرى إرسال درويش باشا. والمحزن أن وزارة الخارجية الإنجليزية كانت في ذلك الوقت تعتمد اعتمادا كليا على الحقيقة التي مفادها أن درويش باشا قاسي في تعامله مع الثوار والمتمردين. وأنا لدي من الأسباب ما يجعلني أعرف أن المطلوب من درويش باشا هو استدعاء أو دعوة عرابي باشا للذهاب إلى إسطنبول، وإذا ما فشل في ذلك يلجأ إلى الرشوة، وأنه في حالة الضرورة القصوى يقوم بإلقاء القبض على عرابي، أو يقتله رميًا بالرصاص، من منطلق أنه متمرد على السلطة. وأنا لا أناقش إن كانت هذه هي نوايا درويش باشا أو أوامر تلقاها من غيره، يبدو أن الباب العالي لم

يكن مقدرا مثل حكومة صاحبة الجلالة، للمشاعر الوطنية القوية في مصر، ويبدو أن الاتحاد والشجاعة اللتين كشف عنهما الشعب المصرى هما اللتان أقنعتا السلطان بعدم جدوى الطرق والأساليب سالفة الذكر التى استخدمها درويش باشا مع الثوار الألبان، ولذلك سادت الطرق والأساليب الإنسانية، وراح الجميع يحبذون السلام ويوصون به بين الخديو وشعبه.

هذا هو، يا سيدى، تاريخ موجز لعمل إنجلترا الدبلوماسى فى مصر طوال الأشهر الستة الماضية. هذا العمل يعد واحدا من أشد الأعمال بعثا للأسى فى سجلات وزارة الخارجية. على الجانب الآخر، المستقبل لا يزال أمامنا بشكل أو بآخر، على الرغم من أنه فى حال انعقاد المؤتمر سيكون صوت إنجلترا مجرد صوت واحد من بين أصوات كثيرة ترتفع منادية بالتسوية. ولست أنا الذى يمكن أن يقترح الكلام الذى ينبغى قوله فى ذلك المؤتمر، لكننى يسعدنى أن أخاطر بالتعبير عن قناعتى التى مفادها أنه إذا ما تقدم ممثل صاحبة الجلالة باعتراف صريح بالأخطاء التى وقعت، وإذا ما أعلن عن تعاطف إنجلترا مع حرية مصر، فإن ذلك يمكن أن يجعل بريطانيا تستعيد ذلك الذى ضاع منها. وعلى الرغم من غضب المصريين المبرر والعادل، من الألاعيب والحيل التى أقدمت عليها وزارة خارجيتنا فى التعامل مع المصريين، فإنهم لا يزالون يعتقدون فى وجود إحساس كريم وقوى وطيب فى جسد الأمة الإنجليزية، التى لا يمكن أن تقع فى خطأ عام فادح، مثل استعباد بلاد المصريين بسبب مصالح مالية بمصر أسىء استعمالها بسبب قناة السويس. لقد أكد المصريون لى مرارًا وتكرارًا، وأنا أعلم أنهم على حق فى ذلك، أن هدفهم الوحيد هو السلام والاستقلال والاقتصاد، وأن قناة السويس لا يمكن حمايتها بالنسبة لإنجلترا، وبالنسبة للدنيا كلها، إلا بالسماح للشعب المصرى أن يصبح ضمن الشعوب المستقلة فى المجال الدولى، حسبكم أن تمدوا يد الصداقة للمصريين عن طيب خاطر، وعندها سنكسب شكرهم وامتنانهم واعترافهم بالجميل.

وإننى سيدى خادمكم المخلص المطيع"

ولفريد سكاون بلنت.

الفصل الخامس عشر

ضرب الإسكندرية بالقنابل

نصل الآن إلى ضرب الإسكندرية بالقنابل، ذلك النزاع الذى اختلقه عن عمد كل من الأدميرال سيمور Seymour وكولفن، اللذين راحا يعملان فى تنسيق متقن، لإبعاد ماليت، مما أدى إلى وضع المزيد من القوة الدبلوماسية بين يدى كولفن. لـم يجر الاستبدال بماليت بلاسيلز Lascelles غيره مثلما تمنيت، نظرًا لأن هذا الأخير مستقل الشخصية، كما أن معرفته بمصر ربما تمكنه من السير علـى خـط مـن ابتكاره هو؛ وإنما جرى استبدال كاتب بسيط من كتبـة وزارة الخارجيـة يـدعى كارترايت Cartwright بماليت، وهو الذى تحول بسبب جهله وقله حيلته إلى مجرد آله سلبية، كان يجرى توجيهها بواسطة المراقب. ليس لدى بعد ذلـك مـا يمكـن إضافته إلى السجلات العامة لتلك الأسابيع الثلاثة الأخيرة فى القاهرة والإسكندرية، لكن مفكرتى تعطى صورة وفكرة عن ذلك الذى كان دائرًا فى لندن. لقـد تـسببت رسالتى المفتوحة التى أرسلتها إلى جلادستون فى جر عاصفة من الشتائم والتعنيف على نفسى، وقد أثار هذه العاصفة أصدقاء كل من ماليت وكولفن، كما شارك فـى ذلك أيضًا جنجو Jingo هو والعناصر المالية فى الصحافة والبرلمان.

فى الرابع والعشرين من يونية

"نُشرت اليوم فى جريدة "التايمز" رسالة غاضبة كتبها هنرى ماليت (شـقيق إدوارد ماليت الأكبر)... ولفت اللورد لامنجتون Lamington أيضًا الأنظـار إلـى "مفاوضاتى غير الرسمية" فى مجلس اللوردات يوم الاثنين. كلما كثر الكلام كـان ذلك أفضل... حضرت مجموعة من الناس (إلى مزرعة كرابـت) بمناسـبة يـوم الأحد، وكان لاسيلز من بين أفراد هذه الجماعة".

فى الخامس والعشرين من يونية

"كتبت ردا على رسالة هنرى ماليت وأرسلتها إلى جريدة (التايمز). كتبتهـا على شكل رد ناعم أدى إلى إزالة الغضب". (كنت لا أود التصارع مـع أصـدقاء كبار السن بهذه الطريقة، وقررت التريث اللهم إلا إذا اضطررت إلى ذلك) .

في السادس والعشرين من يونية

"وصلتني رسالة طويلة من صابونجي (وقد أوردتها في الفصل السابق). الناس في مصر يقيمون في القاهرة حفل غداء على شرفي... التقيت اللورد دي لا وور هو واللورد لامنجتون (وهما صهران) في مجلس اللوردات، وجعلت اللورد دي لا وور يطلب البرقية التي أرسلها ماليت بتاريخ اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر (تلك البرقية التي سبق لماليت أن قال إنه ألغاها). كان اللورد لامنجتون سيبني حديثه على الرسالة التي أرسلها هنري ماليت، لكنني أوضحت له أن هذه الرسالة ليست سوى هراء في هراء. وعموما فقد قدم الرجل عني خطبة قوية جدا اتسمت بنغمة الغضب، فبهت اللورد جرانفيل وبدا عليه القلق، لكنه أقر الحقيقة التي مفادها أني تصرفت في مرة من المرات بدافع تهدئة الجيش، وتلك كانت نقطة في صالحنا (وكان هنري ماليت قد أنكر ذلك). وقال إنه لا يذكر البرقية المؤرخة باليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر، ووعد بأنه سيبحث عنها. (كان السبب الرئيسي وراء الحرج الكبير الذي وقعت فيه الحكومة عندما جرى استجوابها عن "مفاوضاتي غير الرسمية"، يتمثل في أن الحكومة كانت قد دخلت في صعوبات مماثلة في سياستها في أيرلندا عندما عهدت في العام السابق إلى السيد إيرنجتون Errington بالاتصال بشكل غير رسمي بالبابا Pope للوقوف على رأي الأكليروس الأيرلندي). تناولت العشاء مع هنري ميدلتون في ناديه في ساعة مبكرة، وذهبت بصحبته لحضور اجتماع تعقده رابطة مقاومة العدوان، في مقرها في شارع فارنجدون Farringdon. وكان السير ولفريد لاوسون Lawson، رئيس الاجتماع ممتازًا، فقد كان أفضل المتحدثين الذين استمعت إليهم. كان السير آرثر هوبوز Arthur Hobbouse جيدًا أيضًا، كما قرأ فردريك هارسون محاضرة أورد فيها القضية المصرية بشكل عادل. (ملاحظة: كان هنري ميدلتون قد أمضى فترات كبيرة في مصر، وكان صديقًا حميمًا للمجتمع القبطي هناك. وجرى نشر رسالة جاءته في أثناء الحرب، من بطريرك الأقباط. هذه الرسالة مهمة لأنها توضح تمامًا كيف أن الأقباط كانوا يقفون في صف عرابي في ذلك الوقت).

فى السابع والعشرين من يونية

"تناولت العشاء فى منزل بمبروك Pembroke. وحضر من نـــادى ولتـــون Wilton حوالى أربعين شـــخصًا. جـــلست بجوار هــــارى برانـــد Harry Brand ودار بينى وبينه حديث عاصف عن مصر. بعد الغداء جرى شرب الأنخاب وكنت أنا من ضمن من جرى شرب الأنخاب فى صحتهم، وتحتم علـــىَّ إلقـــاء خطبـــة. أحسست وكأنى وسط جو غير ودى من الناحية السياسية، نظرًا لأن السواد الأعظم من الحاضرين كانوا من مناصرى جنجو، لكن إيدى هاميلتون حيَّانى بصفة خاصة على خدماتى العامة، وكان هو الذى طلب إلـــى الحاضـــرين أن يـــشربوا نخبـــى. ورددت قائلاً: البعض يخدمون بلدهم على نحو معين، والبعض الآخر يخدمون البلد أيضًا ولكن على نحو مختلف، لكن ما دام الإنسان يخدم بلده ويؤدى واجبه، فإن ما يفعله المرء قد لا يُعوَّل عليه كثيرًا من قريب أو بعيد". (كانت هذه الخطب مهمـــة بطبيعة الحال، نظرًا لأن نادى ولتون كان عبارة عـــن اجتمـــاع مقـــصور علـــى اللوردات، وبخاصة الأصدقاء الشخصيين للورد بمبروك، الذين كانوا يجيئون إلـــى بيته بمعدل مرتين أو ثلاث مرات فى العام لتناول العشاء لكـــى يتنـــاولوا العـــشاء ويمرحوا).

فى الثامن والعشرين من يونية

"قصدت منزل جورج هوارد، وأطلعته على رسالة صابونجى، كما أطلعتـــه أيضًا على رسالتى التى أرسلتها إلى جلادســـتون. يقـــول صـــابونجى إن زعمـــاء الحزب الوطنى يفكرون فى الذهاب إلى إنجلترا ليضعوا قضيتهم أمام جلادســـتون، وطلبت من هوارد، إذا ما استطاع، ترتيب مقابلة لى مع السيد برايت Bright. وأنا أتصور أنه أكثر ميلاً إلى المنطق من الآخرين، مؤملاً أن أجنى خيـــرًا مـــن وراء لقائى معه. ليس هناك شك فى أن الاستعداد للحرب يجرى على قدم وساق، لأسباب

غير واضحة. وأنا لا أصدق أن هذه الأسباب لا ترمي إلى شيء سوى تقوية قبضة دوفرين Dufferin في المؤتمر. لقد أرسلت برقية إلى صابونجي لأقول له فيها إنه لم يتقرر هنا أى شيء بعد حول مسألة إرسال القوات، وطلبت منه أن يتواصى بالصبر".

في التاسع والعشرين من يونية

"زرت برايت في منزله في بيكاديللي. تحدث معي حديثا وديا، لكنه كان أقل تعاطفا من جلادستون، كما كان أقل منه ذكاءً وألمعية أيضا. كانت زُبْدة اللقاء مرضية للغاية. أكد لي برايت أنه لم يجر اتخاذ أية خطوات عملية أو فعالة بشأن العمليات العسكرية، وهو لا يظن أن مثل هذه الخطوات يمكن اتخاذها أو الإقبال عليها. ويرى أن قناة السويس ليست لها أهمية إستراتيجية كبيرة عند الإنجليز، وهو مثل جلادستون يفضل طريق رأس الرجاء الصالح في عملية التواصل العسكرى مع الهند. وقد شرحت لبرايت وجهة نظرى فى حركة الإصلاح الإسلامي بمصر، كما شرحت له مدى اختلافها مع أفكار السلطان شديدة التطرف. وأنا أرى أن زيارتى قد تفيد وتقوى جماعة السلام في مجلس الوزراء". (ملاحظة: كان برايت قد استطلع تماما، أكثر مما ورد هنا، فكرة العمليات العسكرية في الإسكندرية. ورجاني الرجل أن أهدأ وأريح ذهني من التفكير في هذه العمليات. وأنا أعتقد أنه كان صادقا فيما يقول في حدود ما يعرفه عن الموقف. لكن المسكين، الذى كانت مبادئه تعارض العمليات الحربية تماما، لم يكن يعرف، مطلقا ذلك الذى كان يدور في قيادة البحرية ووزارة الحربية، وأنه على حد قوله لي فيما بعد، كانوا قد أقنعوه، أنه حتى على الرغم من القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء بشأن ضرب الإسكندرية بالقنابل، فإنه سيبقى شأن التهديدات الأخرى كلها، أى مجرد تهديد أجوف Brutum. كانت النظرية التى جرى وضعها أمام مجلس الوزراء من قبل وزارة الخارجية تفيد أن الغالبية العظمى من المصريين تقف إلى جانب الخديو، وليس إلى جانب عرابى، وأنه مع أول دانه يطلقها الأسطول البريطانى على

الإسكندرية، سيهرع سكان الإسكندرية ويمسكون بعرابى، الذى ينفرد بالرغبة فى المقاومة، ويحضرونه أسيرًا أمام قدمى مولاه. وعندما اكتشف برايت أنه خُدع فى الموافقة على ضرب الإسكندرية بالقنابل، الأمر الذى أدى إلى إحراق المدينة، استقال من منصبه فى مجلس الوزراء، ولم يسامح جلادستون ولم يعفُ عن الدور الذى لعبه فى هذه الخديعة، كما لم يصفح الرجل مطلقًا عن تخلى الوزراء عن مبادئهم).

"زرت حرم جريجورى، التى أعدت بحثًا عن المراقبة على مصر، وكان بحثًا مسليا وطريفًا. وتناولت العشاء مع آل هوارد. الذى كانت زوجته متحمسة لمخططاتى".

فى الثلاثين من يونية

"هذا هو كولفن يعلن بشكل صريح على صفحات جريدة (التايمز) ومن خلال مراسلها، أنه لا هو ولا ماليت حاول مطلقًا الاستفادة من خدماتى كوسيط فى أية مناسبة من المناسبات. وبذلك يكون كولفن قد وضع نفسه بين يدى وتحت رحمتى، بعد اعتراف اللورد جرانفيل بحقيقة الأمر فى يوم الاثنين". (ملاحظة: هذا الإنكار الواضح والصريح من جانب كولفن لأمور يستحيل أن يكون قد نسيها، لا يحتاج منى هنا إلى المزيد من التوضيح. وازداد الوضع سوءًا نتيجة للرسالة الخاصة التى أرسلها إلىَّ كولفن، فى السادس من يوليو، والتى أنكر فيها مسئوليته عن البرقية التى أرسلت إلى جريدة التايمز. قبلت تفسير الرجل فى ذلك الوقت على أنه كلام حقيقى، لكننى عندما سألته، بعد ذلك بأيام قلائل، أن ينكر البرقية علانية وعلى الملأ، رفض أن يفعل ذلك، وبأسلوب اتضح منه إصراره على الكذب).

"تناولت طعام الإفطار مع دى لا وور حتى يمكن لى التقاء السيد برودلى Broadley، مراسل جريدة "التايمز" فى تونس. (ملاحظة: هذا هو برودلى الذى عهدت إليه، بعد ذلك، بناء على توصية من دى لا وور بالدفاع عن أحمد عرابى. لقد كان يعمل محاميًا لدى المحاكم القنصلية فى تونس، ثم أصبح مراسلاً لجريدة

التايمز في تونس بعد ذلك. وكان رجلاً كفئا، أفاد منه دى لا وور في أمور كثيرة، إذ كان يزود الرجل بالمعلومات عن أمور الشرق التي كان دى لا وور يهوى جمعها والاستماع إليها، كما كان برودلي يقوم، عندما يكون في لندن، بإعداد خطب دى لا وور التي يلقيها في مجلس اللوردات. وعندما قام الفرنسيون بغزو تونس لعب الرجل دورا مهما في جريدة التايمز لصالح الصحوة الإسلامية ، ونشر كتابًا مفيدًا بعد ذلك عنها، تحت عنوان "الحرب القرطاجية الأخيرة") وهو يقول "إن الجميع ينتظرون في طرابلس وتونس تحرك السلطان. وإذا لم يحدث هذا التحرك فإن السنوسي سوف يتزعم هذه الصحوة الإسلامية. كتبت رسالة لجريدة التايمز ردا على كولفن، وكانت تلك الرسالة كفيلة بتحطيم الرجل. تناولت الغداء مع آل جريجوري".

"يكتب إيدى Eddy رسالة ودية يقول فيها إن جلادستون لن يتراجع عن تعبيراته الخاصة بالتعاطف مع استقلال مصر، إذا ما ثبتت صحة الكلام الذى قلته له. ولا بد أن يكون قد نقل ذلك عن برايت". وهذه الرسالة المشار إليها هنا من الرسائل المهمة بالنسبة للتسوية التي جرت بعد ذلك في مصر، وعلى الوعد بالاستقلال والمؤسسات التحررية التي نوه عنها جلادستون من خلال اللورد دفرين Dufferin في برقيته الشهيرة. ولولا تأكدى من موقف جلادستون في هذه النقطة بالذات، فلم يكن يساورني أى شك في أن مصر كان سيجرى ضمها إلى الإمبراطورية البريطانية بعد ذلك الذى حدث في التل الكبير. كان المحافظون كلهم في مجلس الوزراء يؤيدون ذلك الضم.

اليوم الثاني من شهر يولية

"ذهبت إلى بروكيت Brocket. الذى هو أجمل مكان ريفي شاهدته عيناى بعد ولتون Wilton. كل شيء في هذا المكان مثلما كان عليه قبل خمسين عامًا أو ستين، أيام كارولاين لامب واللورد ملبورن. لقد توفى اللورد بالمرستون في هذا المكان. إن مالك هذه الضيعة حاليا، وهو هنرى كوبر، يتعاطف معي تعاطفًا كبيرًا.

لقد كنا جماعة مكونة من هارى براند، وزوجته، والوزير المفــوض الأمريكــى، واللــورد هوتــون Houghton، وليمنجتــون Lymington، وفردريــك ليفــسون Levesson، وكور Cower، وشقيق اللورد جرانفيل وسكرتيره. وقد تناقشنا حــول مصر فى جو ودى تمامًا، بما فى ذلك ليفسون نفسه. كما وقــف الأمريكــى إلــى جانبى... وجرى حوار قصير بينى وبين ليفسون بعد أن مارسنا لعبة التنس. وكان الرجل يتحدث حديثًا مشينًا عن الإمبراطورية البريطانية، وكان يــرى أن إنجلتــرا يمكن أن تظل إذا لم تحدث فيها ثورة داخلية. الكلام على هذا النحو فــى بروكــت يثير الشجن... وقع هجوم شرس آخر علىَّ من جريدة "الأوبزرفر" Observer".

فى الثالث من يولية

"كنت فى بروكت. أتصور أنه لو كانت هناك نية فى التدخل فإن ذلك التدخل يمكن أن يكون تدخلا إيطاليا- فى أضعف الأحوال، إذا ما كان مثل هــذا التــدخل بأمر من المؤتمر. وأنا أكره ذلك وأمقته تمامًا، نظرًا لأن الإيطاليين فــى الوضــع الراهن يبدون متعاطفين مع المصريين، لكن إذا ما قاموا بالغزو فإنهم ســيتحولون إلى وحوش فى طرقهم وأساليبهم. يزاد على ذلك أن الإيطاليين لا يمكن مــساءلتهم داخليا عما فعلوا، وذلك على العكس منا نحن الإنجليز والفرنــسيين". (ملاحظــة: كانت الحكومة الإيطالية قد طُلب منها فى ذلك التاريخ الانضمام إلينا فــى مــسألة التدخل المسلح فى مصر، ولكنها رفضت ذلك رفضًا حكيمًا وعاقلاً. لو حدث ذلــك لكان أمرًا مثيرًا لسخط الليبراليين فى إيطاليا، حيث كان مينوتى غاريبالدى يــشكل قوة لمساعدة عرابى). "وصلت إلى نيبورث Knebworth لتناول الغداء. كان ليتون Lytton يشق طريقًا جديدة فى المنتزه، وهذا بطبيعة الحال تطوير وتحسين طيــب. تكلمنا عن الإمبراطورية البريطانية، ذلك الموضوع الذى يثير اكتئابه مثلمــا يثيــر اكتئابى أنا أيضًا. من رأى الرجل أن سياستى ربما كان يكتب لها النجاح، هــى أو أية سياسة أخرى، بشرط أن لا تعتمد على المصادفة. الرجل يتوقع حدوث تمــرد إسلامى فى الهند إذا ما تركت الأمور على ما هى عليه... اتجهت فى المساء إلــى تمبل دنسلى Temple Dinsley حيث يوجد آل براند".

فى الرابع من يولية

"سافرت إلى لندن، ووجدت فى انتظارى برقية تقول إن عرابيا لـــن يـــسافر مطلقًا إلى إسطنبول، كما وجدت أيضًا فى انتظارى رسالة من صابونجى أثـــارت قلقى. من الواضح أن هذه الرسالة جرى فتحها فى مكتـــب البريـــد، وربمـــا أدت محتوياتها إلى تسوية الزعماء للمسألة فى إسطنبول. وردت فى الـــصحف أيـــضًا برقيات عن تجدد النزاع حول تحصينات الإسكندرية، وكانت حرم جريجورى التى وصلت إلى شارع جيمس، قد سمعت من السير إرسكاين مـــاى Eriskine May، أن بوشامب سيمور تلقى أوامر بضرب الإسكندرية بالقنابل غدًا". (وأعتقـــد أن الـــسير أرسكاين ماى هو مسئول كبير فى البحرية). وأول إشارة وردت فى الكتب الزرقاء تشير إلى ضرب الإسكندرية بالقنابل، وتقول إن ذلك كان فى السادس والعـــشرين من شهر يونيو، عندما أبرقت قيادة البحرية إلى بوشامب سيمور: "إذا كانت القوات المصرية تستعد للهجوم، اتصل بالإدميرال الفرنسى وجهز الـــسفن واجعلهـــا فـــى وضع الاستعداد". هذه البرقية توضح حكاية الذئب والحمل التى جرى اللجوء إليهـــا لالتماس الأعذار لهجومنا المدبر. ونحن نعرف من يوميات بالمر Palmer، والتـــى سنشير إليها لاحقًا، أن سيمور قرر ضرب الإسكندرية بالقنابل فى وقت مبكر، منذ الرابع من شهر يوليو. وكان من بين العوامل المحددة لـــذلك الـــضرب فـــى هـــذا الموعد، من قبل كل من جلادستون ومجلس الوزراء، ذلك التقرير الكـــاذب الـــذى نشر عن حدوث مذبحة فى بنها، ذلك الحـــادث الخرافـــى الـــذى جـــرى افتعالـــه والاستفادة منه فى إغضاب الرأى العام الإنجليزى على أحمد عرابـــى) . "وتـــذكر زوجة جريجورى أنها سمعت أيضًا أن كولفن قد استقال، وأن استقالته قُبلت". وأنـــا لا أعرف الأساس الذى بنى عليه هذا الخبر، لكن فات الأوان على نحو لا يمكـــن معه إحداث أى تغيير فى النتائج، والأرجح أن هذا الخبر كان غير حقيقى بالمرة.

فى الخامس من يولية

"أنا أشعر بالقلق الشديد إزاء هذه التهديدات بضرب الإسكندرية بالقنابل. عند الساعة الثانية عشرة ذهبت إلى مجلس العموم واستمعت إلى ديلك وهو يعلن أن الأسطول لديه تعليمات وأوامر (بالتصرف بطريقة معينة فى ظل ظروف معينة أيضا). تناولت الغداء مع السير ولفريد لاوسون Lawson، الذى هو رجل أنيس بحق، وقرأت عليه رسالة صابونجي التى يصف فيها حفلات الغداء والحوارات مع الزعماء الوطنيين، وأنه هو وآخرون سوف يبذلون قصارى جهدهم، لكنهم ليس لديهم ما يفعلونه الآن. جرى طبع الرسائل التى أرسلتها إلى جلادستون، لكننى لا أقوى الآن على نشرها إلا بعد أن أتبين الخط الذى سيسير عليه الباب العالى... تناولت العشاء فى منزل السيدة روزاموند كريستى Rosamund Christie. كان نويلز Knowles موجودا أيضا، وقال إن القصف سيبدأ صباح باكر، وقفت فاوست فى صفى. خِفتُ من أن يدخل الوطنيون فى معركة غير متكافئة بالمدفعية مع الأسطول، وتسفر عن هزيمتهم وإصابتهم بالإحباط. أعتقد أن الوطنيين ينبغى عليهم أن يغادروا الإسكندرية، وأن يتخذوا لأنفسهم معسكرا محصنا بعيدا عن مرمى نيران الأسطول ومدافعه. لكنى لا أقوى على توصيل هذا النصح إليهم". (فى ذلك الوقت أبلغنى بتون Button أن خطة البحرية تقوم أيضا على إنزال جنود فى أثناء القصف حتى يمنعوا انسحاب عرابى. هذا الخبر، على وجه التحديد كان له تأثير كبير على البرقية التى أرسلتها فى اليوم التالى وعلى الرسالة التى أرسلتها فى السابع من يوليو).

فى السادس من يولية

"قام الأدميرال سيمور بتوجيه إنذار، وعليه أبرقت إلى صابونجى بما يلى: (تجنبوا الاشتباك مع الأسطول، أرسلوا محمد عبده برسالة إلى جلادستون. اصطبروا واصبروا). أنا لست متأكدا إن كنت أتصرف كما ينبغى أم لا، لكن

الحرص هو الطريق الصحيح. يزاد على ذلك أن عرابى سيكون له حكم مستقل عن رأيى، والرجل لم يخطئ مطلقًا إلى الآن. لقد أرسلت صورًا من مراسلاتى مع مجلس الوزراء إلى الكاردنال مانِنج Manning وإلى نويلز (كما أرسلت صورًا أيضًا من هذه المراسلات إلى اللورد دفرين). ذهبت بعد الغداء للقاء هيل Hill، أكبر الشخصيات فى جريدة الديلى نيوز. فهذا الرجل الآن يقف فى صفنا، فقد فات أوان القيام بأى إصلاح من الإصلاحات أو فعل أى شىء. ووعد هيل بأنه سيكتب إذا ما استطاع ذلك... وصلتنى فى المساء برقية من صابونجى، تقول إن كل شىء هادئ، وعليه أرى أن المشكلة قد أمكن تحاشيها... كتبت اليوم إلى إيدى أقترح عليه إطلاعه على رسائل صابونجى التى تسلمتها بالفعل والتى أرسلتها إليه. هذا علاج يائس، لكن الظروف أيضًا هى ظروف يأس وإحباط".

فى السابع من يولية

"ذهبت لمقابلة ستانلى الألدرلى Alderley وحرضته على لقاء موسوروس Musurus منعًا لأى انقسام بين عرابى والسلطان. وأخبرته بحقائق الموضوع، لكنى أفهمته أن هذه اللحظة لا تتحمل وجود شقاق بين المسلمين، وأن الأتراك والمصريين يمكن لهم تسوية مشاكلهم فيما بعد. يبدو أنه يتفق معى... ثم كتبت بعد ذلك رسالة لصابونجى أوصيت فيها بعدم الاشتباك مع الأسطول، وأن يقيموا لأنفسهم معسكرًا بعيدًا عن مدى نيران المدافع. وأنا ما زلت أعتقد أن القوات الإنجليزية لن يتم إنزالها فى مصر، لكن قد يتعين عليها مقاتلة الأتراك أو الإيطاليين... هذه هى الصحف تعلن عن تسوية سلمية بين عرابى والأسطول، وهذا أمر مرضٍ حتى الآن".

فى الثامن من يولية

"كرابت. وصلتنى من وردية البريد الثانية رسالة من إيدى هاميلتون تفيد أن جلادستون لا يزال قابلاً للإقناع. وهذا أكثر مما كنت أتوقع أو أنتظر" (وأكثر أيضًا مما تعنيه رسالة جاء فيها ما كتبه هاميلتون على النحو التالى: "آمل أن تصدق أن

الحكومة كانت تود طول الوقت الوقوف على الحقيقة، لكن من الواضح أن هذه المسألة ليست سهلة"). وبناء على هذه الرسالة رحت أعد ملخصًا لرسائل صابونجي. وصل إلى كرابت في المساء كل من لاسيلز وآخرين.

في التاسع من يولية

"الأحد، "تشاورت مع لاسيلز حول إرسال رسائل صابونجي إلى جلادستون، لكن الرجل يرى أن أوان ذلك قد فات. لقد أبلغه هارتنجتون Hartington أنهم ينوون احتلال مصر، واحتمال أن يضموها إلى الإمبراطورية البريطانية، تأسيسًا على مبدأ أنا موجود، إذن أنا باق. يقول شامبرلين: (لقد حشرنا الرجل العجوز الآن في زاوية، ويتعين عليه المقاومة). سوف أنتظر ما تسفر عنه الأحداث. هذه هي جريدة (الأوبزرفر) تنشر تهديدًا أو إنذارًا جديدًا. سوف أترك للعناية الإلهية التصرف وتحديد المصير في هذه المرة". (ما أسجله هنا على أنه قيل لي من جانب لاسيلز له أهميته التاريخية. كان الرجل في وضع يمكنه من معرفة ما يدور أكثر من أي واحد آخر من أصدقائي. ولما كان لاسيلز قائمًا بالأعمال في مصر، فإنهم في وزارة الخارجية كانوا يستشيرونه، ولما كان أيضًا الابن الأول من أبناء عمه اللورد هارتنجتون فقد كان يسر إليه أيضًا بما يدور في جماعة الأحرار Whig بمجلس الوزراء).

في العاشر من يولية

"صدر إنذار ثان، والإنذار هذه المرة بلُغة لا يمكن أن يقبلها عرابي. هم يطلبون منه تسليم القلاع والحصون. ومن جانب آخر، الفرنسيون يرفضون المشاركة في هذا العمل من أعمال القرصنة. هناك أناس ممن يعرفون أهل البحرية معرفة حقيقية يقولون إن بوشامب سيمور يرتعد خوفًا، لأن السفينة (إنفنسبل) Invincible[*] هي السفينة الوحيدة المدرَّعة بحق وأن الأسطول بحالة يرثى لها".

(*) بمعنى "السفينة التي لا تهزم". (المترجم)

(وأنا أرى أن هذا الكلام ينطوى على شيء من الحقيقة، كما أن السفن في أثناء وجودها في الميناء كانت في مرمى نيران القلاع. لو كان الوطنيون عقلاء مثل رجالنا لكانوا قد استغلوا هذه النقيصة وأغرقوها. لكن عرابيا لم يكن رجلاً من رجال الضربات الموفقة Coup التى من هذا القبيل، يزاد على ذلك أنه كان يلتزم بالقاعدة الإسلامية ألا يكون هو البادئ بالعدوان. لم يكن القتال مطلقًا من أهدافه، وكان كل هم الرجل يتركز في تحاشى أسباب الصدام كلها. وتأسيسًا على ذلك سمح عرابي لسيمور بتحريك سفنه خارجِ الميناء وتحديد المسافة التى يختارها هو). "قد يكون عرابى على حق عندما قبل النزال. وعلى أى حال، لقد فرض الإنذار الأخير الأمر على عرابى بطريقة لا يمكن هو أن يرفضها. الغريب بحق أني في حال نفسية عالية، ورأيى هو أن هذا القصف وسفك الدماء سيسفر عن إثارة المشاعر العامة والشعور العام هنا ويوقف اتخاذ أى إجراء من أى نوع كان. لا أحد بطبيعة الحال يود الحرب أو الضم، اللهم إلا رجال المال ورجال الأعمال الذين سيدركهم الهلع إذا ما تحرك الشعب. يزاد على ذلك أن الدول يحتمل أن تغضب من هذا العمل من أعمال العنف الذى يجرى فى أثناء انعقاد المؤتمر. كانت بريطانيا ترى أن الشكل العام لما يدور سيئ للغاية. الأمر قد يفضى إلى الدخول فى حرب مع فرنسا، مما يؤدى إلى ضياع الهند من إنجلترا... سافرت إلى لندن والتقيت حرم جريجورى، التى تود منى إرسال صورة من رسائلى إلى جلادستون، لكى يطلع عليها جبسون Gibson، والسبب في ذلك أن جبسون هو الرجل القادم من المحافظين، وأن المحافظين ستكون السلطة بأيديهم خلال وقت قصير. وكان جلادستون قد هزم فى يوم الجمعة فى عملية من عمليات التصويت المهمة... حتى أن هاريسون Harrison كتب رسالة قاسية إليه، ليقول له إن ما يفعله في مصر سوف يحطم سمعته وينهيها إلى الأبد من التاريخ. هذا أمر أكيد، وسوف أحرص على فعل ذلك... تناولت الغداء مع جورج كورِّى Currie، الذى يحس بالسعادة الآن والانشراح لحزم الحكومة، وباعتباره واحدًا من حملة الأسهم والسندات. وقد قال إنهم كانوا خائفين نظرًا لأن جلادستون كان سيضحى بمصالحهم".

"ذهبت إلى مجلس العموم، حيث التقيت لاوسون، وسألنى الرجل عما يمكن عمله. قلت: "لا شيء". ألقى ديلك بيانا يؤكد فيه على الإنذار... وصل اللورد دى لا

وور عند الساعة السادسة ليسألنى ما إذا كنت أود إرسال برقية لعمل ترتيب بعينه. لكنى أبلغته أنى لم يعد فى وسعى عمل مثل هذا الشيء، نظرًا لأن المصريين لا يمكن أن يتخلوا عن قلاعهم إلا بشرف. عدت بعد ذلك إلى بيتى فى كرابت".

فى الحادى عشر من يوليو

"كرابت. استقر فى ذهنى صباح اليوم أنه لو طلع الطقس صحوًا اليوم فذلك يعنى أن الأمور ستكون على ما يرام فى مصر، لكننى أبصرت السماء تمطر! سأبقى هنا إلى أن ينتهى كل شيء، باستثناء يوم الخميس، الذى دعيت فيه إلى الحضور إلى مارلبورو هاوس Marlborough House، لأشرف بلقاء صاحبة الجلالة... سنعرف كل شيء خلال ساعات قلائل... استمر المطر حتى الساعة الثانية ثم صفا الجو بعد ذلك. بقيت فى منزلى بحال عصبية غير قادر على فعل أى شيء... عند الساعة الرابعة والنصف أحضر لى ديفيد David جريدة جلوب Globe، التى تحمل نبأ بداية ضرب الإسكندرية بالقنابل عند الساعة السابعة ولا يزال ذلك الضرب مستمرًا إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة. عند الساعة الخامسة عادت آن Anne من لندن ومعها جريدة "بول مول" وجريدة "سان جيمس"، الجريدتان توضحان أن الضرب لا يزال مستمرًا حتى الساعة الواحدة وأربعين دقيقة. واضح أن المصريين يحاربون حرب الرجال، وعليه فأنا لا أخشى شيئًا. هناك احتمال أن يجرى طرد المصريين من القلاع ومن الإسكندرية. ومع ذلك لن تنهزم مصر. لقد اتجه الأسطول الفرنسى إلى بورسعيد، ويستحيل ألا تكون هناك حرب أوروبية. أرسلت مراسلاتى مع جلادستون إلى أمير ويلز".

فى الثانى عشر من يوليو

"جرى إسكات القلاع، ومع ذلك لم يكشف المصريون عن أية علامة من علامات الاستسلام، وهذه هى الصحف تتحدث عن ضرب الإسكندرية بالقنابل لليوم الثانى. هذا شيء وحشى. أنا سعيد لأن السلطان موقفه ثابت، والحرب الدينية أصبحت أمرًا لا مفر منه، وأن هذه الحرب الدينية ستعقب الحرب السياسية، على

حد قول عرابى. ما تنبأنا به عن جلادستون سوف يتحقق. لا بد أن ضمير الرجل يؤنبه الآن، ضمير يوجين أرام، وأنا مؤمن أن هذا الرجل (جلادستون) قادر على ارتكاب أية خيانة من الخيانات وأية جريمة من الجرائم. أنا لا أملك أن أفعل أكثر مما فعلت، وسوف أبقى هنا (فى إنجلترا). ذهبت بعد ذلك للصيد فى الغابة، اليوم صحو ودافئ، ويهدد بقليل من الرعد قبيل الظهر. صحف المساء تتحدث عن راية الهدنة، وعن الأمواج العالية التى حالت بين السفن وبين استمرار الضرب".

فى الثالث عشر من يوليو

"التقيت بتون Blount الذى قال لى: إن الاحتلال أمر لا مفر منه. كان إدوارد بلونت Blount العجوز معنا فى القطار. الرجل يقول لى: إن الفرنسيين لا يسمح حالهم بالحرب. يقول أيضًا: إن بحريتهم ليست ممونة تموينًا جيدًا وأنهم يعانون من نقص فى الذخيرة. وهو يرى أنه ستكون هناك ثورة فى غضون أشهر قلائل... عثرت على السير ولفريد لاوسون فى منزله فى جرسفنور كريسنت Grosvenor Crescent وجرى بينى وبينه حوار طويل، لكن الرجل يتفق معى على أنه فات أوان عمل أى شىء مع الحكومة... تناولت الغداء مع آل هوارد. حرم هوارد راسخة ومتماسكة، أما هو فمتشكك... فى أثناء عودتى عن طريق مترو الأنفاق قرأت فى الصحف أن الإسكندرية تشتعل فيها النيران، وقرأت أيضًا عن إخلاء المدينة، وعن بعض المذابح التى قام بها بعض الأوغاد. هذا هو الحال الذى ينبغى أن يكون فى مثل هذه الظروف. أنا سعيد لأمر واحد فقط، وهو خروج الجيش سالمًا من هذه المصيدة. كنت أعتقد منذ أن سافر عرابى إلى الإسكندرية أنه سيجرى القبض عليه والإمساك به من قبل بعض أعدائه. يبدو لى الآن أن الرجل تصرف على النحو الذى كنت أتمناه، وهو التراجع، أو بالأحرى الانسحاب، إلى موقع حصين بعيد عن مرمى مدافع الأسطول. الناس، أو بالأحرى الصحف، غاضبة تمامًا لأن الرجل انسحب تحت راية الهدنة، لكنى لست عسكريا بالقدر الذى يسمح لى بتحديد مدى الخيانة، وبخاصة أن الأدميرال سيمور سبق أن أعلن أنه يفهم رفع الراية البيضاء على أنه إخلاء للقلاع". (هذا الانتهاك للراية البيضاء،

جرت الاستفادة منه فى محاكمة عرابى، والمضحك أن جلادستون أصر على هذا الاتهام نظرًا لأنه التزم بعبارة تقول إن الانسحاب فى أثناء رفع الراية البيضاء يعد انتهاكًا لقوانين الحرب، فقد جرى الإصرار على هذا الاتهام، مع أن بعض الاتهامات الأخرى جرى التخلى عنها، إلى أن جرى بعد ذلك اكتشاف نص فى (كتاب جيب الجندى) الذى ألفه اللورد ولسلى. يذكر أن ذلك لا يعد انتهاكًا)، والمعروف أن (هذا الكتاب) من الكتب المقررة على الجيش.

"كنت مترددًا فى مسألة الذهاب إلى مارلبورو هاوس، لكنى وجدت أنه من الأفضل لإثبات ولائى، وعليه ذهبت إلى هناك. الجميع كانوا ودودين باستثناء هوتون، الذى كان يقاطعنى دون سائر الناس. كان آل ماليت موجودين فى مارلبورو هاوس أيضًا - وهم أناس مساكين متقدمون فى السن - لكنى لم أجرؤ على الحديث معهم. جاءنى روبرت بورك وهو فرح وسعيد للورطة التى وجدت الحكومة نفسها فيها، وهذا شأن الحياة الحزبية. كل الناس الذين كانوا هناك سبق أن رأيتهم. صافحنى أمير ويلز، لكنه لم يقل شيئًا. كان وجه صاحبة الجلالة يبدو مشرقًا، أعتقد أن ذلك كان بسبب القصف. ويقال إن جلادستون أعلن فى مجلس العموم أنه لن يرسل جيشًا إلى مصر. كما صرح بأنه ليس فى حرب مع أحد، وعلى الرغم من ذلك يؤكد لى بتون الذى تناولت معه العشاء، هو واللورد بكتيف، إن القوات ذاهبة إلى مصر، وأنهم يريدون ضم مصر بالفعل".

فى الرابع عشر من يوليو

"تناولت طعام الإفطار مع دى لا وور. وأريته الرسالة التى أرسلها عرابى إلى جلادستون، ونصحنى الرجل بعدم إرسال هذه الرسالة، لكنه عرض علىَّ أن يطلب إلى أمير ويلز التحدث معى حول هذه الرسالة. وأنا أعتقد أن هذه خطة سليمة. إننى لا أجرؤ على ترك مثل هذه الرسالة تقع فى أيدى الحكومة إلا بعد التأكد من شكل التدخل الذى سيحدث".

الرسالة المشار إليها هنا هى الرسالة التى أملاها عرابى على صابونجى فى الإسكندرية، والتى أرسلها إلىَّ هو بدوره، رغبة منه فى أن أقوم بتوصيلها

إلى جلادستون، باعتبارها موجهة من عرابى إلى جلادستون. هذه الرسالة لم تكن موقعة أو مختومة بخاتم أحمد عرابى، وجرى إرسالها بواسطة صابونجى باللغة الإنجليزية وليست باللغة العربية، مما جعل عرابى ينكسر اتهامه بتحرير هذه الرسالة، من بين اتهامات أخرى وجهت إليه فى أثناء القبض عليه، وسرعان ما راح أعدائى يوبخوننى ويعنفوننى لأنى زورت هذه الرسالة، على الرغم من تأكيدى أن هذه الرسالة جرى "إملاؤها" فى رسالة مرفقة أرسلت بعد ذلك بيومين. كانت الرسالة المعنونة لجلادستون على النحو التالى:

الإسكندرية، ٢ يولية عام ١٨٨٢

سيدى،

يأمرنا نبينا بالقرآن بألا نسعى إلى الحرب أو نبدأها، ويأمرنا أيضًا أنه إذا ما شُنت الحرب علينا باعتبارنا مارقين أن نتعقب أولئك الذين اعتدوا علينا بكل الأسلحة المتيسرة وبلا رحمة أو هوادة. من هنا، يتعين على إنجلترا أن تفهم أنها مع أول دانة تطلقها المدفعية على مصر ستجعل المصريين فى حل من كل المعاهدات والتعاقدات والاتفاقيات، ويجب أن تفهم أيضًا أن ذلك سيعنى إنهاء السيطرة وإنهاء الديون، وأنه ستجرى مصادرة ممتلكات الأوروبيين، وأن الترع سيجرى تدميرها، وأن المواصلات سيجرى قطعها، وأننا سوف نفيد من الحماس الدينى للمسلمين فى الدعوة إلى حرب مقدسة فى سوريا، وفى الجزيرة العربية، وفى الهند. المسلمون يعدون مصر مفتاح كل من مكة والمدينة (المنورة)، والجميع ملزمون بنص الدين بالدفاع عن هذه الأماكن المقدسة والطرق المؤدية إليها. وقد جرى إلقاء خطب من هذا القبيل وحول هذا الموضوع فى مسجد دمشق، واتفق الزعماء المسلمون فى كل أقطار العالم الإسلامى. وأنا هنا أعيد وأكرر، إن أول ضربة توجهها إنجلترا أو حلفاؤها إلى مصر سوف تتسبب فى سفك الدماء فى سائر أنحاء آسيا وإفريقيا، وهنا ستقع المسئولية على عاتق إنجلترا.

سمحت الحكومة لنفسها بأن يخدعها ممثلوها، الأمر الذى أفقد بلادهم مكانتها فى مصر. سوف يسوء حال إنجلترا إذا ما حاولت استرداد ذلك الذى فقدته بكافة الأسلحة وبقوة المدافع الوحشية.

على الجانب الآخر هناك كثير من الوسائل الإنسانية والودية لتحقيق ذلك. ولا تزال مصر، بل إنها راغبة فى التوصل إلى وفاق معها، وهى أيضًا تود توثيق عرى الصداقة مع إنجلترا، وأن تحمى مصالحها، وتؤمن طريقها إلى الهند، وتود أيضًا أن تكون حليفةً لبريطانيا، لكنها يجب أن تراعى ذلك فى نطاق حدود سيادتها وتشريعاتها. أما إذا ما آثرت بريطانيا البقاء أسيرة الخداع وإذا ما بقيت تتفاخر وتهددنا بأساطيلها وقواتها الهندية، فإن الخيار سيكون متروكًا لها. كل ما فى الأمر، هو أن بريطانيا يجب ألا تستهين بوطنية الشعب المصرى. إن ممثليها لم يبلغوها بالتغيير الذى حدث للأمة منذ عهد إسماعيل الطاغية، فالشعوب والأمم فى عصرنا هذا تخطو خطوات واسعة ومفاجئة على طريق التقدم.

فى النهاية، يجب أن تتأكد إنجلترا من أننا مصممون على القتال، وعلى الموت شهداء فى سبيل بلدنا، أو ننتصر لنعيش مستقلين وسعداء. السعادة فى الحالين مكفولة لنا، والشعب الذى امتلك مثل هذا الإيمان ليس لشجاعته حدود.

أحمد عرابى.

قمت بزيارة جريجورى، الرجل متخوف من حرق الإسكندرية، ويُصدِّق أن عرابيا لم يأمر بذلك. لكننى أقول: إنه أمر بذلك، وإنه كان على حق فى ذلك الأمر. هذه هى سياسة الروس فى موسكو، ويتفق أيضًا مع كل ما أعرفه عن نواياهم. وأنا لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يسفر عن أى ضرر فى المستقبل أو على المدى الطويل، وسيجرى أيضًا التخلص تمامًا من كل من اليونانيين والإيطاليين. الواقع، أن عرابيا لم يكن مسئولاً عن المذبحة، التى هى بطبيعة الحال أمر مبالغ فيه وغير حقيقى. مسألة ضرب المدينة وإحراقها، وقطع المياه عنها، وجعل محطة السكك الحديدية هدفا إستراتيجيا، كل ذلك يعد أمرا طبيعيا جدا عند أى قائد مصمم على الدفاع بعناد

وإصرار". (وأنا لا زلت أقول: إن حرق الإسكندرية هو الذى هيأ لعرابى الوقت الكافى للتخندق فى كفر الدوار. لو كان عرابى نفذ الجزء الآخر من خطته وقام بنسف وإغلاق قناة السويس، لجعل من ذلك معركة جيدة وطويلة، ويحتمل أيضًا أن يكون قد انتصر على هذه الحملة. ومع ذلك، سأعود إلى هذه النقطة مرة أخرى عندما أبدأ فى تناول الحرب).

فى الخامس عشر من يوليو

يكتب بتون فى جريدة التايمز عن رغبة أمير ويلز فى الحصول على نسخة من رسالة عرابى، وأرسلت أقول إنى يسعدنى أن أقرأ الرسالة على صاحب السمو. لن أسمح بخروج الرسالة من يدى... حضر السير دونالد كورّى لمعاينة الخيول. الرجل لديه حساسية كبيرة بخصوص مصر، وهذه الحساسية موجودة أيضًا لدى عدد كبير من الناس. لكن الصحف كلها تعوى عواءً واحدًا، وأنا بدورى مكتئب، وأفكر فى المستقبل. من الصعب تدمير مصر، ومن الصعب أيضًا القول بأن الأوربيين فى مصر هم وحملة الأسهم والسندات لن يجرى تدميرهم أيضًا. وما زال هناك رب فى السماء لأولئك الذين يؤمنون به ويثقون فى رحمته.

فى السادس عشر من يوليو

"يبدو أن الأتراك وافقوا فى نهاية المطاف على إرسال قوات، ووافانى بتون بمعلومات عن المهمة أمس. هذه القوات ستأتى وتعود خلال شهر، بعد أن تقوم بإلقاء القبض على عرابى. إنه لأمر يدعو إلى السخرية والاستهزاء، لأنه إذا ما سافرت القوات التركية فسوف تبقى فى مصر. وسوف تتفق هى الأخرى مع عرابى وتهادنه، وإن ما ستجنيه إنجلترا هو إعلان السلطان للحرب. بعد أن تَمَعَّنْتُ الأمور كلها وجدت أن ذلك هو أفضل الحلول، وإلا حتم الأمر مسألة الضم... كتبت رسالة ضمنتها رسالة عرابى وأرسلتها إلى جلادستون".

فى السابع عشر من يوليو

"سافرت إلى لندن والتقيت بتون، ووافقنى على إرسال الرسالة إلى جلادستون وإلى أمير ويلز، ونفذت ذلك بالفعل... وددت لو أن جلادستون تحرَّز لكل النتائج التى يمكن أن تترتب على عمله فى القاهرة، نظرًا لأن الرجل (جلادستون) صرح يوم السبت أن تدمير الإسكندرية كان أمرًا يستحيل التنبؤ به، وأن يكون ذلك ناتجًا عن ضربها بالقنابل! الآن ، ما عذره إذن إذا ما جرى تدمير القاهرة؟ لقد استقال برايت Bright الذى كان رجلا أمينًا، على أقل تقدير، ثم ألقى خطابا الليلة قال فيه إنه يعد ضرب الإسكندرية بالقنابل خرقًا للقانون الدولى وخرقًا أيضًا للقانون الأخلاقى"[١٧]. (وأنا لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن جلادستون كان قد شارك برايت فى الوهم الذى مفاده أن قلاع الإسكندرية يمكن ضربها بالقنابل دون حدوث سفك للدماء أو حرائق أو حرب. كان الفارق بين الرجلين يتمثل فيما يلى: أن برايت عندما تأكد له أنه تنكر لمبادئه عندما وافق على ضرب

---

(١٧) التقيت برايت أكثر من مرة فى سنوات لاحقة، وكانت لغة الرجل معى قوية فى مسألة تضليله للمشاركة فى التآمر لضرب الإسكندرية بالقنابل. وأنا أقرأ ما يلى فى مفكرتى عن عام ١٨٨٥:

"فى التاسع من يونية: زرت آل هوارد. تناولت حرم هوارد العشاء الليلة الماضية مع كل من هارتنجتون وجرانفيل وبرايت... أبلغها برايت أنه حضر جلسة مجلس الوزراء التى تقرر فيها ضرب الإسكندرية بالقنابل، لكن اللورد جرانفيل أكد له أن ذلك لن يحدث، وأنه قرر أن ينسحب من مجلس الوزراء مع أول طلقة فى أى حرب من الحروب. لقد حزن الرجل حزنًا كبيرًا ودمعت عيناه وهو يرى المجزرة الدائرة، لكنه لم تكن عنده الجرأة والشجاعة التى تجعله يتنكر لأصدقائه السابقين. ومع ذلك، كتب رسالة إلى جلادستون بعد الحرب ليقول له إنه إذا ما سمح بمحاكمة عرابى بواسطة الحكومة المصرية، فإن ذلك سيكون عارًا مستديمًا".

"فى السادس عشر من مارس: ذهبت ليلاً لتناول العشاء مع آل هوارد. كان العشاء لطيفًا جدا، حضره جون برايت وجون مورلى وفردريك ليفسون والسيد رايت Wright... إلخ. فى البداية كنا جميعًا مشدودين... لكن رايت أنهى ذلك التوتر عندما راح يتساءل عمن تسبب فى ضرب الإسكندرية بالقنابل. وهنا انفجر برايت وراح يستنكر الحرب استنكارًا شديدًا، كما استنكر الظلم الواقع على عرابى عندما جرى نفيه إلى جزيرة سيلان. أوضح أيضًا أن بوشامب سيمور كان قد أرسل برقية يطلب فيها ضرب الإسكندرية فى موعد سابق للموعد المحدد لكن رفض طلبه. أخيرًا فإن شامبرلين هو الذى أصر على السماح له بتدمير الإسكندرية... وقال برايت إن هارتنجتون، لم يحرض على ضرب الإسكندرية".

الإسكندرية (خرج من المجلس وراح يبكي بكاءً مرًّا)؛ في حين خنـــق جلادســـتون أسفه وندمه وراح يستفيد إلى أبعد حد ممكن من الشعبية التى تجلبها الحرب علـــى الوزارة)"... عدت إلى المنزل فى ساعة متأخرة وفي روح معنوية متدنيـــة. لقـــد بذلت كل ما فى وسعي لتحاشي الحرب، والحرب أصبحت الآن هى الحل الوحيد".

ومن سوء الطالع أن مفكرتي عن علم ١٨٨٢ الميلادى تنتهى عند هذا الحد[١٨].

---

(١٨) إن الإشارات إلى الانتفاضة الإسلامية المتوقعة فى الهند، هنا، وفى المواضع الأخرى، والتى جرى اقتباسها من مفكرتى، تبدو الآن شيئًا مبالغًا فيه فى ضوء الأحداث الراهنة. هذه الانتفاضة كان لها ما يبررها بفضل الأفكار التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، وربما كانت مسألة حدوث حريق عام فى الشرق وخوف حكومتنا منها كانت عذرًا منتحلاً من أجل الضغط للقيام فى شهر يوليو بحل مشكلتها فى مصر عن طريق العنف المباشر.

الفصل السادس عشر

معــركة التل الكبير

يتبقى لى أن أروى الأحداث الرئيسية فى المعركة القصيرة التى وقفت مصر الوطنية فيها على امتداد شهرين فى مواجهة عدوها الإنجليزى. أعمال المؤرخين والكتاب الإنجليز ليس فيها وصف حقيقى لهذه المعركة، وكذلك أيضًا الروايات الفرنسية عارية عن الصحة فيما يتصل بهذه المعركة. حكم الرعب والفزع الذى استمر تحت رعاية وحماية الحامية الإنجليزية مدة عام أو أكثر من عام بعد إعادة تنصيب الخديو وإقامة الحكم التركى الشركسى فى القاهرة، هذا الحكم كمم أفواه المصريين الوطنيين فيما يتصل بكل ما حدث فى مصر فى أثناء غياب الخديو، وعلى الرغم من تسليط شيء من الضوء على الحقائق فى خلال محاكمة عرابى، فإن الصحافة الوطنية لم تجرؤ على الإشارة إلى هذه الحقائق إلا من خلال التصريحات الرسمية، فى حين نجد أن أجهزة الرأى الوطنى تشجعت فى ظل الحماية الفرنسية، وأتيحت الفرصة لترويج بعض الأساطير التى لا تزال تؤثر إلى حد بعيد فى العقل المصرى.

النقطة الأولى التى ينبغى توضيحها، لأنها جرى تجريدها من حقائقها فى الكتب الزرقاء كما تجاهلها الكتاب الإنجليز كلهم، هى بالضرورة الطابع الوطنى للدفاع الذى قامت به مصر الوطنية فى مواجهة الغزو الإنجليزى. الرواية الرسمية بطبيعة الحال، تقول إن الجيش وحده هو الذى قاوم مطالب الإدميرال سيمور المستحيلة فى أثناء عملية ضرب الإسكندرية بالقنابل، ومن بعده مقاومة الغزو البرى الذى قام به ولسلى. هذا كان مجرد استمرار للرواية الدبلوماسية التى جرت صياغتها وحبكها فى وزارة الخارجية لكى تلتمس لنفسها العذر فى تصميمها على التدخل فى المصالح المالية، ويمكن قراءة ذلك فى تغييرها الفظيع للحقائق والتزام الكذب فى الخطبة الافتتاحية التى ألقاها اللورد دفرين فى المؤتمر الأوروبى فى إسطنبول. استنادًا إلى ما قاله السفير الإنجليزى، فإن مصر قبل ضرب الإسكندرية،

كانت فى حال من الفوضى التى تهدد الحياة والممتلكات، وكانت تجرى فيها أيضًا المذابح، عن طريق الجيش بقيادة أحمد عرابى وبعض القادة المتمردين الآخرين؛ الأمر الذى كان يعطل الحكم، ويعطل إقرار النظام والاستقرار المالى. يا لها من مبالغة على المستوى السياسى، وكيف جرى تأسيس مثل هذا التصريح والبيان المبالغ فيه، على الكذب والافتراء، وقد أُثبت ذلك بما فيه الكفاية. والذى ينبغى توضيحه هنا أيضًا هو الحصة الدقيقة من المسئولية عن قبول تحدى الإدميرال سيمور لمبارزة المدفعية التى بدأت الحرب فى الإسكندرية، الحرب التى جرى عزوها إلى عرابى، والذى جرى تحميله المسئولية كلها ظلمًا وعدوانًا[١٩].

---

(١٩) أكد اللورد دفرين "لن نبالغ إذا ما قلنا إن الفوضى الكاملة كانت تسود مصر طوال الأشهر الثلاثة الأخيرة. رأينا فئة عسكرية منشقة، لا تستند إلى أية حجة من الحجج الشرعية، التى يتذرع بها أفراد هذه الفئة فى مخططاتهم. رأينا هذه الفئة وهى تنتقل من عنف إلى عنف، إلى أن أفضى العصيان إلى التمرد، وإلى أن أفضى التمرد إلى الثورة، وإلى أن أفضت الثورة إلى الاستيلاء على السلطة العليا. ترتب على ذلك أن أصبحت الفوضى تسيطر على إدارة البلاد، وتوقفت عمليات التجارة المعتادة. ولم يعد الفلاحون يجدون مشترين لإنتاجهم، وعجزوا عن دفع ضريبة الأطيان، وبدأ دخل مصر فى التناقص. هذا الحال أدى إلى تعريض المصالح التجارية لرعايا الدول صاحبة المصالح إلى أقصى درجات الخطر. ليس هذا فقط، وإنما جرى أيضًا رفض الاعتراف بالاتفاقات والمعاهدات الخاصة المبرمة مع حكومتى فرنسا وإنجلترا، وقد استبعد المسئولون الذين عُينوا لتنفيذ تلك المعاهدات والاتفاقات، ومنعت عنهم السلطة التى كان مفروضًا لهم أن يمارسوها، وبالتالى جرى وقف المنظومة التى بدأت تعمل عملها من أجل الفلاحين والزراع، بل وجرت الإطاحة بها أيضًا.

هذه الآثار ليست سوى مجرد جزء فقط من الوضع المؤسف الذى أثار قلق أوروبا. هذا لا يعنى أن الدائن العام هو الذى عانى الكثير، هذا يعنى أيضًا أن حياة وممتلكات الأوروبيين هناك أصبحت غير آمنة. هذا الخطر لدينا عليه دليل محزن ومقنع، ويتمثل فى المذبحة المروعة التى قام بها الدهماء من الناس ضد أشخاص أبرياء فى الإسكندرية، وفى الهروب المفاجئ من القاهرة ومن الداخل (هذا الهروب يعنى الخسارة والدمار للكثيرين) لآلاف من مواطنينا المحترمين.

من هنا يتضح أن هذا الحال يتطلب تدخلاً عاجلاً وناجحًا.

إن مسألة تحول عرابى، اعتبارًا من نشر المذكرة المشتركة، إلى مؤيد عتيد للاعتماد على النفس والاستعداد للحرب أمر لا شك فيه، لكنه فى ذات الوقت كان يطالب دومًا بالمصالحة والتسوية، إذا ما تيسر ذلك بدلاً من الحرب. كانت المقاومة هى دومًا الحلبة السياسية لأحمد عرابى، لكن الرجل كان يقف وحده على هذه الحلبة، وأدى وصول الأسطولين الفرنسى والإنجليزى إلى الإسكندرية إلى تقوية موقف الرجل تقوية كبيرة للغاية بفضل قطاعات الرأى المدنى.

وفى ضوء ما حدث لتونس أمام أعين المسلمين، كان من المستحيل التغاضى عن ذلك الذى كانت تدبره الدول الأوروبية لمصر، وخلق حال من الفوضى الوهمية والتمرد الوهمى الذى يمكن اتخاذه ذريعة للتدخل لحماية حياة وممتلكات الأوروبيين، والقبض عنوة أو بطريق الإغواء أو القيود على الحاكم، بزعم احتياجه إلى الحماية من رعاياه المتمردين، وإجباره على قبول الحماية العسكرية. هذا هو بالضبط ما قام الجيش الفرنسى بتنفيذه فى تونس، هذا الذى حدث كان لا بد من تكراره بالضبط من قبل الإنجليز مع المصريين. وعليه لم يكن من الصعب إقناع الوطنيين المصريين، أنه فى ظل الخيار السيئ المتاح، تصبح مسألة خوض القتال والدخول فى معركة أشرف من الاستسلام بلا مقاومة منذ البداية.

من هنا أصبح صوت عرابى عنصرا مهما فى القرار الذى جرى التوصل إليه فى اليوم العاشر من شهر يوليو، ويقضى برفض مطالب الأدميرال، ومع ذلك لم يكن الإنذار أمرا ملحا، إذ كان يجرى التلويح به عن طريق التهديد. كان أعضاء المجلس العام قد اجتمعوا للرد على ذلك الإنذار، وتبنى الأعضاء كلهم الرأى الذى مفاده أنه ليس من سلطة الخديو القانونية تسليم أى جزء من الأرض المصرية بناء على طلب قائد أجنبى دون إطلاق حتى ولو رصاصة واحدة، أو حتى فى أضعف الأحوال دون أوامر مباشرة من السلطان. ولم يكن لدى الخديو نفسه رأى غير ذلك، هذا الرأى شارك فيه أيضا كثير من النواب والممثلين علاوة على أعضاء الحكومة، وتوحدت الآراء وراحت تضغط بالفكرة التى مفادها أن القلاع يتعين الدفاع عنها من ناحية، وأن يلعب الخديو دورا مهما فى الخطاب الوطنى، وأن

يسانده في هذا الدور مندوب السلطان، درويش باشا. ولم يجـرؤ أي مـسلم مـن الحاضرين، بما في ذلك سلطان باشا الذي كان قد ربط مصيره بـالإنجليز، علـى المناداة بشيء غير رفض مطالب الأدميرال سيمور.

تلقى عرابي باعتباره وزيرًا للحربيـة والبحريـة، نتيجـة لـذلك القـرار الإجماعي، أوامر محددة من الخديو، تقضي بتجهيز القلاع للقتال، والرد بالمدفعيـة إذا ما فتح الأسطول الإنجليزي النار، كما صدرت في الليلة نفسها، في العاشر من يوليو، تعليمات عاجلة إلى وكيل الوزارة في القاهرة بأن يعلن في جميع المديريات أنه تقرر الدخول في الحرب، وأن تبادر المديريات باستدعاء الاحتياطي وتـشكيل كتائب جديدة من المجندين. وهنا يمكن القول إن الخديو لم يكن صـادقًا فـي هـذا الموقف الشبيه بالحرب. ولم يحدث أن أثبت توفيق من خلال العمل العـام سـوى الدور المزدوج الذي يقوم بلعبه دومًا. كان الخديو توفيق هو وسلطان باشا، الـذي كان يردد الكلام الذي يقوله الخديو، قد اتفقا قبل ذلك على التظاهر بالوطنية حتـى يمكن لهما تغطية نفسيهما أمام الرأي العام، في حالة ما إذا ثبت أن القلاع أقوى من الأساطيل، ويجب ألا ننسى أيضًا أن مبعوثي السلطان كانوا حاضرين في المجلس، وكانت السياسة الإنجليزية المعلنة في ذلك الوقت لا تزال تنادي بتدخل الـسلطان. هذا يعني أن توفيق كان يتلاعب بالفرصة المزدوجة، وكان مصممًا علـى شـيء واحد، ألا وهو الوقوف مع الجانب الأقوى.

وفي الكتب الزرقاء برقية عجيبة توضح ذلك الذي قاله الخديو لمستـشاريه الإنجليز. في السادس من يوليو، جرى إبلاغ الخديو توفيـق بـانتواء الإدميـرال سيمور ضرب الإسكندرية بالقنابل، وجرى حثه على أن يضع نفسه علـى ظهـر واحدة من السفن الإنجليزية طلبًا للأمن والسلامة. لكن هذا الكلام لـم يتفـق مـع مخاوفه الشخصية أو لعبة الانتظار التي قرر أن يلعبها، ثم أرسل بعد ذلـك إلـى كولفن ليعلمه بخطة سلامته في أثناء تبادل إطلاق النيران. لم يكن أمام توفيق مـا يفعله غير البقاء في مصر، طبقًا لما هو وارد في الكتب الزرقاء . لم يكن بوسـع الرجل التخلي عن أولئك الذين وقفوا إلى جانبه في وقت الأزمة، ولم يكن بوسـعه

أيضًا التخلى عن مصر فى أثناء هجوم دولة أجنبية عليها، وقيل إن ذلك كان من باب تأمين سلامة توفيق الشخصية ليس إلا. وعليه سوف يذهب الخديو إلى مكان على ترعة المحمودية مع درويش باشا. وأبدى الخديو توفيق ملاحظة مفادها أنه كلما جرى تنفيذ المطلوب على وجه السرعة، قلت الأخطار على سلامته الشخصية. كان ذلك هو البرنامج الذى التزم به الخديو، فيما عدا أنه قرر الانسحاب والتراجع فى النهاية، ورفض الذهاب إلى قصر المحمودية، وذهب بدلاً من ذلك إلى منزله الريفى فى الرملة، التى تبعد عن الإسكندرية مسافة تقدر بثمانية أميال، ليكون فى مأمن من نيران مدافع الإدميرال سيمور.

عقب الحرب مباشرة وصلنى تأكيد عجيب لتردد توفيق وعجزه عن اتخاذ القرار، وقد وصلنى ذلك التأكيد من مصدر لا يقل اطلاعًا عن اللورد شارلز بيرسفورد Charles Beresford، الذى كان يقود قوة النسور Condor فى أثناء عملية ضرب الإسكندرية بالقنابل، وكان يتصرف تصرف المارشالات فى الإسكندرية بعد انتهاء عملية القصف، وقد أبلغنى هذا الرجل أن الخديو فى نوبة من نوبات الصراحة غير المعتادة منه، شرح له الأسباب التى جعلته يبقى على الأرض فى أثناء الحرب، وأن هذه الأسباب تتمثل فى حيرة الخديو توفيق البالغة فى مسألة من منَ الطرفين سيثبت أنه هو الأفضل. كان هناك اعتقاد عام فى مصر، مفاده أن السفن سيجرى إغراقها، وأن الرجل تملكته نوبة شك مخيفة طوال اليوم فى الرملة؛ الأمر الذى كان يجعله يسارع صاعدًا كل نصف ساعة إلى سطح القصر ليقف على ما يحدث لتلك السفن. واكتشف الخديو فى الفترة المسائية فقط أن تلك السفن كانت هناك بلا مساس، فى الوقت الذى جرى فيه إسكات القلاع؛ الأمر الذى جعله يضع نفسه فى نهاية الأمر تحت حماية الإدميرال سيمور. خبرة بيرسفورد التى اكتسبها طوال الأسابيع التى أمضاها فى الإسكندرية، يمكن تفسيرها على أنها ولّدت لدى الرجل احتقارًا كبيرًا للخديو توفيق، كما ولدت فى نفسه أيضًا قدرًا من التعاطف مع عرابى والفلاحين الذين واصلوا الحرب على الرغم من هرب أميرهم.

وبغض النظر عما حدث، فإن التصرف الذى أتاه الخديو توفيق فى المجلس، هو والحقيقة التى مفادها أنه وضع اسمه على الأوامر التى صدرت بشأن الحـــرب، هما اللذان أضفيا وضعا شرعيا تماما على الدفاع الوطنى الذى جاء بعد ذلك، وهما أيضا اللذان ألغيا، من المنظور الإسلامى والشرعى، أوامر الخديو المضادة التـــى أصدرها بعد أن أصبح فى جانب العدو. هذه الأمور يجب أن نعيها تمامًـــا إذا مـــا أردنا أن نفهم شرعية القضية الوطنية حق الفهم، وإذا ما أردنا تفهم الوضع الـــذى استقر فى الأذهان الوطنية البسيطة عندما ذاع حديث خيانة الأمير. إن وجهة النظر الإسلامية فى الحرب غاية فى البساطة، وتتمثل فى أنه عندما تبـــدأ الاشـــتباكات، ويعلن الأمير الحرب بصورة علنية، تصبح مهمة رئيس الدولة ومهمة شعبه متمثلة فى مواصلة الحرب والاستمرار فيها إلى أن يتحقق النصر أو الهزيمـــة. والأميـــر الذى يجرى أسره بواسطة العدو فى أثناء الحرب، يصبح عـــاجزًا عـــن إصـــدار الأوامر، وعليه فإنه يتحول إلى خائن. كان رعايا الخديو توفيـــق ينظـــرون هـــذه النظرة إليه، إلى أن أعيد إلى القاهرة بقوة السلاح الإنجليزى ليصبح أميرًا مكروهًا من المصريين. الروايات الإنجليزية عن هذه الحرب تخلو من هذه الأشياء المهمة، ولكننا نجد بدلاً من ذلك مدائح سخيفة للأمير، والإعجـــاب بـــه باعتبـــاره رجـــلا "مخلصًا" Loyal، لسبب غير منطقى هو أنه كشف وأثبت ولاءه لإنجلترا، وخـــدمها طوال الحرب على أنه عميل سافر. لكنى سأعود إلى هذه النقطة فى مرحلة لاحقة.

النقطة الثانية الضرورية التى ينبغى التركيز عليها هـــى التحديـــد الـــدقيق للمسئولية فى مسألة المحافظة على القانون والنظام فى سائر أنحاء مـــصر، وفـــى الأعمال والتصرفات الإستراتيجية فى الحرب، وبخاصة بين عرابـــى والزعمـــاء الوطنيين الآخرين الذين كانوا يعملون معـــه طـــوال هـــذين الـــشهرين العـــامرين بالأحداث. كانت الأحداث بالصورة التى تأكدت أنا منها، تسير على النحو التالى:

فيما يتعلق بحكم البلاد، أصبح واضحًا للعيان فى القاهرة أن الخـــديو يجـــب عدم النظر إليه باعتباره رئيسًا للدولة، وبخاصة مسألة حريته فى إصدار الأوامـــر، وعليه جرى تشكيل مجلس عمومى لتدارس الأمور وتقرير ما ينبغى عمله. وفـــى

هذا الصدد تولت الشخصيات المدنية الكبيرة زمام الأمـور بـدلاً مـن العنـصر العسكرى. لم يكن عرابى نفسه حاضرًا فى اجتماع ذلك المجلس، إذ كـان الرجـل بصحبة الجيش فى كفر الدوار، علاوة على أنه لم يقم طوال فتـرة الحـرب بأيـة زيارة للقاهرة أو التدخل بشخصه فى إدارة الأمور هناك، إلى جانب كبـار رجـال الدين، وقاضى القضاة التركى، ومفتى الديار المصرية، وشيخ الإسلام، ورؤسـاء المذاهب الأربعة. كان ذلك المجلس يضم أيضًا ممثلين للمسلمين من سـائر أنحـاء البلاد، إضافة إلى أربعة أمراء من بيت الحاكم تبنوا القضية الوطنية بصورة علنية، كما حضر ذلك الاجتماع أيضًا كثير من محافظى الأقاليم الذين جرى اسـتدعاؤهم، على وجه السرعة، إلى القاهرة من أجل هذا الاجتماع، كما حضر الاجتماع أيـضًا كبار النواب فى البلاد، فضلاً عن حضور ممثلين أيضًا للسكان غيـر المـسلمين، وبطريرك الأقباط والحبر الأكبر لليهود. من هنا يـصبح ذلـك المجلـس مـؤهلاً وصاحب صلاحية فى القرارات التى يمكن أن تصدر عنه بالإجماع، نظرًا لأن هذا المجلس كان مكونًا من شرائح أو قطاعات الرأى السياسى كلها، كما كـان يـضم أيضًا ممثلين للطبقات على اختلاف أنواعها. كان هناك عدد كبير من الشخـصيات من أصل شركسى، لكنهم كانوا يتسمون بقدر كاف من الوطنية بحكم أنهم مسلمون.

ولأن الوقت قد حان لمكافحة ومقاومة الغزو الأوروبى، فلم يكـن أمـامهم سوى الدفاع عن مصر ضد هذا الغزو الأوروبى، بغض النظر عـن الـصراعات الحزبية.

وتأسيسًا على ذلك، قرر المجلس بالإجماع، أن الخديو لم يعـد فـى وضـع قانونى يسمح له بتولى القيادة، وأن مراسيمه التى أصدرها عندما كان فـى أيـدى الإنجليز تعد مراسيم غير قانونية وغير سارية لهذا السبب نفسه. كان أول إعـلان صادر عن توفيق فى موقفه الجديد يتمثل فى طرد أحمد عرابى من منصب وزيـر الحربية. وقرر المجلس الإبقاء على عرابى فى منصبه، وأن يواصل الرجل بهـذه الصفة دفاعه عن البلاد. وجرى تعيين مجلس دائم، أو بالأحرى ما يمكن أن يطلق عليه اسم "لجنة الدفاع"، لمعاونة عرابى فى أداء المهام المطلوبة منه، وتكوّن ذلـك

المجلس، أو بالأحرى تلك اللجنة، برئاسة يعقوب باشا سامى، وكيل وزارة الحربية، واستمرت تلك اللجنة طوال فترة الحرب، فى العمل على تنفيذ تفاصيل خطة التجنيد، وتوفير التعيينات والإمداد بالمواد والمعدات العسكرية. وقرر الاجتماع أيضًا فيما يتصل بالإدارة المدنية، أنه فى حال غياب كل من راغب باشا هو والوزراء الآخرين فى الإسكندرية - لأن هؤلاء جرى احتجازهم قسرًا فى الإسكندرية بواسطة الحرس الإنجليزى للخديو - فإن تصريف شئون الحكم يجب أن تقوم على أمره إدارات مستقلة، دون أى تغيير فى النظم المعمول بها، على ألا يؤدى ذلك إلى أى شكل من أشكال الفوضى، مع الأخذ فى الاعتبار أن وزارة راغب باشا لم تكن وزارة بالمعنى الحقيقى لهذا المصطلح. وفى واقع الأمر، إن هذه الإدارة كسبت قدرًا كبيرًا من الكفاية، ويمكن القطع بأن الحكومة المصرية لم يحدث أن كانت أفضل مما كانت عليه الحكومة الوطنية فى أثناء ضرب الإسكندرية بالقنابل. وأصبحت وزارة الداخلية تحت قيادة وكيل الوزارة، إبراهيم بك فوزى، فى حين أصبحت الشرطة تحت قيادة إسماعيل أفندى جودت، وهذان الرجلان إداريان على كفاءة عالية، فنجحا، على الرغم من الاضطرابات التى شهدتها تلك الفترة، فى المحافظة على النظام فى سائر أنحاء البلاد. وقام هذان الرجلان بإلقاء القبض على مديرين أو ثلاثة مدراء من الشراكسة حاولوا الوقوف، مثلما فعل عمر لطفى، إلى جانب الخديو توفيق، والتحريض على القلاقل والاضطرابات، وأودعوهم السجن إلى نهاية الحرب، ولم يحدث بعد ذلك أى نوع من الإضرابات أو المظاهرات. أما الأوروبيون الذين آثروا البقاء فى القاهرة فقد جرت حمايتهم حماية جيدة وكاملة، فى حين رافقت قوات الشرطة الأوروبيين الذين آثروا النزوح إلى ميناء بور سعيد.

لم يكن هناك ما هو أكذب من التأكيدات التى وردت على لسان اللورد دفرين، فى المؤتمر المنعقد فى إسطنبول، عن المذابح التى كانت تقام يوميًا للمسيحيين فى مصر. لم يكن هناك أى اعتراض على تحصيل الضرائب، أو التوزيع المعتاد للمصروفات المدنية. وبانتهاء الحرب كشفت الخزانة عن موازنة نظيفة تمامًا، وليس فيها أى عجز، عندما جرى تسليم صناديق هذه الميزانية لضباط

الخديو بعد معركة التل الكبير. لم يجر استقطاع أى مبلغ من تلك الميزانية، وكانت الدفاتر بحالتها المعتادة. وجرى أيضًا الحفاظ على مجرى العدالة المعتاد، ولم تكن هناك أية إشارة أو دلائل تفيد أن البلاد مرت بأزمة غير عادية. وكانت مخازن وزارة الحربية تحتوى على مؤن وتعيينات تكفى مدة أربعة أشهر، ولكن ولسلى قام بالاستيلاء عليها.

فيما يتصل بأحمد عرابى، كان لا بد من أن يظل موقفه سياسيا، وبحكم أنه كان وزيرًا للحربية، بقى الرجل فى منصب القائد الأعلى للقوات، وزعيما شعبيا، إلى أن أدى تقدم وُلسلى نحو التل الكبير إلى اختفاء الرجل تمامًا من المشهد. وبحكم أنه كان صاحب نفوذ كبير عند مشايخ الريف وعند الفلاحين فى الدلتا فقد سهَّل ذلك عليه بث الحماس لدى هؤلاء الناس وتشجيعهم على الحرب؛ وبناء على دعوات الرجل انهالت عليه الإمدادات والمساعدات السخية من كل جانب، كما تدافع المتطوعون إلى الجيش. وبذلك ثبتت أهمية هذا الرجل فى الدفاع الوطنى، وبذلك يكون قد تصرف تصرفًا عاقلاً عندما رفض تولى زمام الأمور وتحريك القوات فى الميدان. وقد عزا أعداؤه الذين يحطون من قدره، امتناع أحمد عرابى عن هذا الموضوع إلى جبن الرجل، الأمر الذى يجعلنا نستنتج أن هذا الكلام فيه شىء من الحقيقة. وكان عرابى فلاحًا خالصًا على نحو حال بينه وبين امتلاك أية خصلة من خصال القتال والحرب التى نجدها فى بعض الشعوب، والتى تعد نقائص فى الرجل. كانت شجاعة أحمد عرابى من نوعية تختلف عن تلك الشجاعة التى تحث على الأعمال الجسورة فى الحرب، وعلى الرغم من تعليم الرجل العسكرى فإنه لم يشترك فى أية معركة حقيقية. والأرجح أن عرابيا كان يدرك هذه النقطة، كما كان يدرك أيضًا افتقاره إلى المعرفة العلمية المتقدمة التى تتطلبها العمليات الحربية الحديثة. كان يفتقر تمامًا إلى التعليم العسكرى الحديث أو الخبرة التى تتجاوز التدريب العسكرى الروتينى، وأنا أتصور أن الرجل كان عاجزًا أو بالأحرى غير قادر على المناورة بفرقة من الفرق العسكرية، إذا ما طُلب إليه ذلك، حتى ولو كان ذلك من قبيل الاستعراض. ومع ذلك فإن التفسير الحقيقى، فى نظرى، لنكوص عرابى وعدم فاعليته، يرجع إلى أنه أصبح رئيسًا للدولة، ومن ثم

لم يكن الناس ينتظرون منه تولى قيادة الجيش. ومع ذلك فإن ذلك، فى نظرى، لا يعد عذرًا لعرابى، كما لم يبرئه إخوانه المواطنون الذين لاموه بحق على عدم اشتباكه مع العدو، حتى ولو كان ذلك فى الأيام الأخيرة من المعركة فى أضعف الأحوال.

وأنا لا أدعى المعرفة الكاملة بكل ما يتصل بالعمليات العسكرية الفعلية، ولكنى سوف أخاطر على الرغم من ذلك، وأورد رواية قصيرة حسبما عرفته عن هذه العمليات من المصادر المصرية، وليست الإنجليزية. كان صابونجى، مراسلى العجيب، قد غادر الإسكندرية مع الهاربين الآخرين قبل بدء عملية القصف، ولذلك بقيت لا أعرف شيئًا عما كان يدور فى البلاد إلى نهاية الحرب. يزاد على ذلك أن وثائق المحاكمة ومستنداتها لا تحتوى على شيء من هذا القبيل، والذى عرفته هو عبارة عن نتف صغيرة جمعتها فى السنوات التى تلت الحرب، من أفواه أولئك الذين شاركوا فى هذه العمليات، والمعروف أن الروايات التى من هذا القبيل، لا تكون دقيقة تمامًا فيما يتصل بالتواريخ والأرقام. كان الأوروبى الوحيد الذى بقى مع الجيش هو ذلك السويسرى الوطنى الممتاز، وصديق الحرية المصرية، والذى يدعى جون نينيه، الذى كان فى موقع يسمح له بمعرفة الكثير عما دار هناك، نظرًا لأن هذا الرجل أمضى الشهر الأول من الحرب بصحبة أحمد عرابى فى كفر الدوار، وكان يعاون أحمد عرابى فى مراسلاته الأجنبية. وقد دارت بينى وبينه حوارات وأحاديث طويلة، لكن طبيعة الرجل المتحمسة تضر به كشاهد تاريخى سليم، يزاد على ذلك أن الكتاب الذى نشره فى عام ١٨٨٤ جرى إعداده بلا تمعن أو تمحيص من ناحية، ويدور الجدل حول أسلوبه، من ناحية ثانية، على نحو يستحيل معه الوثوق بالتفاصيل التى يسجلها مؤلف هذا الكتاب. يزاد على ذلك أن نينيه توقف عن الحضور إلى مركز الرئاسة قبل بداية القتال الفعلى، فقد بقى الرجل فى كفر الدوار عندما انتقلت العمليات الحربية إلى التل الكبير. وما عرفته عن هذه الحرب يمكننى أن أتكلم عنه هنا باختصار.

أبلى رجال المدفعية المصريون بلاءً حسنًا فى اليوم الأول من أيام ضـــرب الإسكندرية بالقنابل، ولعدد طويل من الساعات، على العكس مما كان ينتظره السير بوشامب سيمور أو أى أحد من ضباطه. كان رجال المدفعية يحسون بنقيصة مخيفة بسبب الطابع القديم للقلاع التى جُلبوا للدفاع عنها. كان تاريخ تلك القلاع يرجع إلى أيام محمد على باشا، وكانت واجهاتها مبنية من الحجر، طبقًا لما كان سائدًا فى تلك الأيام، وهذا الحجر يعد مادة شديدة الخطورة على من يدافعون عن هذه القلاع، إذا ما تعرضت تلك الواجهات لدانات المدفعية الحديثـة، نظـرًا لأن هــذه البنايــات الحجرية تتفتت؛ الأمر الذى يؤدى إلى زيادة الآثــار الانفجاريــة الناجمــة عــن الصواريخ المعادية. هذا العيب لم يلاحظه أو يتنبأ به رجل من أكفأ المهندسين مثل محمود باشا فهمى؛ الأمر الذى أدى إلى ارتفاع الخــسائر ارتفاعًــا كبيــرًا بــين المدافعين عن القلاع. ورد فى الكتاب الأزرق أن حامية الإسكندرية كان يتــراوح عدد جنودها بين ٨٥٠٠ جندى و ٩٥٠٠ وهذا الرقم يتفــق تمامًــا مــع الروايــات الوطنية، فى حين قدّر عدد القتلى والجرحى بحوالى ألف رجــل. إذا كانــت هــذه الأرقام قريبة من الدقة فذلك يعنى أن نسبة الخسائر كانت عالية جدا. وقــد جــرى إنقاذ سمعة وشرف الحامية تمامًا بفضل هذه الخسائر، وقد أدى هذا الثبــات إلــى ظهور رأى مضاد للحرب فى إنجلترا، وأخذ ذلك الرأى يتزايد أكثر فأكثر خــلال الأسابيع التى تلت ذلك. لم يكن دور عرابى فى الدفاع، مثلما حدث فى الاشتباكات التى وقعت بعد ذلك، دورًا رئيسيا أو بارزًا، فقد بقى الرجل طوال اليوم فى وزارة البحرية التى لا تبعد كثيرًا عن رأس التين، وبذلك يكون داخل مرمى نيران العدو، لكن الرجل لم يقم بأى نوع من التفتيش على الدفاعات إلا بعــد انتهــاء القــصف، واكتفى باستعداده لاستقبال أخبار القتال وإصدار الأوامر الضرورية. وفى المــساء انتقل عرابى إلى الرملة لكى يبلغ الخديو بالنتيجة، وقد اصطنع توفيق - كيما يخفى سروره وانشراح صدره - شجارًا مع عرابى، لأنه جاءه بالنتــائج دون أن يكــون معه تقرير مكتوب بذلك.

من الصعب تفهم الحقيقة التى مفادها أن عرابيا لم يفهم أو يتبين ذلك الـــذى كان الخديو ينتويه فعلاً. المرجح تمامًا أنه فعل ذلك، كما تبين الرجل أيضًا أنه كان هناك نوع من الخيانة، والسبب فى ذلك أن عرابيا أرسل فى الصباح الباكر حرســا قويا بحجة حماية الخديو، لكن السبب الحقيقى من وراء ذلك الحرس هـــو وضـــع الخديو تحت المراقبة مع توصيل رسالة إليه مفادها أنه إذا كان سيمور قـــد هـــدد بتجديد ضرب الإسكندرية، فإنه يتعين عليه سحب الحامية، كما دعا الخديو أيـــضًا إلى الانسحاب معه إلى مكان بعيد عن مرمى المدافع الإنجليزية، ثم إلى القـــاهرة. والذى لا شك فيه هو أن عرابيا كان بوسعه الذهاب بنفسه مرة ثانيـــة للتأكـــد مـــن الدعوة التى لم يجر رفضها تحت أى ذريعة من الذرائع، وكان بوســـعه أيـــضًا أن يأخذ توفيقًا أسيرًا بالقوة، نظرًا لأن ما حدث مع باى Bey تونس كان أمام عينيـــه، فضلاً عن أن عرابيا كانت لديه خبرة كبيرة بألاعيب الخديو توفيق، الأمـــر الـــذى جعل عرابيا لا يثق بكلام الرجل، وألا يأخذ كلامه مأخذ الجد. إن إهمال عرابى فى هذه المسألة كان خطأً جسيمًا، ومن ناحية أخرى، كان عرابى مشغولاً صباح ذلـــك اليوم بمسألة ترتيبات الإخلاء العسكرى لتوفير فسحة من الوقت لزيارة الخديو فـــى الرملة مرة ثانية. فى فترة الأصيل على حد رواية توفيق لأصدقائه الإنجليز، تمكن من توزيع البقشيش والعطايا السخية على العمال، وبذلك استطاع الخـــديو توفيـــق الإفلات من الحرس والذهاب إلى الإسكندرية، فى القطار الذى كان قد أعـــد لنقلـــه إلى القاهرة، وفى الإسكندرية وضع الخديو توفيق نفسه وبـــلا أى مواربـــة تحـــت حماية سيمور. وأخذ الخديو معه أيضًا، نظرًا لأن الجميع كانوا معه فـــى القطـــار نفسه، كلاً من درويش باشا، ووزرائه، وبالتالى ضمن وجودهم معـــه باعتبـــارهم شركاء فى الخيانة التى قام بها. وعندما وصل إلى رأس التين تحرسهم قـــوة مـــن ستين فردًا من الإنجليز أصحاب السترة الزرقاء، جرى إلقاء القبض علـــى الجميـــع باعتبارهم أسرى حرب، ونظرًا أيضًا لأن درويش باشا كان لديه يخـــت بخـــارى خاص به، فقد أتته تعليمات عاجلة ليعود إلى إسطنبول، أراد الرجل أن يضع حـــدا للفضيحة والعار الذى أصابه، ونجح بالفعل فى الإفلات من الإســـطول الإنجليـــزى الذى حاول منعه من الإبحار. لكن راغب باشا هو ورفاقه من الـــوزراء، رضـــوا

بالحلول الوسط، وانتهى الأمر وقبلوا الوضع الجديد وبقوا فى رأس التـين بمثابـة خدم لتوفيق، إلى أن حان الوقت لتشكيل حكومة مزيفة بزعم أنها حكومة شـرعية، لتفسح المجال بعد ذلك لإدارة إنجليزية أقوى وأكثر حسمًا. كان عرابـي مـشغولاً تمامًا فى ذات الوقت بسحب القوات من الموقع الخطر الذى كانت فيـه، واحـتلال موقع دفاعي جديد أفضل فى كفر الـدوار، دون أن يـدرك مـدى التلاعـب بـه واستغفاله من قبل الخديو توفيق.

إن اختيار هذا الموقع الجيد جدا على خط سكة حديد القاهرة، والذى تحفـه من أحد جوانبه بحيرة مريوط الضحلة وسلسلة من المستنقعات، يرجع الفضل فيه، فى اعتقادى، إلى مهارة المهندس محمود فهمي، ولم يكن أمام عرابى ما هو أفضل مما فعله، عندما اختار هذا المكان ليكون موقعًا لمعسكره الجديد. إن هذا الموقع لا يقع فى مدى مدافع سيمور، ولا يمـكن لجـيش العدو الوصـول إليـه، اللهـم إلا عن طريق خط السكة الحديد الضيق المعبَّد، ولذلك كان ذلـك الطريـق يـصعب اختراقه من ناحية الإسكندرية، فى حين كان الموقع من الناحية البرية مفتوحًا على منطقة الدلتا كلها ومفتوحًا أمام القوات، من حيـث المـؤن والإمـدادات الكبيـرة والاتصال الحر بالقاهرة. فى هذا المكان استطاع الجـيش المـصرى أن يتماسـك ويصمد ضد الإنجليز، صمودًا ناجحًا لمدة خمسة أسابيع تقريبًا، ظل خلالها يـصد هجوم الإنجليز ويطاردهم إلى بوابات الإسكندرية. ولو قدر ألا تكون هنـاك أيـة بوابة أخرى تفضى إلى القاهرة سوى كفر الدوار، لكسب الوطنيون هذه الجولة.

فيما يتعلق بحرق الإسكندرية، لم أستطع مطلقًا القطع بالدور - إن كان هناك دور - الذى لعبه الجيش المصرى فى هذا الحريق. وقد أعلـن عرابـي مـرارًا وبإصرار شديد أنه لم يصدر أمرًا بذلك. يزاد على ذلك أن عملاً خطيرًا وضـخمًا مثل هذا العمل، يتباين تباينا تاما مع سلوك وتصرفات عرابى طوال فترة الحـرب؛ الأمر الذى يجعلنى أستبعد هذا الاحتمال. من الواضح أيضًا أنه فى ذات الوقت، أن الرجل نظر إلى ذلك الحريق باعتباره من محاسن الصدف، إذ من دونه لـم يكـن يمكن الانسحاب إلى كفر الدوار. زد على ذلك أن جيش عرابى كان منهزمًا، وأنـه على الرغم من عدم تدمير الجيش تدميرا تاما فإن ذلك كان أمرًا ميسورًا وممكنًـا،

لو أن قوة صغيرة جدا من الأسطول جرى إنزالها للاستيلاء على الخط الحديدى وقطع طريق الانسحاب على الجيش المصرى. كانت الخطة الإنجليزية ترمى إلى محاصرة الجيش قدر المستطاع، لكن البسالة الدفاعية غير المتوقعة، هى وخدعة الراية البيضاء، هما اللتان منعتا سيمور من الإقدام على إنزال قوة تقوم بمثل هذا العمل. والذى حدث هو أن حرق الإسكندرية مكن عرابيا من الثبات فى كفر الدوار، ففى تلك الأيام القلائل التقط الجيش فيها أنفاسه واستعاد روحه المعنوية العالية تمامًا.

ويعزو نينيه الذى حضر العملية كلها، إحراق الإسكندرية بصفة أساسية إلى دانات مدافع سيمور، وهذه رواية أرجح صحتها، إذ من دونها يصبح من الصعب تعليل ذلك الرعب الفظيع الذى أجبر الناس فى يوم ١٢ يوليو، على مغادرة الإسكندرية والتخلى عنها، وقد تركوا بيوتهم وراحوا يهربون من المدينة ويفرون منها. لو كانت قد تمت السيطرة أو الحد من هجوم المدفعية، على حد الادعاءات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، وقصرها على القلاع وحدها، لما وصل الحال إلى ما وصل إليه، والمؤكد تمامًا أن قصف المدفعية لم يكن مقصورًا على القلاع وحدها. وسواء أكان ذلك عن طريق القصد أم عن طريق الخطأ، فقد لقيت الإسكندرية نصيبها من نيران دانات المدفعية، كما أن نينيه يتكلم من موقف شاهد من شهود العيان، عن التأثير المدمر لتلك الدانات على المدينة. ومن المؤكد أيضًا أن الحريق فى ذلك الوقت بالذات تزايد بصفة خاصة فى الحى الأوروبى، عن قصد وعن عمد أيضًا، وتأكد أيضًا أن هذا الحريق كان إلى حد ما من عمل مؤخرة الجيش، التى غادرت الإسكندرية فى حال من الفوضى، وكانت تشارك فى عملية السلب والنهب التى ابتدأها البدو الذين كانوا يسكنون المدينة. من المؤكد أيضًا أن سليمان باشا سامى، الذى كان يقود مؤخرة الجيش، لم يستدعه عرابى لمساءلته فيما فعله رجاله. وأنا لا أعلق أهمية كبيرة على هذا الأمر من حيث تأثيره على القضية من الجانب الأخلاقى، نظرًا لأن هذا العمل له طابع عسكرى صرف، وأن أى قائد عسكرى يمكنه القيام به، لأنه عمل مُبرر من وجهة النظر العسكرية، وأن القائد يلجأ لمثل هذا العمل لتغطية انسحابه، وجعل المكان عديم النفع، نظرًا لأن العدو

سيستخدمه قاعدة لعملياته البرية. على الجانب الآخر، نجد أيضًا أن مسألة حرق الإسكندرية هذه، لها أهميتها من الناحية التاريخية، ومن هنا أجدنى أقول، فى ضوء توازن الأدلة، إننى أميل إلى الرأى الذى مفاده أن الجيش المنسحب له نصيب من هذا الحرق، وإن هذا النصيب لم يكن مترتبًا على أمر من الأوامر، وإنما حدث نتيجة الاضطراب والفوضى التى تسود فى مثل هذه الظروف. يزاد على ذلك أن الريح الشديدة التى كانت تهب على الإسكندرية فى ذلك الوقت هى التى سرَّعت من انتشار الحريق، وعند منتصف الليل كانت الإسكندرية تحترق عن آخرها. هذه الحقيقة لا تقلل بأى حال من الأحوال من مسئولية الحكومة الإنجليزية عن هذا الدمار، الذى كان بإمكانها الوقوف على أدق تفاصيله وبالتالى التحوط لذلك العمل، لولا أنها اعتمدت على حسابات عملائها الخاطئة.

بعد أن تمركز الجيش المصرى فى كفر الدوار، التى جرى احتلالها فى اليوم الثالث عشر من الشهر، أصبح موجودًا فى مناطق ريفية عامرة بنبات البرسيم، فى بلدة كنج عثمان(*)، التى تبعد عن دمنهور مسافة محطة قطار واحدة فى اتجاه القاهرة، وهنا قام محمود فهمى بتحديد ووضع خطوط الدفاع، وراح الجميع يعملون بهمة وشجاعة، واستعادوا ثقتهم بأنفسهم. وجرى إرسال البقية الباقية من الهاربين من الإسكندرية، إلى المناطق الداخلية عن طريق القطار؛ الأمر الذى أدى إلى إثارة الاضطراب والقلاقل بشكل كبير، نظرًا لغضب أولئك الهاربين ويأسهم مما حدث لهم؛ الأمر الذى دفع هؤلاء السكندريين إلى الانتقام لما حدث لهم من كل أوروبى وكل مسيحى يصادفونه أو يلقونه فى طريقهم. فى طنطا بصفة خاصة، يوم أن كان لها مدير شركسى هو إبراهيم أدهم، الذى كان من الموالين للخديو توفيق، ويعرف أن البلاط كان ينظر إلى الخلاف بين المسلمين والمسيحيين بعين الارتياح، حدث شيء شبيه بالمذبحة، ولولا تدخل أحمد بك المنشاوى صاحب المكانة، فى الوقت المناسب، وأخمد تلك المذبحة رغمًا عن المدير الشركسى،

(*) بالقرب من كفر الدوار، ونسبت إلى مؤسسها كنج عثمان بك ناظر المدرسة البحرية فى عهد محمد على. (المراجع)

لانتشرت تلك المذبحة إلى مناطق أخرى. والمعروف أن أحمد بك المنشاوى كان من أصدقاء عرابى، وأنه أخمد تلك المذبحة بمعاونة من بعض الفلاحين المحليين. وجرى بعد ذلك إلقاء القبض على المدير إبراهيم أدهم وإيداعه السجن فى القاهرة، كما جرى إلقاء القبض أيضًا على مديرين آخرين باعتبار أنهما لم يكونا أهلا للثقة، وكان الهدف من ذلك أن يعود النظام والأمن الداخلى طوال فترة الحرب.

فى مساء اليوم الرابع عشر من شهر يوليو وصلت عرابى أول رسالة، من الخديو، وقد أورد نينيه مضمون تلك الرسالة، غير أن محتوى هذه الرسالة غير موجود فى الكتاب الأزرق. هذه الرسالة تعد وثيقة مهمة وقيمة، والواضح أن كولفن هو الذى أملى محتواها، أو قد يكون شخصًا آخر من مستشارى الخديو توفيق هو الذى قام بهذا العمل، نظرًا لأن كل عبارة من عبارات هذه الرسالة مبنية على وجهة نظر الحكومة الإنجليزية فى الموقف. تبدأ الرسالة بتحديد سبب النزاع، وأن ضرب الإسكندرية بالقنابل إنما جاء نتيجة لرفض الموافقة على طلب الإدميرال الإنجليزى الذى يقضى بتفكيك القلاع والتخلى عنها، وأن الإدميرال لم يكن ينتوى فرض حالة الحرب على مصر، وأن الرجل يريد فى الوقت الحالى تجديد العلاقات الودية مع مصر، وأنه على استعداد لتسليم المدينة للجيش المصرى، الذى يتحتم عليه الامتثال إلى النظام والطاعة، فى حالة عدم وجود قوات عثمانية. ومن باب تسهيل نقل القوات، فإن الخديو يدعو وزير حربيته إلى العودة على وجه السرعة إلى رأس التين، للتشاور مع راغب باشا وبقية رفاقه، كما يطلب إليه أيضًا تعليق العمليات الحربية التى لا ضرورة لها الآن. نحن نعلم ونعرف من الكتاب الأزرق أن تلك الدعوة الودية إنما كانت مجرد شرك جرى نصبه لعرابى، كيما يصبح فى متناول الإنجليز، وبالتالى يمكن إلقاء القبض عليه شخصيا، والدليل على ذلك أن كارترايت Cartwright فى اليوم الخامس عشر من شهر يوليو أرسل برقية إلى جرانفيل يقول فيها: "لقد استدعاه (عرابى) الخديو إلى هنا. وسنلقى القبض عليه إذا ما جاء إلى هنا، وإذا لم يجئ سنعلن عصيانه وتمرده". هذا الحادث يوضح كيف أن الخديو توفيق جعل من نفسه مجرد بوق للسياسة الإنجليزية بلا حول أو طول، ويوضح أيضًا كيف راحت الحكومة الإنجليزية تتبنى أساليب

الخيانة العثمانية فى تعاملها مع الثوار. وجاء رد عرابى يقول: إن صاحب السمو هو ودرويش باشا هما اللذان حثا على رفض مطالب وتهديدات الإدميرال إذا ما تبعتها أعمال حربية، وإن الوقت كان حالة حرب، وإنه يستحيل على الجيش العودة إلى المدينة إلا بعد مغادرة الأسطول الإنجليزى وجلائه عن مدينة الإسكندرية. هذا الرفض أدى بعد أيام قلائل، إلى صدور بيانات بتوقيع الخديو توفيق، والتى وصلت إلى كفر الدوار، يعلن فيها للمدراء والأعيان وكل من يهمهم الأمر، أنه نظرًا لرفض عرابى الامتثال إلى أمر الخديو بالحضور إلى الإسكندرية والتشاور معه، فقد جرى تجريده من مهام وزير الحربية. لقد أدى نشر هذه البيانات فى القاهرة إلى دعوة المجلس الوطنى الأعلى للانعقاد حيث أقر بقاء عرابى فى منصبه، وما ترتب على ذلك مما رأينا.

كان الشهر التالى مفعمًا بالأمل والحماس عند المصريين بعد أن تحرر المصريون من ولائهم للخديو بعد لجوئه إلى جانب العدو، واستطاع المواطنون وأعيان البلاد التعبير عن وطنيتهم بطريقة سافرة، وأدرك البلد كله أنه فى حالة حرب، وأن هذه الحرب من أجل الحرية. وفهم الفلاحون المثقلون بالديون أن هذه أيضًا حرب ضد المرابين اليونانيين، وليس هناك من شك أن هذا كان السبب وراء توافد المتطوعين إلى الجهاد؛ الأمر الذى جعل أعيان البلاد يساهمون بأموالهم فى نصرة إخوانهم المواطنين. بعد ذلك بأيام قلائل ثبت أن تمركز الجيش فى كفر الدوار كان خيارًا موفقًا، ذلك أن الإنجليز الذين جرى إنزالهم بقيادة الجنرال أليسون Alison، وكانوا يقدرون ببضعة آلاف، جرى صدهم عدة مرات، على الرغم من تكرار الهجوم على الجيش المصرى، حيث راح الناس يتمنون استمرار تلك المقاومة إلى أجل غير مسمى.

فى كنج عثمان، وبعد أن أصبح عرابى فى ذلك الوقت الشخصية الرئيسية فى الدولة، وبعد احتفاظه بمنصب وزير الحربية، بدأ عرابى يعقد شيئًا شبيهًا بالمجلس اليومى، راح يتوافد عليه كبار أغنياء الأقاليم، وعلماء القاهرة، وكبار التجار. وجرى استقبال هذه الوفود فى خيمة ضخمة، كانت من قبل ملكًا لسعيد

باشا والى مصر السابق، كانت أرملة سعيد قد قدمت هذه الخيمة هدية لعرابى الذى كان ياورًا لزوجها. فى حين راحت نازلى Nazli هانم، هى والأميرات الأخريات يكشفن عن حماسهن لبطل تلك الأيام عن طريق تقديم الهدايا[٢٠]. ولا يمكن إنكار أن هذه الإطراءات أدارت رأس الرجل، وأنها كانت أيضًا سببًا من أسباب الغيرة والأحقاد العسكرية، التى كانت لها أخطارها على القضية عندما حان موعد الحساب. لو تمكن عرابى من صد الهجوم إلى المرحلة التى يبدأون عندها مساومته ومحاولة التوصل معه إلى اتفاق، لبقى عرابى سيدًا على مصر. وهنا أيضًا راح الضباط الأفضل تعليمًا من عرابى، والأفضل معرفة فى فن الحرب، والذين كانوا يعرفون حقيقة عرابى- ذلك الجندى البسيط جدا - راح هؤلاء الضباط فى ضوء غضبهم يفكرون فى حظوظ عرابى المستقبلية، وبروز نجمه فى ذلك الوقت. وواقع الأمر، أن عرابيا لم يكن يفكر فى ذلك كله أو يعيه، وراح يسير بطريقة حالمة فى الطريق الذى رسمه له الحظ، وكبرت فى رأسه خرافة المصير الذى رسمه له القدر، وأن العناية الإلهية بعثته منقذًا لهذا الشعب. تدين أحمد عرابى هو الذى جعله يسلم نفسه بصورة خاصة لرجال الدين؛ الأمر الذى جعل الرجل يمضى أكبر جزء

(٢٠) أورد ما يلى من مذكرتى فى عام ١٨٨٧: "فى الحادى والثلاثين من يناير، القاهرة. استدعتنى الأميرة نازلى، وجمالها لا يقل عن ذكائها، وحوارها ذكى وألمعى إذا ما دار فى أى مجتمع فى هذه الدنيا. حكت لنا أشياء كثيرة جعلتنا نهتم بعرابى، الذى وصل، ولا يزال إعجابها به يقارب حد العبادة، إذ راحت تتحدث بشوق إلى تفرده الذهنى، وكانت حزينة أشد الحزن على الإطاحة به. قالت: (صحيح أن عرابى لم يكن عسكريا جيدا بما فيه الكفاية، وصحيح أيضا أن الرجل كان صاحب قلب طيب، لكن هذه كانت أخطاء وعيوب هذا الرجل. لو كان عرابى رجلاً عنيفًا مثل جدى محمد على، لكان قد أخذ توفيق ونحن معه وقطع رءوسنا جميعًا؛ وبذلك كان يمكن له أن ينعم حاليا، أو لو تمكن من جعل الخديو يلتزم الأمانة معه لجعله ملكًا عظيمًا على البلاد. كان عرابى الوزير المصرى الوحيد الذى أجبر الأوروبيين على طاعته. فى زمن عرابى رفع المسلمون رءوسهم، وفى عهده لم يتجرأ اليونانيون أو الإيطاليون على مخالفة القانون. وقد قلت هذا الكلام لتوفيق أكثر من مرة. حاليا لا يوجد من يحافظ على النظام، المصريون وحدهم هم الذين يطبق عليهم القانون، أما الأوروبيون فيفعلون ما يشاءون).

من وقته مع رجال الدين فى الأدعية والتلاوات بدلاً من تمضيته فى مهامه الدنيوية الخاصة بتنظيم وتقوية الدفاع، ويبدو أن هذه العادة استمرت مع عرابى إلى النهاية، وعليه لم يكن سهلاً الوصول للهدف النهائى لخطة الرجل العسكرية. واستنادًا إلـــى ما قاله نينيه فإن عرابيا كان يعتقد أنه إذا ما استطاع إطالة أمد المقاومة إلى أشـــهر عدة، فإن ذلك سيجبر أوروبا على محاولة التوصل إلى اتفاق معه. كـــان المـــؤتمر منعقدًا فى إسطنبول، وكان أعضاؤه يحثون السلطان على التدخل، بينما كان يخشى أن إنزال القوات العثمانية قد يجعلها تتآخى مع قوات عرابى، الـــذى كـــان العـــالم الإسلامى كله ينظر إليه باعتباره بطل الإسلام، والـــسبب فـــى ذلـــك أن الحجـــاج العائدين من مكة كانوا قد جاءوا وأخبروه بذلك، ومن هنا يصبح من العسير علـــى السلطان مشاركة بريطانيا فى مواجهتها لأحمد عرابى. يزاد على ذلك أن الرجـــل كان لديه بصيص من الثقة فى جلادستون، وبصيص من الثقة أيـــضًا فـــى ذلـــك الاعتقاد التقليدى الذى يفيد أن الإنجليز متعاطفون مع قضية الحرية. وكان عرابـــى يعتقد أن ذلك يمكن أن يسود ويتحقق من خلال جعل الإنجليز يقفون علـــى مـــشهد الوطنية المصرية، وهذه مجرد أحلام بطبيعة الحال، بل إن غالبيتها أحـــلام كاذبـــة وخادعة، لكن آخرين كثيرين كانوا يشاركون الرجل هذه الأحلام، وهـــذه الأحـــلام يصبح لها مبرراتها إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الأحداث التى وقعت خلال الأشـــهر الستة السابقة.

على الرغم من ذلك، وفى اليوم السادس عشر من شهر أغـــسطس، جـــرى إنزال ولسلى ومعه أول المفارز البريطانية فى الإسكندرية، وعندما بدا واضحًا أنه لن يقتصر على ضرب الخطوط الحصينة فى كفر الدوار، عجلت اللجنة العـــسكرية بإصدار قرار يقضى بإنشاء خطوط دفاعية جديدة على مداخل مصر الشرقية التـــى يسهل الهجوم عليها من ناحية قناة السويس. وعليه جرى تشكيل جيش شرقى بقيادة على فهمى فى القاهرة، وقام ذلك الجيش باحتلال القناة بالقوة. يضاف إلى ذلـــك أن خطوط التل الكبير، التى لم تكن قد جرى الشروع فى إنشائها، على الـــرغم مـــن الإنذار الذى كنت قد أرسلته من خلال الشيخ محمد عبده فى شـــهر أبريـــل، بـــدأ

تنفيذها بكل جدية وعلى وجه السرعة. وهنا برزت أيضًا مسألة تعطيل وإغلاق قناة السويس كأمر مهم من الناحية الشمالية، مخافة أن تشتبك السفن البريطانية مع الدفاعات، ثم تقوم بعد ذلك بالرسو والإنزال في الإسماعيلية. وحظيت تلك الفكرة بإجماع الرؤساء العسكريين كلهم وأقروا بأن ذلك يعد ضرورة إستراتيجية، وأن هذا الهدف لا بد من تنفيذه مهما تكلف الأمر مع سلطات القناة الفرنسية. من ناحية أخرى نجد أن عرابيا – وهذا هو خطؤه الجسيم الثاني– لم يستطع اتخاذ قرار بشأن موضوع قفل القناة وتعطيلها، ويرجع تردد عرابي في هذا الأمر إلى النفوذ الفرنسي. كان السيد ديلسبس Delesseps قد وصل إلى الإسكندرية في أواخر شهر يوليو، وكان الرجل قد عرف بعض الشيء عن استخدام الإنجليز للقناة في الهجوم على مصر، وانزعج خوفًا على سلامة القناة، وسافر إلى بور سعيد، في محاولة منه لمنع تنفيذ هذه الخطة، بأن راح يناشد عرابي ويرجوه. كان ديلسبس واثقًا في نفسه، وظن أن مجرد وجوده هناك سيخيف حكومتنا (الحكومة الإنجليزية)، ونادى بأن القناة محايدة ومستبعدة من عمليات المتحاربين. بعد الحرب، وفي أثناء قيامي بالدفاع عن عرابي، كتبت إلى ديلسبس أطلب منه الدلائل التي لديه، والتي يمكن أن تفيد عرابي فأرسل لي صورًا من الرسائل التي أرسلها له عرابي حول هذا الموضوع، لكنه لم يرسل لي صورًا من الرسائل التي أرسلها هو إلى عرابي(٢١). هذه الرسائل توضح الطريقة التي جرى بها تضليل عرابي وخداعه.

بعد المراسلات التمهيدية، نجد أن عرابيا في اليوم الرابع من شهر أغسطس بدأ يعطي قراره بصورة واضحة. كان هناك عديد من رجال الحرب الإنجليز، يقودهم الإدميرال هيويت Hewett في منطقة القناة، فيما بين الإسماعيلية والسويس، وكان ديلسبس قد كتب يشتكي من أن هؤلاء الرجال كانوا يصدرون إعلانات وبيانات للسكان الموجودين على الشاطئ. وعرابي ينكر عليهم هذا الحق إذ يقول: إنه يرسل إليه (ديلسبس) الرد بناء على توجيه من المجلس، ويضيف عرابي إلى ذلك، ومن باب الرد على رجاء واضح تقدم به ديلسبس إلى عرابي حول احترام

(٢١) يرجى الرجوع إلى الملاحق.

حيادية القناة: "نظرًا لاحترامي الدقيق لحياد القناة، وبخاصة لكونها عملاً من الأعمال الشهيرة، وباعتبارها عملاً يقترن به اسم سيادتكم على مر التاريخ، يسعدني إبلاغكم أن الحكومة المصرية لن تخرق ذلك الحياد إلا للضرورة القصوى، وبخاصة إذا ما ارتكب البريطانيون أى عمل من الأعمال العدائية في الإسماعيلية، أو بور سعيد، أو في أية نقطة أخرى من نقاط القناة". هنا يتضح أن المبدأ واضح ومستقر، لكن نقطة الضعف في هذا المبدأ تتمثل في تركه العدو يقوم بأول الأعمال العدائية بدلاً من المبادرة إلى منعه من القيام بمثل هذه العمل.

على الجانب الآخر، لدينا أيضًا التأكيد الذى ورد على لسان نينيه، والذى أكدته لى بعض المصادر الأخرى، ومفاده أن الترتيبات كلها كانت تجرى فى سرية وتكتم، لقفل وسد وإغلاق قناة السويس فى منطقة ما بين الإسماعيلية وبور سعيد، وأن عدم رغبة عرابى شخصيا فى توقيع الأمر النهائى، معارضًا بذلك الرأى الذى أجمع عليه رفاقه كلهم فى المجلس، هى التى أدت إلى ضياع العمل الحاسم من أيديهم. كان ديلسبس بعد وصول الأسطول البريطانى إلى بور سعيد، حاملاً ولسلى والجيش، قد أرسل إلى عرابى برقية عاصفة، اقتبس نينيه عنها ما يلى: "لا تقم بأية محاولة لدخول القناة لأنى موجود. لا تخش هذا الجانب، لن تطأ قدما أى جندى إنجليزى أرض القناة إلا بصحبة جندى فرنسى، وسوف أتولى أنا كل شىء [*]". صادف هذا الحدث الجلسة النهائية للمجلس فى كفر الدوار فى اليوم العشرين، والتى تقرر فيها من قبل جميع أعضاء المجلس، باستثناء عرابى، عدم الاعتداد برسالة ديلسبس. ومع ذلك، سمح عرابى لنفسه أن ينخدع بمسألة التباهى بالقوات الفرنسية، وراح يدافع عنها، وعلى الرغم من صدور الأوامر فى مساء ذلك اليوم بتدمير القناة "تدميرًا مؤقتًا"، فإن التأخير الذى ترتب على النقاش الذى دار حول هذا الموضوع يعد ضربة قاصمة، وكان ولسلى قد عبر القناة قبل تنفيذ تلك الأوامر

(*) وردت هذه البرقية باللغة الفرنسية، وترجمتها إلى العربية الأنسة داليا من جريدة البروجرى الفرنسية التى تصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر بجمهورية مصر العربية. (المترجم)

الخاصة بالتدمير. ويعد ضعف عرابى فى هذا الأمر نقطة سوداء فى شهرة الرجل الإستراتيجية، وترميه أيضًا بعدم الكفاية السياسية. قال ولسلى بعد ذلك بفترة من الزمن، فى خطاب ألقاه بمناسبة حفر النفق الذى يربط بين إنجلترا وفرنسا: "لو أغلق عرابى قناة السويس، حسبما تقرر، لتعين علينا البقاء حتى اللحظة الراهنة، فى أعالى البحار، كى نحاصر مصر. تأخير القيام بهذا العمل مدة أربع وعشرين ساعة هو الذى أنقذنا من ذلك المأزق".

احتل ولسلى الإسماعيلية فى الحادى والعشرين من أغسطس، واعتبارًا من تلك اللحظة يكون الدفاع عن مصر قد دخل مرحلة يائسة تمامًا، على الرغم من أن الحملة لم تكن مجرد نزهة للإنجليز كما كان متصورًا. كانت قوة الجيش البريطانى تزيد على ثلاثين ألف جندى، وعلى الرغم من أن هذه القوة لم تكن لها قيمة قتالية تذكر إذا ما قارناها بالقوات الأوروبية، فإنها كانت كافية للتعامل مع القوات المبعثرة التى كانت تحت قيادة عرابى. كان إجمالى القوة التى فى كفر الدوار لا يتعدى ثمانية آلاف جندى من القوات النظامية، ومعها حوالى ٨٠ مدفع من طراز كروب Krupp، ولم يكن إجمالى القوات فى مصر يزيد بأى حال من الأحوال على ١٣٠٠٠ جندى من القوات النظامية، فى حين كان المتطوعون الجدد، الذين وصلوا منذ حوالى شهر، لا يصلحون فى أى عمل من العمليات العسكرية سوى العمل اليدوى الذى يجرى فى الخنادق. من هنا كان العمل الذى ينتظر ولسلى عملاً سهلاً، وبخاصة عندما وجد نفسه على البر بلا عقبات أو عوائق تحول بينه وبين القاهرة، غير الخطوط التى لم تكتمل فى التل الكبير. ومع ذلك، كانت المخابرات الإنجليزية قد اتخذت بعض الإجراءات السرية لضمان نجاح القوات، وكانت هذه الإجراءات من بين الإجراءات التى يجرى استخدامها بصورة مستمرة فى العمليات الحربية الحديثة والتى لم يعلن عنها. وأنا يتعين علىَّ هنا أن آتى على ذكر أهم هذه الإجراءات، نظرًا لأنى أعرف تفاصيلها كلها. الكتاب الإنجليز ينكرون تمامًا مسألة دور الرشوة فى التقدم الذى أحرزه ولسلى، لكن أعتقد أنه آن الأوان لكشف الحقائق أمام الناس.

كان الهجوم على مصر من جانب قناة السويس قد تقـرر مـن قبـل وزارة الحربية البريطانية هى وقيادة البحرية فى مطلع العام، وتقرر فى منتـصف شـهر يونية تمهيد الطريق في فترة مبكرة عن طريق عملية رشـوة كبيـرة، بـين بـدو الصحراء الشرقية. والفضل فى الخطة - التى أطلق عليها اسم طريـق العمليـات Modus Operandi - يرجع إلى اللورد نورثبروك Northbrook شخـصيا، الـذى بلغنى من جريجورى أنه (بروك) كان يتباهى ببدايات النجاح الـذى حققتـه هـذه الخطة، والأدهى من ذلك أن هذه الخطة كانت قد بنيت علـى إشـارة كانـت قـد صدرت عنى، ولم أكن أقصد بها عندما فعلتها، أن تكون سببًا فى الإضـرار بـأى أحد من أولئك الذين قُدِّر لهم أن يكونوا لى أصدقاء. وهنا يجب ألا يغيب عنا أنـى فى ربيع عام ١٨٨١، كنت قد ترحلت فى الصحراء الموجودة فى شـرق القنـاة، وكنت قد ركزت اهتمامى على بعض مشايخ التياهة وشيوخ الترابين الذين جـرى احتجازهم في سجون القدس، وكنت أحاول إقناع سفارتنا فى إسـطنبول بالتـدخل لإطلاق سراح هؤلاء الشيوخ، ربما يكون هؤلاء البدو أصدقاء لبريطانيا على نحو يمكن أن تفيد منه بريطانيا مستقبلاً. كان اللورد نورثبروك قد سـمع عـن ذلـك، ونظرًا لأنى الآن على خلاف مع الحكومة، فقد فكر الرجل فـى "الاسـتفادة مـن عملى"، واستغل الرجل اسمى وبعض المغريات الأخرى فى تأليب هـؤلاء البـدو على أحمد عرابى.

فى ذلك الوقت لم يكن هناك إنجليزى واحد يستطيع تحدث العربيـة، وكـان من الصعب العثور على مبعوث كفء يرغب فى القيام بهذه المهمة. وهنـا رجـع نورثبروك إلى مستشاريه، وبالذات إدوارد بالمر Edward Palmer أسـتاذ اللغـات الشرقية فى جامعة كامبردج، الذى كانت له إلى حد ما دراية بالمنطقة المراد إجراء بعض العمليات العسكرية فيها، من منطلق أن الرجل كانت تربطه، فى وقت مـن الأوقات، صلة بجمعية استكشاف فلسطين. كان بالمر يقيم فى لندن فى ذلك الوقت، وهو مجرد رجل مُعْدِم، يكسب عيشه من الصحافة، يكافح من أجل العيش بـسبب ارتباطه مؤخرًا بالزواج. وعندما وصلت الرجل دعوة من نورثبروك فـى الرابـع والعشرين من يونية، عن طريق النقيب جيـل Gill مـسئول إدارة الاسـتخبارات

البريطانية، لتناول طعام الإفطار في صبيحة اليوم التالي مع اللورد نورثبروك في الإدميرالية (قيادة القوات البحرية)، وعندما قابله اللورد بعرض يحتم عليه القيام بالمهمة، التي صوّرت له على أنها مهمة شريفة ووطنية، والتي تتمثل في التأكد من استعداد بدو شرقي القناة لقبول الرشوة، وتأمين خدماتهم لصالح الجيش البريطاني، وعندما عرض بروك على بالمر عربونًا مقداره ٥٠٠ جنيه إنجليزي على سبيل المصروفات، كما وعده أيضًا بمكافأة سخية في حال نجاحه، لم يتردد إدوارد بالمر لحظة واحدة ووافق على الفور على القيام بهذه المهمة. وقبل رحيل الرجل، في السادس والعشرين من يونية، اتصل بي، ليقول لي إنه في طريقه إلى الإسكندرية، التي عُيّن فيها مراسلاً لصحيفة "ستاندارد" Standard وطلب مني إعطاءه خطابات تقديم لأصدقائي الوطنيين في الإسكندرية، والذين، على حد قوله، يشعر بتعاطف كبير معهم، وأنه سوف يكشف عن ذلك التعاطف في كتاباته. كان ذلك مجرد غطاء، بطبيعة الحال، لمهمته الحقيقية، التي التزم الصمت إزاءها، وعلى الرغم من أني لم أثق بتعبيرات وجه الرجل، التي لم تكن مخلصة أو نقية بأي حال من الأحوال، فقد أعطيته رسائل تقديم إلى كل من صابونجي، ورجل أو اثنين آخرين، لكني لم أعطه أية رسائل لأحمد عرابي.

كانت خطة بالمر قد جرى رسمها له في الإدميرالية، وكانت تقضي بأن يسافر الرجل أولاً إلى الإسكندرية، لمناقشة الخطة مع الإدميرال سيمور، ثم يتجه بعد ذلك مباشرة إلى يافا، ليتنكر فيها في زي رجل شرقي، ثم يقوم بزيارة الصحراء الواقعة جنوب وغرب غزة، ثم يقوم بعد ذلك بالاتصال ببدو قبائل التياهة والترابين بصفة محددة، وكنت أنا قد أنجزت لهم بعض المصالح قبل ثمانية عشر شهرًا. ومذكرات إدوارد بالمر التي نشر جزء منها، لها أهمية خاصة في هذا الصدد. هذه المذكرات تحتوي على تفاصيل خطة الرجل مع اللورد نورثبروك. إدوارد بالمر، يصف في تلك المذكرات صعوده إلى ظهر يخت الإدميرال سيمور في الإسكندرية، حيث طلب الإدميرال منه التوجه إلى الصحراء مباشرة، والبدء في تنفيذ الخطة المرسومة؛ وأعطاه الإدميرال أيضًا "مسدسًا وبندقية، وكمية كبيرة من الطلقات"، وإذا ما وجد أن الحرب "المنتظرة قد قامت، وقد تبدأ هذه الحرب غدًا".

يقول بالمر: "أنا سعيد لنشوب هذه الحرب في واقع الأمر، والسبب فى ذلك، أنــى على الرغم من بعدى عن ميدان القتال؛ فإنى سأجنى خيرًا كبيرًا من تلك الحــرب، وسوف أفعل شيئًا من أجل كسب هذه الحرب من جانبنا" .... قال لى الإدميرال إنه "يهنئنى لأن البلاد عثرت على رجل كفء مثلى قادر على القيــام بهــذه المهمــة الصعبة". ويلتقى إدوارد بالمر أيضًا مع الوكيل السياسى "الــسير ســدنى أوكلانــد Sydney Auckland"؛ فى يومياته إن الإدميرال أبلغــه أن الإســكندرية ســيجرى ضربها بالقنابل عاجلاً. ثم ينتقل الرجل، فــى روح معنويــة عاليــة، فــى يخــت الإدميرال، إلى ظهر الباخرة ليصل بها إلى يافا، والعلم البريطــانى يرفــرف مــن فوقها، وبصحبته "ملاحان يحملان له البندقية والمسدس".

فى يافا، يقيم إدوارد بالمر مع القنصل الإنجليزى، شابيرا Shapira اليهودى، الذى يوفد ولده إلى غزة لمعاونته فى التجهيزات والاستعدادات المطلوبــة للرحلــة الصحراوية، ويعثر بالمر على عربى يرافقه فى هذه الرحلة، ويشترى لنفسه أيضًا لباسا عربيا وبعض الأشياء الأخرى التى قد يكون بحاجة إليها. والرجــل يحــزن بسبب ارتفاع درجة الحرارة والمشاق المترتبة على القيام بهذه الرحلة، لكنه يمنــى نفسه بأحلام المكافآت السخية وعبارات التشريف والإجلال.

وفى اليوم الخامس عشر من الشهر، وقبل الاتجاه إلى الصحراء، تصله سرا أخبار ضرب الإسكندرية بالقنابل، ويقرر الذهاب فورًا إلى السويس، ويطلب قاربًــا من سفينة من السفن كى تنقله إلى مكان آمن.

فى اليوم السادس عشر يلتقى إدوارد بالمر بعضًا من أفراد قبيلة التــرابين: "كانوا يتعجلون معرفة حقيقتى وذلك الذى ابتغيه. قال رفيقى العربى: إنى ضــابط سورى فى طريقى إلى مصر. وكنت بطبيعة الحال أرتدى زيا إسلاميا كاملا مثــل أهل الحضر. وعرفت الكثير عنهم أكثر مما عرفوه هم عنى. وأنــا الآن أعــرف كيف وأين أعثر على كل شىء من الشيوخ فى الصحراء، وقد تمكنت بالفعل مــن تطويع التياهة، وهم أقوى العرب وأشدهم شراسة فى الحرب، إلى أن أصبحوا على استعداد أن يفعلوا أى شىء من أجلى. وعندما سأعود إليهم سيكون بوسعى تجنيــد

أربعين ألف رجل. لقد أسعدنى الحظ عندما تعرفت على قبيلة لها مثل هذا النفوذ... واصلت تنفيذ المهمة الموكلة إلىَّ، وأنا فى انتظار وصول تعليمات من السويس، وأود أن أعرف أيضًا ما إذا كانت قواتنا قد جرى إبرارها. أنا لم أكن أتوقع الوصول إلى هذا الذى وصلت إليه فى هذه الرحلة الأولى. أعتقد أن الحظ سيكون حليفنا". فى اليوم الثامن عشر "حدث أمر مثير، فقد التقيت شيخ العرب الكبير فى المنطقة. وقد تمكنت فعلاً من جعل الرجل يقبل أفكارى ويسلم بها".

فى التاسع عشر أيضًا من يوليو

حققت معهم تقدمًا مدهشًا. استطعت السيطرة على بعض الرجال الذين حاول عرابى باشا، دون جدوى، ضمهم إلى جانبه، وعندما سنكون بحاجة إليهم سيكون كل واحد منهم ملبيًا لندائى بدءًا من السويس إلى غزة... ومن الطبيعى أن لا أعرف شيئًا عما يدور فى مصر منذ أن غادرتها، اللهم إلا باستثناء أن الإسكندرية جرى ضربها بالقنابل مثلما أبلغنى الإدميرال من قبل. لكنى أسمع من العرب أن الحزب العسكرى المصرى لا يزال قويا، وعليه سلمت بأن قواتنا لا بد أن يكون قد جرى إبرارها".

فى العشرين من يوليو

التقيت "الشيخ – شقيق سليمان – الذى يمنع العرب من مهاجمة قوافل الحج التى تسافر من مصر إلى مكة كل عام، وهذا هو الرجل الذى أريده فعلاً. واستحلفت الرجل بأغلظ الإيمان العربية أن يضمن – إذا ما طلبت أنا ذلك منه – سلامة القناة من عرابى باشا، ويبلغنى هذا الشيخ أنى إذا ما استطعت إخراج ثلاثة من الشيوخ من السجن، وهذا ما أستطيع عمله فعلاً عن طريق إسطنبول وعن طريق سفيرنا هناك، فإنه سيضمن أن العرب كلهم سيهبون هبة رجل واحد وينضمون إلىَّ".

في الحادى والعشرين من يوليو

"أنا مشتاق للذهاب إلى السويس، لأنى استطعت إنجاز كل ما ابتغيت من الأعمال الابتدائية، وفور صدور التعليمات الدقيقة، سيكون بوسعى تسوية كل شيء مع العرب خلال أسبوعين أو ثلاثة وبذلك ينتهى كل شيء. لقد اتفقنا على أن يلتزم البدو الهدوء الكامل وألا ينضموا إلى عرابى، لكنهم سينتظرون منى تحديد ما هو مطلوب منهم. وهم ينظرون إلى عبد الله أفندى، (وهذا هو الاسم الذى أطلقوه علىَّ) باعتباره شخصية عظيمة بحق!" **فى الثانى والعشرين من يوليو** "بلغنى من أحد من البدو، كان قد عاد من مصر منذ وقت قريب، أن عرابيا باشا جلب ٢٠٠٠ خيال من بدو النيل، وأنه أحضر هؤلاء الخيالة إلى منطقة القناة. لكنهم عندما يصلون إلى السويس سيعودون علىَّ وجه السرعة، لأن رجالى يعرفونهم، وإذا لم تجد الطرق السلمية، سأرسل عشرة آلاف رجل من التياهة والترابين يقاتلونهم ويعيدونهم من حيث جاءوا. كسبت إلى جانبى أيضًا ذلك الرجل الذى يزود الحجاج بالإبل، ولما كنت قد وعدت الشيخ الكبير بإعطائه مبلغ ٥٠٠ جنيه إنجليزى لنفسه، فهو على استعداد لفعل أى شيء من أجلى. أنا سعيد جدا لأن الحرب وصلت إلى حد الأزمة، لأنى سوف يتحتم علىَّ، عند هذا الحد، القيام بمهمتى الكبيرة، وأنا متأكد من نجاح هذه المهمة. سوف أعرف بصورة مباشرة ذلك الذى يتعين علىَّ القيام به. لقد أبلغنى اللورد بروك، أنى سآخذ مبلغ ٥٠٠ جنيه إنجليزى نظير هذه الرحلة الأولى، وأبلغنى أيضًا أنهم سيدخلون معى فى اتفاق جديد فور بداية المفاوضات بينى وبين البدو. سوف أدخر ما لا يقل عن ٢٨٠ جنيه إنجليزى من هذا المبلغ، وهذا مبلغ طيب نظير العمل مدة شهر واحد! ... وأنا لا أعتقد أنهم سيعطونى أكثر من ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى أو ٣٠٠٠ نظير القيام بهذه العملية كليا.".

فى السادس والعشرين أيضًا من يوليو

"اكتشفت أن بإمكانى الوصول إلى السفن البريطانية القريبة من السويس، وسأبدأ تحركى غدًا على أن أركب الباخرة خلال أربعة أيام أو خمسة. لقد بلغت

من النجاح مبلغًا يؤهلني لطلب المزيد من المال، وسوف أكتب للمسئولين لأقول لهم: إني اضطررت إلى إنفاق نقودى كلها على الهدايا - وبضع مئات من الجنيهات تشكل عندنا شيئًا كبيرًا، فى حين هى لا تشكل شيئًا عند الحكومة، التى يمكن أن تدفع الآلاف، على حد علمى، نظير العمل الذى أنجزته أنا بالفعل- واقع الأمر أنى أنا الذى سيمر بالمصاعب وما أكثرها. سوف أرسل لك مائة جنية تقريبًا إذا ما تهيأت لى الفرصة فى السويس... لقد اضطررت إلى إنفاق الكثير، لكن لا يزال معى ٣٠٠ جنيه إنجليزى، بعد أجرة ومصاريف رحلتى إلى السويس!" "حضرت احتفالاً كبيرًا اليوم، وقد أكلت عيشًا وملحًا مع الشيوخ إشارة إلى حماية بعضنا بعضًا إلى الممات!" فى اليوم الثامن والعشرين "استطعت ضم شيخ عرب الحويطات Haiwath إلى جانبى، وبدأت التفاوض معهم بالفعل. واقع الأمر أنى حققت نجاحًا رائعًا فيما قمت به. وجلست فى ضوء القمر وأنا ألقى الشعر العربى مرارًا وتكرارًا على الرجل المسن إلى أن ملكت عليه قلبه".

ويصل إدوارد بالمر فى نهاية المطاف إلى السويس فى الأول من أغسطس. وهنا يكتب بالمر (لزوجته) قائلاً: "أنا حاليا، آمن على ظهر القارب .P.O. تسلمت رسالتك. وصلت إلى هنا عن طريق الذهاب إلى جزء من الساحل فى السويس، وركبت الباخرة عند منتصف الليل. لقد كلفنى ذلك مبلغًا كبيرًا، حوالى ١٠ جنيهات إنجليزية، لكنى استطعت الهرب من الخفراء المصريين. القوات ستصل يوم الخميس واليوم يصادف الثلاثاء! ... لقد التقيت الأدميرال سيمور بالفعل. والرجل سعيد بالنتيجة التى ترتبت على العمل الذى قمت به، وقد أبرق بذلك إلى اللورد نورثبروك. كان الرجل قد كلف ثلاثة أطقم من أطقم القوارب لمراقبة الشاطئ تسهيلاً لقيامى بمهمتى، لكنى وصلت إلى هذا وحدى". فى اليوم الثانى من شهر أغسطس يكتب إدوارد بالمر: "لقد ذهبت إلى الصحراء مرة ثانية فى رحلة قصيرة تستغرق حوالى يومين. لقد طلبوا منى الذهاب إلى الشاطئ لأقوم بقطع أسلاك التلغراف وأقوم بحرق أعمدة التلغراف فى الخط الصحراوى وبذلك أقطع اتصالات عرابى مع تركيا!".

"وصل النقيب جيل Gill إلى بور سعيد أمس، وسيصل إلى هنا غـدًا. كـان أمس يوما مهما عندى. زرت النقباء كلهم واسـتقبلونى اسـتقبالاً طيبًـا. أصـروا جميعهم على أن أشرب نخبهم شمبانيا مثلجة، وفى المساء أقـام الإدميـرال حفـل عشاء تكريمًا لى على ظهر سفينة القيادة. كان عشاءً جميلاً ولم أعد إلى سفينتى إلا عند الساعة الواحدة صباحًا". اليوم الرابع من شهر أغسطس، "صدرت لى فى يـوم الاثنين أوامر بمصاحبة ضابط القيادة إلى أن أصل إلى السويس. نزلنا إلـى البـر ومعنا ثلاثة مدافع و ٥٠٠ جندى. هرب الجنود المصريون وبالتالى، لم نشتبك فـى أى قتال. كنت أنا من ضمن أفراد القارب الأول الذين نزلوا إلى البـر. وأجبرنـا محافظ المدينة على تسليمها، وتسليم مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى كانت بحوزتـه. كان اللورد نورثبروك قد أبرق فى اليوم السابق إلى الإدميـرال ليهنئنـى بـسلامة الوصول، ويبلغنى أنى جرى تعيينى (رئيسًا لمترجمى قوات صاحبة الجلالـة فـى مصر) وأنه جرى إدراجى ضمن العاملين مع الإدميرال سـيمور. أنـا هنـا فـى السويس بحال طيب وفى فندق على حساب الحكومة، وأتناول وجباتى كلهـا مـع الإدميرال. سوف أذهب إلى الإسماعيلية بعد غد فى قارب من القوارب المـسلحة، وقد قال لى الإدميرال هنا: (لا تسمح للإدميرال الآخر باحتجازك- لأنـك مـدرج ضمن سجلات السفينة "أوريالوس" Euryalus، أى سفينة القيادة التـى يتـولى هـو أمرها). لقد أصبحت لدى هيئة من العاملين معى تضم حوالى أربعين رجلاً، كلهـم تحت رئاستى. لقد أخبرنى الإدميرال منذ عدة ليالى أنه متأكد من حـصولى علـى الميدالية المصرية و"نجمة الهند". لن يسمحوا لى بالذهاب إلى الصحراء، فى الوقت الحالى على الأقل، لأنهم بحاجة إلىَّ هنا... أنا واحد مـن كبـار ضـباط الحملـة وشخصية مهمة. الكتيبة الثانية والسبعين ستصل غدًا ويتعين علىَّ البحث عن الإبل المطلوبة لهذه الكتيبة... سيكون الأجر طبقًا لما أحدده أنا، لكنى لم أبت فـى هـذا الموضوع بعد". بعد ذلك، نصل إلى الذروة بعد "مجىء النقيب جيل، الذى وضـع تحت تصرفى عشرين ألف جنيه إنجليزى لحساب العرب (البدو)".

أما ما تبقى المذكرات فعبارة عن أحلام بالذهب والمجد. ففى السادس مـن أغسطس، يكتب لزوجته "السويس... أبدأ باكرًا بالذهاب إلى الصحراء مـدة أيـام

قلائل لشراء بعض من الإبل. سيكون بصحبتي النقيب جيل وقائد سفينة القيادة الخاصة بالإدميرال، وسنكون جميعًا فرحين وآمنين. وأنا أرى مركزى وكأنه حلم. قال الإدميرال: إننى طالما تركت مسألة تحديد أجرى للحكومة، فأنا من حقى سحب أى مبلغ تحت حساب المصاريف الخاصة- وعليه سوف أرسل لك مبلغ ٥٠٠ جنيه إنجليزى فور عودتى. بوسعى أن أفعل ذلك الآن، لكنى لا أود لأحد أن ينظر إلىَّ نظرة ازدراء. أنا لم يعد يتبقى معى سوى ٢٦٠ جنيه إنجليزى، بعد أن سددت مصاريف رحلتى كلها.. إلخ، سددتها بالعملة الصعبة عن طريق صندوق البرقيات، واليوم هذه هى عشرون ألف جنيه إنجليزى من الذهب جرى إحضارها عن طريق سفينة من السفن وجرى إيداعها فى حسابى هنا! معى شيك على بياض، أفعل ما أشاء. أنا أمنح التصاريح للحراس والخفر. بوسعى أن أشترى دستة من الخيول إذا أردت ذلك ودفعة واحدة. عثرت بالأمس على ثلاثين جملا وأعطيت رجلا مبلغ ٣٦٠ جنيه إنجليزى ثمنًا لها، بمجرد الكتابة على قصاصة من الورق. الليلة كنت أقوم بعملية الترجمة فى أثناء تناول المحافظ العشاء مع الإدميرال. لى خدم، وكتبة ومترجمون، الجميع رهن إشارتى وتحت أمرى، وقصارى القول إنى لا يمكن أن أكون فى وضع أفضل مما أنا عليه حاليا. نحن هنا فى مكان محصن وأمين، والعدو يبعد عنا ثمانين ميلا، وغدًا تصل القوات الهندية. صحيح أننا فى زمن حرب، لكنى بحكم وجودى ضمن هيئة العاملين مع القائد العام، لست معرضًا للذهاب إلى الأماكن الخطرة. لقد شاهدت العمليات الحربية بالفعل، على الرغم من أنى كنت واحدًا من أولئك الذين جرى إنزالهم فى السويس بعد الاستيلاء عليها. الإدميرال رجل لطيف، وقيل لى إنه لا ينسى ضباطه مطلقًا، لكنه يدفعهم دائمًا إلى الترقى. قال لى: إنى يتعين علىَّ الحصول على (نجمة الهند!) إلى اللقاء".

هذا هو المدخل الأخير المحزن فى وثيقة من الوثائق شديدة الإنسانية. فى صبيحة اليوم التالى تحرك إدوارد بالمر بصحبة كل من جيل وشارنجتون Charrington، قاصدين " نخل" فى الصحراء الشرقية. كانت مهمة كل من جيل وشارنجتون تتمثل فى تدمير أسلاك التلغراف بين مصر وسوريا، الأمر الذى جعلهما يأخذان معهما صندوقًا من الديناميت، فى حين كانت مهمة إدوارد بالمر

تتمثل فى "شراء الإبل". كان الضابطان مثل إدوارد بالمر يرتديان زيًا عربيًا، لكنهما كانا يصحبان معهما ملابس رسمية تضفى عليهما المزيد من الاحترام عندما يصلان إلى مناطق القبائل الصديقة. وقيل إن المبلغ الذى كان بحوزتهما من المبلغ المخصص لإدوارد بالمر كان يتراوح بين ٣٠٠٠ جنيه إنجليزى و٨٠٠٠. كان جيل قد سجل عدم رضاه عن طبيعة هذه المهمة التى جرى تكليفه بها. هذه المهمة لا يمكن أن تكون مجرد عملية شراء إبل ليس إلا، وإنما كان ذلك عبارة عن تعريف لطيف (عن شيء بغيض) وهو أن إدوارد بالمر أصبح الآن ضابطًا كبيرًا من ضباط صاحبة الجلالة؛ وأن الرجل ذاهب، وبلا أدنى شك، لتنفيذ الوعد المتفق عليه مع البدو، أى بالمر سيدفع لهم المبالغ الكبيرة المتفق عليها. كان بإمكان جيل صرف مبلغ العشرين ألف جنيه إنجليزى كله وتوزيعه على أربعين ألف مقاتل، لكن الإدميرال اعترض على ذلك.

من جانب آخر، كان الفشل مقدرًا لتلك الجماعة، فالحرس المرافق لها، والمكون من رجال من الحيوات Haiwat والحويطات، قد اشتموا رائحة الذهب الذى كانت تحمله الجماعة، وكانوا قد سبق لهم الاتفاق مع التياهة الذين سيحصلون على المبلغ – هناك أسباب قوية تدعونا إلى الاعتقاد بأن محافظ نخل المصرى، والذى يقيم فى قلعة منعزلة فى منتصف الطريق بين السويس والعقبة، كان شريكًا ومحرضًا لأفراد ذلك الحرس. فبعد أن قطعت الجماعة هى والحرس أميالاً قليلة من الطريق، حدث هجوم عليها، وأسر أفرادها، وسلب ونهب ما معهم، وجرى تقييدهم، ثم جرى بعد ذلك قتلهم بفتح النار عليهم عند حافة مَسِيل، فى وادى سدر Wady Sudr. وبذلك ينتهى حلم إدوارد بالمر عن الثروة والغنى. كانت الكارثة من النوع الذى لا يمكن معه إعفاء الحكومة من المساءلة فى البرلمان، وترتب على ذلك مساءلة الرجل الطيب، السير هنرى كامبل Campbell، بانرمان Bannerman، باعتباره وكيلاً للوزارة، كما طُلب منه فى مجلس العموم الرد على مسألة مهمة إدوارد بالمر السرية، وإنكار هذه المهمة بشكل عام، أو إنكار أى تعامل لذلك الرجل مع البدو، اللهم باستثناء اعتباره مشتريًا للإبل.

يزاد على ذلك أن مذكرات الدكتور إدوارد بالمر ليست هي وحدها الدليل الوثائقي الوحيد. ذلك أن النقيب Captain جيل Gill هو الآخر ترك لنا في مذكراته ما يؤيد هذه الحقائق. كانت مهمة النقيب جيل من خلال إدارة الاستخبارات، لها نفس طبيعة مهمة إدوارد بالمر، لكن في غرب قناة السويس. تبدأ مذكرات الكابتن جيل من الإسكندرية، وفيها يتحدث جيل عن مقابلته للسير فريدرك Frederick جولد سميد Goldsmid، رئيس إدارة الاستخبارات، وسرعان ما يعبر الرجل عن أمله في أن يبدأ جيل عمله بين البدو في منطقة غرب القناة. يتحدث النقيب جيل عن أنه تسلم من الخديو قائمة بخط يد الخديو شخصيا، فيها أسماء كبار المشايخ في المنطقة ما بين القناة والمنطقة المنزرعة، ويخص الرجل بالذكر اثنين من هؤلاء المشايخ هما: سعود الطحاوي Saoud El-Tihawi في الصالحية ومحمد البغلي (البقلي) El-Baghli في وادي الطميلات Tumeylat. وقد فهم الكابتن جيل أن البدو جاهزون للتعامل مع الجانب الذي تتفق معه مصالحهم. وفي بور سعيد يسمع النقيب جيل من المحافظ السابق أن هؤلاء البدو يمكن شراؤهم بواقع جنيهين أو ثلاثة جنيهات إنجليزية للرجل الواحد. وفي اليوم الرابع من شهر أغسطس يذكر جيل أنه قرأ تقرير إدوارد بالمر للسير سيمور. ثم يقول: "لو كنت قد عرفت أن التقرير سيذهب مباشرة إلى الإدميرال لكنت قد سألت هوسكينز Hoskyns عن المبلغ الخاص بإدوارد بالمر". ويردف الرجل قائلاً: "يقول إدوارد بالمر إنه قادر على شراء خمسين ألف بدوي نظير مبلغ ٢٥ ألف جنيه إنجليزي، وسوف أحث على سرعة تقديم المبلغ لهذا الرجل". يأتي النقيب جيل أيضًا على ذكر تقرير له عن قفل قناة السويس، الذي يمكن أن يقوم به المصريون على أفضل نحو ممكن في منطقة واحدة فقط، يحدد اسمها، ثم يسوق بعد ذلك سببًا يتعلق بالافتقار إلى الأحجار اللازمة لإغراق السفن. يتحدث النقيب جيل أيضًا عن ديلسبس من منطلق أن بوسعه إحداث ضرر حقيقي، باعتبار أن لديه سلطة تحريك الكراكات والقوارب المملوكة للقناة. وفي اليوم الخامس من أغسطس يبحر جيل في القناة بصحبة ضابط آخر إلى السويس، حاملاً معه ٢٠٠٠٠ جنيه إنجليزي ذهبي لحساب إدوارد بالمر. ويتوقفان في الإسماعيلية، ويلتقي النقيب جيل في الإسماعيلية رجلاً يدعى

السيد بيكارد Pickard، ويناقش معه أفضل الطرق لقطع خط التلغراف. ويقول: إن هناك ثلاث طرائق لقطع الخط: أولاها، من الساحل بالقرب من العريش، ولكنهما يتفقان على أن قطع الخط في هذه المنطقة له مخاطر، وثانيتها، من الجسر، أو إن شئت فقل القنطرة، ولكنهما اعترضا على ذلك لأنه يشكل اعتداء على القناة، أما ثالثة هذه الطرائق، فهي قطع الخط في منطقة السويس، وبذلك تكون هذه هي المنطقة العملية الوحيدة. ويبدو أن جيل لم يكن يثق ببيكارد، ولذلك يتخذ هو قرار قطع الخط من السويس. في السادس من شهر أغسطس ينوه الرجل إلى الحقيقة التي مفادها أنه سعيد لتخلصه من مبلغ العشرين ألف جنيه الإنجليزية الذهبية التي أُعطيت لإدوارد بالمر. ويتحدث أيضًا عن مرافقته لإدوارد بالمر لحضور اجتماع كبير مع الشيوخ في بلدة نخل، ويبدي ملاحظة مفادها أنه إذا ما ذهب مع الرجل إلى شأو بعيد فإنه سوف يتمكن من الحكم على مدى جدية "توقعات بالمر المتفائلة". هاتان الوثيقتان كافيتان لإثبات مدى الاعتماد على الرشوة والمرتشين قبل معركة التل الكبير.

كنت على صلة وثيقة بهذا الأمر طوال فترة وقوعه، نظرًا لأنى كنت من بين من كان يتصل بهم أهالي هؤلاء الضحايا الثلاث، حتى يمكن أن أقدم يد العون في البحث عنهم، وإعلان الأمر على الملأ، حتى يمكن الحصول من الحكومة على اعتراف صريح بخدمات هؤلاء الرجال، التي أُدِّيت ولم تعترف بها الحكومة بعد. هذه القضية، بعد أن أنكرها مجلس العموم، جرت إثارتها أمام مجلس اللوردات عن طريق صهري اللورد ونتورث Wentworth. وأفضت هذه القضية إلى غضب شديد بين الوزراء وأقرانهم، وأعرب الجميع عن أن ذلك كان مثالاً صارخًا على عدم قول الحق، وقف اللورد جرانفيل، واللورد نورثبروك Northbrook، هما ورفاقهما، وقفوا الواحد بعد الآخر، وراحوا ينكرون قصة مهمة إدوارد بالمر إنكارا تاما، كما أنكروا أيضًا استلامه لأى مبلغ من المبالغ لاستعماله في رشوة العرب. وإنها لحقيقة غريبة أن اللورد سولسبرى، الذي قصدته قبل مناقشة الموضوع، محاولاً الحصول على تأييده في معارضة الحكومة، راح يتلمس الأعذار أمامي متعللاً بأنه في حالات دفع أموال للخدمة السرية، يصبح من الطبيعي السماح

للوزراء بالكذب. ومع ذلك، ساعد اللورد سولسبرى اللورد ونتورث إلى الحد الذى ضمن للرجل إنصاتًا طيبًا لخطبته، وكان بوسع الآخرين الإخلال بذلك الإنصات والحيلولة دون حدوثه.

كانت قضية بالمر وقضية جيل مجرد تعاملين فجين، وهما فى رأيى، لا تفيدان كثيرًا فى تحقيق الأهداف التى حددها ولسلى، لولا التدخل الفاعل الذى جاء من جانب الخديو. كان سعود الطحاوى، هو الشيخ العربى الوحيد، الذى كان يخون عرابيًا بطريقة منتظمة وماكرة، بالإضافة إلى أن الخديو كان السبب الرئيسى وراء ارتداد هذا الرجل عن مبادئه ولعب دور الخائن. قبض سعود الطحاوى نظير عمله جاسوسًا فى معسكر عرابى مبلغ ٥٠٠٠ كراون نمساوى ، وراح يخون عرابيًا بدءًا من نقل مركز رئاسة الجيش المصرى من كفر الدوار إلى أن استقر المركز فى التل الكبير. كان سعود الطحاوى من سادة العرب، وكان يتمتع بعقل راجح، لكنه كان منحرفًا وفاسدًا منذ زمن طويل، أو بالأحرى منذ علاقته بديلسبس والفرنسيين، إذ كانت أراضى سعود الطحاوى ومخيمه الدائم على بعد مسيرة يوم واحد من قناة السويس، وكان الرجل معتادًا على صيد الغزال مع ديلسبس والفرنسيين، وكان يحاول أن يلعب دور الجنتلمان، الأمر الذى أدى إلى تخريب القيم الأخلاقية البدوية على يد هذا الرجل. ومسألة قيام سعود الطحاوى بدور الجاسوس ودور الخائن خدمة للمصالح الإنجليزية، عندى الكثير من الأدلة عليها، وهذه الأدلة تكاد تكون شبيهة بالاعترافات، فقد حدث أن كنت مارا على الصالحية فى ربيع عام ١٨٨٧، وتوقفت فى أثناء الليل عند خيام سعود الطحاوى، وعندما عرف أنى إنجليزى، ونظرًا لأنه لم يكن يعرف شيئًا عن ميولى السياسية، راح الرجل يتكلم عن أعماله فى أثناء الحرب على نحو وكأنه لم تكن هناك أخطاء أو عيوب. ولما كان سعود الطحاوى يعمل كشافًا لعرابى، كان من السيل على رجاله التنقل من معسكر إلى آخر، وبالتالى يقومون بنقل المعلومات الاستخباراتية. ولم يكن هؤلاء الرجال يستشعرون أى نوع من الخجل فى القيام بهذه الأعمال الخيانية، طبقًا للمعايير الأخلاقية البدوية، والسبب فى ذلك أن المصريين والأتراك والفرنجة، يعدون فى نظره أجانب لا يُكِنُّ لأحد منهم ولاءً، وأن البدو عندما يخدمونهم إنما

تصبح المسألة متعلقة بما يخدم مصالح هؤلاء البدو. على الضفة الشرقية من النيل، لم يجد البدو أية غضاضة أو أى وازع دينى يمنعهم من الوقوف إلى جانب الكفرة، إذا كان فى ذلك الوقوف مصلحة لهم، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك حب مطلقاً بين البدوى والفلاّح.

لكن الذى أضر بعرابى ضرراً أبلغ من هذا وسيّل مسألة تقدم ولْسلى، هو محاولة التلاعب بضباطه من خلال الرشوة والترهيب، عن طريق مبعوثين محددين جرى إرسالهم متنكرين إلى كل من القاهرة والتل الكبير؛ هؤلاء المبعوثون كانوا مسلحين بالمال من ناحية والوعود بالترقيات والمناصب من ناحية أخرى، بعد إخماد الثورة. وقد نجح هؤلاء المبعوثون فى جعل أعداد كبيرة من الضباط يغمضون أعينهم عن مسألة الولاء. هذه الأعمال لم يقم بها ولسلى أو إدارة الاستخبارات البريطانية بطريقة مباشرة، على الرغم من تقديمهما للأرصدة المطلوبة لذلك، وإنما جرى تنفيذها عن طريق الخديو، الذى كان يعرف أكثر من أى رجل إنجليزى أولئك الذين يمكن الاقتراب منهم وتحقيق النجاح معهم. كان عثمان بك رفعت، عميل الخديو الذكى والنشط، وياوره المقرّب، هو الوسيلة أو الأداة لمعرفة أمزجة السواد الأعظم من الضباط، كما كان على بينة أيضاً بعوامل الغيرة والحقد بين هؤلاء الضباط. وقد راح عثمان بك رفعت يصور لأولئك الضباط، وبخاصة أولئك الذين هم من أصل شركسى، مدى إخفاق المقاومة الوطنية وعدم جدواها، والمزايا التى يمكن أن تعود عليهم عندما يتصالحون مع الخديو بدلاً من انتظار العقاب الذى يمكن أن ينزل بهم فيما بعد. كان ولسلى هو والإنجليز يتصرفون كما لو كانوا خدماً للخديو، وذلك بالتنسيق مع السلطان الذى كان على وشك إرسال قوات إلى مصر، بعد أن أعلن عن تمرد عرابى. كان طبيعيا لمثل هذا المسلك أن يؤتى ثماره مع الشراكسة، كما أتى ثماره أيضاً مع الضباط المصريين ذوى الأصول المتدنية عن طريق المال بصفة خاصة. وفى ضوء هذه الأسباب، وعلى الرغم من أن صف وضباط الجيش كانوا ينفذون أوامر عرابى بجد وحماس، فإن الرجل كان قد أحدث غيرة وحسداً كبيراً بين الضباط الأقدم منه، الذين كانوا يعدون أنفسهم أفضل منه من حيث الجندية، يزاد على ذلك أن تردد عرابى فى

مسألة غلق قناة السويس، كان لا يزال يزيد من سخط وعدم رضا هؤلاء الضباط. هذا يعنى الفقدان الكامل للثقة فى قيادة أحمد عرابى العسكرية اعتبارًا من اليوم الذى نزل فيه الإنجليز إلى أرض الإسماعيلية دون أن تتحقق المقاومة الفرنسية الموعودة، ودون أن تكون هناك تجهيزات أو استعدادات كافية لاعتراض الإنجليز على هذا الجانب.

جرى بين الزعماء المدنيين من الوطنيين استعمال عميل آخر أحدث تأثيرًا كبيرًا. هذا العميل هو سلطان باشا زعيم الحركة الفلاحية قديما، الذى راح بلا أى خجل أو حياء، بعد أن ربط نفسه ربطًا محكمًا مع الإنجليز، ينشر ويبث أعمال الفرقة بين أولئك الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بوطنيتهم. يصعب على الجيل الجديد من المصريين تفهم مسألة وصول هذا الرجل إلى هذا الدَّرك الأسفل بعد أن كان صاحب سلوك وطنى عال ومحبا لبلده، لكن أنا لا أظن أن هذه المسألة عسيرة الشرح أو التفسير. كان سلطان باشا رجلاً ذا كبرياء وثريا ومهما أيضا، وقد اعتاد على أن يكون هو صاحب الأولوية فى كل مكان - كانوا يطلقون عليه لقب "ملك" الوجه القبلى، وهو أهم وأغنى كبار الملاّك - وكان لديه إحساس بأن زعامته للفلاحين أمر طبيعى. كان سلطان باشا قد تكفل بعرابى ورعاه باعتباره شابا صغيرا ليس من أصول اجتماعية عالية، وأن ذلك الشاب قد يفيده فى مطامحه، لكن يستحيل أن يحل محله فيما يتصل بالولاء والحب الشعبى. وخابت ظنون سلطان باشا وضاعت آماله عندما تشكلت وزارة شريف باشا فى شهر سبتمبر عام ١٨٨١، نظرًا لأن الرجل لم يحصل على أى منصب فيها، وجرت ترضيته بجعله رئيسًا للبرلمان الجديد. وزاد عدم رضا سلطان باشا أيضًا عندما جرى تهميشه أيضًا عند تشكيل إدارة (وزارة) خالصة من الفلاحين فى فبراير من عام ١٨٨٢، عندما نُسى أيضًا؛ يزاد على ذلك أن ضياع التقدير، الذى كان يحسبه حقا طبيعيا له، هو الذى جعله يتحول بصورة تدريجية إلى المعارضة. ويجىء بعد ذلك وصول الأسطولين إلى الإسكندرية، ونحن نعرف أن سلطان باشا كان يجرى أحيانًا تملقه من قبل ماليت Malet وإخافته فى أحيان أخرى من قبل الرجل نفسه، حتى ناصر المطالب الإنجليزية، وانضم إلى حاشية البلاط الخديو متنكرًا بذلك لرفاقه

السابقين. وليس صعبًا علينا، فهم ذلك المنحدر الذى سار فيه سلطان باشا، وبخاصة فى مسألة الخديو. وأنا أرى أن انحدار سلطان باشا إلى هذا الدرك إنما كان من قبيل العناد وليس من قبيل الطموح، يزاد على ذلك مخاوف ضميره الوطنى، والذى خفف منها الوعد الذى قُطع له بأن الهدف من التدخل الإنجليزى هو إعادة الحال إلى ما كان عليه قبل وزارة محمود باشا سامى، وأن مصر سيُحترم طلبها المتعلق بحكومة وحكم دستوريين. ومن هذا المنطلق راح سلطان باشا يرسل الرسائل لأصدقائه العديدين السابقين فى القاهرة، ليقول لهم إن التحالف بين الخديو والإنجليز ليس سوى ضرورة مؤقتة، نظرًا لأن القوات البريطانية لن تبقى فى مصر بعد إعادة توطيد سلطة الخديو، ويقول لهم أيضًا إن عرابيا لم يعد يحظى بعد بثقة السلطان، وإن المقاومة المستمرة فى القاهرة يدينها المسلمون بشكل عام. هذه الرسائل، التى جرى توزيعها بعناية، كان لها تأثيرها، كما لعب المال دوره القوى أيضًا. ويبدو أن سلطان باشا قدم المال المطلوب من جيبه الخاص، ذلك أن قرار القانون المالى يصدر عن الحكومة الخديوية بعد عملية التل الكبير، كان عبارة عن هدية عامة مقدارها ١٠٠٠٠ جنيه إنجليزى، أعطيت لسلطان باشا على سبيل التعويض عن الخسائر التى تحملها الرجل فى أثناء الحرب، كما حصل سلطان باشا من الإنجليز على وسام فارس. والأموال التى دفعها سلطان باشا لا تزيد فى تقديرى على مبلغ صغير، نظرًا لأن الرجل قد جرى دعمه بوعود كثيرة، لم تتحقق حتى بعد الحرب، يزاد على ذلك أن عشرة الآلاف جنيه الإنجليزية التى حصل عليها غطت كل المبالغ التى وزعها هذا الرجل فى واقع الأمر. أيا كان الحال، ليس هناك شك فى أن الانتصار الذى حققه ولسلى كان بفضل معاونة الخديو لهذا الرجل[٢٢].

---

(٢٢) أقرأ ما يلى فى مفكرتى عن عام ١٨٨٧: "فى الثالث عشر من فبراير. زارنى عبد السلام المويلحى أحد كبار الدستوريين، وعضو البرلمان عام ١٨٨٢. أبلغنى أنه صديق حميم ومشايع لسلطان باشا، وأنه كان واحدًا من أولئك الذين انضموا إلى سلطان باشا فى نزاعه مع عرابى، لكنهم جميعًا يأسفون لأنهم لم يتحدوا، وأنه لم يكن راضيًا عن سلوك سلطان باشا فى أثناء الحرب. لقد خدع ماليت سلطان باشا ، إذ جعله يتصرف على وعد بأن البرلمان المصرى يتعين احترام حقوقه. أعطى ماليت ذلك الوعد شفاهة، وطلب سلطان باشا أن يكون ذلك الوعد محررًا ومدونا، لكن الخديو منعه من الإصرار على ذلك، بأن أكد (الخديو) لسلطان باشا، أن كلمة الممثل الإنجليزى المقيم نافذة وصادقة. وعندما اكتشف سلطان باشا العجوز بعد الحرب، مدى الخداع الذى نزل به، أسرّه فى قلبه؛ وتوفى الرجل وهو يعبر عن أمله فى أن يسامحه أحمد عرابى، وتمنى ألا تنظر إليه الذرية باعتباره رجلا خائنا لبلاده. غيرة سلطان باشا من أحمد عرابى وحسده إياه هما اللذان تسببا فى ذلك الصراع والنزاع".

من ناحية أخرى، وعلى الرغم من هذه الخيانة الداخلية، كان بالإمكان إطالة أمد الدفاع الوطني لو أمكن تحاشي النهاية، ولولا الحظ السيئ الذى لازم الجيش بدءًا من تلك المرحلة، بعد أن اتضح تمامًا أن مصر سيجرى الهجوم عليها من ناحية الشرق، جرى إرسال محمود فهمي، المهندس، أكفأ مساعدى عرابى، إلى التل الكبير لإقامة الخطوط الدفاعية وإتمامها هناك، تلك الخطوط التى لم يكن قد أقيم منها سوى أجزاء صغيرة. لو تم تجهيز هذه الخطوط الدفاعية كما ينبغى أن تكون، لصمدت أمام تقدم الجيش الإنجليزى، لكن بفعل القضاء والقدر الذى هو دائمًا من المخاطر الشائعة في زمن الحرب، أسر اللواء محمود فهمي، بعد أيام قليلة من وصوله إلى التل الكبير، والذى حدث هو أن محمود فهمي جرى أسره بواسطة جماعة صغيرة من قوة حرس الجيش الإنجليز تسمى (حراس الحياة)، التى كانت منتشرة على بعد مسافة كبيرة من موقع القوة الإنجليزية. إن حادث أسر محمود فهمي غريب للغاية. كان بصحبة محمود فهمي مساعد واحد من مساعديه، وكان الرجل قد خلع زيه الرسمي بسبب الحر، وعبر فى إحدى الأمسيات إلى الجانب الآخر من وادى الطميلات لاستنشاق الهواء من ناحية، ولاستطلاع الصحراء ناحية الإسماعيلية من ناحية أخرى، ولذلك تسلق محمود فهمي سائرًا على قدميه، تلة رملية منخفضة من بين التلال الرملية العديدة التى تتخلل الأراضى المنزرعة، وهنا انقضت عليه تلك الجماعة من الحرس الإنجليز فجأة. ولما كان محمود فهمي غير مرتد للزى الرسمي، فقد احتار العقيد تالبوت Talbot قائد جماعة الحرس، فى معاملة الرجل، وكان على وشك أن يصدق كلام محمود فهمي الذى مفاده أنه واحد من الأفنديات أصحاب الأملاك فى المنطقة، لكن العقيد تالبوت قرر فى نهاية المطاف أخذ محمود فهمي معه، بينما كان مساعد محمود فهمي قد بقى فى قرية من القرى، دون أن يدرى شيئًا عما حدث، ولم يكن العقيد تالبوت يعرف شيئًا عن الأسير الثمين إلا بعد رجوع جماعة حراس الحياة إلى مركز رئاسة القوات البريطانية حيث عرفت شخصيته. على كل حال، كانت عملية الأسر هذه فائقة الأهمية، كما جاءت أيضًا ضربة قاصمة، لدفاعات التل الكبير[٢٣].

(٢٣) أوردت هذا النص عن عملية الأسر، باعتبارها خاصة بمحمود فهمي نفسه، لكن هناك بعض الروايات المختلفة التي تتهم محمود فهمي بالهرب إلى الجانب البريطاني. وهذه الرواية لا يقرها هؤلاء الذين يعرفون هذا الرجل معرفة شخصية.

تمثلت الضربة الثانية من ضربات حظ أحمد عرابى العـــاثر فـــى إصـــابة لواءين من ألوية الجيش بالعجز فى مدينة القصاصين، أول هذين اللواءين هو القائد وثانيهما هو القائد الثانى، وقد أصيب الاثنان في لحظة حرجة من هـــذه المعركـــة غير المتكافئة. هذان اللواءان هما على فهمى، رفيق عرابى بحق، وراشـــد باشـــا؛ وهما ضابطان كفآن من الناحية العسكرية، وشجاعان وصاحبا خبرة فى الحـــرب، وقد بدأ بالهجوم على ولسلى عن طريق الاستطلاع فى البداية، ثم معاودة الهجـــوم عليه هجومًا عنيفًا فى القصاصين. كانت تلك أفضل وآخر الفرص المهيـــأة لوقـــف التقدم الإنجليزى، ولم يكن الانتصار والنجاح مستبعدًا فى هـــذه العمليـــة. الروايـــة المصرية عن هذه العملية تقول إن العدو جرت مفاجأته، الأمر الذى جعل الـــشكوك تدور حول هذه العملية فترة طويلة، وكان الدوق كنُـــوت Duke Connaught علـــى وشك الوقوع فى الأسر فى لحظة من اللحظات. لو حدث ذلك، وحافظ المـــصريون على هذه الميزة، لعاد ذلك عليهم بشروط طيبة وبالسلام أيضًا، نظـــرًا لأن الـــرأى العام كان قد بدأ يتغير فى إنجلترا، وبدأ الشعب الإنجليزى يستشعر العار جراء شن حرب على فلاحين يحاربون ويقاتلون من أجل حريتهم وتحررهم من مستبد قـــديم. ومع ذلك لم يحسن المصريون تدبير خططهم، فقد كان مفترضًا أن يتقـــدم محمـــود سامى من ناحية الصالحية ومعه ألفا رجل، لينضم إلى كل من محمود فهمى وراشد باشا فى الصباح، وأن يقوم الجميع بالهجوم على ميمنة العدو. لكن نظرًا لأن بـــدو سعود الطحاوى أضلوا محمود سامى الطريق، الأمر الذى أعجـــز الرجـــل عـــن الوصول إلى المكان المحدد للقاء، كما أنه لو كان عرابى متمتعا فعـــلاً بـــالغرائز العسكرية لكان قد شارك معيم فى المعركة، ليس فى خط الهجوم الأمامى، وإنمـــا بصفته قائدًا للاحتياطى القوى فى أضعف الأحوال. والذى حـــدث هـــو أن القـــوة المتاحة كلها لم تظهر فى ميدان القتال، ومن سوء الطالع أن يصاب هذان الرجلان بجراح، الأمر الذى أدى إلى بقائهما معطلان طوال المعركة. والمؤكـــد أيـــضًا أن واحدًا من القواد المصريين، هو على بك يوسف، خان رفاقه عن قصد وعن عمد.

عند هذه المرحلة ارتبكت الأمور فى التل الكبير، وبدت النهاية الكئيبة أمـرًا مؤكدًا. هذا يعنى أن عرابيا خسر أفضل لواءاته وقادته ولم يعرف كيف يعوضهم. قلة قليلة من هؤلاء القادة هم الذين يعتمد عليهم عرابى ويثق بهـم، والموجـودون بالفعل قليلو الكفاية والمقدرة. كان هناك رجل واحـد فقـط، يـستطيع أن يـضفى التماسك على الدفاعات، لكن لسبب أو لآخر جرى إبعاده عن ميدان العمليات. كان ترتيب هذا الرجل الثالث بين "العقداء الثلاثة"، واسمه عبـد العـال حلمـى، ذلـك المحارب الشجاع مثل أى محارب فى الجيش. جرى من قبل إسناد واجب الـدفاع المهم عن دمياط إلى ذلك الرجل، ضد احتمال إنزال بريطانى فى تلـك المنطقـة، وكانت تحت قيادته مجموعة ممتازة من القوات، وبخاصة الكتيبة السودانية، ولـو كان قد جرى جلب هذه الكتيبة هى والقوات الأخرى إلى التل الكبيـر لكانـت قـد أنقذت سمعة الجيش وشرفه، نظرًا لأن عبد العال حلمى يعد واحدًا مـن الرجـال الذين يمكن الاعتماد عليهم فى القتال المتقدم، كما أن قوات الرجـل كانـت عاليـة المعنويات ولم تتأثر بالهزيمة. ومع ذلك، رُئى أن دمياط كانت لا تزال بحاجة إلـى القوات الموجودة هناك، ولأنى لم أتوصل إلى ما يفيد بأن اللجنة العسكرية اقترحت أن يكون عبد العال حلمى بكتيبته ظهيرا لعلى فهمى. كان دائمًا يراودنـى خـاطر مفاده أن يعقوب باشا سامى، رئيس اللجنة العسكرية فى القاهرة، والذى أبلى بـلاءً حسنًا فى التنظيم والإعداد للحرب، قد أمكن استمالته بفعل عمـلاء الخـديو الـذين جعلوه يغير رأيه ومواقفه. كان يعقوب باشا مسلمًا من أصول يونانية، وبالتالى كان منتميًا إلى الطبقة الحاكمة، وأنا فى حوزتى مستندات تثبت أنه كـان مـن رجـال الخديو، على الرغم من أنه كان بمثابة ذراع عرابى اليمنى فـى وزارة الحربيـة، وأن الرجل لم يكن وطنيا بمعنى الكلمة. ويبدو أن الخديو كان يتعامل مع يعقـوب باشا من هذا المنطلق، كما تعامل معه بالطريقة نفسها فى أحيان أخرى وبـصرامة شديدة، فضلاً عن أن الرجل كان واحدًا من الباشوات السبعة الذين جرى نفيهم إلى جزيرة سيلان، على الرغم من أن موقفه أمام القضاة اتسم بالندم والتوبة وإعـلان الولاء. والصحف تورد الكثير الذى يدل على غيرة يعقوب باشا من أحمد عرابـى،

والمرجح تمامًا أن يعقوب باشا بعد إصابة على فهمى، راح يبذل قصارى جهده من أجل عزل عرابى والتعجيل بدماره وتحطيمه فى التل الكبير. وبدلاً من إسناد القيادة إلى عبد العال أوكلت إلى على باشا الروبى، أحد رفاق عرابى القدامى فى الحركة الوطنية، لكن الرجل لم يكن على مستوى المنصب الذى أُسند إليه.

بقى عرابى فى الوقت نفسه، وعلى الرغم من حدة الهجوم الإنجليزى، ثابتًا فى معسكره، محاطًا، كما هى عادته دائمًا، بأعيان البلاد الذين كانوا لا يزالون يتوافدون عليه لرؤياه ومقابلته، كما كان يحيط به أيضًا رجال الدين، الذين كان يمضى معهم وقته فى الصلاة وتلاوة القرآن. كان عرابى يعتمد على سعود الطحاوى فى إمداده بالأخبار عن تقدم ولسلى، وكان سعود الطحاوى يغريه دومًا بالأمن والطمأنينة. كان جيش التل الكبير يضم القوات النظامية التى كانت مفككة بطريقة لا يمكن أن تخطر على عقل الإنسان، ولم يكن عدد المشاة فى ذلك الجيش يزيد على ستة آلاف أو سبعة آلاف جندى، وربما حوالى ٢٠٠٠ من الخيَّالة، وعدد مماثل من المدافع التى يعمل عليها رجال المدفعية الأكفاء. كانت تلك هى القوة التى يمكن الاعتماد عليها. أما بقية أفراد الجيش فكانوا عبارة عن جماعات من الجنود ومن المتطوعين الذين لا يرتدون زيا عسكريا كاملا، كلهم كانوا من الفلاحين الطيبين الأمناء الذين كانوا يعملون بجد فى حفر الخنادق، لكنهم ليست لهم قيمة قتالية من أى نوع. كان عدد هؤلاء المجندين والمتطوعين يقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ رجل، لكنى ليس لدى إحصائيات دقيقة يمكن الاعتماد عليها. راح هؤلاء المجندون والمتطوعون يعملون ليل نهار لإكمال الخطوط الدفاعية، لكنهم لم يكونوا قادرين على القيام بأى شىء غير هذه الأعمال. وقد صرَّح ستون Stone باشا الأمريكى، بعد الحرب، أن أحدًا من هؤلاء المجندين والمتطوعين لم يطلق دانة واحدة، وهذا الكلام صحيح تمامًا.

جاءت النهاية مفاجئة فى صبيحة اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر. كتب كثير من الكتاب العسكريين الإنجليز كثيرًا من الحكايات الخيالية عن تلك المسيرة الليلية الصامتة التى بدأت من المحسمة Mehsameh فى ضوء النجوم وتحت قيادة

ضابط بحرى شاب، والذى لا شك فيه أن هؤلاء الذين شاركوا فى هذه المسيرة، بدا لهم الأمر وكأن الجيش الإنجليزى كان يتحسس طريقه على غير هدى إلى المجهول، لكن واقع الأمر أن الطريق كان واضحًا أمام الجيش والقوات بفضل الجاسوسية والوسائل السرية التى سبقت الإشارة إليها. كان اثنان من ضباط أحمد عرابى الصغار، اللذان كانا يشغلان منصبين مهمين، قد قبلا منذ أيام قلائل الرشاوى التى قدمت لهما عن طريق عملاء الخديو. ولا بد من تسجيل اسمى هذين الضابطين الصغيرين، ليكون ذلك خزى وعار لهما إلى الأبد. أول هذين الضابطين الصغيرين هو عبد الرحمن بك حسن، قائد حرس الخيالة المتقدم، الذى جرى وضعه هو وآلايه Ragiment خارج الخطوط فى موقع يتحكم فى الطريق الصحراوى القادم من الشرق، لكن الرجل قام فى الليلة الموعودة بتحريك ورديات رجاله إلى مسافة بعيدة فى الجهة اليسرى حتى يسمح للإنجليز بالتقدم بلا مساس. الضابط الصغير الثانى، سبقت الإشارة إليه، هو على بك يوسف الذى كان يتولى قيادة موقع فى الخطوط الرئيسية، وكان ذلك الموقع منيع على نحو يتعذر معه على المدفعية النيل منه. وفى ضوء الروايات المختلفة حول هذا الموضوع، وفى ضوء ما قاله عرابى نفسه، قام ذلك الضابط الصغير بترك هذا الموقع فى الليلة الموعودة، ولم يكتف بذلك، وإنما وضع فانوسًا لكى يهتدى المهاجمون بنوره. لقد ذكروا لى أسماء أخرى، لكنها لم تكن موثقة مثل هذين الضابطين، ولذلك أوثر عدم ذكرهم. ظل موقف هذين الضابطين الصغيرين اللذين أوردت اسميهما، واعتبرتهما خائنين، حرجًا وسيئ السمعة على امتداد سنوات فى القاهرة، نظرًا لذيوع صيتهما، وبخاصة على بك يوسف الذى كان يشكو مر الشكوى من المعاملة السيئة التى لقيها نظير خدماته. كان على بك يوسف قد حصل على عربون مقداره ١٠٠٠ جنيه إنجليزى من الذهب قبل المعركة، لكن كان هناك وعد آخر بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه إنجليزى أخرى من الذهب، ولكن ذلك الوعد لم يتحقق، ولم يفلح على بك يوسف فى الحصول من الحكومة على أية مبالغ أخرى غير الذى حصل عليه على سبيل العربون. ولم يحصل الرجل بعد ذلك على أى شىء سوى معاش بسيط مقداره ١٢ جنيهًا إنجليزيًا فى الشهر إلى أن وافته المنية.

انخدع عرابى هو وبقية الجيش بالأمن الزائف الذى صوره لهم سعود الطحاوى، وبخاصة فى تلك الليلة، الأمر الذى جعل الجميع يدخلون فى سُبات عميق، فقد نام الأفراد المساكين فى خنادقهم، ونام عرابى أيضًا فى مركز الرئاسة الذى كان يبعد مسافة ميل واحد فى المؤخرة. وعليه، ودون سابق إنذار وجدوا العدو يطبق عليهم، بعد أن عبر الخطوط من نقاطها الضعيفة، ثم عبرت بعد ذلك المدفعية فى المؤخرة. وهرب السواد الأعظم من المجندين دون أن يطلقوا طلقة واحدة، وهم شبه عراة لأنهم كانوا نائمين، ومرهقين بسبب عملهم المستمر فى حفر الخنادق، وبعد أن ألقوا سلاحهم على الأرض فى السهل المفتوح، وأُصيبت المئات منهم فى أثناء الهرب. كانت العملية مجرد مجزرة جرى نصبها للفلاحين الذين كانوا يجهلون أساليب الحرب جهلا تاما وعلى نحو عجزوا معه عن معرفة حتى أبسط طرق الاستسلام. هذا الذى حدث كان فى منتصف الموقع وعلى الجانب الأيمن منه. أما على الجانب الأيسر فقد كان هناك موقف أكثر شجاعة وبسالة، وبخاصة فى المنطقة التى كان محمد عبيد يتولى قيادتها، كما حدث استبسال أيضًا من قبل المدفعية المصرية هنا وهناك فى سائر أنحاء الخطوط. هذه العملية كلها لم تستغرق أكثر من أربعين دقيقة. وسقط محمد عبيد سقوط الشجعان فى أثناء القتال، كما شاركه القتال أيضًا جنود الجيش النظامى، وكثير من رجال المدفعية الذين تشبثوا بمدافعهم. لكن بعد مضى ساعة زمن واحدة انتهى القتال تمامًا ولم يتبق من الجيش الوطنى سوى بعض الجماعات المشتتة.

فيما يتعلق بالدور الذى لعبه عرابى شخصيا فى ذلك الصباح المشئوم، لدى من الدلائل، فضلاً عن دلائله هو الشخصية، وبخاصة شهادة محمد سيد أحمد، ذلك الرجل المحترم، الذى كان خادما خاصا لأحمد عرابى، والذى دخل فى خدمتى فى عام ١٨٨٨ ليعمل مديرًا لمزرعة الشيخ عبيد وبقى معى مدة عامين. لقد سمعت من ذلك الرجل مرات ومرات تلك الأحداث التى سبقت الإشارة إليها. واستنادًا إلى ما قاله محمد سيد أحمد، كان المعسكر كله فى سبات عميق فى تلك الليلة، بعد أن أكد الكشافون أن الإنجليز لا يتحركون، كان مركز رئاسة سيده فى منتصف

المعسكر تقريبا، لكنه كان يبعد مسافة تزيد على أكثر من ميل فى المؤخرة بعيدًا عن خنادق الخط الأمامى. كان الباشا (أحمد عرابى) قد خلع ملابسه ونام كالعادة نومًا عميقًا طوال الليل، ولم يكن أحد مستيقظًا إلى أن أعلنت أصوات المدافع عن الهجوم. وسرعان ما تخلص عرابى من الزى الرسمى وركب حصانه وراح يجرى فى اتجاه إطلاق النار، وتبعه آخرون ومن بينهم خادمه وكانوا جميعًا راكبين. ومع ذلك، لم يقطعوا مسافة كبيرة، وعندها بدأوا يشاهدون جموعًا من الهاربين، الذين قالوا لهم: لقد ضاع كل شيء، في حين كان بدو سعود الطحاوى يعدون هنا وهناك بخيولهم، مما زاد فى الارتباك العام. أكد لى محمد سيد أحمد أن الباشا بذل قصارى جهده فى تشجيع الرجال، وواصل تقدمه في اتجاه ذلك الجزء من الخطوط الدفاعية التى كان فيها محمد عبيد، لكن الرجل جرى حمله بواسطة الآخرين، وأخيرًا استسلم لتوسلات خادمه بأن ينشد سلامته في هربه. إن تفكير عرابى فى الموت فى ميدان القتال، لم يخطر ببال محمد سيد أحمد مطلقًا، وهو يتباهى ويفخر أنه أقنع سيده بالهروب. كان الاثنان راكبين على حصانين، وكان هذان الحصانان قد أرسلا لأحمد عرابى من قبل واحد من بدو غربى الفيوم، وكانا قد وصلا إلى محطة التل الكبير قبل أن يحتلها الإنجليز، وعلى الرغم من عجزهما عن ركوب القطار، عبرا جسر القناة الصغيرة قبل إغلاقه، ثم وصلا بعد ذلك إلى الضفة الأخرى من وادى الطميلات، ومنه راحا يعدوان إلى أن وصلا إلى بلبيس. كان عرابى هو وخادمه قد انعزلا عن بقية المجموعة بسبب الفوضى. كانت الفكرة المسيطرة على ذهن عرابى فى ذلك الوقت تتمثل فى الوصول إلى القاهرة قبل أن تصل إليها أنباء الهزيمة، ويقوم بتجهيز المدينة للحرب وللدفاع. ومن بلبيس استقلا القطار ووصلا إلى القاهرة بعد الظهر بفترة قصيرة[٢٤].

---

(٢٤) وصلتنى عام ١٨٨٤ رواية عن تصرفات وسلوك أحمد عرابى فى التل الكبير، وهذه الرواية تتفق تمامًا مع رواية محمد سيد أحمد، وقد جاءتنى هذه الرواية من طبيب الجيش مصطفى بك الذى كان يعالج عرابيًا، والذى كان نائمًا بالقرب منه ليلة الهجوم، ويمكن الوقوف على رواية هذا الطبيب عن هروب عرابى فى ملحق الكتاب.

بعد وصول عرابى إلى القاهرة، كانت آمال الاستمرار فى المقاومة البطولية لا تزال تحدوه، وأن ذلك يمكن أن يحدث عن طريق الدفاع عن المدينة. اتجه عرابى مباشرة إلى قصر النيل ليشارك فى جلسة كانت يعقدها أعضاء لجنة الحرب، ولم يستطع عرابى التوصل إلى شيء سوى حل وسط مفاده أنه في الوقت الذى تقرر فيه من حيث المبدأ الاستسلام للخديو، فقد بقيت مسألة الدفاع عن القاهرة ضد الإنجليز. وفى اليوم التالى، لم يتحرك الأمر عما كان عليه، عندما وصل درورى لاو Drury Lowe هو وخيالته الهنود إلى منطقة العباسية. وواقع الأمر أن عملاء الخديو استطاعوا عن طريق التآمر والدس، إلغاء فكرة المقاومة من عقول الحاضرين. كما استطاعوا أيضًا إبعاد هذه الفكرة، مستخدمين فى ذلك إعلان السلطان عصيان عرابى، وبعد أن ذاع ذلك الإعلان وعم بين الناس لم يكن يساند فكرة الدفاع عن القاهرة سوى غوغاء ودهماء الشوارع الذين كانوا لا يزالون جاهلين بطبيعة ما حدث. كانت الظروف العسكرية فى القاهرة تتمثل فى أن بها أكبر الحاميات من الناحية الاسمية، لكن أفراد هذه الحامية كانوا من أحدث المجندين الجدد. وعلى الرغم من أن هذه الحامية كانت كافية للتشبث بالقلعة والاحتفاظ بها وبالتالى التحكم فى المدينة، فلا يمكنها الصمود طويلا فى عملية الدفاع دون حدوث دمار وخراب كبير فى سائر أنحاء المدينة المنخفضة عن القلعة. وعليه لم يكن أحد مستعدًا لتحمل ذلك كله، يزاد على ذلك أن وصول درورى لاو Drury Lowe حسم المسألة في لجنة الحرب بالموافقة على الاستسلام المهين، وعليه تقرر تلبية طلب درورى لاو بإرسال مفتاح القلعة إليه حسب طلبه. هنا، وعندما أدرك عرابى أن الأمر قد انتهى، وبناء أيضًا على النصيحة التى أسداها إليه جون نينيه، الذى أمضى عرابى الليلة معه فى نقاش حامٍ فى منزل على فهمى، اتجه عرابى إلى العباسية، حيث قام هناك بتسليم سيفه إلى الجنرال الإنجليزى، فى إشارة منه إلى أنه أصبح أسير حرب[٢٥].

---

(٢٥) ورد فى مفكرتى عن عام ١٨٨٤، أنه فى التاسع والعشرين من أكتوبر حضر لزيارتى كل من الأمير عثمان والأمير كامل، وراحا يتكلمان كلاما وطنيا حماسيا عن الحرب الأخيرة، وأعطيانى معلومات كثيرة. لم يحضر عثمان تلك الحرب إذ كان متينا على نحو يصعب معه القيام بأى مجهود بدنى."

= لكن الرجل كان متعاطفًا مع القضية، وكان يتصرف بطريقة محترمة بعد انتهاء الحرب. كان الأمير كامل عضوًا في الحكومة المؤقتة، وكان يلتقي عرابيًا مرارًا في أثناء الحرب، وبينما كان يدلي بشهادته عن صدق وطنية عرابي، لامه على تساهله في الأمور. قال: إن عرابيًا كان يتعين عليه قتل علي يوسف رميًا بالرصاص بعد ذلك الذي حدث في القصاصين، إذ كان معروفًا تمامًا للجميع أن علي يوسف خائن بمعنى الكلمة، وأنه تسلم مبلغ خمسة آلاف جنيه إنجليزي قبل المعركة، التي ضاعت بسبب هذا التصرف. وفي لحظة من اللحظات كان هناك ١٨٠٠٠ مصري مطبقين على ٢٥٠٠ إنجليزي كان من بينهم دوق كنوت. لو كان تقدم علي يوسف، قائد الوسط، لكان قد سحق الإنجليز وأسر الأمير، لكن علي يوسف غادر ميدان القتال، الأمر الذي هيأ فرصة تكسير الجناحين. يزاد على ذلك أن النقود التي تقاضاها الرجل كان القسم الأكبر منها جنيهات ذهبية مزيفة تحمل صورة القديس جورج، كما كان قسم آخر من هذا المبلغ عبارة عن جنيهات مصرية ذهبية مغلفة بالذهب ومحشية بالرصاص. كانت القاهرة بعد معركة التل الكبير تغص بتلك الجنيهات المزورة، لكن جرى شراء تلك الجنيهات لحساب الحكومة بواسطة رجال البنوك، بواقع خمسة فرنكات وعشرة للجنيه الواحد. يزاد على ذلك أن الأذون المالية كانت كلها مزورة. لكن علي يوسف أصر على الحصول على إذن مالي موقع من شخص بعينه. يزاد على ذلك أن عبد الغفار تقاضى رشوة هو الآخر على شكل جنيهات ذهبية مزورة تحمل صورة القديس جورج، وقد أخذت زوجته بعضًا من تلك الجنيهات وذهبت بها إلى زوجة إسماعيل جودت طلبًا لاستبدالها أو تغييرها. قام الأمير كامل نفسه بفتح بعض هذه الجنيهات ووجد أنها عبارة عن رصاص من الداخل. البدو أيضًا جرى شراؤهم، وقد قال سعود الطحاوي للأمير كامل بعد الحرب أنه كان قد تسلم مبلغًا- نسيت مقداره- بالدولارات الفضية من أحد الجنرالات الإنجليز. هذا يعني أن الأمور كانت كلها شينًا، وكان الأمير كامل قد صدرت له أوامر بالتوجه خلال ثلاثة أيام إلى التل الكبير لإلقاء القبض على المدعو علي يوسف بعد الانهيار الذي حدث. لقد بيع عرابي من قبل كل المحيطين به، باعه البعض منهم نظير الذهب، وباعه بعض آخر بسبب الغيرة والحسد. كان محمود سامي يغار من عرابي، وأفسد محمود سامي معركة القصاصين الثانية لأنه لم يكن في منصب القائد الرئيسي. كان مفروضًا على محمود سامي التقدم من ناحية الصالحية، لكن الرجل لم يحافظ على نقطة الالتقاء التي اتفق عليها مع علي فهمي. كان علي فهمي مقاتل جيد وأمين، لكن السواد الأعظم من المحيطين بعرابي كانوا عديمي القيمة. لم يكن عرابي يسمح بتولي الأتراك مناصب قيادية عليا في الجيش، وكان الضباط الفلاحون غير أكفاء وجبناء. كان محمود سامي هو التركي الوحيد، وكان يلعب لعبة سخيفة طوال الوقت. كان الأمير كامل موجودًا ضمن الجلسة التي عقدتها لجنة الحرب في قصر النيل بعد عودة عرابي، وعندما راح الرجل يشرح الدمار الذي نزل بالجيش والدموع تنهمر من عينيه قال إنه حارب إلى أن وجد نفسه وحيدًا، وهذا لم يكن صحيحًا، حتى انتهى كل شيء. لام الأمير كامل عرابيا بعد ذلك قائلاً: (الرجل الذي يقدم على مشروع كبير يتعين عليه في البداية تقدير التكاليف). وأردف كامل قائلاً: (ينبغي ألا يتولى عرابي قيادة الجيش مطلقًا. ولو كان قد أعدم أو رمي بالرصاص دستة من الرجال في مطلع الحرب، لسار كل شيء على ما يرام". لم يدرك الأمير كامل أن الحملة كلها كانت مجرد استخفاف بالمشاعر من جانب الإنجليز).

استنادًا إلى ما قاله محمد سيد أحمد، كان بصحبة عرابي جماعة مكونة من ١٠٠٠ شخص، كانوا معسكرين على مقربة منه في التل الكبير، وأن السواد الأعظم من هؤلاء الرجال قتلوا قبل أن يغادر عرابي ميدان القتال. لكني لا أعلق على هذا الكلام أهمية كبيرة، وبخاصة فيما يتعلق بالأرقام. يبدو أن إجمالي عدد القتلى والجرحى وصل إلى حوالي ١٠٠٠٠ مصري في هذه المعركة - قتل السواد الأعظم منهم نظرًا لضيق الأماكن المعدة للأسرى- لكني لا أثق بالأرقام الواردة في هذا الصدد. قبور الموتى هي خير ما يدل على عددهم.

الفصل السابع عشر

محاكمـــة عـــرابـــى

بينما كانت تلك الأحداث الجسام تقع على أرض النيل، كنت أنا أمضى صيفًا حزينًا فى مزرعة الخيول فى كرابت. كنت متعاطفا وجدانيا مع المصريين، لكنى كنت منبت الاتصال بهم بأية وسيلة من الوسائل، يزاد على ذلك أن حمى الحرب كانت تسرى سريانًا شديدًا طوال الأسابيع الأولى من القتال، الأمر الذى يجعل أى كلام يصدر عنى بلا طائل طوال هذه الفترة. كنت أحس بالأمان على المستوى العام. وكل ما أستطيع عمله فى هذه الفترة هو إعداد مذكرة "دفاع" Apologia عن الحركة الوطنية من ناحية وعن صلتى وعلاقتى الشخصية بهذه الحركة، نظرًا لأن هذه الحركة كان يجرى الهجوم عليها بشدة فى الصحافة[٢٦]، وأنتظر إلى أن تنتهى هذه الحملة.

---

(٢٦) من بين الأمور التى اتهمت بها بصفة أساسية، تلك التهمة التى بنيت على البرقية الصادرة عن وكالة رويتر، والتى تقول إن منزلى الريفى القريب من القاهرة جرى فتحة عنوة بأمر من أحمد عرابى، وعثر فى ذلك المنزل على سبعة عشر صندوقًا مليئًا بالأسلحة النارية. كان الأساس الذى بنيت عليه هذه القصة على النحو التالى: فى عام ١٨٨١، عندما كنت فى طريقى إلى الجزيرة تنفيذًا لما كنت قد انتويته من قبل، كنت قد أحضرت معى بعض البنادق من طراز ونشستر Winchester وبعض المسدسات استعدادًا لتلك الرحلة، وقد وصل عدد البنادق إلى ما يقرب من سبع عشرة بندقية، فضلاً عن مدفع من النحاس الأصفر، من نوعية المدافع التى تستخدم فى اليخوت، أعددتها لتكون هدية، إذا ما تمكنت من إرسالها إلى ابن الرشيد فى حائل. كانت تلك البنادق والمسدسات لا تزال مخزونة فى منزلى الريفى، ويبدو أن شخصًا ما أعلن هذه الحقيقة للسلطات المحلية، الأمر الذى حدا بتلك السلطات إلى أخذ هذه البنادق، ونقلها إلى قلعة القاهرة. وبعد انتهاء الحرب لم أعرف ذلك الذى حدث لممتلكاتى سوى القصة التى شاعت فى لندن، والتى تقول إن مدفع النحاس الأصفر جرى الاستيلاء عليه على أنه غنيمة حرب، وأنه يشكل قطعة من قطع الزينة فى قيادة البحرية. وبعد حوالى عشر سنوات حدث أن ذهبت لتناول الغداء فى يوم من الأيام مع ابن عمى لورد ويندهام Wyndham، فى قلعة القاهرة، واصطحبنى الرجل بعد ذلك لزيارة الترسانة، التى تعرفت فيها على مدفعى وبقية أشيائى بلا مساس. ونظرًا لأن الصندوق الذى يحتوى على البنادق كان اسمى مدونًا عليه، فقد سهّل ذلك إعادة أشيائى إلىّ.

وعلى الرغم من أنى كنت أحس بالخزى الشديد والعار مع الحكومة، فإنى لم أقطع اتصالى تمامًا بمجلس الوزراء. قابلت هاميلتون مرة أو مـرتين، وعرضـت عليه وعلى جلادستون مذكرة الدفاع قبل نشرها، وحسب الاثنـان هـذا العمـل لصالحى لإثبات النزاهة. ونشرت هذه المذكرة فى عدد شهر سبتمبر مـن "مجلـة القرن التاسع عشر"، وجاء نشر هذه المذكرة فى الوقت المناسب بعد أن خبا البريق العسكرى، وعندما بدأ العقلاء من الناس يسائلون أنفسهم عن ذلك الذى كنا نحارب من أجله فى مصر. ولما كنت قد كتبت مذكرتى من قلبى وليس من عقلى فقد لقيت نجاحًا لم أكن أتوقعه أو أنتظره، وجرى استيعاب تلك المذكرة فى ظـل ظـروف الجولة المعادية للحرب التى قام بها فى مقاطعاتنا كل من السير ولفريـد لاوسـون والسيد سيمور كى Keay، وبعض آخر من الشخصيات الراديكالية، والتـى كانـت تدافع عما يسمى الضمير "المستقل" Nonconformist فى بلادى واستطاعت التـأثير فى الرأى العام لصالحى بشكل واضح، وقد شجعنى ذلك. فى هذه الفتـرة نفسـها وصلتنى أيضًا رسالة من الجنرال جوردون Gordon، مؤرخة "مدينة الكاب، فـى الثالث من أغسطس"، ووجدت الرجل يعرب لى فى رسالته عن تعاطفه الوجـدانى مع القضية التى كنت أدافع عنها، زاد من رفع روحى المعنوية. جـاءت الرسـالة على النحو التالى:

مدينة الكاب، فى ١٨٨٢/٨/٣.

عزيزى السيد بلنت،

تقول فى جريدة التايمز إنك تنشر رواية ذلـك الـذى حـدث بينـك وبـين الحكومة. آمل أن تتكرم علىَّ بإرسال صورة مما ستنشره على العنوان المدون على البطاقة المرفقة ضمن هذه الرسالة. لقد كتبت أنا مخطوطة أوردت فيها ما حـدث بدءًا ببعثة كيف Cave إلى أن تولى شريف باشا رئاسة الوزارة، وأعطيـت هـذه المخطوطة عنوانًا هو "إسرائيل فى مصر"، وسوف أتبع هذا المقال بمقـال آخـر عنوانه "سفر الخروج"، وأنا لست متأكدًا من مسألة نشر أو عدم نشر هذا المقال، إذ ليس من الصواب أن يشمت الإنسان فى أعدائه. وأنا أقصد بالأعداء هنـا الأعـداء

الرسميين Official. يا لها من فوضى تلك التى أحدثها كل من ماليت وكولفن، وأنا لا أطيق صبرًا على ملاحظة النتيجة النهائية التى ترتبت على التكتم الذى التزمه كل من ديلك، وكولفن، وماليت. كان ديلك بصفة خاصة، يروغ فى مجلس العموم، من الإجابة على أى سؤال حول الالتماس المقدم بشأن مدى تأثر المصالح البريطانية. إنه لشىء مؤسف. وأنا على يقين من أن ديلك لا يعرف فى السياسة أكثر مما يعرفه البواب الذى يقف على باب وزارة الخارجية؛ الرجل ليست لديه سياسة على الإطلاق. هل كان يمكن للأمور أن تصل إلى ما وصلت إليه لو أن هذا الرجل قال كل شىء؟ أنا لا أعتقد ذلك. انتهت المراقبة - لم يعد بوسع الموظفين أن يسحب ما قيمته ٣٣٧ ألف جنيه إنجليزى كل عام- لم يعد ثمة نفوذ للقنصل العام، والأمة أصبحت تكرهنا- لم يعد هناك خديو اسمه توفيق، لم تعد هناك مصالح، الإسكندرية ضُربت بالقنابل- هذه هى نتائج دبلوماسية التكتم. سيذهب كولفن إلى الهند، وسيذهب ماليت إلى الصين- ولن نعرف شيئًا بعد الآن. حدث ذلك كله، نظرًا لأن المراقبين والقناصل لا يريدون السماح للنواب بالاطلاع على الموازنة ومناقشتها عندما كان شريف باشا رئيسًا للوزراء. أما عن عرابى، ومهما حدث له، فسيظل حيا على امتداد قرون فى ذاكرة الشعب؛ هذا يعنى أن هذا الشعب لن يصير مطلقًا (خادمك المطيع) مرة ثانية.

آمل أن تصدق ما أقول،

المخلص

الجنرال جوردون

تبينت على الفور قيمة هذه الرسالة فيما يتصل بى أنا شخصيا، على الرغم من أنها تنتقد وزارة الخارجية؛ فإن اسم الجنرال جوردون كان واحدًا من الأسماء المنحوتة فى الذهن الشعبى، وبخاصة عند أصحاب "حركة الضمير المستقل" التى بدأت، كما سبق أن أوضحت، تؤازرنى، وبالتالى عرفت أيضًا أنها تؤازرنى أيضًا فى الوقفة التى وقفتها مع جلادستون؛ وتأسيسًا على هذه المساندة بدأت سلسة جديدة من المراسلات مع هاميلتون. كان جلادستون قد صرح فى البرلمان أنى دونا عن

سائر الإنجليز جميعهم أعد "الاستثناء التعيس الوحيد" الذى عرف مصر، إلى أن تمت الموافقة العامة على الحرب؛ وهنا أرسلت إلى جلادستون، عن طريق هاميلتون صورة من الرسالة التى أرسلها إلىَّ جوردون، ولفتت انتباه الرجل فى ذات الوقت الروايات والحكايات التى بدأت تظهر فى الصحف، عن بعض الأعمال الوحشية الثأرية التى كان يقوم بها توفيق هو ووزراؤه الشراكسة الجدد، والتى استهلوها فى الإسكندرية، ومورست ضد المسجونين الوطنيين الذين جرى أسرهم فى أثناء الحرب. قيل إن محمود فهمى جرى تعذيبه؛ (ومحمود فهمى هذا هو القائد المهندس العام)، وقيل أيضًا إن اللولب أو القلاووظ [*] هو والكرباج جرى استخدامهما على نطاق واسع. وتساءلت عمَّ إذا كانت هذه هى الأهداف التى أرسل جلادستون قواته لتحقيقها فى مصر. وحظيت الرسالة برد عاجل ومهم، وجاء ذلك الرد مفيدًا لى، عندما قمت بعد ذلك بأيام قلائل بالدفاع عن عرابى وذكرت أنه لا يمكن للخديو أن يحكم عليه بالإعدام دون محاكمة عادلة. وهذا هو الرد:

١٠، داوننج ستريت، هوايتهول،

فى الثامن من سبتمبر عام ١٨٨٢

لست بحاجة إلى القول: إن جلادستون أعمل فكره كثيرًا فى الشائعات التى تتردد حول هذه (الأعمال الوحشية). وأنا ليس لدى اسم آخر كى أستعمله عوضًا عن هذا الاسم. لقد أرسلت تعليمات عاجلة لتحرى حقيقة هذه الأعمال الوحشية والاحتجاج عليها احتجاجًا شديدًا إذا مًا تأكدت صحتها. ويسعدنى القول، فى ظل المعلومات المتوفرة فى الوقت الحالى، إن هذه التصريحات لا أساس لها من الصحة. وقد جرى إصدار أوامر مشددة بمعاملة الأسرى معاملة إنسانية. ترددت بعض الشكوك حول مسألة استخدام آلة التعذيب الإبهامى مع جاسوس واحد مرة واحدة؛ وصدرت الأوامر أيضًا بمنع أوامر التفتيش منعًا قاطعًا وأن تتم مساءلة من يقوم بذلك وتُؤخذ عليه التعهدات الكافية بعدم تكرار ذلك. ويجب أن تثق أن السيد

(*) القلاوظ الإبهامى: أداة تعذيب يضغط بها على الإبهام أو الإبهامين. (المترجم)

جلادستون سوف يستنكر (الأعمال الوحشية بمصر) استنكارًا شديدًا شأنها شأن (الأعمال الوحشية البلغارية).

أنا لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التفكير فى أن رأيك ورأى شاينيز Chinese جوردون فى أحمد عرابى، سوف يتغير إلى حد ما إذا ما اطلعتما على بعض الوثائق التى قرأتها أنا واطلعت عليها.

قبل بضعة أشهر (وأرجو أن يكون ذلك سرا بيننا) قمنا ببعض التحريات عن شاينيز جوردون. كانت لدى الرجل مقترحات عن أيرلندا، وجاءت نتيجة تلك التحريات، على ما أذكر، تفيد أنه لم يكن على صواب.

الفقرة الأخيرة من الرسالة عجيبة تمامًا من الناحية التاريخية. كان الدليل الذى قدمه جوردون لحكومة جلادستون على أنه ليس على صواب، يتمثل فى قيام جوردون، فى أثناء جولته فى غرب أيرلندا، وتقديم اقتراح إلى عضو الحكومة اللورد نورثبروك يقضى برد الأراضى للأيرلنديين بالثمن، ومنحهم الحكم الذاتى الحكم المحلى، إذا ما أسعفتنى الذاكرة، باعتبار ذلك علاجًا للشرور الدائرة فى أيرلندا.

هذا يعنى أننى أصبحت من جديد داخلاً فيما يشبه الحوار الودى بينى وبين مجلس الوزراء، كما أصبح لى شيء من النفوذ فى البلاد، بعد وصول أخبار العرب، أى أخبار الانتصار الكبير فى التل الكبير إلى إنجلترا، ثم بعد ذلك خبر سقوط عرابى أسيرًا فى أيدى درورى لاو فى القاهرة. أدار اكتمال النصر العقول الإنجليزية كليا فترة من الوقت، ومن يمن الطالع أنى تهيأت لى، قبل أسبوعين من هذا الانتصار، الفرصة التى أدليت خلالها برأيى، إذ من دون ذلك، كنت لن أستطيع رفع صوتى أمام الجمهور أو فى مجلس الوزراء، طوال فترة الفرح بالانتصار. هذا الانتصار كان له تأثير ونتيجة مباشرة تتمثل فى تأييد الحكومة فى آرائها بالغة العنف، كما جعل هذا الانتصار قلب جلادستون يتحجر من جديد بعد أن كان يتعاطف مع الوطنيين بعض الشيء. أصبح الخطر فى هذه المرحلة يتمثل فى أن الرجل راح، من باب إراحة ضميره وتبرير المذبحة الهائلة التى نُصبت

للفلاحين شبه العُزّل فى التل الكبير، يصب جام غضبه وانتقامه الشديد من عرابى باعتباره كبش فداء لأخطائه الخاصة. كان عذر جلادستون الوحيد فى هذه الوحشية العسكرية يتمثل فى فكرة خيالية مفادها أنه كان يتعامل مع مجرم بائس متهور، رجل خرج على القانون بفعل جرائمه، ومن ثم لا يستحق الاحترام باعتباره وطنيا أو لكونه قائدا لجيش متحضر. لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن عرابيا إذا ما كان قد أسر فى الميدان فى التل الكبير، فذلك لأن ولسلى كان يود محاكمة الرجل محاكمة عسكرية عاجلة ومقتضبة، تسفر عن إعدامه رميًا بالرصاص فى الحال، وأعتقد أيضًا أن الذى حال دون حدوث ذلك هو السير جون آدىJohn Adye ، ذلك الجنرال الأكبر سنا، والأكثر خبرة من ولسلى- كان آدى قد أوضح لولسلى العار والفضيحة التى يمكن أن تلحق بالجيش البريطانى إذا لم يلق قائد قوة مسلحة، استلزم إخضاعها قوات بريطانية تقدر بحوالى ٣٠٠٠٠ رجل، المعاملة الكريمة المنصوص عليها فيما يتعلق بأسرى الحرب. وعلى الصعيد الداخلى، أعرف أيضًا أن برايت Bright، أدلى برأيه علانية إلى جلادستون وذلك من باب تعبيره عن ضيقه واستيائه من هذا الأمر. ويجب علينا ألا نظن أن أى شىء غير الضغط الشديد للرأى العام البريطانى، كما سأوضح فيما بعد، هو الذى أفشل تصميم الحكومة، بصورة أو بأخرى، ومنعها من جعل أحمد عرابى يضحى بحياته فداء لجريمتها السياسية. كان جلادستون هو واللورد جرانفيل وسائر اللوردات الأحرار الآخرين فى الوزارة، مُصرِّين على جعل عرابى كبش فداء. وهنا يتعين علىَّ أن أورد بعض التفاصيل.

أُعلن فى السادس عشر من سبتمبر، فى جريدة التايمز، استسلام القاهرة واستسلام عرابى لدرورى Drury؛ وجاء الإعلان مصحوبًا ببرقية من موبرلى بيل Moberley Bell مراسل الجريدة فى الإسكندرية، وممثل وجهة النظر البريطانية الخديوية، يطلب فيها توقيع "أشد العقاب" على أحد عشر زعيما وطنيا، أدرج أسماءهم ومن بينهم أحمد عرابى. كنت أعرف أن ذلك عقابًا مقصودا ومبيَّتًا، وعليه أرسلت على الفور برقية إلى بتون Button أسأله فيها عن حقيقة الموقف فى الدوائر الرسمية. وجاء رد بتون المبدئى مؤكدا لتكهنى. "أنا لا أعتقد أن هناك أى

خطر فى مسألة قتل أى إنسان رميًا بالرصاص؛ وعليه، يتعين عليــك أن تخطــو خطوات فعالة فى اتجاه التماس الرحمة والمعاملة الرحيمة". بعــد ذلــك بــساعتين وصلتنى برقية ثانية من بتون تقول: "أنا لا أحبذ النغمـــة الرســمية فيمـــا يتعلــق بأصدقائك. اكتب لى رسالة من هذا القبيل وسوف أعرضها على رئيــسى". كــان بتون يعنى شينرى Chenery بطبيعة الحال، نظرًا لأن شينرى كان رئيس تحريــر جريدة التايمز فى ذلك الوقت، وكانت تربط الرجلين علاقة حميمة. وعليــه قمــت على الفور بكتابة رسالة إلى هاميلتون:

"أنا لا أعتقد أن خطر الموت يهدد حياة أى من أولئك الذين جرى أسرهم فى القاهرة، لكن إذا ما حدث ذلك، فأنا على ثقة من أنك ستبلغنى بــذلك فــى الوقــت المحدد، والسبب فى ذلك أن لدى بعض المقترحات بشأن الصعوبة البالغة المتعلقــة بحصول هؤلاء الأسرى على محاكمة عادلة فى الوقت الحالى، كما أن لدى أيــضًا بعض المقترحات المتعلقة ببعض الأمور الأخرى".

لم أتلق ردا على هذه الرسالة، ثم جاءنى بعد ذلــك رد مرتجــل، يفيــد أن هاميلتون على وشك مغادرة لندن إلى الريف، "وبالتالى لن يكون الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه اعتمادا أساسيا مثلما كنت أتمنى". لكننى أنا لــست ممـــن يُؤجلــون الأمور، وقد تجاوزت هاميلتون، ورحت على الفور أكتب رسالة للسيد جلادستون. وقد أقدمت على هذا التصرف بعد أن تشاورت مع بتون ومع برودلـــى Broadley، الذى التقيته فى منزله عصر اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر. اتفقنا فيما بيننـــا أن جلادستون هو الذى ينبغى التركيز عليه، وعلى أن أفضل الفرص المهيأة لإنقاذ حياة عرابى وحياة الأسرى الآخرين، تتمثل فى أن أصطحب معى برودلـــى علـــى الفور وأقدمه على أنه المدافع القانونى عنهم. كان بتــون الــذى يعــرف ظــواهر وبواطن الأمور، متأكدًا من ضيق الوقت، واتفقنا مع برودلى على أتعاب مقــدارها ٣٠٠ جنيه إنجليزى تقاسمناها مناصفة، ثم زيدت بعد ذلك إلى ٨٠٠ جنيه إنجليزى. وأسدى بتون خدمة عظيمة فى أثناء الأزمة، وذلك عن طريق الإعلان عن القضية فى صباح اليوم التالى فى جريدة "التايمز"، والقول بأن إعدام عرابى هــو ورفاقــه يجب ألا يتم دون موافقة الحكومة الإنجليزية، وأنه تقرر الدفاع عــنهم مــن قبــل

مستشارين أكفاء. وواقع الأمر، أننا لم يكن لدينا حتى ولو مجرد ظل أو خيال من خيالات السلطة حتى يمكن أن يستند إليه هذا الإعلان، لكن عندما نشرت جريدة التايمز هذا "الإعلان" أو بالأحرى "البيان"، صعَّبت على الحكومة فيما بعد، مسألة التراجع عن قرار إنسانى ينتظر منها.

كانت رسالتى للسيد جلادستون فى تلك الليلة، على النحو التالى:

١٩ سبتمبر عام ١٨٨٢

سيدى،

الآن وبعد أن أشرفت المقاومة العسكرية للمصريين على نهايتها، وبعد استسلام عرابى وكبار القادة لقوات صاحبة الجلالة، أجازف بالحديث إليك من جديد من أجل مصلحة العدالة ومن أجل أولئك الذين وضعت الحرب مصائرهم بين يديك. يبدو أن النية منعقدة على حتمية اجتماع المحكمة العسكرية فى وقت قريب لمحاكمة ومقاضاة زعماء الثورة العسكريين، ويجب أن تنعقد أيضًا محكمة أخرى للبت فى مسألة صلة بعض هؤلاء الزعماء وبعض المدنيين ببعض عمليات العنف. إذا كان هذا هو الحال فأنا أرجوك ملحًا أن ينصرف اهتمامك إلى بعض الظروف التالية التى يتحتم أخذها بعين الاعتبار تمامًا:

١- إذا ما كان أعضاء المحكمة المقترحة من المصريين ومعينين من قبل الخديو، فإن مثل هؤلاء الأعضاء يصعب أن يكونوا أحرارًا أو تكون مشاعرهم نزيهة تجاه الأسرى. هؤلاء الأعضاء سيجرى انتخابهم من بين تلك القلة القليلة الموالية للخديو، الأمر الذى سيضطرهم ويحتم عليهم أن يكونوا متحيزين.

٢- وحتى فى عدم حدوث ذلك، فإن الشهادات المزورة من المواطنين أمر شائع جدا فى مصر، يزاد على ذلك أن تزوير المستندات والوثائق العربية أمر سهل للغاية، الأمر الذى لا يجيز التعويل على مثل هؤلاء الشهود وتلك الوثائق والمستندات. هذا يعنى أن الوثائق والمستندات يتعين عرضها على الخبراء قبل الأخذ بها.

٣- يضاف لذلك أن شهادات المواطنين إذا ما كانت في صالح الأسرى والمسجونين فإن أصحابها سيخافون من الإدلاء بها. هذا يعني أن أصحاب هذه الشهادات سيكتمونها، ولن يكون من صالح المحاكمة العادلة أن تقدم لها شهادات غير صحيحة أو بالأحرى مزورة. يزاد على ذلك أن الخبراء الذين سيعهد إليهم بتحري صدق الوثائق والمستندات سيكونون معرضين لمثل هذه التأثيرات إذا ما كانوا من المواطنين المصريين.

٤- أما عن شهادة الأوروبيين المقيمين في مصر، التي سيدلي بها أصحابها بلا خوف، قد تكون هي الأخرى بفعل الاستياء والغضب. هؤلاء الأوروبيين، يبدو أنهم أطراف بصورة أو بأخرى في هذه القضية. قد يكون الكثيرون منهم قد خسروا ممتلكاتهم أو أضيروا في تجارتهم بسبب الاضطرابات التي وقعت مؤخرًا، أو يودون الثأر لبعض الإهانات الشخصية التي نزلت بهم، كما أن نغمة حب الانتقام والحقد عند البريطاني تتزايد يومًا بعد يوم في الصحافة البريطانية.

٥- لا يكفي، في حال ضمان العدالة الكاملة للأسرى، مراعاة حضور ممثل صاحبة الجلالة في شخص أحد المترجمين، في أثناء المحاكمة. لقد ازدادت الأحاسيس والمشاعر السياسية مؤخرًا في القاهرة، خلال الأشهر الستة الأخيرة، وراح الناس يطالبون بمراقبة محايدة تمامًا.

٦- في حال إشراك ضباط بريطانيين مع أعضاء المحكمة العسكرية الوطنيين، فإن مثل هؤلاء الضباط البريطانيين إذا ما كانوا جاهلين أو شبه جاهلين باللغة التي يتحدثها الأسرى، فإنهم سيعجزون عن فحص الوثائق والمستندات أو استجواب الشهود. هذا يعني أن مثل هؤلاء الضباط سيكونون في أيدي مترجميهم، الذين إذا لم تجر مراقبتهم، فإنهم قد يغيروا أو يشوهوا الكلمات المستخدمة على نحو ينزل الخطر بالأسرى والمسجونين. المعروف أن معظم تراجمة القنصليات هم من المسيحيين الشوام المعادين للعرب المسلمين عداءً سافرًا، ونحن نؤكد في الوقت نفسه، على عدم وجود إنجليز أكفاء في مصر يستطيعون

الاضطلاع بمثل هذه المهمة. اللغة العربية لا يعرفها سوى القليلين جدا من بين مسئولينا، يزاد على ذلك أن صلة مسئولينا بالاضطرابات التى جرت مؤخرًا ليست وثيقة تمامًا، الأمر الذى سيؤثر على رأيهم السياسى.

من هنا، يمكن القول: إن العدالة معرضة للإجهاض فى أثناء المحاكمة إذا لم تتخذ الاحتياطات والخطوات الخاصة التى تحول دون ذلك.

ومن باب تجنب هذه الشرور قدر المستطاع، قررت أن أتكفل أنا وبعض أصدقائى تأمين خدمات محامٍ كفء للأسرى والمسجونين الرئيسيين، وقررنا أيضًا السفر مع هذا المحامى إلى القاهرة لجمع الأدلة والشهادات المطلوبة للدفاع. وسوف أصطحب معى أيضًا المحترم صابونجى ليكون لى مترجمًا، وليقوم بمراقبة المحاكمة نيابة عن المسجونين. معرفتى باللغة العربية لا تؤهلنى للعمل بمفردى، لكن صابونجى صديق للمسجونين الرئيسيين، وهو قادر على التحدث نيابة عنهم. وهو يعرف اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية وكذلك اللغة الإيطالية معرفة جيدة، وربما يكون هو العالم العربى الأول الباقى على قيد الحياة. المسجونون يثقون بالرجل تمامًا، وأنا أعتقد أنهم يثقون بى أنا أيضًا ثقة تامة. وبهذه الطريقة وحدها، يمكن لهؤلاء المسجونين، الحصول على ما أظنه وأحسبه حقا لهم، وهو الاستماع إليهم تمامًا وعدلاً، والاستماع إليهم بقدر من المودة.

ختامًا، قد يكون من الضرورى أن أعد سيادتكم أنى ومن معى، وعلى الرغم من انشغالنا بهذا الأمر، سوف نتحاشى التدخل فى السياسة المعاصرة. وأنا سأعد ذلك تفضلاً علىَّ منكم إذا ما أبلغتمونى فى تاريخ مبكر بطابع المحكمة والمحاكمة، والاتهامات الرئيسية التى ستوجه للمسجونين. آمل أيضًا أن تقدموا لى فى مصر أنا ومن معى، التسهيلات التى تمكننا من القيام بمهمتنا، ولا يخامرنى شك فى أن وعيكم بالعدالة سيثبت ذلك.

وأنا سأظل... إلخ

ولفريد سكاون بلنت.

كنت أعلم أن هذه الرسالة، يصعب أن يرد عليها السيد جلادستون بالرفض، وبخاصة بعد تأكيداته التى صدرت مؤخرًا عن "الفظـائع التـى حـدثت بمـصر" و"الفظائع البلغارية" أيضًا؛ وعلى الفور قمت بإرسال هذه الرسـالة إلـى مجلـس الوزراء، وبخاصة أنى سبق لى زيارة مقر المجلس والالتقاء بالسيد هاميلتون، الذى شرحت له خطتى. ومع ذلك لم يشجعنى هاميلتون تشجيعًا كبيرًا، وذلك فى ضـوء رده على المذكرة التى أرسلتها له فى صبيحة اليوم التالى، والتى ذكرت فيها أنـى أكتب لعرابى، وكنت أسأله عن الطريقة التى يمكن بها مراسلته، كما أعربت للرجل عن أملى فى الحصول على رد من رئيسه قبل يوم الجمعة، أى يوم تسلم البريـد. وعموما جاء رد هاميلتون موحيًا بالتسويف والتأجيل:

"يؤسفنى القول، إن رسالتك فاتتها حقيبة البريد ليلة أمس. وصلتنى الرسـالة متأخرة حوالى ثلاث دقائق، لكن على أى حال، يجب ألا تعـول كثيـرًا علـى رد عاجل على هذه الرسالة. السيد جلادستون، دائم الحركة هنا وهناك؛ يزاد على ذلك أنه يرجح استشاره شخص ما قبل الرد على الرسائل. وأنا جاهل تمامًـا بالقـضايا التى قد تثيرها الإجراءات التى تقوم بها أنت؛ ومن ثم ليس من مصلحتى المخاطرة بأى رأى من الآراء. لكن ألا ترى أن مسألة دفاع محامٍ أجنبىٍّ طبقًا للقانون الدولى أو الحق المكتسب تفتح الباب أمام كثير من الشكوك؟ كما أنى أجهل تمامًـا مـسألة تسليم رسائل للمسجونين أو الأسرى، لكنى ينبغى أن أسلِّم بأنه لا يمكن وصول أية رسائل إلى عرابى إلا بموافقة وأذن من الخديو وقائدنا العام. وفى الأحوال كلهـا، أرى أن ماليت هو أفضل وسيلة فى هذا الاتصال".

وبناء على هذا الاقتراح كتبت رسالة إلى عرابى أخبره فيها بالخطط التـى وضعناها للدفاع عنه، وأرفقت بهذه الرسالة، مسودة رسالة إلى ماليت، ومن بـاب المزيد من الحرص أرسلت الرسالتين باليد إلى وزارة الخارجية، ومعهما مـذكرة، ليسلم ذلك كله إلى اللورد تنتردن Tenterden كى يـشمله برعايتـه. ومـن بـاب المصادفة البحتة أعيدت إلىَّ المذكرة هى والرسالة ومعهما رسالة تفيد أن اللورد قد انتقل إلى جوار ربه بصورة مفاجئة صباح ذلك اليوم، واضطررت، نظرًا لوجـود

ساعى البريد، إلى إعادة الرسالة مع حاملها المدعو ميتشل والذى يعمل خادمًا مع بتون، إلى قلعة ولمر Walmer، التى يعيش فيها اللورد جرانفيل، وبذلك تكون الرسالة قد وصلت اللورد جرانفيل في الوقت المناسب. وحسب تسلسل الأحداث اتضح أن الطرد، على الرغم من إرساله للقاهرة، لم يصل إلى أبعد من يدى ماليت، الذى أصدر أمرًا بإعادة الرسالة التى كتبتها لعرابى إلىَّ مرة أخرى. وتعد رسالة ماليت الرسمية التى أرسلها إلىَّ خير دليل على تصرف هذا الرجل، إذا ما كنا بحاجة إلى دليل؛ وهذه الرسالة توضح مدى ابتعاد الحكومة عن التعاون معى فى الخطط التى كنت أضعها كى يحصل عرابى هو وبقية الأسرى على محاكمة عادلة. هذه الرسالة رسمية جدا وواضحة ومباشرة:

القاهرة، ٤ أكتوبر ١٨٨٢

سيدى،

بناء على تعليمات من وزير الخارجية فى حكومة صاحبة الجلالة أعيد لك طية الخطاب المرسل إلى عرابى باشا، الذى أرسلته إلىَّ لإرساله إليه فى اليوم الثانى والعشرين من الشهر الماضى.

أنا... إلخ

إدوارد بى. ماليت.

جاءت رسالتى إلى عرابى على النحو التالى:

"إلى صديقى المكرم، سيادة أحمد باشا عرابى،

حفظه الله فى الضرَّاء والسرَّاء.

بصفتك عسكريا ووطنيا أيضًا فلا بد أنك فهمت الأسباب التى منعتنى من الكتابة إليك أو إرسال أى رسائل إليك طوال الحرب التعيسة التى دارت مؤخرًا. ومع ذلك، وبعد انتهاء الحرب، أرجو أن أوضح لك أن صداقتنا لم تكن صداقة

كلامية فقط. المرجح أنك ستقدم للمحاكمة، إما بتهمة التمرد أو أية تهمة أخرى، أنا لم أتمكن بعد من معرفة طبيعتها، وأنت إذا لم يكن الدفاع عنك دفاعا قويا وماهرا، فقد يترتب على ذلك دخولك فى مخاطر إدانتك. ولذلك قررت بناء على موافقتك المجيء إلى مصر، لمساعدتك وتقديم الأدلة والشهادات بقدر المستطاع، وأن أحضر معى محاميًا كفئًا لتولى الدفاع عنك. ولقد أبلغت الحكومة الإنجليزية بما أنتوى عمله، ولذلك أرجو منك الموافقة على أن أنوب عنك فى هذا الأمر، نظرًا لأن موافقتك على ذلك تعد أمرا ضروريا. ومن الأفضل لو أرسلت لى على الفور برقية ورسالة مكتوبة تفوضنى فيها توكيل محامٍ عنك. سوف يشاركنى كثير من الإنجليز أصحاب الفكر الحر، ممن يشغلون مناصب رفيعة، فى تقاسم نفقات قضيتك. ويمكن لك أيضًا الاعتماد علىَّ فى أثناء اعتقالك، فى تلبية احتياجات أسرتك، وأدعو الله أن يعينك على تحمل الضراء والسراء".

ولفريد سكاون بلنت

٢٢ سبتمبر ١٨٨٢

كرابت بارك، ثرى بردجز، سسكس

يوضح الرد الذى جاءنى من جلادستون على نحو أسرع مما كنت أتوقع، أن الرجل لم يكن ميالاً إلى أى شكل من أشكال المحاكمة العادلة شأنه فى ذلك شأن وزارة الخارجية. وقد وصلنى ذلك الرد من خلال هاميلتون وجاء مضمونه على النحو التالى:

١٠ داوننج ستريت،

٢٢ سبتمبر ١٨٨٢

قرأ السيد جلادستون رسالتك التى حدثته فيها عن محاكمة عرابى واقتراحك بأن تستخدم محاميا إنجليزيا للدفاع عنه. وكل ما يمكن أن يقوله فى الوقت الحاضر هو إنه سوف يحيل طلبك هذا إلى اللورد جرانفيل، طلبا مشورته فى هذا الموضوع، لكنه لا يستطيع أن يجزم لك، أن ذلك سوف يتم الالتزام به.

جاء ذلك بمثابة إحباط واضح، بدلاً من أن يكون رفضنا قصيرًا ومباشرًا، هذا فضلاً عن بعض الكلمات التي جاءت على شكل مذكرة من هاميلتون كانت تعطي المعنى نفسه: يقول هاميلتون: "أعترف بأني كلما فكرت في هذا الأمر زادت أيضًا عدد المشكلات التي تتزاحم على ذهني في ضوء هذا المقترح الذي تقدمت أنت به. أنا على يقين، من أنه ستبلغك أخبار هذا الأمر خلال يوم أو يومين، ولن يكون ذلك عن طريقي لأني أعد خارج هذا الموضوع، وأنت تعلم ذلك جيدًا".

وعليه، تركوني تتقاذفني الشكوك في حين كان الموقف يزداد حرجًا يومًا بعد يوم. وأنا بدوري لم أجرؤ على السفر إلى مصر إلا بعد أن أتلقى ردا محددا، لأني كنت أعلم أني سأكون بلا حول ولا طول في القاهرة، إذ لم أكن مسلحًا بسلطة من سلطات الحكومة، بل لم يسمح لي بزيارة الأسرى المسجونين بعد، هذا في الوقت الذي سافر فيه برودلي عائدًا إلى تونس بعد أن سئم الانتظار. وسوف تنتهي جلسات البرلمان ويغادر النواب لندن، تاركين أعمالهم لوكلاء الوزارات، وتتوقف الأعمال كلها على وجه التقريب. ويجري الجدال في الصحافة حول إعدام عرابي، وكانت الصحف المأجورة والمعادية تنادي كلها بإعدام الرجل، ولم يكن يعلو صوت بالاحتجاج على ذلك إلا بين الحين والآخر. وهنا نجد أن لجنة السير ولفريد لوسون المصرية، التي أنجزت عملاً طيبًا في فصل الصيف، تلتزم الصمت، وقد تسلمت في ذات الوقت من لوسون نفسه رسالة مُحبطة يقول فيها: "أشك في سماحهم لعرابي بأي شكل من أشكال المحاكمة العادلة. وهم يعلمون إذا ما أقدموا على شيء من هذا القبيل فإنه سوف ينتهي بإدانتهم، يزاد على ذلك أن "السياسيين" يبلغون من الحذق والمهارة حدا يحول بينهم وبين الانزلاق إلى شيء من هذا القبيل. وعلى أي حال، أنت على حق في محاولتك أن يحاكم الرجل محاكمة عادلة". ولم يكن أمامي سوى البقاء في لندن، وإزعاج مجلس الوزراء طلبًا لأي رد، ورحت أيضا أستحث جريدة "التايمز" على الكتابة. وبعد انتظار دام خمسة أيام، كتبت مرة ثانية إلى جلادستون الكتاب التالي طلبًا لرد محدد نظرًا لأن الأمور كانت قد توترت وأصبحت على أشدها في القاهرة.

٢٧ سبتمبر ١٨٨٢

كتبت لك منذ حوالى عشرة أيام، لأبلغك بانتوائى توكيل محامٍ إنجليزى كفء عن عرابى باشا وكبار الأسرى المصريين الآخرين، وأخطرتك أيضا بأنى سوف أذهب أنا بنفسى إلى القاهرة لجمع الشهادات المطلوبة لهؤلاء الأسرى، ومراقبة ما يجرى هناك بهذا الصدد؛ ورجوتك فى رسالتى أن تبلغنى فى وقت مبكر بالقرارات التى يحتمل أن تصدر بشأن هؤلاء الأسرى والمسجونين.

وعلى الرغم من أن ردك على رسالتى، من خلال هاميلتون، لم تؤكد فيه على السماح بتوكيل محامٍ إنجليزى، فإن الرد يفيد أن اقتراحى سيكون محل الاعتبار؛ وعليه قمت بتجهيز أحد المحامين الكبار الأكفاء، ليكون مستعدا فى حال الموافقة على الدفاع عن هؤلاء الأسرى بهذه الطريقة. وفى ظل الحتمية القانونية للحصول على موافقة الأسرى على هذا الدفاع، كتبت، من خلال السير إدوارد ماليت، إلى عرابى باشا، أطلب منه تفويضا بالدفاع عنه بهذه الطريقة؛ ولم يصلنى حتى الآن رد على هذه الرسالة التى أرسلتها إلى عرابى باشا؛ علاوة على عدم حصولى على أية رسائل أو مذكرات منك شخصيا أو اللورد جرانفيل، الذى أبلغتنى بأن الأمر سيحال إليه.

من ناحية أخرى، طالعت فى جريدة "التايمز"، عن القاهرة، أنه سيجرى تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة المتهمين، وأن تشكيل هذه المحكمة لن يتعدى يوم غد. جاء الخبر على النحو التالى:

يصدر غدا تشكيل المحكمة العسكرية التى ستحاكم المتهمين. الخديو هو وشريف باشا ورياض باشا مصرون على ضرورة توقيع الحكم بالإعدام على كبار المتهمين، وهذا الرأى لا يختلف معه سوى القلة القليلة. قال لى اليوم شريف باشا الشهير بلطف طابعه: "أنا لا أنادى بذلك من باب كراهيتى لهؤلاء المتهمين، وإنما لأن هذا الإجراء ضرورى جدا لتأمين هؤلاء الذين يودون العيش فى هذا البلد.

الحملة الإنجليزية شيء ممتاز، لكن لا نحن ولا أنتم تودون تكرار مثل هذا العمل كل اثنى عشر شهرا"[٢٧].

من الواضح أن هذا الخبر يؤكد أسوأ شكوكي فيما يتعلق بقرار مستشارى الخديو السابق بإعدام المتهمين، الأمر الذى يثبت صدق الحجج التى سقتها حول احتمال عدم حصول هؤلاء المتهمين على محاكمة عادلة. وعليه أرانى من جديد أبادر إلى الحث على المحاكمة العادلة والدفاع عن المتهمين بالنحو الذى اقترحته على سيادتكم. وفى كل الأحوال أرجوك ألا تجعلنى موضعًا لشكوكك، أما إذا كان لا بد مما ليس منه بد، فأرجو أن تعفينى من المسئولية فى هذا الأمر، وذلك عن طريق التصريح الواضح فى مسألة رفض أو قبول ترافع محامٍ إنجليزى عن عرابى باشا وكبار المتهمين، ومسألة إعطائى التسهيلات اللازمة التى وعدتمونى بأنى سأحصل عليها فى مصر، وبخاصة فيما يتعلق بالاتصال بالمسجونين (المتهمين)، وتوفير ترجمة أمينة لهم.

فى ظل الإحساس الرسمى السائد فى القاهرة هذه الأيام سيكون من المستحيل علىَّ تمامًا أنا ومن معى، العمل بطريقة فاعلة لصالح المتهمين، إذا لم تتوفر لنا حماية دبلوماسية خاصة، بل ومساعدة دبلوماسية خاصة أيضًا.

إن تسارع الأحداث هو الدافع الوحيد وراء مطالبتى لسيادتكم برد عاجل على رسالتى".

هذه الرسالة الأخيرة لم تصل هدفها ولا مبتغاها، والسبب فى ذلك أن جلادستون كان قد غادر لندن، وكان سكرتيره هوراس سيمور، المسئول عن المراسلات والبريد، والذى أرسلت إليه الرسالة، قد قام بتسليم الرسالة إلى وزارة الخارجية، ولا أدرى إن كان ذلك بأوامر أو دون أوامر. أوضح لى هوارس سيمور أن "السيد جلادستون خارج المدينة، وعليه قمت أمس فور تسلمى لرسالتك بإحالتها مباشرة إلى وزارة الخارجية... ولقد فعلت ذلك لأن الرجل حوّل رسالتك

(٢٧) برقية وصلتنى من موبرلى بيل Moberly Bell .

السابقة إلى اللورد جرانفيل، مثلما أبلغك هاميلتون، ولأنى فهمت من مـذكرتك أن ذلك سيحقق رغبتك ويوفر الوقت. أنا أفهم أنك سوف تتلقى قريبا ردا رسميا مـن اللورد جرانفيل، يوضح لك فيه رأى الحكومة في الأمور التى أشرت إليها". وبذلك يكون جلادستون قد أحال مسئوليته عن "الموافقة" أو "الرفض" إلى اللورد جرانفيل، ولما كان جرانفيل نفسه خارج المدينة فقد أحيلت الرسالة إلى كتبة وزارة الخارجية للتعامل معها بطرقهم الخاصة. وعلى الرغم من وعد سيمور لى بـأنى سيـصلنى قريبا ردا بوجهة نظر الحكومة فى هذه المسألة، فإن الرد الوحيد الذى وصلنى كان موقعًا من شخص يدعى جوليان بونـسفوت Pouncefote يقـول فيـه: إن الـسيد جلادستون أحال رسالتى المؤرختين التاسع عشر والسابع والعـشرين مـن شـهر سبتمبر إلى اللورد جرانفيل، وإن اللورد جرانفيل يأسف لأنه ليس مخولاً الـدخول فى مراسلات معى حول هذا الموضوع. وبذلك يكون جلادستون، الذى كان قد عقد العزم على حتمية إعدام عرابى متساويًا فى ذلك مع وزارة الخارجية، قد راغ فـى نهاية المطاف من المسئولية التى حاولت إلزامه بها. وأنا أورد هذا الحـادث هنـا بالتفصيل لا باعتباره دليلاً على المكر والخداع الرسمى، وإنما لأهمية هذا الحـدث من الناحية التاريخية.

هذا الرد الذى جاءنى من جوليان "بونسفوت" جعلنى أعجـل بعـدم ضـياع الوقت سدى. وبعد التشاور مع كل من بتون ومع اللورد دى لا وور، الذى حـضر إلى لندن، وكان يسعى، بصورة مستقلة، للحصول على رد من اللـورد جرانفيـل، والذى عرض علىَّ أيضًا أن يتقاسم معى مصاريف المحاكمة إذا ما استطعنا توفير مثل هذه المحاكمة العادلة (وقد فشل اللورد دى لا وور فى الوفاء بهـذا الوعـد). اتفقنا بعد ذلك كله على أن ترسل على الفور برقية إلـى برودلـى Broadley فـى تونس ليجهز نفسه للسفر إلى مصر، واتفقنا أيضًا فى ذات الوقت على إرسال محامٍ صغير فى نفس مساء اليوم إلى القاهرة ليقوم بالتحضير والتجهيز لوصول برودلى، واتفقنا أيضًا على أن نكون جاهزين للتصرف حسبما تمليه علينا الظـروف. كـان اللورد جرانفيل قد رفض الموافقة ولم تكن لديه النية أيضًا فى الموافقة علـى قيـام محامٍ إنجليزى بالدفاع عن المتيمين؛ وثبت أيضًا أنهم لم يجرؤا على مواجهة الرأى

العام بتنصل من هذا القبيل. عند هذا الحد زاد نفوذ بتون لدى شينرى، إلى درجة أنه كان واثقًا من قدرته، بالإلحاح فى جريدة "التايمز" على جعل المحاكمة عادلة، وعلى إجبار اللورد جرانفيل على التدخل فى مسألة توكيل المحامى الإنجليزى للدفاع عن المتهمين.

وعليه أمضينا ذلك اليوم بطوله فى البحث عن ذلك المحامى الصغير فى شركة Inns of Court للمحاماة، التى كانت شبه خالية، نظرًا لأن اليوم كان يصادف يومًا من أيام الإجازات، لكننا عثرنا فى نهاية المطاف على المحامى الصغير الذى كنا نريده ونبتغيه. هذا المحامى الصغير يدعى مارك نابير Mark Napier جاء مناسبًا تمامًا لما نود القيام به، إذ كان واسع الحيلة ومقاتلاً عنيدًا وعلى دراية جيدة بالقانون، ومن النوع الذى يصعب صدُّه أو ردُّه. كانت لدى ذلك المحامى الصغير ميزة أخرى كبيرة، إذ كان ابنًا لواحد من السفراء السابقين، الأمر الذى جعله على بينه من الأساليب والتصرفات الدبلوماسية، كما كان الرجل يتحدث الفرنسية بطلاقة وهذه ستكون ميزة كبيرة فى القاهرة. بعد أن وافق الرجل على السفر تلقى تعليماتنا الموجزة، والتى تقضى بتوجيه مباشرة إلى ماليت ليذكر له أنه جاء وكيلاً عن عرابى، ويصر على أنه يود الاتصال بموكله. وهذا هو أقصى ما يمكن له عمله فى الوقت الراهن، وإذا ما تحقق ذلك، سيكون الرجل قد فعل الكثير. وإذا ما رفض ماليت ذلك، فإنه يتعين عليه الاحتجاج على ذلك الرفض ويستفيد من كل وسائله المتيسرة كيما يؤكد إصراره على الرفض. يزاد على ذلك أن الرجل كان يتعين عليه إبلاغنا برقيًا بكل ما يدور، فى حين سنقوم نحن بخوض المعركة هنا مع وزارة الخارجية من ناحية وعن طريق الصحافة من الناحية الأخرى. كان مارك، كما سبق أن قلت، صاحب شىء من التدريب الدبلوماسى والخبرة الدبلوماسية، الأمر الذى يحصنه أمام النفوذ والغموض اللذين يحيطا بالدبلوماسية من وجهة نظر الذين لا يعرفونها، أو الخارجين عن نطاقها؛ وهذا الغموض والنفوذ هما اللذان يضفيان على الدبلوماسية الكثير من قوتها. لم يكن بوسعنا الحصول على خدمات رجل أفضل من مارك. بدأ مارك عمله فى الليلة نفسها مع بريد برنديزى Brindisi، واصطحب معه كودًا من أكواد الشفرة وخطابين أو ثلاثة من خطابات التقديم. وإذا ما أضفنا ذلك إلى حقيبة يد الرجل يصبح هذا كل أمتعة الرجل.

فيما يتعلق بى شخصيا، أصر اللورد دى لا وور، بحكم معرفته لمزاج وزارة الخارجية وغضبها منى، أصر الرجل إصرارا قويا على عدم سفرى إلى القاهرة، وقد وافقته على ذلك. فى القاهرة، سوف أوضع تحت المراقبة من قبل الجواسيس، بل ويحتمل إلقاء القبض علىّ وإعادتى إلى بلدى، أما هنا فبوسعى مواصلة الحملة الصحفية بطريقة فاعلة يمكن أن تؤدى بنا إلى كسب المعركة الحقيقية. أفلح بتون فى الليلة نفسها فى إحداث ضربة صحفية جديدة فى جريدة "التايمز". كان اللورد دى لا وور قد نجح فى الحصول من اللورد جرانفيل، على تأكيد بأن الخديو سيتيح الفرص المعقولة كلها للدفاع عن الأسرى والمسجونين. هذا التأكيد كان وهميا بطبيعة الحال فى إذا ما أريد إجراء محاكمة عادلة، والسبب فى ذلك أن المساعدة والعون القانونيين المتاحين للأسرى والمسجونين فى القاهرة فى ذلك الوقت، كانت تتمثل فى بعض المحامين من بلاد سواحل البحر المتوسط المتبذبين الذين كانوا يترافعون أمام المحاكم الدولية، وهؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم أكثر من المحامين الوطنيين الذين أصابهم الرعب والفزع وأعجزهم عن الدفاع عن موكليهم دفاعًا مستميتًا، عن طريق قول الحق وإيراد الحقائق كلها، على الرغم من أن الدفاع الروتينى الذى يكون من هذا القبيل، قد يخدم حكومتنا فى مسألة اعتماد الحكم بالإعدام، دون المخاطرة بالاصطدام بالرأى العام. كانت النية متجهة أن تتم المحاكمة فى المحكمة المصرية خلال يومين، وبعد إثبات تهمة "التمرد" يجرى بعد ذلك تنفيذ الإعدام على الفور؛ وبذلك يتم إلغاء الدفاع الإنجليزى، بلا أدنى شك، عن طريق استبعاده من الإجراءات من منطلق أن ذلك يعد تدخلاً سافرًا من قبل أجانب ليس لهم وضع قانونى فى البلاد.

جاء كلام جرانفيل إلى دى لا وور على النحو التالى: "أنا ليس لدى شك فى أن الخديو، الذى بيده السلطة الحقيقية، سيتيح الفرص المتاحة كليا للدفاع عن عرابى، وعلى النحو الذى لا ينطوى على تعطيل غير عادى أو غير ضرورى، ولا بد من إعطاء هذا الحق للمسجونين ولأصدقائهم فى اتخاذ الإجراءات التى يرون أنها تتسق مع مسئوليتهم". وقد أورد بتون هذا التأكيد فى صبيحة اليوم التالى فى جريدة التايمز على النحو التالى: "اللورد جرانفيل يكتب قائلاً: إن كل التسهيلات

المعقولة سوف تعطى للمسجونين فى مصر هم وأصدقائهم فى مسألة توكيل محامى للدفاع عنهم. وقد جرى الإبراق إلى السيد برودلى بالسفر إلى القاهرة علـى وجـه السرعة". إن اعتراض اللورد جرانفيل الغاضب على اللـورد دى لا وور (راجـع الكتاب الأزرق) يوضح أن الرجل لم يكن يقصد تفسير كلامه على هذا النحو. لكن بعد نشر هذا الكلام فى جريدة "التايمز" لا يمكن للرجل التراجع عن هذا الموقـف؛ وبذلك نكون عن طريق هذه الحيلة البسيطة قد أجبرنا الرجـل مـن جديـد علـى الاشتراك فى الأمر، وبطريقة، أدت إلى كسب المعركة حتى هذه المرحلة[٢٨].

وعلى الرغم من ذلك، كنا أولاً وقبل كل شيء قد زُيِّنت لنا مسألة المحاكمـة العادلة، وجاء، من وجهة نظرنا، ظهور كولفن Colvin المفاجئ فى القاهرة، بمثابة ظرف كئيب فى الموقف بكامله، ذلك أن كولفن، هو الشخص الوحيـد مـن بـين الآخرين، الذى يعارض مثل الخديو تمامًا فكرة علنية التحقيق. كان واضحًا فى ذلك الوقت أن هدف وزارة الخارجية يتمثل فى تسريع المحاكمة وإنهائها قبل أن يتمكن برودلى من الوصول إلى مصر، نظرًا لأن تونس كانت ولا تزال دون مواصـلات مباشرة مع مصر، والمرجح أن برودلى لن يتمكن من الوصول إلى القـاهرة قبـل مضى عشرة أيام. لم يكن لديهم أية فكرة عن مسألة إرسال نابير. وعليه، صـدرت على الفور أوامر بحتمية نقل عرابى من تحفظ الجيش البريطـانى الآمـن، إلـى الاحتجاز السيئ لدى الشرطة الخديوية، التى ستقطع الاتصالات مع العالم الخارجى فى وجه أحمد عرابى، دون إحساس من الحكومة البريطانية بالخزى أو العار على الإقبال على عمل من هذا القبيل. وتم ذلك بالفعل فى اليوم الرابع من شهر أكتوبر، أى قبل وصول نابير إلى القاهرة بيومين؛ وتحدد اليوم الرابع عـشر مـن شـهر أكتوبر موعدًا للمحاكمة، فى حين لم ينجح برودلى فى الوصول إلى القـاهرة قبـل

---

(٢٨) طُلب منى مؤخرًا أن أوضح أن السبب الحقيقى وراء مساندة جريدة التايمز لنا مساندة قوية فى محاولتنا الحصول عند ذلك المنعطف الخطير، على محاكمة عادلة لأحمد عرابى، هو سبب ميكيافيللى أجبر الحكومة البريطانية على القيام بمسئوليات تنطوى على تحمل تحملها للسلطة الكاملة فى مصر. أنا لم أسمع أى شىء من هذا القبيل فى ذلك الوقت، وأنا أفضل القول بأن تلك كانت لمسة كريمة من جانب جريدة التايمز وتقاليدها الطيبة، ودليلاً أيضًا على طيبة قلب شينرى Chenery.

اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر. ولم يُفْشل تلك الخطة المرسومة سوى وصـــول نابير إلى القاهرة وظهوره في الوكالة الإنجليزية.

الخطوة الأخرى نحو تعجيل النهاية، وإعاقة الدفاع الإنجليزى، تمثلـت فـى اختيار القانون الجنائى العسكرى الفرنسى لاستعماله فى المحكمة العسكرية، وهـذا القانون مع الحكم المجرد من الضمير والأخلاق يعطى الإدعاء ميزة كبيـرة. هـذا القانون يسمح باستجواب المسجون والشهود استجوابًا كاملا، قبل الالتقاء بالمحامى، وبذلك يسهل تخويفهم، إذا ما وقفوا موقفًا شجاعًا من مـسألة تكـرار أقـوالهم أو إعادتها في أثناء المحاكمة. وبذلك يكون عرابى هو ورفاقه المـسجونين الآخـرين طوال الفترة ما بين التحقيق واليوم المحدد للمحاكمة تحت رحمة الزيارات الـسرية التي يقوم بها لهم بعض زبانية الخديو، الذين كانوا يسيئون معاملة هؤلاء المساجين ويعذبونهم تعذيبا وحشيا فى زنازينهم مستهدفين بذلك "تحطـيم روحهـم المعنويـة ونفسياتهم". أخيرًا، سُمح للحكومة المصرية أن تعلن أن الدفاع لن يكون مقبـولاً إلا إذا كان باللغة العربية، وبذلك يجرى استبعاد أولئـك الـذين أرسـلناهم لمـساعدة المسجونين. هذه التفاصيل وصلتنى عن طريق البرق من نابير فور وصوله إلـى القاهرة، وقد تسببت لى تلك التفاصيل في كثير من القلق.

كانت كل الإجراءات التى اتخذتها الحكومة الإنجليزية لحماية المسجونين من عنف الخديو غير القانونية، تتمثل في تعيين اثنين من الإنجليز الذين يعرفون اللغـة العربية، لحضور جلسات المحاكمة. هذان الرجلان، ومن يمن الطالع ليس إلا، كانا أمينين وإنسانيين. والمصادفة الغريبة أنهما كانا صديقين من أصدقائى وهما الـسير شارلز ولسون الذى سبق أن ترحلت معه فى عام ١٨٨١ عندما انتقلنا من حلب إلى أزمير (ويجب عدم الخلط بين هذا الرجل وبين الـسير شـارلز ريفرز ولـسون)، والسيد آردرن بيمان الذى سبق أن تعرفت عليه فى دمشق، والذى أصـبح حاليـا مترجما رسميا للسيد ماليت فى الوكالة. هذان الرجلان كانا قد تأثرا بصمود وتحمل وجلد عرابى المحترم طوال أيام احتجازه أسيرًا، وراح الرجلان يقدمان كل ما فـى وسعهما لمساعدة نابير.

كان نابير قد أصاب شيئًا من النجاح مع ماليت فيما يتعلق بوضعه القـــانونى ووضع المحامى الإجرائى إيف Eve، الذى عثر عليه نابير فى القــاهرة، وجـــرى الاعتراف بالاثنين وكيلين عن أصدقاء عرابى، على الرغم من عدم تمكن نابير من الحصول على وعد محدد من ماليت، أو ما هو أكثر من التأكيد المــبهم علـــى أن الدفاع الإنجليزى سيجرى السماح له بالدفاع عن عرابى. كانت كل الطلبات التـــى تقدم بها نابير لمقابلة موكله تتعرض دومًا للإرجاء، إذ كان يجرى إحالة نابير إلـــى رياض باشا، الذى يشغل منصب وزير الداخلية فى الوزارة الخديوية؛ حيث كـــان يجرى دومًا رفض طلب نابير، فى الوقت نفسه الذى كان يجرى خلالـــه التعجيـــل بالمحاكمة، الأمر الذى جعل نابير يوقن بأنه يجرى التلاعب به، على أمل أن تنتهى القضية قبـــل اتخـــاذ قرار بقبـــول الدفاع الإنجليزى.

كانت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد عندما استلمت من اللورد دى لا وور إنذارًا مفاجئًا فى الثانى عشر من أكتوبر؛ وكان اللورد لا يزال على اتصال بوزارة الخارجية: "أنا أرى مما أسمعه، أن حياة عرابى يتهددها الخطر إذا لم تجر اتخـــاذ خطوات فاعلة. والأرجح أنك تلقيت من السيد نابير معلومات حول هذا الموضوع". فى ظل هذه الأخبار السيئة اندفعت على الفور قاصدًا منزل بتون، الذى وجدته فيه، وهذا من حسن حظى، ونظرًا لأن معلومات الرجل كانت متفقة مع ما لـــدى مـــن معلومات، اتفقنا على أن الحكم كله لا بـــد أن يكـــون مـــن الـــشعب، وأن وزارة الخارجية البريطانية يتعين الهجوم عليها مباشرة وبلا هوادة، وأنه لا بد من الضغط على جلادستون وإجباره على إعلان سياسة واضحة. وعلى الفور جلست وكتبـــت رسالة أخيرة إلى جلادستون، وأعربت فيها عن اتهامى جرانفيل، وأصررت علـــى أن الرجل له صلة بهذا الموضوع، كما أفصحت أيضًا عن تعـــاطف الرجـــل فـــى البداية مع الزعيم الوطنى.. ودون أن نشغل بالنا بمسألة الحصول علـــى رد مـــن داوننج ستريت (مجلس الوزراء)، ضمّن بتون ذلك المطلب فيما كتبه فـــى جريـــدة التايمز فى صبيحة اليوم التالى، فى حين قدم شينرى ذلك المطلب واضحًا وكـــاملاً وشد إليه الانتباه من خلال ما كتبه فى المقال الافتتاحى. كان شينرى قـــد أكـــد أن

الحكومة تنتوى أن تبدأ المحاكمة يوم السبت، على أن يـتم النطـق بـالحكم يـوم الاثنين، على أن يتم إعدام عرابى بعد ذلك مباشرة. كان اليوم يـصادف الجمعـة، وعليه لم يكن أمامنا سوى ثلاثة أيام فقط (أحدها يصادف يوم الأحد، وهو يـوم لا تطبع فيه الصحف) يتعين علينا خلالها إثارة المشاعر الإنجليزية العامة على هـذا الظلم المبين. ومن يمن الطالع أن هذه الأيام الثلاثة كانت كافية. أعتقـد أن الـسيد برايت فى هذه المناسبة، وبعد أن عرف طبيعة ما يحدث من الرسالة التى أرسـلتها إليه، توجه مباشرة إلى جلادستون وقال له بصفة شخصية وبأسلوب واضح وبـيِّن، إن التاريخ سيسجل له وصمة عار إذا ما تخلى عـن مبادئـه الإنـسانية وسـمح باستمرار جريمة نكراء من هذا القبيل. بعد ذلك استسلمت لنـا وزارة الخارجيـة، وقبلت دفاعنا بحتمية أن تكون المحاكمة عادلة، وعليه أصدرت الوزارة تعليمـات إلى ماليت بسحب معارضته ومعاملة المحامين المدافعين عن عرابى معاملة طيبة. وكانت البرقية التالية التى وصلتنى من نابير هى بمثابة إعـلان لنجاحنـا: "وجـه جرانفيل ماليت بأن يطلب الدفاع عن عرابى بواسطة محامٍ إنجليـزى. ينتظـر أن تطول الإجراءات".

وجدت أن من الضرورى الدخول فى أدق تفاصيل هـذ العمليـة وبخاصـة المراحل الأولى من محاكمة أحمد عرابى، لأن ذلك هو الطريق الوحيـد لتكـذيب وتفنيد الأسطورة التى راجت فى مصر، لتعطى انطباعًا مفاده أنه كان هنـاك منـذ البداية نوع من التفاهم السرى بين جلادستون وعرابى على إنقاذ حياة الأخير. وأنا أقسم على تكذيبها، والوثائق التى أوردتها على نطاق واسع تؤكد ذلك، وتؤكد أيضًا أن جلادستون كان بعيدًا عن مشاعر الرحمة أو التفاهم مع "كبير المتمـردين"، لأن جلادستون كان قد انضم إلى جرانفيل فى الخطة التى جرى رسمها لإزهـاق روح عرابى، من خلال وكالة زبانية الخديو، وذلك عن طريق محاكمة شكلية، لا تثيـر أى نوع من التساؤلات، من منطلق أن مثل هذه المحاكمة تعد آمن وأسرع وسـيلة لانجاز المهمة بهدوء، كما تعد مثل هذه المحاكمة تبريـرًا لأخطائهمـا الأخلاقيـة الكبيرة التى ارتكباها طول الأشهر الستة الماضية فى مصر.

لم يكن وخز الضمير هو الذى منع جلادستون من المضى فى تنفيذ الخطة إلى النهاية، لكن صوت الجمهور الإنجليزى هو الذى أخاف الرجل وحذره من أن مضيه قدمًا فى الخطة إلى نهايتها سيكون خطرًا على سمعته. هذه هى الحقيقة مجردة بغض النظر عما يقوله المدافعون عن جلادستون طمعًا فى إنقاذ رصيده الإنسانى، وبغض النظر أيضًا عما تصوره الكتاب الفرنسيون الذين كانوا يحاولون إيجاد تفسير للين والتساهل مع عرابى بعد الحرب، وبخاصة أن هذا التساهل بدا للكتاب الفرنسيين وكأنه شىء عسير على التفسير، اللهم إلا باستثناء إذا ما كان تآمر داخلى بين رئيس الوزراء البريطانى من ناحية وزعيم التمرد المصرى من ناحية أخرى.!!

بعد تجاوز هذه المرحلة بالغة الصعوبة لم يكن من الصعب علينا تمامًا تصور أن المحاكمة عند هذه المرحلة يمكن أن تنتهى إلى نهاية سلبية. المحاكمة العادلة في ظل محاكمة علنية، يجرى فيها الكشف عن كومة القمامة الخديوية الآخذة فى الارتفاع، من خلال محامٍ إنجليزى من ناحية والكشف من ناحية أخرى عن الجرائم المنسية، مسألة لا يمكن بل ويستحيل على الخديو توفيق التفكير فيها دون أن يصاب بالرعب والفزع؛ كما ستكشف هذه المحاكمة عن دلائل تدين وتدحض نظرية الأحداث الفائتة التى بنتها الحكومة الإنجليزية وأقامتها على الأكاذيب الرسمية، كما ستكشف أيضًا عجز الحكومة عن انتحال الأعذار للعنف الذى لجأت إليه. لكن الخطر المحدق بحياة المسجونين لم ينته بعد، والمؤشرات تدل على إمكانية الوصول إلى حل وسط إذا لم نستطع الحصول على البراءة. وقد تغيرت الظروف فى القاهرة على نحو ما ذكره نابير فى السادس عشر من أكتوبر؛ وسوف أورد بقية قصة المحاكمة على شكل برقيات ورسائل.

من نابير إلى بلنت، فى السادس عشر من أكتوبر

"يعتقد الناس أن الحكومة المصرية ستلغى المحاكمة نهائيا، وأن المسجونين الرئيسيين سوف يوجهون إلى مغادرة البلاد. وأنا ليست لدى حقائق كافية كى أبنى عليها حكمًا دقيقًا فى هذه النقطة بالذات، لكننى أرى أن ذلك غير مرجح".

وهذه أيضًا برقية من برودلي فور وصوله إلى القاهرة:

من برودلي إلى بلنت، في العشرين من أكتوبر

"اعترف بوريللي Borelli النائب العام في الحكومة المصرية، اعترافًا صريحًا أنه ليس لدى الحكومة المصرية الآن لائحة أو قانون تسير بمقتضاه، لكن الرجل اقترح علينا الالتزام بقانون تسير عليه الإجراءات. كما اعترف الرجل بأن أعضاء المحكمة هم مجرد دُمي وغير أكفاء. والرجل يتمنى لو أنني لا أمس السلطان والخديو إلا بالتوثيق قدر المستطاع".

من نابير إلى بلنت، في العشرين من أكتوبر

"أعتقد أن بوسعنا الآن الحصول على ضمان باطلاعنا على الحقائق كاملة. مسألة السماح للمحكمة بالمضي قدمًا تساوي تمامًا استمرار عرش الخديو".

الخطر الوحيد الذي كان لا يزال علينا مواجهته، كان يتمثل في رغبة غير واضحة بعد لدى وزارة الخارجية، في إلصاق تهمة جنائية، بأحمد عرابي، بحيث تفضي تلك التهمة إلى إعدام الرجل. يكتب لي شينري في الحادي والعشرين من أكتوبر يقول: "يسود بين الرجال المهمين هناك شعور معادٍ له (عرابي) بزعم مفاده أنه كان له دور أو تستُّر على المذبحة التي نصبت في الإسكندرية. وسوف يتضح هذا الأمر ويعرض في أثناء المحاكمة". لم يكن هذا الخطر ذا بال في القاهرة، والمؤكد أن الادعاء لن يلمس هذا الموضوع بأي حال من الأحوال، نظرًا لأن الخديو نفسه هو المتهم الرئيسي في هذا العمل. أبرز ما في أوراق الاستجواب يتمثل في المتاعب التي يلقاها أعضاء المحكمة وهم يحاولون تحاشي الرد على التساؤلات حول هذا الموضوع، وغياب الأدلة التي يمكن استخدامها في تجريم أي أحد من البشر، من ناحية أخرى، هذه النقطة مهمة تمامًا لحكومتنا، أي إثبات عدائها لعرابي، لأنهم استغلوا هذا العداء وبنوا عليه إصرارهم المغرض على

افتعال نوع من الصراع، وإذا ما انتفى هذا العداء أو غاب فسوف يتيـــاوى العـــذر الأخلاقى. هذا الشيء نفسه يمكن قوله فيما يتصل بالدفع السخيف الذى يصر عليـــه جلادستون شخصيا، والذى مفاده أن الراية البيضاء أسيئ استخدامها عنـــد الجـــلاء عن الإسكندرية؛ وقد أصر جلادستون على هذه الفرضية وركز عليها فى خطـــاب من خطاباته، وجعل منها جريمة، على الرغم من أن سحب القوات فى أثناء رفـــع الراية البيضاء أمر مباح طبقًا لأعراف وقواعد الحرب. وفيمـــا عـــدا ذلـــك كـــان المسرح خاليا تمامًا من الخطر، إذ أصبح من الواضح أن جمهورنا الإنجليزى لـــن يسمح بإيقاع عقوبة الإعدام على عرابى لمجرد بعض الأسباب السياسية.

فى ذات الوقت، كانت الأمور تسير سيرًا حسنًا فى القاهرة، ففى اليوم الثانى والعشرين جرى السماح لكل من برودلى ونابير بالدخول إلـــى زنزانـــة عرابـــى ليحصلا منه على وجه السرعة على ذلك الذى قاله لهما ويمكن أن يكـــون أساسًـــا متينًا لدفاع قوى. كان موقف عرابى فى أثناء وجوده فى السجن موقفًـــا محترمًـــا تمامًا، وعلى الرغم من افتقار الرجل إلى الشجاعة البدنية، فإنـــه كـــان صـــاحب شجاعة أخلاقية عالية المستوى، وكان سلوكه يختلف بل وعلى النقيض تمامًا مـــن سلوك الغالبية العظمى من أولئك الذين جرى إلقاء القبض عليهم؛ هـــذه الـــشجاعة الأخلاقية كانت تترك انطباعًا لدى كل أولئك الذين كانوا يلتقون عرابيًا أو يقابلونه. ودون تردد راح عرابى يكتب خلال الأيام القلائل التى تلت ذلك، تاريخا عاما لكل الأحوال السياسية التى عايشها واشترك فيها؛ وقد كتب ذلـــك بطريقـــة صـــحيحة ومقنعة. ولم يكن أقل صراحة فى استنكاره للمعاملة السيئة التى لقيها بعد أن جرى نقله إلى محبسه الحالى، من أولئك الأوغاد زبانية الخديو، الذين كانوا يوفدون فـــى أثناء الليل من قبل سيدهم لكى يعذبوه ويسبوه ويلعنوه. وقد جرت إســـاءة معاملـــة طائفة كبيرة من المسجونين على هذا النحو المشين؛ لكن مع افتقار السواد الأعظـــم من هؤلاء المسجونين إلى الشجاعة الأخلاقية، آثروا عدم الشكوى بصورة واضحة من جريمة، كافية لتوريط صاحبها الجبان الطاغية التى أصبح سيدًا عليهم. لا شيء فى عمليات العزل أكثر إيلامًا من موقف العبودية الذى يقفه الشهود المحلفون مـــن شخص الخديو، الذى كانوا يكرهونه ويحتقرونه منذ شهر واحد فقط. الحادث الأكثر

أهمية يتمثل فى استعادة أهم أوراق عرابى وإحضارها من المكان الذى كانت مخبأة فيه؛ كان عرابى قد أخفى هذه الأوراق فى منزله، ولكنــه وجَّــه بإحــضار هــذه الأوراق وتسليمها لبرودلى. وكان من الصعوبة بمكان جعل ولده وزوجته يوافقــان على عملية البحث - نظرًا لأن خدم الخديو قد زاروهما- لكن أمكــن فــى نهايــة المطاف الحصول على الأوراق والوثائق الثمينة وتم تسليمها إلى برودلى المحامى بواسطة خادم أحمد عرابى سالف الذكر والمدعو محمد سيد أحمد. واتضح أن هــذه الوثائق كانت بالغة الأهمية- إذ كانت تحتوى على الرسائل التى جــرى تحريرهــا بأمر من السلطان وإرسالها إلى أحمد عرابى، وبعض الرسائل الأخرى التى تقــوم على الحلول الوسط وجرى إرسالها إلى أطراف أخرى: أدى الكــشف عــن هــذه الوثائق إلى إثارة الرعب والفزع فى القصر، وأصبحت جميــع احتمــالات إلغــاء المحاكمة أمرًا واردًا.

كتب نابير إلىَّ فى الثلاثين من أكتوبر يقول: "أعتقد أن الحقائق تقــول إننــا حاليا سادة الموقف، وأن الخديو هو وطغمته سيسعدون إذا ما تمكنوا من الروغــان من المحاكمة من خلال تعطيلها قدر المستطاع. إن إخلاص خــادم عرابــى وولاء زوجته له هما اللذان مكنا لنا من الحصول على الأوراق كلها ما عدا ورقة واحدة. هذه الوثائق موضوعة حاليا داخل خزينة فى غرفة بيمان فــى القنــصلية... ولــن تستطيع الحكومة مواجهة دفاعنا. وسوف تحاول الوصول إلى حل وسط، النفى مع الاحتفاظ بكل الممتلكات. وهل هناك أفضل من ذلك؟... هــذه المــسألة ســتجرى مناقشتها والنظر فيها قريبًا".

يجب أن نعرف أن تغير مسار الأحداث فى القاهرة، كان له صداه بل ومــا هو أكثر من الصدى فى الصحافة اللندنية. كانت القاهرة تغص بمراسلى الصحف، وسرعان ما استطاع برودلى جمع كل هؤلاء المراسلين حوله، بحكم أنه كان مــن قبل خبيرًا فى فن الصحافة. كان كرم برودلى (على حسابى الخاص) حاتميا، وكان ذلك الكرم حافلاً بالدجاج والشمبانيا. وأصبح كل من ماليت وكولفن، اللــذين كانــا سيدين فى الماضى، عاجزين عن وقف سيل الأخبار، وبدأت الأدلة تتجلى الواحــد

بعد الآخر، على عدم جدوى النظرية التى فرضاها على الحكومة، والتى مفادها أن عرابيًا هو والجيش وحدهما هما اللذان يعارضان المطالب الإنجليزية وأن الحركة الوطنية ليست حركة عامة. وهنا ذاع صيت كولفن فى وزارة الخارجية على أنه شخص مُضلِّل؛ كما أمكن الوقوف على عجز ماليت وعدم كفايته. وبعد أن اشتط اللورد جرانفيل غيظًا من نجاحنا، وبعد أن أيقن أن الموقف فى مصر بدأ يتحول إلى تشوش وارتباك، وقد فعل خيرًا عندما وضع الأمر برمته أمام اللورد دفرين كى يقوم هو بتسويته. كنت قد تسلمت من بتون مذكرة بخصوص هذا الأمر وهذا التحرك الجديد، وإن أول ما سيقوم به اللورد دفرين فى القاهرة هو الوصول إلى حل وسط فى مسألة المحاكمة. وهنا يجدر بى أن أورد هنا الرسالة التى أرسلتها إلى برودلى فى ضوء الموقف الجديد. جاءت الرسالة على النحو التالى:

من بلنت إلى برودلى، ٢ نوفمبر ١٨٨٢

أود أن أكرر من جديد أفكارى وآمالى فى القيام بالدفاع عن عرابى وعن رفاقه، لأن هذه الأفكار والآمال إذا ما تحققت، ستعود علىَّ بما هو أكبر مما كنت أتصور. الهدف الأول بطبيعة الحال، هو إنقاذ حياة المسجونين، وأعتقد أن هذا الأمل قد تحقق بالفعل، لأن الرأى العام أعرب عن نفسه فى إنجلترا، كما أن التحقيقات المبدئية فشلت فشلاً ذريعًا فى موضوع إضرابات ومظاهرات شهر يونية، كما فشلت هذه التحقيقات أيضًا فشلاً ذريعًا فى موضوع حرق الإسكندرية. كل الدلائل المتيسرة حاليا، وكل الأحكام الصادرة عن القضاء لا توجه أصابع الاتهام إلى أى من هؤلاء المسجونين، ولذا فهم بعيدون عن الخطر. على كل حال، فأنت منذ وصولك، ومن خلال مهارتك وبفعل يمن طالعك، أصبح فى متناولنا وبين أيدينا فيض من الرجال الثقات. وبدلاً من وضع أوراق عرابى فى وزارة الخارجية هى الآن فى حوزتنا، وأنت على حد كلامك اليوم، تقول إن دفاعنا كامل ما دمنا نقف هذا الموقف القوى، الأمر الذى يجعلنا نحن الذين نملى شروطنا. من هنا، نحن لا يمكن أن نرضى بأى شىء أقل من البراءة المشرفة أو التنازل عن

المحاكمة. حاليا مسألة التنازل هذه هي الأرجح. لقد صدرت الأوامر للورد دفـرين بالسفر إلى مصر؛ كما أطلق رئيس الوزراء أمس مجسًا لاستطلاع مسألة إمكانيـة التوصل إلى حل وسط، وفي ضوء كل ما أسمع سيجرى اتخاذ الترتيبات والتـدابير اللازمة لتحاشى الفضائح وتلطيخ السمعة. وعليه فإن مسألة إنقاذ سـمعة عرابـي وشرفه وحياته وحريته تعتمد علينا بالدرجة الأولى، كما أننا نعد مسئولين أيضًا عن حياة وحرية المسجونين السياسيين الآخرين المقبوض عليهم معه.

أعتقد أنه ستكون هناك محاولة قوية من جانب اللورد دفرين لإقناع عرابـي بالموافقة على احتجازه في جزر آندمان، أو في مكان آخـر مـن الإمبراطوريـة البريطانية، بحيث يظل حبيسا سياسيا هناك ويعامل معاملة طيبة لا يحـس خلالهـا بالمعاناة. وأعتقد أيضًا أن اللورد دفرين سيحاول جعل الرجل يتخلى عـن أوراقـه ومستنداته. ويجب ألا نسمح بنجاح أية محاولة من هذه المحاولات، ولا بـد أيـضًا من رفض كل المقترحات التي تتضمن أي من هاتين المحاولتين. نحن لـيس مـن شأننا إنقاذ سمعة السلطان أو سمعة الخديو، وليس من شأننا أيـضًا إنقـاذ اللـورد جرانفيل من الحرج، وأنا سوف أنظر إلى فشلنا كما لو كان أمـرًا فظيعًـا إذا لـم نستطع تحقيق ما هو أكثر مما وصلنا إليه. وأنا أرى أن عرابيًا يتعـين عليـه أن يطالب في المقام الأول بالمحاكمة حتى يبرئ ساحته وشرفه، وأن يثبـت بـصورة خاصة براءة أولئك الذين عملوا معه في أثناء الحرب، أي الأمة كلها، أو في حـال عدم محاكمته يتم سحب التهم الموجهة إليه وإلى رفاقه. ولا بد من صـدور عفـو عام، ويجب أن يحتفظ بأوراقه ومستنداته، على أن يفهم أنه لا يجوز له نشر هـذه الأوراق والوثائق إلا بعد مرور فترة زمنية محددة. ونحن في ظل الظروف الحالية لا يمكننا أن نرفض فكرة النفي رفضا تاما لأني أعرف أن الخديو يمكن أن ينفيـه بناء على مرسوم يصدره بذلك؛ والسبب في ذلك أن دستور عام ١٨٨٢ الصادر في شهر فبراير (الذي آمل أن تكون قد درسته دراسة متأنية، والذي يعد وثيقة مهمـة وقيمة نظرًا لأنه جرى تأكيده من قبل السلطان كما منحه الخديو أيضًا للشعب) يمنع النفي الذي من هذا القبيل. هذه النقطة لا تزال بحاجة للموافقة عليهـا. علـى كـل

حال، يتعين علينا رفض كل شيء يكون من قبيل السّجن. يحق للخديو أن ينفى عرابيًا من مصر، ويحق للسلطان أن ينفيه من الإمبراطورية العثمانية، لكن لا يحق لأى منهما أن يحدد مكان أو طبيعة المسكن الذى يقيم الرجل فيه خارج نطاق مصر والإمبراطورية العثمانية.

كما لا تستطيع الحكومة الإنجليزية بعد أن سلمت عرابيًا للخديو لمحاكمته، استعادة عرابى دون محاكمة، حتى يمكن للحكومة التعامل معه باعتباره مجرمًا. وقد اعترفت الحكومة الإنجليزية بذلك وأقرته بعد أن رفضت استعادة أحمد عرابى. وليس فى وسعها أو فى استطاعتها أن تحبس الرجل إذا ما استعادته بهذه الطريقة، أى دون محاكمة. يتبقى بعد ذلك أنه أصبح واضحًا تمامًا أن الرجل يتعين أن يغادر مصر وهو حر، ما لم تجر محاكمته وتوجيه الاتهام إليه. يزاد على ذلك أنه لا يمكن أن يحرم فى مصر من راتبه ورتبته العسكرية. لكنى أرى أن الرجل يجب أن يتقاعد ويعتزل العسكرية، وأن يكون له معاش صغير يكفيه مئونة الفقر، ومئونة العمل اليدوى. وأنا أرى أن هذه الشروط سوف تحترم، فضلاً عن أننا يمكن أن نصرّ على الوفاء بها. وبغير ذلك، أنا أحثك على حتمية وضرورة الدفاع الضارى وبكل الوسائل، وأنا أعرف جيدًا أنك لن تصغى مطلقًا إلى أى اقتراح يقوم على المحاكمة الشكلية أو الصورية والسماح للخديو بعدم الوقوع تحت طائلة الوثائق مثلما قال بورلى Borelli. لا بد من كشف الحقائق كلها، أو سحب الاتهامات كلها بطريقة مشرفة. وأنا أثق فى تعاونك معى فى الوصول إلى هذه النتيجة، دونما اعتبار لمشاعر القناصل أو السفراء أو الولاة. هؤلاء الناس لا يعنوننا فى شيء، وما يعنينا هو شرف وقضية موكلك. وأنا واثق أيضًا من أن مهاراتك الدبلوماسية ستكون، وبلا أدنى شك، ندًّا لمهارة اللورد دفرين وستكون تلك مباراة عظيمة إذا ما كسبناها. لقد أجبرت ماليت على فعل ما تريده أنت، وأنت ستضطر دفرين إلى فعل الشيء نفسه. وإذا ما حققت ذلك فلن نتساوم بشأن الأتعاب. وأنا أرفق طية رسالة أزكيك فيها عند اللورد دفرين وأعرّفه عليك.

والخطاب التالى من مستر بيمان مترجم ماليت الرسمى وهو شاهد لا يمكن تجريح شهادته ومن ثم لها قيمة تاريخية كبيرة، ثم إنه كان يريد الوكالة البريطانية في القاهرة خلال الأسابيع التى سبقت ضرب الإسكندرية، ولأنه يجيد اللغة العربية منذ كان على معرفة جيدة بتطور أوضاع البلاد أكثر من أى شخص آخر، وقبل أن يرسل لى الخطاب التالى كان قد اختير ليراقب التحقيق نيابة عن ماليت.

من بيمان Beaman إلى بلنت، القاهرة، ٦ نوفمبر ١٨٨٢

... هذا هو يومنا الأخير قبل انعقاد المحكمة والمحاكمة... رجال القصر هنا قلقون تمامًا لمقدم اللورد دفرين، الذى سيصل غدًا إلى هنا. لقد أدى وصول برودلى إلى كثير من الألم بين رجال القصر، لكن هذه هى الضربة الحاسمة. أنا أظن أن اللورد دفرين سيسارع إلى زيارة ومقابلة الخديو توفيق، وعلى حد ما سمعت فإن أذنىّ الرجل مفتوحتان وتصغيان لكل شىء الأمر الذى سيجعل سفارته المؤقتة أكثر علمًا وأكثر معلومات الوكالة. لقد دار بينى وبين المواطنين قبل ضرب الإسكندرية بالقنابل، قدر كبير الحوار؛ مواطنين من كل الطبقات والجاليات والأحزاب والجماعات، ووقفت على حقائق اللعبة كلها من الأطراف الأربعة: الطرف الإنجليزى، والطرف التركى، وعرابى ثم توفيق. هذه المواقف الأربعة مختلفة تمامًا ومتباينة. ونظرًا لأنى ليس من حقى استعمال سلطاتى، ونظرًا أيضًا لعدم استعداد الناس لتقبل الأشياء التى كان يمكن أن أقولها، فقد احتفظت بمعلوماتى لنفسى، لكنى لمّحت للسير شارلز ولسون ببعض الأشياء، بعد أن أصبحت لديه الآن فكرة أفضل عن المسألة المصرية، وذلك على العكس من جميع مسئولينا الموجودين هنا. اللورد دفرين رجل حريص تمامًا، وهو على قدر كبير من الذكاء، وهو صاحب أحكام صادقة ولا يسمح بالانحراف عن ذلك. وعن طريق اللورد دفرين تمكنت من توصيل بعض الحقائق إلى ماليت، وكان يستحيل علىّ قول هذه الحقائق لماليت نفسه. وأنا أعتقد أن ماليت فقد احترامه للخديو. وطوال تعاملنا مع الرجل كان يلتزم العدل والصواب معنا، على الرغم من أن ذلك كان ضد مصالحة

الخاصة... أنت تعرف جيدًا مدى ارتباط الرجل بالخديو، وإنها لكأس مرة يتجرعها ذلك الرجل عندما يتهاوى صنمه محطمًا فى المنزل المنيف الذى شُيِّد له.... وأنـا أرى أن موضوع إبراهيم أغا وحده كفيل بالكشف عن حقيقة الخديو توفيـق. لقـد استمعت إلى القصة كاملة من القصر، وكيف أن التوتنجى Titunji، (حامل غليـون الخديو، قام بتقبيل يد الخديو) وطالبا السماح له بالتفل فى وجوه المسجونين، وهـذا هو الموضوع الذى راح السير شارلز ولسون يتحراه إلى أن توصل إلـى صـدقه تمامًا. ومع ذلك، جرى استبعاده، لأن فيه نشر لقطعة من الغسيل القـذر للخـديو. اقترحت بعد أن حلف الشهود اليمين كذبًا، أن يحلف كل واحد منهم بالطلاق ثلاثـا، وكان السير شارلز ولسون مؤيدًا لذلك، لكن هذه المحاولة جرى وأدها وإسـكاتها. وعائلة صاحب السمو لا تنكر ذلك الآن فيما بين أفرادها. وهذا هو حـال الرجـل الذى جئنا إلى مصر من أجله(٢٩).

"لو لم تكن مهام منصبى هنا تمنعنى من إسـداء النـصح والمـشورة إلـى برودلى لأعطيت الرجل من التلميحات ما يكفى لاستجواب الخديو استجوابًا قاسـيًا وطرده أيضًا. وأنا أتمنى حدوث ذلك. الرجل الأول الذى ينبغى التخلص منه هـو رياض (باشا). هذا الرجل يقوم بدور الشيطان فى مصر. قال ريـاض منـذ أيـام قلائل: (المصريون مثل الثعابين وطريقة منع الثعابين من الانتشار تتمثل فى سحقها بالأقدام. وسوف أسحق المصريين بهذه الطريقة). والرجل يفعل ذلك بالفعل".

كانت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد فى الأسبوع الأول من شهر نـوفمبر، وهو التاريخ المحدد لوصول اللورد دفرين إلى القاهرة. ومن يمن طالعنا نحن الذين كنا ندافع عن قضيه العدالة فى إنجلترا، أن البرلمان فى ذلك العام تصادف أن عقد جلسة فى فصل الخريف. هذه الجلسة جعلت أعضاء عديدين من مجلـس العمـوم

---

(٢٩) يشهد الشيخ محمد عبده على حادث إرسال توفيق لزبانيته لسب وإهانة الزعماء الوطنيين فى السـجن، وكان الشيخ محمد عبده من بين أول من ألقى القبض عليهم، بل إنه كان أيضًا واحـدًا مـن ضـحايا توفيق. سجل الشيخ محمد عبده خبرته فى السجن فى إعلان قدمه للسير شارلز ولـسون فـى التاسـع والعشرين من أكتوبر، لكن هذا الإعلان ليس مدرجًا فى الكتاب الأزرق.

يهبُّون لمساعدتنا - هؤلاء الأعضاء هــم: تــشرشل ولــف، وجورســت Gorst، ولاوسون Lawson، ولابوشير Labouchere، إضافة إلى روبرت بيــرك Robert Bourke، واللورد جون مانرز Manners، وجى. إيفلن Evelyn، واللــورد الحــالى ويمس Wemyss، من المحافظين المعارضين، فضلاً عن عضوين أو ثلاثة أعضاء أيرلنديين. كان بيرسى ويندهام Percy Wyndham، هو عضو المحافظين الوحيــد، الذى صوَّت، من باب مصلحته الشخصية، مع الأقلية التى صوتت بإحدى وعشرين صوتاً، لمقاومة الحرب.

الفصل الثامن عشر

بعثـــة دفـــريـن

أدى وصول اللورد دفرين إلى القاهرة في السادس من نوفمبر إلى أن تتحو الأمور منحًى آخر غير التي كانت عليه. حتى ذلك الحين كان رياض باشا هو وبقية وزراء الخديو الآخرين يفعلون ما يحلو لهم وما يشاءون، بحيث يكون ذلك تحت إشراف ماليت. لكن دفرين كان رجلاً صاحب طابع مختلف، وسرعان ما أوضح للخديو أن وضعه عندما يكون في القاهرة، يصبح وضع السيد لا وضع المستشار. ولم يلق اللورد دفرين بالاً لحكايات الخديو أو حكايات ماليت، لكن الرجل فتح أبواب سفارته لكل من يود إعطاء أي شيء من المعلومات. كما استطاع ماكينزى والاس Mackenzie Wallace، مساعد اللورد دفرين، خلال أيام قلائل الإلمام بشكل عام بكل ما دار في مصر خلال العامين السابقين؛ وكتاب ماكينزى عن مصر هو أصدق الكتب من بين الكتب كلها التي نشرت حول هذا الموضوع. وعلى الرغم من أن دفرين كان رجلاً متكاسلاً؛ فإنه كان سريع الحركة، وكان يعرف تمامًا أسهل الطرق لإنجاز أي عمل من الأعمال الخطيرة التي تنسب إليه.

ومع ذلك، وطوال الأسبوعين التاليين لوصول الرجل إلى القاهرة، وبعد أن تمكن تمامًا من الموقف، كانت عملية محاكمة عرابي تسير بطريقة عشوائية، إذ كانت تتأرجح هنا وهناك بفعل رغبة الخديو في إخفاء الحقيقة من ناحية، وبين عدم رغبته في إطلاق سراح فريسته من الناحية الأخرى. هذه التقلبات والتطورات يمكن تسجيلها على أفضل نحو عن طريق الرسائل والبرقيات التي جرى تبادلها في ذلك الوقت معي أنا، هنا في لندن والسادة برودلي ونابير في القاهرة؛ وسوف تبين هذه الرسائل والبرقيات أيضًا الخطوات المتتالية التي أسفرت عن الوصول إلى حل وسط في نهاية المطاف.

من برودلى إلى بلنت، فى السادس من نوفمبر (ردا على رسالته فى الثانى من نوفمبر):

أنا أتفق معك تماما فى كل ما تقول، وسوف ألتزم الحرص إلى أبعد الحدود. وأنا أحاول الانتهاء من مذكرة دفاع توضح ما يلي:-

(١) نقاء وأمانة أفكار عرابى وأهدافه.

(٢) تعاون توفيق التام معه حتى اليوم الثانى عشر من شهر يوليو.

(٣) اتفاق مع السلطان وموافقته طوال العملية.

(٤) شعبية الحركة الوطنية وعموميتها.

(٥) التشكيل غير القانونى للمحكمة العسكرية.

(٦) سخافة مسألة الراية البيضاء (التى حصل نابير عن إفادة(*) من الدرجة الأولى حولها من لامبتون Lambton).

(٧) طبيعة عرابى الإنسانية غير العادية.

(٨) الإجراءات الظالمة غير العادية التى حدثت إلى حين وصولنا.

(٩) تعذيب المسجونين.

(١٠) خطابات ورسائل توفيق إلى إسطنبول ضد إنجلترا.

(١١) التفنيد المنظم للوقائع. سوف يوجب الإفراج عن المتهمين كلهم. وهذا سر بينى وبينك.

(*) إفادة: شهادة أو أقوال يدلى بها ذو الشأن خارج المحكمة، مشفوعة باليمين، فتحرر حال الإدلاء بها ثم تتلى عليه وتحفظ، ليرجع إليها فى أثناء المحاكمة عند اللزوم. (المترجم)

إن كل ما أخشاه الآن هو أن يطول أجل المحاكمة إلـى حـوالى ثمانيـة أو تسعة أشهر والمصاريف الباهظة التى تترتب على ذلك. عرابى وحـده اسـتدعى ٤٠٠ شاهد... وأنا أنفق بسخاء. أنا أعزم المراسلين. ولقـد جعلـت مـن جريـدة "الإجبشيان جازيت" جهازا خاصا لنا. لقد حولت الرأى العام هنا إلى جانب عرابى وفى صالحه. نحن مضطرون إلى استئجار حوالى عشرة مترجمين بمرتبات تتردد بين جنيه إنجليزى واحد وجنيهين وعشر شلنات فى الأسبوع... غيابى عن تـونس يعنى خسارة كل مالى هناك. كل قضاياى المعلقة هناك جرى إلغاؤها، بما فى ذلك بعض القضايا المهمة. وسوف يبلغك بورك Bourke أن لدى فـى تـونس توكيـل أحصل منه على ٢٥٠ جنيه إنجليزى كل عام وتوكيل آخر أحصل منه علـى ١٠٠ جنيه إنجليزى كل عام... آمل أن تأخذ ذلك كله بعين اعتبارك... كل ما أقوله هـو أن الأمور هنا تعتمد على الانفاق بحرية وليس التبذير. لا تنس أن الجميع يقفـون ضدنا، والناس هنا لا تعمل دون مكافآت... وسوف ينشأ صندوق لنصرة عرابـى. ومحاكمة تيشبورن Tichborne التى دامت تسعة أشهر تعد خير مثال على ذلك. لا تفكر فىَّ وإنما ركز انتباهك وتفكيرك على المصاريف الطارئة... أنا أعمل سـت عشرة ساعة يوميا... نابير لا يقدر بثمن".

من نابير إلى بلنت فى السادس من نوفمبر

يبدو أنك متشكك فى عريضة الاتهام. نحن لم نتسلم بعـد هـذه العريـضة بصورة رسمية. ونحن لا ننتظر من الادعاء إرسال هذه العريضة قبل الانتهاء من أخذ أقوال الشهود. لكن المضمون ورد بشكل عام فى برقية أرسلت إلـى جريـدة "التايمز" وجاء الادعاء على النحو التالى:

(١) إساءة استخدام الراية البيضاء.

(٢) التورط فى المذابح والتخريب الذى جرى فى اليوم الحادى عشر مـن يونية.

(٣) التورط فى إحراق المدينة.

(٤) إشعال الحرب فى أرض السلطان.

(٥) ممارسة أعمال العصيان العامة والتمرد على الخديو والسلطان.

من برودلى إلى بلنت، فى السابع من نوفمبر (برقية)

"إذا كنت غير معنى بالمصروفات فذلك يعنى أن النجاح الكبير أمر مؤكد. أرجو الرجوع إلى رسالتى التى أرسلتها إليك أمس، سوف أسحق توفيق ومن معه سحقا تاما".

من نابير إلى بلنت، فى العاشر من نوفمبر

التقيت اللورد دفرين اليوم، استقبلنى الرجل استقبالاً طيبًا، على الرغم من رفضه الدخول فى الموضوع بصورة مباشرة. لقد تلقى الرجل تعليماته بالفعل، سوف أقابله أنا وبرودلى غدًا.

يبدو أن هناك رغبة فى تجنب الأسئلة حول موضوع التمرد. الحكومة والصحف كلها تمتنع عن الحديث عن صرخة التمرد التى تدعو إلى السخرية، وهذا هو ما يهمنى دون الأمور الأخرى. مسألة التمرد هذه ليست سوى حيلة جرت تجربتها فى كل من أفغانستان والكاب وبعض الأماكن الأخرى. وأى إنسان يستطيع تدمير هذه الحيلة على الفور... مقترحات الحل الوسط لا بد أن تأتينا من الجانب الآخر، ويجب أن تأتينا كتابة، ويجب أن تحتوى على كل ما تطالب به أنت - واقع الأمر أنى أعتقد أن مقترحات الحل الوسط ستكون بمثابة استسلام غير مشروط. سوف أوافيك بالكثير عن هذا الأمر فيما بعد. يجب أن نتأكد من أننا لن نوافق على شىء دون تفاهم معك، وبعد تحرٍ ودراسة دقيقة".

من نابير إلى بلنت فى الخامس عشر من نوفمبر

"أنا أتصور أنك بوسعك تخيل الصعوبات العديدة التى يتعين علينا مواجهتها. أولى هذه الصعوبات تتمثل فى عدم السماح لنا بالحضور فى أثناء استجواب الشهود. نحن لا يكفينا مجرد الحصول على نسخة من أقوال الشهود وإنما يهمنا أيضًا تقديم هذه الأقوال للمسجونين كى يطلعوا عليها ويبدون رأيهم فيها... هناك ١٣٦ شاهدًا سوف يتم إحضارهم للوقوف ضدنا. إضافة إلى ١٢٥ مسجونًا جرى استجوابهم، وسيجرى استخدام أقوالهم ضد بعضها بعضًا. وبعد ذلك سيجرى السماح لكل من يريد، بأن يكتب رسائل للمحكمة، وسيكون الخديو من بين هؤلاء، هو والوزراء أو البعض منهم على حد تقديرى... أقوال الشهود ليست بعد حلف اليمين والقسم الأكبر منها سماعى ومجرد آراء...(مثلا): (هل ترى أنت أن عرابى متمرد؟) (أنا لا أعرف ذلك). (أنت أيها الرجل السيئ الشرير، لماذا لا تعرف؟) (أنا لا أعرف لذلك سببًا، أنا لا أعرف ذلك). (إذن فكر فى الأمر، وتعال غدًا ومعك بيان مكتوب بذلك الذى تعرفه). ويجيء ذلك التعيس فى الغد ومعه بيان مدون يقول إن المسجون المشار إليه متمرد ومحرض.

زد على ذلك، أن الترجمات التى حصلنا عليها ليست صحيحة أو مطابقة للأصول، فضلاً عن الأصول نفسها ليست تسجيلاً صحيحًا لأقوال الشهود أنفسهم...

نحمد الله أنهم حبسوا رجلاً يدعى رفعت. [هذا الرفعت كان سكرتيرًا للحكومة ومديرًا للصحافة]. لو عرفوا الحقيقة لما فعلوا هذا الشيء المدمر لقضيتهم. هذا الرجل لا يعرف الفرنسية فقط وإنما لديه مقدرة أدبية طيبة أيضًا، كما أن لدى هذا الرجل معرفة لا بأس بها بكل تلك الدسائس المتداخلة بعضها مع بعض، ومسألة فك هذه التشابكات تدير الرءوس وتحير العقول. ماذا يمكن أن يحدث لو ظهر أن مظاهرة عابدين فى التاسع من سبتمبر جرى تنظيمها بتعليمات من الخديو باعتبار أن هذه المظاهرة هى أفضل الوسائل لتخليص الخديو من

رياض باشا ووزارته! وماذا يمكن أن يحدث لو أن الناس علموا أن الأعمال الكئيبة التي جرى تدبيرها في الحادي عشر من يونية في القصر، كانت بهدف أن يقوم الإنجليز والفرنسيون بقمع الحركة الوطنية التي لا يمكن السيطرة عليها حاليا أو حتى مستقبلاً!.

كنت أتطلع دومًا إلى عدم مواجهة الحكومة للمحاكمة، وأنها قد تهتدي إلى وسيلة من الوسائل التي يمكن بها تجنب الفضيحة التي سيذاع أمرها بعد المحاكمة. لكني بدأت أظن أن الأمر لن يكون على هذا الحال. وسبب ذلك أن كثيرًا من أصحاب المراكز الكبيرة يتسرعون بدافع من عوامل الثأر، أملاً في إيقاع ذلك الثأر على رءوس أعدائهم. وبعض آخر من الناس يظنون أن بإمكانهم عن طريق الأساليب غير النظيفة في المحكمة، منع وقوع أو حدوث المحاكمة العادلة. وأنا لا يخامرني شك في أنهم سينجحون في ذلك إلى حد بعيد. وهنا أكرر من جديد، أن الوزارة الإنجليزية يجب أن تقلِّب الرأي في هذه المسألة، حتى تتمكن من مواجهة العاصفة، وأن تتهيأ لها فرصة التخلص من الأتراك وربما من توفيق أيضًا. وإذا ما استمرت المحاكمة فأنا لا أملك معرفة مدى المصروفات، لكني أخشى أن تكون المصروفات باهظة".

من نابير إلى السيدة آن بلنت، في السادس عشر من نوفمبر

"بدأ اللورد دفرين، على الفور، بتقديم يد العون والمساعدة لنا. قمت أنا وبرودلي بزيارته بعد يوم أو يومين من وصوله. قدم برودلي بيانًا وافيًا ومحددًا مكَّن الرجل من الوقوف على أسباب شكوانا المتعددة كلها. سلَّمنا اللورد دفرين أيضًا صورًا من الاحتجاجات الرسمية التي تقدمنا بها، وأنا أعتقد أنه سيساعدنا على هزيمة محكمة الحمقى الذين يتعين علينا التعامل معهم.... مراسلو الصحف كلهم، باستثناء بيل Bell، يؤيدوننا ويقفون في صفنا، وبخاصة جريدة "الديلي نيوز". وصل أيضًا منذ وقت قصير السيد والاس Wallace مراسل جريدة "التايمز". وأنا على يقين من أن الرجل سيدخل في مواجهة مع بيل Bell. وأعتقد أن بيل

سوف يُوَبَّخُ على سياسته التى تنظر إلى عرابى باعتباره المتهم الأول. وأنا أرى أن الرجل يستشعر شيئًا من القلق مخافة أن تجرى مساءلته فى المحكمة عن البرقيات التى أرسلها".

وصل ماكينزى والاس، الذى سبق الإشارة إليه، إلى هنا بصحبة اللورد دفرين قادمًا من إسطنبول، التى كان يعمل فيها مراسلاً لجريدة "التايمز"، ثم أصبح بعد ذلك سكرتيرا خاصا للورد دفرين، عندما سافر الأخير ليكون نائبا للحاكم فى الهند. كان الرجل على درجة عالية من الكفاية، وكان يتصرف فى أثناء وجوده فى مصر بطريقة منسجمة مع اللورد دفرين، وهو الذى كتب الرواية الإنجليزية الوحيدة لأحداث عام ١٨٨٢ ذات المغزى التاريخى.

والذى حدث بعد ذلك له علاقة بالمحاولة الأخيرة التى قام بها الادعاء للحصول على شهادة تدين عرابى فى مسالة يمكن أن تكون من المسائل الكبرى، ألا وهى إلقاء القبض على سليمان سامى، الذى كان قائدًا لحرس المؤخرة المصرى فى أثناء عملية إخلاء الإسكندرية، والذى بعد إخضاعه للتخويف والترغيب والترهيب فى السجن، قيل إنه أصبح على استعداد للإدلاء بشهادة مفادها أن عرابيًا هو الذى أمره بإحراق المدينة. هذه المحاولة اليائسة المفاجئة التى كانت تهدف إلى إيقاع عقوبة كبيرة بعرابى هى التى أحدثت أزمة فى القاهرة، وأسفرت كما سنرى فيما بعد عن الحل الوسط الذى اقترحه اللورد دفرين.

من برودلى إلى بلنت فى السابع عشر من نوفمبر

"هناك محاولة تجرى لجعل سليمان بك يتورط مع عرابى. وقد حيكت هذه المؤامرة على نحو جعل سليمان يعترض على كل الشهود الذين جرى استدعاؤهم لإثبات الشىء نفسه، لكنى أعتقد أن هذه المحاولة تمت عند منتصف الليل، أو فى جلسة سرية فى أثناء غياب ولسون... حاول ميادنسة وزارة الخارجية، اللورد دفرين منسجم ونستطيع الحصول على الكثير عن طريق الكلام الطيب".

من بيمان إلى بلنت فى السابع عشر من نوفمبر

"أنا فقط أكتب لأقول.. إن الأمور تمضى على أحسن ما يرام. الشهادة التى أدلى بها سليمان سامى، والتى يبدو أنها أفرحت الادعاء، لا تساوى خردلة، فقد جرى اختراع هذه الشهادة، بإيحاء من المناسبة نفسها، وهذه الشهادة ليست مؤيدة من الشهادات السابقة. وتتمثل المشكلة كلها فى خروج المسجونين بلا محاكمة، وبلا تهيئة للفرصة وأتاحتها لهم لكى يتم الاستماع إلى دفاعهم. أنا على قناعة من أن الحكومة هنا تبذل كل ما فى وسعها من أجل قمع وكبت إجراءات التقاضى، نظرًا لأن الحقائق التى سيسفر عنها الاستجواب ستطول كل من هم فى السلطة فى الوضع الراهن، كما سيكشف هذه الاستجواب أيضًا عن بعض الحقائق الكريهة عن الخديو نفسه. هذا السبب الأخير هو الذى سيجعل حكومتنا تهادن عرابيا نظرًا لأن المحاكمة سوف تؤكد أن الوغد أو النَّذل الأكبر فى مصر هو ذلك الرجل الذى جلب لنا جيشًا كبيرًا إلى هنا ليسنده ويدعمه. أنا شخصيا لا أشك أن الخديو هو وعمر لطفى هما اللذان دبرا مذبحة الإسكندرية لكى يكيلا لعرابى ضربة قاصمة، وبخاصة أن الرجل أعلن عن مسئوليته عن الأمن العام. لدى بعض الأدلة التى تجعلنى شبه مقتنع بذلك، لكن لم يحن الوقت بعد للكشف عن هذه الأدلة".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الثامن عشر من نوفمبر

"أعتقد أن الوصول إلى حل وسط أصبح أمرًا ممكنًا. لا تهاجم وزارة الخارجية. السرية التامة مطلوبة".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى العشرين من نوفمبر

"لندن تتفاوض مع اللورد دفرين. تضاءلت رغبة الحكومة المصرية فى الوصول إلى حل وسط اعتقادًا منها أن الرأى العام فى إنجلترا تغير بناء على شهادة سليمان سامى الزور".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الحادى والعشرين من نوفمبر

"أزمة طاحنة على وشك الوقوع. أصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون على نية إعدام عرابى، ابق فى لندن".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الحادى والعشرين من نوفمبر

"ليس لدى ما أعبر به عن السلوك المشين للحكومة المصرية. الحكومة تتحدى أسلوبنا الإجرائى، وتقول إنها لا يعنيها أى شىء، نظرًا لأنها تتعامل دبلوماسيا فى مسألة إعدام عرابى".

من نابير إلى بلنت، برقية، فى الحادى والعشرين من نوفمبر

"نحن وحدنا الذين نقاوم قوة الحكومة المصرية بكاملها، على الرغم من اعتقادى أن اللورد دفرين سيهب لنجدتنا. الحكومة تحاول إعدام هؤلاء المسجونين بحكم من القضاء، ومقاومتنا لأحابيل الحكومة تستغرق منا وقتا طويلاً. ولسون هو ودوفيرن يساعدوننا، لكن الحكومة المصرية متعجلة وواثقة. نحن بحكم الضرورة أبطأ من الحكومة وأكثر حرصًا منها".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى السادس والعشرين من نوفمبر

"الحكومة المصرية تقترح محاكمة عرابى على حدة. أبرق لى برأيك فى هذا الأمر".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى السابع والعشرين من نوفمبر

"خطاباتنا لك نشرح لك فيه الموقف كاملاً. هناك جدل حول مسألة ما إذا كان عرابى، ومحمود سامى، وطلبة سيوافقون على الاعتراف بالاتهامات الرسمية

بالتمرد ومواصلة الحرب على العكس من أوامر الخديو، الحكومة المصرية سوف توافق على النفى أو الاعتقال إلى الكاب فى رأس الرجاء الصالح، أو فى أى مكان آخر، ومجرد النفى البسيط أيضا لبعض المتهمين، والعفو عن الأغلبية الساحقة. أرجو أن يكون ذلك سرًا دفينا بينى وبينك فى الوقت الحالى. وأنا ونابير نفضل الحل الوسط نظرا لصعوبة الجهود المطلوبة لدرأ تهمة حرق الإسكندرية، إلخ".

من بلنت إلى برودلى، برقية، فى الثامن والعشرين من نوفمبر

"أنا لا أوافق على ما أشرت إليه، أنا لا أوافق على موضوع "الكاب"، لكننى سوف أتصل الليلة ببعض الأصدقاء بشأن المبالغ المطلوبة. موقفنا السياسى قوى تماما. سأوافيك بالرد المحدد فيما بعد".

من برودلى إلى بلنت، رسالة، فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٢:

سرى وعاجل جدا.

عزيزى بلنت،

أنا أستنفر فيك حرصك كله وفكرك الهادئ، وحسن تصرفك وأنت تقرأ هذه الرسالة. لقد التقيت اليوم اللورد دفرين لقاءً مطولاً. الرجل ودود للغاية. الدوسيه أمامنا. ليست أمامنا صعوبات سوى مسألة حرق الإسكندرية. وفيما يتصل بهذا الأمر وليس هناك ما يثبت أن عرابيا أمر بالإحراق، ومع ذلك تظل هناك بعض الحقائق الكريهة مثل:

(١) عدم بذل أى جهد لمنع انتشار الحريق ومنع السلب والنهب.

(٢) استمرار صداقته مع سليمان سامى بعد ذلك.

(٣) عدم معاقبة المتهمين.

(٤) شراء كميات كبيرة من البترول.

(٥) الطريقة المنظمة التى أحرق بها الجنود المدينة.

هذه هى العقبة. ألم يكن بوسع عرابى وقف هذه العملية كلها؟ يزاد على ذلك أن بعض خطب عرابى النارية السابقة توهم بالدعوة إلى الإحراق.

إذا ما ثبت أن عرابيًا كان مذنبًا فى واحدة من هذه الاتهامات الخاصة بالتمرد (أى مواصلة الحرب، على سبيل المثال، رغمًا عن أوامر الخديو) فذلك يعنى نفى الرجل.

سينفى إلى رأس الرجاء الصالح بشروط تسمح له بما يكفل إعاشته. وأنا بوسعى توفير وتحقيق هذه الشروط له، ولمحمود سامى وطُلبة. أما بقية المتهمين فسوف يعاقبون بالنفى البسيط، أو العفو عنهم. هل أفكر فى تأمين البدل، أو التضحية بالممتلكات والاحتفاظ بالرتبة العسكرية؟

فى مواجيه ذلك كله، سنحتاج إلى محاكمة طويلة الأجل، وهناك أيضًا احتمال تغيير الرأى العام، وهناك أيضًا المصروفات والحقائق الخمسة التى سبق الإشارة إليها.

"إذا ما كشفت عن كلمة واحدة من هذا الكلام فسوف تتسبب لى فى ضرر لا يعلمه إلا الله. فكر مليًا فيما قلته لك ويجب ألا يغيب عن بالك مسئوليتنا الخطيرة والكبيرة. اللورد دفرين شخصية لطيفة. أرجو أن ترسل برقية على النحو التالى: إذا كنت تقول: (أنا أقبل هذا المبدأ. توصل إلى أفضل الشروط الممكنة)، فأبرق إلينا بكلمة "سلام" وأنا أرى أن هذا هو المسار الأفضل. أما إذا قلت: (واصل- فذلك يعنى عدم قبول الحل الوسط)، قل: "حرب".

أنا على استعداد للقتال قتالا رجوليا إلى النهاية. لكنى أترك الأمـــر برمتـــه لك- لكن أرجوك أن تتدبر تمامًا الأمور الطارئة كلها".

المخلص جدًا

أ. م. برودلى

من نابير إلى بلنت، رسالة، فى السابع والعشرين من نوفمبر

"القاهرة فى السابع والعشرين من نوفمبر أعام ١٨٨٢

عزيزى بلنت،

أنا آسف أشد الأسف لأن المسئولين عن البريد عرفوا فحوى رسائلنا، لأنهم على حد علمى، فتحوا رسالتك المسجلة الأخيرة إلىَّ، والتى تسلمتها يـــوم الجمعـــة الماضى. كانت تلك الرسالة تحتوى على اتهامات بوريلى Borelli، ومعها مـــذكرة قصيرة منك. وأنا لا أظن أن شيئًا كان غير عادى. وسوف أرسل هـــذه الرســـالة بالبريد العادى إلى السيد هـــ. هـــ. أسكويث تمبل Asquith Temple على أمـــل أن تهرب من رقابتهم. لقد احتججت بالفعل على فتح الرسالة، لكن لك أن تتصور أنهم سيغيرون من أساليبهم. وأنا أعرب عن أسفى أيضًا لعدم تمكنـــى مـــن الاحتفـــاظ بصور من رسائلى إليك حتى يمكننى الرجوع إليهـــا. يجـــب ألا تنـــدهش إذا مـــا وجدتنى أكرر نفسى كل يوم. أنا لا أستطيع أن أحكى لك كل الألاعيب والحيل التى يحتالون بها علينا، نظرًا لأن هذه الحيل والألاعيب تحتاج إلى مجلـــدات. الرســـالة جرى فتحها بالفعل عن طريق شقها طوليا من فوق الختم، ثم جرى لصقها بالصمغ مرة أخرى. لقد فعلوا ذلك بمهارة فائقة، لم يكن ممكنا أن ألاحـــظ ذلـــك لـــولا أن الصمغ المستخدم لم يكن موضوعًا بطريقة محكمة. وعليه أمكن فتح الرسالة مـــن مكان الشق المذكور، وعلى الفور وجدت الصمغ فى المكان الذى يتعين ألا يكـــون

فيه. سوف أرسل لك مذكرة قصيرة بالبريد المباشر حتى لا تندهش من تأخير تسلم هذه الرسالة إليك. وعلى الرغم من أننا كنا نعمل بجد منذ آخر رسالة أرسلناها إليك، فأنا لا أرى أن شيئا مهما قد حدث باستثناء السماح لنا بالدفاع عن محمود سامى، الذى التقيناه مرات عديدة. لا يزال طٌلبة يعانى من الاضطراب العصبى، وأعتقد أيضًا أنه يعانى من أزمة ربوية. أنا لا أعرف إن كان سيموت أم لا، لكننى فعلت كل ما فى وسعى كيما يحصل على الرعاية الطبية السليمة والمناسبة، فقد جرى تغيير غرفة محبسه، وأصبح معه شخص مساعد، وسرير عال إذا ما أمكن تحقيق ذلك.

هذه الشهادة الأخيرة فى مسألة حرق الإسكندرية لم تصل إلينا إلا عن طريق وسيط الإجبشيان جازيت، وقد تكون هذه الشهادة صحيحة أو غير صحيحة. وهى ليست أساسية بحد ذاتها، لكنها تضفى شيئًا من الألوان على اكتشاف شىء ليس فى صالح المتهم فى هذه المسألة. وهنا يصبح الأمر غاية فى الأهمية إذ لا مخرج منه غير الذى تنتظره المحكمة العسكرية. ليس هناك شك فى قدرتنا على تفنيد هذه الشهادة، وليس هناك شك أيضًا فى قدرتنا على دحضها من خلال الاستجواب. وفيما يتصل بتهم التمرد ومذبحة اليوم الحادى عشر من يونية، فنحن قادرون على تسخين الجو بالنسبة للادعاء، لكن الأوساط العالية مصممة على الإعدام إذا ما قررت المحكمة العسكرية أن المتهم مذنب. تصور لو أن المحكمة العسكرية قضت (وأنا هنا أتكلم حاليا عن رئيس المحكمة) بأن المتهم مذنب، فإن الحكومة الإنجليزية وحدها هى القادرة على إلغاء هذا الحكم. أنا أرى أن من الخطورة بمكان الوثوق بالمحكمة العسكرية فى مسألة فحص الشهادة والطريقة التى تم بها الحصول على هذه الشهادة. وأتصور أن هذا الأمر سيجرى التخلص منه على وجه السرعة فى وزارة الخارجية، وأنهم سيتركون السجين للمحكمة، ويعلنون أن كل شىء جرى اتخاذه من أجل ضمان محاكمة عادلة، وأن وزارة الخارجية لا يمكن لها التدخل فى الحكم الصادر بعد أن هيأت الفرصة كاملة للدفاع. يضاف إلى ذلك أن الأكثر ترجيحًا هو أن تسمح وزارة الخارجية بصدور حكم من أى نوع كان. لأن مثل هذا الحكم سيكون له تأثير خطير على المتهم. وبعد الدراسة المتأنية فإننى لا أنصح المسجون بالوثوق فى المحاكمة إذا ما كان لديه بديل آخر. وإذا كانت هناك

مساومات بشأن نفيه، فى ضوء التأمين الكافى، وتوفير الإعاشة، فأنا أحبذ بشدة قبول مثل هذه الشروط. وأنا هنا أوجز فأقول: إذا ما أقرت المحكمة بأن المتهم مذنب، فإن نوعا من العقاب (ربما الإعدام، وهذه عقوبة خطيرة) يمكن أن يترتب عليه: فى حال البراءة، سيكون أمام المتهم فرصة النفى الاختيارى دون ضمان لمعاشه فى منفاه، أو البقاء فى البلاد تحت رحمة الحكومة. وإذا ما غادر المتهم البلاد بناء على حل وسط سيجرى سحب الاتهامات كلها ما عدا تهمة التمرد، وسوف يحصل على ما يجعله يعيش حياة معقولة فى مكان مناسب. وأنا لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن هذه التسوية مقبولة من الجميع، باستثناء رياض باشا، كما أن دفرين يحبذ هذا الحل الوسط ومسألة النفى".

أعطنا رأيك، وصدقنى فيما أقول،

المخلص إلى الأبد،

مارك نابير.

"**ملاحظة مهمة:** ليس هناك حال أفضل مما نحن عليه الآن فى هذه القضية. من الناحية القانونية، ومن الناحية المشينة التى جرى تداول القضية من خلالها. لكن هناك الأخطار والاعتبارات التى سبق الإشارة إليها. وأنا أرى أن برودلى أدار مختلف المناقشات مع كل من المحكمة واللورد دفرين بأكبر قدر ممكن من الطاقة والمهارة والعدل. قانون القضية فى صفنا، لكن هذه القضية سيحسمها مجلس الوزراء وليس المحكمة. بإمكاننا الدفع بالسماع، ونظرا لأنى لم تتح لى فرصة دراسة أقوال الشهود كلهم، فأنا لا يمكن لى الاعتماد على هذا النوع من الدفوع".

من برودلى ونابير إلى بلنت، برقية، فى الثامن والعشرين من نوفمبر. الساعة ٧,٤٢ مساء

"لقاء طويل مع اللورد دفرين. أرجوك أن توجهنا إلى الحصول على أفضل الشروط الممكنة نحن نعلم أن التأخير أمر قاتل. يجب أن تثق فى أحكامنا وتقديراتنا. معاونة وزارة الخارجية أمر لا يمكن الاعتماد عليه. اللورد دفرين ميّال

إلى تجاوز تعليماته فيما يتصل بنا. دفرين هو الذى يحكم الحكومة المصرية. دفاعنا عن قضية إحراق الإسكندرية أمر تدور من حوله الشكوك. من هنا فنحن نشعر بالقلق. اغتنم اللحظة الحاضرة. مساعى اللورد دفرين الحميدة أمر ضرورى جدا. أبرق لنا على الفور بالتوجيه الكامل. سنلتقى دفرين غدا عند الساعة العاشرة".

برودلى، نابير.

من نابير إلى بلنت، بنفس التاريخ

"أقسم لك بشرفى أنى موافق بشدة على هذه البرقية المرفقة. نحن نحتاج إلى اختيار حاسم وواضح. ولا حظ أن مصالحنا الشـ ـية تتعارض مع ما نطلب".

نابير، خاص.

من بلنت إلى برودلى، فى الثامن والعشرين من نوفمبر، عند منتصف الليل

"لا يمكن أن أوافق على الشروط إلا إذا كان النفى مشرفًا. النفى وليس الاعتقال وأن يكون النفى فى حدود هذه المناطق: عدن، مالطة، قبرص".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى التاسع والعشرين من نوفمبر

"أعطانا عرابى تفويضا مكتوبا بالتصرف مع اللورد دفرين بطريقة منسقة؛ ودفرين يرى أن عرابيا يجب عليه أن يدافع عن اتهامه بتهمة التمرد الرسمى، على أن يتم إسقاط باقى الاتهامات. الحكم الصادر سيقصر العقاب على النفى- سيكون النفى من النوع البسيط بناء على كلمه شرف- سيكون النفى فى مكان طيب وبوسعك تسوية ذلك مع وزارة الخارجية- ربما يكون النفى إلى جزر الأزور Azores. سيمنح بدلات كافية، وتعويضا عن الممتلكات التى ستضيع بسبب الحكم.

الأرجح أنك لا تعرف صعوبة تنفيذ تهمة إحراق الإسكندرية وفى الحصول على الشهود المؤيدين للدفاع. وزارة الخارجية غير ميَّالة إلى التدخل فى أى حكم مصرى إذا كان أقل من الإعدام – أى إذا كان الاحتجاز لفترة طويلة في السجون المصرية. أنا على قناعة بأن النتيجة النهائية ستكون بالغة السوء، وأخشى المسئولية الكبيرة وأخاف منها، لأنى على علم بما آلت إليه الأمور كليا. أنا على ثقة من أنك ستترك لنا الخيار، حتى نتجنب الكارثة المحتملة".

من بلنت إلى برودلى، برقية، فى التاسع والعشرين من نوفمبر. الساعة ٣ مساء

"رجعت إلى اللورد دى لا وور. نحن نوافق على ترك المسألة لتقديركم وذلك بناء على البرقية التى تلقيناها منك الآن".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الثلاثين من نوفمبر

" كل شىء يسير على ما يرام. حاول التفاوض بالتنسيق مع اللورد دى لا وور، حول مكان النفى– النفى إلى جزيرة فيجى أمر مطروق. ومتفق عليه فى تقديرنا".

من بلنت إلى برودلى، برقية، فى الثلاثين من نوفمبر الساعة ٢,٣٠ مساء

"أرفض فيجى أو جزر الآزور. أصر على بلد إسلامى حفاظًا على حياة الرجل الدينية. لن يرفضوا هذا الطلب. سوف أتشاور مع شينرى. اللورد دى لا وور غير موجود هنا حاليا".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الأول من ديسمبر

"اللورد دفرين يتصرف تصرفًا رائعًا. وهو يقترح قيام اللـــورد دى لا وور بتسوية مسألة النفى هذه مع وزارة الخارجية. المسجونون راضون عن ذلك تمامًا".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الثالث من ديسمبر

"انتهت محاكمة عرابى. راجع جريدة "ستاندارد" للوقـــوف علـــى الروايـــة الصحيحة. نفذت الحكومة المصرية الالتزامات كلها حرفيا".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الرابع من ديسمبر

"عرابى مسرور من هذه النتيجة ويشكرك شكرًا جزيلاً- وهو ميـــال إلـــى رأس الرجاء الصالح. اللورد دفرين حلو المعشر".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الرابع من ديسمبر، الساعة ٤,٥٠

"أنا مندهش لأنك لم تبرق لى. اكتمل النجاح. الإنجليز المستوطنون هنا غاضبون".

من بلنت إلى برودلى، برقية، فى الرابع من ديسمبر

"تهنئة الجميع. يقول اللورد دى لا وور إن مسألة النفى إلـــى أراض إنجليزيـــة متروك للورد دفرين. أنا لا أتصور أن رأس الرجاء الصالح مكان مناسب. مـــا رأيـــك فى جبل طارق أو جرنيسى Guernse؟ حاول التشاور مع عرابى فى هذا الأمر".

من برودلى إلى بلنت، برقية، فى الرابع من ديسمبر

"أشكرك على برقيتك الرقيقة".

* * *

سوف تلاحظ من البرقيات السابقة أني وافقت وبلا تردد على الحل الوسط الذى اقترحه اللورد دفرين. نحن فى هذه اللحظة نتمتع بوقوف الرأى العام الإنجليزى إلى جانبنا، وأنا أعرف أن وزارة الخارجية لم يكن أمامها سوى الموافقة على أى شرط نشترطه عليها بسبب ذلك، وأنا كنت غير راضٍ تمامًا عن أن نقوم نحن بالاعتراف بتهمة التمرد. وفى الوقت نفسه، لم يكن بوسعى فى ظل وجود برقيات برودلى وبرقيات نابير، سحب موافقتى. لقد كانت المسئولية كبيرة. وكانت تشغلنى أيضًا مسألة التكاليف والمصروفات. صحيح أن صندوقا عاما جرى افتتاحه وجلب لنا أسماء لها قيمتها. لكن المبالغ الفعلية التى أودعت فى الصندوق لم تصل إلا إلى مائتى جنيه إنجليزى فى حين وصلت فاتورة برودلى إلى ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى. استمرار المحاكمة لمدة شهر بعد ذلك يعنى إنفاقا أكثر مما كنت أتوقعه فى نزاع سياسى لست أنا طرفًا فيه. وعليه تشاورت مع اللورد دى لا وور، ومع روبرت بورك بصفة خاصة، الذى سبق الإشارة إليه وتحدثت معه، والذى حذرنى من هشاشة الرأى العام وأن الاعتماد عليه ليس مضمونًا، ونصحنى بالموافقة. أذكر يوم أن كنت أتمشى مع الرجل فى ميدان مونتاجو Montagu، وهى المنطقة التى يسكن فيها، ورحنا نتحدث سويا، وكنت قلقًا وحائرًا لمدة نصف ساعة، قبل أن أقتنع وأسلم تمامًا بما قاله الرجل. وعليه قمت فورًا بإرسال برقية الموافقة، وبعدها، نجحنا بعد جدل، فى الحصول على موافقة تقضى بأن يكون منفى عرابى هو جزيرة سيلان، ذلك المنفى التقليدى لأبينا آدم عندما طرد من الجنة. لم يحدث لأى أحد أن نفى إلى هذا المكان.

من سوء الطالع أن الشروط الدقيقة التي جرى التوصل إليها مع اللورد دفرين لم يجر تدوينها بواسطته، وتلك نقطة كان ينبغي على برودلى أن يراعيها حتى يكفينا مئونة المتاعب الكثيرة وسوء الفهم الذى ترتب على ذلك. هذا الإهمال أدى إلى أن تقوم الحكومة المصرية بتجريد المسجونين من رتبهم العسكرية، وهذا شيء لم يرد فى روح الاتفاق الذى أقره اللورد دفرين، على الرغم من أن هذا التجريد كان مترتبًا على الحكم بالإعدام سابق التجهيز عن تهمة التمرد. ترتب على ذلك أيضًا نزاع حول المبلغ الذى سيصرف تعويضًا عن مصادرة الممتلكات. يبدو أن برودلى كان قد بالغ كثيرًا أمام موكليه فى هذه المسألة. وأنا شخصيا أرى أن المتهمين لم يعاملوا معاملة سيئة من هذه الناحية، نظرًا لأن ممتلكات كل منهم كانت ضئيلة، كما سمح لهم بالاحتفاظ بممتلكات زوجاتهم. الوحيد الذى عانى معاناة كبيرة هو محمود باشا سامى، الذى كانت له ضيعة كبيرة ضاعت منه هباء. وفيما يتعلق بعرابى، كانت كل ممتلكاته الدنيوية، بالإضافة إلى أثاث بيته المستأجر، وبعض الخيول فى إسطبله، تتمثل فى ثمانية أفدنة من الأرض الجيدة، ورثها عن والده فى قريته، التى راح يضيف عليها فى مناسبات مختلفة بعض الأراضى البور من حافة الصحراء، إلى أن وصل الرقم إلى حوالى ستمائة فدان، دفع عرابى ثمنها من راتبه فى أيام الرواج والازدهار. هذه الأطيان لم تكن تساوى، يوم أن جرت مصادرتها أكثر من ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى أو ٣٠٠٠ ، وسبب ذلك أن الأرض البور فى ذلك الوقت كانت تباع بسعر ريالات قليلة للفدان الواحد، يضاف إلى ذلك أن عرابيا لم يكن لديه متسع من الوقت كى يستصلح هذه الأرض ويحسنها[٣٠].

---

(٣٠) جرى أخيرًا تقديم مطالبة من قبل عرابى لتعويضه عن هذه الأراضى، وقد وردت هذه المطالبة فى التماس قدم إلى الملك إدوارد، هذا الالتماس يعد وهمًا كاملاً من جانب عرابى، ويجانب الحقيقة. وكان واضحًا من ناحية أخرى لمن يعرف عرابى أن الرجل أصبح يعانى من خرف شيخوخى لا علاج له. السهو البشع يتمثل فى أننا لم نطلب تحديدًا دقيقًا لمعنى العفو العام، ومن هنا جاءت الاتهامات التى اعتبرت تهمًا جنائية.

من بين النقاط التي جرى الجدل حولها، لكن لم تعد لها أهمية، كلمة الشرف Paroles، وهل أعطى المسجونون هذه الكلمة للحكومة المصرية أو الحكومة الإنجليزية؟ لكنى لا أود أن أشغل نفسي، سوى بالقول: إن الحكومة الإنجليزية بعد أن حققت هدفها وجعلتنا نعترف بتهمة التمرد، الأمر الذى برر تدخلها فى مصر، لم تقدم يد العون والمساعدة للمسجونين التعساء الذين وجدوا أنفسهم تحت ذرائع مختلفة مستبعدين من العفو، الأمر الذى أخضعهم لكثير من الظلم بسبب سلطة الخديو المطلقة. هؤلاء المسجونون ينتمون إلى فترة غير الفترة التى أكتب عنها حاليا، أقصد أنهم ينتمون إلى فترة الاحتلال الدائم، ولا يمكن أن أدخل فى تفاصيل تتعلق بهؤلاء المسجونين فى مذكراتى الحالية، والتى أوضحت دورى الواضح البيّن فى أحداث الثورة إلى آخر مدى وأن هذا الدور كان شخصيا تماما.

وأنا عندما أستعرض عملى فى مصر خلال تلك الفترة بنجاحاته الباكرة وفشلى أخيرًا فى الحصول على معاملة طيبة من جانب الحكومة الإنجليزية للحكومة الوطنية، أجدنى لا أندم تمامًا على الطريق الذى سلكته. صحيح أنى ارتكبت أخطاء كثيرة، كما أحس أيضًا بمسئوليتى الكبيرة عن التصميم الذى جعل الوطنيين يخاطرون بمصير بلدهم فى معمعة المعركة. لكننى ما زلت أرى أن مصيرهم كان يمكن أن يكون أسوأ مما هو عليه لو لم يخوضوا المعركة، واستسلموا للضغط الأوروبى. فى أضعف الأحوال، استطاع المصريون بما فعلوه أن يجعلوا العالم يستمع إليهم، وإذا كان هناك اهتمام بمظالم الفلاحين، فإن هذا الاهتمام يرجع أولاً وأخيرًا إلى إصرار عرابى وصموده، وقد شجعت أنا ذلك الإصرار عندما قبلت مبادئهم السياسية، حتى وصل الأمر إلى حد الحرب. هذا الإصرار هو الذى جعل بريطانيا تصغى وتستمع إلى شكاواهم، وإن لم يستطع هذا الأمر منع بريطانيا من حرمانيم من حريتهم السياسية، فإنه اضطرها إلى علاج الكثير من مظالمهم وشكاواهم المادية.

ما الذى يحمله المستقبل لمصر، هذا أمر لا أعرفه. لقد أصبحت مصر ثرية فى النفوذ tutelage الإنجليزى، وعلى الرغم من أنى لا أعد الثروات مرادفًا لرفاه

الأمة، فإن الإنجليز كانت لهم هذه القيمة في مصر في أضعف الأحوال، هذا يعني أن الإنجليز مكنوا سكان النيل الوطنيين من الوقوف في وجه الأجنبي باعتباره مالكًا للأرض. وما بقي هذا الإحساس، وما بقيت هذه الوقفة، ستبقى الأمة حية، وسيأتي اليوم الذي سيعود فيه الحكم الذاتي إلى الفلاحين، وعندها يتبدى لهم أن الصراع المسلح الذي دار في عام ١٨٨٢ كان، في حقيقة الأمر، بداية لحياة وطنية لهم. الوطنية، تلك الحياة التي ستمجدها حوليات هؤلاء الفلاحين. سوف أعلق آمالي كلها على مجيء ذلك اليوم الذي يتحقق فيه التحرر النهائي، لكن الأرجح أني لن أعيش حتى أراه[٣١].

لو استمرت حياتي سنوات قليلة، فأنا أنوي الاستمرار في كتابة مذكراتي، وسوف يتضمن ذلك أشياء كثيرة مهمة بالنسبة لمصر، على الرغم من أن هذه الأشياء لن يكون لها قيمة تاريخية مثل الرواية التي نحن بصددها هنا. هذا الكتاب سيكون مستقلا، وعليه سوف أتركه على هذا الحال وأنا أسف على ذلك. كان مفترضًا أن أضمن هذا الكتاب شيئًا عن بعثة اللورد دفرين الخاصة بالتعمير وإعادة البناء، وأضمنه أيضًا شيئًا آخر عن الجهود الضعيفة التي بذلها جلادستون لعلاج الخطأ الذي ارتكبه في حق قضية الحرية، وعن سمعة الرجل باعتباره طيبا. لكن ذلك، إذا ما قمت به، سيحملني إلى آفاق بعيدة، ولذلك أنا أوثر إنهاء روايتي عند الحد الذي وصلنا إليه حاليا، أي نهاية عام ١٨٨٢ المليء بالأحداث. وفي يوم من الأيام الأخيرة في هذا العام وصلتني رسالة ثانية من غوردون، يتحدث فيها عن الحرب وعن قمع الحرية في مصر، ويقتبس من الشعر ما يلي:

"عندما ترى القمع والظلم يحيق بالمساكين والفقراء، فلا تتعجب من ذلك، لأن القادر العالي يرى ذلك ويقدّره، والعالون يبجلون ذلك".

(تمت)

---

(٣١) كتبت هذا الكلام عام ١٩٠٤.

الملاحق

الملحق رقم (١)
سيرة عرابى الذاتية

رواية عرابى عن سيرته الذاتية وعن الأحداث التى وقعت فى عامى١٨٨١- ١٨٨٢، مثلما حكاها لى، أنا ولفريد سكاون بلنت، باللغة العربية، أمس الموافق السادس عشر من مارس من عام ١٩٠٣، فى مزرعة الشيخ عبيد.

وُلدت في عام ١٨٤٠ فى قرية هرية، بالقرب من الزقازيق فى الشرقية. كان والدى شيخًا للقرية، وكان يمتلك ثمانية أفدنة ونصف الفدان من الأرض الزراعية، وقد ورثت هذه الأرض عن والدى وزدت عليها بصورة متدرجة، عن طريق الادخار من مرتبى، الذى وصل فى وقت من الأوقات إلى حوالى ٢٥٠ جنيهًا إنجليزيًا فى الشهر، إلى أن وصل إجمالى عدد الأفدنة إلى حوالى ٥٧٠ فدانًا، وتلك كانت الأرض التى جرت مصادرتها فى أثناء محاكمتى. اشتريت الأرض بسعر رخيص فى ذلك الوقت، وكنت أدفع بضع جنيهات قليلة ثمنًا للفدان الواحد، الذى يساوى سعره مبلغًا كبيرًا فى أيامنا هذه، وبخاصة أن هذه الأرض كانت بحالة سيئة عندما اشتريتها، وهى الآن تزرع زراعة جيدة. لكنى لم أحصل من سعيد باشا أو من غيره على فدان واحد من هذه الأرض، استثمرت كل النقود التى استطعت ادخارها فى الأرض، وليست لى استثمارات أخرى أو أية منقولات أخرى، عدا شىء قليل من الأثاث وبعض الخيول وما إلى ذلك، والتى تقدر قيمتها بحوالى ألف جنيه إنجليزى.

عندما كنت صبيا صغيرا درست مدة عامين فى الأزهر، لكنى أُخِذت للجندية عندما كنت فى سن الرابعة عشرة، ولما كنت يافعًا وطويلاً، ولما كان سعيد باشا يود الحصول على عدد كبير من أبناء شيوخ القرى، فقد أخذونى للتدريب كى أصبح ضابطًا. اختبرونى، وقد خدمنى ذلك الذى كنت قد تعلمته فى الأزهر،

وأصبحت بلوكامين (كاتب) بدلاً من الخدمة مع الصف والجنود نظير أجر مقداره ٦٠ قرشًا في الشهر. لم يعجبني ذلك العمل، لأني اعتقدت أنني لن أرقى إلى منصب أعلى، والتمست من إبراهيم بك، الأقدم مني ورئيسي، أن أعود إلى الصف والجنود مرة ثانية. وأوضح من إبراهيم بك أني سوف أخسر نتيجة هذا النقل، إذ إن راتبي سيصبح عندئذ خمسين قرشًا فقط. لكني ألححت على ذلك، وتم النقل. وعلى الفور امتحنوني امتحانًا آخر كنت فيه الأول، ورقوني إلى شاويش (رقيب) ثم دخلت امتحانًا ثالثًا، جعلوني على أثره ملازمًا، وكان عمري في ذلك الوقت سبعة عشر عامًا. كان سليمان باشا الفرنساوي مسرورًا مني تمامًا إلى حد أنه أصر هو وسعيد باشا على ترقيتي، وأصبحت نقيبًا في سن الثامنة عشرة، وفي سن التاسعة عشرة أصبحت رائدًا، ثم (قائمقام) مقدمًا في سن العشرين. ثم أخذني سعيد باشا معه لأكون له ياورًا عندما سافر إلى المدينة (المنورة)، وذلك قبل عام واحد من وفاته. كان ذلك في عام ١٢٧٩ الهجري الموافق ١٨٦٢ الميلادي.

جاءت وفاة سعيد باشا فاجعة كبيرة لي وللجميع، نظرًا لأن الرجل كان محبوبًا من أبناء البلد، بينما كان إسماعيل على العكس من سعيد باشا تمامًا. في عهده عاد كل شيء ليصبح بين أيدي الأتراك والشراكسة، وكان المصريون في الجيش لا يحظون بالحماية أو يرقون. بقيت في رتبة القائمقام (مقدم) مدة اثني عشر عامًا دون أن يحدث أي شيء إلى أن حدثت الحرب مع الحبشة. لم يجر إرسالي إلى الحرب مع روسيا، لكن عندما نشبت الحرب مع الحبشة كانت القوات المتيسرة كلها مطلوبة، وجرى سحب الحاميات الموجودة على طريق الحج، وقد أوفدت للقيام بهذه المهمة. أرسلوني للقيام بهذه المهمة دون أن يكون معي جندي واحد أو قرش واحد، وتعين عليَّ الوصول إلى هناك على ظهر جمل. ذهبت بهذه الطريقة إلى كل من نخل والعقبة ثم بعد ذلك إلى الوجه لأقوم بتجميع الحاميات ووضع العرب ليكونوا بمثابة خفراء لتلك القلاع. ثم عبرنا البحر إلى القصير وعن طريق قنا وصلنا إلى القاهرة. لم يدفعوا لي مليمًا واحدًا نظير القيام بهذا العمل أو حتى المصاريف التي أنفقتها. كانت البلاد تعاني من حالة مخيفة من القمع، وهنا وجدتني أهتم بالسياسة أملاً في إنقاذ بلادي من الدمار. أرسلوني إلى مصوَّع من

القاهرة وشاركت في الحملة التي كان راتب باشا قائدا عاما لها مع لورنج Loringe باشا الأمريكي، الذي كان رئيسا للأركان. لم أحضر معركة قورة Kora، إذ كنت مسئولاً عن خدمة النقل بين مصوّع والجيش. كانت معركة قورة معركة مدمرة، فقد دُمرت سبع أورطات Ortas تدميرًا كاملاً. وكان لورنج باشا أكثر الناس وقوعًا في الأخطاء. كان حسن بن الخديو إسماعيل، في هذه المعركة، لكنه كان لا يزال صبيا صغيرا، وقد أُرسل لمجرد تعلم الجندية والعسكرية. لم يكن حسن متوليا القيادة، ولم يُؤسر كما قيل بواسطة الأحباش.

فكرت كثيرًا بعد ذلك في السياسة، وأذكر أنى قابلت الشيخ جمال الدين الأفغاني، لكنى لم ألتق الرجل للتحدث إليه، بل أن صلتى السابقة بالأزهر هي التي جعلتني أتعرف على العديد من أتباع هذا الرجل. وكان أبرز هؤلاء الأتباع الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن الطويل. وكان أول كتاب يعطيني بعض الأفكار عن السياسة هو الكتاب المعنون "حياة بونابرت" لمؤلفه العقيد لويس، قرأت هذا الكتاب مترجمًا إلى العربية. كان سعيد باشا قد أحضر معه ذلك الكتاب إلى المدينة (المنورة)، وكان سعيد باشا قد غضب عندما قرأ في الكتاب أن بونابرت غزا مصر بثلاثين ألف جندى فرنسي، ووصل الغضب بسعيد إلى حد أن ألقى الكتاب على الأرض وهو يقول: "أرأيت كيف سمح إخوانك المواطنون لأنفسهم بأن يُهزموا؟". وتناولت الكتاب من على الأرض وقرأته كله دون أن أنام في هذه الليلة، إلى أن طلع عليَّ النهار. ثم قلت لسعيد باشا إنى قرأت الكتاب واتضح لي أن الفرنسيين انتصروا لأنهم كانوا أفضل تدريبا وأفضل تنظيمًا، وأن بوسعنا أن نفعل ذلك هنا في مصر إذا ما حاولنا وأردنا ذلك.

أنت تسألني عن موضوع الشغب الذي حدث ضد نوبار باشا في زمن الخديو إسماعيل، وما إذا كنت شريكًا في ذلك الشغب أم لا. أنا لا علاقة لي به لأنى كنت في رشيد بصحبة كتيبتي، لكن في اليوم السابق لحدوث الشغب أُرسلت برقية من وزارة الحربية لي ولزميلي القائمقام (مقدم) محمود بك النادي، لكي نتعامل مع قضية بعض الجنود الذين جرى تسريحهم من قبل الوزراء الجدد دون

دفع رواتبهم المتأخرة أو حتى الخبز الذى يسدون به رمقهم، والذين شاركوا فى حرب الحبشة. لكنى لم أعرف أى شىء عما دار مع نوبار. لقد كان ذلك بأمر من الخديو إسماعيل باشا، من خلال أحد خدمه شاهين باشا، وصهره لطيف أفندى سليم مدير الكلية الحربية. هذان الرجلان قاما بمظاهرة عن طريق طلاب الكلية الحربية الذين ذهبوا على شكل مجموعة إلى وزارة المالية. وانضم إلى هؤلاء الطلاب فى الطريق بعض الجنود والضباط الذين جرى تسريحهم، لم يكن عدد الضباط كبيرًا ولكنهم كانوا قلة، وأمام الوزارة وجدوا نوبار باشا يركب عربته، وهجموا عليه، ونتفوا شاربه، وضربوه بقبضات أيديهم على أذنيه. ثم جرى بعد ذلك استدعاء إسماعيل باشا لفض المظاهرة، وجاء إسماعيل باشا بصحبة عبد القادر باشا والعقيد على بك فهمى قائد الحرس الخديو، وأمر الخديو إسماعيل على فهمى بفتح النار على الطلبة، لكن على فهمى أصدر أوامره لرجاله بفتح النار من فوق رءوس الطلاب ولم يصب أحد منهم بسوء. لم يكن على فهمى ضمن جماعتنا فى ذلك الوقت. كان على فهمى من المخلصين لإسماعيل باشا، بعد أن تزوج واحدة من سيدات القصر، لكن الرجل لم يكن يود إهدار دم هؤلاء الشبان الصغار.

وحتى يتمكن إسماعيل باشا من إخفاء دوره فى هذه المظاهرة ودور أولئك الذين ساهموا فى تدبير هذا الأمر، وجه اتهامه إلى كل من نادى بك وإلىَّ وإلى على بك الروبى، بأننا كنا زعماء تلك المظاهرة، وجرى إحضارنا أمام مجلس ضم كلا من ستون Stone باشا، وحسن باشا أفلاطون، ومعهم عثمان رفقى الذى أصبح فيما بعد وكيلاً لوزارة الحربية، وآخرين. وأوضحت أننا لا يمكن أن تكون لنا علاقة بذلك الإضراب، لأننا فى تلك الليلة كنا قد وصلنا لتونا قادمين من رشيد. ومع ذلك، وجه لنا اللوم وأبعدنا عن كتائبنا، فقد نُقل نادى إلى المنصورة، ونُقل الروبى إلى الفيوم، فى حين نقلونى أنا إلى الإسكندرية حيث أسندوا إلىَّ مهمة اسمية تقضى أن أكون وكيلاً عن شيوخ الوجه القبلى، حيث تعين علىَّ تحصيل الضرائب المتأخرة عليهم، على شكل فول ومنتجات أخرى، على أن يجرى إرسال ذلك كله إلى الإسكندرية ضمانًا للنقود التى لبعض يهود الإسكندرية، إلى الخديو إسماعيل. لكن قبل أن نفترق اجتمعنا واقترحت فى ذلك الاجتماع أن نتعاون على

عزل إسماعيل باشا، وكان ذلك بمثابة أفضل الحلول. نظرًا لأن القناصل كانوا يودون التخلص من إسماعيل باشا بأى شكل من الأشكال، وكان يمكن عن طريق هذا العزل توفير ملايين الجنيهات الخمسة عشر الإنجليزية التى أخذها معه إسماعيل بعد عزله، فضلاً عن تحاشى المضاعفات الأخرى. لكن لم يكن هناك من يتولى قيادة هذه العملية، وعلى الرغم من الموافقة على اقتراحى فإنه لم ينفَّذ. أدى عزل إسماعيل باشا إلى رفع حمل كبير عن أكتافنا، وفرح العالم كله، لكن كان يمكن للأمر أن يكون أفضل من ذلك لو قمنا نحن بهذا العزل بأنفسنا، وبذلك كان يمكن التخلص من أسرة محمد على كلها، الذين لم يكن أى منهم يصلح للحكم سوى سعيد باشا، وكان بوسعنا أيضًا إعلان قيام النظام الجمهورى. لقد اقترح الشيخ جمال الدين الأفغانى على الشيخ محمد عبده اغتيال إسماعيل على جسر قصر النيل، ووافق محمد عبده على ذلك. كان إسماعيل قد قام بتحصيل النقود من المديريات قبل ستة أشهر من عزله. وأفصح لطيف بعد ذلك عن دوره فى هذه العملية، وحُبس لطيف فى السجن لكنه جرى الإفراج عنه وإطلاق سراحه بعد الالتماس الذى تقدم به الماسونيون إلى نوبار.

بعد أن خلف توفيق باشا إسماعيل باشا كان أول عمل يعمله هو وعد الشعب بوضع دستور للبلاد، تسألنى إن كان مخلصًا وصادقًا في ذلك أم لا. لم يحدث أن كان توفيق صادقًا فى وقت من الأوقات، لكنه كان رجلاً ضعيفًا بطريقة لا تصدق، لم يكن بوسع هذا الرجل أن يقول: "لا". وكان واقعًا تحت تأثير وزيره شريف باشا، الذى كان محبًا لأشكال الحكم الدستورى. كان توفيق قد جمع ثروة طائلة فى حياة والده؛ إذ كان المال هو هم الرجل. كان يجمع هذا المال عن طريق قبول الهدايا من الأشخاص أصحاب الالتماسات، الذين ظنوا أن الرجل قادر على تحقيق أهدافهم. لم يكن توفيق يرغب فى إصدار الدستور، لكنه لم يستطع أن يقول "لا" عندما ضغط عليه شريف باشا، وعليه وعد توفيق بإصدار دستور. بعد ذلك بشهرين وقع توفيق تحت تأثير القناصل الذين منعوه من إصدار مرسوم بوضع الدستور، وعليه جمع شريف الوزراء كلهم، وحصل منهم على كلمة شرف أنهم سيقدمون استقالاتهم إذا ما قدم هو استقالته، وهذا هو ما حدث فعلاً. لكن البعض

من هؤلاء الوزراء انضموا إلى وزارة رياض باشا على الرغم من الوعد الذى قطعوه لشريف باشا. ولكى يغريهم رياض بالمشاركة فى وزارته، قال لهم إن كل وزير سيكون له السيادة على وزارته، وأنهم لن يسمحوا لتوفيق بالتدخل فى الإدارة بأى شكل من الأشكال. وانضم محمود سامى إلى رياض باشا فى منصب وزير الأوقاف، وعلى مبارك فى منصب وزير الأشغال العامة، وعثمان باشا رفقى، وهو تركى من المدرسة القديمة ويكره الفلاحين، فى منصب وزير الحربية. وجاءت الحكومة الجديدة واحدة من الحكومات المستبدة. وهذا هو حسن موسى العقاد، الذى نُفى إلى منطقة النيل الأبيض لأنه وقَّع التماسًا يعترض على نظام المقابلة (فى الضرائب) ونُفى أحمد فيمى أيضًا إلى منطقة النيل الأبيض لأنه وقع التماسًا مماثلاً، وتم التخلص من أناس كثيرين آخرين تسببوا فى تعكير صفو الوزراء، وكان عثمان رفقى أسوأ كل هؤلاء الوزراء.

نحن العقداء عدنا مرة ثانية إلى كتائبنا، وأصبحنا نتعرض للقهر وكثير من القمع بحكم أننا مواطنين مصريين. كان يجرى إلقاء القبض على أى ضابط من الضباط الفلاحين تحت أى زعم من المزاعم، على أن يُشْغَل مكانه بضابط من الشراكسة. كانت الخطة ترمى إلى تنقية الجيش من ضباطه الوطنيين، وأنا شخصيا مورست علىَّ ضغوط لأنى رفضت السماح بأخذ جنودى من مهمتهم العسكرية للعمل فى حفر ترعة التوفيقية، وكان ذلك الإجراء يرمى إلى قيام الجنود بعمل هذا الحفر بلا مقابل مادى. جرى رسم بعض الخطط لتوريطى فى بعض مشاجرات الشوارع، استهدافًا لقتلى أو اغتيالى، لكنى كنت أنجو من ذلك فى كثير من الأحيان بفضل حب جنودى لى. كل الضباط الذين من أصل شركسى كانوا معرضين للخطر، وكانوا جميعا مسلحين، وهذا هو السبب الذى جعل على فهمى، الذى كان فلاح المولد، ثم أصبحت له صلة بالبلاط الخديو بحكم زوجته، ينضم إلينا، لأن الرجل خشى أن يتخطاه أحد فى الترقية. كان على فهمى قائد برتبه عقيد لكتيبة الحرس، وكان مقر عمل الرجل فى قصر عابدين، وأما أنا فكنت فى الحبشة ومعى الكتيبة الثالثة، وأما عبد العال حلمى فكان فى طره، وأما على الروبى فكان قائدا للخيالة.

تأزمت الأمور فى يناير عام ١٨٨١. كنت قد ذهبت لقضاء فترة المساء مع نجم الدين باشا، وكان فى بيت الرجل بعض الباشوات الذين كانوا يتكلمون عن التغييرات التى سيحدثها عثمان رفقى، وعرفت من هؤلاء الباشوات أنه تقرر حرمانى أنا وعبد العال من القيادة، على أن تعطى أماكننا لاثنين من ضباط الطبقة الشركسية. فى هذا الوقت نفسه وصلتنى رسالة من بيتى تقول إن على فهمى ومعه عبد العال وصلا إلى المنزل وإنهما كانا ينتظراننى. وعليه ذهبت إلى المنزل ووجدتهما هناك، وعرفت منهما هذه الأخبار السيئة. تشاورنا فيما يجب عمله، واقترح عبد العال أن نتجه بقواتنا إلى منزل عثمان رفقى ونلقى القبض عليه أو نقتله، لكننى قلت: "لا، دعونا نتقدم أولاً بالتماس إلى رئيس الوزراء، وإذا ما رفض، فلنتقدم بالتماس آخر إلى الخديو". وقرر الاثنان إسناد مسألة كتابة الالتماس إلىَّ. وقمت أنا بذلك، وشرحت الحال، وطالبت فى نهاية الالتماس بطرد عثمان رفقى، وزيادة عدد أفراد الجيش إلى ١٨٠٠٠ رجل، وإصدار مرسوم بالدستور الذى سبق أن وعد الخديو به الشعب. [ملاحظة: أعتقد أن عرابيا أخطأ هنا عندما خلط بين هذه المطالب والمطالب التى جرى التقدم بها فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر. لكنه أصر على المطالب الثلاثة، والتى جرى تقديمها على شكل عريضة فى شهر فبراير]. وقد وقعنا نحن الثلاثة على الالتماس، على الرغم من أننا كنا نعرف أن حياتنا كانت معرضة للخطر.

فى صبيحة اليوم التالى توجهنا إلى مكتب وزير الداخلية ومعنا الالتماس وطلبنا مقابلة رياض، أدخلونا غرفة خارجية وانتظرنا إلى أن قرأ الوزير الالتماس فى الغرفة الداخلية. وخرج علينا الوزير وقال لنا: "التماسكم مُهْلِك" (أى يترتب عليه الإعدام). ماذا تريدون؟ هل تريدون تغيير الوزارة؟ وماذا ستضعون محلها؟ من هو الذى تقترحونه لتولى الحكم؟" وأجبته قائلاً: "يا سعادة الباشا، هل مصر امرأة ولدت ثمانية أبناء ثم أصبحت عاقرًا بعد ذلك؟" كنت أعنى بذلك، وزير الداخلية هو والوزراء السبعة الذين تحت رئاسته. غضب الرجل من ذلك، لكنه قال فى نهاية المطاف إنه سينظر فى الأمر، ولذلك غادرنا المكان على هذا الأساس. وعلى الفور جرى انعقاد المجلس بحضور الخديو وبلاطه، كما حضر المجلس

أيضًا كل من ستون Stone باشا وبليتز Blitz. واقترح الخديو إلقاء القبض علينا ومحاكمتنا، لكن قال آخرون: "إذا جرت محاكمة هؤلاء فلا بد من محاكمة عثمان رفقى أيضًا". وعليه تركوا الأمر لعثمان رفقى ليتعامل معه على انفراد، وأنت تعرف البقية.

أنت تسأل عما إذا كان الخديو يعرف أننا انتوينا تقديم عريضة. لم يكن الخديو يعرف شيئًا عن ذلك، ولم يعرف أيضًا أن على فهمى جاء إلينا، لكنه عرف ذلك فيما بعد. تسألنى عما إذا كنت أعرف البارون دى رنج De. Ring. أنا لم أعرف هذا الرجل ولم أعرف أى أحد من القناصل، لكن بلغنى أن القنصل الفرنسى كان صاحب النفوذ الأكبر، وقد كتبت إليه عن حالنا وموقفنا، ورجوته إبلاغ القناصل الآخرين ألا يخافوا على رعاياهم. تسألنى عما إذا كنت أعرف محمود سامى. أنا لم أعرف الرجل إلى الآن، لكن الرجل كان صديقًا لصديقى على الروبى، وسمعت رواية طيبة عنه وأنه من محبى الحرية. كان محمود سامى من أسرة شركسية، كانت موجودة فى مصر منذ أكثر من ستمائة عام.

فيما يتصل بالمظاهرة الثانية التى حدثت فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر، كنا نعلم أن الخديو معنا. كان الخديو يود الخلاص من رياض باشا الذى لا يكترث لأوامره، وأنا لم أر الخديو إلا مرتين وهو يتكلم عن هذا الشىء، ولم يكن يتكلم مطلقًا عن السياسة. كان الاتصال بالخديو يتم عن طريق على فهمى، الذى جاء إلينا برسالة تفيد الآتى: "أنتم الثلاثة عسكريون، ومعى تصبحون أربعة". تسألنى عما إذا كان صادقًا فى كلامه. لم يحدث مطلقًا أن صدق الخديو فى كلامه، لكنه كان يود انتحال عذر لطرد رياض، وطرد الباقين كلهم، لأن ذلك سيسعده. فى صبيحة اليوم التاسع من شهر سبتمبر أرسلنا للخديو بأننا سنحضر فى فترة العصر إلى قصر عابدين لنطالبه بالوفاء بوعوده. وجاء الخديو ومعه كوكسون Cookson، وتحاورت أنا مع كوكسون حول مختلف المطالب. سألنى كوكسون ما إذا كنا نوافق على حيدر باشا، لكنى قلت له: "نحن لا نريد أحدًا من أقارب الخديو". لم تكن هناك مطالب مكتوبة فى المرة الثانية، وإنما كان الأمر مجرد تجديد

للمطالب الثلاثة التي جرى التقدم بها وهي: مجلس النواب، ورفع عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ رجل طبقًا لما هو وارد في الفرمانات، وطرد رياض باشا. تمت الموافقة على هذه المطالب الثلاثة، وانشرح صدر الخديو، ولم أعرف أن كولفن كان موجودًا، ولم أكن أعرف أنه هو الذي يسدي النصح إلى الخديو. ولم أر سوى كوكسون هو وجولدسميد Goldsmid. والذي تحدث معي هو كوكسون. لو كان الخديو حاول فتح النار عليَّ، لانهالت عليه نيران البنادق، ولترتب على ذلك عمل بالغ السوء، لكن الخديو كان سعيدًا تمامًا بما يدور.

تسألني عن أبي سلطان (سلطان باشا). لقد خاب أمل الرجل لأن الوزارة التي تشكلت برئاسة شريف باشا لم يكن له مكان فيها، وقيل إن منصب رئيس مجلس النواب كانت أشرف وأهم. لم يستوعب سلطان باشا هذا الرأي، وغضب لعدم اشتراكه في الوزارة، وكانت تلك بداية تألب هذا الرجل علينا.

فيما يتعلق بسؤالك عن إساءة معاملة الضباط الشراكسة الذين اشتركوا في المؤامرة يوم أن كنت أنا وزيرًا للحربية، أقول بوضوح، ومثلما سبق أن قلت: إني لم أذهب قط إلى السجن لكي أراهم وهم يعذبون أو تساء معاملتهم، أقول ببساطة شديدة إني لم أقترب من هؤلاء الضباط مطلقًا.

فيما يتعلق بإضرابات الإسكندرية، ليس هناك شك في أنها كانت من تدبير الخديو وعمر باشا لطفي، والسيد كوكسون. هذه الإضرابات جرى التخطيط لها بكل تأكيد قبل أيام عدة، وكان المقصود منها الإساءة إليَّ، بعد أن ضمنت المحافظة على الأمن والنظام. أرسل الخديو برقية مشفرة، وأنت لديك علم بهذا الموضوع، إلى عمر لطفي، وقام عمر لطفي بترتيب هذا الأمر مع سيد قنديل، رئيس قوة المستحفظين Mustafezzin في الإسكندرية. وحجب سيد قنديل هذا الأمر عنا نحن الذين كنا في القاهرة. وكان دور كوكسون في هذه العملية يقضي بأن يجرى إنزال بعض صناديق الأسلحة النارية وإرسالها إلى قنصليته، وكان واضحًا أن ذلك سيجرى من أجل تسليح بعض الأفراد. وفي اللحظة التي بلغني فيها ذلك الخبر أرسلت يعقوب سامي إلى الإسكندرية بأوامر مني لعمل تحرٍّ كامل، وجرى إثبات

الحقائق وتأكيدها. وثبت أن كثيرًا من الكلام الذى قيل لم يكن صــحيحًا، لــم يكــن صحيحًا أن جثث المسيحيين كانت ترتدى ملابس المسلمين. بدأت المظاهرة بحمار مالطى، ولكن ذلك كان مجرد عذر جرى انتحاله. كان عمر لطفى، وأنت تعــرف ذلك، من أنصار ومشايعى إسماعيل باشا. تسأل عن سبب بقاء رجل خطير كهــذا فى منصب يمكنه من الإضرار بالناس إلى حد بعيد. أقول: إن هذا الرجل لم يكــن تحت إمرة وزارة الحربية، لكنه كان تحت إمرة وزارة الداخلية. ومن سوء الطــالع أن ترك هذا الرجل فى الإسكندرية. ولم يحدث أن ذهب عبد الله النــديم أو حــسن موسى العقاد إلى الإسكندرية لأى أمر يتعلق بهذه الإضرابات. الذى حدث هــو أن حسن موسى ذهب إلى الإسكندرية فى مهمة مالية.

اما سألتنى عنه بشأن إسماعيل باشا صحيح تمامًا. لقد عرض علينا عرضــا ماليا، وكانت ظروف ذلك العرض على النحو التالى: كنا قد طلبنــا بعــض قطــع المدفعية الصغيرة من ألمانيا، لكن ألمانيا رفضت أن تعطينا تلك القطع قبل أن ندفع الثمن، ولم يكن لدينا أى شىء من المبلغ المطلوب. عرض علينا إسماعيل باشا أن يعطينا مبلغ ٣٠ ألف جنيه إنجليزى لدفع ثمن هذه القطع، شريطة أن نــسمح بــأن يقال: إننا كنا نشتغل من أجل مصلحته. وقد جاء هذا العرض من خلال ميو منجز Mengs [ماكس لافيسون Max Lavisson] ، الوكيل الروسى لإسماعيل باشا، وكان لحسن موسى أيضًا يد فى هذا العرض. لكن العرض لم ينفذ مطلقًا، ولم يثبــت أن الخديو أرسل هذا العرض إلى الإسكندرية فقد بقى فى أيديهم ولم نمسه مطلقًا.

أنا لا أتذكر أنى سمعت عن عرض من قبيل هذا العرض الذى تتحدث عنه، وقيل إنه جاء من قبل آل روتشيلد [كان ذلك عرض، على حد ما بلغنى، قدم مــن قبل آل روتشيلد فى باريس معاشًا لعرابى يقدر بحــوالى ٤٠٠٠ جنيــه إنجليــزى (حوالى ١٠٠٠٠٠ فرنك) سنويا، فى حال ما إذا غادر مصر]، لكنى تلقيت بعد ذلك لائحة [المذكرة التى جاءت من القنصلين وتطلب إقالــة وزارة محمــود ســامى، وزيارة من القنصل الفرنسى، سألنى خلالها عن راتبى، وعرض علىَّ ضعف ذلــك الراتب، أى حوالى ٥٠٠ جنيه إنجليزى فى الشهر تدفع من الحكومة الفرنــسية إذا

ما وافقت على ترك مصر والسفر إلى باريس، على أن تجرى معاملتى هناك مثل عبد القادر الجزائرى. ورفضت هذا الكلام جملة وتفصيلاً، وقلت له إن مهمتى تتمثل فى القتال دفاعًا عن بلدى والموت فى سبيله، وألا أتخلى عنه. ولم أسمع أن آل روتشيلد كانت لهم أية علاقة بهذا الموضوع].

سأروى لك كيف خسرنا معركة التل الكبير: قبل بضعة أيام، وفى أثناء تقدم الإنجليز، كنا قد وضعنا خطة للهجوم عليهم فى القصاصين. كان مفروضًا أن يتقدم محمود سامى من الجانب الأيمن فى الصالحية، فى حين كنت سأتقدم أنا من المواجهة، على أن تقوم قوة ثالثة بالالتفاف من الصحراء، جنوب الوادى، وتهجم على الإنجليز من المؤخرة. حاولنا القيام بذلك الهجوم، وتأخر تنفيذه بعض الشىء، لكن فشل الهجوم لأن الخطة جرى كشفها بواسطة على بك يوسف خنفس، الذى قام بإرسال الكروكى الذى وضعته أنا إلى اللورد ولسلى Wolseley. وقد جرى إفساد على بك يوسف خنفس هو وبعض الضباط الآخرين من الجيش بواسطة أبى سلطان (سلطان باشا) الذى كان يعمل لحساب الخديو. وعندما تقدم محمود سامى وجد المدفعية متمركزة لاعتراضه، الأمر الذى جعله ينسحب، تاركًا إيانا بلا عون أو مساعدة، وبذلك خسرنا المعركة. وقد قام السير شارلز ولسون، عندما كنت فى السجن فى القاهرة، بإحضار الخطة التى سبق أن وضعتها، وسألنى هل هى بخط يدى، وأجبته "نعم"، وحكى لى كيف حصلوا عليها. قال شارلز ولسون: "هى خطة جيدة وكان يمكن أن تهزمنا بها".

كان ذلك بداية سوء حظنا، فقد فوجئنا فى التل الكبير، وكانت الخيانة هى السبب، يضاف إلى ذلك أن أبا سلطان (سلطان باشا) أغرى قادة الخيالة كلهم وأغواهم بوعوده. كان الخيالة يحتلون مواقع أمام الخطوط الأمامية، وكانت مهمتهم تتمثل فى إنذارنا بتقدم الإنجليز. لكن الخيالة انحرفوا جانبًا ولم ينذرونا بأى شىء. كان هناك رجل خائن آخر من بين أفراد القيادة فى الخطوط وهو على بك يوسف خنفس. قام هذا الخنفس بإشعال المصابيح لكى يوجه العدو، ثم سحب رجاله بعد ذلك تاركًا بذلك مكانًا واسعًا يمرون من خلاله. انظر إلى هذه العلامات التى على

هذه السجادة. هذه العلامات تمثل الخطوط. هذا هو المكان الذى كان على يوسف خنفس يتمركز فيه. كان محمد عبيد فى هذا المكان أيضًا، أما أنا فكنت عند هذا الشكل المرسوم على السجادة وكنت على بعد حوالى ميل ونصف الميل من المؤخرة. لم نكن نتوقع الهجوم مطلقًا، كما لم نسمع أصوات فتح النيران. كنت لا أزال نائمًا عندما بدأنا نسمع أصوات الطلقات النارية بالقرب من الخطوط. وقام على الروبى، الذى كان يتولى القيادة فى المقدمة، بإرسال من يطلب منى تغيير وضعى لأن العدو يهجم علينا من ناحية جانبية. أديت الصلاة وعدوت إلى حيث يوجد احتياطى المتطوعين وناديت عليهم أن يتبعونى لكى نساعد ونعاون خط الدفاع الأمامى. لكن هؤلاء المتطوعين كانوا مجرد فلاحين، وليسوا جنودًا، وبدأت دانات المدفعية تسقط أمامهم فولوا هاربين. وهنا ركبت جوادًا واتجهت وحدى إلى المقدمة ولم يكن معى سوى خادمى محمد سيد أحمد الذى رأى أنى كنت وحدى، وكنت أتقدم صوب الموت الأكيد، أمسك بلجام الحصان ورجانى أن أعود إلى الخلف. وعندما أدركت أن اليوم ضاع وانتهى، وأن كل شيء بدأ يتهاوى عدت، وكان محمد لا يزال بصحبتى وعبرنا الوادى عند التل الكبير ومشينا على جسر ترعة الإسماعيلية إلى أن وصلنا إلى بلبيس. وفى بلبيس شكلت معسكرًا ثانيًا، ووجدت أن على الروبى كان قد وصل قبلى إلى بلبيس، وفكرنا فى الصمود والثبات. لكن مع وصول خيالة درورى لاو Drury Lowe، فُر الجميع، ولذلك تخلينا عن كل شيء واستقللنا القطار إلى القاهرة. أخطأ على الروبى عندما أطال الخطوط فى الناحية الشمالية، ومع ذلك كان الرجل مخلصًا. أعتقد أن الخونة كانوا هم عبد الغفار، ونائبه عبد الرحمن بك حسن، وعلى يوسف خنفس. وأنت تقول أيضًا سعود الطحاوى. قد يكون ذلك صحيحًا، فهؤلاء العرب لا يمكن الوثوق بهم، لقد انضم جد سعود الطحاوى إلى بونابرت عندما غزانا قبل مائة عام.

أعود الآن إلى وطنى بعد نفى مؤسف استمر عشرين عامًا، وهؤلاء بنو وطنى الذين حاولت تخليصهم، بدأوا يظنون، أنى بعتهم للإنجليز بعد أن قالت ذلك لهم الصحف الفرنسية.

ملاحظات المفتى على ما قاله عرابى فى سيرته الذاتية:

ملاحظة. فى الثامن عشر من مارس عام ١٩٠٣ قرأت الرواية السابقة على الشيخ محمد عبده فى منزله فى عين شمس، وقد وافق الشيخ محمد عبده على معظم ما جاء فى هذه الرواية، لكنه كانت له الملاحظات التالية:

١- فيما يتعلق بالتظاهر ضد نوبار: رواية عرابى صحيحة، فيما عدا أن الأمر الصادر إلى على فهمى بإطلاق النار على الطلبة، لم يكن تنفيذه مقصودًا وإنما كان مجرد دور من أدوار هذه الملهاة. لقد فتح على فهمى النار من فوق رءوس الطلاب حسب الأمر الصادر له. وجرى إلقاء القبض بواسطة نوبار على لطيف بك وإيداعه السجن، لكن الرجل أطلق سراحه بعد التماس قدم لنوبار من البنائين الأحرار (الماسونيين) نظرًا لأن لطيف كان عضوًا فى تلك الهيئة، اعترف لطيف بعد ذلك بدوره فى هذه العملية. وفيما يتصل بقول عرابى إنه اقترح فى ذلك الوقت عزل إسماعيل باشا، دار كلام فى السر حول هذا الموضوع. وكان الشيخ جمال الدين يحبذ هذا العمل، واقترح علىَّ، أنا محمد عبده، اغتيال إسماعيل فى يوم من الأيام فى أثناء مروره فى عربته على جسر قصر النيل، ووافقته على ذلك تمامًا، لكن ذلك كان مجرد حديث دار بيننا سرا، وكنا نفتقر إلى شخص يتولى القيادة فى هذا الأمر. لو كنا نعرف عرابيًا فى ذلك الوقت لكنا قد رتبنا هذا العمل معه، وبذلك يصبح مثل هذا العمل لا يمكن عمله فى مثل هذه الظروف، وبالتالى كان سيحول دون حدوث التدخل الأوروبى. ومع ذلك، كان من المستحيل قيام الجمهورية فى ظل الجهل السياسى للناس. وفيما يتعلق بأخذ إسماعيل مبلغ ١٥ مليون جنيه معه إلى نابولى، فلا أحد يعرف حقيقة هذا المبلغ. والمعروف أن المبلغ كان كبيرا جدا. كان إسماعيل طوال السنتين الأخيرتين من حكمه يكنز المال الذى كان يجبى من المديريات قبل إرساله إلى وزارة المالية.

٢- فيما يتصل بتوفيق في أثناء حكم والده: ما قاله عرابى عن قبول توفيق الهدايا نظير تقديم الالتماسات إلى إسماعيل باشا ربما كان صحيحًا. لكن هذه الأشياء لم يكن يجرى الحديث عنها، ولا تتفق مع سلوك توفيق يوم أن أصبح فى السلطة، وأنا لا أصدق ذلك.

٣- فيما يتعلق باستبداد رياض: كان رياض مستبدًا، لكن استبداده لم يصل إلى حد سفك الدماء. كان رياض يعارض دومًا سفك الدماء، وأنا لا أذكر أى حديث دار عن إعدام الرجل لأحد من الناس فى السر، لم يكن هناك أى خطر من هذا الجانب إلى ما قبل حادث قصر النيل. من خلال صيف عام ١٨٨١، كان هناك حديث عن محاولات لقتل عرابى وبعض القادة الأخرين.

٤- فيما يتصل بموضوع قصر النيل فى الأول من فبراير عام ١٨٨١: رواية عرابى مرتبكة وغير صحيحة. كان أول التماس قدمه عرابى والضباط الآخرون عبارة عن تعبير عن الظلم الواقع عليهم من عثمان رفقى، مما جر عليهم غضب وزير الحربية الذى صمم على التخلص منهم، وبدأ بوضع عرابى تحت مراقبة القنصلين. وقد اهتم البارون دى رنج، الذى سبق أن تشاجر مع رياض، بأمر هؤلاء الضباط، لكن هذه الاهتمام كان بطريقة غير مباشرة. الالتماس الذى قال عرابى عنه إنه سحبه فى شهر يناير وقدمه إلى رياض، لم يكن يحتوى على أى شىء بشأن الدستور أو زيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ رجل. هذه المطالب لم يجر تقديمها قبل مظاهرة شهر سبتمبر. التماس قصر النيل كان عبارة عن شكوى قوية مقدمة إلى رياض باشا ضد الأعمال الخاطئة التى كان عثمان رفقى يقوم بها، وكانت تطالب بإقالة الرجل من وزارة الحربية. كان رياض فى أثناء انعقاد المجلس بعد الإضراب، يحبذ إحالة الموضوع للتحقيق والتحرى، الأمر الذى كان سيسفر عن تشكيل محكمة عسكرية لا لمقدمى الالتماس وإنما أيضًا لعثمان رفقى.

لم يكن رياض من أنصار العنف أو من مُحَبِّذيه، لكن جرى توضيح الأمر له على انفراد، أنه إذا اعترض على الخطة العنيفة قد يُقال إنه يخطب ود العسكر ضد الخديو، وعليه ترك رياض الأمر برمته إلى عثمان رفقى، ليتصرف فيه حسب هواه.

٥- فيما يتصل بمظاهرة عابدين فى التاسع من سبتمبر عام ١٨٨١: كانت الأشهر السبعة الواقعة بين حادث قصر النيل والمظاهرة التى جرت فى شهر سبتمبر عامرة بنشاط سياسى كبير، شغل طبقات المجتمع كلها. وقد اكتسب عرابى شهرة ذائعة بسبب العمل الذى قام به، وأسفر هذا العمل عن الاتصال بالأعضاء المدنيين فى الحزب الوطنى، من أمثال سلطان باشا وسليمان أباظة، وحسن الشريعى، ومعى أيضًا، وكنا نحن الذين تقدمنا بفكرة تجديد المطالبة بالدستور. كانت وجهه النظر التى ينادى بها عرابى هو ورفاقه من العسكريين تحصنهم من توبيخ أو تأنيب وزراء الخديو لهم، وقد كرر عرابى ذلك لى مرات عدة طوال فصل الصيف. وعليه رحنا نرتب مسألة تقديم عريضة تطالب بالدستور، وبدأنا فى الصحافة حملة حول هذا الموضوع. التقى عرابى سلطان باشا مرات عدة طوال الصيف، واستفاد سلطان باشا من عرابى فى كثير من الأحيان، وكان يرسل له الكثير من الهدايا مثل المنتجات والحاصلات الزراعية والخيول وما إلى ذلك، لكى يشجعه ولكى يحظى بمساندته للحركة الوطنية. وبالمشاركة مع سلطان باشا جرى تدبير مظاهرة عابدين، وصحيح أيضًا أن سلطان باشا كان ينتظر أن يكون عضوًا فى الوزارة بعد سقوط رياض. لكن شريف باشا الذى خلف رياض لم يختر سلطان باشا وزيرًا فى وزارته بل إنه أغفله تمامًا، بعد ذلك جرت تهدئة ومهادنة سلطان باشا بأن أُعطى رئاسة مجلس النواب. لم يتشاجر سلطان باشا مع عرابى مطلقًا إلا بعد صدور اللائحة، أو بالأحرى بعد الإنذار، فى هذه اللحظة سحب عرابى سيفه على سلطان باشا، فى حضور أعضاء آخرين من مجلس

النواب، عندما خافوا وترددوا في معارضة الإنذار. حتى ذلك الوقت كان الاثنان يتعاونان. جاءت رواية عرابي عن رسالة الخديو والتي تقول: "أنتم الثلاثة من العَسكر، ومعي تصبحون أربعة"، رواية ممتازة، وتوضح بالضبط الموقف الذي كان بين عرابي والضباط. والمؤكد أن كولفن كان في قصر عابدين مع الخديو، لكن نظرًا لأن كولفن لم يكن يعرف اللغة العربية، فالأرجح أن عرابيًا لم يلاحظه. والذي أجرى الحديث هو كوكسون. وجرى استدعاء بارون دي رنج من قبل حكومته بناء على طلب من رياض باشا، الذي اشتكى من مساعدته للضباط.

٦- فيما يتعلق بإضرابات الإسكندرية: عرابي صادق في روايته فيما يتعلق بعمر لطفي هو والخديو، وبخاصة أن عمر لطفي كان يرتب لتلك الإضرابات طوال بضعة أسابيع. لكن هذه الرواية ليست صحيحة فيما يتصل بسيد قنديل الذي كان ضعيفًا وفشل في منع وقوع ذلك الإضراب. عرابي مخطئ أيضًا فيما قاله عن كوكسون. كانت الأسلحة النارية التي وردت إلى القنصلية للدفاع عن المالطيين والرعايا البريطانيين الآخرين، وجرى نفي سيد قنديل مدة عشرين عامًا، لكنه سُمِح له بالعودة في السر، وهو يعيش حاليا في مسقط رأسه الريفي في مصر وقد تناقشت معه مرارًا في هذا الأمر. وإذا رغبت في ذلك يمكن لنا القيام بزيارة الرجل في الخريف القادم. عرابي محق عندما يقول إن حسن موسى هو والنديم لم يشتركا في هذه المظاهرة. كان النديم قد سافر إلى الإسكندرية لإلقاء محاضرة أما حسن موسى فكان في الإسكندرية في مهمة مالية.

أضاف المفتي الملاحظات التالية في العشرين من عام ١٩٠٣:

جرت محاولة لإدخال حركة البنائين (الماسونية) إلى مصر، وكان ذلك في السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل باشا. كانت المحافل الماسونية كلها متصلة

بالمحافل الماسونية الموجودة فى أوروبا. كان الشيخ جمال الدين قد انضم إلى محفل من هذه المحافل، لكن الرجل سرعان ما اكتشف عدم وجود أية قيمة فى ذلك المحفل ولذلك انسحب منه. وقد شجع إسماعيل باشا هذا المحفل خدمة لمصالحه الخاصة، عندما بدأت تحيط به المصاعب والمشكلات، لكن حركة البنائين لم تكن قوية بأى حال من الأحوال فى مصر.

المؤكد أن محمد عبيد قتل فى التل الكبير. ترددت بعض الشائعات، منذ فترة طويلة، عن وجود الرجل فى سوريا، وكنا نرسل - طوال فترة نفينا فى بيروت - إلى سوريا أملاً فى العثور على الرجل تلبية لطلب زوجته، التى كانت فى بيروت، لكن كان يتضح دومًا أن تلك كانت أقوال مزيفة.

كان محمود باشا سامى من أوائل الدستوريين الأساسيين، منذ عهد إسماعيل باشا. كان محمود سامى صديقًا لشريف باشا، وكان ينتمى إلى المدرسة نفسها التى ينتمى إليها شريف. وأنا أرجح تمامًا أن محمود سامى هو الذى حذر عرابيا من إلقاء القبض عليه، والذى بيتوا له النية، وقد حذره من منطلق أنه كان عضوًا فى الوزارة، ولا بد أنه كان لديه علم بذلك، وبعد حادث قصر النيل أصبح محمود سامى مع عرابى والضباط قلبًا وقالبًا، وكان ذلك هو السبب وراء تخلص رياض منه فى الوزارة، وتعيين داود باشا بدلاً منه.

فى البداية كان رياض باشا يقلل من أهمية عرابى وعمله، ثم بدأ يخاف بعد ذلك من عمل عرابى ويخشاه، بدأ رياض باحتقار عمل عرابى مثلما كان يتعامل مع نفوذ الفلاحين فى السياسة.

استقال شريف باشا فى فبراير عام ١٨٨٢، لا بسبب أى نزاع مع عرابى، لكن لخوفه من التدخل الأوروبى. كان رياض باشا معارضًا لمسألة إخضاع الميزانية لتصويت مجلس النواب، وآثر الرجل التقاعد حتى لا يلجأ إلى الحلول الوسط.

راغب باشا (على حد قول نينيه) من أصل يونانى على الرغم من أنه مسلم. كان راغب باشا وزيرًا أيام حكم إسماعيل، لكنه كان دستوريا. بعد صدور اللائحة عُيِّن رئيسًا للوزراء، وكان عرابى وزيرًا للحربية في وزارته. كان الرجل أمينًا في تصرفاته مع عرابى، وبقى مع الحزب الوطنى فى أثناء الحرب.

يحدد بتلر Butler العشرين من مايو عام ١٨٨٠ تاريخًا للالتماس الأول، وهذا على الأرجح هو الأصح.

كان إبراهيم [اللقانى][*] واحدًا من أتباع جمال الدين الأكفاء فى الأزهر، والرجل لا يزال حيا وموظفا فى المحكمة.

عندما جرت دعوة المجلس للانعقاد للنظر فى التماس عرابى، الخاص بإقالة عثمان رفقى، كان الخديو يقف فى صف عثمان رفقى الذى كان يود إلقاء القبض على عرابى، وإرساله إلى أعالى النيل، لكن رياض باشا كان يؤيد التحقيق والاستجواب. ومع ذلك استطاع طه باشا، فى ظل عدم انعقاد المجلس، إقناع رياض بأنه إذا اصطنع الرفق مع عرابى فقد يقال إنه يتآمر مع العسكر على الخديو لكى يجعل نفسه الخديو. وهنا توقف رياض عن المعارضة، وهذا هو ما وافقت عليه بعد ذلك مع محمود سامى، الذى كان موجودًا فى المجلس بصفته عضوًا فيه.

كان إبراهيم أفندى الوكيل ومعه حسن الشريعى وأحمد محمود زعماء فريق الأحرار فى مجلس النواب.

رواية أخرى أوردها الشيخ محمد عبده، فى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٣:

بعد أن جرى نفى الشيخ جمال الدين بعد أيام قلائل من إقالة وزارة شريف عام ١٨٧٩، طُلب منى مغادرة القاهرة التى كنت أعمل فيها أستاذًا فى واحدة من

(*) انظر الهامش صفحة ١٥٤ للمراجع.

المدارس المعروفة، وأن أعود إلى قريتى. كان الشيخ حسن الضرير هو الذى حـل محلى فى المدرسة. وسرعان ما سئمت الحياة فى قريتى، وسافرت إلى الإسكندرية التى كنت مراقبًا فيها من قبل الشرطة. وعليه سافرت سرا إلـى طنطـا ورحـت أتجول فيها فترة ليست بالقصيرة، ثم عدت بعد ذلك إلى القاهرة على أمل أن ألتقـى محمود سامى، الذى كان صديقًا لى، وكان الرجل فى ذلك الوقت وزيرًا للأوقـاف، لكنه كان خارج القاهرة، وعليه قصدت منزل على باشا مبارك، وزيـر الأشـغال العامة، الذى كان صديقًا أيضًا من أصدقائى، لكن الرجل استقبلنى اسـتقبالاً سـيئًا، ونصحنى الجميع بعدم البقاء، مخافة أن يظن الناس أنى جئت إلى الرجل فى مهمة تتعلق بالجماعة السرية التى شكلها مؤخرًا شاهين باشا وعمر لطفى وبعض الأفراد الآخرين الموالين لإسماعيل باشا فى مواجهته لرياض، وعليه عدت إلى قريتى مرة ثانية. لكن سرعان ما سئمت الحياة فى القرية من جديد، نظرًا لأن القرويين كـانوا يتشاجرون دومًا ويصرون على عودتى مرة أخرى لإلقاء المحاضرات فى الأزهر. كان رياض باشا فى ورطة فى ذلك الوقت، وكان يود واحدًا يستطيع أن يكتب لغة عربية سليمة فى الصحيفة الرسمية، واستشار رياض محمود سامى فى هذا الأمر، وهو الذى قال له لو وجد ثلاثة من أمثال محمد عبده فى مصر لنجـت وأُنقـذت. وعبر الشيخ حسن الذى خلفنى فى المدرسة عن هذا الرأى أيضًا عندما طلبوا رأيه فى هذا الموضوع.

تأسيسًا على ذلك جرى تعيينى فى نهاية رمضان (المصادف لأكتوبر عـام ١٨٨٠) محررًا ثالثًا فى الجريدة. لكن المحررَيْن الأكبر منى رتبة كانا يغاران منى ولم يعطيانى أى نوع من العمل. وعليه لم تتحسن الجريدة مـن حيـث التحريـر. غضب رياض باشا من ذلك، وطلب التحقيق فى الموضوع، ونتيجة لهذا التحقيـق عُينت محررًا ثم مديرًا بعد ذلك للصحافة، له الحرية فى أن يفعل ما يـشاء. كـان ذلك قبل نهاية عام ١٨٨٠. وكانت المرة الأولى التى التقيتك فيها عنـدما ذهبـت بصحبة روجرز بك لزيارتك فى فندق النيل، وكنت أنا الذى ذكيت لك محمد خليل، الذى أحضرك بعد ذلك لزيارتى فى بيتى. انتقدت الحكومة انتقادًا شديدًا فى الجريدة الرسمية، وباعتبارى مديرًا للتحرير أطلقت الحريات كلها. لكننـى لـم أكـن مـن

المجندين للثورة، وكنت أرى أننا إذا ما استطعنا الحصول علــى الدســتور خــلال خمس سنوات سنكون قد حققنا شيئًا كبيرًا. لم أوافق على إقالة رياض باشــا فــى سبتمبر عام ١٨٨١. كانت مظاهرة عابدين قد حدثت قبل ذلك بحوالى عشرة أيــام، وكنت قد التقيت عرابيا فى منزل طلبة عصمت، وكان بصحبتى لطيف بك ســليم، وكان فى المنزل عدد كبير أيضًا من الناس. حثثت عرابيا على الاعتــدال وقلــت: "أنا أستشعر مجيء احتلال أجنبى، وإن من سيتحرش بذلك الاحتلال ستسوء سمعته وتتلطخ إلى الأبد". وفى هذه النقطة قال عرابى إنه لا يتمنى أن يكــون هــو ذلــك الشخص. وأبلغنى عرابى فى الوقت نفسه أن سلطان باشا سبق أن وعده بإحــضار التماس من كل نائب من النواب فى مصر، يطالب فيه بوضع دستور. هــذا كــلام صحيح نظرًا لأن العمد كلهم كانوا غاضبين من رياض باشا لأنه أوقف ممارستهم لعمالة السُخْرة. ورفض سليمان أباظة المشاركة فى الثورة باعتبارها لم يئن أوانها، واعترض شريف باشا على فكرة الثورة. لكن عندما صدر الدستور اتحدنا كلنا من أجل حمايته، غير أن عرابيا لم يستطع التحكم فى الجيش، الذى كانت لــه مطالــب كثيرة.

لم يكن لدى علم بمظاهرة عابدين، نظرًا لأنى كنت علــى ود مــع ريــاض باشا، لكن هذه المظاهرة جرى تدبيرها بعلم كل من سلطان باشا وشريف باشا. كان الخديو متقلبًا؛ إذ كان يغير رأيه من حين لآخر بشأن عرابى فى ذلك الوقت، وقــد انضم إلى رياض وداود باشا فى محاولتهما سحق عرابى، لكن فى اليــوم الــسابق لحدوث المظاهرة أبلغا الخديو الذى وافق مستهدفًا بذلك الإطاحة برياض.

الحوار الذى دار مع عرابى فى الشيخ عبيد فى الثانى من يناير ١٩٠٤:

تسألنى عن التاريخ الذى بدأ فيه الخديو توفيق الاتصال بالعَسْكر. حدث ذلك على النحو التالى: قبل واقعة قصر النيل بوقت قصير، شجع الخديو توفيــق علــى فهمى على المجيء إلينا. كان على فيمى قائدًا للحرس، لكنــه انــضم إلينــا فــى الالتماس الذى قدمناه لرياض باشا وتورط معنا عند إلقاء القبض علينا. بعد واقعــة قصر النيل، وبعد أن وقف الخديو علىٰ حقيقة الموقف الذى اكتــسبناه فــى أذهــان

الناس، فكر الرجل فى أن يفيد منا فى مواجهته لرياض باشا، وأرسل الخديو لنا على فهمى برسالة تقول: "أنتم الثلاثة من العَسكر، ومعى تصبحون أربعة". كان ذلك بعد شهر تقريبًا من واقعة قصر النيل، وكنا نعرف أن الرجل يحابينا أيضًا من خلال محمود سامى الذى كان وزيرًا للحربية. وقال لنا محمود سامى: "إذا وجدتمونى أترك الوزارة فاعلموا أن الخديو قد غير رأيه فيكم، وأن الخطر على الأبواب". وخلال صيف عام (١٨٨١) عندما بدأت المتاعب تحدث لنا من خلال جواسيس رياض باشا الذى كان وزيرًا للداخلية، والذى جعل الشرطة تضعنا تحت المراقبة، زادت ثقتنا بمحمود سامى.

وكنت أنا أيضًا داخلاً ضمن ذلك الاستياء بسبب رفضى السماح بأخذ جنودى من عملهم العسكرى لكى يعملوا فى حفر الترعة (الرياح) التوفيقى، إذ كان يجرى الضغط على عمل هؤلاء الجنود من قبل على باشا مبارك باعتباره وزيرًا للأشغال العامة. هذا السبب، هو وبعض الأسباب الأخرى، هو الذى جعل الخديو يبتعد عنا، وقرر مع رياض باشا عزل الجيش وتفكيكه، وتقرر بعشرة الكتائب ونقلها إلى أماكن بعيدة حتى لا نتمكن من الاتصال ببعضنا بعضًا. وجرى استدعاء محمود سامى بصفته وزيرًا للحربية، للعمل على تنفيذ هذه الخطة ضدنا، كان الخديو هو وبقية الوزراء فى الإسكندرية فى ذلك الوقت، وعندما رفض محمود سامى تنفيذ الخطة كتب له رياض باشا يقول: "لقد قبل الخديو استقالتك". وعلى الفور أخطر رياض باشا هو والخديو، محمود سامى بأنه يتعين عليه العودة فورًا إلى قريته فى إحدى المناطق المجاورة لمدينة طنطا وأن يبقى فيها، وقمنا نحن بزيارته لكنه رفض استقبالنا، وهنا عرفنا أن الشر مبيت لنا. وعين الخديو داود باشا مكان محمود سامى، وتزايد الغضب منا، وعلمنا أن هناك بعض المؤامرات التى تحاك ضدنا. فى بداية شهر سبتمبر عاد الخديو إلى القاهرة بصحبة رياض باشا والوزراء، وتقرر العمل ضدنا. وهناك تشاورت مع عبد العال وعبد الغفار قائد الخيالة فى الجزيرة، كما تشاورت أيضًا مع فودة بك حسن، وهو قائمقام (مقدم) يتولى قيادة حامية القلعة. كان العميد (ميرلاى) الذى يتولى القيادة فى القلعة قد أُقيل بأمر من محمود سامى، قبل أن يستقيل محمود سامى بوقت قصير،

ولم يكن قد حل أحد مكانه بعد. هذا العميد كان واحدا منا لكنه كان خائنا، واتفقنا على القيام بمظاهرة نطالب فيها بإقالة الوزارة كلها، على أن تحل محلها وزارة وطنية، وانعقاد مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ رجل. لكننا لم نخطر على فهمي بهذه الخطة، لأننا في تلك اللحظة لم نكن نثق بالرجل وثوقا تاما. وفي اليوم التالي كتبنا مطالبنا، وأرسلناها إلى الخديو في قصر الإسماعيلية، موضحين أننا سوف نتحرك إلى قصر عابدين في فترة العصر، انتظارًا لتلقي الرد. والسبب وراء ذهابنا إلى عابدين، وليس إلى قصر الإسماعيلية الذي يعيش فيه الخديو، هو أن قصر عابدين هو المقر العام أو الرسمي للخديو، ونحن لم نكن نود إزعاج السيدات اللاتي كن في القصر، ولو لم يحضر الخديو إلى عابدين كنا سنذهب إلى قصر الإسماعيلية.

بعد أن تسلم الخديو عريضتنا أرسل في طلب كل من رياض باشا، وخيري باشا، وستون Stone باشا، وتوجهوا في البداية إلى ثكنات عابدين، حيث تحدث كل من الخديو ورياض باشا إلى الجنود، ثم أصدرا أمرًا إلى علي فهمي بأنه يتعين عليه هو وكتيبته احتلال قصر عابدين. ووافق علي فهمي، وقام بتوزيع جنوده في الدور العلوي بعيدًا عن الأنظار، حتى يكونوا على استعداد لفتح النار علينا من النوافذ. لكني لست متأكدًا إن كان الجنود قد حصلوا على خراطيش من الذخيرة أم لا. ثم ذهب الخديو ومعه الجنرالات إلى القلعة، وتحدثوا إلى الجنود مثلما تحدثوا إلى الجنود في عابدين، وطلبوا إلى فودة بك مساندة الخديو في مواجهتنا، ووبخه الخديو قائلاً: "سأضعك في السجن". لكن الجنود أحاطوا بالعربة، وخاف الخديو وانصرف مغادرًا المكان، وعملاً بنصيحة رياض باشا، توجه الخديو إلى العباسية ليتحدث معي لكني كنت قد تحركت فعلاً بكتيبتي عبر حي الحسين إلى منطقة عابدين. سألوا عن المدفعية وقيل لهم إنها اتجهت أيضًا إلى عابدين، وعندما وصل الخديو وجدنا فعلاً نحتل ميدان عابدين، وكانت المدفعية والخيالة أمام البوابة الرئيسية للقصر، وفور وصولي أرسلت إلى علي فهمي، الذي عرفت أنه موجود هناك، وتحدثت معه وسحب الرجل جنوده من القصر، وانضم إلينا.

دخل الخديو من الباب الخلفي في الجانب الشرقي من القصر، ووصل إلينا على الفور ومعه جنرالاته وياوره الخاص، لكني لم أر كولفن معه، على الرغم من احتمال وجوده هناك، وطلب الخديو مني النزول من فوق الجواد، فنزلت، وطلب مني غمد سيفي، فأغمدته، لكن الضباط اقتربوا مني منعًا للخيانة، حوالي خمسين ضابطًا، بل إن بعض الضباط وقفوا بين القصر والخديو، لكن رياض باشا لم يكن مع الخديو في ميدان عابدين، وإنما بقي في القصر. وبعد أن ألقيت رسالتي وقدمت المطالب الثلاثة للخديو قال: "أنا الخديو، أنا خديو البلاد وأفعل ما أشاء (أنا خديو البلد وأعمل زي ماني عاوز). رددت عليه قائلاً: "نحن لسنا عبيدًا ولن نُورَّث بعد اليوم (نحن ما عبيد ولا نُورَّث بعد اليوم)". لم يقل الخديو شيئًا بعد ذلك، ولكنه انصرف وعاد إلى القصر، وعلى الفور أرسلوا إليَّ كوكسون ومعه المترجم، وسألني لماذا أطالب بالبرلمان وأنا رجل عسكري، وقلت: لكي نضع حدا للحكم العرفي المستبد. وأشرت إلى جمهور المواطنين المؤيدين لنا الواقفين خلف الجنود. وهددني كوكسون قائلاً: "سنحضر جيشا إنجليزيا". ودار بيننا نقاش طويل، وعاد كوكسون ست مرات أو سبع إلى القصر، وخرج منه أيضا حوالي ست مرات أو سبع إليَّ، إلى أن قال لي في النهاية إن الخديو وافق على المطالب الثلاثة، وإنه يرغب في أن يخلف حيدر باشا رياض باشا. لكني لم أوافق على ذلك، وعندما طلبوا مني الرأي اخترت شريف باشا، لأن الرجل كان يقف إلى جانب مجلس النواب ويحبذه، وكنت قد تعرفت مؤخرًا على شريف بعض الشيء من خلال مرات سابقة، وبخاصة في عهد سعيد باشا، عندما كان يخدم في الجيش. وفي المساء أرسل الخديو في طلبي وذهبت إليه في قصر الإسماعيلية، وشكرته لموافقته على مطالبنا، لكنه قال: "كفى، اذهب الآن واحتل قصر عابدين، وليتم ذلك دون موسيقى في الشوارع" (مخافة أن يأخذ الناس ذلك على أنه إشارة إلى الفرح والابتهاج)".

وعندما عاد علي باشا النظامي بصحبة أحمد باشا راتب قادمين من عند السلطان، انزعج الخديو مخافة إجراء تحقيق، وعندما أصبح محمود سامي وزيرًا للحربية من جديد أمرنا بمغادرة القاهرة، وهنا ذهبت أنا إلى رأس الوادي في حين

ذهب عبد العال إلى دمياط، لكن على فهمى بقى فى القاهرة. ولم أر على النظامى بعد ذلك. لكن عندما كنت فى الزقازيق أزور اثنين من أصـــدقائى، أحمـــد أفنـــدى الشمسى وسليمان باشا أباظة، فى أثناء عودتى بالقطار إلى رأس الوادى، تـــصادف أن كان أحمد باشا راتب فى طريقه إلى السويس، لأن الرجل كان مسافرًا إلى مكة لأداء فريضة الحج. ووجدت نفسى مع الرجل فى عربة واحدة، وتبادلنا التحية كما لو كنا غرباء، وسألته عن اسمه وسألنى عن اسمى، وتحدث معى عن الحج وعـــن أمور أخرى، لكنه لم يتحدث عن مهمته مع الخديو. وأنا بدورى لم أسأله عن ذلك، لكنى قلت له إنى مخلص وموال للسلطان باعتباره رئيسًا لديننا، وحكيت له أيـــضًا كل ما حدث، وقال لى: "لقد فعلت خيرًا". وتركته فى القطـــار عنـــد محطـــة رأس الوادى، ثم أرسل لى بعد ذلك مصحفًا من جدة، ثم كتب لى بعد ذلك عندما عاد إلى إسطنبول، ليقول لى إنه قال فى حقى كلامًا طيبًا عند السلطان، ثم تسلمت بعد ذلـــك رسالة مملاة من السلطان على الشيخ محمد ظافر يخبرنى فيها بما قلته أنا لك.

فيما يتصل بيعقوب سامى، هو رجل ينتمى إلى أسرة يونانية الأصل جاءت من إسطنبول، وقد ذهب يعقوب سامى بأمر منى إلى الإسكندرية لتحـــرى مـــسألة الإضراب، لكنهم لم يسمحوا له بالقيام بالتحرى والتحقيق المطلوب. ويعقوب سامى هو وراغب باشا هما اللذان اقترحا علينا قطع رأس الخديو. أنت تقول إننـــا كـــان بوسعنا التصرف على نحو أفضل من ذلك، لكنى كنت أتمنى تحقيـــق الثـــورة دون إهدار أية قطرة من الدم.

الملحق رقم (٢)

مظاهرة الإسكندرية

مظاهرة الإسكندرية فى الحادى عشر من يونية ١٨٨٢. المذكرة التاريخية التى أعدت عام ١٨٨٣، المبنية على الأدلة المقدمة على أصل المظاهرة التى قامت فى الإسكندرية فى الحادى عشر من يونية.

يبدو أنه:

١- عقب شجار الخديو مع وزرائه والحزب الوطنى حول موضوع المؤامرة الشركسية - أو بالأحرى ما حدث فى مايو عام ١٨٨٢ - حاول الخديو تأمين نفسه والاحتياط من الجيش الذى كان يؤيد الوزراء، وحاول الخديو شراء معاونة بعض من البدو، أو إن شئت فقل بعض قبائل البحيرة وبعض قبائل الغرب، وذلك من خلال وساطة إبراهيم بك توفيق، وقد أنفق الخديو في هذا الأمر مبلغًا يقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ جنيه إنجليزى على قبيلة أولاد على بصفة خاصة، الذين يحتلون الصحراء الغربية فى المنطقة من خط عرض القاهرة إلى الإسكندرية. وقد جاء مشايخ هذه القبائل إلى القاهرة، ورتب الخديو معهم بعد أن استقبلهم بترحاب كبير، إحضار عدد كبير من أتباعهم إلى القاهرة عن طريق الجيزة، بهدف إحداث قلاقل واضطراب فى المدينة - نظرًا لأن حزب البلاط فى ذلك الوقت كان يود إثبات وجود الفوضى فى مصر، وذلك من باب التقليل من شأن الوزارة الوطنية. ومع ذلك، فشلت هذه الخطة بسبب جبن البدو الذين لم يمكن إغراؤهم بالدخول وبأعداد كبيرة، إلى المدينة التى يفصلها النيل عن منطقتهم، وكانوا خائفين من الجنود. بعض من هؤلاء البدو أنفسهم، أولاد على، أقنعهم عمر باشا لطفى بعد ذلك، وكان محافظًا

للإسكندرية، أقنعهم وهم في منطقتهم بدخول المدينة دون سلاح ليشاركوا في المظاهرة، بعد أن جرى إيداع أسلحتهم لدى الشرطة التي أعادت إليهم هذه الأسلحة في يوم المظاهرة.

٢- ظل عمر لطفي حتى منتصف شهر مايو، على الرغم من شركسيته، يعبر عن تعاطفه الوطني المشترك مع معظم المسئولين، لكن عندما قُدّم الإنذار القنصلي في الرابع والعشرين من مايو، وعندما استقالت الوزارة الوطنية نتيجة لذلك، أرسل الخديو يطلب من عمر لطفي الحضور إلى القاهرة، وفي القاهرة أسند الخديو إليه في السادس والعشرين من مايو حقيبة في الوزارة الجديدة التي كان ينتوي تشكيلها، ولكن هذه الوظيفة أحبطت بعد عودة عرابي إلى السلطة. (هذه نقطة مهمة لأنها توضح اهتمام عمر لطفي الشخصي اعتبارًا من ذلك التاريخ بالإطاحة بأحمد عرابي).

٣- مع عودة عرابي إلى السلطة باعتباره المحافظ الوحيد الكفء في المحافظة على النظام، وبناء أيضًا على الضمان الذي أعطاه عرابي للقنصلين بالمحافظة على النظام، لجأ الخديو من جديد إلى خطته السابقة التي تقوم على خلق الفوضى، لكن لم يكن ذلك في القاهرة في هذه المرة. كان وصول درويش باشا متوقعًا بين عشية أو ضحاها ليلعب دور الحكم بين الخديو ووزارته، وكان من الضروري أن يكون الخديو قادرًا على معارضة وزيره، وعليه أرسل الخديو في اليوم الثالث من شهر يونية رسالة مشفرة إلى عمر لطفي يقول فيها:

> **"لقد تعهد عرابي بالمحافظة على الأمن العام، ونشر هذا التعهد في الصحف، وجعل نفسه مسئولاً أمام القنصلية، وإذا ما نجح في تحقيق هذا الضمان فسوف تثق به الدول وسيضيع احترامنا. أساطيل الدول موجودة في مياه الإسكندرية أيضًا، وأذهان الناس مرتبكة ومضطربة، والمشاجرات والنزاعات ليست بعيدة بين الأوروبيين والآخرين، والآن عليك أن تختار بين خدمة عرابي على ضمانته وبين خدمتنا نحن".**

٤- هناك أيضًا إرسال الخديو لابن عمه حيدر باشا مرتين إلى الإسكندرية، وهناك أيضًا استقبال الخديو السرى له عند عودته وقبل ذهابه فى كل مرة، هناك أيضًا ما يثبت أن حيدر باشا كان فى الإسكندرية فى يوم المظاهرة، وعودته فورًا بعد انتهاء المظاهرة إلى الخديو.

٥- هناك أيضًا خلال هذا الأسبوع (أى الأسبوع السابق للمظاهرة) صحيفة المحروسة الناطقة بلسان شريف باشا، والتى يحررها سليم النقاش، ذلك المارونى السورى، روت بعض الروايات عن مظاهرات كان ينبغى قيامها فى القاهرة، وبذلك تكون قد استثارت أذهان الناس ومهدتها لما سيحدث فى الإسكندرية. هذه التقارير جرى تداولها فى الدوائر الرسمية فى الإسكندرية، ويمكن الوقوف على أصلها ومصدرها.

٦- إن البدو الذين سبق الإشارة إليهم جرى تجميعهم طوال ذلك الأسبوع فى منطقة قريبة من الإسكندرية، وجرى لفت انتباه عمر لطفى المحافظ، لكن دون جدوى، إلى ذلك الظرف ومسألة التجمع غير العادى لهؤلاء الرجال الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا، فى الحى الأوروبى من المدينة.

٧- إنه فى التاسع من يونية (أى قبل المظاهرة بيومين)، وبعد الاتصال الذى حدث بين درويش باشا، مفوض السلطان قام الخديو بطلب عمر لطفى على أن يجيء فى قطار خاص إلى الإسكندرية، وبعد التشاور معه تشاورا مستفيضًا، أعاده ثانية إلى الإسكندرية. هناك دليل وإن كان غير مباشر مفاده أنه عند وصول درويش باشا والشيخ أسعد تسلم كل منهما رشوة من الخديو مقدارها ٣٠٠٠٠ جنيه إنجليزى و٩٠٠٠ جنيه إسترلينى كل على حدة، وقد أمكن الحصول على هذه المبالغ عن طريق رهن ممتلكات زوجة الخديو.

٨- إنه فى العاشر من يونية (أى قبل المظاهرة بيوم واحد) حدث لقاء فى القاهرة فى منزل درويش باشا، وكان هذا اللقاء بين درويش باشا والشيخ أسعد أحمد (وهما مبعوثان من السلطان) من ناحية، وبين محمود سامى

وعرابى باشا من ناحية أخرى – كان ذلك هو أول لقاء بين درويش باشا وعرابى – كان لقاء درويش وديا تماما، إلى حد أن الرجل حث عرابيًّا على تقديم استقالته من قيادة الجيش، من باب الحرص على الصالح العام، وعلى أن يوافق على السفر إلى إسطنبول. ووافق عرابى على هذين الشرطين شريطة أن يعطيه درويش باشا إعفاء مكتوبا من مسألة ضمانه للأمن العام. وعد درويش باشا بإعطاء عرابى ذلك الضمان المكتوب، لكنه اقترح أن ينتظر عرابى الحصول على الوثيقة فى الأسبوع التالى وبالتحديد يوم الاثنين، المصادف لليوم الثانى عشر من شهر يونية، وتعلل درويش باشا فى ذلك بأنه سيكون هناك اجتماع للقنصلين مع الخديو فى ذلك اليوم. وعليه جرى تأجيل موضوع قيادة الجيش إلى يوم الاثنين.

٩– إنه فى اليوم التالى لوصول عمر لطفى إلى الإسكندرية أرسل الرجل فى طلب قنديل، رئيس الشرطة، لكى ينسقا سويا الإجراءات الخاصة بالتجهيز للإضراب، الذى سيدوم ساعتين. وتظاهر قنديل بالمرض، ولكنه حضر على الرغم من ادعاء المرض. لم يكن قنديل يود توريط نفسه فى الأمر، وفى أثناء عودة قنديل إلى منزله، قرر التزام فراش المرض، تاركًا حسن بك صادق يحل محله فى قيادة الشرطة. ليس هناك دليل على أى شيء سوى أنه ستكون هناك مظاهرة "تدوم ساعتين"، والمرجح أنه لو كان عرابى قد استقال من قيادة الجيش على حد ما كان ينتظره درويش لكانت المظاهرة قد أحبطت أو أوقفت عن طريق أمر يصدر إلى القوات النظامية باسم السلطان. يجب ألا يغيب عنا أن الشرطة هى وفرقة المستحفظين كانوا تحت قيادة عمر لطفى باعتباره محافظًا للمدينة، وأنهم كانوا يحصلون على أجورهم من المحافظ، وأن أى حال من أحوال الحصار لا يمكن القيام بها من دون إذن كتابى من المحافظ، وكان المحافظ نفسه مسئولاً أمام الخديو شخصيا نظرًا لأنه اعتبارًا من تاريخ استقالة محمود سامى لم يجر تعيين وزير للداخلية.

١٠- فى الحادى عشر من يونية، المصادف ليوم الأحد، أو بـــالأحرى يـــوم المظاهرة، استأجر مالطى حمارًا (أو عربة كارو طبقًا لرواية أخـــرى)، وبعد أن ركب فى العربة وطاف على مختلف الخمـــارات فـــى الحـــى الأوروبى، توقف أمام "مقهى القزاز". ثم دخل فى مساومة مع صـــاحب العربة حول الأجرة المطلوبة، وكان صاحب العربة مسلمًا يـــدعى ســـيد العجان، الذى تبع المالطى فى القهوة حيث قام المـــالطى بطعنـــه، وأدى ذلك إلى وقوع مشاجرة عامة. وعندما استدعيت الشرطة ثم بعـــد ذلـــك قوات المستحفظين رفضوا التدخل فى الأمر، أو بالأحرى تدخلوا لزيادة الفوضى والارتباك. وهنا قام سكان منزل يقطنه المالطيون بفـــتح النـــار على الجمهور فى الشارع. وجاء المسلمون، وبخاصة البرابـــرة مـــنهم، ومعهم هراواتهم من الحى الإسلامى فى المدينة. وهنا تدخل البدو الـــذين سبق الإشارة إليهم، وشاركوا فى هذه المشاجرة، وتحولت المسألة إلـــى قتال عام. وبعد أن تلقى القنصل الإنجليزى رسالة من عمر لطفى، جرى الهجوم عليه وضربه. لم يحضر عمر لطفى فى بداية الأمر إلى مكـــان الحادث الذى كانت فيه المظاهرة، وعندما جاء الرجـــل كـــان يرتـــدى ملابسه المدنية، ولم يفعل أى شىء من أجل وقف القتال الـــدائر. علـــى العكس من ذلك سُمع عمر لطفى وهو يشجع بعضًا مـــن البـــدو علـــى الضرب. طوال مطلع وقت العصر لم يتصل عمـــر لطفـــى لا بالقائـــد العسكرى ولا بعرابى فى القاهرة. لكن جرى تبادل العديد من البرقيـــات بين عمر لطفى والخديو. فى واحدة من تلك البرقيات منع الخديو عمـــر لطفى من استخدام القوات النظامية، وإنما اقترح عليه وقف الاضطراب، الذى تحول إلى مذبحة، بأن يطلب العون والمـــساعدة مـــن أدميـــرلات البحر Admrals. وعليه لم ترسل أية برقية إلى ســـليمان ســـامى قائـــد الجنود، إلا بعد الساعة الرابعة، وكانت تلك الرسالة شفاهية وغير مدونة أو مكتوبة، الأمر الذى تسبب فى المزيد من التأخير، وكانت تلك البرقية الشفاهية مصحوبة باقتراح مفاده أن القوات يجب إرسالها دون ســـلاح. وأخيرًا قام سليمان سامى بإرسال القوات عند الساعة الخامسة، مـــسلحة وعلى مسئوليته الخاصة، وأخمد الاضطراب.

١١- كان في القاهرة في عصر ذلك اليوم فرح كبير ظهر بشكل واضح في القصر، وفي مكتب البلاط الخديو، فقد ذاع خبر في القصر عن انتهاء عرابي وتحطيمه. الدلائل كثيرة على الفرح الذي كان يعم القصر، وذاع أيضًا في القصر خبر رعب وفزع الوطنيين، ولم يُدع عرابي إلى التدخل حتى الساعة الحاسمة تقريبا.

١٢- لم يكن هناك تحقيق جاد حقيقي في الأسباب التي دعت إلى قيام الاضطراب، على الرغم من حث عرابي مرارًا على عمل مثل هذا التحقيق. كان معروفًا أيضا أن الخديو لقي عونا ومساعدة من أحد القنصلين في مسألة إحباط مثل هذا التحقيق، إذ كان من المعروف أن كثيرًا من الأوروبيين كانوا قد شاركوا في المراحل الأولى من الاضطراب. وبعد تشكيل وزارة راغب باشا، وبعد مصالحة الخديو مع الحزب الوطني، سمح الجميع بإلغاء التحقيق، على الرغم من معرفة الحقيقة من قبل الجميع.

١٣- كان معروفًا أيضًا أن عمر لطفي هو وحسن بك صادق (القائم بعمل رئيس الشرطة في يوم انطلاق المظاهرة) لم تجر محاكمتهما ولا مساءلتهما، وعلى النقيض من ذلك، حصل عمر لطفي على إجازة من الخديو بعد وقوع الاضطراب بفترة قصيرة، وكان على وشك مغادرة مصر عندما بدأت عملية قصف الإسكندرية بالقنابل، في حين جرى استقبال الرجل، بعد عملية القصف، استقبالا وديا وحارا في البلاط، كما حصل الرجل على المنصب الذي مُنِى به بعد سقوط عرابي، وهو منصب وزير الحربية، وهو المنصب الذي يشغله حاليا بشرف كبير.

رواية أحمد بك رفعت التي كتبها في السجن عام ١٨٨٢:

كانت الأسباب التي تقف وراء الحادث الذي وقع في الحادي عشر من يونية، هي وبعض المحاولات الأخرى ترمي إلى شيء آخر هو تشويه سمعة الوزارة، في أعين الأوروبيين، وتشويه سمعة الضباط والحزب، وهم الذين كانت أفكارهم هي التي تدير الحزب في ذلك الوقت.

عندما نشب الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامى (قبل صدور الإنـــذار النهائى)، سرت فى القاهرة شائعة مفادها أن الخديو سوف يحاول، من خلال عمالة بعض أتباعه، إقامة مذبحة فى القاهرة نفسها. ووصل الأمر إلى حد أنه فى ليلة من الليالى، وعندما كان محمود سامى (الذى كان وزيرًا للداخلية فى ذلك الوقت) فـــى زيارة لصديقه عمر بك رحمى فى منزله، وصلته أخبار تلك الـــشائعة المغرضـــة، الأمر الذى جعله يرسل فى طلب مدير الشرطة، وأصدر له أوامر بالاتجاه مباشرة لاتخاذ التدابير لتشديد الخفارة والحراسة ودعمها بكل ما فى سلطته، وذلك من أجل المحافظة على النظام، وخرج مدير الشرطة على الفور لتنفيذ الأمر الذى صدر إليه من محمود سامى وبقى الحال على هذا المنوال طوال المدة التى قـــضاها محمـــود سامى وزيرًا للداخلية.

لكن عندما رأى الخديو أنه لن يصيب نجاحًا من هذا الطريق، أرســـل فـــى طلب إبراهيم بك توفيق مدير البحيرة، وطلب منه أن يقوم بتجميع شـــيوخ القبائـــل البدوية ويحضرهم إليه، ونفذ إبراهيم بك توفيق ذلك الأمر الذى أصدره له الخديو. وعندما التقاهم الخديو استقبلهم استقبالا وديا، ومنَّاهم بـــالوعود، وأصـــدر أوامـــر للمدير، بأن يأمر شيوخ القبائل بتجميع ٣٠٠٠ من البدو العرب، وإحضارهم إلـــى العاصمة من ناحية الجيزة؛ على أمل أن عدم التزامهم بأى نظام يمكن أن يسفر عن حدوث اضطراب فى المدينة واختلال الأمن فيها، وأن ذلك سوف يعزى للجـــيش. وتقرر أن يدخل هؤلاء البدو على أنهم حرَّاس للخديو، وطوال شهر كامـــل ظـــل شيوخ القبائل يجيئون ويروحون، لكنهم وجدوا أن مسألة تجميع ٣٠٠٠ رجل تعـــد أمرًا صعبًا، كما اكتشفوا أيضًا صعوبة إدخال هؤلاء البدو إلـــى المدينـــة، نظـــرًا للخوف الذى كان يعتريهم من الجنود.

وعندما فشل الخديو فى هذه الطريقة أيضًا، كتب إلى عمر لطفى الذى كـــان محافظًا للإسكندرية فى ذلك الوقت، كتب له برقية مُشفَّرة قال له فيها: "لقـــد تعهـــد عرابى بضمان الأمن العام ونشر ذلك فى الصحف، ووضع نفـــسه فـــى موضـــع المسئولية أمام القنصلين، وإذا ما نجح عرابى فى هذه الضمانة فـــسوف تثـــق بـــه

الدول وهنا سيضيع احترامنا. يضاف إلى ذلك أن أساطيل الدولتين موجودة فى مياه الإسكندرية وأذهان الناس مضطربة والشجار ليس أمرًا مستبعدًا بين الأوروبيين والآخرين، من هنا عليك أن تختار بين خدمتك لعرابى من خلال الضمان الذى قدمه وبين خدمتك لنا".

وذاع خبر هذه البرقية على ألسنة الناس، وقيل إنها أرسلت من قبل بعض مستخدمى تلغراف البلاط الخديو.

وفى يوم المظاهرة (الحادى عشر من يونية) قَصَدت مكتب البلاط، أو المعية مثلما نقول عن مكتب اللورد تشمبرلين)، ورأيت أن مسئولى البلاط كانوا فى فرح كبير وفى سعادة بالغة بسبب ما حدث. وكانوا يتحدثون عما جرى، ويبالغون فيه، وكانوا يستهزئون بتعهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام.

جرت العادة عندئذ، واعتبارًا من وفاة المرحوم الخديو، ألا يقول أفراد البلاط سوى ذلك الذى يعجب الخديو، كما جرى العرف أن يضحك أفراد البلاط إذا ما كانت الأخبار تسر الخديو، أما إذا كانت غير ذلك فإنهم يبدو عليهم الأسف الذى كانوا يصطنعونه.

فى اليوم التالى للاضطراب شاع خبر فى القاهرة مفاده أن الخديو كان قد أبرق فى أثناء المذبحة، إلى عمر لطفى يأمره بطلب جنود من الأدميرال وألا يطلب جنودًا مصريين. ورد عليه عمر لطفى قائلاً: "الأدميرال لا يمكن أن يوافق على ذلك، مخافة أن يحدث شيء آخر لا يمكن وقفه، من الجنود الموجودين فى المدينة".

وعندما ذهبت إلى الإسكندرية بعد ذلك باثنى عشر يومًا من حدوث الاضطراب سمعت الناس كلهم يرددون بصوت واحد أن الذى تسبب فى وصول الأمر إلى هذا الحد هو المحافظ (عمر لطفى)، لأن الرجل كان موجودًا فى الإسكندرية ولم يصدر أمرًا يمنع ما يحدث، ولم يذهب إلى مكان الاضطراب إلا بعد بضع ساعات، ولم يستعن الرجل بالجنود النظاميين، على الرغم من وجودهم

بالقرب من مكان الحادث، وقال الناس جميعًا إن ذلك كان بتحريض من الخديو. وسمعت من الناس أيضًا، أنه عندما أوشكت المذبحة على الانتهاء كان المحافظ يتنقل من نقطة إلى نقطة، وكان هناك أوروبى يقف فى إحدى النوافذ ويحمل مسدسًا، وقال له واحد من البدو: "هل أفتح النار على هذا الرجل يا سعادة الباشا؟" ورد عليه: ارمه بالرصاص." وهنا أطلق البدوى طلقة على الرجل وأرداه قتيلاً. وفى ذلك اليوم الأسود دخل الكثير من البضاعة المسروقة منزل عمر لطفى ومنازل أقاربه.

سمعت منهم (من الناس) أيضًا أنه حرَّض بعض الناس فى أثناء المذبحة وأصدر إشارة إلى جنود الشرطة (المستحفظين) بأن يتغاضوا عما يرون، وهو يقول: "دعوا أولاد الكلب يموتون". قبل الاضطراب سافر حيدر باشا مرتين إلى الإسكندرية وعاد إلى القاهرة، وفى يوم الاضطراب كان حيدر باشا فى الإسكندرية، وعندما انتهى الاضطراب عاد الرجل إلى القاهرة، ثم سافر بعد ذلك مع الخديو فى يوم سفره إلى (الإسكندرية).

وعندما تشكلت لجنة للبحث فى أسباب الاضطراب، لم تجر مساءلة عمر لطفى عن أى شىء على الإطلاق، وعلى النقيض من ذلك وجهه الخديو إلى الاستقالة بعد أن يتمارض، وأن يقول: إنه يود زيارة أوروبا طلبًا للعلاج الطبى، وظل الرجل بعد ذلك يتردد جيئة وذهابًا بين القاهرة والإسكندرية فترة من الزمن، إلى أن اندلعت الحرب، ثم بقى فى الإسكندرية حتى عُيِّن وزيرا للحربية.

كان عرابى طوال هذه الفترة يبذل قصارى جهده من أجل الوفاء بتعهده، فكان يقوم بدوريات مستمرة فى شوارع القاهرة فى أثناء الليل لكى يتفقد الأشخاص فى مواقعهم، أو النقاط التى توجد فيها قوات "المستحفظين"، وأصدر الرجل تعليمات إلى الجميع فى مختلف الأحياء يطلب منهم المحافظة على الأمن.

كان عمر لطفى باشا محافظًا للإسكندرية فى أثناء الاضطراب، وكان بمثابة الشخص المسئول عن الأمن، وقد أهمل هذه العملية تماما، بل يمكن القول إنه ساعد على زيادة الفوضى.

الآن ومن باب الطاعة لعرابى – على حد زعم (لطفى) على الرغم من أن منصبه فى ذلك الوقت يعتمد اعتماذا مباشرًا على الخديو، نظرًا لأن الخديو كان قد أصدر مرسوما خاصا يقول إنه بعد استقالة محمود سامى تنقل كل الأمور الخاصة بالداخل إلى مكتب البلاط – كيف يعين (لطفى) وزيرًا للحربية مكافأة له على إطاعته لعرابى وعصيانه لأوامر سيده الخديو؟ لكن إذا كان ذلك إهمالاً من جانب الرجل، فكيف له فى ضوء هذا الإهمال وقلة الكفاية، إن يعين وزيرًا للحربية، وكيف أن الرجل لم يسأل ولو سؤالاً واحدًا، على الرغم من كونه الرجل الأول الذى ينبغى مساءلته؟ المسار الصحيح للأحداث يقول وبصوت عال، إن السبب فى تلك المظاهرة هو الخديو ولكن بالتنسيق مع عمر لطفى.

لجأ الخديو إلى الخطة نفسها فى السودان وراح يكتب للمحافظ بعدم الاهتمام بتقدم المهدى مستهدفًا بذلك زيادة الحرج. كانت البرقيات التى وصلت البلاط من محافظ (السودان) مختلفة عن البرقيات المرسلة من قبل ديوان الحكومة، وفى اليوم الذى وصلت فيه هذه البرقيات إلى ديوان الحكومة تفيد أن المهدى قد قتل، حاول البلاط الخديو تكذيب هذا الخبر، وأصبح يتضايق من أى إنسان يحاول تهدئة الأمور.

فى أثناء وجود (الخديو) فى سراى الرمل فى أثناء الحرب، جرى تجميع عرب البحيرة من البدو، الذين سبق أن تعهدوا له بخلق القلاقل والاضطرابات، حول قصر الخديو، وأن هؤلاء البدو هم الذين سلبوا ونهبوا وأحرقوا الإسكندرية ثم عادوا وسلبوا ونهبوا ما لدى الهاربين وأهل الريف (فى البحيرة)، إلى أن تمت إقالة المدير الذى شجعهم على ذلك، وجرت معاقبة الكثيرين منهم، حتى دب الخوف فى نفوسهم جراء مجىء الجنود الذين جاءوا واحتلوا المديرية.

أنا أعرف بعض الأشياء عن هذا الموضوع، ولو كنت خارج السجن لأكدت هذه الأشياء بشهود لا يمكن الاعتراض عليهم.

رواية الشيخ محمد عبده التي دونها عندما كان في المنفى في سوريا عام ١٨٨٣:

قبل أيام قلائل من حادث الحادى عشر من يونية أعلنت جريدة المحروسة (لسان حال عمر لطفى) أن الأوروبيين فى الإسكندرية كانوا يقومون ببعض التجهيزات، ولم تعلن الجريدة ذلك لسكان المدينة وحدهم، وإنما لسكان مصر كلها، وأوردت الصحيفة عدد أولئك الذين كانوا يسلحون أنفسهم بهذه الطريقة.

هذه الحماسة الغريبة – نظرًا لعدم وجود سبب واضح لمثل هذا الاستعداد – حدت ببعض النواب إلى مساءلة واحد من الكتّاب فى تلك الجريدة عن ذلك. وصرح ذلك الكاتب بأنه أُمر بنشر هذا الخبر، لكنه لن يفشى اسم الشخص الذى أصدر له تعليمات بفعل ذلك.

كان يعقوب سامى (وكيل وزارة الحربية) قد سافر إلى الإسكندرية قبل الاضطراب بحوالى خمسة أيام لاستقبال درويش باشا، وعندما وصل يعقوب سامى إلى الميناء بلغه أن برقية وصلت من القاهرة تفيد أن الخديو جرى اغتياله، وعلى الفور أبرق يعقوب سامى لاستطلاع ذلك الخبر، وجاءه رد بأن الخبر كان صحيحًا وأن الخديو قتل بالفعل، وأن العاصمة فى حالة من الفوضى وأن الأوروبيين يجرى ذبحهم، وأبرق يعقوب سامى مرة ثانية، ولكن إلى مكتب قصر النيل، وجاءه رد ينفى الخبر. واكتشف بعد ذلك أن ذلك الخبر الكاذب المزيف جاء عن طريق مكتب الأزبكية فى القاهرة، لكن وجود يوسف يعقوب فى الإسكندرية تسبب فى تأخير قيام الاضطراب.

قبل أيام قلائل من اندلاع المظاهرة الفعلية لوحظت حركة غير عادية بين الأوروبيين فى المنطقة المجاورة للميدان الكبير (مكان القنصليات)، وقد لفت أحمد أفندى نبيه، مشرف الشرطة فى هذا الحى، انتباه رئيس الشرطة الضبطية مرتين إلى الحركة غير العادية، كما لفت انتباه المحافظ إلى ذلك أيضًا لكن دون جدوى. وقد أبلغ طاهر أفندى الكبريدى، وهو ضابط آخر من ضباط الشرطة، المحافظ بما يلاحظه هو أيضًا، لكن عمر لطفى لم يتخذ أى إجراء من إجراءات الاحتياط.

كان عمر لطفى نفسه واحدا من الشخصيات البارزة فى مسألة إقامة العزائم على شرف العسكريين، وكان يدعو الخطباء والمتكلمين إلى منزلــه لكــى يحثــوا الناس على تبنى قضية الجيش. لقد كان أول من ضرب المثل، وتبعه عدد آخر من الشخصيات البارزة، فى عقد مثل هذه الاجتماعات التى يكون هــو فيهــا بطبيعــة الحال الضيف الرئيسى، وكان يتردد عليهم رؤساء تحريــر الــصحف والأجانــب وآخرون، وكانت الخطب تلقى فى حضور الرجل، ولم يحدث أن كشف قط عن أية علامة من علامات السيطرة أو التحكم فى الأوضاع. وجــاء الإعــلان الــصادر مؤخرًا بمثابة أول رغبة من جانب الرجل فى السيطرة على الأمور والتحكم فيها.

يدعى سيادة المحافظ أن الاضطرابات حدثت بفعل خطب عبد الله النديم، فى حين كانت هذه الخطب ترمى إلى تهدئة الناس، وتشرح لهم أنهم حتــى وإن أســاء بعض الأوروبيين السفلة معاملتهم أو ضربوهم، فإنهم يتعــين علــيهم أن يحــذروا الدخول فى الشجار أو النزاع، لأن هذا هو الجوهر والأساس الذى يمكن استخدامه ذريعة لقصف الأسطول لمدينة الإسكندرية بالقنابل. وكان هناك نواب كثيرون على استعداد للشهادة على ذلك. وواقع الأمر أن النديم لم يكن فى الإسكندرية عندما قــام الاضطراب، حيث كان فى القاهرة.

بدأت المظاهرة عند الساعة الواحدة ظهرًا فى شارع إبراهيم بــالقرب مــن مركز الشرطة، بين مواطن يدعى العجيان وواحد من المــالطيين، قــام بــضرب العجيان وطرحه أرضًا بعد أن جرح. وطلب أخوه مــن أحــد رجــال الــشرطة الإيطاليين أن يقوم بإلقاء القبض على ذلك المالطى، وبدلا من ذلك قــام الــشرطى الإيطالى بضرب الرجل وأساء معاملته، وعندما كان الرجل يتحاشى الضرب تجمع حوله جمهور كبير من الناس، وقام شقيق الجريح بإيذاء واحد من جنود الــشرطة. كان عدد رجال الشرطة صغيرًا على نحو لم يتمكنوا معــه مــن تفريــق جمــوع الحاضرين، ولم يحدث حتى تلك اللحظة قتال أو شجار يمكن الحديث عنه، إلى أن بدأ إطلاق الأعيرة النارية من النوافذ بواسطة الأوروبيين على جموع الحاضرين.

هجم الأوروبيون على السكندريين الهائجين، الذين رفعوا العصى، والمظلات، والكراسي حيثما وجدوها، ومن الدكاكين، وكذلك رفعوا الطاولات، فى وجه الأوروبيين... إلخ.

أما فيما يتعلق بسيادة المحافظ، فإنه لم يحضر إلى مسرح الأحداث إلا بعد مضى ساعتين ونصف الساعة. وأرسل المحافظ فى طلب القنصل البريطانى المدعو كوكسون، وألح فى حضوره، ولم نكن نعرف الهدف من وراء ذلك، وعندما جاء القنصل البريطانى راح يشق طريقه بصعوبة وسط الناس معرضًا حياته للخطر.

لم يسارع عمر لطفى فى طلب فرقة الشرطة (المستحفظين) التى كانت تحت قيادته المباشرة، إذ كانت تابعه للضبطية. هذه الفرقة لم تكن لها علاقة من أى نوع بوزارة الحربية، إذ كانت رواتب هذه الفرقة وإدارتها فى يد الحكومة. وعندما جرى مؤخرًا حث الرجل ودفعه إلى استدعاء هذه الفرقة أرسل فى طلبها على أن تحضر مجردة من السلاح، الأمر الذى أقنع أفراد هذه الفرقة بأن رغبة المحافظ هى زيادة جذوة الاضطرابات ليس إلا. وجاءت الفرقة تحت هذا الستار، وراحت تشارك مع القتلة والمخربين، وراحوا يرسلون الكثير من المسروقات والمنهوبات إلى منزل المحافظ.

عندما وجد المحافظ أن الأمر وصل إلى هذا الحد، الذى يمكن أن يُجَرِّمه أرسل فى طلب السلاح على أن يتم إحضاره فى سيارات، لكن كان الأوان قد فات، إذ جنود "المستحفظين" قد تفرقوا بالفعل.

كان مركز رئاسة القوات النظامية قريبا من مكان الحادث، لكن عمر لطفى لم يتصل بتلك القوات النظامية ويطلب مجيئها إلا بعد أربع ساعات، وحتى عندما فعل ذلك، فعله بطريقة غير مباشرة، إلى حد أن العقيد مصطفى عبد الرحيم، تخوفًا من تحمل المسئولية، قام برد الطلب قائلاً إنه يجب أن يصل بالطريقة الرسمية. وبعد أن جاء الطلب بالطريقة الرسمية، خرجت القوات النظامية وفرقت المتظاهرين واستعادت النظام. وشهد القناصل الأجانب كلهم على ذلك.

كان هدف المحافظ من وراء التغافل عن الأصول العسكرية، عن طريق إطالة النقاش والحوار بينه وبين العقيد مصطفى عبد الرحيم، هو المساعدة على زيادة نشر الفوضى والاضطراب. وقد ورد فى أحد التقارير أن سيادته، حرّض الدهماء والجماهير على السلب والنهب، وعندما كان يسأله أحد الناس الذين سمعوا الشائعة، كان يرد عليه قائلاً: "بالتأكيد، فعلت ذلك لكى أحولهم عن قتل الناس". يا الله، يا لها من سياسة حكيمة!

طوال وقت المظاهرة كان بعض الموظفين فى قنصلية كوكسون، يتحركون بين الأوروبيين لكى يحرضوهم على الخروج والمشاركة فى القتال.

بينما كان المحافظ وقائد القوات ومعهما وكيل الضبطية جالسين فى ديوان المحاكم المختلطة بعد ساعة من غروب الشمس، جاءهم خبر مفاده أن حمولة عربة كارو من السلاح كانت فى طريقها إلى القنصلية البريطانية. ولم يستطع المحافظ فعل أى شيء، لكن القائد استوقف تلك العربة وأودع حمولتها فى الضبطية.

وقد تبين لقائد قائد القوات فى باب شرق أن عمر لطفى نفسه كان يُحَرِّض على الفوضى والاضطراب، وكان بوسعه إلقاء القبض عليه، لكنه لم يستطع القيام بذلك، نظرًا لأن البلاد لم تكن فى ظل الحكم العسكرى، وتعين على الرجل انتظار وصول يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية لكى يعرض الأمر عليه، ومع ذلك لم يجر إلقاء القبض على عمر لطفى بعد وصول يعقوب سامى وتم التجاوزعن هذا الموضوع.

عند الساعة السابعة ليلاً تقريبًا وصلت العقيد مصطفى عبد الرحيم أخبار مفادها أن بعض القوارب الصغيرة كانت تقترب من الشاطئ مستهدفة إنزال بعض الجنود البريطانيين. وقام مصطفى عبد الرحيم بإبلاغ ذلك إلى المحافظ، الذى قال إن ذلك أمر لا يمكن أن يحدث، لكن من باب التأكد اتجه المحافظ إلى القنصلية الفرنسية، التى رافقه بعض العاملين فيها هو وبعض الضباط الآخرين ومعهم مفرزة صغيرة من الجنود، واتجهوا جميعًا إلى شاطئ البحر. وهناك تأكدوا من صحة التقرير، وواصلوا السير بعد ذلك إلى القنصلية البريطانية، ومن القنصلية البريطانية وبعد الأخذ والرد جرى التأشير للقوارب الصغيرة بالعودة مرة أخرى إلى المكان الذى جاءت منه.

واحتج السواد الأعظم من أولئك الذين جرى القاء القبض عليهم فى اليوم التالى. ذكروا أنهم لا لوم عليهم مطلقًا نظرًا لأن سيادة المحافظ نفسه هو الذى أعطى لهم الأوامر بالهجوم والسلب والنهب. لو حدث أى نوع من أنواع التحقيق فى تلك الأيام القلائل الأولى، لانصرف الشك، فى ضوء أقوال الغالبية العظمى من المتهمين إلى شخص المحافظ نفسه. لكن الأدميرال سيمور لم يكن ليوافق على إجراء مثل هذا التحقيق مخافة ضياع ذريعة ضرب الإسكندرية بالقنابل.

كان سيد قنديل يحتفظ بالوثائق التى توضح تماما كيف أن هذا الأمر جرى تنظيمه بواسطة المحافظ هو والخديو، وأن ذلك كان خطة محكمة، لكن بعد القاء القبض على سيد قنديل جرى إجباره على تسليم الوثائق والأوراق. ومع ذلك لم تجر مساءلة عمر لطفى بأى شكل من الأشكال. بل جرت على العكس من ذلك ترقيته إلى أرفع المناصب المهمة.

كان إبراهيم باشا أدهم مدير الغربية، فى طنطا مصادفة عندما نصبت المذبحة، ودخل الرجل إلى مقر الحكومة بعد أن جمع داخله المسئولين الآخرين كلهم هم والكتبة وكذلك السكرتيرين، وأغلق الباب من الداخل تاركًا السكان لأنفسهم، الأمر الذى أدى إلى انتشار الفوضى، وكان يمكن أن ينتشر إلى ما هو أبعد من ذلك لولا أحمد بك المنشاوى هو وشقيقه – وهذان الاثنان لم يكونا من المسئولين – قاما بإخماد الفوضى وانقاذ اليهود والمسيحيين والأثرياء من ثورة وغضب الدهماء والهاربين من الإسكندرية. هذا المدير لم يجر استجوابه وأعيد تعيينه مديرًا للغربية بعد الحرب، أدعو الله أن ينزل به حسابه جزاء له على الدماء التى سفكت!

يزاد على ذلك أن من بين الأحكام التى صدرت فى تلك الأيام، حكم أصدرته المحكمة العسكرية السكندرية على عبد الرَّزاق علوان، وكيل مديرية البحيرة فى أثناء الحرب، يقضى بنفى الرجل خمسة عشر عامًا إلى بلدة مصوع جزاء له على "مساعدته فى قيام الاضطراب والتحريض عليه فى دمنهور"، مع أن الله يعلم أن هذا الرجل – كما يعلم الناس جميعهم – خاطر بحياته الخاصة هناك لحماية أناس

آخرين وحماية لممتلكاتهم. وعلى الرغم من أن المظاهرة التى حدثت فى دمنهور كانت بفعل إبراهيم بك توفيق، المدير الذى استطاع على الرغم من طرده من الخدمة فى اليوم السابق للمظاهرة أن يُفلح فى تنفيذ خطته قبل أن يتولى المدير الجديد مهام وظيفته هذا المسئول أعيد تعيينه مديرًا على البحيرة بعد الحرب. كما استطاع أن يجمع مبلغ ١٢٠٠٠ جنيه إنجليزى من السكان على شكل رشاوى، والواقع أن إصلاح الأخطاء التى ارتكبها ذلك الرجل يستغرق وقتًا طويلاً.

أنا أعتقد بحق أن الحكومة البريطانية على استعداد للصفح عن أية جريمة من أجل حماية نفسها وإرضاء سمو الخديو. فى الوقت الراهن ترى بريطانيا العظمى أن "استعادة النظام" تتمثل فى إشباع تعطش سموه هو ومن يحيطون به للثأر وشفاء الغليل، والتضحية بالسكان المساكين التعساء من أجل إشباع نزوات هذه الطغمة من البشر. هم يحسبون أنهم يمكن أن يجبرونا على الاعتقاد بأن استعادة النظام والعدالة، عندما تؤكد الصحف أن النظام والعدالة أرسيا بفضل حكمة جناب الخديو، وبفضل وزرائه، وكذلك حماس الجيش البريطانى أيضًا لهذين الأمرين.

ليس هناك داع أن نسأل شعب مصر عن ذلك الذى يعانى منه، إذ يكفى فقط أن ننصت إلى أنين هؤلاء الناس وأحزانهم.

رواية عرابى، الأسباب الحقيقية لأحداث الحادى عشر من يونية عام ١٨٨٢ فى الإسكندرية:

جماعة البلاط المشكلة من الشراكسة والأتراك أعداء للجنس البشرى، يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى خلق المصريين ليكونوا عبيدا لهم وخدما، يمارسون عليهم السلطة المطلقة طبقًا لرغباتهم الوحشية، ويعاملونهم بقمع واحتقار. عندما رأت (جماعة البلاط) هذه أن المحاولات التى بذلها الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمارها، وعندما أدركت أيضًا أن من بين المصريين أفرادًا وأشخاصًا أكفاء، راحوا يتقدمون نحو مقاعد الوزراء ويجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم

المقدسة، وعندما أدركوا أيضًا أن الكثير من أصحاب هذه الكفاءات كانوا متقدمين، وارتفعوا إلى أعلى المناصب، وعندما أدركوا أيضًا أن الأمة أصبحت تشم نسيم الحرية، بعد أن ألقت بأغلال العبودية بعيدًا، ولم يترتب على ذلك ما يعكر صفو الهدوء العام أو يخل بالأمن العام، وكان ذلك كثيرًا جدا على أعداء المصريين، عرف هؤلاء الأعداء أن السبيل الوحيد أمامهم هو وقف النجاح المصرى، وأن الطريق الوحيد إلى ذلك هو اختلاق تهمة صارخة ووحشية ضد أوروبا كلها، الأمر الذى سيضطرها إلى اتخاذ إجراءات فاعلة لتدمير المتعلمين المصريين وإبعادهم عن بلادهم، وأنهم عندما يفعلون ذلك سيخلو لهم الميدان، وهنا يقوم أعداء المصريين بتكريس العبودية من جديد فى البلاد، ووافقت (جماعة البلاط) على ذلك، وراحوا يستفيدون من مسألة تعهدى بحفظ الأمن والنظام والمحافظة على سلامة الأوروبيين والأمن العام فى أنحاء مصر (وكان الخديو قد كلفنى بهذه المهمة فى حضرة درويش باشا مبعوث السلطان، كما ألزمنى أيضًا بالمحافظة على سلامة مصالح ورعايا الدول الأوروبية كلها)، باعتبار ذلك خطوة على طريق التعجيل بتنفيذ ذلك الذى سبق التخطيط له – وكان الهدف من ذلك كله هو تشويه المظهر المشرف لأعمالنا فى عيون أوروبا كلها.

فى البداية أرسل الخديو إلى عمر لطفى باشا، الذى كان محافظا للإسكندرية فى ذلك الوقت، يطلب منه الحضور إلى العاصمة بقطار خاص، فى التاسع من يونية من عام ١٨٨٢، وعند وصوله تشاور معه الخديو مدة طويلة، معطيا إياه التعليمات الضرورية لتنظيم المظاهرة فى الإسكندرية، وبعدها عاد عمر لطفى إلى الإسكندرية فى نفسه، وبدأ تنفيذ التعليمات التى أصدرها له الخديو، إلى حد أنه فى الحادى عشر من يونية (أى بعد يومين من تلقيه التعليمات من الخديو) انطلقت المظاهرة، والدليل على ذلك أن جنود قوة الدُرك – وهم المسئولون عن السواد الأعظم من حالات القتل التى وقعت أمام باب مركز الشرطة وأمام باب مركز قوات الضبطية، يزاد على ذلك أن جنود الشرطة لم يقوموا بمهمتهم أو واجبهم، ولم تأت قوات الدرك إلا بعد أن سخنت الأجواء تمامًا، كما أن جنود الدرك عندما وصلوا إلى المكان كانوا مثل المتفرجين ودون سلاح، وذلك عكس المهمة المكلفين

بها، هذا كله، بالإضافة إلى أن المحافظ نفسه، ومع إسماعيل كامل باشا، الشركسى، قائد قوات الدرك، كانوا كلهم شهودًا على المظاهرة من بدايتها إلى منتهاها. ولم يكلفوا أنفسهم منونة طلب الجنود منذ البداية (أقصد "القوات النظامية") أو منونة إطفاء نار الحريق، إلى أن وصل الاضطراب إلى ذروته، وتم تنفيذ الأوامر السرية التى أصدرها الخديو، وذلك على الرغم من قدرتهم على وقف الاضطراب.

ثانيا، لم يعطنى عمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية، أية معلومات على الإطلاق على الرغم من معرفته بأنى تعهدت بالمحافظة على الأمن العام والهدوء فى سائر أنحاء البلاد، وذلك على الرغم من صدور إعلان بهذا المعنى من الخديو، ونشر هذه الإعلان فى الصحف كلها، العربية والأوروبية.

ثالثا، جرى تعيين عمر لطفى بعد القيام بذلك كله – بحكم أنه هو المحافظ والمسئول عن كل ما حدث فى المدينة – رئيسا للجنة التحقيق فى تلك الأحداث المؤسفة، وطلب الرجل التصريح له بإجازة للسفر إلى الخارج طلبًا لشىء من التغيير، وقد وافق له الخديو على ذلك السفر، فترك الرجل مكتبه بعد ذلك، لكنه بقى فى مصر فى مهمة خاصة به هو إلى أن نشبت الحرب، وجاء إلى الخديو فى الإسكندرية عن طريق بورسعيد، ثم عين عندئذ وزيرًا للحربية. وبالمثل أيضًا، فعل إسماعيل كامل باشا شريكه، مثلما فعل هو، وجرى تعيينه وكيلاً لوزارة الحربية. هذا كله يعد دليلاً واضحًا على أن المظاهرة جرى التخطيط لها والتصميم عليها بواسطة الخديو وكل من عمر لطفى باشا وإسماعيل كامل باشا ومعهم بقية أعداء المصريين من أجل إثارة أوروبا وتحريضها علينا.

هذه هى الحقيقة، ومن هنا يصبح من واجب الأمناء من الرجال أن يتحروا بدقة صدق ما ذكرته آنفا.

رواية أحمد بك رفعت التى قدمت للسيد بلنت من تونس عام ١٨٨٣:

هناك من لا يزالون يقولون ويكتبون أن الحزب الوطنى المصرى ورئيسه مسئولون عن الأحداث المؤسفة التى وقعت فى الحادى عشر من يونية، بعض

الكتاب لا يتورعون عن تسمية أشخاص بعينهم، وعلى الرغم من التحقيــق الــذى أجرى مؤخرًا، وأن هؤلاء الأشخاص هم المحرضون على ذلك الذى وقع فى ذلــك اليوم المشئوم، حاول أحد هؤلاء الكتاب تفسير الأمور، وذهب فى شرحه هذا إلــى شأو بعيد، متغاضيا عن التناقض، فى مسألة تحديد الهدف الدقيق من الاضــطراب. ويستطرد هذا الكاتب ليقول، على حد تعبيره: "رغبة فى اســتثارة خيــال الباشــا التركى (درويش باشا) من ناحية، وإبراز وتأكيد الوضعية الممتازة لأحمد عرابــى، من ناحية ثانية، وبخاصة أن القناصل يودون إلقاء مسئولية المحافظة على الأمــن العام على عاتق الرجل، وتخيل المشاركون فى الاضطراب أن خطة إثارة القلاقــل والاضطراب، وبغض النظر عن طبيعة تلك الخطة، تخيلوا أن هذه الخطة يستطيع عرابى إخمادها بمجرد رفع يده".

وأنا باعتبارى سكرتيرًا للحكومة فى أثناء وزارة عرابى، وبحكــم معرفتــى للرجال ومعرفتى أيضًا لشئون وأحوال بلادى، أجد لزاما علىَّ، من أجــل الحقيقــة ومن أجل صالح بلدى العام أن أضع أمامكم هنا معلومات ومعطيات تفند وتــدحض تمامًا الافتراءات التى لا تبتغى سوى تشويه السمعة. هذه التفاصيل سأعطيها لكــم بكل سرور، من منطلق معرفتى أنكم تهتمون بمصائر أولئك الذين تتمثل جــريمتهم فى أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنهــا، وأنــا لا أخــشى تقــديم هــذه المعلومــات والمعطيات، وأنا سجين مثل أحمد عرابى، ورأيت بعينى كثيرين من الذين يجــدون أن من الشرف والكرامة سب رجل، يمثل، ولا يزال يمثل بفضل أمانته وليبراليته، مستقبل مصر.

فى يوم الأحد الموافق للحادى عشر من يونية، كــان المفــوض العثمــانى درويش باشا، الذى وصل قبل ثلاثة أيام إلى القاهرة، يسير فى الطريق الذى يربط قصر الجزيرة بجسر قصر النيل. كان الرجل قبل ذلك قد أجرى مقابلة طويلة فــى بيته مع عرابى باشا والوزراء السابقين كلهم، وكان متجها إلى قصر الإســماعيلية، الذى يقيم فيه الخديو، مستهدفا بذلك إبلاغ الخديو مجمل جرى الاتفاق عليه، والتــى قيل إنه قد يساعد على إحداث نوع من المصالحة بين الخديو الــشاب ووزراتــه.

وعلى مقربة من جسر قصر النيل التقى درويش باشا طلعت باشا سكرتير الخديو، والذى أوفد من قبل الخديو ليعلن لدرويش باشا أن إضرابا قام فى الإسكندرية، وأن ذلك الاضطراب مستمر منذ حوالى ثلاث ساعات، وأن الأوروبيين والمسيحيين يُذبحون في كل مكان. وقد جرى إبلاغ هذا الخبر بمسحة من الانتصار، إذ كان يبدو الفرح على وجه طلعت باشا. كان يبدو وكأنه يقول: إن عرابيا، الذى فعلنا الكثير من أجله، هو السبب الرئيسى وراء كل ما حدث. واقع الأمر، أن عرابيا كان قد التزم أمام القناصل كلهم وفى حضورهم، بالمحافظة على الأمن العام، أو إعادته إذا ما حدث اضطراب أو قلاقل. وهذه الأحداث تثبت عدم صدق الرجل، كانت المذابح دائرة على امتداد ثلاث ساعات، والرجل عاجز عن فعل أى شيء لاستعادة النظام. كان ذلك سببا أكثر من كاف لاقناع زبانية الخديو، الذين لم يحلموا بشيء سوى سقوط وتدمير عرابى باشا، حتى ولو كان ذلك على حساب الأمن العام. كلف درويش باشا واحدا من الياوران الذين كانوا معه فى العربة بالعودة فورا إلى عرابى. ولما كنت أنا موجودًا أو حاضرًا، فقد عرضت أن آخذ معى فى عربتى مبعوث درويش باشا، وأوصلت هذا المبعوث فعلاً إلى منزل محمود باشا سامى، الذى كان عرابى موجودًا فيه فى ذلك الوقت.

ذاع خبر الاضطراب فى سائر أنحاء المدينة، وأصاب الذعر الجميع، الأمر الذى أدى إلى شل انتباه عرابى هو ورفاقه. كان الفرح يعم قصر الخديو. وردا على البرقيتين اللتين أرسلهما عرابى إلى محافظ الإسكندرية، قال المحافظ: إن الجيش الذى تحت قيادته قد سيطر على الاضطرابات واستعاد النظام. انتشرت فى ذات الوقت أغرب الشائعات خلال الشوارع، البعض منها كان بمثابة رد على إشارة تفيد أن عرابيا هو الذى أمر بتلك المذبحة، وليس لها تفسير غير ذلك. قال آخرون، ممن يبدو عليهم التظاهر بمعرفة بواطن الأمور، إن هذه الحركة جرى تنظيمها وتدبيرها بواسطة محمود باشا سامى، ورئيس الوزراء الأسبق. إن أذكى الأذكياء، كانوا يرون بلا تفسير أو تبرير، أن الأمر ينطوى على مؤامرة فجة، هؤلاء الناس لم يصدقوا أو يتصوروا أن عرابيا كان متورطًا فى هذا الأمر بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

فى الثامن والعشرين من مايو، أى قبل الاضطراب بأربعة عشر يومًا، كان عرابى قد أعلن للدول أنه يعد نفسه مسئولا شخصيا عن النظام والأمن العام. كان يعرف وأعلن بصوت عال أن سلامة مصر وأمنها يعتمدان على المحافظة على النظام. كان الرجل يعترض دوما على فكرة خلع الخديو عن العرش، وأعلن أنه ضمن له الحماية ضد حدوث أى شيء من هذا القبيل. فى هذين الإعلانين، كانت فكرته الأولى تتمثل فى تأكيد حفاظه على سلامتهم الشخصية، وتهدئة عقول الناس. كيف يمكن لهذا الرجل نفسه، وفى لحظة هو يعرف مدى خطورتها أن يحنث فى وعوده، ويتصرف بطريقة تتعارض مع هذه الوعود، ويعلن عن عجزه هو شخصيا؟ لو كان عرابيا، على حد قول الكاتب السابق، قادرًا على وقف ذلك الاضطراب بمجرد رفع يده، لكان هناك مبرر للقول، على حد قول الكاتب نفسه، إن عرابيا كان يود استعراض قوته، لكن الخديو لم يحمّل نفسه مئونة إبلاغ وزير الحربية، بما حدث والذى حدث أن عرابيا علم بهذا الخبر من درويش باشا، بعد ثلاث ساعات من اندلاع الاضطراب، ومن ثم كان يستحيل عليه وقف الاضطراب بمجرد رفع يده.

على الجانب الآخر، هناك أمر أكيد آخر، وهو أن الاضطراب لم يكن خفيا ولا مجهولاً لأحد، فقد جرى التخطيط له مسبقا، وجرى الترتيب له بمهارة. لقد ثبت أن النبابيت (العصى الغليظة التى يستعملها الخفراء المصريون فى أثناء الليل) جرى توزيعها قبل المظاهرة بأيام قلائل، على عامة الشعب عن طريق العملاء السريين، وأن تلك النبابيت بدأت تظهر فى آن واحد فى أحياء مختلفة من المدينة، فى اللحظة التى قتل فيها المالطى المكارى (الحمَّار) المصرى لسبب تافه، وثبت أيضًا أن المكاريين السكندريين، تلك الطائفة المسالمة محبة تمامًا للبقشيش، الذى أمكن بفعله جعل هذه الفئة تلعب دورا مهما فى أحداث ذلك اليوم المشئوم، وثبت أيضًا أن اليونانيين والعرب، المسلحين بالمسدسات والمتمركزين على شكل أكمنة فى بعض المنازل، كانوا يفتحون نيران أسلحتهم من النوافذ على المتظاهرين، مستهدفين بذلك نشر المذبحة وتوسيعها عن طريق فتح النار عشوائيا وبلا تمييز بين الأوروبيين والعرب على حد سواء، وثبت أيضا أن الشيوخ المتشددين، والذين

لا يعرف أحد مكانهم، راحوا يحرضون السكان المسالمين على قتـل المـسيحيين كلهم، وثبت أيضا أن المستحفظين (الحرس الخاضع للسلطة المدنية)، الذين أوفدهم المحافظ بهدف محدد هو إخماد الفوضى، راحوا يطعنون النـاس التعـساء الـذين جاءوا أصلاً لحمايتهم، وثبت أيضًا أن الهاربين الذين لا حول لهم ولا طول، جرى قتلهم بواسطة المستحفظين على مرأى ومسمع من الشرطة، كما ثبت أيضًا أن البدو الذين جاءوا من منطقة قريبة من الإسكندرية، كانوا على وشك المساهمة فى عملية السلب والنهب، إلا أن ظهور القوات النظامية (الجيش) التى لم تظهر إلا بعد أربـع ساعات من إشهار أول سلاح، هو الذى حال بين هؤلاء البدو وبين المشاركة فـى الاضطراب، وأجبر هؤلاء البدو على التراجع.

يجدر بنا هنا القول إن الممثلين الرئيسيين فى مشاهد هـذه الجريمـة وهـذا الرعب هم اليونانيون والمالطيون، الذين لا يمكن اعتبارهم متحيزين لقضية الإسلام ضد الأوروبيين، أو المكاريين (الحمّارين) الذين يتكلمون شـيئًا مـن الإنجليزيـة والفرنسية، والذين لا يمكن أن تدور من حولهم الـشكوك فـى مـسألة كـراهيتهم للأوروبيين، وبدو مديرية البحيرة، الذين أدلوا قبل المذبحة، ومـن خـلال وكالـة رويتر، بتصريحات عن ولائهم وإخلاصهم للخديو.

من ناحية أخرى نجد أن محافظ الإسكندرية فسَّر تأخره فى إرسال الجـيش النظامى لإخماد الاضطراب بتخوفه من انـضمام تلـك القـوات النظاميـة إلـى المتظاهرين، لكنه لم يستطع مطلقًا تفسير سعادته، ولم يسأل أحد قط كيف اختفـى ذلك الخوف الذى يتعين الإحساس به فى بداية الاضطراب عند اللحظة التى بلغـت فيها المذبحة ذروتها.

الشىء المؤكد، والذى ألصقه عامل التلغراف بالقصر، والذى كـان الخـديو على استعداد لإعلانه، هو ذلك الاتصال الطويل الذى جرى بين محافظ الإسكندرية والخديو فور اندلاع المظاهرة، وأن المسألة التى جرت مناقشتها كانت تتمثل فـى إرسال قوات من الأسطول الإنجليزى أو الأسطول الفرنسى. كـان حـاكم مـصر الشاب متشوقًا لرؤية القوات وقد أرسلت لمساندته وتدعيم سلطته، كان يتطلع إلـى

رؤية هذه القوات وقد نزلت إلى البر واتجهت إلى القاهرة لتمسك بعرابي والوطنيين كلهم، وتعود ثانية من حيث أتت وتعزف السلام الخديوى، الأمر الذى يرضي جلالته ويسعده. وهذا حيدر باشا، الذى يحضر مقابلات سرية مطولة مع الخديو لدعمه، وكان يدخل القصر من بوابات الحريم، وتحت جنح الظلام، هذا الحيدر كان موجوذا في الإسكندرية في وقت حدوث المجزرة، ويقال إنه ساعد في قتل المسيحيين التعساء. وبعد المحاولات والمناقشات التي باءت بالفشل مع الأدميرالات حول مسألة إنزال القوات، قام محافظ الإسكندرية بالاتفاق مع الخديو، بطلب الجيش ليضع حدا لتلك المجزرة. هذه الحقائق لها قيمتها في أذهان كل أولئك، الذين تسمح لهم مناصبهم ومعرفتهم بالساسة المصريين، بتكوين رأى عادل فيما يتعلق بأحداث الحادى عشر من يونية.

تتبقى بعد ذلك نقطة أخرى مهمة، ليست معروفة للجميع. كان محافظ الإسكندرية عند اندلاع الاضطراب، هو عمر باشا لطفى، وهو صورة طبق الأصل من إبراهيم المفتش، الرجل صاحب الحيوية وواسع الحيلة، والذى كان مفتشا سابقا للوجه القبلي، وكان شهيرًا باستعمال السوط (الكرباج) استعمالا جائرا. تعيين عمر لطفى محافظا للإسكندرية، جاء في زمن حكومة محمود سامى، وذلك تنفيذا لتوصية معززة من الخديو، وقد أدت لباقة عرابى الشخصية وصراحته إلى كراهية عمر لطفى لهذا المنصب، الأمر الذى جعل الرجل يستشعر شيئا من القلق. ومن باب ثقة رئيس الوزراء بعمر باشا لطفى، وقدرته، وثقة محمود سامى بأن عمر باشا لطفى لا يمكن أن يبيع الحزب الوطنى، على الرغم من أنه لم يكن حزبه من مؤيديه، إضافة إلى أنه من باب إرضاء الخديو (كان ذلك قبل وصول الأسطولين)، الذى كان دائمًا في حالة مزاجية سيئة، راح رئيس الوزراء يتوسل طالبا تعيين الرجل، باعتبار أن الإسكندرية بحاجة إلى محافظ نشط، قادر على المحافظة على النظام من هذا المنصب – وكان محمود باشا سامى قد نجح في الحصول على موافقة رئيس الوزراء على هذا التعيين. وفي اليوم التالى حصل عمر باشا لطفى على إجازة مفتوحة من الخديو، وأمّن مروره مع أول قارب كان على وشك الإبحار.

جرى بعد ذلك تشكيل ثلاث لجان لتحرى الحقائق وكشف الأعداء الحقيقيين. ولم تنجح لجنة واحدة من هذه اللجان، ولم تصل تلك اللجان إلى أية نتيجة من النتائج. يزاد على ذلك أن اللجنة التى تشكلت مؤخرًا للتحقيق فى الأمر فى الإسكندرية، لم تُدِن سوى قلة قليلة من أولئك الذين تلطخت أيديهم بالدماء باعتبارهم آلات بلا إرادة. لكن لا يُعْرَفُ أى شىء عن أولئك الذين خططوا لكل شىء وشاركوا فى تفاقم الأمور – لماذا؟ هذا هو التساؤل.

هذه هى الحقائق يا سيدى، وهذه هى المعلومات التى أمكننى وضعها بين يديكم، أما عن الاستنتاجات التى يمكن التوصل إليها من هذه الحقائق والمعلومات، فأنا أزعم أنى استطعت إثبات بطلان الاتهامات المقصودة أو غير المقصودة، التى وُجِّهت إلى الحزب الوطنى ورئيسه.

هذه الأقوال أنا مستعد لتأكيدها بحلف اليمين أمام أية محكمة من المحاكم، وعلى استعداد للسفر إلى لندن لتأكيد هذه المعلومات أو لتقديم التفسيرات والشروح المطلوبة.

مصلحة بلدى وانتصار الحق هما هدفيَّ الرئيسيين.

ملحوظة مهمة: جرى تقديم هذه الروايات الخاصة بإضراب الإسكندرية إلى اللورد راندولف تشرشل فى عام ١٨٨٣، وجرى أيضًا وضع هذه الروايات بواسطة تشرشل أمام وزارة الخارجية. وجرى الحصول بواسطتى بعد ذلك على كثير من الشهادات، وقمت بعرض هذه الشهادات على السيد جلادستون على أمل أن يفحصها هو شخصيا، لكنه رفض.

مذكرة خاصة برأى السيد بيمان فى القضية، هذه المذكرة أعدت للورد راندولف تشرشل عام ١٨٨٣:

شهادة السيد بيمان الخاصة بأصل المجزرة التى جرت فى اليوم الحادى عشر من يونية أمر مهم للغاية، والسبب فى ذلك هو موقع أو منصب هذا الرجل

فى مصر، فى تلك الأيام إضافة إلى الطابع الراقى لشخصية وطبيعة هـذا الرجـل نفسه. ويجب ألا يغيب عنا أن السيد بيمان فى ذلك الوقت كان لا يـزال مترجمـا (مبتدئًا) فى الوكالة الإنجليزية، والرجل بهذه الصفة كان على اتصال مستمر بكـل من البلاط الخديو والوطنيين نيابة عن السير إدوارد ماليت، ويجب ألا يغيب عنـا أيضا أنه عندما حدث الرعب والفزع فى يونية جعل السير إدوارد ماليـت بيمـان مسئولاً عن الأرشيف الدبلوماسى، وبقى ماليت فى القاهرة إلى مـا قبـل عمليـة القصف بالقنابل، ويجب ألا ننسى أيضا أن بيمان كان من أوائل من نزلوا إلى البر بعد ذلك الحادث، فى الإسكندرية، وأن الرجل بقى مدة شهر من الزمن مع اللـورد شارلز بيرسفورد Beresford فى لجنة الشرطة، التى ارتجلت محاكمة المذنبين عن أعمال القتل والسلب والنهب، وإحراق المبانى والممتلكات عمدا، ويجـب أن نعلـم أيضا أن السيد بيمان انضم فى ذلك الوقت إلى مجموعـة العمـل التابعـة للـسير جارنيت ولسلى، الأمر الذى جعل الرجل يحضر ويشهد جميع مهام الحملة، ويجب ألا ننسى أيضا أن السيد بيمان جرى تعيينه من قبل الـسير إدوارد ماليـت، عنـد عودته إلى القاهرة، وذلك بالتعاون مع السير شارلز ولسون، كيمـا يقـوم الرجـل (بيمان) بمراقبة محاكمة عرابى نيابة عن حكومة صاحبة الجلالة، ويجب ألا ننسى أيضا أنه استخدم أيضا فى ترجمة الوثائق العربية ذات الـصلة بهـذه العمليـة أو القضية، إضافة إلى ترجمة أوراق عرابى الخاصة، ويجب ألا يغيب عنا أيـضا أن بيمان شارك مع الرائد شيرمسايد Chermside فى إعداد التقرير الـذى نـشر فـى الكتب الزرقاء عن حال السجون المصرية، وقد شكره اللورد جرانفيل علـى هـذا التقرير، يزاد على ذلك أنه عندما تقاعد من خدمة صاحبة الجلالة فى ديسمبر عـام ١٨٨٢، شكره على خدمته كل من اللورد جرانفيل واللورد دفـرين، وأن الرجـل سكن وأقام فى مصر، إلى أن تولى الدفاع عن قنديل وبعض المسجونين الآخـرين الذين جرى اتهامهم بالتواطؤ والضلوع فى المذبحة – هذا يعنـى أن شـهادة هـذا الرجل مهمة تماما، أو بالأحرى أهم الشهادات التى يمكن أن تقدم فى هذا الـصدد. وبوسعنا الوقوف على هذه الشهادة من المقتطفات التالية التى أخذناها من رسائله.

يقول السيد بيمان وهو يكتب إلى السيد سكاون بلنت فى إنجلترا فى نـوفمبر عام ١٨٨٢: "أهل القصر هنا، أصابهم القلق مع مقدم اللورد دفرين، الذى تقرر أن يصل إلى هنا غدا، كان وصول برودلى سببا آخر من أسـباب قلقهـم وكـربهم، وبالنسبة لهذه القضية الأخيرة أو القاضية، أرى أن اللورد دفرين سوف يُعَجّل بلقاء صديقنا توفيق، وعلى حد علمى فإن أذنى هذا الرجل مفتوحتان للجميـع، وسـوف تحصل السفارة المؤقتة على معلومات أفضل بكثير عما حصلت عليه المفوضية أو الوكالة. لقد اتيحت لى مؤخرا فرص كثيرة للقاءات جرت مع المواطنين قبل عملية القصف، مواطنين من كل الطبقات ومن كل الأحزاب، وعرفت اللعبة كلهـا مـن خلال الأطراف الأربعة – إنجلترا، وتركيا، وعرابى، وتوفيق. كل طرف من هـذه الأطراف كان بيّنا وواضحا بشأن الأطراف الأخرى".

.... "أعتقد أن مسألة إبراهيم أغا هى بحد ذاتها كافية لإظهار الخديو علـى حقيقته، لقد سمعت القصة كلها من القصر بصورة مباشرة – وكيف قبّل التـوتنجى يد الخديو وطلب منه السماح له بأن يتفل فى وجوه المسجونين... إلـخ، وأن هـذه النقطة هى التى طلب السيد شارلز ولسون تحقيقا بشأنها، وتأكد من صحتها كلهـا. وعلى الرغم من ذلك، ونظرا أيضا لأن الخديو كان مشاركا فى هذه العملية القذرة فقد رؤى التخلى عنه. اقترحت، عندما أقسم الشهود كلهم قسما زورا، إدخال يمـين طلاق الثلاثة وأن يقسمه كل واحد من هؤلاء الشهود. وعائلة الجناب الخـديو الآن لم تعد تذكر ذلك فيما بيننا، وهذا هو الرجل الذى جئنا إلى مـصر لنحـارب مـن أجله".

فى السابع عشر من الشهر نفسه يقول الرجل: "المشكلة الوحيدة تتمثل فيمـا إذا كان المسجونون ستتاح لهم فرصة الاستماع إلى دفاعهم العادل. وأنا على قناعة أن الحكومة هنا تبذل كل الجهود من أجل تعطيل الإجراءات، نظـرا لأن الحقـائق التى يمكن أن يكشف عنها الاستجواب قد تطول كل أولئك الذين فى الـسلطة فـى الوقت الراهن، وقد تكشف وتعرى بعض الحقائق المشينة عن الخديو، هذا الـسبب الأخير هو الذى يجعل حكومتنا ميَّالة إلى مهادنة عرابـى، لأن المحاكمـة إذا مـا

كشفت الحقائق وعرّتها أمام الجميع، سوف يتضح أن الوغد أو النذل الأكبر في مصر هو الخديو الذى أحضرنا جيشا لحمايته وتأييده. وأنا لا يخامرنى شك فى أن الخديو هو وعمر لطفى اللذان خططا ونظما مذبحة الإسكندرية لكى يوجها بها ضربة إلى عرابى، الذى كان قد حمّل نفسه مسئولية المحافظة على الأمن العام. وأنا لدى من الأدلة ما يجعلنى شبه مقتنع، لكن الوقت لم يحن بعد للكشف عن هذه الأدلة".

ردا على رسالة أرسلتها إليه أطلب فيها المزيد من المعلومات، وأطلب منه عمل تصور لأحداث اليوم الحادى عشر من يونية كتب السيد بيمان إلى يقول:

السابع عشر من فبراير عام ١٨٨٣:

أنا سعيد بالحملة التى تشنها، لكن سيكون من الصعب عليك تماما تشويه سمعة الحكومة، لأنها تعرف القصة كلها، ومضت فى جوانبها السيئة إلى أبعد الحدود. تطلب منى البراهين والأدلة التى تؤيد نظريتك. أنا شخصيا ليس لدى براهين أقدمها لك. وعندما جاء اللورد دوفيرين حدثته عن اعتقادى بأن المذابح نبعت أصلاً من حزب فرعون (الخديو)، وأن هذه العملية لم تكن فى نظرهم حركة سيئة، لأنها كانت موجهة أصلا للنَّيلِ من عرابى بعد أن أعلن عن تحمل مسئولية المحافظة على الأمن العام، وكان الهدف أيضا إشراك اليد الأوروبية فى إخماد عرابى. يزاد على ذلك أن فكرة عزو ما حدث إلى عرابى أمر يدعو إلى السخرية والاستهزاء، نظرا لأن ذلك جاء بمثابة الضربة القاضية التى وجهت إليهم، وعلى حد علمى كان ذلك الإحساس يسيطر على الجميع فى ذلك الوقت. كانت الفكرة جديدة تماما على اللورد دفرين، وطلب منى أن أقدم له الدليل على ذلك، إن كان لدى مثل هذا الدليل. ذهبت إلى اللورد دفرين فى نهاية الأمر وقلت له إنه لو أعطى ضمانا مكتوبا بألا يصاب الرجال بالضرر، فسوف أحضر له الشهود – لم أستطع إحضارهم آنذاك – محمد عبده، ورفعت يعرفان القضية كاملة – ليثبتوا أن عمر

لطفى هو الذى أمر سليمان سامى بإحضار كتيبته دون سلاح، وأن سليمان سامى رفض أن يكون مغفلاً، بعد أن أدرك جيدًا ذلك الذى يمكن أن يترتب على مثل هذا العمل، وفهم سليمان سامى أيضا ذلك الذى يمكن أن يقال إذا ما وقف على الحياد فى أثناء استمرار المجزرة، وبعد تأخير دام ساعة جاء سليمان سامى بكتيبة مسلحة وعلى العكس تماما مما أمره به عمر لطفى، وأخمد المظاهرة. كنت سأحضر للورد دفرين الرجل الذى تلقى الأمر ونقله إلى سليمان سامى. كنت سأحضر لـه رجـل آخر سمع عمر لطفى فى الشوارع وهو يحرض القائمين بالمجزرة، على ضـرب المسيحيين على رءوسهم وألا يبقوا منهم أحدًا. وهنا صاح اللورد دفرين قائلاً: إنـه ليس من مهمته مقاضاة عمر لطفى أو محاكمته. كان ذلك قبل ظهور برودلى على مسرح الأحداث، وأخيرًا كان لدينا شهود آخرون هم أولئك الذين أرسلوا الرسـالة المشفرة من الخديو إلى عمر لطفى فى الليلة السابقة للمجزرة، والتى يأمره الخـديو فيها بإحداث الاضطرابات – ليثبت ذلك الفرح الجنونى الذى انتاب القصر– عندما تلقى الخبر – "لقد انتهينا منهم"، كان الياوران كله، والخدم، ينتظرون ذلك الخبـر، وراحوا جميعا يرقصون رقصة الفرح والسرور إلخ. ومن باب تأكيد ذلـك جـرى تعيين عمر لطفى وزيرا للحربية (اعترافا بخدمات الرجل فى ذلك اليوم) بلا مبرر وبلا مؤهلات لهذه الوظيفة. ألم يكن الرجل مخطئًا؟، كما أنه لا يمكن أن يهرب من تهمة عجزه وافتقاره إلى القوة بصفته محافظًا، ومع ذلك كله عين وزيرا للحربيـة، وعلى الفور استعمل برودلى هذه الحقائق فى قمع الخصوم وفى الرد على جميـع النقاط. لعلك تكون قد لاحظت – فقد لاحظ الجميع هنا ذلك كله – كيف أن مـسألة المذبحة، التى كانت فى بداية الأمر عقبة أمام المتهم (عرابى)، قد أُسـقطت علـى الفور، مثل جمرة مشتعلة، فى أثناء المحاكمة، لينهار كل شىء بعد ذلك بفعل ذلـك الحكم الهزلى".

فى الرابع من مارس كتب السيد بيمان إلى السيد سكاون بلنـت ليخبـره أن قنديل، وسليمان سامى، وآخرون طلبوا منه الدفاع عنهم أمام المحكمة العسكرية فى الإسكندرية، والتى كانت مصرة على إعدامهم، ويردف الرجل قائلا:

"أوراقى الرابحة، بطبيعة الحال، ستكون عبارة عن الشهود، الذين سوف أهدد باستدعائهم لتوريط عمر لطفى بصورة مباشرة، والرجل الكبير بصورة غير مباشرة في مسألة المجازر. أعتقد أن الحكومة سوف تطلق سراح المسجونين بسهولة بدلاً من الفضيحة". وفى اليوم الثامن عشر من مارس أيضا يقول الرجل: "أنا متأكد من البراءة، مع احتمال استبدال واتهام وزير الحربية الحالي". ومع ذلك، جرى إفساد هذه الخطة عن طريق اللجوء إلى إجراء فظيع، رفض الحبس بمقتضاه إلا بعد انتهاء المحاكمة بالفعل، كما قضى ذلك الإجراء بعدم السماح بأى دفاع من أى نوع فى قضية سليمان سامى.

فى ظل هذه الظروف، عاد إلى أرض الوطن السيد نابير، الذى كان قد انضم إلى السيد بيمان على أمل الدفاع عن المسجونين، وبناء على نصيحة من السيد بلنت التقى السيد نابير اللورد راندولف تشرشل هو والسير ولفريد لاوسون، فى ظل التقرير الذى قدمه نابير ألقى راندولف تشرشل خطابه الأول الخاص بالمجازر – ذلك الخطاب الذى استقى من السيد جلادستون وعدًا مفاده أن المسجونين يجب أن ينالوا محاكمة عادلة.

من ناحية أخرى، كان السيد نابير ينظر إلى عودته إلى القاهرة باعتبارها أمرًا ميئوسا منه ولا طائل من ورائه، يزاد على ذلك أن السيد بيمان، على الرغم من أنه لم يكن محاميا، وصاحب روح شعبية عالية، تَحمَّل هو مهمة الدفاع عن قنديل وحده، ولم يساعده السيد بلنت سوى بجنيهات قليلة للوفاء بالمصروفات الضرورية، لأنه لم يتقاض أى شيء أو أى نوع من الأتعاب. بعد أن اتضح أن محاكمة رفيقه المسجون سليمان سامى، كانت أمرا يدعو إلى السخرية والاستهزاء، وبعد اخضاع نابير نفسه للاستجواب عن طريق محكمة جرى تشكيلها من أعدائه، بعد ذلك كله جرى السماح لقنديل بمقابلة محاميه. كان قنديل قد مضى عليه تسعة أشهر فى السجن، وألزم نفسه بخط دفاعى كان يستبعد الهجوم المضاد، إن لم يكن له فى واقع الأمر، خط دفاعى يسير عليه.

يكتب بيمان في الثاني والعشرين من يونية: "هو يقسم، على أنه لا يعــرف شيئًا يربط بين عمر لطفي والمجازر التي وقعت، سوى الدليل الظرفي الذى هو في حوزة كل إنسان. وأن عمر لطفي لم يقدم إليه مطلقًا أى مقترح مــن المقترحــات. وهو لا يعتقد أن هذه المجازر جرى الإعداد لها بطريقة منظمة، لكن كــان هنــاك شعور قوى مفاده أن عمر لطفي كان يعرف حق المعرفة أن الاضطراب سوف يقع بالفعل. وعندما قام الاضطراب بالفعل كان قنديل في فراشه نائما، لكنــه يقــول إن عمر لطفي، أو أى أحد في المكان، كان بوسعه إيقاف ذلك الاضطراب. لو أرسلت برقية واحدة لعرابي لسحق ذلك الاضطراب على الفــور. لــو جــرى اســتدعاء المجندين لفضوا ذلك الاضطراب. لكن عمر لطفي اكتفى بــالتجوال فــي أنحــاء المدينة، كما اكتفى أيضا بالتراسل مع الخديو عن طريق الشفرة. ويــستحيل علينــا معرفة ذلك الذى دار بين هذين الاثنين لأن الكتبة يُشَفِّرون الأرقام. وجرى إعــدام كل البرقيات الشفرية بالأمر (يبدو أن هذه البرقيات كانت تعدم بصورة مــستمرة). ويقول رفعت أن البرقيات كانت تشير إلى إنزال القوات. وإذا كان الخديو قد فوجئ بهذه المجزرة عند الساعة الثانية أو الثالثة، فلماذا لم يستدع السير إدوراد ماليــت؟ لقد علم السير إدوراد ماليت بنبأ هذه المجزرة عن طريق برقية خاصة ألــصقها أو علقها كلير Clere في غرفة زِجَاذَا Zigada الخاصة بلعب البلياردو عنــد الــساعة السادسة! هذا هو الدليل الوحيد المضاد للخديو. هذا الدليل مضاد أكثر لعمر لطفي، لكن المؤسف في هذه العملية، هو عجزى عن استطاعتي وضع يدى على الــشهود الذين عرضت إحضارهم للورد دفرين. هؤلاء الشهود لم يحدث أن عرفت أسماءهم على الإطلاق، وقد أبلغني اثنان أنه من باب التصرف الآمن والسليم من قبل اللورد دفرين سيساعدونني في الأسماء، وسوف يحضرون هؤلاء الناس. وأنت تعرف أن هذا العرض قد رفض، وأنا عاجز عن الدخول في المزيد من التفاصيل لأســباب، أرجو أن توافقني على ذلك، لا يمكن تخطيها. الشهود يمكن إحــضارهم بطريقــة أخرى، لكني لا أستطيع إحضار هؤلاء الشهود حاليا من خلال الوسائط التي ســبق أن أحضرتهم بها. وهذا دليل كاف على صدقي في أني في أثناء وجودى في خدمة الحكومة قدمت عرضا كان يمكن أن يدمرني إذا لم أكن قادرًا على تنفيذه. لكن لقد

فات الأوان، ولم يعد في وسعى إحضار هؤلاء الشهود، وأنا فى الوقت الراهن، فى أضعف الأحوال، ليست لدى الوسائل التى تمكنى من ذلك، ومن يدرى، قد أستطيع فعل ذلك فيما بعد".

يقول الرجل فى الرسالة نفسها: "أرى أن مسألة تحـدى الـسيد جلادسـتون بمذكرة تاريخية أمر طيب تماما، لكن لا توقع نفسك فى محاولة الإفراط فى الإثبات أو بالأحرى محاولة الإصرار على أمور كثيرة من تلك التى نستطيع إثباتها. محمد عبده ورفعت يمكن أن يكونا شاهدين مهمين. وأنا لا أود مطلقـا الإفـصاح عمـا أعرف، ولكنى كما سبق أن قلت، لا أستطيع تحديد سلطاتى".

يشير الرجل أيضا إلى هجوم اللورد راندولف تشرشل الثانى بمناسبة إعـدام سليمان سامى، الحادث الذى جعل السيد بلنت يستقطب الصحف كليا فى صـالحه، بما فى ذلك وضع المقتطفات سالفة الذكر بين يدى اللورد راندولف باعتبار أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لمنع إهدار المزيد من الدم. ويقول الرجل معلقا علـى رسـالة السيد إيف Eve التى سبق أن نشرت فى جريدة التايمز "أنا آسف لأن إيف نشر هذه المقتطفات من رسالتى... لأن هذه المقتطفات جرى تدوينها بغير تـدقيق، وليـست بالطريقة التى كنت أود أن تنشر بها. أولا، إنى شخصيا لم أتقدم إلى اللورد دفـرين بهذا العرض بصفة شخصية، وقد رد الرجل علىَّ بطريقـة تـوحى بأنـه يـتفهم عرضى، لكنى فى ذلك الوقت كنت غاضبا تماما من المحاكمة (محاكمة عرابـى) إلى حد أنى لا أتذكر ما فات تماما... أنا لا يهمنى ذلك الذى تنشره من أشيائى ضد عمر لطفى، لكنى تمنيت لو أنك لم تسوِّئ سمعتى أمام الخديو، لقد عـدَّلت آرائـى بشأن ما اقترفه من ذنوب وأصبحت مسألة هجومى عليه لا تهمنى ولا أبالى منهـا شيئا. وإذا ما كذبت مسئوليته فيما بعد عن طريق عمر لطفى، فهذا خير وبركـة، لكنى لا أود الهجوم عليه بصورة مباشرة باسمى. وأنا حاليا تحسنت علاقاتى إلـى حد ما مع السواد الأعظم من المسئولين، وأحاول أن أحافظ على هـذا الإحـساس الطيب لصالح من يتعاملون معى. لكنى إذا ما بلغ السيل الزبى بينى وبين الخـديو، فإنهم هم الذين سيعانون ولست أنا".

مقتطفات من شهادات من الكتب الزرقاء: جرى استخلاصها عام ١٨٨٣

تاريخ مجازر الإسكندرية من واقع الكتب الزرقاء (المرقومة، مصر، العدد ١٦، عام ١٨٨٢، والعدد ١٧ عام ١٨٨٢، والعدد المرقوم، مصر، العدد ٤ عام ١٨٨٣) هذه الكتب تثبت بلا أى منازع أن السلطات المدنية كانت مذنبة وأن الشرطة كانت مذنبة أيضا، وتثبت أيضا، البراءة الكاملة والمشرفة للسلطات العسكرية والقوات المصرية. هناك شهادة داحضة أخرى تؤكد الطبيعة سابقة التجهيز لتلك المظاهرة. ويجب ألا يغيب عنا مطلقًا أن الشرطة، هى وقوات الدرك كانت خاضعة لسلطة المحافظ المدنى عمر لطفى، الذى كان بدوره مسئولاً، ليس أمام وزير الحربية عرابى، وإنما أمام الخديو مباشرة. كانت القوات العسكرية فقط تحت إمرة عرابى باشا، الذى كان وزيرا للحربية. وهذا هو جروسجين Grosjean، الذى جرى تعيينه من قبل السير إدوراد ماليت وبتعليمات من اللورد جرانفيل، لجمع الدلائل والشهادات عن المظاهرات من الإسكندرية بغرض تسويئ سمعة عرابى باشا وجعله سببًا فى هذه المظاهرات. هذ الرجل يقول (فى الكتاب الأزرق المرقوم، مصر، العدد ١٦ صفحة ٩) إن الشرطة اشترت قبل المظاهرة بأيام قلائل عددا كبيرا من النبابيت المربوعات، ووزعتها على الدهماء والبدو، وأن هذه النبابيت كان يجرى توزيعها من منزل قريب من الضبطية الكبرى. راجع أيضا عزل السيد إدوارد باربر Edward Barber (مصر، عدد ١٦، صفحة ١٧). يقول جروسجين إنه لم يتخذ أى إجراء ضد أولئك الذين قاموا بتوزيع النبابيت، يضاف إلى ذلك أن الأدلة الطبية الواردة فى التقرير الذى أعده عشرة من الأطباء الأوروبيين الذى فحصوا جثث الموتى فى المستشفيات، تثبت أن جروح المصابين والموتى كانت بفعل النبابيت أو المدى أو السكاكين أو الحراب. والمعروف أن السكاكين والحراب هى الأسلحة الرئيسية للشرطة، وقد ورد فى الشهادة أيضا أن عساكر المستحفظين فى يوم الاضطراب كانوا بلا أسلحة نارية، وأنهم كانوا مسلحين بالحراب (مصر، العدد ٤، صفحة ٧٥، المرفق رقم ٣ فى العدد ٩٢، من

بتروفيتش Petrovitch إلى جروسجين). إن تقرير هذا الرجل مهم للغاية وقيم، لأنه يثبت الغياب الكامل للجنود عن الشوارع، وبخاصة الجنود النظاميين، وهنا ينبغي أن نلاحظ أننا من دراستنا للدلائل والشهادات الواردة عن الاضطراب في الكتب الزرقاء، نجد أن تعبير "الجنود" Soldiers يقتصر فقط على "قوات الدرك" ولا يشير بأى حال من الأحوال إلى قوات الجيش النظامي.

فيما يتصل بسلوك الشرطة وتصرفاتها: نجد أن السيد جويسى، أحد مهندسى الأسطول الإنجليزى (راجع الكتاب الأزرق، مصر، العدد ١٦، صفحة ٢، المرفق رقم ٢ فى العدد ٢) يقول: "لعب "المستحفظون" أو إن شئت فقل: قوات الدرك، الذين يأتمرون بأمر مسئول الشرطة، دورا نشطا في ذلك القتال، إذ راحوا يقتلون المسيحيين، في حين أن الدهماء لم يكونوا يفعلون ذلك، بل إنهم كانوا ينظرون إلى ذلك الذى يدور أمام أعينهم". وهذا هو السيد هيوات Hewat، ذلك المحاسب الإنجليزى الذى عاش مدة سبعة عشر عاما في الإسكندرية (راجع الكتاب الأزرق، مصر، العدد ١٦، المرفق رقم ٤ في العدد ٢)، يقول: "فيما يتعلق بالموقف الذى وقفته وأكدت عليه السلطات المصرية والسلطات العسكرية فى أثناء الاضطرابات، نجد أن هذه السلطات المصرية والسلطات العسكرية يمكن تقسيمها إلى قسمين متميزين هما: الشرطة والقوات النظامية، فيما يتعلق بالشرطة أجدنى لا أتردد في القول: "إن الشرطة بدلا من إخماد الاضطراب راحت تبذل كل ما فى وسعها من أجل زيادته وتأجيجه، وكان سلوك الشرطة وتصرفها فى تلك المناسبة همجى، وعنيف ومتطرف. وأنا أرى أن الشهادات والأدلة الطبية تثبت أن الجراح التى أصابت الكثيرين من الأوروبيين كانت بفعل الأعمال التى قامت بها الشرطة و"المستحفظون"، (قوات الدرك). يزاد على ذلك، أن قوة الشرطة قامت وبلا أدنى شك، بتوزيع النبابيت أو "الهراوات" على المواطنين مجانا وبلا ضوابط، فى حين قامت الشرطة بتجريد الأوروبيين من أسلحتهم التى كانت فى حوزتهم ليستعملوها فى الدفاع عن أنفسهم، كما جردتهم أيضا من العصى التى يتكئون عليها. لقد بلغنى من مصادر مطلعة ووثيقة أن الأوروبيين الذين تصادف وجودهم فى الأحياء الوطنية من المدينة فى أثناء الاضطراب كان من الطبيعى لهم أن يلجأوا إلى مركز

الشرطة الرئيسى (الضبطية)، وإلى منزل من منازل الحراسة الشرطية فى أضعف الأحوال، وجرى ذبح هؤلاء الأوروبيين والتعامل معهم بقسوة بالغة عندما دخلوا هذه الأماكن. على الجانب الآخر، وبلا أى دوافع، أنا على قناعة أنه لولا استدعاء العسكريين لانتهت مظاهرة الحادى عشر من يونية إلى ما لا يقل عن مذبحة مخيفة. والأوروبيون مدينون بفضل المحافظة على حياتهم إلى العسكر المجندين". وهذا هو جورج بيلافاشى Pilavachi (المرفق رقم ٥ فى العدد رقم٢، صفحة ٦، مصر، العدد ١٦) يقول: "لقد لعبت عناصر الشرطة دورا صريحا وعلنيًا لمصلحة العرب، واقتادت الكثيرين من الضحايا إلى مركز الشرطة وأنزلوهم من عرباتهم وقتلوهم بالحراب". وهذا هو ستيفان رالى Ralli (الكتاب الأزرق، مصر، العدد١٦، صفحة٧، العدد ٣) يقول: "لكى نثبت خيانة السلطات يتعين علينا معرفة ما يلى فقط: اضطراب الشارع حدث أو بدأ عند الساعة الثالثة، وقامت الشرطة بالنصيب الأكبر من عمليات القتل إلى ما بعد الساعة السابعة، وقد استمر ذلك إلى أن جرى فى نهاية المطاف إرسال كتيبة من الجنود توقف ذلك الاضطراب، فى الوقت الذى كان بوسع السلطات إخماد ذلك الاضطراب، فى خمس عشرة دقيقة لو أرادت السلطات ذلك".

ملاحظة مهمة: بالإشارة إلى هذه الملاحظة، يجب ألا يغيب عنا أن سليمان سامى، قائد القوات النظامية، لم يجر استدعاؤه إلا فى ساعة متأخرة من فترة العصر.

يقول السيد جروسجين (مصر، العدد١٦، صفحة١٠): "أشار الجرحى فى المستشفيات إلى مشاركة "المستحفظين" للدهماء، وقد نجمت جراح عدد كبير من الجرحى عن الحراب الشبيهة بالسيوف". وهذا هو هانيبال سكوجناميليو Annbale Scognamiglio السكندرى. (مصر، العدد١٦، صفحة١٦) يقول: "الرجال الكرام الثلاثة الذين قتلوا، وهم على سبيل الحصر الدكتور ريبتون Ripton، وسينور أليجريتا Senor Aligretta ، وفون روب Von Rupp، إضافة إلى أربعين أوروبيًا آخرين، التجأوا إلى الضبطية (مركز الشرطة الرئيسى)، أو منزل الحرس، فى

حراسة المستحفظين. فى المساء التالى، قصدت المستشفى الأوروبى علّنى أجد صديقى سينور فان روب Sinor Van Rupp. سألنى جنود الحراسة فى البداية عما إذا كانت لدىَّ الشجاعة التى تمكننى من الدخول، لكنى ما إن دخلت المستشفى، وكان الوقت متأخرًا، وأمام منظر ذلك العدد الكبير من القتلى حتى تراجعت ثم ذهبت إلى المستشفى فى اليوم التالى، لأرى أكثر من ستين قتيلا، كلهم عراة تماما وأجسامهم مغطاة بالجراح الناجمة عن الحراب والنبابيت. لقد قام عساكر البلوك بجرح الأوروبيين، وكانوا ينظرون نظرة فرح وسرور إلى الأوروبيين الذين جرحهم العرب". (مصر، العدد١٦، صفحة١٦).

وهذا هو روبرت جيجلو Giglio، أحد الرعايا البريطانيين، والسيد جوزيف ليفى Levy من شركة بيسو Piso. فى مقاطعة مانشستر، والسيد فيفانتى Vivanti من شركة إس. فيفانتى وأولاده فى مانشستر، كل هؤلاء أبلغوا القائم بعمل القنصل البريطانى فى ليجهورن أن" الدهماء من الوطنيين شاركوا فى المذبحة" ونجد ما يلى على الصفحة نفسها، وهو عبارة عن أقوال العقيد – وهو ضابط أوروبى شهير رفيع المقام، وقد أدلى بهذه الأقوال فى تريستى Trieste فى وازيس الثامن والعشرين من يونية: "مواطن محترم، يدعى وازيس بك Wazes، يسكن فى الطابق الأول من المنزل المقابل لمبنى مسئول الشرطة، أعلن فى وجود محافظ المدينة وفى حضرته، والعديد من كبار المسئولين فى البلد، أنه شاهد ورأى بعينيه النبابيت وهى يجرى توزيعها وتناولها من النوافذ بواسطة الدهماء. حدث ذلك فى حى الإفرنج، وفى الوقت الذى كان الغوغاء والدهماء يقومون فيه بالهجوم على شارع دى سير، ميدان دى لابى، من ناحيتين مختلفتين ومنعزلتين. شاهد بعد ذلك هو وزوجته وخدمه ثلاث عشرة جثة أوروبية كانت قد لجأت إلى مقر مسئول الشرطة، شاهدوا هذه الجثث وهى مشوهة ومهشمة فى اتجاه البحر". وهذا هو السيد إدوين باربر يقول (فى صفحة ١٧): "فى أثناء هذه المحادثة القصيرة اندفع عدد كبير من العرب قادمين من الأحياء كلها، وجرى تزويدهم بالهراوات التى كانت تلقى عليهم من منزل عربى مرتفع بالقرب من الضبطية". ويردف الرجل قائلا: "بعد إغلاق الباب، صعدت إلى الدور العلوى ورأيت أوروبيين عديدين

مقتولين في الشارع، وكانت الشرطة تساعد القتلة في فعلتهم هذه". أكثر من ذلك، "أن رجال الشرطة كانوا يخبئون نصيبهم من الغنائم خلف البراميل وتحت أغطية الصرف الصحي في بعض الأحيان نظرًا لأنهم لم تكن لهم جيوب". وها هو جون دالاس John Wallace (صفحة١٧) يقول: "وصل جنود الدرك في ذلك الوقت، وكان عددهم يقدر بحوالي ثلاثين أو أربعين رجلاً، بدأوا يفتحون نيران بنادقهم بلا أي سبب محدد. شاهدوا الأوروبيين وهم يُقتَّلون تحت أقدامهم ولم يفعلوا شيئًا من أجل تخليصهم". يضاف إلى ذلك: "شاهدت العديد من جنود الدرك وهم يمرون محملين بالبضائع المسروقة. وعندما وصلت القوات النظامية بدا الأمن والنظام مستتبا على الفور". وفي شهادة سينور فيرنوني Senor Vernoni (راجع الكتاب الأزرق، مصر، العدد١٦، صفحة ١٩): بعد فترة وجيزة شاهدت عربات عدة محملة برجال الدرك (جنود يرتدون زيا أزرق اللون) يأتون من اتجاه الشرطة الرئيسي، وكلهم ينظرون في اتجاه النوافذ، التي صوبوا بنادقهم إليها، ويصيحون في العرب وهم يقولون: "تشجعوا، اضربوهم" (مصر، العدد٤، صفحة١٠، المرفق٤ في العدد٤) وهذا هو السيد ستونتون Staunton، صراف الباخرة انفنسبل Invencible يقول: "في أثناء الهجوم المشار إليه، كان مسئولو الشرطة والمسئولون المدنيون يبدون غير مبالين، ولم يتخذوا أية خطوة لحماية المسيحيين أو السيطرة على الغوغاء والدهماء، ولم نر أية قوات نظامية في الشارع في ذلك الوقت".

فيما يتعلق بتصرف الجنود نجد أن الأدميرال السيد بوشامب سيمور يكتب إلى مقر الأسطول والأدميرالية البحرية في مصر (الكتاب الأزرق، مصر، العدد ١١، الصفحة ١٠٨) يقول: "كان الاضطراب مستمرا طوال ساعتين أو ثلاث ساعات قبل أن يجرى استعداد الحامية بالسلاح، وجرى على الفور إخلاء الشوارع على وجه السرعة، وجرى الحفاظ على الأمن والنظام طوال الجزء المتبقي من الليل". وهذا هو السيد كالفرت Calvert، نائب القنصل، الذي تولى مسئولية القنصلية بعد أن خرج كوكسون من القاهرة (مصر، العدد ١١، الصفحة ٣٩، العدد ٩٧) في الثاني عشر من يونية يقول: "لم تتدخل الشرطة لحماية الأوروبيين. لقد جاءت القوات لاستعادة النظام". وفي (الكتاب الأزرق، مصر، العدد رقم١٧،

الصفحة ٢٤، المرفق الثالث، فى العدد ٢) نجد كالفرت يكتب فـى اليـوم نفسه: "الجنود تصرفوا تصرفا حسنا ولم ينضموا إلى جانب الدهماء". وفى البرقية نفسها: "لقد سلب الدهماء ونهبوا المنازل والدكاكين وقد تجدد القتال بعد أن أبرقـت لـك، وكان ذلك فى حى من الأحياء الدنيا فى المدينة، لكن آلايًا من الخيالة قام بتفريـق المتظاهرين. المدينة تبدو حاليا هادئة تمامًـا" فـى الإعـلان الـصادر للـسكان الأوروبيين، والذى وقّع عليه وأصدره القناصل الأوروبيون كلهم، بعـد الاجتمـاع الذى عقدوه فى منزل المحافظ فى الثانى عشر من يونيـة نجـد الجملـة التاليـة: "اندلعت بالأمس فى الإسكندرية اضطرابات خطيرة، أعاد الجيش المصرى النظـام من جديد، ورؤساء الجيش يبلون بلاء حسنا فى الحفاظ على الأمن والنظام. ونحـن نثق بالجيش المصرى".

طابع المظاهرة سابق التنظيم – (مصر، العدد ١٦، الـصفحة٢، المرفـق رقم٢)، تصريح من رجل يدعى السيد جويس، وهو مهندس إنجليزى: "بـلا أدنـى شك، هذا العمل جرى التحضير له مسبقا، وهناك بعض الدلائل التى لا تـسترعى الانتباه فى ذلك الوقت، ومنه أنه فى صباح يوم السبت، وعندما كنت أغادر منزلى أبلغنى أحد باعة الخضراوات فى الشارع وطلـب منـى أن أشـترى وآكـل لأن المسيحيين سيجرى ذبحهم صباح الغد. اكتشفت فيما بعد أن هذا الكلام قيـل لعـدد كبير من الناس الذين لم يعيروا هذا الكلام بالا أو اهتماما. (فى المرفـق ٤، فـى العدد ٢) كذلك نجد السيد هيوات يقول: "من واقع المعلومات التى وصـلتنى مـن مصادر مختلفة أجدنى على قناعة أن إضراب اليوم الحادى عشر من يونيـة كـان نتاجا لخطة سابقة التجهيز والإعداد". (فى المرفق ٥ من العـدد ٢) يقـول الـسيد ألكسندر فيز: "فى ضوء المعلومات التى وصلتنى بعد ذلك، تكونـت لـدى فكـرة قاطعة مفادها أن هذا الاضطراب كان مدبرًا، وبدأ فى وقت واحد فى أحياء عـدة. (فى المرفق ٥، من العدد ٢ فى الصفحة السادسة، مصر عدد رقم ١٦) نجد كـذلك السيد جورج بلافاتشى يقول: "الخناقة المفتعلة يوم الأحد مع المالطى، والتى جـرى تدبيرها بطريقة متقنة من قبل الشرطة، هى التـى أسـفرت عـن مـشاهد القتـل والاغتيال الوحشية التى كنا فيها شهود عيان على الضحايا. حقيقة أن الاضـطراب

بدأ في ثلاثة أماكن مختلفة تثبت أن هذا الأمر كان مدبرًا من قبل". وهذا فيليبو ليس يقول: "في الثامن من يونية كنت في السوق عند الساعة الرابعة والنصف تقريبًا. وقد رأيت كثيرًا من البدو الذين كانوا يحملون البنادق، وكانوا يتركون تلك البنادق في مستودعات للتحفظ عليها هناك. في اليوم التالي كنت جالسًا في مقهى، واقترب منى أعرابي واحد من أصدقائي، لينبهني إلى التحرز والاحتراس، لأن العرب سيقتلون المسيحيين، إما اليوم أو في اليوم التالي". وهذا هو اللورد جرانفل يقول: (مصر، العدد ١٦، الصفحة ٧، العدد ٣) "أبلغني السيد سينادينو أحد أعضاء الشركة المصرفية اليونانية في الإسكندرية، أن لديه الأسباب التي تجعله يصدق أن الاضطراب الأخير في الإسكندرية جرى تدبيره والتخطيط له بصورة مسبقة". وهذا مبشر أمريكي ورد اسمه في الرسالة نفسها يقول: "لقد بلّغنا أشخاص كثيرون أن الاضطراب بدأ في تزامن واحد في أجزاء نائية متباينة من المدينة، ولذلك فهم يعتقدون أن هذا الاضطراب مدبر". وهذا هو الدكتور جويس (مصر، العدد ٤، عام ١٨٨٣، المرفق ٣ في العدد ٤) "أنا لا أرى أن الاضطراب أو بالأحرى المذبحة كانت مدبرة فقط وإنما جرى تنفيذها بمهارة فائقة، وأن هؤلاء الذين شاركوا فيها كانوا يستهدفون السلب والنهب، واقع الأمر أنهم كانوا يقومون بالعمليتين في آن واحد". في (المرفق ٤ من العدد٤) كذلك نجد السيد ستونتون يقول: "عندما نزلنا إلى البر وفي أثناء تجوالنا في المدينة وجدت الناس في الشوارع والطرقات المؤدية إلى الحدائق العامة هادئين تماما ومسالمين. وعندما بلغنا بعد ذلك بثلاث ساعات الإنذار بالاضطراب، وعندما رأينا فئات المواطنين المسلحين جميعهم بالهراوات والسكاكين، أراني أقطع أن ذلك الاضطراب كان مدبرًا". وهذا هو السيد جروسجين، على الرغم من تصرفه طبقا للأوامر والتعليمات السريعة التي تلقاها من اللورد جرانفيل، والتي تقضي بأن يقوم بجمع الدلائل والشهادات التي تشوه سمعة عرابي باشا إن أمكن باعتباره هو مدبر ذلك الاضطراب (مصر، العدد ٤ من عام ١٨٨٣، الصفحة ٧٣ والصفحة ٨٧)، وبينما كان يحاول إثبات الطابع المدبر للاضطراب، يجد نفسه يفشل في الربط بين عرابي والاضطراب. وفيما يتعلق بتصريح الرجل الذي يقول فيه: "لقد حددت رحيل حسن موسى العقاد عن

القاهرة بالساعة السادسة صباحًا، من الحادى عشر من يونية، على أن يكون ذلك من محطة القاهرة: سافر الرجل فى عربة من عربات الدرجة الأولى إلى الإسكندرية مصحوبًا بالسيد جون نينيه الجنوى(*) Genoese، ليصلا إلى الإسكندرية بعد الظهر بوقت قصير"، وقد أثبت جون نينيه أن ذلك لم يكن حقيقيا. وهذا مهم للغاية، نظرًا لأن السيد جروسجين (المرفق ١، العدد ٩٢، مصر، العدد ٤ من عام ١٨٨٣، الصفحة ٧٤) يقول: "أرى أن همزة الوصل بين سيد بك قنديل وعرابى هو حسن موسى العقاد". (فى مصر، العدد ١٦، البرقية، العدد ٣ الصفحة ٩) ونجد أن الكونت دلّلا سالا، ياور الخديو المفوضية البريطانية في برلين أنه سبق أن أبلغ الكونت هاتزفلدت Hatzfeldt أن الهجوم الذى حدث فى الإسكندرية كان هجومًا مدبرًا بلا أدنى شك، وأن قوات الترك شاركت في ذلك الهجوم.

تصرفات المحافظ عمر لطفى فى يوم الاضطراب: الدلائل على تصرفات هذا الرجل وسلوكه جد قليلة فى الكتب الزرقاء، وهذا يمكن تفسيره بالحقيقة التى مفادها أن جهود الحكومة الإنجليزية بعد الاضطراب كانت تستهدف اتهام عرابى باشا وتشويه سمعته، وعندما فشل هذا الهدف، لم يكن هناك قلق أو اهتمام بالكشف عن الفاعل الحقيقى، فى الكتاب الأزرق (مصر، العدد ١٦، الصفحة ١١) وبالتحديد فى الشهادتين الخطيتين المقدمتين من اللورد جرانفيل إلى السير إدوارد ماليت (الرسالة رقم ٣)، والمقدمتين أصلاً من السيد لويجى أونوفريوه Luiji Onofrio والسيد باولو Paolo أونوفريو، اللذين وصلا مؤخرًا من الإسكندرية، واللذين يقيمان حاليا فى جزيرة فاليتا Valetta المالطية، هذان الرجلان يقسمان ويقولان الآتى: "فى يوم الأحد المصادف الحادى عشر من يونية الماضى، وعند الساعة الثانية والنصف عصرًا، كنت فى منزلى فى الإسكندرية، وسمعت صراخًا عاليًا فى الشارع، وعندما نظرت من النافذة، رأيت السيد كوكسون، القنصل الإنجليزى، بصحبة بعض القناصل الآخرين، وقد راح الدهماء العرب يهجمون عليهم. كان الجنود يشاركون أيضًا فى عملية الهجوم، وضربوا هؤلاء الرجال الأفاضل

(*) نسبة إلى مدينة جنوة فى إيطاليا. (المترجم)

بمؤخرات بنادقهم. كان عمر لطفى، محافظ الإسكندرية، موجودًا، لكن الرجل لـم يحاول حماية أى من هؤلاء الأوروبيين الأفاضـل، ولـم يحـاول أيـضًا تفريـق المتظاهرين. رأيت أيضًا العرب والجنود وهم يضربون الـسنيور كـاربى Senor Carpi، والسنيور ماكفالى Macvali، والقنصل الإيطالى، والسنيور د. ، والقنـصل النمساوى. هؤلاء الرجال الأفاضل أصيبوا بجراح خطيـرة، وبخاصـة الـسنيور كاربى Carpi. "الشهادتين الخطيتين متماثلتين. فى (صفحة ٩، من مـصر، عـدد ١٦) نجد السيد جروسجين المكلف من قبل اللورد جرانفيل بجمع الأدلة المُـشَوِّهة لسمعة عرابى باشا يقول: "أعتقد أن لدى ملحوظة على تلك الأدلة، لكـن مـسرح الأحداث لم يتم الوصول إليه فى الوقت المناسب. ونحن تراودنا شكوك قوية بـشأن الالتماس المقدم للقناصل بالذهاب إلى قسم اللبان Caracol Liban عـصر الحـادى عشر من يونية، وأن ذلك الالتماس أو الطلب لم يكن صادرًا مطلقًا عـن المحـافظ عمر باشا لطفى. انطباعى الحالى، هو أن الطلبات، وبخاصة أنها كانت شـفاهية، جرى إرسالها لاستدراج القناصل إلى الدهماء"، وعلى المستوى الأدنى مـن ذلـك كانت هناك "فترات زمنية طويلة بين تسليم الرسائل، لا تستوجبها المسافات التـى كانت تفصل القنصليات بعضها عن بعض، الأمر الذى يوحى بتخطيط مدبر يجعل القناصل يصلون فرادى إلى المكان الذى تكثر فيه أعداد الدهماء. وصـل القنـصل الفرنسى فى البداية، ومن بعده القنصل الإيطالى، وربما القنصل اليونانى بعد ذلك، والقنصل الألمانى، ثم أخيرًا القنصل الإنجليزى". وقد سجل السيد كوكـسون، فـى الرسالة التى أرسلها إلى السيـر إدوارد ماليت (المرفق ١ من العدد ٢٢، مـصر، ١٧ فى عام ١٨٨٢) ما يلى: "بعد ذلك بنصف ساعة فقط. اسـتُدعيت مـن قبـل الشرطة المحلية إلى قسم اللبان (أحد مراكز الشرطة) الذى حدث فيه اضطراب بين السكان العرب وبعض المالطيين فى المنطقة المجاورة.. وعدت إلى هذه القنـصلية عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا، ثم خرجت بعد ذلك على الفور عندما وجـدت رسولاً جاء لاستدعائى، أنا وباقى القناصل الآخرين، لحضور اجتماع فـى مركـز شرطة قسم اللبان". يبدو أنه كان هناك فى ذلك الوقت مؤامرة لتـضليل القناصـل وخداعهم والدس بينهم وبين الدهماء، وبذلك نجد أن وجود موقف عمر لطفى، فـى

ظل الأدلة المؤكدة السابقة، فى أثناء الهجوم على القناصل، يثير فرضية مفادها أن عمر لطفى كان طرفًا فى تلك المؤامرة. وبالإمكان إثبات أن عمر لطفى لم يستدع العسكريين مطلقًا إلا بعد بدء الاضطراب بفترة طويلة، وأن الرجل أرسل رسالة شفاهية وليست مكتوبة لسليمان سامى، يطلب منه الحضور ومعه كتيبة بلا سلاح إلى داخل المدينة. ويمكن الوقوف على رأى سليمان سامى، فى سلوك عمر لطفى فى البيان المطبوع الصادر الصادر عن السيد جون نينيه. كان سليمان سامى هو وإخوانه القادة يعرفون أن عرابى باشا، بصفته وزيرًا للحربية، ورئيسًا للجيش المصرى، كان قد تعهد بالمحافظة على النظام والأمن العام، وأن هذا التعهد ثبت عدم جدواه، وساءت سمعة الجيش المصرى، نتيجة لوقوع تلك المذبحة. العلم بتعهد عرابى تؤكده الرسالة التى أرسلها كوكسون إلى السير إدوارد ماليت (مصر، العدد ١١، من عام ١٨٨٢، المرفق ٤ من العدد ١٢٦)، بتاريخ السادس من يونية ويقول فيها: "إلحاقًا لرسالتى المؤرخة اليوم الثانى من الشهر الجارى، يسرنى إبلاغكم أن الهدوء يخيم على المدينة. الإعلان الصادر عن عرابى والذى عرفته من خلال رسالتكم المؤرخة اليوم الثانى من الشهر الجارى، والذى تعهد عرابى بمقتضاه بالمحافظة بمسئوليته عن الأمن العام وعن سلامة الأوروبيين، ساعد إلى حد بعيد فى تهدئة مخاوف الناس". ويتجلى غضب سليمان سامى وإخوانه العقداء من تصرف وسلوك المحافظ فى الحادى عشر من يونية، فى الرسالة التى أرسلها كوكسون إلى السير إدوارد ماليت (العدد ١٧، ١٨٨٢، المرفق ١ من العدد ٢٣ صفحة ٢٣) يكتب كوكسون قائلاً: "إنه أُبْلِغ أن اضطرابًا خطيرًا وقع بين المحافظ وقادة الكتائب، وإن سيادة المحافظ اختلف معهم، وإنهم نعتوه بأعنف المفردات بخيانته لدينه ورفضوا إطاعة أوامره". كان القادة يعلمون حق العلم أن ذهاب تعهد عرابى أدراج الرياح يعنى التعجيل بالتدخل الأوروبى، كما يعنى أيضًا الإضرار بالقضية الوطنية المصرية إضرارًا كبيرًا.

يتضح قلق عرابى على تبرئة الجيش المصرى من شكوك المشاركة أو التواطؤ فى تلك المذابح فى التعليمات التى أصدرها عرابى ليعقوب سامى، الذى عينه عرابى خصيصًا للعمل فى لجنة التحقيق، التى شكلتها الحكومة المصرية

عقب الاضطراب مباشرة، والتى يقول فيها: "أنت لست جاهلاً بأهمية المكان الذى تشغله فى الوضع الراهن فيما يتعلق بلجنة التحقيق، لأنك كما تعرف فإن أعضاء هذه اللجنة ليسوا من أولئك الذين يهمهم أو يعنيهم شرف الجيش أو الأمة. وهذا يحتم عليك اتخاذ كل الاجراءات الاحتياطية الممكنة فى أثناء سير التحقيق وأن تعمل على اكتشاف السبب الحقيقى لذلك الاضطراب". يزاد على ذلك، أن قلق عرابى باشا لمنع إلقاء المزيد من اللوم وتشويه سمعة الجيش المصرى وعلى الضمانات التى قطعها الرجل على نفسه، نجد ذلك فى الرسالة التى أرسلها السيد هورى، ترجمان القنصلية البريطانية فى الإسكندرية، المؤرخة اليوم الثانى عشر من يونية (المرفق ٤، العدد ٢٢، مصر، العدد ١٧) والتى يقول فيها: "لقد بذل القناصل أقصى ما فى وسعهم لتحقيق ذلك الهدف، ووعدوا بإلزام رعاياهم بعدم فتح النار على الناس، وعلى القوات، كما تعهد الضباط بالمحافظة على الهدوء والأمن العام، وأعلنوا عن مسئوليتهم عن سلامة حياة الأوروبيين. وكان يعقوب باشا، وكيل وزارة الحربية، قد تحدث إلى القادة ليقول لهم: "طالما بقيت قطرة واحدة من الدم فى عروقكم فإنكم ستحمون وتدافعون عن القناصل هم ورعاياهم، ورد القادة على ذلك ردا إيجابيا.. ثم سأل المحافظ بعد ذلك الضباط المصريون عن مدى التزامهم بتحقيق السلامة والمحافظة على النظام العام فى المدينة وردوا جميعهم ردا إيجابيا أيضا... كان القناصل يعلقون الأهمية الكبرى على قدرة الجنود على منع تجمهر المواطنين فى الأحياء الأوروبية، كما تعهد الضباط المصريون العظام بنشر الجنود عند أى تجمهر للمواطنين فى الأحياء الأوروبية". يجب ألا يغيب عنا أنه اعتبارا من يوم اجتماع الضباط بعد أن وضعت الإسكندرية تحت حماية الجيش المصرى، وإلى أن ضربت الإسكندرية بالقنابل لم تحدث أية اضطرابات من أى نوع كان، ولم تحدث أية مذابح مطلقا.

فيما يتعلق بسلوك وتصرفات عمر لطفى، يجب ألا ننسى تحت أى ظرف من الظروف، أن عمر لطفى باعتباره محافظا مدنيا للإسكندرية، تخضع لأوامره وسلطته كل من الشرطة وقوة "المستحفظين" فى المدينة، يعد هو المسئول الأول عن الأمن والنظام فيها، ويجب ألا يغيب عنا أن الرجل فى ذلك الوقت كان تحت

إمرة الخديو بصفة خاصة، وأن الخديو فى ذلك الوقت لم يكن قد عُين وزيرًا للداخلية، الأمر الذى جعل الخديو يتصرف هو نفسه من منطلق كونه وزيرًا للداخلية، ولذلك أصدر توجيهات لمديرى الوجه القبلى والوجه البحرى، بأنه يتعين عليهم إحالة المسائل والموضوعات المهمة، التى يتعين عرضها على وزير الداخلية، إلى مجلسه (الخديو) الخاص. فى الكتاب الأزرق (مصر، العدد ٨، صفحة ٤٠، رسالة رقم ٩٠. نجد السيد / إدوارد ماليت يكتب للإيرل Earl جرانفيل) قد لا يكون من الضرورى أن نضيف أن عرابيا باشا، باعتباره وزيرًا للحربية والبحرية، لم تكن له سلطة على عمر لطفى، محافظ الإسكندرية المدنى، وقد أثبت البيان المرفق الخاص بالسيد جون نينيه أن عرابيا باشا لم يتلقى أية معلومات استخباراتية عن الاضطراب إلا بعد الساعة الرابعة من عصر الحادى عشر من يونية، يضاف إلى ذلك أن مكاتب التلغراف فى كل من القاهرة والإسكندرية كانت محجوزة لاستخدام الخديو وعمر لطفى وحدهما. يزاد على ذلك أن تصرفات عمر لطفى، اعتبارًا من يوم المذبحة إلى يومنا هذا لم تجر بشأنها أية تحقيقات أو مساءلات عامة، لا عن طريق الحكومة المصرية أو الحكومة البريطانية، لكن الخديو عيَّن عمر لطفى وزيرًا للحربية مكان أحمد عرابى باشا فى السادس والعشرين من يوليو التالى. (راجع الكتاب الأزرق، مصر، العدد ١٧، صفحة ٢٢٣، الرسالة رقم ٤٤٦).

كان سعيد بك قنديل، رئيس الشرطة، الذى تجرى محاكمته الآن، كان فى بيته يوم اندلاع الاضطراب، وطوال الأيام التى تلت ذلك، مدعيًا المرض، لكن حسن بك صادق، نائب رئيس الشرطة، والذى كان قائمًا بعمل سعيد بك قنديل، والذى يقول عنه السيد كارترايت Cartwright (فى الكتاب الأزرق، مصر، العدد ١٧، الرسالة رقم ٣١، صفحة ٣٥) أنه كان ينتمى إلى الحزب العسكرى، وانتقد أنه لم يجر توقيفه بسبب سلوكه وتصرفه فى عملية الاضطراب، وأنه جرى تعيينه اعتبارًا من ذلك اليوم فى منصب عسكرى مهم فى السودان جزاء له على سلوكه وتصرفه فى الحادى عشر من يونة، وجرى إبعاد الرجل حتى لا يطوله التحقيق بأى صورة.

ونحن عندما نتدبر المذكرة السابقة التى جمعناها من الكتب الزرقاء يجب أن يترسَّخ فى أذهاننا أن الرسائل كلها التى كتبت والشهادات كلها التى جرى جمعها فى الكتب الزرقاء، إنما جرى تدوينها وجمعها فى ظل اعتقاد مفاده أن المذابح كانت من عمل أحمد عرابى هو والحزب الوطنى، والرغبة فى إدانة هذا الرجل ونسب هذه الاتهامات إليه.

وتأكيد ذلك يتطلب منا اقتباس ما قاله اللورد جرانفيل، فى الرسالة التى أرسلها إلى السير إدوارد ماليت (مصر، العدد ١٥، والعدد ٣، صفحة ٧): "يتعين علىَّ أن أطلب منك اتخاذ الخطوات اللازمة لدعم هذه الشهادة، وبخاصة ذلك الجزء منها الذى له علاقة بسلوك وتصرفات عبد الله النديم ووكلاء عرابى وعن علاقة قنديل بعرابى". وهذا توجيه سافر ومؤكد، ويثبت بلا أدنى شك أن ضرورة اكتشاف الفاعل الحقيقى لما حدث فى الإسكندرية، كانت فى ذهن اللورد جرانفيل أقل بكثير من رغبته فى إلصاق التهمة بعرابى باشا.

ومع ذلك، يمكن الوقوف على نجاح هذه المحاولة من الحقيقة التى مفادها أن التهمة الرابعة الواردة فى عريضة الدعوى المقامة على كل من عرابى، ومحمود سامى، وطلبة، ومحمود فهمى، وعمر رحمى، وسعيد قنديل والتى تقول: "إنهم حرَّضوا الناس على الحرب الأهلية، وعلى القيام بأعمال التدمير، والمذابح، والسلب والنهب على أرض مصرية" عن هذه التهمة نجد أن السير شارلز ولسون يكتب (فى الكتب الزرقاء، مصر، العدد ١، من عام ١٨٨٣، الرسالة رقم ٤٥، المرفق، صفحة ٢٨): "لا بد من التعبير عن اعتقادى الذى مفاده أنه فى ظل الشهادة القائمة حاليا، لا يمكن لأية محكمة عسكرية إنجليزية أن تربط بين المسجونين، باستثناء طلبة، وسعيد قنديل، وبين أية جريمة من الجرائم الكبرى اللهم باستثناء المشاركة فى تمرد عسكرى على الخديو".

يزاد على ذلك أن السير شارلز ولسون (فى مصر، العدد ٥، من عام ١٨٨٣، الرسالة ٤١، المرفق، صفحة ٦١) يقول: "يبدو أن الادعاء مبنى على نظرية أن أحداثًا بعينها مثل المجزرة التى وقعت فى الحادى عشر من يونية،

كان لا يمكن أن تحدث إلا بعد صدور الأوامر لهم من عرابى، وهذا بحد ذاته يعد دليلاً كافيا أنه أمرهم بذلك. على الجانب الآخر، كان بالإمكان إقامة دفاع جيد وعادل من الشهادة التى أُخِذت من الادعاء، دون دعوة الشهود للإدلاء بشهاداتهم، ودون استجواب.

والواضح أن الحكومة الإنجليزية أقلعت عن فكرة التدبير المسبق والمذابح المتعمدة من منطلق استحالة فرض علاقة عرابى بالحادث على الحكومة. الجملة الأخيرة مليئة بالاحتمالات ولذلك فأنا أُلفت الانتباه إلى تلك الجملة. ونجد السير شارلز ولسون يكتب فى مفقرة أخرى من الرسالة نفسها، "لم تكن هناك دلائل على علاقة أو صلة عرابى بالمذبحة التى جرت فى الإسكندرية فى الحادى عشر من يونية، وأن هناك شك فى مسألة العمد والإصرار على إقامة مذبحة للأوروبيين".

الحقيقة التى مفادها أنه لم يجر تبادل البرقيات أو الرسائل بين المحافظ عمر لطفى والخديو من ناحية، وبين الخديو والسير إدوارد ماليت من ناحية ثانية، أو بين الأدميرال والسير إدوارد ماليت والقنصل الإنجليزى من ناحية ثالثة، والتى كان يتعين استمرارها طوال فترة الاضطراب، هذه الحقيقة تدور من حولها شكوك كثيرة وتحتاج إلى تفسير.

وهنا نجد أن الأذهان المحايدة تتفق على أن المقتطفات سالفة الذكر والمأخوذة عن الكتب الزرقاء، والتى استبعد منها كل ما يتصل بالخديو، وعمر لطفى، والسلطات المدنية (بما يتفق والآداب العامة)، توضح أن هناك مسائل تقتضى إقامة دعوى ظاهرة الوجاهة على هؤلاء الأشخاص، وأن هذه الدعوى بحاجة إلى التنفيذ وإلى بحث دقيق.

بيان السيد جون نينيه عن الأحداث التى وقعت فى الإسكندرية، فى يونيو عام ١٨٨٢، مُوقَّعة منه فى ٣٠ يناير عام ١٨٨٣

كنت فى الإسكندرية عندما وصل إليها درويش يوم الأربعاء المصادف السابع من يونية من عام ١٨٨٢. رأيت الرجل على رصيف الميناء وهو فى

طريقه إلى رأس التين وفى صحبته ذو الفقار باشا (مندوب الخديو، وهو يونانى مسلم ومن أنصار سعيد باشا) ويعقوب باشا (مندوب عرابى، وهو شركسى لكنه رجل أمين) ومعهما الشيخ أسعد وعمر لطفى (محافظ الإسكندرية).

فى فترة العصر قام العلماء، وبعض الأعيان والمسئولين بزيارة درويش، الذى استقبلهم استقبالاً فاترًا. كما جاء لزيارة الرجل أيضًا القنصلان: السيد كوكسون والسيد م. كليكوسكى Kleckowski، وكان الاثنان يرتديان الملابس المدنية – كما جاء أيضًا كل من الأدميرال الفرنسى والأدميرال الإنجليزى بزيهما الرسمى. كنت حاضرًا عندما جرى استقبال السيد كوكسون. وذكر كوكسون درويش باشا أن الأدميرال سيمور هو نفسه الذى تولى القيادة فى دولسجنو Dulcigno، الأمر الذى جعل درويش باشا يبتسم دون أن يرد على الكلام. بعد انصراف القنصلين قدَّم الأعيان لدرويش باشا التماسًا عرضوا فيه مظالم الأمة المصرية، واشتكوا من وجود الأسطول، وأعربوا عن رغبتهم فى الحكم الذاتى، ودخل درويش باشا مع الأعيان فى حوار طويل حول هذا الموضوع ووعدهم بانصراف الأسطول خلال وقت قصير. لم أكن حاضرًا فى ذلك لكنى سمعت عنه من صديقيَّ الغريانى والنديم اللذين كانا حاضرين. وكان الشيخ الهجرسى حاضرًا أيضًا. وكان النديم فى ذلك الوقت دائم التردد على الإسكندرية والقاهرة. وعلى حد علمى لم يكن العقاد موجودًا فى الإسكندرية إلا بعد انتهاء الاضطراب.

فى صبيحة اليوم التالى المصادف لليوم الثامن سافر درويش باشا إلى القاهرة وفى طريقه إلى المحطة، تبعه جمهور كبير من الناس وهم يصيحون تبرمًا من السلطان والأسطول. وعلى رصيف المحطة اعترض ذو الفقار هو وبقية ضباط الخديو على دخول يعقوب باشا إلى عربة درويش باشا، لكن درويش أمسك يعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة لكى يصبح الأربعة التالية أسماؤهم داخل العربة: درويش، وأسعد، وذو الفقار، ويعقوب. نجح النديم فى الانتقال ضمن السكرتيرين والخدم فى القطار نفسه. وفى دمنهور، وطنطا، وكفر الزيات، كانت الوفود تحتج على ولاء هؤلاء للسلطان. ويرجح أن ذلك كان بناء على خطة مدبرة.

سمعت التفاصيل التالية من عرابى ومن أولئك الذين جـاءوا مـن طرفـه، وأعتقد أن هذه التفاصيل صحيحة: جرى استقبال درويش باشا فى المحطة بواسطة القوات والمسئولين، لكن لم يكن أحد من الوزارة الوطنية فى استقباله. لم يكن هناك انفعال أو إثارة محددة بين الجماهير، واتجه درويش باشا إلى قصر عابـدين. لـم يستقبل درويش باشا أحدًا فى ذلك اليوم، ولم يستقبل أحدًا سوى الخديو وأهل بيتـه فى عابدين، وأمضى درويش الليل فى قصر النُّوسة Nausa، الذى كـان قـد أعـد لاستقبال الرجل. فى تلك الليلة، أو فى صبيحة اليوم التالى سمعت أن الخديو أرسل أحد الأغوات، قام بعمل الترتيبات اللازمة، من خلال أحد السكرتيرين، مـن أجـل حصول درويش باشا على مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى فور تـدبير هـذا المبلـغ، وبذلك يكون الخديو قد ضم درويش إلى جانبه، لأن درويش كانت لديـه تعليمـات تقضى بعزل توفيق وإحلال حليم محله. لم ير درويش باشا يعقوب باشا بعد ذلك.

أمضى درويش باشا يوم الجمعة فى زيارة المساجد والصلاة. فى واحد مـن تلك المساجد قدم العلماء التماسًا إلى درويش باشا، وفى فترة العصر، وعندما جـاء العلماء للسلام عليه والتعبير عن مطالبهم، مثلما حدث فى الإسكندرية، تصرف مع العلماء بطريقة وقحة، وقال لهم: إنه جاء ليتكلم لا ليتكلم الناس إليه. وقد أدى ذلـك إلى إثارة المشاعر فى المدينة، وجرى إرسال مبعوثين فى قطارات المـساء إلـى سائر أنحاء البلاد ليقولوا للناس أن درويش باشا شخص لا يمكن الوثوق به.

أرسل درويش باشا فى طلب عرابى يوم السبت ومعـه محمـود سـامى. واستقبل الرجلين استقبالاً اتسم بالتأدب الظاهرى وأجلسهما إلى جواره وشرح لهما الموقف. وقد وصف لى عرابى ذلك الشرح على النحو التالى: "نحن هنـا جميعًـا إخوان، أبناء السلطان، وأنا بلحيتى البيضاء يمكن أن أكون أبًا لكما، ونحـن لـدينا هدف واحد، هو معارضة الغير Ghiaours ورحيل الأسطول، الذى يعد عارًا على السلطان وتهديدًا لمصر" – وإنهم جميعًا يتعين عليهم العمل سـويا لتحقيـق هـذا الهدف، وبخاصة عرابى هو والوزارة لكى يكشفوا ويثبتوا حماسهم وحرصهم على سيدهم، وأن ذلك يمكن أن يحدث على أفضل نحو ممكن عن طريق تنازلهما عـن

سلطتهما العسكرية، ولو من الناحية الشكلية فى أضعف الأحوال، وأن على عرابى أن يسافر إلى إسطنبول ولو لفترة قصيرة كى يشرح قلب السلطان. وافق عرابى أنه على استعداد للاستقالة، لكن الموقف كان متوترًا توترًا شديدًا، وإنه نظرًا لتحمله مسألة المحافظة على الأمن والنظام فإنه لن يستطيع الموافقة على نصف الإجراء. وإنه إذا ما استقال فإن ذلك سيكون عملاً وقولاً. لكنه لن يقبل على ذلك دون أمر وإخلاء طرف مكتوب، لأنه لن يعد مسئولاً عن الأشياء التى لم يفعلها. لقد اتُهم الرجل بفساد الإدارة، والاستبداد فى الحكم وأشياء أخرى، وهو لن يتنازل عن منصبه دون تبرئته تمامًا من هذه الاتهامات. وقال إنه سيذهب إلى إسطنبول عندما تستقر الأمور، وبصفة غير رسمية، لكى يعبر عن شكره وامتنانه للسلطان. لم يكن درويش باشا مستعدًا لقبول مثل هذا الرد، بل إنه لم يستلطف ذلك الرد أيضًا. تغير وجه درويش باشا. لكنه قال: "فلنفترض أن الوضع قد استقر. ويتعين عليك فى الحال أن تبرق إلى محافظ الإسكندرية هو وقائد الحامية لتقول لهما إنك تنازلت عن مهمتك لى وإنك تعمل وكيلاً لى، وفى يوم الاثنين، وعندما يحدث الاجتماع المقرر بين القناصل والخديو فى عابدين، سوف نعطيك هذا الإخلاء". ورفض عرابى عمل ذلك رفضًا قاطعًا، قائلاً إنه إلى أن يتم تحرير إخلاء الطرف فإنه يتعين عليه البقاء فى موقعه ومتحملاً لمسئوليته، وبقى الحال على ما هو عليه. ولم يجر تقديم القهوة أو السجائر فى الاجتماع. وقد أكد محمود سامى هذه الرواية لى كاملة فيما بعد. وقد حمل عبد الله النديم أخبار هذا اللقاء على الفور إلى الإسكندرية وعاد مع أول قطار إلى القاهرة فى صبيحة يوم الأحد.

فى اليوم التالى، المصادف ليوم الأحد، كنت لا أزال فى الإسكندرية، وكانت المدينة هادئة تمامًا. عند الساعة الثانية أرسلت خادمى السودانى، لإحضار عربة حتى أقوم بزيارة قائد الحامية، وغبت مدة نصف ساعة. كان قائد الحامية خورشيد باشا، وهو رجل شركسى، لكنه رجل طيب، كان من قبل من المتيمين بإسماعيل باشا، ومن ثم كان يعارض الخديو. عندما عاد خادمى رجانى ألا أذهب إلى حيث انتويت، نظرًا لوجود شجار فى قهوة القزاز فى شارع "الأخوات" – وهو المكان الذى يتجمع فيه الصيّع من الأوروبيين والبوابين فى أيام الآحاد. وكانوا فى ذلك

الوقت قد قتلوا اثنين من المسلمين. وعليه قصدت ذلك المقهى سيرًا علـــى الأقـــدام لكن ليس عن طريق الميدان، وإنما عن طريق شـــارع جـــانبى. وجـــدت شـــارع "الأخوات" مليئًا بالناس، أوروبيين ومسلمين، لكن لم يكن هناك شجار بالقرب منى، لكن على بعد مسافة تقل عن مائتى ياردة كانت جماهير الدهماء تتماوج مثل البحر، ورأيت طلقات المسدسات وهى تطلق من النوافذ. وينتقل الشجار فجأة إلى الاتجـــاه الذى كنا نقف فيه، وعليه تراجعنا إلى أن وصلنا بالقرب من مدرسة الرهبان، التى شاهدت أمامها حوالى اثنى عشر يونانيا مسلحين بالبنادق وبدءوا يفتحـــون نيـــران بنادقهم على الجماهير بلا تمييز، بعد أن مررنا عليهم. ثم شاهدنا بعد ذلـــك عربـــة فيها جندى درك جريح أو قتيل. يبدو أن ذلك أثار الذعر والفـــزع، وعقـــب ذلـــك مباشرة جاء بعض المسلحين، معظمهم من البرابـــرة Barberins أو العـــرب مـــن الصعيد، جاءوا يجرون فى اتجاهنا من أنحاء مختلفة وكانوا يحملون معهم عصى. بعد ذلك اتخذ الشجار طابعا عاما، وهنا قصدت بيتى. فى أثناء عودتى إلـــى بيتـــى التقيت السيد كوكسون فى عربة، وقال لى أحد الواقفين إنه كان فى منـــزل رجـــل مالطى، صدرت منه طلقات نارية من مسدس، وأن الرجل (كوكسون) ضُرب فـــى أثناء خروجه من ذلك البيت، والسبب فى ذلك أن الدهماء اعتبروا كوكسون مسئولاً عن إطلاق النار. معروف أن كوكسون كان قد نصح المالطيين، قبل ذلـــك بأيـــام قلائل، بحماية أنفسهم إذا ما وقعت بعض الاضطرابات. بعد ذلـــك وفـــى حـــوالى الساعة الثالثة تصادف أن التقيت عمر لطفى وهو يسير مرتديًا ملابسه المدنية مـــع بعض رجال الشرطة. وسألته لماذا لم يفعل شيئًا من أجل وقف العـــراك والقتـــال. قال: "كنت مع القنصل الإنجليزى، الذى ضُرب". قلت: "لماذا لـــم تـــذهب بـــالزى الرسمى وتأخذ معك خمسين شرطيا راكبا لوقف ذلك العراك؟"، قال: إن قنديل قائد الشرطة لم أستطع العثور عليه. ورددت عليه: "والجنود، لماذا لم يفعلوا شيئًا لوقف ذلك العراك؟"، ورد علىَّ: "هم لا يستطيعون التحرك دون أوامـــر". "ومـــاذا عـــن التفاصيل؟" "إنهم يعقدون اجتماعًا". سألته عن سبب عدم إبراقه إلى نائب الـــسلطان، ورد علىَّ ردا وقحا، "وما هى علاقتك بذلك؟" بينما كانت القنصلية الفرنـــسية تعـــج باللاجئين الأوروبيين.

ذهبت بعد ذلك إلى بيتى وارتديت أردأ ملابسى، وحملت عصا وخرجت مرة ثانية. بعض الصبية كانوا يجرون من حولى ومعهم المنهوبات التى أخذوها من الدكاكين. لم يتدخل المستحفظون لمنع العراك، لكن بلغنى من أحد المسيحيين، الذى كان فى قسم الشرطة، أن مسألة إساءة معاملتهم داخل مركز الشرطة أمر غير صحيح. والتقيت مراسلاً من القنصلية الروسية أبلغنى أن العراك مستمر بالقرب من الميناء وأن الناس الذين كانوا على ظهر هذه المراكب طوال اليوم جرى ضربهم وقتلهم وأن القناصل كانوا يبرقون إلى مندوب السلطان. كان ذلك فى الساعة الثالثة والنصف والرابعة، كانوا يتوقعون تدخل القوات. عند الساعة الخامسة تقريبًا بدأت القوات فى الظهور وانتهى كل شىء. كان بوسع القوات التدخل لو أنه أصدر لها الأوامر بذلك.

الظروف الآتية بعد توحى بوجود نوع من الترابط والتداعى القويين. بعد أربعة أيام من المظاهرة صعد عمر لطفى إلى ظهر سفينة القيادة وأبلغ الأدميرال سيمور أنه ليس مسئولاً عن النظام، وأن عرابيا كان عاجزًا عن المحافظة على النظام، ورجاه أن يقوم بانزال قوات – هذا على الرغم من أن المدينة كانت هادئة تمامًا. كان عمر لطفى عدوًا من أعداء عرابى وصديقًا من أصدقاء الخديو. وقد عُزِل الرجل من منصبه، كما سبق أن أوضحت، بناء على طلب من القناصل وذلك من بابه ترضية الرأى العام، وبعد أن تشكلت وزارة راغب باشا جرى استبدال ذو الفقار به. وأوقفت لجنة التحقيق بفعل القناصل عندما طالب عرابى بأن يكون التحقيق شاملاً وكاملاً، ويشمل الأوروبيين والمصريين.

عرفت حقائق المقابلة التى تمت على ظهر سفينة القيادة، عن طريق السيد ماريوت Marriott، الذى كان الأدميرال سيمور يجعل منه سكرتيرًا له، كما عرفت بعض الأشياء الأخرى من المسيو دى لكس، القنصل الروسى.

فيما يتعلق بأصل إضراب الإسكندرية نجد أنه حدث على النحو التالى: أحدث وصول الأسطول إلى الإسكندرية قدرًا هائلاً من المشاعر السيئة بين المصريين والجالية الأوروبية. كان الأوروبيون ينظرون إلى وصول الأسطول باعتباره أول عمل من أعمال الحرب، وعليه أصبح سلوك الأوروبيين وتصرفاتهم

مع الوطنين تتسم بالتهديد والوعيد. قالوا: "ستَرون الآن، مــاذا ســنفعل"، وتحــول موضوع الأسطول هذا إلى محور لحوار المصريين كل يوم، وأثار ذلك الكثير من الخوف. حسب الناس إن القوات سيتم إنزالها وإن مصر سيجرى احتلالها بواســطة الإنجليز. كان الناس يسألونى مرارًا فى ذلك الوقت حول ما إذا كــان ذلــك هــو المقصود أم لا. وقد تزايد ذلك عندما عرف الناس أن عقدًا جرى توقيعه بخصوص تزويد الأسطول بالمؤن والتموينات، وبين السير ت. سيمور والسيد م. كونراد لمدة ثلاثة أشهر. كان ذلك فى أفواه الجميع وسبَّب كثيرًا من القلــق والاســتياء. هــذا الإحساس لم يكن موجودًا تجاه الفرنسيين نظرًا لأن الموقف الذى اتخذه كــل مــن السيد م. كونراد والأدميرال لم يكن موقفا عدوانيا. بذل الرجل، قــصارى جهــده، على العكس من ذلك لمصالحة الوطنيين. هذا الانزعاج والاستياء أزعج الأوروبيين وبخاصة الإنجليز والمالطيين، الذين كانوا يتقدمون، بصورة مستمرة، إلى قنــصلهم للحصول على المعلومات الخاصة بطريقة حمايتهم لأنفــسهم فــى حــال وقــوع الاضطراب. أبلغهم السيد كوكسون بحماية أنفسهم اعتبارًا من نهاية مايو أو بدايــة يونية، وأصبح فى الوقت نفسه تقريبًا، معلومًا أن الأسلحة النارية جرى إرسالها من اليونان لتسليح اليونانيين فى الإسكندرية. قام الرعايــا البريطــانيون بــشراء كــل الأسلحة التى توفرت لهم فى المدينة، وأنا أعرف من خلال مــسئولى الجمــرك أن بنادق من طراز سنايدر Snider ومسدسات يجرى إنزالها مــن الأســطول لكــى يستعملها الرعايا البريطانيين. وأصبح مؤكدًا عندئذ أن صراعًا سوف ينشب، ولمــا كان يوم الأحد هو اليوم الذى يصادف تجمع الأوروبيين أو السواد الأعظم منهم فى المقاهى وفى الشوارع لكى يشربون، فقد أصبح يــوم الأحــد مــصدرًا للخــوف والتخوف. كان الإحساس بالخطر القادم قويا الأمر الــذى دفــع بعــض الأفــراد، والمواطنين وكذلك الأوروبيين إلى مغادرة البلاد. وبدأ المسلمون أيــضًا يــسلحون أنفسهم بالهراوات وبخاصة البرابرة (النوبيين) الذين كان يوجد منهم فى الإسكندرية حوالى ٣٠٠٠٠ نوبى. هؤلاء النوبيون محبون للقتال ويعــشقون العــراك. وكــان الكثيرون منهم إلى جانب الشراكسة فى هذه العملية.

كانت قصة الاضطراب كما سمعتها فى ذلك الوقت على النحو التالى. فى صباح الحادى عشر من يونية المصادف ليوم الأحد، جاء مالطى، شقيق لواحد من خدم السيد كوكسون، لزيارة شقيقته، وحصل على هدية من القنصل مقدارها جنيه ذهب، أخذه وخرج للترفيه عن نفسه فى المدينة باستعمال ذلك الجنيه. استقل ذلك المالطى عربة وراح يطوف على حانات الشراب فى حى الأفرنج ووصل فى النهاية إلى قهوة القزاز Gezaz. كان المالطى مخمورًا فى ذلك الوقت وأراد أن يصرف العربة بإعطاء صاحبها قرش واحد. وقد أسفر ذلك عن نزاع انتهى بأن تناول المالطى سكينًا من سكاكين القهوة التى تستخدم فى تقطيع الجبن، والتى كانت مربوطة بخيط إلى الطاولة، ثم طعن المالطى صاحب العربة بذلك السكين. وجُرح الرجل جرحًا مميتًا فى بطنه، وقام رجل يونانى بقتل رجل آخر جاء لمساعدة المطعون، فى هذا العراك قتل خباز يونانى كان يعيش بالقرب من المكان وهنا اتخذ العراك طابعا عاما. كان رئيس الشرطة فى حى اللبان إيطاليا ولم يكن يعرف اللغة العربية، ولم يستطع الرجل وقف هذا العراك. وجرح واحد من قوة "المستحفظين" التابعة لذلك الرجل إيطالى الأصل، وانضم باقى "المستحفظين" إلى القتال، وراحت تقف إلى جانب المواطنين. هذه التفاصيل حصلت عليها فى اليوم التالى من رجل شرطة مسيحى كان موجودًا وقت الحادث.

فيما يتعلق بقنديل، رئيس الشرطة، كنت قد رأيته يوم الخميس فى محل سوماريفا Sommariva، وعرفت أن الرجل مريض، لأنى كنت قد تحسست نبضه وعرفت أنه يعانى من الحمى. وكان بوسع عمر لطفى وقف ذلك العراك لو أنه أراد ذلك.

إن الذى أدى إلى انتشار الفوضى والاضطراب هو الحقيقة التى مفادها أن الموتى المسلمين كانوا يؤخذون إلى حيث تعرض الجثث المجهولة. لقد رأيت ٦٧ أوروبيا ميتون.. وقد عرفت ذلك الرقم من سكرتير لجنة التحقيق المسلم، وعرفته أيضًا من طبيب مسلم، هو مصطفى بك النجدى، عرفت أن إجمالى عدد القتلى المسلمين وصل إلى ١٤٠، كان من بينهم حوالى ٢٥ من النوبيين.

شارك بدو أولاد على أيضا فى العراك. شاهدت حوالى ٢٠ إلى ٢٥ منهم بالقرب من منزل جبارة Gibara، حيث فتحوا أحد مستودعات الأسلحة النارية. لقد كان أولاد على هؤلاء فى ذلك الحين، يقفون إلى جانب الخديو، إذ جرى رشوتهم بمبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه إنجليزى بواسطة إبراهيم توفيق، مدير البحيرة، فى دمنهور. بلغنى بعد ذلك من مسئول معروف فى التلغراف المحلى أن عمر لطفى أرسل برقيات كثيرة مشفرة فى ذلك اليوم إلى نائب السلطان.

وأنا أزيد على ذلك أنى لم أغادر الإسكندرية على امتداد أيام كثيرة قبل اليوم الحادى عشر من شهر يونية، إلى ما بعد قصف مدينة الإسكندرية بالقنابل.

الملحق رقم (٣)

رسائل من عرابى باشا تُرجمت من العربية ولم تدرج ضمن النص

إلى السيد بلنت من القاهرة

٢٣ نوفمبر عام ١٨٨٢.

إلى صديقى، منقذ حياتى (حرفيا روح حياتى)، السيد ولفريد بلنت، حفظه الله ورعاه.

بعد تقديم أفضل التحيات والتعبير عن اشتياقى الشديد لرؤية وجهك الطيب. لقد تشرفت باستلام رسالتك المؤرخة اليوم الثالث من نوفمبر عام ١٨٨٢، وحمدت الله على أنك بصحة جيدة التى أتمنى لك دوامها. وربنا يعطيك الصحة والعافية. واقع الأمر أن رسالتك ملأتنى فرحًا، لا حدود له. أرجوك تبليغ أطيب تحياتى لحرمك المصون السيدة بلنت.

يتعين علي أن أقول لك، أني لا أهتم بما أعانيه، من السجن، والسباب، أو لما يمكن أن يحدث بعد ذلك، نظرًا لأنى قدمت نفسي وقفًا لحرية بلدى، وأنا لا يهمنى شىء سوى انتشال شعب بلدى من وهدة الأفاعى السامة وتخليص هذا الشعب من براثن ذلك التنين الكبير - (وذلك عن طريق) حكمة الحكماء من بين الإنجليز، الحكماء المتحمسين للحرية.

بعد ذلك، لو هناك بقية فى العمر، فإنى أود أن أعيش حرا فى دمشق أنا وأطفالى، مبتعدًا بذلك عن المسائل السياسية طالما كنت خارج مصر، وإذا لم يسمح

لى سلطان المسلمين بالعيش بين المسلمين، فأنا أفضل العيش فى لندن بين إخواننا، مساعدى الإنسانية، أعيش رجلا حرا فى أرض الحرية – لا تحت الرقابة ولا تحت الإشراف، وكذلك أيضًا رفاقى الذين وضعوا أرواحهم على طريق الوطنية من حقهم أن يعيشوا أحرارًا، وأنا أعد بأنى لن أتدخل فى الشئون السياسية ما دامت بقيت بعيدًا عن بلدى "حتى يأتى الله أمرًا كان مفعولاً".

لكن فيما يتعلق بمحاولة العدو إثارة الشكوك حولى فيما بشأن الأحداث التى وقعت فى الحادى عشر من يونية، والثانى عشر منه – فكلها افتراء، وليس عليه دليل أو برهان، نظرًا لأن الأعمال التى من هذا القبيل تتناقض مع أعمالنا المجيدة. لقد جاء عدونا من هذا الطريق لكى يُحَرِّض أوروبا ويحول كل الحريات التى جناها بلدنا إلى مجرد ذرات فى الهواء، وقد يكون فى ذلك خير لأهل هذا البلد، ويحصل على حريته كاملة وخلاصه كاملا بتحول أفكار الشعب الإنجليزى الحر ناحيتنا، وذلك على الرغم من جهود العدو السافر.

أنا لا تعنينى مسألة ألقاب التكريم الطارئة، التى لا أرغب فيها مطلقًا، أنا راض عن شرفى الشخصى الذى سيلازمنى طوال الحياة وبعد الممات. أتمنى أن ينادينى الناس باسم أحمد عرابى المصرى.

وأنا أرجوك أن تبلغ أفضل تحياتى لحضرات أصدقائنا الأعزاء السيد صابونجى والسيد جون نينيه، وإلى أصدقائك الذين انضموا إليك فى القضية الإنسانية، ومن هنا يرسل تحياته لك كل من محمود باشا سامى، وعلى باشا فهمى، وعبد العال باشا حلمى، والشيخ محمد عبده، وأحمد بك رفعت، أدام الله عزك يا صديقى الحبيب.

صديقك، أحمد عرابى

إلى السيد بلنت، من القاهرة،

إلى مهجة أرواحنا، ومنقذنا السيد ولفريد بلنت، حفظه الله ورعاه.

بعد خالص التحيات، وتقديم فرائض الاحترام، الذى نجد أنفسنا عاجزين عن التعبير عنه، أحب أن أبلغكم، أنه طبقًا لتعليماتكم وبناء على نصائح المحترمين السيد برودلى والسيد نايير، لقد دفعنا بعدم الثورة على الخديو، وصدر ضدنا حكم بالنفى الدائم. لكننا لم نوافق على ذلك إلا من باب تخفيف الصعوبات المحيطة بالسياسة الإنجليزية، ونحن نثق فى عدالة الشعب الإنجليزى، وإنه لن يعاملنا على هذا النحو مستقبلاً وذلك من باب زيادة سمعة هذا الشعب الطيبة فى التاريخ. الحكومة المصرية، من جانبها، تعاملنا معاملة تتعارض مع القانون والأعراف المدنية للإسلام وأحكامه، وقد أصدرت الحكومة مرسومًا يقضى بمصادرة ممتلكاتنا وأراضينا وماشيتنا، ومنقولاتنا كلها، على الرغم من أن ذلك لم يصدر فى حكم المحكمة العسكرية، إضافة إلى أن هذه المصادرة ليست طبقًا لحكم الشريعة الإسلامية، وهذه المصادرة لا مثيل لها، إلا فى قضيتنا. وعلى سبيل المثال، فى قضية شاهين باشا، الذى حُكم عليه بالنفى، وعدم الحصول على مخصصاته، وما إلى ذلك، لم تصادر ممتلكات الرجل أو مقتنياته، حوالى ٣٠ ألف جنيه، أو أكثر. الأكثر غرابة أن الميراث حسب الشريعة الإسلامية، محرَّمٌ علينا، ما هو حلال لنا طبقًا للشريعة الإسلامية – حرموا علينا ألا يرث أبناؤنا ممتلكات وثروات آبائهم وأجدادهم، ولذلك قدمنا احتجاجًا على ذلك من خلال المحامى الذى يقوم بالدفاع عنا.

نحن الآن نتوجه إلى جنة آدم، إلى سيلان، وأنا بعد أن عرضت آرائى على السير شارلز ولسون، فيما يتعلق بما هو مطلوب لرفاهية مصر وإسعاد الناس، آمل أن يضعها هو بدوره أمام اللورد دفرين. سوف أصحب معى ولدى محمد هو وزوجته، وخادمتها، وسوف آخذ معى خادمى، وسوف أترك فى القاهرة أطفالى الآخرين وأمهم، ومعهم أمى، إلى ما بعد الوضع. وفى غضون أربعة أشهر من

الآن، أى بعد أربعين يومًا بعد الوضع، سوف أرسل ولدى لإحضارهم والعودة بهم إلى سيلان. سيبقى إخوانى فى القرية مع أقاربهم. ولما كانت الحكومة المصرية لم تحدد بعد المبلغ الذى سنحصل عليه كل شهر، ذلك أن القرار متروك لصاحب السعادة حاكم سيلان، فى ضوء ما يرى أننا نحتاجه فى ذلك البلد، فأنا آمل منك أنا ورفاقى، كلنا، فى أن تتعاطف معنا وتشفق علينا، وتتكرم بالكتابة إلى حاكم سيلان، ليوضح مسألة احتياجاتنا فى ذلك البلد، وأن يكتب له أيضًا صديقنا السير وليام جريجورى، على أن تُحسن معاملتنا وتتحدد مرتباتنا بطريقة عادلة. نحن نرجوك أيضًا أن تحاول إنقاذ ممتلكاتنا من المصادرة، وأن نعامل فيها طبقًا للشريعة الإسلامية وطبقًا للأعراف الإسلامية، وأن نحصل من الحكومة المصرية على موافقتها على إرسال أسرنا وعائلاتنا إلى سيلان على حسابها، لأننا لا نقوى على تحمل هذه النفقات، وأنتم تعرفون الحال الذى نحن عليها.

نحن نتمنى وضع أصدقائنا وأقاربنا تحت حماية ممثل الحكومة البريطانية فى مصر، حتى لا تسىء الحكومة (المصرية) معاملتهم وتثأر منهم بطرق غير شرعية، ولهذا السبب نحن نضع أنفسنا وأقاربنا تحت ظل الحماية الإنجليزية ونحن مطمئنون. هنا يا صديقى الحبيب، وعملاً بنصيحتك المخلصة، التى أسديتها إلينا فى رسالتك المؤرخة فى الثامن من ديسمبر عام ١٨٨٢ الميلادى، سنمضى أيامنا فى تعلم اللغة الإنجليزية، وفى عبادة الله سبحانه وتعالى وعدم التدخل فى أى شأن من الشئون السياسية على الإطلاق – إلى ما شاء الله، أو قد يهيئ لنا (سبحانه) الظرف الذى تقتنع من خلاله، إنجلترا بأننا لم نكن متمردين – وإنما كنا، على العكس من ذلك، ندافع عن بلدنا بطريقة مشروعة.

نحن نرجوك ألا تحرمنا من الأخبار الطيبة عن نفسك التى نشتاق إليها اشتياقًا شديدًا. أرجوك تبليغ تحياتى، وتحيات أسرتى كلها، إلى السيدة الفاضلة آن بلنت وإلى السيدة جريجورى، وأن تبلغ الجميع خالص شكرنا لكل ما قدموه لنا حبا فى الإنسانية.

زملائى كلهم هنا – يعقوب سامى، ومحمود سامى، ومحمود فهمى، وعلـــى فهمى، وعبدالعال حلمى، وطلبة عصمت، وأحمد بك عبد الغفار يرسلون لك خالص تحياتهم، وأنا وهم نتمنى عليك توصيل تحياتنا لصديقى السير وليـــام جريجـــورى وإلى السيد لويس صابونجى وإلى السيد جون نينيه وإلى كل أصدقائنا فى الإنسانية الذين يساعدونك على رفع لواء العدل.

أدعو الله أن يديم عليك الخير يا صديقى العزيز.

صديقك فى الله،

أحمد عرابى، المصرى

٢٢ ديسمبر ١٨٨٢

رسالة كتبها أحمد عرابى كتابها فى كولومبو فى ٧ يوليو ١٨٨٣ وصلت إلى لندن فى ١٤ أغسطس ١٨٨٣.

إلى صديقى العزيز إلخ، بعد التحيات إلخ... إلى السيد صابونجى.

بعد التحية، فرحت بتسلُّم رسالتيك اللتين تقولان إنك فى صحة جيدة، إلـــخ، إلخ.

أشكرك أنت وأصدقاءك، محبى الإنسانية، على مواصلتكم الكفاح ضد جيش الظلمة والطغاة، وعملكم على تفرقة شمل هؤلاء بفضل صمودكم وثباتكم. وعلـــى الرغم من أنه ليس من واجبى التدخل فى الشأن السياسى، فإنى من باب المحافظـــة على العدل تحتم علىَّ تبرئة درويش باشا من المشاركة فى مـــذابح الإســـكندرية – وهذا أمر قاطع لا شك فيه. لكنى لا أبرئه من الحصول على رشوة من الخـــديو – لأن هذا هو عرف الأتراك، من ناحية أخرى، النقود التى دُفعت لم تكن هـــى تلـــك

النقود التي جرى الحصول عليها من رهن أراضي ميت خالد المملوكة لزوجة الخديو، لأن هذا المبلغ كان الرشوة التي قُدِّمت للبعثة العثمانية السابقة التي ترأسها (على) النظامي باشا، هذه (الرشوة)، في ظل أمانة النظامي كلها، أرسلت إلى إسطنبول عن طريق ثابت باشا الشركسي – كان المبلغ يقدر بستين ألف جنيه إنجليزي مسحوبة على البنك الإنجليزي، حيث إن لنورسون Norson بنك حساب لديه. ولم يطلب درويش باشا شيئًا مني سوى السفر إلى إسطنبول مع بعض من رفاقي – واضعًا نفسه منذ ذلك الحين فصاعدًا في منصب القائد والرئيس للضباط في الجيش، باعتباره أقدمهم وفي مقام والدهم، لكي يوحي إليهم بأنه قد ينجح معنا في جهوده التي يبذلها، لكنه لم ينجح فيما كان يسعى إليه.

ولأني سبق أن أدليت بشهادتي فيما يتعلق بمجزرة الإسكندرية، وسلّمت هذه الشهادة للسيد برودلي، وأعطيت شهادة أخرى بنفس المعنى لصديقنا النبيل السيد بلنت، فإن هاتين الشهادتين توضحان ظروف ذلك الحادث. لقد بلغني أن الشهادة (الأولى) لم تصل إلى السيد بلنت، لكنها لا تختلف عن الشهادة الثانية، وهذا يكفي. لكن من باب إعلامك بالشيء، ومنعا لإشارة انتباهك وشغل بالك بالشائعات العارية من الصحة التي ذاعت قبل حادث اليوم الحادي عشر من شهر يونيو، بل وما وقع في اليوم نفسه، وما ترتب على ذلك – كل ذلك حتى تكون على بينة بما حدث كله، كانت الشائعات التي ذاعت على النحو التالي:

أولاً – عندما وجد الخديو أن تقدم الحزب الوطني يحرز نجاحا، عز عليه وعلى مستشاريه وجماعته – وكانوا على النحو التالي: خيري باشا الشركسي، وطلعت باشا الرومي، وما إليهما – بدأوا يرسمون خطة لأحداث الاضطرابات – وعليه قام الخديو باستدعاء رؤساء (مشايخ) البدو عن طريق أبي سلطان باشا، وعن طريق حمد سلطان وهو من الشيوخ البدو، وحرّضهم على محاربة الحزب الوطني، وأعطى البعض منهم سيوفًا مزينة بالفضة، وراح يستثير هممهم وآمالهم الأمر الذي جعل الناس (بصفة عامة) يحسون وكان قصر الإسماعيلية تحول إلى مخيم لهؤلاء البدو. كان ذلك معروفًا تمام المعرفة للأوروبيين وللقناصل في

القاهرة، وتزايد وصول البدو بصورة مستمرة، الأمر الذى زاد من مخاوف وقوع الاضطرابات، وهنا حاول الأوروبيون كلهم شراء كل الأسلحة المتوفرة فى المحلات في القاهرة وفى الإسكندرية. وهذا هو ما أيده السير إدوارد ماليت فى الرسالة التى أرسلها إلى وزارة الخارجية فى الحادى عشر من يونية.

ثانيًا – لم تتوقف المراسلات السرية بين الخديو وعمر لطفى مطلقًا إلا بعد انتهاء مجزرة الإسكندرية. بعض هذه المراسلات كان شفاهيا والبعض الآخر عن طريق البرق باستخدام الشفرة وذلك بتعليمات من خيرى باشا الشركسى وطلعت باشا الرومى، وبعد اكتمال الخطة بدأ عمر باشا لطفى فى تنفيذها مع إسماعيل كامل باشا الشركسي. لكن لما كان سيد قنديل من الحزب الوطنى، فإنه لم يشارك معهما فى ذلك، ولم يكن مسموحًا له حتى بمعرفة ذلك الذى سبق أن اتفقا عليه، لاحتمال إفساد خطتهما من خلال الحزب الوطنى، والرجل مبرأ من كل الشكوك.

ثالثًا – قال باشجاويش (رقيب أول) إيطالى من رجال الشرطة، لا يحضرنى اسمه، قال لصديق من أصدقائه فى اليوم السابق للحادث: "إن من الأفضل له مغادرة الإسكندرية بصحبته لأنه يعرف أن اضطرابًا سيحدث بعد ذلك – والواقع أنه هرب – ووكيل الضبطية حسن بك صادق يعرف اسم هذا الرجل، كما أن ضباط الشرطة يعرفون اسمه أيضًا، وينبغى عليهم أيضًا أن يعرفوا اسم رجل الشرطة الذى ألقى القبض على الرجل المالطى. لكن مسألة إيداع البدو لأسلحتهم فى الضبطية قبل الاضطراب فهى مجرد اختلاق.

فيما يتعلق بالظروف التى سادت فى يوم المذبحة فكانت على النحو التالى:

أولاً – لم يرسل لى محافظ الإسكندرية أية أخبار عن الحادث (المذبحة) وهذا من واجبات الرجل ومن مهامه، لكنى أُبلِغتُ بخبر هذه المذبحة من الخديو فى صباح الثانى عشر من يونية، إذ قال لى الخديو : إن عمر لطفى قد أبرق إليه أن مالطيا ضرب مواطنًا بسكين ثم لجأ إلى منزل يحتله أو يسكن فيه الأوروبيون، وأن الناس تجمهروا طلبًا لإلقاء القبض على ذلك المعتدى، وأن البنادق والمسدسات فتحت نيرانها عليهم من منازل الأوروبيين وأن الأمر أسفر عن مذبحة كبيرة.

ثانيا – أن الخديو عندما علم بذلك النبأ لم يبلغنى به فى حينه، على الـرغم من معرفته أن القوة التنفيذية لم تكن فى يده، وأنه كان عهد إلىَّ بمسئولية ضـمان المحافظة على الأمن العام الذى استغله فى بـذر بـذور الـشقاق والاضـطراب والفوضى. وعلى العكس من ذلك، استدعى الخديو وكيل وزارة الحربية فى أثنـاء الليل وأوفده إلى الإسكندرية فى قطار خاص بصحبة بطرس باشا، وياور (مساعد) درويش باشا، لكى يدعما عمر لطفى ويساندانه فى مسألة الاضطراب.

ثالثا – تفرق الجمع كله فور ظهور سليمان بك سامى هو وجنوده فى مكان المظاهرة، وقام الرجل بعد ذلك بتوزيع الجنود، فى سائر أنحاء الشوارع، وقام هو بنفسه بالتنقل بين أحياء المدينة – وبذلك توقفت المظاهرة على الفور. لكنه سليمان بك سامى لم يجر إعلامه واستدعاؤه مـن قبـل المحـافظ إلا بعـد اشـتداد أوار المظاهرة، وبعد أن جرى تنفيذ خطة الخديو هو وشركائه فى عملية تشويه أعمالنـا وانتهاك مسألة ضمان للأمن العام.

فيما يتعلق باليوم التالى لحدوث الاضطراب، حدث ما يلى:

أولاً – فور إبلاغ الخديو لى با ذكرته، عرفت أن ذلك كان شـركًا جـرى نصبه لى. أصررت مع الخديو على حتمية إجراء تحقيق فى مسألة المظاهرة هذه، وأصررت أيضًا على تعيين مفوضين من قبل الدول الأوروبية ومن بين المواطنين على أمل التوصل إلى الحقيقة. وبناء على ذلك، أصدر الخديو مرسـومًا بتـشكيل لجنة طبقًا لما سبق، على أن تكون تلك اللجنة برئاسة عمر لطفى نفسه، الذى كـان شخصيا مسئولاً عما جرى. كان وكيل وزارة الحربية هو وبطرس باشا عـضوين فى اللجنة أيضًا، لكنى لا أعرف أسماء الممثلين الذين جرى اختيـارهم بواسـطة الدول التى أضير رعاياها أو أصيبوا.

ثانيا – قام وكيل وزارة الحربية فور وصوله إلى الإسكندرية وتحرى الأمر، بطلب إرسال قوة عسكرية للمحافظة على الهدوء، وأرسلت أنا فى اليـوم التـالى للإضراب، كتيبتين من المشاة وسريتين من الخيالة وبطاريتين من المدفعيـة فـى

اللحظة نفسها التى جرى فيها طلب هذه القوات. وكتبت أيضًا رسالة لوكيـل وزارة الحربية (أرجوه فيها) ليبذل قصارى جهده لمنع الاضطراب وإقرار الأمن والهدوء داخل المدينة وخارجها، وأن يلزم الحرص واليقظة عندما يبدأ التحقيق، وأن يحـذر من أن ينخدع بسبب حيل المخادعين – أى بواسطة عمر لطفى وحزب الخـديو – وأن يبذل جهده من أجل الحفاظ على شرف الجيش والحكومة، وأنه ينبغـى عليـه التصميم على معرفة الحقيقة، وكشف الأسباب الحقيقية وما إلى ذلك.

ثالثًا – أمر المحافظ بدفن الموتى دون الفحص الطبى لمعرفة أسباب الوفاة، وهذا مخالف للقواعد والقوانين، وفى عدم وجود ممثلين للدول.

رابعًا – لم تحقق لجنة التحقيق فى سبب المذبحة، أو فى شأن الموتى، ولكن تحقيقاتها كانت مقصورة على معرفة الممتلكات والمقتنيـات التـى جـرى سـلبها ونهبها، بدعوى أن ممثلى الدول لم يكن مرخص أو مسموح لهم بالتحقيق فـى أى شيء سوى المقتنيات المسروقة.

خامسًا – طلب عمر لطفى من الخديو السماح له بالقيام بإجازة لتغيير الهواء فى سوريا وذلك هروبًا من التحقيق، وتحريرًا لنفسه من المسئولية، لأنه كان يعرف أن الحرب أصبحت وشيكة، وحصل الرجل بالفعل على الإجازة المطلوبة. سـافر عمر لطفى إلى القاهرة إلى أن بدأت الحرب، وعندها انضم إلى الخديو عن طريق بورسعيد، وكافأه الخديو بأن أعطاه حقيبة وزارة ا لحربية جزاء له على إشعال نار الاضطراب وزيادة أواره. وبعد استقالة عمر لطفى من منـصب المحـافظ ومـن رئاسة لجنة التحقيق، تولى ذو الفقارباشا مسئول التشريفات والاحتفالات الخديويـة، منصب محافظ الإسكندرية ورئيس لجنة التحقيق، ولم يتحرك الرجل قيد أنملـة أو يفعل شيئًا فى هذا المنصب الجديد، بخاصة ما يتعلق بالتحقيق.

سادسًا – كانت أوراق التحقيق لدى المحافظ عمر لطفى، ولم تكن مؤسـسة على أى شيء من الصحة. كانت الأوراق فى حوزة محافظة الإسكندرية، ولا بـد من أنها موجودة هناك حاليا إن لم يكن الخديو قد قام بإعدامها.

معروف حاليا أن مراسلات الخديو ومعاملاته هو وحزبه تخضع للسرية، وليس من سلطة أحد معرفة أى شيء عن هذه المراسلات والمعاملات – لأنها كانت تتعارض مع أعمالنا، كما قامت الحكومة بالتحفظ على أوراقنا وأدلتنا كذلك استولت أيضا على منقولاتنا وممتلكاتنا كلها، وعليه لا يمكن لنا تذكر التواريخ بدقة، لكن فى ظل المتيسر حاليا وما سبق إرساله يمكن أن تكون الدلائل والأقوال كافية.

من هنا يرسل أصدقاؤنا تحياتهم وسلاماتهم، ونحن جميعًا نرجوك محاولة منع تعيين أى حاكم على مصر من غير المسلمين فقط، لأنك تعرف أن تعيين حاكم آخر سوف يسيء إلى حقوق المصريين.

لقد دونت آرائى لصديقى العزيز السيد بلنت، وعندما ستراها ستنضم إلى مساعدتنا. أتمنى لك العزة والنجاح.

صديقك

أحمد عرابى، المصرى،

اليوم السابع من يوليو عام ١٨٨٣.

رسالة أحمد عرابى إلى السيد صابونجى تسَلَّمها

فى الرابع عشر من عام ١٨٨٣.

إلى صديقى العزيز، إلخ، السيد لويس صابونجى، بعد التحية.

سعدت جدا بتسلُّم رسالتك المؤرخة فى الثانى والعشرين من يونية. أعانك الله وبارك فى تصرفاتك وأعمالك ! لقد أبلغنا تحياتك وسلاماتك إلى رفاقنا كلهم، وهم بدورهم يرسلون إليك تحياتهم.

وبعد – نرجوك إبلاغ صديقنا السيد بلنت، علاوة على ما كتبناه له في الرسالة المؤرخة اليوم الخامس عشر من الشهر الحالي، أن المصاريف التي ترتبت على استخدام ١٠٠,٠٠ جندي في الحرب كانت كلها من قبيل التبرعات والهبات المقدمة من الأمة المصرية دون أي تمييز عرقي. في بداية الحرب لم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندي تحت السلاح، كما لم يكن في المخازن سوى ١٢٠٠ زي من الأزياء العسكرية، بل إن هذه الملابس لم تكن كاملة، ولم يكن هناك أيضًا سوى ٥٠٠ بوشل(*) (مكيال) من الحبوب. لكن بانتهاء الحرب كانت في مستودعات الجيش ومستودعات مختلف المديريات ما قيمته حوالي مليون جنيه إسترليني من المنتوجات، والماشية، والجاموس، والأغنام والملبوسات، التي قدمت على شكل هدايا وعطايا، من الشعب، إلى الجيش الذي يدافع عن بلاده. ويشهد على ذلك كل أولئك الذين رأوا وفرة المخزونات التي تُركت في كل مستودعات بكل من التل الكبير، وكفر الدوار، وكفر الزيات، والمراكز العسكرية الأخرى.

خلال هذه الفترة (فترة الحرب) لم ينفق على الجيش درهم واحد من أرصدة الحكومة – بل على العكس كانت خزانة المالية، وصندوق الدين، وخزانات المديريات عامرة بالنقد. ويشهد على ذلك، هذا الذي جرى نشره في ذلك الوقت عن هذا الأمر في الصحف المحلية والصحف الأخرى، الحقيقة التي مفادها أن النقد الموجود في صندوق الدين في ذلك الوقت كان يزيد على (المبلغ المطلوب) لدفع كوبونات شهري أكتوبر ونوفمبر عام ١٨٨٢، ويتبقى بعد ذلك حوالي ٣٥٠,٠٠٠ جنيه إنجليزي. ولم يحدث أن ذاعت مطلقًا شائعة تفيد أن ممتلكات الحكومة جرت مصادرتها أو سلبها ونهبها. لو كنا من هؤلاء الذين يبيعون شرفهم، أو أولئك الذين يبغون رفاهيم ومصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة لهذا البلد، لأخذ كل ما كان في تلك الخزانات وكنا فعلنا أشياء أخرى بفعل الثروة غير الذي فعلناه بالفعل، أو لما مضينا قدمًا في توجيه وإرشاد الناس في بلادهم، في الوقت الذي

(*) البوشل: مكيال للحبوب، يساوي ٨ جالونات تقريبا. (المترجم)

نحترم فيه حقوق ومصالح الأمة المشاركة معنا في الحرب، ومصالح وحقوق الشعوب الأوروبية الأخرى في فترة الحرب، كان بوسعنا أيضًا ألا نسلم الرصيد مستلهمين في ذلك الشرف والأمانة. والشخص صاحب مثل هذا الضمير، وصاحب مثل هذه الأعمال النزيهة – الشخص الذي من هذا القبيل لا يصح أن يجعل من نفسه أداة في أيدي الطغاة المستبدين، أو يبيع نفسه لهم – أو يؤجر نفسه بالأموال التي تأتيه من السلطان أو الشيطان – مثل هذا الرجل يحرص على شرفه وسلوكه من أن يلوثهما أي شيء.

أرسل طية رسالة إلى صديقكم السير وليام جريجوري، أرجو ترجمتها وإرسالها مع الترجمة على عنوان الرجل، وذلك بعد أن تطلع عليها السيد بلنت. رعاك الله أيها الصديق.

صديقك المخلص

أحمد عرابي، المصري

حاشية: صديقي العزيز، أرجوك رجاء حارًا، أن تُذكّر صديقنا القنصل بما قلته في المحاكمة في نهاية أقوالي، والذي جاء على النحو التالي:

يا أنصار الإنسانية، إذا لم تكن هناك حركة وطنية أو رأي عام في مصر، بل على العكس كان في مصر مجرد حركة عسكرية، كما يدعي المتحاملون، فلماذا جرى حبس عشرين ألف مواطن (بعد الحرب) في السجون؟ وكان من بين المحبوسين حسن باشا الشريعي، وهو من سادة الوجه القبلي أبا عن جد، و"اللورد" أبو سلطان، الذي ساعده أو عاونه بينما كان (أبو سلطان) ضمن كوادر المسئولين في الحكومة، وكذلك صديق (حسن باشا شريف)، وكذلك عبد الله باشا فكري العالم المحترم، ومن بين المسجونين أيضًا صديقاي محمود باشا سامي ومحمود باشا شافعي، اللذان تطوعا وخدما في الجيش في أثناء الحرب، وكان من بين المسجونين أيضًا كثير من الباشوات الكبار، ورؤساء الإدارات المدنية من أمثال حسين باشا الدرملي ومصطفى باشا نايل وآخرين، وكان من بين المسجونين أيضًا كثير من

العلماء الكبار، أعضاء مجلس النواب، ومن القضاة، ومن المفتين، ومن المدراء، ومن المسئولين المدنيين من مختلف الدرجات، ومن التجار، ومن العمد، ومن شيوخ البدو، وشيوخ الهيئات الريفية، ومشايخ الطرق الصوفية، حتى إن سجن القاهرة وسجن الإسكندرية وسجون المديريات كانت تعج بالمسجونين، في الوقت الذي كنا نحن فيه محبوسين – إلى أن طُرد الكثيرون من المفكرين من هؤلاء المسجونين إلى خارج حدود مصر. وإذا كان الجيش وحده هو المتمرد، فلماذا تعامل الأمة بهذه الطريقة؟

لكني من الناحية الأخرى أتساءل، إذا كان الجيش وزعماء الشعب – أو بالأحرى الأمة المصرية كلها – بغض النظر عن العقيدة، على قلب رجل واحد، يشتركون ويوافقون على شيء واحد، وهذا هو الحق، فلماذا تقوم أمة عُرفت برفع عُمُد الحقيقة والعدالة، بسحق وقمع هذه الأمة التعيسة، من أجل إرضاء شخص واحد لا يسمح له قانون بلده بأن يكون حاكمًا عليه مطلقًا، رغم إعلان الحكومة الإنجليزية عن احترامها للقانون والدين؟ كيف سيرى العالم المتحضر ذلك كله على امتداد التاريخ؟

أحمد عرابي، المصري

رسالة من عرابي باشا إلى السيد بلنت
كولمبو، في نوفمبر عام ١٨٨٣.

إلى صديقي الحبيب، الموقر.. إلخ، السيد بلنت، حفظه الله.

أنا أستعيد الآن ذكريات ذلك الزمن المخيف الذي خيم على بلدنا مصر، والذي اضطرني إلى تكليف السيد لويس صابونجي بكتابة رسالة إليك باسمي، فيما يتعلق بالنتائج التي يمكن أن تترتب على شن الإنجليز الحرب على مصر –

ليوضح لك فيها الحال الذى يمكن أن يئو ، إليه هذا البلد، ويلـتمس منـك عـرض وتقديم ذلك إلى رئيس الوزراء، السيد بلادستون، وكنت أتطلع إلـى قبـول هـذا الكلام، وتحقيق شيء من الخير، كان ذلك قبل الحرب بأيام قلائل، وحرر الرجـل الرسالة تنفيذا لرغبتى وبأمر منى، على الرغم من أن الرسالة لم تكن بخطـى، ولا تحمل خاتمى. ولذلك كتبت لك من باب إبلاغك الحقيقة، يا صديقى العزيز.

صديقك

أحمد عرابى، المصرى

العاشر من نوفمبر عام ١٨٨٣

قائمة كبار المساهمين فى صندوق الدفاع عن عرابى

الاسم	المساهمة جنيه	شلن	بنس
اللورد ونتورث	١٠٠	–	–
[مبلغ جمعه] فردريك هاريسون	٦١	١٧	٦
جى. باسمور إدواردز	٥٠	–	–
ريتشارد إيف	٥٠	–	–
السير وم. جريجورى	٢٥	–	–
وم. جون إيفلين	٢٠	–	–
روبرت هاريسون	٢٠	–	–
السير ولفريد لاوسون م. ب.	٢٠	–	–
إيرل ويميس	٢٠	–	–
المبجل إيه. بورك	١٠	١٠	–
سبنسر شارنجتون	١٠	١٠	–
فردريك هاريسون	١٠	١٠	–
جنرال لورد مارك كير	١٠	١٠	–
صمويل ستورى م. ب.	١٠	١٠	–
أر. تى. المبجل روبرت بورك م. ب.	١٠	–	–
ر. فورمبى	١٠	–	–
تى. سى. كار جوم	١٠	–	–
السيدة حرم جريجورى	١٠	–	–

سير آرثر هوبهاوس	١٠	–	–
إف. إكستون م. ب.	٥	–	–
لورد راندولف تشرشل م. ب.	٥	–	–
إدوارد كلارك م. ب.	٥	–	–
آر. سى. فيشر	٥	–	–
جنرال سى. آى. غـــــوردون (مع وعد بجنيه استرلينى سنويا)	٥	–	–
المحترم أوبرون هربرت	٥	–	–
ونتورث إس. هولدزورثى	٥	–	–
ألفريد إللنجورث م. ب.	٥	–	–
إيه. كنجليك	٥	–	–
فيرنون لوشنجتون	٥	–	–
سير هنرى درموند ولف م. ب.	٥	–	–
إدجار درموند	٣	٣	–

ملاحظة مهمة: أسهم كل من جورج مرديث، وولفريد مينل، وآخرين كثيرين بمبالغ أخرى أصغر من ذلك، وأسهم لورد دى لاوور، على ما أذكر بمبلغ ١٠٠ جنيه إنجليزى، ولكن ليست لدى مذكرة بهذا الخصوص.

الملحق رقم (٤)

رسائل السيد صابونجى المرسلة إلىّ من مصر

(المشار إليها فى الكتاب بعد اختصارها وتصحيحها بما يتفق واللغة الإنجليزية).

القاهرة، ٢٧ يونية ١٨٨٢

أمس، الأحد، قمت بزيارة منزل محمود سامى، الذى يجتمع فيه زعماء الحزب الوطنى كل ليلة لمناقشة خططهم. فى ذات الوقت لفت فوزى Fawsi بك، رئيس الشرطة، انتباهى إلى إعلان صادر عن الخديو، فى إحدى الصحف الرسمية، بخصوص الاضطراب الأخير الذى حدث فى الإسكندرية. وعلى الفور جرى إحضار الصحيفة وإعطائها لعبد الله النديم الذى قرأ الإعلان بحيوية وانفعال كبيرين. أحدث الإعلان تأثيرًا سيئًا، وفيما يتصل بى أنا شخصيا لم أجد فيه ما يعكر الصفو، إذ كان يصف حال البلاد بشكل عام وموجز، ويعرب عن الأسف لما حدث، كما كان يصف أيضًا مدى افتقار الجانب الأوروبى إلى الثقة، ومدى الحاجة إلى الأمن العام، والهدوء والتصرف والسلوك الودى مع المسيحيين كلهم على اختلاف نحلهم... إلخ. كان من رأى النديم هو وبعض آخر من الحاضرين أن البيان ينطوى على شىء من الخطأ، وأنه أثار نقاشًا حاميًا، استمر حتى الساعة الثانية صباحًا. حاولت، دون جدوى، تقديم النصح لهم وتهدئة مشاعرهم المضطربة، وأصروا على أن الخديو ليس من شأنه إذاعة مثل هذا التصريح أو نشره وأن ماليت هو الذى نصحه بفعل ذلك، أو إعطاء ذلك التصريح. حاولت دون جدوى، إقناعهم بمغادرة ماليت للإسكندرية اعتبارًا من يوم الأربعاء السابق،

وأصروا على أن توفيقا لا بد من عزله، وتنصيب ولده عبّاس بدلاً منه، على أن يكون عباس تحت الوصاية. وأنا يتعين عليّ هنا الاعتراف بأن عبد الله النديم، على الرغم من طبيعته الثورية والإصلاحية، فإنه رجل عَجِل ومثير ومتهور. والخطأ الوحيد الذى أراه فى عبد الله النديم هو أنه عندما يجد نفسه وقد تغلّب عليه خصمه فى الجدل والنقاش، يندفع على الفور وهو غاضب وحانق إلى المصادر الدينية والمصادر المتطرفة، وأسوأ ما فى هذا كله أن النديم نفسه بعيد كل البعد عن كونه رجلاً متدينًا، ومع ذلك فهو يتظاهر بحماس يفوق حماس شيخ الإسلام. عرابى باشا يعرف هذا كله، وقد نصحه بالاعتدال بالفعل، ومنعه من السفر إلى الإسكندرية مخافة أن يثير الرجل اضطرابًا جديدًا، نظرًا لأن تأثير عبد الله النديم فى الإسكندرية أكبر منه فى أى مكان آخر. وأنا أبذل قصارى جهدى فى توجيه عبد الله النديم وإرشاده، لكننى متخوّف من طبيعة شخصية الرجل المثيرة. بوسع هذا الرجل إشعال فتيل أية حرب من الحروب الدينية، فى أية لحظة من اللحظات.

كان الحزب الوطنى، إلى يوم أمس، راضيًا عن الوزارة الجديدة، ولكنه ينقلب اليوم على هذه الوزارة. اقترح كل من عبد الله النديم ومحمود باشا سامى أن تكون الاتصالات الأجنبية الرسمية، فى برنامج الوزارة الجديدة، لا بد أن تكون عن طريق مجلس الوزراء وليس من خلال أية قناة من القنوات الأخرى، وألا يكون من حق الخديو قبول هذه الاتصالات إلا بعد موافقة مجلس الوزارء. وبعد أن رفض الخديو الموافقة على هذا القيد أو الشرط، وافق الوزراء، منعًا لحدوث المزيد من المتاعب، على تخفيف صياغة المادة، هذا الإجراء المعتدل، الذى اتخذه بذكاء كل من عرابى وبعض الوزراء الآخرين، أثار مشاعر عبد الله النديم، وثار الرجل على الوزراء وعلى الخديو، وبدأ يخطب مطالبًا بعزل الخديو. وهنا تفصح البرقية عن رحيل ماليت إلى مدينة البندقية وتعيين السيد كارترايت مكانه. وهناك برقية أخرى تقول: إن السلطان أرسل إلى عرابى باشا وسام المجيدية كما أرسل للخديو هدية مرصعة بالماس.

القاهرة ٢٩ يونية ٨٢

سافرت أمس وقوف على أحوال حديقتك. وكان النديم بصحبتي. كانت الحرارة خانقة، و ـا في الحديقة طوال النهار. الوكيل الأوروبى، الذى لا أعرف اسمه (هو السيد وسل Rowsel، من لجنة الممتلكات الأميرية) هرب مع بقية الأوروبيين الا ـ غادروا مصر في الفترة الأخيرة. والبستاني العربى لا يعرف من الذى يمكن جوع إليه فى حال الضرورة. جاء الرجل إلىَّ يوم السبت ومعه حساباته ـ يود إرسالها إليك. وعدته بأن أوفر له وكيلا مصريا موثوقا ورجوت عبد الله ديم أن يختار لنا وكيلاً من معارفه. الحديقة عامرة هذا العام على غير المعتـ والماء وفير.

نسيت أن أقول لك فى رسالتى الأخيرة إن زبانية الخديو حاولوا قتل عبد الله ـيم بالسم عن طريق سيجار مُسَمَّم. وقام النديم، الذى لم تساوره الشكوك، بتدخين جزء من ذلك السيجارة الأمر الذى أفقده صوابه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة. النديم شخصية محيِّرة.

حضر عرابى الذى كان فى الإسكندرية فى اليوم السابع والعشرين من الشهر الجارى، إلى القاهرة قبل أن أرسل لك البرقية بوقت قصير جدا. أمضيت الليلة كاملة معه. حضر أيضًا محمود سامى، وباشوات آخرين، كما حضر أيضًا كل من النديم والشيخ محمد عبده. وفى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف انصرف الجميع، أما أنا فقد بقيت مع عرابى، أنا ومحمود سامى، والنديم، وتحدث عرابى إلىَّ عن الإجراءات التى تجرى استعدادًا للحرب التى كانت دائرة فى المواقع الإستراتيجية المختلفة فى مصر. وجرى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتدمير قناة السويس خلال خمس ساعات مع أول إنذار بالاشتباك من جانب أوروبا. لقد أدت المظاهرات البحرية الحمقاء من قبل كل من إنجلترا وفرنسا إلى تقوية الحزب الوطنى مئات المرات، وتحول الحزب ليكون هو الأمة نفسها. وأنت تعرف جيدًا أن الدوافع والأسباب الدينية تلعب دورًا كبيرًا فى مثل هذه المناسبات، وتعرف أيضًا أن بعضًا من أولئك الذين لا يتأثرون بالمشاعر السياسية أو الوطنية إنما يسيرون فى ركب الإثارة الدينية.

هذا هو حال مصر، من واقع ما أسمع وأرى، أخشى مع أول عمل عدائى من قبل أية دولة من الدول، أن يندلع النداء والدعوة إلى حرب دينية. الأمور هنا سيئة فى الوضع الراهن، لقد سمعت من القنصل الإيطالى أن حوالى ١٠٠٠٠٠ من الناس غادروا مصر منذ وصول الأسطول. وقد طلبت القنصلية البريطانية إلى الإنجليز الباقين مغادرة مصر على الفور، لكن هؤلاء الذين يودون البقاء يتعين عليهم توقيع تعهد يفيد أنهم يبقون فى مصر على مسئوليتهم الخاصة. هناك رعب مميت ينتشر بين طبقات الأوروبيين كلهم. لا يوجد من بين الدكاكين الأوروبية سوى عشرة دكاكين هى التى تفتح أبوابها. الفنادق هى الأخرى، تغلق أبوابها والشقق المفروشة لا وجود لها. القاهرة تشكل منظرًا حزينًا فى الأحياء الأوروبية، لكن الأحياء العربية لا تزال على ما هى عليه، يتمتعون بالحياة بطريقتهم الخاصة. الفلاحون وحدهم هم الذين يشعرون بالقلق لأنهم لا يجدون من يشترى منهم منتجاتهم. منذ حوالى ست سنوات والمحاصيل تجود وتتوفر، القمح على سبيل المثال الذى كان يباع بخمسة وعشرين فرنكًا فى حال انخفاض الأسعار، لا يجد حاليا من يشتريه بخمسة عشر فرنكًا، فى حين أن سعر القمح الحالى فى إنجلترا يصل إلى خمسة وثلاثين فرنكًا للكوارتر(*) الواحد. هذا يعنى أن هامش الربح يصل إلى حوالى خمسين بالمئة بصورة مستمرة. لقد هرب الأوروبيون الذين كانوا يتجولون فى الداخل لشراء منتجات الفلاحين، هربوا ومعهم رءوس أموالهم.

الإسكندرية، ١ يوليو.

نظرًا لاضطرار عرابى إلى البقاء فى الإسكندرية مع كل من راغب باشا والخديو، وجدت من الأفضل لى السفر إلى الإسكندرية، وتأسيسنا على ذلك، حضرت اليوم إلى الإسكندرية واستأجرت غرفة فى فندق أبات Abbat، المزدحم بالأوروبيين الهاربين. وفى المساء ذهبت إلى قصر التين للقاء عرابى باشا، لكن

(*) الكوارتر: وحدة وزن تساوى ٢٨ رطلاً فى بريطانيا. (المترجم)

الرجل كان مشغولاً فى مجلس الحرب، وأرسلت له مذكرة تقول: أولاً: نظـرًا لأن إنجلترا تثير بعض المتاعب الخاصة بقناة السويس، فمن الأفيد إبلاغ ممثلى الـدول الأوروبية أن القناة باعتبارها ممرا مائيا دوليا للدول كلها، فإنهـا يجـب أن تظـل محايدة فى حالة الحرب وألا يسمح لأى سـفن محملـة بالرجـال أو الـذخيرة أو الأسلحة بالمرور خلال القناة اعتبارًا من التاريخ الفلانى إلى التاريخ العلانـى. وإذا ما تجاوزت أية دولة من الدول هذا الشرط، فإن الحكومة المصرية يصبح من حقها تدمير أو غلق القناة، على أن تقع المسئولية على عاتق الدولة التى كانـت الـسفينة تحمل علمها عندما دخلت القناة. ثانيا، يتعين على الحكومة إبـلاغ الدولـة التـى أرسلت أساطيلها إلى الإسكندرية، بعد أن يعود السلام والهدوء إلى سـائر أنحـاء البلاد، أن تعلم أن استمرار وجود الأسطول فى مياه الإسكندرية يؤدى إلى اسـتياء المصريين، الأمر الذى يؤثر على الأمن العام، ويمنع النـاس مـنْ العـودة إلـى الإسكندرية فى الوقت الذى يعرفون فيه أن الأسطول لا يزال موجودا هناك. وعليه يتعين إرسال إنذار نهائى إلى الدول المعنية مفاده أن الأسطول إذا لم ينسحب خلال أربع وعشرين ساعة من تلقاء نفسه، فإن القلاع سوف تفتح عليه نيرانها وتضطره إلى الانسحاب والتراجع. وأضفت أيضًا أنه سيكون من مصلحة عرابـى نفـسه أن يأخذ هو المبادأة فى مثل هذا الحال، ويثبت لأولئك الذين هددوه قبـل شـهر مـن الزمان أنه الآن بلغ من القوة حدا يجعله يهددهم ويتحداهم. ثالثًا، اقترحـت علـى عرابى الحذر من القوات التركية. وألا يسمح بالنزول إلى البر. الكراهية القديمـة بين العرب والأتراك لم تمت بعد. هذا يعنى أن الجنود الأتراك والجنود العرب لـن يتفقوا مع بعضهم بعضًا. وجود القوات التركية فى مصر سوف يُدْخِل البلد فى حال من الفوضى والارتباك. سيؤدى ذلك إلى حدوث انقسام فى الجيش وفـى الـشعب، وسوف يشل جهود الحكومة المبذولة بواسطة الدسائس والمؤامرات. وقلت أيـضًا: إن من الأفضل لعرابى، فى هذا الحال، أن ينصح للسلطان بعدم إرسال قوات إلـى مصر، إذا ما كان السلطان مصرًا على إرسال مثل هذه القوات، وأنه لا بـد مـن اعتباره قوة غازية ومقاومته من هذا المنطلق.

٣ يوليـــــو

أرسل عرابى باشا الليلة الماضية، عند تناول العشاء، ضابطًا ومعه ترجمانه الخاص ليطلب منى مقابلته. وما إن دخلت غرفة الاستقبال، حتى نهـض الرجـل واقفًا فى أدب جم، وعلى شفتيه ابتسامة هادئة، ثم قال: "كنت على وشـك إرسـال برقية لك على القاهرة، لكن بلغنى أنك موجود هنا فى الإسكندرية، وأنـك جئـت عصر هذا اليوم لمقابلتى فى أثناء وجودى فى المجلس مع راغب". وبعـد شـرب القهوة سأل الباشا عنك وعن حرمكم الكريم، وسألنى إن كنت قد تلقيت منك أخبارًا فى الأيام القليلة الماضية، كما سألنى أيضًا عن الأحوال فى البرلمان. قلت له كـل ما أعرفه. وأبلغنى أن مراسلاً جديدًا لجريدة "ستاندارد" قد وصل إلى القاهرة منـذ وقت قريب وأن هذا المراسل زار عرابيا مستهدفًا معرفـة رأيـه الـسياسى فـى الموقف. قال عرابى: "أخبرته، أنى آسف على تحمله مشاق الحضور إلـىَّ، وأنـه كان بوسعه الحصول على المعلومات التى يريدها من السيد بلنت، الـذى يعرفنـى معرفتى لنفسى". قال المراسل: إن الشعب الإنجليزى يعرف الآن حق المعرفـة أن السيد بلنت واحد من أعظم أصدقائه والمعجبين به، ولهذا السبب ظـن الـشعب أن السيد بلنت متحامل ومبالغ فى الأمور. وجرى بعد ذلك حوار بين عرابى والمراسل وسوف تقرأ ذلك الحوار بالقطع فى جريدة "ستاندارد". قال المراسل أيضًا لعرابى: إن فى إنجلترا جمعية لحماية الرعايا البريطانيين فى الخارج. وإن تلـك الجمعيـة كانت تطالب بدية لأولئك الضحايا من مختلف الجنسيات الذين أزهقـت أرواحهـم على أرض مصر، من أولئك الذين تسببوا فى هذه الكارثة. وإن من حقه المطالبـة بدية عن إخوانه المصريين الذين ذبحهم الأوروبيون، وإن الحكومة البريطانية هـى السبب الرئيسى فيما حدث من خلال ممثليها فى مصر. وقد طلبنى سيادته خمـس مرات فى وجود الجميع ليرسل لك أحر تحياته القلبية وأسمى آيات احترامه للسيدة حرمكم. وتكلم الرجل عنك لكل الحاضرين، وتكلم أيضًا عـن اهتمامـك الكبيـر بالقضية الوطنية. لو كان الإنجليز كلهم مثلك، فسوف تتحول إنجلتـرا إلـى جنـة ويتحول الإنجليز إلى ملائكة.

أعربت فى رسالتك الأخيرة عن رغبتك فى أن تسمع منى رواية عن ذلك الذى حدث فى اضطراب الإسكندرية الذى وقع فى الحادى عشر من يونية. ونظرًا لأنى لم أكن فى الإسكندرية فى وقت المظاهرة، فهذا يحتم عليَّ أن أروى ما سمعته من الضباط، ومن العرب، ومن الأوروبيين، ومن الباشا نفسه ثلاث مرات، ثم سمعته من جديد فى الليلة الماضية. فى يوم الأحد المصادف الحادى عشر من يونية، طعن مالطى حمَّارًا وقتله فى مكان الحادث. لم ينتظر الواقفون (العرب) مجيء الشرطة، ولكن اندفعوا على المالطى وقتلوه فوق الحمار. بدأ السكان المالطيون الذين كانوا مسلحين ومستعدين قبل ذلك بأيام قلائل، يفتحون النار من النوافذ. وقد أحدث ذلك ارتباكا عاما فى الجمهور الذى تجمع فى الميدان، وامتدت المظاهرة من الميدان لتطول أجزاء عدة من المدينة واستمرت حتى الساعة السادسة (حوالى خمس ساعات)، إلى أن جرى إحضار الشرطة والجنود كى يقوموا بتفريق المتظاهرين.

وقد أصيب القنصل الإنجليزى، الذى يعد المحرك الرئيسى لهذه الفوضى، إصابة طفيفة فى ظهره من عصا، لكنه لم يخرج من منزله، مخافة أن يُقْتَلْ وليس مخافة من خطورة الإصابة. وعلى الرغم من ذلك، أرسل السير ماليت عند منتصف الليل، فى طلب المراسل الجديد لجريدة "الديلى تلجراف" ليقول له: إن القنصل البريطانى جُرح جرحًا خطيرًا وسوف توافيه المنية قبل طلوع الشمس، وطلب منه إرسال هذا الخبر بالبرق إلى بريطانيا على وجه السرعة. لكنى أبلغت المراسل فى ذلك الوقت ألا يتسرع إلى أن آتيه بالمعلومات الحقيقية من عرابى نفسه. ذهبت فى الليلة نفسها إلى عرابى باشا نفسه وسألته عن هذا الأمر. أبلغنى عرابى أنه أبرق أربع مرات لكنه لم يتلق ردا، لكن بينما كنت مع عرابى وصلت برقية، وبعدها بخمس دقائق وصل الهجرسى، الذى أرسل خصيصًا من الإسكندرية ليبلغ عرابى بالسبب الحقيقى ويبلغه أيضًا بحالة الاضطراب. عدت على الفور إلى المراسل وأخبرته أن القنصل لم يصب بأذى. عندما قامت الشرطة بتفريق المتظاهرين، وجدوا عند باب القنصلية سيارة تاكسى تحتوى على أربع وعشرين بندقية ومسدسين، وكيسين من البارود، كان القنصل قد جهزها لكى يستعملها

المالطيون. أبلغني عرابي أن لجنة التحقيق أثبتت أن الاضطراب كان مدبرًا. في صباح يوم الأحد، يوم حدوث الاضطراب، حكى رجل إيطالي كان يعمل كونستبلاً في الشرطة المصرية، حكى لزميله الكونستبل أيضًا أن إضرابًا خطيرًا سيبدأ اليوم، وأن من الأفضل لهما الهرب على الفور، وعلى الفور اختفى الاثنان وهما حاليا في إيطاليا. الصحف الألمانية لم تتستر على الأمر وأعلنت أن الاضطراب كان مدبرًا ومنظمًا من قبل القنصل البريطاني في الإسكندرية لأهداف سياسية. عدد الضحايا غير معروف. وافقت السلطات الأوروبية والسلطات المصرية على ترك الأمر دون الدخول في حسابات دقيقة. كانت المظاهرة أخطر بكثير مما قالته الصحف. زاد عدد الضحايا على ١٤٠٠ ضحية، السواد الأعظم منهم من الأوروبيين. كان الأوروبيون جميعهم مسلحين بأسلحة نارية، في حين كان العرب مسلحين بالهراوات، التي استفادوا منها استفادة كبيرة. هذه المحاولة المبدئية هي التي ثبطت الأوروبيين وجعلتهم يفرون من مصر مثل الحمقى والأغبياء.

كتابك المعنون "مستقبل الإسلام" وصل إلى عبد الله النديم، وأعطيته ملخصًا عن الكتاب. رسالتك التي أرسلتها إلى جولدستون، والمنشورة في جريدة "التايمز" جرت ترجمتها إلى اللغة العربية كي تنشر في جريدة "الطائف". عرابي باشا مسرور تمامًا بهذه الرسالة. وهو يقول لي: إن الجو السياسي مظلم تمامًا، ويحتمل أن تزيد أنواؤه وعواصفه. الحرب هي الأقرب هذه الأيام عن السلام. الاستعداد للحرب لا مثيل له في مصر في هذه الأيام. الجنود، وكذلك الفلاحون والبدو يستعدون حاليا للحرب. سوف أغادر مصر في اليوم الذي تعلن فيه الحرب. وعلى الرغم من أن الباشوات وبعض الضباط يتمنون بقائي في مصر في أثناء الحرب، فأنا أرى أن مسألة البقاء في مصر تعد ضربًا من ضروب البله وقلة الحكمة. أتمنى أن تتمكن من معرفة احتمالية الحرب، وتنذرني بذلك قبل وقوعها، وأن يكون الإنذار عن طريق البرق، على أن تكون إشارتك بمغادرة مصر هي الكلمة الدالة على "الخروج". وإذا ما وقعت الحرب فإن مصر سوف تدمر تدميرا تاما. وسوف تغرق الإسكندرية هي وإقليمين آخرين، وسوف تدمر القناة إلى الأبد بفعل ماء البحر الذي سيندفع من الهويس قادمًا من أبي قير. ستكون الحرب مدمرة. لن يستسلم المصريون مطلقا إلا

بعد التضحية بالأرواح كلها، ومما أرى وأسمع هنا فقد جرى عمل الترتيبات لتحويل الحرب إلى انتفاضة عامة للمسلمين فى كل من آسيا وأفريقيا.

الإسكندرية فى الثالث من يوليو

طلب منى سعادة أحمد عرابى باشا أن أدون ما يلى، والذى أملاه علىَّ فى وجود كل من عبد العال باشا، ومحمود باشا فهمي، مفتش التحصينات المصرية، وفى وجود باشوات وضباط كثيرين، وأبدى رغبته فى قيامى بترجمة ما دونته إلى اللغة الإنجليزية وإرساله إليك، على أمل أن تتفضل بتقديمه للسيد جلادستون. (فيما يلى أورد رسالة عرابى إلى جلادستون، وقد أوردت هذه الرسالة فى متن الكتاب).

ملاحظة: أنا مخوَّل من عرابى باشا أن أقول لك إن بوسعك – بعد تقديم هذه الرسالة إلى جلادستون، الإفادة من هذه الرسالة على النحو الذى تراه إما عن طريق نشرها أو بأية صورة أخرى.

الإسكندرية فى الرابع من يوليو عام ١٨٨٢

تلقيت بوافر الشكر مذكرتك الطيبة ومعها قصاصات الصحف. الناس هنا ينظرون إلى السياسة التركية نظرة سوء وشك. عرابى، هو والباشوات، والضباط والأمة، الجميع مصممون على منع إنزال "القوات التركية". وهم يقولون إنهم ليسوا بحاجة إلى معاونة هذه القوات ليم على الأرض. "إذا كانوا جادين فى مساعدتنا، فلعلهم يحاربوا عدونا المشترك فى البحر".

الإسكندرية فى الخامس من يوليو عام ١٨٨٢

بقيت الليلة الماضية بطولها مع عرابى باشا إلى منتصف الليل، وعندما دخلت غرفة الاستقبال وجدت جمعًا من الباشوات، والضباط، وأناسًا آخرين،

تجمعوا كلهم لتهنئته بمناسبة حصوله على وسام المجيدية العظيم. عند الساعة الحادية عشرة مساء انفض ذلك الجمع، وبقينا نحن الأربعة فقط في الغرفة حتى منتصف الليل. تكلمنا بلا قيود عن كثير من الموضوعات وقرأت عليه برقيتك التي أرسلتها بتاريخ اليوم الأول من يوليو، وانشرح صدر الرجل لهذه البرقية. وعندما أتيت على ذكر اسم درويش باشا، هز عرابي باشا رأسه كما لو كان يقول: "نحن نعرف هذا الرجل حق المعرفة". ثم قال: فيما يتعلق بسفرى إلى إسطنبول، فليقل الناس ما يشاءون، فقد وُلدت فى أرض الفراعين، والأهرامات الخالدة هي التي ستظلل قبرى. الباب العالى لن يحاول تدمير واحدة من الولايات العثمانية. ونحن نقول بالعربية "مفيش حد يقطع أنفه بإيده يتعين على السلطان أن يعيد تفكيره قبل أن يتخذ قرارًا باستدعائي إلى إسطنبول أو إرسال قوات إلى مصر.

يسود مصر حاليا شعور قوى مضاد للأتراك وللإنجليز أيضًا. وأنا أرى قبل كل شيء أن أدميرال الإسطول الإنجليزى ليس سوى ماليت أو كولفن آخر، بل إنه أسوأ منهما. بالأمس أرسل ذلك الأدميرال شكلاً من أشكال الإنذار النهائى، الذى يبدو أنه أصبح من موضة هذه الأيام، وأنا أرفق طية صورة من ذلك الإنذار. كان الإنذار موجهًا إلى طُلبة باشا. وقد ولَّد ذلك الإنذار نوعًا من الرعب والفزع بين العرب وبين تلك القلة القليلة من أولئك الأوروبيين الذين بقوا فى مصر. كنت جالسًا أكتب فى غرفتى عندما دخل علىَّ خادم يرتعد ليقول لى شيئًا لم أفهمه فى البداية، نظرًا لأن خوف الرجل جعله يبتلع نصف كلامه. حاولت تهدئة الرجل وسألته ما خطبه. قال: "ألا تعرف، أن المدينة سيجرى ضربها اليوم بالقنابل من قبل الأسطول الإنجليزى؟" ابتسمت كى أوحى للرجل بالمزيد من الشجاعة، وطلبت منه ألا يخاف، نظرًا لعدم وجود أى خطر من الأخطار، لكن الرجل، كان لا يزال يرتعد عندما قال: "لقد أُمر القناصل الأوروبيون كلهم بالصعود فورًا إلى ظهور السفن". سألته: "هل وصل هذا الأمر فعلاً إلى الفنادق؟" أجابنى: "لا يا سيدى، لكن كل من فى الفندق بدأوا يهربون". قلت له لا عليك سنيم، وطلبت منه أن يأخذ

غسيلى إلى المغسلة، لكنه رفض تنفيذ ذلك وانصرف لحال سبيله. نهضت واقفًا واتجهت على الفور إلى عرابى باشا لكى استطلع ما يحدث. لم أجد هناك جديدًا – كل ما فى الأمر أن راغب باشا كان قد أبلغ الأدميرال بالفعل إن التحصينات لم يكن يجرى فيها أى عمل من الأعمال. وقد أدى ذلك إلى تهدئة الأدميرال، لكنه لم يهدئ الخائفين. ذهبت مرة ثانية إلى طُلبة باشا وطلبت منه إرسال جنديين لحراسة مدخل فندق المساجيرى Massagries، الذى أقيم فيه حاليا، لكى أبث الثقة فى نفوس نزلاء الفندق. عندما وصل الإنذار طُلبة باشا كنت معه، ولذلك أعطانى إياه لكى أترجمه له إلى اللغة العربية، وقمت بترجمة الإنذار على الفور فى وجود عرابى باشا ووجود بعض الضباط الآخرين. بعد أن قرءوا الإنذار قال العقيد عايد بك: "هل يصح أن ترسل لنا إنجلترا دومًا هيئة من العاملين الحمقى؟ هذا الأدميرال، راح بدلاً من إثبات أنه رجل حكيم وشجاع، يكشف عن خوفه من أقل التحركات التى يمكن أن تجرى فى التحصينات وفى القلاع، ويصر على مضايقتنا بإنذاراته، وبذلك يزعج الناس ويضايق العرب. أنه يتسبب فى المزيد من الضرر ولا يتسبب فى أى شىء من الخير" واقع الأمر أن مدينة الإسكندرية أصبحت مهجورة.

تجولت أمس فى المدينة ولم أر سوى ما يتردد بين عشرين أو ثلاثين أوروبيا. الدكاكين والمقاهى مغلقة. الخروج من المدينة لا يزال مستمرا. صدرت الأوامر إلى موظفى الممتلكات الأميرية، ووكلاء المراقبة المالية، وإلى رجال المصارف إلخ بمغادرة مصر. كما جرى نقل أدوات شركة التلغراف الشرقية إلى ظهر سفينة الأدميرال. يزاد على ذلك أن الاتصال عن طريق التلغراف أصبح أمرا صعبا وغير آمن. طريقة إرسال أية برقية من البرقيات غير مناسبة تماما. إذ يتعين على صاحب البرقية كتابتها وتسليمها للموظف، الذى يحبس نفسه فى غرفة صغيرة جدا توجد فيها نافذة عليها قضبان من حديد، وليس فيها سوى فتحة صغيرة يصل عرضها إلى خمس بوصات. هذا هو حال الإنجليز الشجعان الذين جاءوا إلى هنا مع أسطولهم لتدمير العرب، الذين لا يزالون يعيشون حياتهم بهدوئهم المعتاد.

وفيما يتعلق بي شيخصيا فأنا لا أعرف ما إذا كان بقائي في مصر في وقت الحرب أمرًا حكيمًا أم لا. أصدقاؤنا يودون بقائي في مصر، لكني لست متأكدا من سلامة وجودي هنا. أود منك مراقبة وزارة الخارجية وما تفعله عندك، وإذا ما عرفت أن الحرب قد أصبحت أمرا لا مفر منه، أبرق إلي بكلمة "موسى" Mose.

٨ يوليو

ذهبت صباح اليوم إلى عرابي باشا، الذي أبلغني أنه استقبل شابة أمريكية من فيلادلفيا جاءت تلهث طلبا لتوقيعه لها في الأوتوجراف autograph. كان عرابي باشا قد كتب الرد بالعربية وطلب مني ترجمته إلى الإنجليزية. أبلغني أيضا منذ يومين، عندما كان قادما من القاهرة إلى الإسكندرية، أنه التقى حوالي ٥٠٠ إيطالي في المحطة كانوا يستعدون لمغادرة البلاد. بدأ يتكلم معهم ويشجعهم على البقاء في منازلهم؛ لعدم وجود أي خطر من الأخطار، وضمن لهم حياتهم وممتلكاتهم. وقد بثت كلماته الشجاعة في نفوس الناس الذين أصابهم الهلع والخوف، وراحوا يندفعون نحوه رجالا، ونساء، وبناتا، وأبناء ليقبلوا يده ويشكرونه، كان من بين هذا الجمع رجل يطاول قامة عرابي، راح يشق طريقه عنوة وسط هذا الحشد من الناس، إلى أن وصل إلى عرابي ووضع يديه على كتفيه وهو يتعجب قائلاً: "رعاك الله" Dio vi benedica. وفي النهاية انصرف ثلث هذا العدد من البشر عائدين إلى منازلهم في القاهرة.

في أثناء وجودي مع عرابي وصلته رسالة من رجل إيطالي كريم المحتد يطلب فيها قبوله متطوعا في الجيش المصري، كان الرجل يعمل من قبل في الجيش الإيطالي تحت قيادة غاريبالدي، وهو يود حاليا القتال من أجل حرية مصر.

السلطان لا يثق تماما في درويش باشا. ولذلك أرسل معه الشيخ أحمد أسعد ليكون جاسوسا عليه، الشيخ أحمد أسعد هذا هو وكيل السلطان في المدينة المنورة وكانت مهمته تتمثل في مراقبة تحركات درويش باشا. أعطى السلطان درويش

باشا شفرة خاصة ليستخدمها فى البرقيات الخاصة بالأعمال التى يقوم بها فى مصر، وأعطى فى الوقت نفسه شفرة خاصة أخرى للشيخ أحمد أسعد ، وبذلك يكون السلطان قد جعل من هذين الشخصين مراقبين لبعضهما بعضا، وراح كل منهما يرسل له برقيات مستقلة. الشيخ أحمد أسعد هذا صديق حميم لأحمد عرابى وقد ساعده مساعدة كبيرة فى أزمته الأخيرة مع الخديو.

قبل يومين، عندما كنت مع عرابى، وصلته رسالة من أحد العرب. فتح الرسالة وقرأها علىَّ وعلى الضباط، الجالسين معه. كانت الرسالة من راعى الكعبة الذى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشريف مكة، كانت الرسالة مكتوبة بأسلوب رشيق، وتنطوى على شئ كبير من التملق، قال صاحب الرسالة أن أهل مكة كلهم يدعون لعرابى بالنصر. الناس يدعون له فى الكعبة، وفى حجر إسماعيل، وعند زمزم، وفى عرفة، وفى منى، وفى كل مكان من الأماكن المقدسة فى مكة، الكل يدعون له بالنجاح، ولم يتردد كاتب الرسالة فى أن يسبغ على عرابى لقب المدافع عن عقيدة الإمبراطورية الإسلامية. جاءت هذه الرسالة مع مراسل خاص. الحجاز كله مع عرابى. كان شريف مكة الذى لم يرد تكدير صفو علاقته مع السلطان قد جعل واحدًا من حاشيته يكتب هذه الرسالة، الرجل الذى كتب هذه الرسالة كان يدعى عباس أجازمزم. بعد قراءة الرسالة تقرر الرد عليها برسالة شكر.

الأدميرال الفرنسى هنا يتشكك فى تحركات الأدميرال البريطانى والأدميرال الفرنسى كلما رأى الأدميرال البريطانى يحرك بوارجه فإنه يتبعه على الفور وإذا ما خرجت بارجة بريطانية معبر الميناء تبعتها بارجة فرنسية وإذا ما وصلت بارجة بريطانية إلى الإسكندرية فإن الأدميرال الفرنسى يبرق على الفور فى طلب إرسال بارجة فرنسية. الواقع أن هاتين الدولتين تتبعان بعضهما مثل الفئران والقطط.

هناك شيخ شهير من الجزائر موجود حاليا فى الإسكندرية، هذا الشيخ يدعى محمود الجزايرلى. المسلمون كلهم يحترمون هذا الشيخ احترامًا كبيرًا كما يحترمه السلطان أيضا. لقد تسبب الشيخ محمود فى متاعب كثيرة لفرنسا فى الجزائر ومؤخرا فى تونس. عندما جاء الشيخ محمود إلى مصر أول مرة، منذ حوالى

أربعة أشهر، كان يخطب منددا بعرابى واستنكره أمام الخديو باعتباره متمردًا على السلطان. ولما كان الشيخ محمود صاحب علم، وطلق اللسان، وصاحب نفوذ وتأثير فقد أضر بعرابى ضررا بليغًا، وهو أيضا الذى ساعد فى تأجيج المشاجرة التى دارت بين سلطان باشا والنواب وعرابى. ذات مرة وفى أثناء انتقاده لعرابى فى اجتماع سأله واحد من الحاضرين حول ما إذا كان يعرف عرابى شخصيًا، لكن الشيخ أجاب عن السؤال متبرما بأنه لم يسبق له مطلقا رؤية عرابى وأنه لا يود أو يرغب فى رؤيته. (وتستمر الرسالة تروى كيف أن هذا الشيخ محمود الجزايرلى التقى عرابى بعد ذلك بفترة قصيرة فى حفل عشاء، دون أن يعرفه، وناقش معه موضوع الإصلاح، وانبهر من حجج عرابى الأمر الذى حوله إلى مؤيد عتيد لعرابى باشا، منذ ثلاث ليال رأيت الشيخ محمود الجزايرلى فى منزل عرابى، الذى جاء إليه ليطلب من عرابى أن يأذن له بالسفر إلى السلطان، وأن يطلب منه باسم المسلمين، أن يمتنع عن إرسال قوات تركية إلى مصر. عندما سمعت ذلك سألت الشيخ محمود الجزايرلى كيف أنه عندما شرفت برؤيته أول مرة كان يدافع ويحبذ التدخل التركى من منطلق أن مصر كانت واحدة من المستعمرات العثمانية، وبالتالى تصبح القوات التركية فى بلادها إذا ما جاءت إلى مصر. أجابنى الشيخ محمود الجزايرلى قائلا: "صحيح، أن تلك كانت قناعتى فى ذلك العقد، لكنى عندما سمعتك تقول إن القوات التركية إذا ما جاءت إلى مصر فإنها لن تتركها مطلقًا، وإن وجود القوات التركية سيثير الحزازات السابقة التى كانت بين الجنود العرب والجنود الأتراك، وجدت أنك محق فيما تقول، وأنا جئت هنا كيما أستأذن سيادته فى الذهاب مع بعض أصدقائى إلى إسطنبول لمنع السلطان من ارسال القوات إلى هنا"، وأنا أعتقد أن عرابيا أخبره أن السلطان أكد له عدم إرسال قوات إلى مصر.

٩ يوليو

أسمع من مصدر وثيق أن خير الدين باشا هو وسعيد باشا، رئيس الوزراء السابق فى إسطنبول، أسمع أنهما يعارضان فكرة إرسال قوات إلى مصر، ورد فى

أحد التقارير أنه بينما كان الوزراء يناقشون المسألة فى المجلس نهض خير الـدين واقفا وأثبت من القرآن والحديث أن ذلك يتعارض مع الدين الإسلامى، وبخاصـة إرسال قوات إسلامية ضد مجتمع إسلامى مسالم وخلص الرجل إلـى الاستـشهاد بالحديث الذى يقول: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فإن القاتل والمقتول فى النـار(*). طالعت فى الصحف التى تكرمت بإرسالها إلىّ أن كلا من ماليـت وكـولفن قـام بالهجوم عليك، ولعلك تتذكر الآن أنى كنت على صواب فى الرأى الذى سقته عـن هذين الرجلين، منذ اليوم الأول الذى التقيتهما فيه فى القاهرة. لقد عولت كثيرا على صداقة ماليت لك وعلى إخلاص كولفن المصطنع؛ اصدقاؤنا هنا ثائرون على هذين الرجلين. اطلعت على رسالة السير وليام جورج فـى جريـدة "التـايمز"، وقمـت بترجمة هذه الرسالة إلى اللغة العربية واعطيتها لعرابى باشا، الذى انـشرح لهـا صدره.

١٠ يوليـــــو

هذا هو أشد الأيام اضطرابا، يوم الرعب، يوم البؤس، يوم الهروب العـام، اليوم، وبينما كنت فى فراشى، جاءنى خادم عربى من الفندق ليقول لـى: "اصـح، واستعد للانصراف" سألته: "لماذا"؟ قال: "لأن صاحب الفندق سوف يغلقه، ولن يبقى فيه نفر واحد، لقد ذهب الجميع وهم الآن على ظهور السفن". اعتدلت وطلبت مـن الخادم إحضار كوب من الشاى. قال: "لا يوجد شاى". ارتديت ملابسى ونزلت إلى غرفة الطعام، حيث وجدت صاحب الفندق مرتبكا ويائسا، تساءلت: "ما الخبـر؟". "لقد أمر القناصل كلهم رعاياهم بمغاردة الإسكندرية قبل دخول وقت الظهر". قلت: "هل ستتركنى وحدى فى الفندق، وبالتالى أدير أنا بالى عليه؟" قال: "لا أنا لا يمكن أن أفعل ذلك"، رجوته الانتظار مدة ساعة واحدة حتى أذهب إلـى وزارة البحريـة

(*) بقية الحديث النبوى الشريف: قالوا: فذلك القاتل. فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصا على قتل صاحبه". صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. (المترجم)

وأعود وعلى الفور أخذت عربة وذهبت للقاء عرابى، لكنى لم أقابل أى أحـــد مـــن الوزراء. كانوا كلهم فى المجلس. التقيت سكرتير عرابى الخاص، الذى أبلغنـــى أن الأدميرال البريطانى أرسل إنذارًا شفاهيا مفاده أنه سيضرب القلاع بالقنابل خـــلال أربع وعشرين ساعة، وأن قناصل الـــدول الأخـــرى ذهبـــوا لمقابلـــة الأدميـــرال البريطانى لتحرى صحة هذا الأمر. عندما عدت إلى الفندق وجدت أن صاحبه حزم أمتعته وأشياءه الصغيرة، فأخذت عربة وانصرفت. لا أعرف إلـــى أيـــن. كانـــت الأساطيل قد غادرت الميناء بالفعل وذهبت إلى عرض البحر، استعدادًا لفتح النار. الناس – أقصد هؤلاء الذين بقوا إلى اللحظـــة الأخيـــرة – كـــانوا يهربـــون بـــل ويسارعون فى الهرب قاصدين بواخر مختلفة بقيت فى الميناء لاستقبال الهـــاربين. أنا لا أعتقد أن خروج بنى إسرائيل من مصر لا يساوى شيئا إلى جانب هذا الـــذى يحدث – رجال، ونساء، وأطفال، وأطفال رضـــع، الكـــل يـــصيحون علـــى أذرع أمهاتهم، هؤلاء هم كبار السن لا يقوون على الحركة أو المشى، المرضى عاجزون عن مساعدة أنفسهم، ولذلك جرى نقلهم إلى البحر وهم فى خوف شديد، الأمر الذى كان يوحى بيوم القيامة. هؤلاء المساكين، لا يمكنهم صب جام غـــضبهم إلا مـــن خلال لعنهم القناصل ولعن الحكومة البريطانية، التى جرَّت على مصر مثـــل هـــذه الكارثة.

بعد أن رأيت هذا المشهد المحزن، بدأت أفكر فى نفسى، لكنى حيثما ذهبـــت كنت أجد أولئك الذين أعرفهم قد رحلوا، المكان الوحيد المتيسر لى هو الترســـانة، لكن الترسانة بحكم قربها من القلاع والتحصينات لم تكن مضمونة السلامة فى حال قصف الإسكندرية بالقنابل. يزاد على ذلك أن الوقت كان يمضى ســـريعًا، وكانـــت الساعات الأربع والعشرون قد اقتربت من نهايتها. وخطر ببالى الصعود إلى ظهر باخرة من البواخر، لكنى سمعت أن البواخر كلها كانت مزدحمة. وهـــذا مراكبـــى كان مهموما بنقل أشيائى فى قاربه عرض علىَّ أن يأخذنى إلى الباخرة البريطانيـــة المسماة تانجور Tanjor، لكنـــى رفـــضت ذلـــك العـــرض، نظـــرا لأن الرعايـــا البريطانيين، والقناصل، ومراسلى الصحف الذين كـــان الـــسواد الأعظـــم مـــنهم يعرفوننى، كانوا على ظهر تلك الباخرة، من هنا وجدت أن من الحكمة ألا أكـــون

معهم أو بينهم، وعقدت العزم على البقاء على البر، وأن أكون ضمن آخر من يغادرون الإسكندرية. لكن الساعة الأخيرة كانت تقترب، كما كانت آخر القوارب تغادر المكان فى تلك اللحظة التقيت رجلا فرنسيا كريم المحتد كان يبحر بصحبة زوجته، ودعاني إلى الركوب معهما إلى الباخرة "سيد" Said التابعة للخطوط البحرية المساجيرى Mesageries ووصلت إلى ظهر الباخرة وهأنذا أكتب لك الآن. ولا أعتقد أني سوف أتمكن من إرسال هذه الرسالة إليك غدا نظرا لعدم وجود بريد بريطاني. البريد كله مغلق بما فى ذلك البريد المصرى، كما أن شركة التلغراف الشرقية غادرت الإسكندرية أيضا إلى سفينة الأدميرال البريطاني ومعهما معداتهما.

وأنا عندما التقيت أصدقاءنا قبل ساعتين وجدتهم جازمين ومستعدين للقتال والمقاومة إلى آخر قطرة دم، مهما كانت التكلفة.

١١ يوليو

صباح هذا اليوم، المصادف الثلاثاء، وعند الساعة السابعة بالضبط صدرت إشارة قصف القلاع والتحصينات من الأسطول البريطانى. كنت على ظهر الباخرة "سيد" Said، على بعد مسافة قصيرة من الأسطول وبانتهاء الإنذار حانت ساعة عرابى. غادر درويش باشا الإسكندرية فور بداية عملية القصف وأبحر إلى مكان لا يعرفه أحد. من بين ١١٧٠ شخصا كانوا معي هذا الصباح كى يشهدوا عملية القصف، كنت أنا الوحيد الذى تمنى الحظ السعيد والنجاح لعرابى وزملائه، ومع إطلاق الدانة الأولى راحت القبعات والمناديل البيضاء تلوح فى الهواء، تعبيرا عن التشجيع والرضا. كان الرجال والنساء والأساقفة والقساوسة والرهبان والراهبات، الذين كانوا كثيرى العدد يتمتعون بروح معنوية عالية، الجميع كانوا يتوقعون استسلام القلاع خلال ساعتين من الزمن، لكن خيبة أملهم كانت قد بدأت بالفعل. الساعة الآن الواحدة والنصف مساء ولم يتوقف إطلاق النار من الجانبين. المقاومة ممتازة حتى الآن. الدانات المصرية بعضها يتجاوز الأسطول والبعض الأخر يسقط

قبله أو على بعد مسافة قصيرة منه، الواضح أن المسافة بعيدة جدا، لكن أحدًا لا يستطع بعد التكهن بالنتيجة. أنا جالس على ظهر الباخرة أراقب عملية القصف، وأكتب كل ما أراه، لكن ما الذى يمكن أن يراه رجل من مسافة بعيدة ومن خلال سحابة كثيفة من الدخان الكثيف سوى برق المدافع وهديرها ورعدها، لم تصلنى أخبارك منذ أسبوع. كنت أتوقع رسالة منك فور اتخاذ الحكومة البريطانية قرار الحرب، لكنك تركتنى فى الظلام حتى آخر لحظة. أصدقاؤنا، وكذلك القناصل أيضا لم يكونوا متأكدين من رغبة بريطانيا الحقة فى الحرب، وأنا أيضا.

لقد عقدت العزم على السفر إلى نابلى أو البندقية إلى أن تهدأ الأمور فى مصر، وأنا أعتقد أن ذلك قد يستغرق أشهرا. وأنت تستطيع أن تتبين من الرسالة التى أرسلها عرابى إلى جلادستون، والتى لا بد أن تكون قد وصلت أمس، وقمت بتقديمها إلى جلادستون حسبما أتمنى، ونشرتها أيضا، تستطيع أن تتبين نوايا المصريين وتتبين أيضا مدى الفوضى والاضطراب الذى سيعم هذا البلد طوال فترة من الزمن. لقد مزقت الدانة الأولى المعاهدات كلها وذهبت بملايين آل روتشيلد إلى الجحيم وطردت الرجل الذى وضعت إنجلترا وفرنسا أيديهما مع بعضهما بعضًا أملا فى المحافظة على بقائه. أما قناة السويس، إذا لم يجر تدميرها فإنها فى غضون أيام قلائل سيكون فيها حوالى ٦٠٠٠٠٠ من فلاحين والبدو يعرفون تماما ذلك الذى سيقومون به.

[وصل السيد صابونجى إلى البندقية فى التاسع عشر من يوليو، ثم وصل بعد أسابيع قلائل إلى لندن].

الملحق رقم (٥)

برنامج الحزب الوطنى المصرى

(المقدم عن طريق السيد بلنت إلى السيد جلادستون فى العشرين من ديسمبر عام ١٨٨١ وردود جلادستون عليه)

١- يرى الحزب الوطنى المحافظة على الروابط الودية القائمة بين الحكومة المصرية والباب العالى، واتخاذ هذه الروابط ركنًا يستند عليه فى عمله، ويعترف بالسلطان عبد الحميد مولىً وخليفةً وإمامًا للمسلمين، ولا يود تغيير هذه الصلات الروابط ما دامت الدولة العلية قائمة، كما يعترف الحزب بأحقية الباب العالى فيما يحصله من الخراج من مصر بمقتضى القانون، ويقر بحق الباب العالى فى المساعدة العسكرية، إذا ما واجهت الدولة حربًا أجنبية. وكذلك فإن الحزب فى الوقت نفسه مصمم على الحفاظ على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل ما وسعه، وسوف يقاوم أية محاولات ترمى إلى إخضاع مصر وجعلها مجرد ولاية عثمانية، والحزب يثق فى دول أوروبا، لا سيما إنجلترا، فى استمرار ضمان هذه الدول لاستقلال مصر الإدارى.

٢- يعرب الحزب الوطنى عن ولائه التام لشخص الخديو الحاكم. وسوف يواصل الحزب الوطنى دعمه لمحمد توفيق وسلطته طوال مدة حكمه، ما دام يحكم بالعدل والقانون، وما دام وفيًا بوعوده التى قطعها على نفسه أمام الشعب المصرى فى سبتمبر عام ١٨٨١. والحزب الوطنى يعلن من ناحية أخرى عن عزمه عدم السماح بتجديد ذلك الحكم الاستبدادى الظالم

الذى شهدته مصر فى كثير من الأحيان، ويصر الحزب على أن يبر الخديو بوعده فيما يتعلق بتشكيل حكومة برلمانية، وإعطاء البلاد حريتها. والحزب الوطنى يدعو سموه، محمد توفيق باشا، أن يتصرف بأمانة مع الحزب فى هذه الأمور، والحزب يعده بالمساندة المخلصة، لكن الحزب يحذر جلالته من أولئك الذين يحاولون إقناعه بمواصلة سلطته المستبدة، وإضاعة الحقوق الوطنية، أو نقض الوعود التى وعد بإنجازها.

٣- يعى الحزب الوطنى وعيا تاما تلك الخدمات التى أسدتها إلى مصر حكومتا إنجلترا وفرنسا، والحزب الوطنى يعى تماما أن الحرية والعدالة التى حصلت عليها مصر فى الماضى كانت بفضل كل من إنجلترا وفرنسا. ولهذا فإنه يعرب عن شكره لهما. كذلك يعترف بأن المراقبة الأوروبية أمر حتمى وضرورى بحكم الوضع المالى وأن استمرار هذه المراقبة الأوروبية هى أفضل ضمان لرفاهية الشعب. والحزب الوطنى يعلن اعترافه الكامل بالدين الأجنبى حرصا على الشرف الوطنى - هذا، على الرغم من أن الحزب الوطنى يعرف أن هذا الدين لم يتم لمصلحة مصر، وإنما لخدمة مصالح الحاكم غير الأمين وغير المسئول - والحزب الوطنى على استعداد لمساعدة المراقبين الأجانب فى الوفاء الكامل بالالتزامات الوطنية. وينظر الحزب الوطنى، من ناحية أخرى، للأحوال القائمة على أنها أمور مؤقتة، وهم يقرون أن أملهم على المدى الطويل هو تخليص البلاد من أيدى دائنيها. ذلك أن هدف الحزب الوطنى ومتبغاه أن يرى مصر كليا، فى يوم من الأيام، فى أيدى المصريين. يضاف إلى ذلك أن الحزب الوطنى ليس مغمض العينين عن عيوب المراقبة، وأنهم على استعداد لإبراز هذه العيوب والنقائص. الحزب الوطنى يعرف أن العاملين فى المراقبة الثنائية يرتكبون كثيرا من الأخطاء وكثيرا من الإساءات، سواء أكان أولئك العاملين من الأوروبيين أم من غيرهم. ويرى أن بعضا من هؤلاء العاملين ليسوا

أكفاء، وبعض آخر غير شرفاء، وبعض ثالث يتقاضى أجورًا باهظـة. كما أن الحزب الوطني يعرف أن هناك وظائف أخرى كثيـرة، يـشغلها الغرباء والأجانب، من الأفضل أن يشغلها مصريون، وبرواتب لا تصل إلى ٥/١ من الرواتب الحالية، والحزب الوطني يعتقد أنه لا يزال هنـاك الكثير من التبذير والكثير من الظلم. أعضاء الحزب لا يفهمون إلى متى سيظل الأوروبيون الذين يعيشون في مصر معفون من الضرائب العامة ومن الخضوع للقانون العام، من جانب آخر، الحزب الوطني لا يقتـرح علاج هذه المساوئ عن طريق العنف، وإنما هو يحتج علـى اسـتمرار هذه المساوئ بلا رادع، كما يود الحزب الوطني من حكـومتي فرنـسا وإنجلترا أن تضعا في اعتبارهما أنهما بعد أن أصبحت لهمـا الـسيطرة على الشئون المالية بعد أن أخذت من أيدي المصريين، فإنهمـا تعـدان مسئولتين عن رفاه المصريين، ويتحتم عليهما التأكد مـن أن أشخاصـا أكفاء يجري استخدامهم في هذه الإدارة المشتركة.

٤- يتنصل الحزب الوطني ويتنكر لأية علاقة بأولئك الذين يخدمون مصالح الدول التي يسوؤها استقلال مصر، عن طريق العمـل علـى الإخـلال بالأمن في البلاد - وما أكثر هؤلاء - أو بأولئك الـذين يجـدون فـي الاضطرابات مزايا ومغانم لهم، والحزب الوطني يعي أيضا أن الموقف السلبي وحده لن يؤمن الحرية على الأرض التي لا تزال تحكمها طبقـة تخشى الحرية وتكرهها. إن صمت الشعب هو الذي مكن إسماعيل باشـا من حكم مصر، وصمت الشعب حاليا سيجعل أملهم في الحرية غير قابل للتحقيق. لقد تعلم المصريون خلال السنوات القليلـة الماضـية معنـى الحرية، والمصريون مصممون على المضي قدمًا في طريق التعلم. وهم يتطلعون إلى ذلك من خلال البرلمان الذي يجتمع حاليـا، وفـي حريـة الصحافة، وفي زيادة المعرفة لدى طبقات الشعب كلها. يزاد على ذلـك، أن المصريين يعرفون أن أية وسيلة من وسائل التعليم لا يمكن تأمينها أو الحصول عليها إلا عن طريق الموقف الحـازم مـن جانـب الزعمـاء

الوطنيين. قد يجرى تخويف البرلمان المصرى حتى يلزم الصمت، كما هو الحال فى إسطنبول، وقد تستعمل الصحافة أداة ضد المصريين، وقد تقطع عنهم مصادر التثقيف ولهذا السبب وحده، وليس لأى سبب آخر، عهد الحزب الوطنى بمصالحه إلى الجيش فى الوقت الحاضر، اعتقادا منه أن الجيش هو القوة الوحيدة فى البلاد القادرة على حماية الحريات ورعايتها والمحافظة عليها. ومع ذلك، فإن الحزب الوطنى لا يخطط لاستمرار هذه السياسة، وبخاصة بعد أن يؤمّن الشعب حقوقه، عند ذلك سيتخلى الجيش عن موقفه السياسى الحالى. والقادة العسكريون كلهم متفقون على ذلك، وهم على ثقة من أنه مع اجتماع البرلمان سيصبح تدخلهم فى شئون الدولة أمرا غير ضرورى. لكنهم فى الوقت الراهن سوف يواصلون القيام بواجبهم باعتبارهم حراس الأمة الذين يحمون الرعاة العزل. وما دام هذا هو دورهم، فإنهم يجدون لزاما عليهم المحافظة على قوتهم وعلى كفاءتها، وهم يتطلعون إلى زيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ رجل. وهم يثقون أن المراقبة الأوروبية ستأخذ هذه الزيادة بعين الاعتبار عندما تنظر فى مسألة عدد أفراد الجيش.

٥- الحزب الوطنى المصرى حزب سياسى وليس حزبا دينيا. وهو يضم بين صفوفه رجالا من أعراق مختلفة ومن نِحَل ومِلَل مختلفة أيضا. والحزب إسلامى فى أساسه، وسبب ذلك أن تسعة أعشار المصريين مسلمين، لكن الحزب يحظى بتأييد ومساندة كل من المغاربة، والمسيحيين الأقباط، واليهود، وآخرين من الذين يسكنون الأرض ويتكلمون لغة مصر. الحزب لا يفرق بين كل هؤلاء بأى حال من الأحوال، وينظر إلى الناس كلهم على أن لهم حقوقا متساوية من الناحية السياسية وأمام القانون. هذا المبدأ متفق عليه من كبار شيوخ الأزهر الذين يساندون الحزب، من خلال إعلاء الشريعة الإسلامية التى تمنع الكراهية الدينية. والحزب الوطنى ليس بينه وبين الأوروبيين المقيمين فى مصر أى شكل من أشكال النزاع سواء أكانوا مسيحيين أم غرباء ما داموا يلتزمون بالقوانين ويتحملون نصيبهم من أعباء الدولة.

٦- أخيرا، الهدف العام للحزب الوطنى المصرى هو إصلاح البلاد ماديا وأدبيا عن طريق تعليم الناس الالتزام بالشرائع، وتوسيع نطاق التعليم، وعن طريق الحرية السياسية، التى تعد بمثابة الحياة عند الشعب. الحزب الوطنى يثق بتعاطف الدول الأوروبية التى تتمتع بنعمة الحرية، فى أن تعمل على مساعدة مصر فى الحصول على هذه النعمة، لكن المصريين يعرفون حق المعرفة أن أية أمة أو دولة من الدول لا تحصل على الحرية إلا بالجهد والعرق والمحاولات، والمصريون مصممون على التشبث بالموقع والموضع الذى وصلوا إليه، واثقين فى عون الله لهم إن تخلى الآخرون عنهم.

١٨ ديسمبر عام ١٨٨٢

رد السيد جلادستون

هواردن كاسل، شيستر،

فى العشرين من يناير عام ١٨٨٢

سيدى العزيز،

أنا على يقين من أنك تقدر الأسباب التى تعجزنى عن تقديم شىء شبيه بالرد الملائم أو المناسب على رسالتك المهمة الخاصة بالشئون المصرية، التى تشغل - يؤسفنى أن أقول ذلك - جزءا ضئيلاً من اهتمامى اليومى.

لكن أنا أدرك أنه ما لم يحدث فشل فى هذه المقاصد الطيبة فى جانب واحد أو فى الجانبين، بل ينبغى أن أقول الجوانب كلها - فسوف نتمكن من الوصول إلى حل مرض لهذه المسألة.

لقد نشرت آرائى عن مصر فى مجلة "القرن التاسع عشر" قبل تولى وظيفتى أو منصبى بوقت قصير، وأنا لا أدرى حتى الآن إن كان هناك ما يبرر تغيير هذه الأفكار.

المخلص

و. إى. جلاستون

١٠ داوننج ستريت، مقر الحكومة البريطانية

٢١ يناير عام ١٨٨٢

عزيزى ولفريد،

أنا مدين لك ببالغ الاعتذار عن عدم تلقيك ردا على رسالتك بالغة الأهمية عن الحركة المصرية. قد تكون العطلة هى السبب الوحيد وراء هذا التأخير، لكن تغيبى عن داوننج ستريت (مقر مجلس الوزراء) لم يمنع تقديم رسالتك على وجه السرعة إلى السيد جلادستون، الذى أرفق ملاحظة عنه بهذه الرسالة. والرجل يأسف لأن الرسالة جاءت متأخرة بعض الشيء.

من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الكتابة عن الحال الحرج الذى وصلت إليه الأمور، وبخاصة فى ظل تغير الموقف من يوم إلى آخر.

لك أن تتخيل أن الطابع الوطنى المنسوب للحركة يزكى نفسه بالضرورة عند السيد جلادستون بحكم تعاطف الرجل الشهير مع القوميات الشابة التى تكافح من أجل الاستقلال. المشكلة الرئيسية (وأنا هنا أتكلم بصفتى الشخصية، وأنا على وعى كامل بجهلى لهذا الموضوع) تتمثل فى الطريقة التى يمكن بها تأييد حركة من هذا القبيل، فى ضوء المسئوليات التى تورطنا فيها من ناحية وفى المصالح التى سيتهددها الخطر من ناحية أخرى. كل خيار من الخيارات يبدو محفوفا باعتراضات لا حصر لها ولا يمكن التغلب عليها، ومصاعب يصعب أيضا تذليلها.

وأنا أقول: إذا كان بوسعك فعل أى شيء يمكن أن يساعد فى التغلب على هذه المصاعب، فذلك يعنى أنك ستؤدى عملاً كبيرًا من أجل مصر، ومن أجل بلدك، ومن أجل الحكومة الحالية. أنا أعلم أنك أديت مؤخرًا خدمات كثيرة، وأنك مؤهل بل ومن حقك الكلام عن هذه المسألة من منطلق أن خبرتك ومصادرك فى هذا الصدد أكبر وأقوى من خبرات ومصادر أى إنسان آخر.

خالص تحياتى للسيدة آن Anne، وأنا أعتذر عن هذه الملاحظة الخاطفة غير السارة على رسالتك.

المخلص دوما

إى. دبليو. هاميلتون

رد السيد جلادستون على رسالة السيد بلنت الثانية المؤرخة في القاهرة، في السابع من فبراير عام ١٨٨٢

١٠، دواننج ستريت، مقر الحكومة البريطانية

الثانى من مارس عام ١٨٨٢

عزيزى السيد ولفريد،

قرأ السيد جلادستون باهتمام بالغ رسالتك الثانية، التى تأثر بها كثيرا. والرجل يتمنى أن تكون قد أحسست، أو ستحس، بالثقة واليقين من لغة خطاب العرش، الذى أرفق طية صورة منه بناء على رغبة سيادته، أن الحكومة البريطانية وهى تعمل على احترام الالتزامات الدولية، إنما تتعاطف أيضا مع المشاعر المصرية فيما يتعلق بأهداف ووسائل الحكم الجيد.

المخلص

أى. دبليو. هاميلتون

مقتطف من خطاب الملكة، جرى إرساله إليَّ بواسطة هاميلتون

بالتنسيق مع رئيس الجمهورية الفرنسية، أوليت الشئون المصرية اهتماما كبيرا، وبخاصة فى الترتيبات التى أملت عليَّ التزامات خاصة. وسوف أستعمل نفوذى فى الإبقاء على الحقوق التى جرى اكتسابها، سواء عن طريق الفرمانات السلطانية أو عن طريق الالتزامات الدولية على اختلاف أنواعها، وعلى نحو يناسب الحكم الجيد للبلاد والتطورات الجيدة التى طرأت على مؤسساتها.

الملحق رقم (٦)

نص الدستور المصرى الصادر فى السابع من فبراير عام ١٨٨٢.

(ملاحظة مهمة: هذا الكلام ورد فى الكتاب الأزرق المعنون: مصر، العدد رقم ٧، سنة ١٨٨٢، لكنه مدون باللغة الفرنسية فقــط. الفقرات التى تتضمن التعديلات أو التفسيرات التــى حــصل عليهــا المؤلف من كل من السير إدوارد ماليت والسير أوكلاند كولفن، فــى التاسع عشر من يناير ١٨٨٢، وقد أُشير إليها بوضع نجمة أمامها).

الرسالة التى أرسلها محمود سامى باشا بعد أن تولى منصبه فى الثانى من فبراير عام ١٨٨٢، إلى صاحب الجلالة الخديو

سيدى،

لقد تلطفت جلالتكم وكلفتمونى بمهمة تشكيل وزارة جديدة، وأنا أرى أن أول مهام منصبى تحتم علىَّ أن أقدم لجلالتكم المبادئ التى ستحكم سلوكى وتــصرفاتى، والتى ستحكم الوزارة التى سأكون رئيسًا لها.

أدت الأحداث التى تتابعت فى مصر على امتداد بضع سنوات إلى الإســاءة إلى الرأى العام والتحامل عليه بأساليب وطرق مختلفة هنا وفى الــدول الأجنبيــة أيضا. هذه الإساءات والتحاملات تتصل بنسقين مــن الأفكــار: إنفاقنــا المــالى وإصلاحتنا الداخلية.

كان الدين العام منظما تنظيما دقيقا بفعل سلسلة المراسيم الخديوية التي اكتملت بقانون التصفية الصادر في اليوم التاسع عشر من يوليو عام ١٨٨٠.

هذه القوانين أصبحت ذات طبيعة دولية، وحكومة جلالتكم لم تتوقف مطلقًا عن احترام هذه القوانين، وسوف تسير الوزارة على تنفيذ هذه القوانين تنفيذا دقيقا وكاملا.

مسألة تصفية الدين القائم هي حقيقة واقعة عند كل المهتمين (وهم يشكلون الأغلبية) الذين جرى الإقرار بحقوقهم إلى يومنا هذا من قبل السلطات المعنية، وسوف تعمل وزارتي على مراعاة ذلك والاستمرار فيه.

خدمة الدين المُجمَّد، التي تشمل المصروفات الإدارية الخاصة بالدائرة والممتلكات الحكومية المستخدمة في ضمان القرض المبرم في عام ١٨٧٨، هذه الخدمة تجرى مراعاتها بصورة منتظمة. يزاد على ذلك أن الإدارات التي أنشئت لتأمين تنفيذ هذه الخدمة، والتي من قبيل قلم المراقبة العامة، ولجنة الدين، وإدارة الدائرة، ومصلحة الأملاك الأميرية، هذه المؤسسات كلها يجب دعمها من قبل الحكومة، علما بأن ذلك يجرى إلى يومنا هذا.

لن يتغير أي شيء في هذه المؤسسات مستقبلا، وهذا يعني أن الوزارة سوف تحاول دعم هذه المؤسسات وتسهيل عملها. والوزارة ترى أن الانسجام والوئام في هذه الخدمات العامة كلها إنما هو شرط أساسي لسير الأمور سيرا منظما، كما ترى الوزارة أيضا أن الإدارة العامة للبلاد مدينة بالكثير بالمزايا التي يعود الفضل فيها إلى هذه السياسة.

إن عظمتكم على قناعة دوما أن تحقيق الإصلاحات الداخلية بالحكمة والأمن يستلزم تعاون مجلس النواب، ولذلك نجد المجلس الحالي ينعقد آخذا هذه الفكرة في حسبانه.

الوزارة تشارك أيضا فى هذه المشاعر والأفكار. وسوف تركز كل اهتمامها على إعادة تنظيم المحاكم، وإصلاح الإدارة، وتقديم التحسينات والتطويرات التى يتطلبها التعليم العام وذلك من أجل مساعدة البلاد على المضى قدما فى طريق التقدم والحضارة. سوف تدرس الوزارة الإجراءات المناسبة لتطوير الزراعة، والتجارة، والصناعة، فضلا عن مشاريع الإصلاح الأخرى كلها التى هى دائما محل اهتمام عظمتكم. لكن الوزارة ترى قبل كل شيء، أن من الضرورى تحديد سلطات مجلس النواب حتى يتمكن المجلس من تقديم التعاون المطلوب للوزارة، وتحقيق آمال الشعب. وهذا هو السبب وراء اهتمام مجلس الوزراء بإصدار قانون لمجلس النواب.

هذا القانون، سوف يحترم كل الحقوق وكل الالتزامات التى لها طابع دولى أو خاص، كما سيحترم أيضا كل الارتباطات الخاصة بالدين العام، كما سيحترم أيضا التكاليف التى يفرضها هذا الدين العام على ميزانية الدولة. وسوف تحدد الوزارة تحديدا عادلا وعاقلا مسئوليات الوزراء أمام مجلس النواب، كما ستحدد أيضا طريقة وأسلوب مناقشة القوانين.

هذا القانون سوف يوحد، دون أن يكون مصدرا للقلق أو الاضطراب، كل الشروط اللازمة لتأمين المصالح العامة.

هذا هو، يا مولاى، برنامج الوزارة الجديدة، الذى يلبى رغبات البلاد.

القوى الكبرى – وبخاصة الباب العالى الذى لم يخذلنا مطلقا عونه المستمر لنا فى ممارسة الحقوق والامتيازات التى منحنا إياها – سوف تواصل – وأنا واثق من ذلك – تعاونها مع حكومة عظمتكم، مثلما كان يحدث فى الماضى، ذلك التعاون الذى هو فى فائدة مصر بصورة مستمرة.

أنا أتطلع أيضا إلى أن تنصب سلطة حكومتكم فقط على تأمين الحقوق الفردية والمحافظة على النظام، وأنها سوف تقود الأمة (الشعب) على طريق التقدم والازدهار.

كنتم قد وعدتم مصر، يوم أن تولى جنابكم مقاليد الحكم، بعهد جديد من التقدم. ونحن هنا نأتى ونتقدم لعظمتكم كلنا وبالإجماع لنطلب من جنابكم الوفاء بذلك الوعد. الهدف الذى تبتغيه عظمتكم هو نفس الهدف الذى نبتغيه ونناضل من أجله. ثقتنا الكاملة فى عظمتكم، هى التى تجعلنا نثق فى المستقبل.

إذا كان جنابكم يوافق على البرنامج الذى أقدمه، فإننى يشرفنى أن أطلب من عظمتكم توقيع المراسيم التى أقدمها حتى أتمكن من تشكيل الوزارة.

محمود سامى

الرسالة المرسلة من صاحب السمو الخديو إلى صاحب السعادة محمود سامى باشا:

١٥ ربيع أول عام ١٢٩٩ هـ

(٤ فبراير عام ١٨٨٢ م).

عزيزى محمود سامى باشا،

قبولك مهمة تشكيل الوزارة الجديدة، دون أن تكون جاهلاً بأهمية القيام بمثل هذا العمل، هو بمثابة دليل آخر على إخلاصك ووطنيتك. وأنا عندما أكلفك بهذه المهمة أعرف أن هذه هى أفكارك ومشاعرك النبيلة، التى أثبتها بكثير من الدلائل والبراهين، وبكثير من الخدمات التى أديتها فى كثير من المناصب التى أسندت إليك. أنا موافق على برنامجك، وموافق أيضًا على المبادئ المدرجة فيه. هذه المبادئ هى أساس العدالة، وهى تهدف إلى المحافظة على النظام وإرسائه فى البلاد فضلا عن توفير الأمن لكل من يعيش فى هذا البلد.

أشاركك الرأى فى أن حكومتى يتحتم عليها اتخـاذ الإجـراءات اللازمـة لضمان الإصلاحات القضائية والإدارية، وأنها يجب أن تعد لمجلس النواب القانون الأساسى المطلوب طبقا للأفكار الواردة فى برنامجك.

يتعين على حكومتى أيضا أن تحمل على عاتقها مهمة تطوير التعليم العـام، والزراعة، والتجارة، والصناعة.

تعاونى الصادق والمخلص سيكون دوما معك وفى صالحك فى كل ما يتعلق بتحقيق هذا الهدف.

أدعو الله أن يتوج جهودنا المشتركة بما فيه مصلحة وفائدة وازدهار الشعب.

محمد توفيق

مرسوم الخديو.

بعد الاطلاع على مرسومنا المؤرخ فى اليوم الرابع من أكتوبر عام ١٨٨١ (الموافق للحادى عشر من ذى القعدة عام ١٢٩٨ الهجرى).

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب، وعملا بمشورة مجلس وزرائنا،

نرسم بما هو آت:

مادة ١: يتحتم اختيار أعضاء مجلس النواب بالانتخـاب، بـصدور قـانون خاص نهائى يحدد شروط ذلك الانتخاب وشرعيته، كما يحدد فـى الوقـت نفـسه طريقة الانتخاب لمجلس النواب.

مادة ٢: يجرى انتخاب أعضاء مجلس النواب لمدة خمس سنوات، ويحصل العضو على مرتب سنوى مقداره ١٠٠ جنيه مصرى.

مادة ٣: النواب أحرار فى تـصرفاتهم ولا يمكـن تقييـدهم بـالوعود، أو بالتعليمات (الحكومية)، أو بالأوامر الإدارية، أو بالتهديد على نحـو يـؤدى إلـى التدخل فى التعبير الحر عن آرائهم.

مادة ٤: يتمتع النواب بالحصانة، ولا يجوز طوال مدة الحصانة إلقاء القبض عليهم بسبب الجريمة أو سوء السلوك مدة اجتماع المجلس إلا بإذن منه.

مادة ٥: يجوز للمجلس أيضا، بعد انعقاده، أن يطلب مؤقتا طوال مدة انعقاده، إطلاق سراح أى عضو من أعضائه يكون محبوسا، أو جرى تعليق محاكمته فى أثناء عطلة المجلس، أو لأمر جنائى ، لم يصدر بشأنه أى حكم من القضاء.

مادة ٦: لا يمثل النائب مصالح الدائرة التى انتخبته، وإنما يمثل الشعب المصرى بصفة عامة.

مادة ٧: القاهرة هى مقر مجلس النواب، وينعقد المجلس كل عام بناء على مرسوم يصدر من الخديو، وبناء على مشورة مجلس الوزراء.

مادة ٨: تكون مدة دورة انعقاد المجلس السنوية ثلاثة أشهر، تبدأ من اليوم الأول من نوفمبر إلى الحادى والثلاثين من يناير. لكن إذا لم ينته عمل المجلس فى الحادى والثلاثين من يناير، يجوز له أن يطلب تمديد الدورة فترة تتراوح بين خمسة عشر يوما وثلاثين يوما. ويكون ذلك التحديد بمرسوم يصدر عن الخديو.

مادة ٩: يجوز انعقاد المجلس، فى حال الضرورة، على شكل جلسة طارئة بناء على طلب من الخديو. وتتحدد مدة هذه الجلسة الطارئة فى المرسوم الصادر عن الخديو بعقد المجلس.

مادة ١٠: تفتتح جلسات المجلس فى وجود الوزراء بواسطة الخديو نفسه أو بواسطة رئيس مجلس الوزراء، وذلك بتوكيل من الخديو.

مادة ١١: يلقى الخديو فى المجلس خطابا افتتاحيا فى أول جلسة من جلسات انعقاد المجلس كل عام، أو قد يقوم رئيس مجلس الوزراء بالقاء ذلك الخطاب نيابة عن الخديو. يكون موضوع هذا الخطاب إحاطة المجلس علما بالمشكلات والموضوعات الرئيسية التى ستعرض عليه خلال دورة انعقاده، وتنفض الجلسة بعد قراءة ذلك الخطاب.

مادة ١٢: يقوم المجلس خلال الأيام الثلاثة التالية لذلك، وبعد تعيين لجنة لإعداد الرد على الخطاب الافتتاحي، بالتصويت على ذلك الرد، الذي يجب تقديمه للخديو عن طريق وفد يجرى اختياره من بين أعضاء المجلس.

مادة ١٣: يجوز ألا يتناول الرد على الخطاب الافتتاحي معالجة قاطعة أو حاسمة لأى أمر من الأمور، أو يحتوى على رأى كان من قبل موضوعا للدرس والتحرى.

مادة ١٤: يتعين أن يقدم المجلس للخديو قائمة بأسماء ثلاثة أعضاء يقترحها لرئاسة المجلس، ويجب أن يحدد الخديو بمرسوم منه اسم واحد من هؤلاء الأعضاء الثلاثة المرشحين بهذه الطريقة، ليكون رئيسا لمجلس النواب، ويستمر منصب الرئاسة مدة خمس سنوات.

مادة ١٥: يجب أن ينتخب المجلس نائبين للرئيس، ويجرى اختيار هذين النائبين من بين أعضاء المجلس، وهو الذى يعين سكرتارية مكتب المجلس.

مادة ١٦: يجب إعداد تقرير عن جلسات المجلس تحت إشراف مكتب المجلس المكون من رئيس المجلس، ونائبى الرئيس، والسكرتارية.

مادة ١٧: اللغة الرسمية فى المجلس هى اللغة العربية، ويجرى إعداد تقارير المجلس ومعاملاته باستخدام اللغة الرسمية.

مادة ١٨: من حق الوزراء حضور جلسات المجلس والتحدث فيه، إذا ما رأوا ذلك، ويجوز لهم أن يرسلوا إلى المجلس من يمثلهم من كبار المسئولين.

مادة ١٩: إذا ما قرر المجلس أن هناك سببا يدعو إلى استدعاء أحد الوزراء للمثول أمام المجلس لتقديم بعض التوضيحات فى مسألة من المسائل، فإن مثل هذا الوزير يجوز له الحضور بشخصه أو مسئول ينوب عنه فى تقديم مثل هذا الشرح أو التوضيح.

مادة ٢٠: يكون من حق النواب الإشراف على الموظفين العموميين طوال دورة المجلس، ويجوز لهم من خلال رئيس المجلس تقديم تقرير للوزير المسئول عن الأخطاء والمخالفات أو عن الإهمال من جانب الموظف الرسمى، فى أثناء قيامه بعمله.

مادة ٢١: الوزراء مسئولون مجتمعين ومنفردين أمام المجلس عن الإجراءات التى يتخذها مجلس الوزراء وتكون خارجة على القانون أو القواعد المعمول بها.

مادة ٢٢: يعد كل وزير منفردًا مسئولا عن الحالات المشار إليها فى المادة السابقة، ويعد مسئولا أيضا عن الأعمال التى تحدث فى أثناء قيامه بمهام عمله.

مادة ٢٣: فى حال الخلاف الحاد بين مجلس النواب والوزارة، وفى حال تبادل الردود مرات ومرات فيما بينهما، وفى حال عدم تراجع الوزارة أو انسحابها، يتعين على الخديو حل مجلس النواب، وإصدار مرسوم بعمل انتخابات جديدة، وذلك خلال فترة زمنية لا تتعدى ثلاثة أشهر محسوبة من تاريخ حل مجلس النواب، وتنتهى فى اليوم الذى ينعقد فيه المجلس الجديد، ويحق لجميع النواب الذين انطبق عليهم حل المجلس التقدم للانتخاب مرة أخرى.

مادة ٢٤: إذا أكد المجلس الجديد عن طريق التصويت قرار المجلس السابق الذى أثار الخلاف، يتحتم قبول ذلك باعتباره أمرا نهائيا.

مادة ٢٥: يتعين على الوزراء أن يقدموا لمجلس النواب القوانين واللوائح التى تعد بمعرفة الحكومة، لمناقشة هذه القوانين واللوائح والتصويت عليها. لا يصبح أى قانون من القوانين ساريا إلا بعد قراءته مادة مادة أمام مجلس النواب والتصويت على كل فقرة من فقراته، والموافقة عليه ثم التصديق عليه من الخديو. يجب قراءة كل قانون ثلاث مرات، على أن يكون بين كل قراءة من هذه القراءات والتى تليها مدة لا تقل عن خمسة عشر يوما، وفى حال الضرورة الملحة تعد القراءة الواحدة والتصويت الخاص كافيين. إذا ما وجد المجلس أن الضرورة تحتم طلب إدخال قانون جديد من مجلس الوزراء، فإن الطلب المقدم بمثل هذا القانون يكون عن طريق وساطة رئيس المجلس، وفى حال موافقة الحكومة يجرى إعداد مثل هذا القانون بواسطة الوزارة وإدخاله إلى المجلس طبقا للإجراءات المحددة فى هذه المادة.

مادة ٢٦: يختار مجلس النواب من بين أعضائه لجنة، تكون مهمتها فحص القوانين والقواعد المنظمة التي تقدم للمجلس. ويجوز لمثل هذه اللجنة أن تقترح على الحكومة إدخال بعض التعديلات في القوانين التي تحال إليها لفحصها ودراستها، وفي مثل هذا الحال يجب إعادة أو إرسال القوانين والتعديلات، قبل أية مناقشة عامة، بواسطة رئيس مجلس النواب إلى رئيس مجلس الوزراء.

مادة ٢٧: إذا لم تقترح اللجنة أية تعديلات، أو إذا لم توافق الحكومة على التعديلات المقترحة، يتحتم تقديم مشروع القانون الأصلي للمناقشة من قبل مجلس النواب. وفي حال عدم موافقة الحكومة على التعديلات المقترحة من اللجنة، يصبح من حق اللجنة تقديم رأيها وملاحظاتها إلى المجلس.

مادة ٢٨: يجوز للمجلس أن يقبل أو يرفض مشروعات القوانين المقدمة له من قبل اللجنة، ويجوز للمجلس أيضا إعادة هذه المشروعات لإعادة فحصها ودراستها مرة ثانية.

مادة ٢٩: يجب على رئيس المجلس إبلاغ رئيس مجلس الوزراء بالقوانين والقواعد المنظمة التي يصوت عليها المجلس.

مادة ٣٠: لا يجوز فرض ضرائب جديدة – مباشرة أو غير مباشرة – على العقارات أو الممتلكات المنقولة أو الشخصية في مصر دون قانون يصوت عليه ويقره مجلس النواب. وعليه يصبح من الممنوع فرض أي نوع من أنواع الضرائب الجديدة، تحت أي عنوان أو أي مسمى، دون التصويت على مثل هذه الأنواع من الضرائب من قبل مجلس النواب، على أن تعاقب الجهة التي أصدرت أو أمرت بمثل هذه الضرائب، وعلى أن يعاقب الموظفون الذين أعدوا الجداول والتعريفات، وأن يعاقب أولئك الذين ساعدوا في تحصيل هذه المبالغ، على أنهم مختلسون، ويتحتم إعادة المبالغ التي تجمع بهذه الطريقة إلى أولئك الذين دفعوها.

مادة ٣١: يجب إرسال الميزانية السنوية للإيرادات والمصروفات الخاصة بالدولة إلى مجلس النواب في موعد لا يتجاوز اليوم الخامس من نوفمبر من كل عام.

مادة ٣٢: يجب تقديم الميزانية العامة للإيرادات إلى مجلس النواب، مصحوبة بالمذكرات التفسيرية لطبيعة كل إيراد من هذه الإيرادات.

مادة ٣٣: يجب تقسيم ميزانية المصروفات إلى أبواب وأن يقسم كل باب إلى أقسام وفصول، بحيث يتفق ذلك مع مختلف أفرع الخدمة العامة التابعة لكل وزارة من الوزارات.

مادة ٣٤: لا يجوز مناقشة أى بند من البنود التالية فى مجلس النواب:

- خدمة (الويركو) الجزية التى تقدم للباب العالى.
- خدمة الدين العمومى.

كما لا يجوز أيضا مناقشة الأمور المتعلقة بالدين، والناجمة عن قانون التصفية، أو الاتفاقيات القائمة بين الدول الأجنبية والحكومة المصرية.

مادة ٣٥: يجب إرسال الميزانية إلى مجلس النواب لدراستها ومناقشتها (فى ظل تحفظ المادة السابقة). يعين مجلس النواب لجنة مكونة من عدد مماثل لأعضاء مجلس الوزراء ولها الأصوات نفسها لتقوم بالاشتراك مع مجلس الوزراء فى مناقشة تقديرات الميزانية، وأن تقوم هذه اللجنة بالتصويت على هذه التقديرات بالإجماع أو بالأغلبية.

مادة ٣٦: فى حال تساوى الأصوات بين لجنة مجلس النواب ومجلس الوزراء، يتعين إعادة الميزانية إلى المجلس، وإذا ما أيد مجلس النواب (عن طريق التصويت) تصويت مجلس الوزراء يعد مثل هذا التصويت تنفيذا. لكن إذا ما تعين على مجلس النواب تأييد تصويت لجنته والمحافظة على ذلك التصويت، فإن التصرف فى مثل هذا الحال يكون طبقا للمادتين ٢٣ و ٢٤ من القانون الحالى. وفى مثل هذا الحال تصبح بنود تقديرات الميزانية التى تسببت فى انقسام الأصوات، إذا ما كانت تلك التقديرات قد ظهرت فى الميزانية السابقة، وإذا لم تتأثر هذه التقديرات بأى موضوع جديد من موضوعات الاتفاق التى من قبيل المرافق العامة أو المرافق الأخرى، فى مثل هذا الحال تستخدم هذه التقديرات بصورة مؤقتة، لحين اجتماع المجلس القادم، ويكون ذلك طبقا للمادة ٢٣.

مادة ٣٧: إذا ما أيد المجلس الجديد تصويت المجلس السابق الخاص بالميزانية، يصبح ذلك التصويت قابلا للتنفيذ، وذلك طبقا للمادة ٣٧.

مادة ٣٨: لا تصبح أية معاهدة أو عقد بين الحكومة وأى طرف ثالث، أو أى امتياز زراعى نهائيا إلا بعد الموافقة عليه من مجلس النواب عن طريق التصويت، شريطة ألا يكون لمثل هذه المعاهدة أو العقد أو الامتياز أية علاقة بموضوع جرى تخصيص مبلغ من المال له في الميزانية المعتمدة، وألا يكون ذلك مصادفا أو متفقا مع العام المقترح لمثل هذه المعاهدة أو العقد أو الامتياز. وبالمثل أيضا لا يصبح أى امتياز من امتيازات المرافق العامة، التى لم يدرج تنفيذها فى الميزانية، أو أى بيع أو منح من ممتلكات الدولة، أو أى امتياز من أى نوع، إلا بعد الموافقة عليه من مجلس النواب.

مادة ٣٩: يحق للمصريين جميعا التقدم بالتماسات إلى مجلس النواب، على أن ترسل هذه الالتمسات إلى لجنة يختارها المجلس من بين أعضائه. وبناء على التقرير الذى تعده هذه اللجنة يمكن لمجلس النواب قبول هذه الالتماسات أو رفضها، ويجب إرسال الالتماسات التى تجرى الموافقة عليها إلى الوزير المسئول.

مادة ٤٠: يجب رفض كل الالتماسات المتعلقة بالحقوق الشخصية أو المصالح الشخصية إذا كانت هذه المصالح تدخل فى نطاق عمل المحاكم المدنية والمحاكم الإدارية، أو إذا لم يسبق تقديم هذه الالتماسات الشخصية للسلطة الإدارية المختصة.

مادة ٤١: فى حال إذا ما استجدت، فى أثناء عطلة مجلس النواب، ظروف خطيرة تحتم اتخاذ إجراءات عاجلة تحاشيا لخطر يهدد الدولة، أو للمحافظة على النظام العام، فإن مجلس الوزراء فى مثل هذا الحال، وعلى مسئوليته الخاصة، وبموافقة من الخديو، يجوز له أن يأمر باتخاذ مثل هذه الإجراءات، حتى وإن كانت من اختصاصات مجلس النواب، على افتراض ضيق الوقت اللازم لانعقاد المجلس. ومع ذلك، يتعين تقديم مثل هذا الإجراء للمجلس لدراسته من قبل المجلس فى اجتماعه التالى.

مادة ٤٢: لا يسمح لأى أحد بشرح أو مناقشة مسائل أو المشاركة فى مداولات أو مشاورات المجلس سوى أعضائه، وذلك باستثناء الوزراء أو أولئك الذين يساعدونهم أو يمثلونهم.

مادة ٤٣: يتم التصويت فى المجلس برفع الأيدى أو بالمناداة بالاسم أو بالاقتراع.

مادة ٤٤: يكون التصويت بالمناداة بالاسم بناء على طلب من ما لا يقل عن عشرة أعضاء من أعضاء المجلس. جميع الأصوات التى يمكن أن تؤثر على نصوص المادة ٤٧ يجب أن تكون علنية.

مادة ٤٥: تحديد أسماء الثلاثة المرشحين لرئاسة المجلس، وكذلك انتخاب نائبى الرئيس وتسمية السكرتير الأول والسكرتير الثانى للمجلس، يكون عن طريق الاقتراع.

مادة ٤٦: لا يصبح تشاور مجلس النواب قانونيا إلا بحضور ثلثى أعضاء المجلس لذلك التشاور، ويجب اتخاذ القرارات كلها طبقا لأغلبية الأصوات.

مادة ٤٧: أى تصويت ينطوى على مسئولية وزارية يجب أن يكون بأغلبية لا تقل عن ثلاثة أرباع أعضاء مجلس النواب الحاضرين.

مادة ٤٨: الآراء لا تقبل بالوكالة.

مادة ٤٩: مجلس النواب هو الذى يفسر ويوضح قواعده المنظمة الداخلية، وهذه القواعد تصبح سارية بناء على مرسوم من الخديو.

مادة ٥٠: يمكن تعديل القانون الأساسى الحالى بعد موافقة كل من مجلس النواب ومجلس الوزراء على مثل هذا التعديل.

مادة ٥١: يجب تفسير كل مواد وعبارات القانون الحالى بناء على اتفاق كل من مجلس النواب ومجلس الوزراء.

مادة ٥٢: كل نصوص القوانين والمراسيم والأوامر العليا والقواعد المنظمة، التى تتعارض مع هذه اللائحة، تكون لاغية ولا يعمل بها.

مادة ٥٣: وزراؤنا مكلفون كل فيما يخصه، بتنفيذ هذا القانون.

صدر فى قصر الإسماعيلية فى السابع من فبراير عام ١٨٨٢ (الموافق للثامن عشر من ربيع ال أول عام ١٢٩٩ الهجرى).

(التوقيع الخديو)

محمد توفيق:

[توقيعات]

رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية	محمود سامى.
وزير الخارجية والعدل	مصطفى فهمى.
وزير الحربية والبحرية	أحمد عرابى.
وزير المالية	على صادق.
وزير الأشغال العامة	محمود فهمى.
وزير الثقافة الشعبية	عبد الله فكرى.
وزير الأوقاف	حسن شريف.

الملحق رقم (٧)

مراسلات عرابى مع فرديناند ديليسبس فى أثناء الحرب(*)

فى اليوم الحادى والعشرين الساعة ٨ عام ١٨٨٢.

سيدى العزيز،

أنا أسارع بالرد على رسالتك المؤرخة فى اليوم السابع عشر من هذا الشهر. عندما كنا معًا فى مصر، فى مطلع هذا العام، عندما كان عرابى وزيرًا للحربية وجدنا ورأينا جموعًا من الناس فى مكتبه، فى أثناء زيارتى كان الرجل محاطًا باحترام كبير من كبار شخصيات القاهرة، وسط عدد كبير من الفلاحين فى ميدان قصر النيل الواسع، كانت القاعة السابقة لمكتبه مليئة بعدد كبير من الناس. شاهدته وهو محاط بالاحترام الشعبى، وفى المساء وجدته فى المسرح إلى جانب الخديو.

فى الحوار الذى دار معه قال ما يلى: أنا أعرف أنك كنت طوال حياتك رجل تقدم وحرية. وأنا لا أريد شيئا آخر غير ذلك لبلدى.

رأيته مرة ثانية بعد ذلك مع الوزراء الآخرين فى المأدبة التى أقيمت فى الفندق الجديد بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية لاستقلال أمريكا، وشارك فى شرب نخب شرف الخديو. انقطعت كل صلاتى بعرابى باشا، وبعد ذلك لم أرجع إلى مصر إلا بعد ضرب الإسكندرية بالقنابل. أنا لا أعرف شيئا عن هذه الفترة، أو عن إنزال القوات الإنجليزية فى الإسماعيلية. أنا لا أعرف شيئا ما عدا ما دونه فى مراسلاته، ولم يحدث أن التقينا ولو لمرة واحدة.

(*) وردت هذه البرقيات باللغة الفرنسية، وترجمها الدكتور صبرى محمد حسن إلى العربية، وقام بمراجعتها الدكتور عصام محمد عبد الفتاح، الأستاذ بقسم اللغة الفرنسية – كلية الآداب – جامعة حلوان.

هذه المراسلات المكتوبة باللغة العربية التى أرسلت أصلها إلى رئيس مجلس الحرب المقيم فى القاهرة، لم يكن بها سوى هدف واحد وهو حماية القناة البحرية التى يحرص عليها عرابى دوما، وتأمين ممتلكات وحياة الأوروبيين المقيمين فى مصر.

أرسل لك الترجمة الفرنسية لهذه الوثائق التى ينبغى أن تُشَرِّف ذلك الذى يحظى برعايتنا فى أثناء الدفاع عنه.

أحس صعوبة كبيرة فى مسألة تَحَمُّلِ أى قائد عام لجيش من الجيوش الآلام الكبيرة التى تنتابه وهو يسلم سيفه لقائد إنجليزى منتصر.

تقبل تحياتى، يا سيدى العزيز، وأسمى آيات تقديرى إلى شخصكم الموقر، مسيو بلنت.

فرديناند ديليسبس

مرفقات

(بور سعيد، ٢٧ يوليو عام ١٨٨٢، وصول من المعسكر)

إلى السيد ديليسبس فى بور سعيد،

أشكر سيادتكم على الجهود النبيلة التى تبذلونها من أجل الحيلولة دون عملية إنزال قوات خاصة من السفن القوية بمدينة بور سعيد، وهذا يشجع سكان هذه المدينة ويشجع الأوروبيين المقيمين فيها على البقاء، وهذا هو ما أطمح إليه وأتمناه، وتقبل خالص احترامى لشخصكم الكريم.

وزير الحربية والبحرية

(الإسماعيلية صباحًا ، وصلت البرقية الساعة ١٢,٤٥ فى أول أغسطس ١٨٨٢، قادمة من كفر الدوار).

إلى صديقى الكريم السيد ديليسبس فى الإسماعيلية،

تلقيت رسالتك المكتوبة باللغة الفرنسية، وتأكيدا لما قلته، فقد كتبنا لرئيس الشرطة فى القاهرة لاتخاذ الإجراءات المناسبة لتأكيد سلامة الأوروبيين الموجودين فى المستشفى الأوروبى فى العباسية فى القاهرة، وإعطائهم كل الحرية فى الإقامة أو الرحيل، كما كتبنا أيضا إلى محافظ الشرقية لمضاعفة وزيادة رعايته وعنايته بالأوروبيين الموجودين فى الرمادية، وأن يضمن لهم سلامتهم الكاملة، وأنا أود أن أؤكد على العلاقات الطيبة بيننا.

وزير الحربية والبحرية، من المعسكر

(الإسماعيلية ٤ (؟) أغسطس ١٨٨٢)

إلى السيد فرديناند ديليسبس فى الإسماعيلية،

يشرفنى إبلاغ سيادتكم أن قائد السفن الإنجليزية فى الإسماعيلية أرسل إلى رئيس حامية البلد بعض الملصقات المخصصة لذلك البلد. هذا المنفذ معروف لأعضاء المجلس العام، المكلف بالشئون الحكومية، والذى اتخذ القرار الحالى، الذى أرسلت صورته بالبرق إلى رئيس حامية الإسماعيلية.

قرر المجلس العام الذى انعقد اليوم فى قصر النيل أن الإعلانات التى أرسلت إليك لإلصاقها تقول إنه ينبغى على السكان البقاء فى مساكنهم، وتسجيل

أسمائهم التى أرسلت إليك بمعرفة قائد المبانى الإنجليزية ليتم إلصاقها فى المدينة التى ليست لديها أية قوة إلزامية، لأن هذه المنشورات هى من الاختصاص الأصيل للسلطات المحلية، وبالتالى لا قيمة لها إذا صدرت من جهة أخرى سواها، ونظرا لأننى أحترم بشدة حياد القناة، لا سيما وأنها الإنجاز العظيم الذى بفضله سيدخل اسم معاليكم التاريخ، يشرفنى أن أخطر معاليكم أن الحكومة المصرية لن تنتهك حياد القناة (إلا للضرورة القصوى) وذلك فقط فى الحال الذى يصدر معه من الإنجليز أى عمل عدائى ضد الإسماعيلية أو بور سعيد أو أية بقعة من أرض القناة. بيد أنها لن تكون مسئولة عن أية نتائج تترتب عليها فيما بعد، كما تعلمون سيادتكم. وإنى لعلى يقين بأن معاليكم ستتخذون أفضل الإجراءات فى هذا الصدد لكى لا يحدث أى شيء من هذا القبيل من هؤلاء الأشخاص.

تقبل خالص احترامى،

وزير الحربية والبحرية، كفر الدوار

(الساعة ٧,٤٥ [دون تاريخ]).

إلى السيد ديليسبس فى الإسماعيلية،

فهمت من البرقية الصادرة عن قائد القوات فى نفيشة، أنك موجود أنت وزوجتك وصهرك فى المكان الذى توجد فيه القوات، وأنا أشكرك على وجودك فى هذا المكان، لما يبعثه من ثقة وأمان للإسماعيلية وكل القناة.

ولتعلموا سيادتكم جيدا أن كل ما نصبو ونسعى إليه هو تحقيق الأمان واتخاذ الوسائل اللازمة. آمل أن تساعد من جانبك بمشيئة الله.

تقبل أسمى آيات احترامى.

قائد الجناح الشرقى فى التل الكبير

(الإسماعيلية الساعة ٤,١٥ مساء [دون تاريخ])

السيد فرديناند ديليسبس فى الإسماعيلية،

هذه صورة البرقية التى تلقيناها من رئيس أركان حرب الجناح للتل الكبير، والتى تثبت لمعاليكم أن الإنجليز لم يحترموا حياد القناة:

من يعقوب باشا المساعد العسكرى لوزير الحربية فى قصر النيل.

من أركان حرب قائد الجناح الشرقى فى التل الكبير إلى مساعد وزير الحربية فى القاهرة:

نبلغ سيادتكم أنه فى يوم الأربعاء الموافق لليوم الأول من شوال عام ١٢٩٩ الهجرى، رحلنا عن التل الكبير لكى نمر على النقاط (المواقع) التى توجد فيها اعتداءات، ووصلنا إلى جناح الشلوفة، وحصلنا عن طريق الاستطلاع على نبأ من كشافى الحرس المتقدم، وبعد أن تحرينا هذا الخبر وجدنا أن جماعة استطلاع كانت تمر على الضفة الغربية لترعة الماء العذب، وشاهدت بجوار منطقة القشرة بعض جنود الأعداء. وعندما وصلت قواتنا فتح العدو النار، لكن قواتنا ردت عليه بشجاعة. قام الفصيل المعادى بالفرار إلى بركة القارب فقامت قواتنا بالقبض عليه واقتياده إلى جناح الشلوفة. وأفراد هذا الفصيل كان معهم مائة وثلاثة وثلاثون رأسا من الدواب، وقد حدث ذلك فى اليوم المذكور، ومنذ ذلك الحين لم يظهر العدو مرة أخرى، وأخبار المعسكر الشرقى طيبة. نحن لا نعرف عدد الجرحى من العدو، من جانبنا لم يصب أحد بسوء. كان من الضرورى منع ذلك الاشتباك الذى استمر عشر دقائق.

(دون توقيع)

(٢٠ أغسطس عام ١٨٨٢، بعد الظهر)

من وزير الحربية والبحرية فى كفر الدوار، إلى فرديناند ديليسبس فى الإسماعيلية

بناء على البرقية الصادرة عن قيادة الجناح الشرقى نبلغكم أن الإنجليز فتحوا نيران سفنهم الكبيرة على قواتنا فى جنوب الإسماعيلية. هذا العمل العدائى من جانب الإنجليز يعد خرقا لحياد القناة وانتهاكا لحصانتها، مصر مستعدة لتدمير القناة لصد الأعمال الحربية التى يرتكبها الإنجليز. ما رأى سيادتكم؟

نحن نأمل فى الحصول على ردكم خلال أربع وعشرين ساعة، لقد بذلتم جهودًا كبيرة ومن جانبنا احترمنا القناة حتى اللحظة التى ارتكب فيها الإنجليز أعمال العنف التى تتعارض مع جهودكم ومع احترامنا لحياد القناة.

(الإسماعليلية، ١٥ أغسطس ١٨٨٢، مساء، وارد المعسكر)

إلى السيد فرديناند ديليسبس فى الإسماعيلية،

لقد علمنا أن الإنجليز منشغلون بتشييد التحصينات بالقرب من السويس والقناة، ونعرف أيضا أن آلات الحرب والمدافع إلخ، تمر من القناة بإذن من الشركة.

مسألة إقامة هذه التحصينات المخالفة لمبدأ احترام حياد القناة تفرض على سيادتكم التدخل لاتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع هذه الأعمال وفرض احترام حياد القناة، الذى لم أخرقه حتى الآن.

وزير الحربية والبحرية، كفر الدوار

(الإسماعيلية، ١٩ أغسطس عام ١٨٨٢)

إلى السيد ديليسبس، فى الإسماعيلية

بناء على البرقية التى وصلتنا فى هذه اللحظة علمنا أن القناة تتعرض للتهديد باستخدام القوة، وضد شخصكم أيضا، وأن شركة تلغراف الفرنسية الخاصة بالقناة مقطوعة عند السويس، وأن مرور السفن الكبيرة محظور نحو بور سعيد والسويس.

إذا كانت هذه الأشياء تحدث بالشكل الذى نعرفه فما هى الاحتياطات التى ستتخذونها؟

وزير الحربية والبحرية، كفر الدوار

إلى السيد ديليسبس، الإسماعيلية

(ملحق للبرقية ٧١٧)

إذا كانت هذه الأشياء تحدث، فما هى الاحتياطات التى ستتخذونها للدفاع عن حياد القناة؟

وزير الحربية والبحرية

فى الأربعاء الموافق للأول من شهر شوال عام ١٢٩٩ الهجرى. قابلت قواتنا المرافقة الجنود الإنجليز بالقرب من ترعة الماء العذب، ونشبت معركة بصورة اضطرتنا إلى ردم الترعة المذكورة احتراما للقناة الكبرى؛ ولهذا فأنا أرسل إليكم هذا التحذير.

وزير الحربية والبحرية

الملحق رقم (٨)

أقوال السيد نينيه عن الأحداث التى وقعت فى أثناء الحرب

أنا جون نينيه، كنت مؤخرا في الإسكندرية ولكنى مقيم حاليا فى لندن، أقول ما يلى بعد القسم.

عمرى خمسة وستون عاما، وأنا مواطن سويسرى. عشت فى مصر مدة اثنين وأربعين عاما قبل شهر أكتوبر عام ألف وثمانمائة واثنين وثمانين. سافرت إلى مصر فى البداية مديرًا لمزرعة القصر الخاصة بمحمد على، وتحولت بعد ذلك إلى تاجر لكنى تقاعدت من العمل فى مجال المال والأعمال منذ حوالى عشرين عاما. فى أثناء إقامتى فى القاهرة تعرفت تماما أخلاقيات وعادات الناس وكونت صداقات خاصة كثيرة، وصادقت عرابى بك الذى رقى بعد ذلك إلى عرابى باشا.

كنت مقيما فى الإسكندرية قبل وفى أثناء يوم ضرب الإسكندرية بالقنابل بواسطة الأسطول البريطانى. شاهدت صباح ذلك اليوم عددا كبيرا من دانات المدافع وهى تمر فوق منزلى، كانت بعض الدانات الكبيرة تحمل اسم "الإسكندرية"، وقد سقطت فوق المنزل المجاور لمنزلى إحدى الدانات الثلاث التى مرت فوق منزلى وقتلت أحد عشر شخصا وحصانين بالقرب من بوابة محرم بك. أُحرقت المنازل والمبانى ودُمِّرت فى سائر الأنحاء بفعل القنابل التى كانت تطلق من السفن فى ذلك اليوم، وفى اليوم التالى استأنفت السفن القصف من جديد وكان يجرى الرد عليها بصورة ضعيفة من قلعة أو اثنتين. وجرى رفع بيرق أبيض على الترسانة وأرسل طلبة باشا إلى القائد البريطانى ليسأل عن سبب استئناف القصف مع أن القلاع قد جرى إسكاتها.

كان الرد الذى حصل عليه طلبة باشا من الأدميرال، وطبقا لما قالـه طلبـة باشا للآخرين فى وجودى، هو أنه لوحظ أن بعض القلاع قد أصلحت فـى أثنـاء الليل. ونظرا لطول الدفاع فى اليوم السابق فإن الأدميرال قرر فـتح النـار علـى القلاع كلها بما فى ذلك كوم الدكة (دمشق) وقلعة كوم الناضورة (نـابليون) إلا إذا استسلمت له القلاع والتكنات كلها. وشرح طلبة باشا للأدميرال أنه ليس من سطلته استسلام أية قلعة من القلاع أو أية تكنة من التكنات دون موافقـة وزارة الخـديو، وأما مسألة ضرب قلعتى كوم الدكة وكوم الناضورة، فإن عرابى باشا كان قد قرر عدم استعمال هاتين القلعتين أو الدفاع عنهما لوقوعهما فى المدينـة ولأن الـدانات التى يمكن أن تطلق من هاتين القلعتين قد تدمر المدينـة. وجـاء الـرد يفيـد أن البريطانيين لا يأخذون ذلك بعين الاعتبار وأنه بحلول الساعة الثالثة إذا لم تستـسلم القلاع والتكنات كلها، فإن البريطانيين سوف يستأنفون إطـلاق النـار ويـدمرون القلاع والتكنات. وأوضح طلبة للأدميرال أنه قد لا يـستطيع الاتـصال بالخـديو ومجلسه فى الرمل للحصول على رد فى الوقت المناسب. ثم غادر طلبة، لكنه عاد ثانية ليسأل ماذا سيفعل البريطانيون إذا لم تستسلم القلاع والتكنات؟ وإذا لم يتـرك فيها جنود للدفاع عنها؟ وجاد رد الأدميرال على النحو التالى: "سنواصـل إطـلاق النار وتدمير كل شىء ما لم يتم الاستسلام عند الساعة الثالثة". غادر طلبة المكـان قاصدًا الرمل، فى الوقت الذى كان العلم الأبيض فيه مرفوعًا فوق الترسانة إلى أن يتمكن من العودة. لم يكن هناك علم أبيض آخر مرفوعا، كان القلق البالغ يسود بين المواطنين عندما علموا أن القصف سوف يبدأ عند الساعة الثالثة من جديـد، وبـدأ خروج كبير من قبل السكان والجيش. كنت فى ساحة القنصل التى كانـت تغـصُّ بالجنود وكثير من الضباط العظام الذين كانوا يسيرون فى اتجاه بوابة رشيد. كـان سليمان بك سامى، وهو أحد الضباط الذين أعرفهم، هو الذى يقود الجنود فى اتجاه بوابة رشيد بهدف إخلاء مدينة الإسكندرية؛ نظرا لأن الأمر بتدمير القلاع والتكنات سيبدأ عند الساعة الثالثة.

كان آلاف من السكان المساكين يغادرون المدينة وهم يحملون معهم منقولاتهم. كان يجرى نقل جثث الجنود المتوفين، بينما الناس يصيحون فيّ قائلين: "اقتل هذا الكلب الإنجليزى"، "اقتل المسيحيين". من حسن حظى أن وصلت سرية من سرايا المشاة كانت تخرج من المدينة في ذلك الوقت، انضممت إلى هذه السرية، وحمتنى وانقذت حياتي. التقيت عرابى باشا فى حوالى الساعة الثالثة حيث كان يغادر المدينة ومعه الكتيبتان فى اتجاه القناه. ووجهنى إلى الانضمام إلى الأطباء والهلال الأحمر وأن أتبعه. وقبل انضمامى إلى الأطباء سمعت هدير المدافع قادما من السفن وفي حوالى نصف ساعة وفى ظل عدم صدور رد عن القلاع توقف القصف.

كان البدو من قبيلة أولاد على الذين دخلوا المدينة عن طريق القبارى، أو إن شئت فقل: عن طريق بوابة عمود بومبى، قد راحوا يسلبون المحلات وينهبون ما فيها. رأيت الكثيرين منهم فى أثناء القبض عليهم بأوامر من سليمان بك سامى، وهم يضربون بالعصى، وبخاصة عندما كانوا يحاولون مغادرة المدينة وهم يحملون معهم ذلك الذى سلبوه ونهبوه، وصدرت الأوامر لسريتين من الرديف (الاحتياطى) للبقاء فى المدينة لتتولى مهمة الشوارع الرئيسية والمحافظة على النظام. وثبت عدم جدوى إصدار الأوامر بغلق البوابة نظرا لأن الجنود كانوا يبذلون قصارى جهودهم لكى يخرجوا من المدينة. كان طلبة باشا طوال فترة العصر فى الرمل يتشاور مع الخديو. كنت طوال ذلك الوقت فى حجرة ميس الضباط(*) بالقرب من بوابة رشيد. كان فى الميس كثير من الباشوات، وكان من بينهم محمود سامى البارودى ومحمود فهمي باشا. غادرت المدينة معهم ومع عدد من الأطباء والضباط عن طريق بوابة رشيد قبل الساعة السادسة لكى ننضم إلى الجيش، نمت فى تلك الليلة فى قصر من القصور التى فى الضواحى. بعد أن غادرت المدينة هبت الريح علينا وهى محملة بالدخان، الأمر الذى يوضح أن المدينة اشتعلت فيها النيران فى أماكن مختلفة منها. لم تكن النار مشتعلة فى المدينة

(*) الميس: كلمة ليست عربية وتعنى المكان المخصص لتناول الطعام. (المترجم)

عندما غادرناها، فلم يشعل الجنود النار فى المدينة. بذل الجنود قصارى جهـودهم لمنع انتشار الحرائق الناتجة عن عملية القصف، وبذلوا كل ما فى وسـعهم أيـضا لمنع البدو من القيام بعمليات السلب والنهب، لكن ذلك كله كان على العكس تمامـا من الأوامر التى أصدرها عرابى باشا هو والضباط الآخرون.

وأنا أقول مؤكدا أنه لا عرابى باشا ولا أى أحد آخر من الضباط كانت لديهم أية فكرة عن إحراق مدينة الإسكندرية بأيدى البدو أو بيد أى أحد آخـر، وأعـرف أيضا أن عرابيا باشا هو والضباط الآخرين كانوا محزونين ومندهشين عندما رأوا المكان مشتعلا بعد أن غادروه، وكان الجميع يعربون عن آمالهم فى أن ذا الفقـار باشا محافظ الإسكندرية، أحد أصدقاء الخديو الكبار، هو والعاملين معـه سـيبذلون قصارى جهدهم لإطفاء الحريق والمحافظة على النظام. وأنا أقول جازما إن العلـم الأبيض الوحيد المرفوع كان ذلك المرفوع فوق الترسانة عندما ذهب طلبـة باشـا إلى الأدميرال، ولم يقم طلبة باشا بإنزال العلم عندما ذهب إلى الرمل علـى أمـل العودة برد من وزارة الخديو، وجرى تعطيل طلبة فى الرمل إلى الساعة الخامـسة تقريبا بواسطة كل من الخديو والوزارة ومعهم درويش باشا، وعندما عـاد طلبـة كانت المدينة قد تم إخلاؤها من الجيش، وبذلك أصبح من المستحيل إنـزال العلـم الأبيض. وفى نهار اليوم التالى سرنا مدة ثلاث ساعات بحذاء ترعة المحمودية ثـم نقلنا بعد ذلك فى لنش بخارى إلى كفر الدوار بصحبة عرابى باشا.

توقفنا فى مكان يدعى مزرعة خورشيد باشا التى عسكر فيهـا جـزء مـن الجيش، وفى هذه المنطقة مر علينا قطار مكون مـن عربـات ديوانيـة قاصـدا الإسكندرية. قال عرابى باشا إن هذا القطار مطلوب من الخديو لنقله هو وعائلتـه إلى القاهرة، وبعد انتظار دام ساعتين أملاً فى عودة القطار وصلت برقية تفيـد أن الخديو غير رأيه ولن يغادر الإسكندرية. وأمضى عرابى الليل فى اللنش البخارى، ووصلت أخبار عن مذابح كانت تدور فى كل من دمنهور وطنطا. وعلى الفور قام عرابى بإرسال ثلاث سرايا إلى الوراء فى هاتين المنطقتين بأوامر صارمة بإرسال الأوروبيين كلهم إلى الإسماعيلية وبور سعيد، دون أجر مع العمل على حمـايتهم. وبينما كنت فى صحبة عرابى، وصل خبر يفيد أن أحمد بك المنشاوى أحد أثريـاء

طنطا خاطر بحياته وأنقذ خمسمائة من الأوروبيين واليهود والمسيحيين، وكتب عرابى خطاب شكر لأحمد المنشاوى يشكره على الحماية التى وفرها للأوروبيين. وأصدر عرابى أمرا نشره في ذلك اليوم، يقضى بمعاملة الأوروبيين أيا كانوا معاملة إنسانية، وأن تقوم السلطات المدنية والعسكرية بحمايتهم. وجرى توصيل هذا الأمر بناء على أوامر من عرابى شخصيا إلى كل أنحاء البلاد، وإلى كل قطاعات الجيش، وإلى القاهرة، كما وصل هذا الأمر فى ظل تعليمات مشددة إلى قائد الشرطة في العاصمة، للعمل على تنفيذه. هذا يعنى أن سلامة وأمن الأوروبيين فى القاهرة وفى الأماكن الأخرى كان منشؤها عرابيا نفسه، وأنا أعرف أن عرابيا تسبب فى إعدام ستة وثلاثين بدويا رميا بالرصاص نظرا لقتلهم الأوروبيين، ونظرا لقيامهم بعمليات السلب والنهب، وتسبب عرابى أيضا فى إعدام عدد من المواطنين شنقا فى كل من دمنهور وطنطا لأنهم كانوا سببا فى ذبح الأوروبيين. وقام عرابى بإرسال المسلوبات والمنهوبات التى جرى أخذها من المجرمين إلى القاهرة، وأنا أذكر أنه جرى إلقاء القبض على دى شير وإيداعه السجن، وقد جرى الاهتمام بهذا الرجل ومعاملته معاملة طيبة، وأنا الذى قمت بعمل الترتيبات الخاصة به بناء على أوامر من عرابى.

كنت مع عرابى وهو يتسلم رسالة الخديو الذى رغب فيها إليه أن يسافر إلى الإسكندرية. ورد عرابى على هذه الرسالة، بأن قال للخديو إنه كان فى كفر الدوار لتنفيذ العمل الذى أمر به مجلس الوزراء والمنعقد فى الإسكندرية، والذى حضره كل من الخديو ودرويش باشا، وأنه ينوى تنفيذ ذلك الأمر تنفيذا دقيقا. كنت أيضا مع عرابى عندما وصلته الرسالة الثانية التى تخلع عرابيا وتعزله من منصبه وزير الحربية اعتبارا من اليوم الخامس عشر من رمضان، وتتهمه بالتمرد. هذا المجلس الذى انعقد فى القاهرة، والذى لم يحضره عرابى، حضره عدد هائل يزيد على ستمائة من أعيان البلاد الذين جاءوا قسرا من سائر أنحاء البلاد. قرر الاجتماع أن عرابيا يمكن فقط اعتباره عاصيا من قبل السلطان، وأن الخديو ليس لديه السلطة فى توجيه هذه التهمة إلى عرابى. وقرر الاجتماع الاستمرار فى الدفاع الوطنى بما يتفق مع ما صدر عن اجتماع المجلس، والذى انعقد فى الإسكندرية، فى أثناء حضور كل من الخديو ودرويش باشا، ويتصل بالدفاع عن البلاد.

بعد ذلك بعشرة أيام، أى فى حوالى اليوم العشرين من رمضان، المصادف لليوم الخامس من أغسطس انعقد مجلس آخر، بعد أن تقرر قطع قناة السويس فى أربعة أماكن من رأس العش، والقنطرة، وسينيل، والشلوفة. كان عرابى هو ومحمود فهمى باشا المعارضين لهذا العمل ـ أى قطع القناة ـ وحثا على عدم الإقبال على هذا العمل إلا بعد قيام البريطانيين بعمل عدائى فى هذه المنطقة. كان كل شيء معدا: الرجال والمعدات لتدمير القناة فى ليلة واحدة بأمر من المجلس، وعندها وصلت البرقية الأخيرة من ديليسبس مساء اليوم الثانى والعشرين من أغسطس. وجرى سحب الديناميت بأمر من عرابى، وتعين على العالم شكر عرابى باشا لانقاذه القناة. كان عرابى كلما ناشده أحد حماية الأوروبيين وتأمينهم يستجيب للطلبات التى من هذا القبيل، وأنا أعلم أن عرابيا وفر الحماية للأوروبيين بناء على طلب من ديليسبس، والقنصل الفرنسى، والقنصل اليونانى فى الزقازيق وآخرين. هؤلاء الرجال المحترمين أعلنوا أنهم لن يتركوا البلاد التى عاشوا فيها فترة طويلة، دون أن يخيفهم أى شيء فى ظل حماية رجل مستنير مثل أحمد عرابى باشا. كان تحت رئاسة أحمد عرابى باشا ضباط قساة كان يمكن أن يتصرفوا تصرفا قاسيا مع الأوروبيين، لكن عرابيا عارضهم واعترض عليهم وأمَّن قدر المستطاع الحرية والحماية للجميع. أذكر جيدا أنه قيل إن برقيات مزيفة جرى إرسالها عن طريق الشركة الشرقية للتلغراف إلى أوروبا، وأن تلك البرقيات أحدثت ضررا بالغا، وتقرر إرسال ضابط إلى مكتب التلغراف لمنع إرسال البرقيات المشفرة. ورفض عرابى السماح بالموافقة على التدخل فى شئون الشركة، قائلاً إن المجتمع التجارى سوف يتهمه بالإضرار بالتجارة.

كانت الخطوات التى خطاها عرابى فى الدفاع عن بلده فى كل من الإسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وفى الأماكن الأخرى، بأمر من مجلس الوزراء الذى انعقد فى الإسكندرية، وقت أن كان الخديو نفسه رئيسًا للمجلس، وبحضور مبعوثين آخرين من قبل السلطان، ولم يرفض فيه أى أمر من الأمور. وعرابى عندما أقام دفاعاته فى كفر الدوار، كان يتصرف بناء على أوامر من

المجلس، وكان يحظى بمساندة الشعب المصرى له وتعاطفه معه. الأعيان من كل المؤسسات والتجار والسلطات المدنية والسلطات الدينية، كل أولئك أخذوا يتوافدون من سائر أنحاء البلاد على كفر الدوار يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع، الكل جاءوا لتهنئة عرابى وشكره، ذلك البطل الذى عهدوا إليه بمهمة الدفاع عن بلدهم، وحمل الجميع التراب فى أيديهم وألقوه على الخنادق لكى يثبتوا ويؤكدوا مشاركتهم فى هذا العمل.

كان فخرى باشا من بين الأعيان الآخرين الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابيا فى كفر الدوار، وكان من بينهم أيضا أحمد باشا نشأت مدير الدائرة، وكل أعضاء المحكمة الوطنية، والقضاة الوطنيون، ونائب المدعى العام فى المحاكم المختلطة، عثمان باشا فخرى، ورءوف باشا، وعرفى باشا، والعلماء، ومفتى إسطنبول، وكثيرون من وجهاء المغاربة، وأساتذة الأزهر، وأعضاء كثيرون من أسرة رياض باشا، والدرملى باشا، وحسن العقاد، وكثير من العمد وأصحاب الأملاك، وبخاصة أحمد بك المنشاوى الطنطاوى الذى سبقت الإشارة إليه. أسهم كل هؤلاء إسهاما كبيرا فى نفقات الحرب الدفاعية، وأستطيع القول إن قلة قليلة من هؤلاء هم الذين أسهموا بواقع عشرة آلاف جنيه لكل واحد منهم. وقد جرى إرسال هذه المبالغ كلها إلى القاهرة ولم يصل المعسكر أى شيء سوى إمدادات وتموينات القمح والفاكهة. وقبّل كبار الزوار أحمد عرابى واحتضنوه بين أذرعهم. وقال له مفتى القاهرة العجوز، نحن نمثل أكثر من خمسين ألف من كبار المشايخ والملاك، ونحن جميعا نشكرك لأنك أمسكت بيديك قضية الإسلام والأمة. أنت أول وطنى بحق فى أرض النيل. وردا على كلام كبير العلماء قال عرابى: "نحن لا نريد شيئا سوى العدالة للجميع، وتأمين حياتنا وممتلكاتنا وحقوقنا، وبرلمان مستقل ومنتخب انتخابا حرا، ووزارة مسئولة، وخديو يتقاعد بلا حكم، واقتصاد صارم فى إدارتنا. نحن لا نريد سيطرة سياسية، ولا نريد أجانب على رأس وزارتنا بأجور ضخمة. مصر للمصريين، لكن الحرية والحماية للغرباء كلهم إذا ما خضعوا للضرائب نفسها مثلنا".

وأنا أقولها وبلا تردد إن عرابيا باشا لم يحدث أن قام بسلب أو ذبح أى أحـد على الأراضى المصرية، وإن الدفاع عن أرض مصر جرى بناء علـى تفـويض الشعب المصرى والأعيان له بذلك. لم يتسبب عرابـى فـى سـلب أو نهـب أى مصرى، لكنه على العكس من ذلك بذل كل ما فى وسعه للمحافظـة علـى حيـاة وممتلكات المصريين والأجانب على حد سواء، وعمل كل ما فى وسعه أيضا مـن أجل محاكمة السلاّبين والنهابين والقتلة السفاحين.

لقد كنت مرافقا لعرابى من يوم أن ترك الإسـكندرية إلـى اليـوم الرابـع والعشرين من شهر أغسطس عندما سافر إلى الجيش بـالقرب مـن الإسـماعيلية. وانضممت إلى عرابى في القاهرة صباح اليوم التالى للمعركة. وجرى عقد اجتماع فى منزل عرابى فى القاهرة يوم الخميس لمناقشة مسألة استسلام القـاهرة، وسـاد رأى عرابى الخاص باستسلام القاهرة دون دفاع، ووصلت أخبار تفيد أن الإنجليـز وصلوا إلى العباسية. طلب عرابى وطلبة باشا مشورتى ورأيى وما الذى يجـب أن يفعلاه، نصحتهما بالذهاب إلى الجنرال البريطانى وتسليم سيفيهما لـه باعتبارهمـا أسيرا حرب، وهنا يُحتِّم شرف إنجلترا المحافظة عليهما وحمايتهما. تركـانى فـى منزل عرابى وذهبا بعربتهما سويا إلى العباسية.

جون نينيه

جرى أداء القسم فى صالة وستمنستر، فى مقاطعة ميدلسكس، فى إنجلترا

فى اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٨٨٢ أمامنا. **(توقيعات)**

الملحق رقم (٩)

الريح والزَّوبعة

قصيدة بقلم ويلفرد سكاون بلنت،

نشرت عام ١٨٨٣

(١)

لدى شيء أود قوله، لكن كيف أقوله؟

لدى قضية أدافع عنها، لكن إلى أى آذان؟

كيف لى بتحريك العالم عن طريق الأسى،

العالم الذى لا يعبأ بدموع أمة؟

كيف لى بالكلام عن العدالة مع المعتدين؟

عن الحق مع الملوك الذين تشمل حقوقهم الخطأ كله؟

عن الحقيقة إلى فن إدارة الدولة صادق لكن فى خداع؟

عن السلام للأساقفة عن الشفقة للأقوياء؟

أين أجد سمّاعا؟ فى الأماكن العالية؟

صوت الدمار يُغْرِق صوت الخير

على درج العرش، كبار الأمة

يرتفعون فى رتبهم ويصيحون مطالبين بالدم

أين؟ في الشارع؟ يا أسفاه على منطق العالم!
لا السادة ولا القساوسة وحدهم فعلوا مثل هذا العمل
ملابس هؤلاء العبرانيين الكبار الذين يَرْجُمون ستيفن
أمسكناها كلنا، نعم كل واحد منهم

مع ذلك أنا أتكلم، لا، هنا بحق السماء
هذه المهمة يمكن أن يقوم بها شاعر في أضعف الأحوال
أن تقف وحدك في مواجهة أقوياء كثيرين
وأن تُجبر على الاستماع إلى الضعفاء والقلة

بلا شكر، وبلا تشريف فعلاً مهمة عظيمة
ليست في يومه لكن في عصر أكثر حكمة
عندما يجد أولئك المستشارين نصيبهم
ويرقدون منسيين في تراب كذبهم

من ذا الذي سيقول إن قضية حرية هذا العام
الضائعة على النيل لم تُثْبِت جدارتها
بترنم شاعرٍ مثل قضية ميلتون
(التي) تغنى بها في عميانه أو التي أحبها دانتي؟

سقوط جويلف Guelph أسفل رماح فالويس Valois
خيانة الحرية، استعادة جبلاين
ألم نر ذلك، نحن الذين سببنا هذا القلق
النفى والخوف من الإبعاد والسيف ؟

أم سيقلل الرب من انتقامه فى واديهم البرى
حيث ترقد مذبوحة تلك الأغنام المسكينة التى قطيعها
فى شفق غضبنا الرمادى أغرنا عليه
لنخدم عبدة المخزونات والذهب؟

هذا يفشل، ذاك يعثر على ساعته، هذا يقاتل، ذاك يتداعى
اليونان تتسحق تحت أعقاب ولسلى Wolselay
أو مصر يُثْأرُ منها لحدادها وحزنها الطويل
وتقذف فُرسها لتعيدهم إلى سفنهم

ليس وحده فقط المنتصر هو النبيل
ليس وحده فقط الرجل العاقل هو العاقل
هناك صوت أسى فى كل صياح
والعار لا يطارد فقط ذلك الذى يهرب

القتال والقيئ، هو ما يتباهى به الأبطال

القتال والهرب، لا تتحدث عن هؤلاء الرجال

سيجيء يوم هناك سيرتعد فيه الرجال

بدلاً من الإساءة إلى الضعفاء

يوم يحار السياسيون فى جرأتهم

يوم يخشون استعمال السيف بلا جدوى

بدلاً من توجيه طعنيهم إلى أمة جريحة

ويتملكون نقائصهم ويستقيلون من حكمهم

يوم غضب عندما تتذكر الشيرة كليا

من عمل هذا العام كله سيكون هناك سقوط واحد

الذى كان واقفًا فى مقدمة مسارات فضيلتيا

طوى ركبه الأحمق على حجر مذبح الحرب الأحمر

وترك الفضيلة كليا وسلسلة فى سقوطه

إشارة إلى إنجلترا عن أحزان جديدة قادمة

قَسٌ سلاميا الذى باع نحلته نظير المجد

وسار إلى مذبحة على قرع الطبل

من هنا أنا لا أخاف، دع ذلك يسجل
وقفة الماضي قبل أن يجيء انتقام الله
من المكان لعقاب وكلائه المحزونين
أصحاب السلطة على الأرض، أنا أضرب هذا في وجوههم

(٢)
لديَّ شيء أود قوله، لكن كيف أقوله؟
من الشرق كان الشفق قد وُلِد
لم يكن نهارًا ومع ذلك كان الليل الطويل يخبو
والأمم المنقضية تراقبه بنسيان أقل

من داخل صمت العصور الخالية من المرح
كان قد تكلم صوت مثل الطائر الأول
يتحدث إلى الغابات قبل أن يستيقظ الصباح
والدنيا الواقفة على قدميها كانت قد سمعته

رحّب الرجال به، كتبوا كلامه
كان بلسان مقدس عرفه واعتبره الرجال صدقًا
تحدث عن الأمل، رحب به الرجال بصفتهم إخوانًا
تحدث عن السعادة، وقال الرجال إن كلامه صحيح

هناك فى أرض الموت حيث يُهذهذ العمل الشاق
ذلك النيل الملىء بالدموع غير المعروف للحرية
تكلم عن النغمات العاطفية عن حرية البشر
والملىء بحقوق الإنسان التى لا يمكن أن تموت

إلى أن تسلل من كهف الخوف الطويل الذى أبوابه
كانت قد تدحرجت إلى الخلف وبصوت ضعيف ولكن عال
رجال مسجونون مثل الأشباح وتجمعوا على شكل جوقة
وغنوا مرتعدين كل رجل منهم فى كفنه

العدل والسلام أُخوّة الأمم
الحب وحسن نية الجنس البشرى تجاه الإنسان
تلك كانت الكلمات التى أمسكوها ورددوها بطريقة غريبة
معتقدين أنها أجزاء من خطة شبيهة بالخطط الإلهية

خطة جرى نقلها أولاً إلى أراضيهم
لم يعرفوا تهكم القدر
سخرية حرية الإنسان والضحك
الذى يحيى حب الأخ من أولئك الذين يكرهون

آه من جمال أحلام الأمل ! طفولة
تلك الأرض القديمة العقيمة منذ زمن طويل فى ألم
تلقى حمأة أسفلها مع ضمنها
وضحكت وصاحت ونمت من جديد

وفى الشوارع حيث لا يزال ظل الفرعون
ممتدًا فى أبنائه القطيع المملوكى
شباب حيًا شبابا بكلمات البهجة
وهز سلاسله وأمسك بها كما لو كانت سيفًا

طالب وتاجر، يهودى وقبطى ومسلم
كل الذين تحمل ظهورهم شامات انحنوا للقضيب نفسه
اشتعلوا بفكرة واحدة قوية ونسوا صراعاتهم
وقفوا يدًا بيدٍ يشكرون ربًا واحدًا

(٣)
لدىَّ شىء أود قوله، لكن كيف أقوله؟
مثل أيام موسى فى الأرض
أرسل الله رَجُل صلاة قبل شعبه
ليتكلم إلى فرعون ويخسر أرضه

الظلم، تلك زوجة أب الأبطال القاسية
كانت قد علمته العدالة، علمته نظرة الألم
أدخلته في الغضب وصوت البكاء
جعل عينيه تبكيان كما لو كان (البكاء) على رفيق قتل

جندى في عصابات سادته المتفاخرين
كان مصيره أن يخدم لكن من روحه
لم يمتلك أحدٌ الولاء سوى سيد الجيوش
لم يتحلق أية عبادة سوى عبادة ربه القوى

كانت خدمته صارمة في قانون السماء
أخذ الراحة والصبر على الخطأ
وكل الناس أحبوه لقلبه الطيب
ولكلمات الشفقة على لسانه

جاءته المعرفة في الحراسات الليلية
والقوة مع الصوم والطلاقة مع الصلاة
وقف قاضيًا من عند الله أمام الغرباء
الرجل الواحد العادل بين شعبه هناك

تَكلَّم بقوة: الآن، فلتشهد علينا السماء!

لقد استيقظت مصر اليوم من سباتها

نفضت عنها حدادها وصمتها

فتحية بكائها ليست قانوناً من قوانين الله

ليس من قوانين الله أو من قوانين الأمم

أن أرضه وحدها من الأرض الطيبة

أن اليد التى بذرت ينبغي ألا تجنى (ثمار) عملها

القلب الذى حزن ينبغى ألا يفيد من المرح

كم عانينا بأيدى الغرباء

نحزم حزمهم، ونحصد غضبهم!

خدمتنا كانت مريرة وأجورنا

الجوع والألم والعرى والقحط

"من منها رثى لنا؟ من بين أمرائنا كلهم

كان هناك سلطان واحد استمع إلى صياحنا

بنينا قصورهم وقبورهم ومعابدهم

ما الذى بنوه للحرية غير القبور؟

العيش فى جهالة والموت فى الخدمة

ندفع فديتنا ونتلقى سياطنا:

هذه كانت فدية نَصَبنَا فى عدن Eden

هذه، وحريتنا الحزينة نحزن عليهما

لدينا ما يكفينا من الغرباء والأمراء

أُرضعوا على رُكبنا وهم سادة داخل بيوتنا

الخبز الذى أكلوه كان لأطفالنا

لهم الولائم ولنا الخزى

ظل قصورهم، منازلهم الجميلة

المبنية بدمائنا والمعجونة بدموعنا

تُظلِم الأرض بظلام جهنم

الشهوة، الجريمة، عار السنين

"ألم تسمع ذلك؟ من تلك النوافذ المعصوبة

صوت نساء يرتفع وصوت مرح

هؤلاء بناتنا – أو أبناؤنا – فى السجن

أسيرات للعار مع أولئك الذين يحكمون الأرض

النهر الصامت يتراكب بالقرب من تلك الحدائق
يستقبل الليلة حمولته من الموتى الجدد
رجل العصر أُرسل للوطن ومعه أجور الرب
بأحجارٍ لقدميه وكفنٍ لرأسه

جدران شائنة الجمال حدائق عطره
فيها ورد وأُتْرُج ورائحة الدم
سيمحو الله ذكرى الضحك كله
بدلاً من أن يتركك واقفًا حيث أنت

لدينا ما يكفينا من الأمراء والأغراب،
عبيد كانوا سلاطين، خصيون كانوا ملوكًا
عار سدوم Sodom على وجوههم كلها
لعنة كنعان Cain تطاردهم وهى تعلَقْ

أليست هناك فضيلة؟ ترى اليونانى الشاحب يتبسم
الفضيلة عنده حكاية من الماضى
أى الآلهة إلهه؟ المنة، من الفضة
رب أربابه؟ خالق العالم، الذهب

التركى الذى يسلب وينهب والفرنجى سمسار الفاحشة
هذان هما سادتنا الذين يتلاعبون بالشهوة والغضب
الماخور ومعصرة العنب والراقصات
عطايا غير متفق عليها فى أراضى الله

نحن لا نريد هذه العطايا، نحن لا نعبأ بها، وجوهنا
تحولت إلى قبلة جديدة حقيقة جديدة
مُعلنة من قبل الإله الواحد رب العالمين
لينقذ شعبه ويجدد شبابهم

حقيقة مبنية على المعرفة وعلى العقل
تعلم الرجال ألاَّ يحزنوا بعد الآن وأن يعيشوا
حقيقة تخبرهم عن الأشياء الخيرة والأشياء الشرِّيرة
وتعطى ذلك الذى لا تعطيه سوى الحرية

تُعلِّم المجلس أن يكون قويا وتعلم الإرادة الانتصار
حب الأشياء كلها العادلة والحانية والعاقلة
الحرية للعبيد حقوق عادلة للجميع باعتبارهم إخوانًا
انتصار الأشياء الحقَّة وانتصار الكذب

أيها الرجال إخوانى أشقاء روحى!
ذلك الذى حلم به آباؤنا على أنه حُلْم
شمس السلام والعدل قد أشرقت
وسينقذ الله من خلالكم مشروعه الكامل

حكام أرضكم يتعين أن يتوقفوا عن الخداع
أهل الربا يتعين أن يهربوا من أرضكم
أمراؤكم يجب أن يدرجوا ضمن خدمكم
السلام يجب أن يُرَشِّد السيف في يدكم اليمنى

يجب أن تصبحوا أمة مع الأمم
ارفعوا أصواتكم فقد ولَّى الليل
أفردوا أيديكم أيدى الشعوب الحرة
تدعوكم صغارًا وكبارًا

وفى أُخوَّة الإنسان الهاجع
متَّحِدين مع آمالهم ومعززين بيومهم الجديد
قلق السنين يجب أن يُنْسى
والله على مر السنين لا بد أن يمسح دموعكم

(٤)

لدىَّ شيء أود قوله، لكن كيف أقوله؟

كيف يتعين علىَّ حكى غموض الخداع

التدليس الذى حارب، الخيانة التى فرّقت

الذهب الذى قتل أبناء النيل ؟

أساليب العنف يصعب تعرُّفها

ورجال الحق تضعف إرادتهم

والفضيلة أعفيت من أبنائها

ورجال السلام تحولوا جانبًا إلى القتل

كيف لى بالحديث عنهم قساوسة بعل Baal

الرجال الذين ولوا الريح نهاياتهم؟

حُصَّاد العاصفة فى ذلك الحصاد

كانوا جميعهم مواطنىَّ، كان بعضهم أصدقائى

أصدقاء مواطنون عُشَّاق للحرية العادلة

لا تزال روحى حزينة على أرواحهم وصياحهم

لن أحكى عن عار معاملاتكم الزائفة

باستثناء الدم الذى يصيح فى عنان السماء

اللعنة على فن الحكم وليست عليك يا بلدى!
الرجال الذين قَتَلْتَهم لم يُقتَلُوا ظلمًا
أكثر من شرفك الذى وضعته بين أيديهم
ماتوا وانتصرت أنت، كلاهما بلا جدوى على حد سواء

الجريمة تجدلها شركاء والقتل يجد أسلحةً
حِيلُ الساسة طريق سهل
السيوف كلها ملك لهم، النبيل والمحتاج
وأولئك الذين يخدمونهم على أفضل وجه هم رجال الخير

ما داعى الاحمرار خجلاً والتَلهى بالتَّصرُّف؟
عشرات الألسنة الأمينة يجب أن تُقسِم
الدم ينساب، ذاتية مجلس الشيوخ يجب أن تفرد عباءتها
فى وجه الدنيا، ولن تملك قيصرًا هناك

صمت! من الذى تكلم؟ صوت إنسان يكشف
حقيقة عاجلة، بأى حق تتكلم؟
أيعقد هو لجنة الملكة؟ لا، لجنة الله وحده
مئات الأيدى يجب أن تلطم خدَّه

"حقيقة" السياسى شيء ينشرونه

"زيفهم" هو ما يفعلونه ولا يقولونه

"شرفهم" هو ما يكسبونه من متاعب العالم

"عارهم" هو "نعم" التى تتمنطق مع "لا"

وا أسفاه على الحرية! وا أسفاه على مصر!

ما الفرص المتاحة لك فى هذا الصراع الخسيس؟

محتقرة ومُبَاعة، مُهانة ومرفوضة

ما الذى تبقى لك سوى الصراع من أجل الحياة؟

رجال الشرف باعوك للمهانة

رجال الحقيقة باعوك وخانوك بقبلة

إستراتيجيتك فى الحب سرعان ما تفوقت

ما الذى تبقى لك من أحلامك باستثناء هذا؟

ظننت أن تكسب العالم بتعاملك النظيف

أن تكسب الحرية بلا قطرة من دم

هذه كانت جريمتك، الدنيا لا تعترف بمثل هذا المنطق

الدنيا لم تتحمّلك ولم تفيمك

فرعونك بعرباته الحربية وراقصاته

هم قادرون على فهمه باعتباره واحدا من أقاربهم

تكلم بلسانهم وكأنه خادم لهم

ولم يمتلك أية فضيلة يمكن أن يسموها خطيئة

أخذوه لمتعته ولهدفهم

شكلوه مثل الصلصال ليتفاخروا بذلك

جعلوا من اسمه أداة يضرونك بها

خيانته سنٌ رمح فى جنبك

عرفوه واحتقروه ورفعوه

قوّوه بالتشريف وبالسفن

استخدموه ظلاً للفتن والعصيان

طعنوك بكذب شفتيه

مصر الحزينة! منذ ليلة المغامرة الفاشلة

التى وأدت وليدك الأول لجريمتك الفرعونية

لم يصدر الله مرسومًا بطاعون من هذا القبيل ضدك

لا عقاب من كل ما هو مقدَّر فى الزمن

(٥)

لدىَّ شيء أود قوله، آه كيف أقوله!

صبيحة يوم صيف فى وقت الصلاة

وفى وجه الإنسان وأمام صانع الإنسان الأكبر

رعد مدفعهم دوَّى فى الهواء

لُهُب الموت كانت عليك هى والدمار

صبُّوا على رءوسكم وابلاً من الحديد

حاربت، سقطت، متُّ، إلى أن غربت الشمس

وبعدها هربت منبوذًا من رحمة الله

أنا لا يعنينى هربك، ما يسميه الرجال الشجاعة

هو أقل الأشياء النبيلة التى يتفاخرون بها

المنتصرون هم دائمًا رجال عظام شجعان

أوجد لى شجاعة الطرف المنهزم!

ربما كنتم جبناء، لعلهم يثبتون ذلك

ما الخطب؟ هل كنتم نساء فى القتال؟

شجاعتكم كانت هى الأعظم إلى حد أنكم فى لحظة

حوَّلتم ضعفكم إلى فولاذ فى قضية الحق

آه كنت أُفضّل الفرار مع أول الجبناء
الذى تخلص من أسلحته فى قضيتكم الطيبة
مواجهة الطعنة الساخنة التى تبجحت بها إنجلترا
فى كل سجل حروبها غير العادلة

أيتها الأغنام المسكينة ! لقد فرقوكم.. أيها العبيد المساكين ! لقد أحنوكم
صليتم من أجل حيواتكم الغالية بأيديكم الصامتة
ردوا عليكم بالضحك وبالصياح
وقتلوكم بالآلاف على الرمال

اقتادوك بالسلاح مربوطًا إلى خائنك
قالوا: إن عبيده نفذوا إرادته
رجوه أن يتشجع ويحقق انتقامه
أعطوه سيفه المفقود علّه يَقتُل

ملأوا له زنازنه بأطفالكم
استأجروا له سجّانين جددًا من شواطئ غريبة
الأرناءوط والشراكسة ليكونوا له مرءوسين
جنودهم ليكونوا حرّاسًا على أبوابه

أجهدوك بالسوط والحبل والقلاووظ الإبهامى

أجهدوك بكلام العقاب والانتقاد بلا جدوى

أرسل عبيده ومخصييه لكى يَسُبُّوك

أرسلوا لك الضحك على شفاه الأرباب

ربطوك بعمود فرماناتهم

وضعوا فى يدك قلمًا بدلاً من الصولجان

أطلقوا الكثير عوضًا عن ثياب معاهداتك

وأحضروك عاريًا ليحملق فيك الرجال

زاروا قسك الأكبر طلبًا لتفويض موتك

فصّلوا لك اتهامات من قوانينك

عرض المحبوبون تقديم براباس Barabbas نيابة عنه

غسلوا أيديهم واكتشفوا أنك بلا قضية

سخروا منك وأشاروا إليك احتقارًا

متوجين بأشواكهم ومسمَّرين على شجرتهم

وعلى رأسك كتب نقّاشهم النقش

"هذه هى الأرض التى أُعيدت إلى الحرية"

آهٍ من صلافة القوة ! آه من التفاخر بالحكمة !

آه من الفقر في كل الأشياء الحكيمة بحق !

هل تظنين يا إنجلترا أن الله يمكن أن يُخدَع

إلى الأبد بواسطة ذلك الذي يبيع ويشترى؟

أنتِ تبيعين الأمم الحزينة إلى دمارها

ما الذى اشتريتيه؟ الطفل داخل الرحم

والدَه قتلتيه بإيذائك

سيرد عليك "سيكون قبرك إمبراطوريًا"

وصلتِ منزلاً بمنزل لهلاكك ودمارك

فعلتِ الشر باسم الخير

جعلت المرَّ حلوًا والحلو مرًّا

وسميت النور ظلامًا والظلام نورًا

أصبحت كلمة عابرة في التفريق

إشارة لجيرانك على النصب والخداع

أعمال عنفك الرجال يحصونها ويعرفونها

من يأخذ السيف يجب أن يموت به

أنت تستحقين كراهية الرجال، يجب أن يكرهوك
أنت تستحقين خوف الرجال، خوفهم سيَقتُل
وضعت قدمك على الضعيف الأضعف
برأسه المكسور سوف يضربك في عقبك

أنت ذهبت إلى مصر هذه بغية المتعة
ستبقين معها طلبًا لألمك الشديد
لقد امتلكتِ جَمالها ولن تتركيها
لا، سوف ترقدين معها مثلما رقدتِ أنت

سوف تجر العار إلى وجهك عند الرجال كلهم
سوف تقتلك بحزنها وخوفها
ستضعفين وتمرضين في دمارها
ستدفعين الثمن لها إلى آخر دمعة حزن

أقاربها وأهلها سيحيطون بك بصيحات غريبة
يطاردون خطواتك إلى أن تكرهي عرينهم
الأصدقاء الذين خدعتِهم سيُراقبون في غضب
أولادك سيوبِّخونك بشدة لخطيئتك

الكل سيعدونك جريمة، صبرك

مع عدم صبرك، أفضل أفكارك سيَجْرح

أنت سوف تضيقين بعملك على هذا النحو

وتمشين في خوف بعينين على الأرض

الإمبراطورية التي بنيتِها سوف تتقسم

ستُوزَنِين في ميزانك الخاص

ميزان الربا الفاحش للشعوب والأمراء

وسوف تكونين في عوز من نظر العالم وهؤلاء

سوف يملكون الأراضي التي تنازلتِ عنها

ولن يأسفوا عليك، لن تكوني بعد ذلك في بحارهم

سفنك ستحمل الدمار للأمم

أو ستُرْعد مدافعك على شاطئ بلا سور

أنت لا تُشْفقين في يوم انتصارك

هؤلاء لن يشفقوا عليك، العالم سيتحرك

على طريقه السريع ويتركك لصمتك

مُحتقَرة من المخلوقات التي لم تستطيعي حبها

إمبراطوريتك سوف تتجزأ، ومملكتك
سوف تقوم على أبوابك مملكة
يجرى فيها الدعاء للحرية والخطأ المُجاز
الذى جَرَّه عليك تهورك فى الأيام غير الحكيمة

الحق يجب أن ينتصر فى عالم العدالة
هذا عن الإيمان أُقسم على ذلك شرقًا وغربًا
قانون تقدم الإنسان سوف يحقق
حتى هذه الأعجوبة الأخيرة الكبيرة مع باقى الأشياء

لن تستطيعى المضى أبعد من ذلك، لن تستطيعى التَّخلُّف
إذا لم تتعلَّمى فى الوقت المناسب فلن تعيشى
لكن الله سيرفع يدك عن ممتلكاتها
ويعطى هؤلاء الحقوق التى لم تعطها

أمم الشرق تعدت مرحلة الطفولة
أنت شخت، عهد رجولتهم قادم
سوف يواصلون تقاليد الأرض الراقية
على امتداد عصور طويلة عندما تُخرس شفتاك

إلى أن ينكشف كل شيء يا أراضي البكاء
أراضي روتها أنهار الزمن القديم
الجانج والإندوس وأنهار عَدْن
أرضك هي مستقبل تسامي العالم

أرضك كانت ينبوع وحي الإنسان الأول
بئر الحكمة الذي نهل منه في تاريخ باكر
أرضك ستكون زمن فيضان منطقة
نير القوة الذي سيجدد قوته

حكمة الغرب ليست سوى جنوب
نقش المياه الضحلة الشبكي في حوضهم
حوضك هو الانسياب، اكتمال صبر الإنسان
محيط راحة الرب موروث

وأنت أيضًا يا مصر يا أتعس الأمم
على الرغم من موتك اليوم في بصر الرجال كلهم
وعلى الرغم من تعليقك على صليبك مع اللصوص
فإن خطأك سوف يُبَرر بالحق

كان الخطأ لقاء شخص يموت من أجل الشعب كله

كنت أنت الضحية المختارة لاسترجاع

آلام الأرض مع الخلاص الكامل

ومثلما مُتَّ سيحيا هؤلاء أيضًا بالتأكيد

تبعثر الأنبياء خلال المدائن

بذر أبناؤك بذور الشهادة

ستجعل منك مجدًا وشاهدًا

فى قلوب كل الرجال المأسورين مع قلبك

لن يسامحوك فى أبنائك

دمك الحق سوف يُثمر الأرض

أفضل الأراضى ستكون لأهلك

والموت سيكون لك ميلادًا أفضل

لذلك لن أحزن، اسمعينى يا مصر!

حتى فى الموت لن تكونى ميتة تمامًا

واسمعينى يا إنجلترا ! لا، أنت لا بد أن تسمعينى

عندى شيء أود قوله، وها هو قد قيل

فهرس بأسماء الأعلام الواردة فى متن الكتاب
وسيرة قصيرة لكلٍّ

الشيخ محمود العباسى : شيخ الإسلام المصرى.

عبد العال باشا : عقيد فلاح.

الأمير عبد القادر : بطل جزائرى نُفِى إلى دمشق.

عبد المطلب : كبير أشراف مكة.

الشيخ محمد عبده : مصلح دينى، أصبح فيما بعد مفتيًا لمصر، صورة الرجل تتفق مع لقبه، تعاونه مع المؤلف، شخصيته وآراؤه، زعيم الإصلاح فى الأزهر، نفى من القاهرة فى ظل السيطرة الثنائية، أول من تعرَّف عليه المؤلف، آراؤه فى الخلافة، الشيخ محمد عبده رقيبًا على الصحافة، عدم موافقته على مظاهرة قصر عابدين، انضمامه إلى حركة عرابى، وضعه للبرنامج الوطنى، مجادلته لمندوبى الحزب الوطنى، مراسلاته مع المؤلف، حوار صابونجى معه. مهمته المقترحة إلى إنجلترا، إلقاء القبض عليه بتحريض من ماليت، إيداعه السجن بعد الحرب، شهادته على مظاهرة الإسكندرية، تعليقاته على سيرة عرابى.

السلطان عبد العزيز : القصة الحقيقية لوفاته.

السلطان عبد الحميد : السلطان المستقيل، توقيعه معاهدة قبرص، آراؤه عن الجامعة الإسلامية، إرساله المفوضين إلى مصر عام ١٨٨١، رسائله إلى عرابى، موقفه اللاحق من

عرابى، إرساله درويش باشا إلى مصر، بيانــه عــن عرابى، كشف فضائحه فى أثناء محاكمة عرابى.

الجنرال السير جون آديى Adye : رئيس أركان ولسلى.

حسن موسى العقاد : فلاح إقطاعى، عميل الأمير حليم فى مصر.

الإسكندرية : إضراب الإسكندرية، قــصف الإســكندرية بالقنابــل وإحراقها.

الشيخ محمد عليش : شيخ المالكية فى الأزهر.

الجزائر : سفر المؤلف إلى الجزائر.

على فهمى باشا : عقيد فلاح من الحرس، ياور مــن يــاوران الخــديو، علاقته بنوبار، وساطته بين عرابى وتوفيق، مرافقتــه لعرابى إلى قصر النيل، سلوكه فى قــصر عابــدين، توليه القيادة فى القصاصين، جُرحه فى القاهرة.

أحمد باشا عرابى : مطلع تاريخه وشخصيته، دفاعه عن حقوق الفلاحين، عقيد الكتيبة الثالثة فى القاهرة، إلقاء القبض عليه فــى قصر النيل، مظهره الشخصى، مظاهرته فــى ميــدان عابدين، شعبيته الكبيرة، أول لقاء له مــع الــسلطان، تعرف المؤلف عليه، موافقته على البرنامج الــوطنى، وكيل وزارة الحربية، رسالة ماليت إلى عرابى عــن الإعلان المشترك، عرابى وزيرًا للحربيــة، ســلطان باشا، الرسالة التى أرسلها عرابى عن طريق المؤلــف إلى السيد جلادستون، برنامج عرابــى الإصــلاحى، مراسلات عرابى مع المؤلف، رسالة جلادستون إلــى عرابى، تآمر الشراكسة على عرابى، علاقات عرابى

بالسلطان، رسائل السلطان إلى عرابى، الإنذار الــذى يقضى بنفى عرابى، موقف عرابى الهادئ، اســتقالته وإعادته إلى الوزارة، خطة وزارة الخارجية للــتخلص من عرابى، رفض عرابى الــسفر إلـــى إســطنبول، علاقته المزعومة بإضراب الإسكندرية، حصوله على وسام من السلطان، مسئوليته عن ضرب الإســكندرية بالقنابل، مسئوليته المزعومة عن إحراق الإســكندرية، صلته المزعومة بالأمير حلــيم، آراؤه كمـــا ســجلها صابونجى، الدعاء لعرابى فى مكـــة، رســـالته إلـــى جلادستون، انتقاد تصرفه فى الحرب، سماحه للخـــديو بالهرب إلى الأسطول، عرابـــى فـــى كفـــر الـــدوار، مراسلات عرابى مع توفيق، إهمال عرابى فى غلـــق قناة السويس، مراسلات عرابى مع ديليسبس، الملحـــق رقم ٧، تصرف عرابى فى التل الكبير، عرابـــى فـــى القاهرة بعد المعركة، استسلام عرابى لـــدرورى لاو، عرابى فى السجن، الوصول إلى حل وسط فى محاكمة عرابى مع دوفيرين، توجيه تهمة التمرد إلى عرابـــى، ثبوت الاتهام والحكم بالإعدام، نفى عرابى إلى جزيرة سيلان، عربى ياور لسعيد باشا الحاكم المناب، سيرته، (الملحق رقم ١)، شهادة جـــون نينيـــه السويـــسرى، (الملحق رقم ٨).

صندوق الدفاع عن عرابى : قائمة بأسماء كبار المساهمين فى ذلك الصندوق.

الجزيرة العربية : ترحال المؤلف فى الجزيرة العربية.

الخلافة العربية.

آسيا الصغرى : ترحال المؤلف فى آسيا الصغرى.

الشيخ أحمد أسعد : من المدينة المنورة، عميل السلطان السرى، مفوض فى مصر عام ١٨٨٢.

السيد آردرن بيمان : مترجم رسمى لدى ممثلية القاهرة، جرى تعيينه لمراقبة محاكمة عرابى، الرسائل الميمة التى أرسليا، فيما يتعلق بإضراب القاهرة.

البدو : تجوال المؤلف فيما بينهم، تآمر توفيق مع البدو.

السيد موبرلى بل : مراسل جريدة التايمز فى الإسكندرية، شغل منصب مدير جريدة التايمز.

الأدميرال اللورد شارلز بيرزفورد .

مؤتمر برلين.

الأمير بسمارك : فى مؤتمر برلين، مساعدته لآل روتشيلد، فى مواجهة إسماعيل باشا، مساندته لآل روتشيلد عام ١٨٨٢.

إم. دى. بلنجييرز : مراقب مالى فرنسى فى مصر.

السير إدوارد بلونت الباريسى.

بوروللى بك : المدعى العام فى محاكمة عرابى.

الشريف الجرنون بورك.

الشريف رايت روبرت بورك، فيما بعد اللورد كونيمارا.

الشريف هنرى براند، فيما بعد اللورد هامبدن: مراقب عام المعدات الحربية فى وزارة جلادستون.

الشريف ريجنالد برت : لورد إيشر، سكرتير خاص للورد هارتنجتون.

رايت جون برايت : عضو في وزارة جلادستون.

السيد إيه. إم. برودلى : مراسل جريدة التايمز فى تونس، يستخدمه المؤلف مدافعا قانونيا عن عرابى.

الجرنون بورك بتون.

السيد وليام كارترايت : من وزارة الخارجية، يحل محل ماليت فى الإسكندرية.

السير لويس نابليون كفاجنارى.

السيد إم . ب. كيف.

رايت كافيندش : اللورد فردريك، السكرتير الرئيسى، فى أيرلندا فى زمن وزارة جلادستون، اغتياله، وتأثير ذلك على السياسة المصرية.

رايت جوزيف شمبرلين : رئيس مجلس التجارة فى وزارة جلادستون، "الرجل العظيم المُسِن لا بد أن يقاتل".

الملازم شيرنجتون.

السيد شينرى : محرر في جريدة التايمز.

اللورد راندولف تشرشل.

المؤامرة الشركسية.

السير أوكلاند كودفن : مراقب مالى إنجليزى فى مصر، تصرفاته فى عابدين، علاقته بالصحافة، تعاطفه مع الحركة الوطنية، رسالته إلى عرابى عن طريق المؤلف، إدانته للإنذار المشترك، طلبه إلى المؤلف التوسط

بينه وبين النواب، "سيعمل من أجل التدخل والضم"، عرابى يشكو أوكلاند إلى مجلس الوزراء البريطانى، "حصوله على نوط الشرف"، نفوذه لدى ماليت، انتصاره الظاهرى، الأفكار فى جريدة التايمز، مناقشة مسئوليته عن إضراب الإسكندرية، رأى غوردون فى أوكلاند كولفن.

مؤتمر إسطنبول.

الدستور المصرى : وعد ماليت باحترام الدستور، إعلان الدستور، نص الدستور (الملحق رقم ٦).

السير شارلز كوكسون : قنصل فى الإسكندرية.

الكونت كورتى : سفير إيطاليا فى مؤتمر برلين.

هنرى كوبر.

السير فيليب كورّى : الذى أصبح لوردا فيما بعد، هو السكرتير الخاص للورد ساليبرى، رئيس وزارة الخارجية وسفير أيضًا، شقيقه برترام، وشقيقه جورج.

زيارة المؤلف إلى قبرص.

مؤتمر قبرص.

لورد دى لا وور.

درويش باشا : مبعوث تركى إلى مصر عام ١٨٨٢، أساليبه وطرقه من وجهة نظر مورلى "للتخلص من عرابى"، رشوته من قبل الخديو توفيق، موقفه من عرابى، مناقشة حيلته بإضراب الإسكندرية، حضوره مجلس الحرب فى الإسكندرية، هربه إلى إسطنبول.

الدكتور ديكسون : من السفارة فى إسطنبول، يحكى قصة وفاة السلطان عبد العزيز.

السير شارلز ديلك : وكيل وزارة الخارجية فى وزارة جلادستون، فى وزارة الخارجية، مساومته جامبيتا حول مصر، رفضه أن يكون سكرتيرا عاما لأيرلندا، "لا بد أن ينتهى الأمر بالتدخل"، "الأسطول لديه أوامر" رأى غوردون فى السير شارلز ديلك.

بنيامين دزرائيلى : أو اللورد بيكونزفيلد: شراء أسهم قناة السويس، مؤتمره الذى عقده فى قبرص، مشروعه الخاص بآسيا الصغرى، بنيامين دزرائيلى فى مؤتمر برلين، "السلام المشرّف"، النكتة الذائعة عن بنيامين دزرائيلى.

اللورد دفرين : سفير فى إسطنبول، مهمته فى مصر، الوصول مع برودلى إلى حل وسط فى قضية عرابى.

اللورد دونرافن.

الشيخ الإمبابى : شيخ الإسلام المصرى.

وادى الفرات : ترحال المؤلف فى ذلك الوادى، مشروع الخط الحديدى الذى عارضه المؤلف.

السيد إيفلين الوطونى.

رايت فاوست .

محمود الفلكى باشا : فلكى، كان عضوًا فى وزارة راغب باشا.

إم. دى. فريسنيه : رئيس الوزراء الفرنسى.

"مستقبل الإسلام" : كتاب من تأليف المؤلف.

إم. ليون جامبيتا : رئيس وزراء فرنسا، صداقته مع شارلز ديلك، تخوفه من نظرية الجامعة الإسلامية، مساومته ديلك على مصر.

مينوني غاريبالدى : يشكل قوة إيطالية لمساعدة عرابى.

النقيب وليام جيل : أحد أفراد إدارة الاستخبارات، ميمته لدى البدو.

أو. آى. رايت جلادستون : رئيس وزراء إنجليزى، جعله المؤلف الأولى بذلك الرجل، أراؤه المعادية للعدوان على مصر، المؤلف يتبادل معه الرسائل عن طريق هاميلتون، تعاطفه مع الحركة الوطنية المصرية، رسالته إلى عرابى من خلال المؤلف، رسم المؤلف لشخصية هذا الرجل، انشغاله بقضية أيرلندا، وعده بسياسة ليبرالية فى مصر، حديثه إلى البرلمان، "استباقه لعصره بجيل"، قلب الرجل يتحجَّر، رسالة المؤلف العلنية إلى جلادستون، "تحطيم طابعه الأخلاقى"، "ضميره شبيه بضمير يوجين آرام"، رسالة عرابى إلى جلادستون، رسالة برايت إلى جلادستون، مناشدة المؤلف من جديد لجلادستون، "سوف يستنكر الغطرسة المصرية"، المؤلف يطلب إليه محاكمة عرابى محاكمة عادلة، تفاهمه المزعوم مع عرابى، مجهوده الضعيف فى رفع الضرر وإصلاح الخطأ، تبادل المؤلف الرسائل مع جلادستون بصورة مباشرة.

السير آرثر جودلى : سكرتير خاص لجلادستون، [فيما بعد] رئيس المكتب الهندى.

الجنرال السير فردريك جولد سميد : رئيس إدارة الاستخبارات.

الجنرال جى. جى. غوردون : "هو غوردون الصينى" فى الخرطوم فيما بعد، نكات غوردون وظرفه، اعتبار الرجل مجنونًا من الناحية الرسمية، دوره سكرتيرًا خاصا لرايبون، رسائل غوردون إلى المؤلف، مساهمته فى صندوق الدفاع عن عرابى.

رايت جورج يواكيم جوش : حصل بعد ذلك على لقب لورد، مهمته الخاصة بحمل السندات فى مصر، عمله سفيرًا فى إسطنبول، حديثه مع المؤلف، حديثه عن مصر فى البرلمان.

اللورد جرانفيل : كبير سكرتيرى الشئون الخارجية فى وزارة جلادستون، سياسته القائمة على "التوانى"، توقيعه على الإنذار المشترك الذى أعده جامبتا، لغته مع المؤلف، "هل سيكف عن المطالبة بمناقشة مجلس النواب للميزانية؟" رسالة المؤلف إلى جرانفيل التى يطالب فيها بلجنة تحقيق، حديثه إلى اللوردات، "تهديد جيد مثل الضربة تمامًا"، وجود جرانفيل مع المؤلف فى هيرستبورن، رفض إنذار جرانفيل، مشاركته فى العمل على محاكمة عرابى.

السيد جرين : مؤرخ.

حرم جريجورى.

السير وليام جريجورى.

الشيخ محمد هليل الهجرسى : من مشايخ الأزهر.

الأمير حليم باشا : مطالب بمنصب الخديو.

السير إدوارد هاميلتون : السكرتير الخاص لجلادستون، [فيما بعد] رئيس الخزانة، مراسلات المؤلف مع جلادستون من خلال هاميلتون.

السير وليام هاركورت : سكرتير داخلى فى وزارة جلادستون.

السيد فردريك هاريسون.

اللورد هارتنجتون : [فيما بعد] دوق ديفونشاير، وزير دولة لشئون الهند فى وزارة جلادستون.

الأدميرال هيويت : تولى دور القيادة فى السويس.

السير آرثر هوبهاوس.

اللورد ريتشارد مونكتون هوتون.

السيد جورج هوارد : [فيما بعد] اللورد كارلسلى.

حرم جورج هوارد : [فيما بعد] حرم كارلسلى.

حسين بن عون : كبير أشراف مكة، مقتله.

الهند : زيارة المؤلف الأولى للهند، آراء المؤلف المعادية للاستعمار التى استوحاها فى سملا.

الخديو إسماعيل : شخصية الخديو إسماعيل، مطامحه، مصاعبه المالية، بيعه لأسهم قناة السويس، إسماعيل صادق ووفاته بسبب الخديو، توقيعه لإيصال عام ١٨٧٨،

تعامله مع نوبار وويلسون، عزله، وضعه للمؤامرة الشركسية، رأى السلطات فـي إسـماعيل باشـا، تشجيعه لحركة البنائين الأحرار.

إسماعيل صادق باشا : المفتش، وزير مالية إسماعيل باشا.

جدَّة : زيارة المؤلف لمدينة جدة.

الشيخ جمال الدين الأفغانى : شيخ وزعيم الإصلاح الدينى فى القاهرة.

الشيخ محمد الجزايرلى : شيخ من مشايخ الدين فى الجزائر.

الإنذار المشترك فى اليوم السادس من يناير ١٨٨٢ : شرح الإنذار بواسطة ريفرز ولسون، شرح الإنذار بواسطة ماليت لعرابى باشا.

سيد قنديل : رئيس الشرطة فى الإسكندرية، صـلته بمظـاهرة الإسكندرية.

معركة القصاصين.

كيا ميل باشا : أمير، ابن عم الخديو توفيق.

السير فرانسيس نوليس : السكرتير الخاص لأمير ويلز.

السير جيمس نويلز : محرر "جريدة القرن التاسع عشر".

اللورد باسيلى كوشرين لامنجتون.

السير فرانك لاسيلز : القائم بعمل الممثل الدبلوماسى فـى مـصر عـام ١٨٧٩، [فيما بعد] سفير لدى برلين.

السير ولفريد لاوسون.

السير هنرى ليوارد : سفير لدى إسطنبول.

السير هنرى أوستن لى : سكرتير ديلك الخاص، [فيما بعد] مدير قناة السويس.

ديليسبس	: مراسلاته مع عرابى (الملحق رقم ٧).
فردريك ليفسون جور	: شقيق جرانفيل وسكرتير خاص.
السيد لويل	: وزير أمريكى فى لندن.
عمر باشا لطفى	: من أنصار الخديو إسماعيل، محافظ الإسكندرية، صلته بمظاهرة الإسكندرية، وزير حربية.
السير ألفريد ليال	: رئيس الإدارة السياسية فى الهند فى ظل حكم ليتون.
اللورد ليمنجتون	: [فيما بعد] اللورد بورتسموث.
اللورد ليونز	: سفير لدى باريس.
اللورد روبرت ليتون	: الحاكم المناب فى الهند، أصبح بعد ذلك سفيرًا لدى باريس.
السيد ماكدونالد	: مدير جريدة التايمز.
محمود فهمى باشا	: ضابط، كبير مهندسى أحمد عرابى.
السير ألكسندر ماليت	: مبعوث إلى الاتحاد الجرمانى.
السير إدوارد ماليت	: القنصل العام فى القاهرة، أصبح بعد ذلك سفيرًا لدى برلين، شخصيته، آراؤه عام ١٨٨٠، تأييده لعرابى عن طريق الكتابة، رسالته التى أرسلها إلى علماء مصر عن طريق المؤلف، تأثير المؤلف عليه، موافقته على البرنامج الوطنى: نيابة المؤلف عنه فى الحديث إلى عرابى، شكواه من المؤلف إلى مكتب وزارة الخارجية، تفسيره للإنذار المشترك من خلال المؤلف، أمام عرابى "الحكومة

البريطانية لن تسمح للخديو بالإساءة إلى البرلمان"، تفويضه للمؤلف فى التعامل مع النواب المصريين، اختلاف المؤلف معه فى نهاية الأمر، المؤلف يشكو من سياسته إلى مجلس الوزراء البريطانى، وقوعه تحت تأثير كولفن، تآمره مع الخديو على الوزارة الوطنية، رسالته التى امتدح فيها الخديو توفيق، وعده لسلطان باشا باحترام البرلمان المصرى، مناقشة مسئوليته عن إضراب الإسكندرية، أمه السيدة ماليت توبخ المؤلف، المؤلف ينجح فى إصدار الأوامر له بالصعود إلى ظهر السفينة، سفره إلى أوروبا، رسالة أخيه التى نشرت فى جريدة التايمز، عمله فى أثناء محاكمة عرابى.

خان ميكوم : سفير إيرانى فى لندن.

الكاردينالماننج.

الأستاذ هنرى ميدلتون.

مدحت باشا : حديث المؤلف معه فى دمشق، محاكمته ووفاته.

أحمد باشا المنشاوى.

محمد بن الرشيد : أمير نجد، وزيارة المؤلف له.

محمد خليل : من أتباع الشيخ محمد عبده فى الأزهر.

جون مورلى : محرر بجريدة فورتنايتلى ريفيو، محرر جريدة "بول مول جازيت" ، تأثير كولفين عليه،

تأثيره على الحكومة، "السياسة العليا"، استخدامه أداة للمعلومات الزائفة، توبيخ المؤلف له، رفضه نشر رسائل محمد عبده، يعمل لصالح التدخل، موافقته على الأساليب التركية، كتابة "حياة جلادستون".

السير وليام موير.

مصطفى فهمى باشا	: من أصل جزائرى، ياور من ياورات الخديو إسماعيل، استخدم فى إلقاء القبض على المفتش، وزير الشئون الخارجية.
عبد الله أفندى النديم	: محرر صحفى وخطيب.
الشريف مارك نابير	: استخدمه المؤلف فى الدفاع عن عرابى، نابير فى مصر، مراسلاته مع المؤلف، البرنامج الوطنى عام ١٨٨١ (الملحق رقم ٥).
الأميرة نازلى	: ابنة عم الخديو توفيق.
السير آرثر نيكلسون	: سكرتير خاص للورد دوفيرين فى مصر، [فيما بعد] سفير فى سان بترسبرج.
السيد جون نينيه	: سويسرى مسن مقيم فى القاهرة، رسالته إلى المؤلف، تصرفه فى أثناء الحرب. شهادته على إضراب الإسكندرية، شهادته بعد قسم اليمين (الملحق رقم ٨).
جريدة "القرن التاسع عشر"	: مقال السيد جلادستون عن مصر فى الجريدة، دفاع المؤلف فى الجريدة.
أحمد عثمان نظامى باشا	: موفد إلى مصر عام ١٨٨١.

اللورد نورثبروك : فى البداية لورد الأدميرالية (البحرية) فى وزارة جلادستون، صلته بمهمة بالمر.

السيدة نوفيكوف.

نوبار باشا : وزير مالية أرمنى مع إسماعيل باشا، مسئول عن قروض الخديو إسماعيل، علاقته بولسون.

محمد بك عبيد : ضابط فلاح، قُتل فى التل الكبير.

السيد لورنس أوليفانت.

الأوبرا الفرنسية فى القاهرة : الإعانة التى كانت تحصل عليها ومقدارها ٩٠٠٠ جنيه إنجليزى.

عثمان رفقى باشا : وزير شركسى للحربية فى أثناء السيطرة الثنائية، علاقته بالمؤامرة الشركسية.

السير أوجستوس باجت : سفير لدى روما.

السيد إدوارد بالمر : أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج، مهمته فى القيام برشوة البدو.

حركة الجامعة الإسلامية.

البرلمان المصرى.

بطريرك الأقباط : مساند الحركة الوطنية.

السير جوليان فونسيفوت : وكيل وزارة فى وزارة الخارجية، ثم سفير فيما بعد لدى واشنطون.

اللورد جورج بمبروك.

بلاد فارس : ترحال المؤلف فى بلاد فارس، الإصلاحات التى جرت فى بلاد فارس.

السيد جون هنجر فورد بولن : سكرتير خاص لرايبون.

عزيمة عند أهرامات الجيزة.

الملكة فيكتوريا.

راغب باشا : مسلم من أصل يونانى، وزير فى أثناء حكم إسماعيل، رئيس الوزراء فى يوليو عام ١٨٨٢.

أحمد باشا راتب : ياور السلطان عبد الحميد، حديثه مع عرابى فى الزقازيق، يكتب الرسائل التى يرسلها السلطان إلى عرابى.

راتب باشا : صهر شريف باشا، عميل سابق للخديو فى مصر.

السير هنرى راولنسون : وزير فى بلاد فارس.

السيد ستيوارت رندال : [فيما بعد] لورد.

وكالة رويتر.

رياض باشا : رئيس وزراء فى ظل السيطرة الثنائية، شخصيته، عمله فى مسألة قصر النيل، غيرة توفيق من رياض باشا، المطالبة بطرده فى عابدين، رئيس الوزراء بعد قصف الإسكندرية بالقنابل، إصراره على إعدام عرابى.

أحمد بك رفعت : مدير مكتب الصحافة المحلية وسكرتير الحكومة، روايته عن مظاهرة الإسكندرية.

عثمان بك رفعت : ياور لتوفيق باشا، استخدامه لرشوة ضباط عرابى.

إم. دى. رنج : قنصل فرنسى عام فى القاهرة.

اللورد رايبون : حاكم مناب فى الهند.

اللورد روزبرى : رئيسًا للوزراء فيما بعد.

اللورد ناثا نيل روتشيلد.

آل روتشيلد : تقديم المال اللازم لشراء أسهم قناة السويس، قرض الممتلكات الذى يقدر بحوالى ٩ ملايين جنيه إنجليزى، حصولهم على عون بسمارك لهم ضد إسماعيل باشا، الأزمة التى أثارها آل روتشيلد عام ١٨٨٢، العمل مع الحكومة الفرنسية، العمل مع الحكومة الألمانية، عرضهم المعاش على عرابى.

على بك الروبى : ضابط فلاح فى القيادة فى التل الكبير.

لويس صابونجى : محرر جريدة النحلة، مرافقته للمؤلف إلى القاهرة، قيامه بمهمة خاصة كلفه بها المؤلف إلى القاهرة، مراسلاته مع المؤلف، حواراته مع الزعماء الوطنيين، وصفه لعملية القصف.

سعيد باشا : والى مصر، حكمه الزاهر، محاباته للضباط الفلاحين، عرابى ياوره ومساعده، وفاته.

إم. دى. سينت هيلير : وزير الخارجية الفرنسية.

ماركيز سالبيرى : وزير الخارجية فى وزارة دزرائيلى، ثم بعد ذلك رئيس الوزراء: آراؤه فى سوريا، إرساله ريڤرز ولسون إلى مصر، حضوره مؤتمر برلين، ترتيباته مع وادنجتون بخصوص تونس، دفاعه وتأييده للتدخل فى مصر، ما يتصل بنقود الخدمة السرية.

محمود باشا سامى البارودى : من أسرة شركسية قديمة، دستورى عام ١٨٧٩، وزير فى زمن السيطرة الثنائية، وزير الحربية، مصادقته للضباط الفلاحين، إعادته وزيرًا للحربية، موافقته على البرنامج الوطنى، ميزانيته للجيش، رئيس للوزراء، خطابه عند التعيين (الملحق رقم ٦)، دستوره فى فبراير عام ١٨٨٢ (الملحق رقم ٦). خططه الإصلاحية، استدعاؤه النواب إلى القاهرة، استقالته من منصبه، أفكاره السياسية، فشله فى القصاصين، إلقاء القبض عليه ومحاكمته، والحكم عليه بالإعدام، ونفيه.

السير توماس ساندرسون : [فيما بعد] لورد، والسكرتير الخاص للورد جرانفيل، ثم بعد ذلك رئيس وزارة الخارجية.

الشيخ سعود الطحاوى : رشوته فى التل الكبير.

الكونت شوفالوف : سياسى روسى.

السير جون سكوت : مراسل لجريدة التايمز.

الأدميرال السير بوشامب سيمور : لورد ألسستر، لديه أوامر بمنع نزول المؤلف إلى أرض مصر، وفاة خادمه ستراكت، تصرفه فى أثناء إضراب الإسكندرية، قصفه للإسكندرية بالقنابل.

السيد هوراس سيمور : سكرتير جلادستون الخاص.

السيد جورج شيفيلد : سكرتير خاص لليونز.

حسن الشريعى باشا : أحد الأعيان الأقوياء، دستورى ونائب.

شريف باشا : من أصل تركى، زعيم دستورى فى مصر فى أثناء حكم إسماعيل باشا، وزير فى أثناء السيطرة الثنائية، رئيس وزراء بعد حادث عابدين، شجاره مع النواب، وصف المؤلف له، استقالته من منصبه، إعادته رئيسًا للوزراء بعد الحرب.

الشيخ عبيد : حديقة منزل المؤلف فى مصر.

محمد سيد أحمد : خادم أحمد عرابى، روايته عن التل الكبير.

إم. أمبرواز سينادينو : مصرى يونانى فى الإسكندرية، وكيل آل روتشيلد فى مصر.

شبه جزيرة سيناء : ترحال المؤلف فيها.

إم. دى. ستكويكس : القنصل الفرنسى العام فى القاهرة.

تجارة العبيد فى مصر.

جريدة "الأسبكتاتور" : رسائل المؤلف العربية.

اللورد هنرى ستانلى الألدرلى : شقيقه ليولف.

المقدم ستيوارت : كان بصحبة غوردون فى الخرطوم فى مرحلة لاحقة.

السير جون ستراشى : وزير مالية ليتون فى الهند.

اللورد ستراتفورد ردكليف : قناة السويس.

سلطان باشا : أحد الأعيان الفلاحين الأقوياء ودستورى، تحالفه مع عرابى عام ١٨٨١، رئيس مجلس النواب، رسالته إلى جلادستون، اجتماع النواب فى منزله،

غيرته من عرابى، وقوفه إلى جانب الخديو، برقية المؤلف له، وعد ماليت له، تخليه فى النهاية عن الحزب الوطنى، استخدامه فى تقديم الرشوة فى أثناء الحرب، مكافأته بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه إنجليزى، يتوفى آسفًا.

السلطان العثمانى.

سوريا : ترحال المؤلف فيها.

التل الكبير : حملة التل الكبير، معركة التل الكبير، الخونة.

اللورد تنتردن : وكيل وزارة الخارجية.

الخديو توفيق : تاريخه وشخصيته الباكرة، توليه منصب الخديو، وعده بالدستور، رفضه توقيع الدستور، تآمره على الضباط الفلاحين، علاقته بعرابى، "أنتم الثلاثة جنود، ومعى سنكون أربعة"، غيرته من عرابى، تآمره فى عابدين، وعده بالدستور للمرة الثانية، عدم وثوق النواب به، رأى ريفرز ولسون فى توفيق، رأى ماليت فى توفيق، رأى عبد الحميد فى توفيق، توقعيه لدستور فبراير عام ١٨٨٢، رفضه نفى المتآمرين الشراكسة، خلافه مع الوزارة الوطنية، رشوته درويش باشا، صلته بمظاهرة الإسكندرية، لعبه دورًا مزدوجًا مع عرابى، مسئوليته عن القصف، تصرفه فى أثناء ضرب الإسكندرية بالقنابل، احتماؤه بالإنجليز، استنكار سلوكه وأعماله فى القاهرة، اتهامه عرابيا بالتمرد، إرساله سلطان باشا فى مهمة رشوة، إعادته إلى

الحكم بواسطة ولسلى فى القاهرة، إصراره على إعدام عرابى، زبانيته يسبون عرابيا فى السجن، الكشف عن أفعاله فى أثناء محاكمة عرابى.

التايمز : وضعية السير وليام جريجورى مع محرر الجريدة شينرى، مراسلوها فى مصر، نشرها للبرنامج الوطنى، الجريدة الرئيسية فى أوروبا، أول رسائل المؤلف التى أرسلت إلى هذه الجريدة، علاقة ألجيمون بورك بالمؤلف، الكتّاب الذين تربطهم صلة بالجريدة، والتر مالك الجريدة، زيارة إلى مكتب الجريدة، ماكدونالد مدير الجريدة، اتصالات المؤلف بالجريدة، مساعدة الجريدة فى أثناء محاكمة عرابى.

طلبة باشا : قائد حامية الإسكندرية، ثم بعد ذلك قائد الحامية فى كفر الدوار، وجرى نفيه مع عرابى.

المحاكم الدولية : عرابى يشكو.

تونس : الغزو الفرنسى لتونس.

الملكة فيكتوريا : خطاب جلالتها، فى افتتاح برلمان عام ١٨٨٢ والذى أُرسل للمؤلف من قبل جلادستون، دعوة جلالتها بمناسبة عيد ميلادها، الدعوة إلى منزل مارلبورو للقاء جلالتها.

السير هوارد فينسنت.

اللورد كرسپجنى ففيان : قنصل عام فى مصر، أصبح بعد ذلك سفيرًا لدى روما.

إم. وادنجتون	: سفير فرنسا لدى لندن، فى مؤتمر برلين، اتفاقه مع سالسبيرى حول تونس.
أمير ويلز	: حاليا الملك إدوارد السابع، إرسال المؤلف لرسائل جلادستون إلى أمير ويلز، منزل مارلبورو، إرسال المؤلف رسائل عرابى إلى أمير ويلز.
السير دونالد ماكينزى والاس	: مراسل جريدة التايمز فى إسطنبول.
اللورد ونتورث	: فيما بعد اللورد لافلاس، صهر المؤلف.
الجنرال السير شارلز ولسون	: قنصل فى آسيا الصغرى، ثم بعد ذلك فى القاهرة والخرطوم، صلته بمحاكمة عرابى، شهادته على إضراب الإسكندرية.
السير ريفرز ولسون	: وزير المالية فى مصر.
"الريح والعاصفة"	: قصيدة للمؤلف (الملحق رقم ٩).
السير هنرى درموند ولف	: إيفاده بعد ذلك سفيراً إلى مصر.
السير جارنيت ولسلى	: لورد فيما بعد، فى قبرص، مناقشته لخطط الحملة مع المؤلف، مفكرة الجندى، حملته على مصر، نيته فتح النار على عرابى.
يعقوب سامى باشا	: مسلم من أصل يونانى.
الشيخ محمد ظافر	: السكرتير المكلف بمراسلات السلطان السرية، رسالته إلى عرابى.

ملاحق الطبعة الثانية

أولاً: الرسائل المتبادلة مع السير شارلز ديلك بارت فيما يتعلق بأصل الإنذار المشترك المؤرخ يوم السادس من يناير، عام ١٨٨٢

من السير شارلز ديلك إلى محرر جريدة "المانشستر جارديان"

سيدى،

فى عرضك لكتاب من الكتب التى ألفها ولفريد بلنت تقول: "يعـزو السـيد بلنت مسئولية خطيرة عن بداية سياسة التهديد التى كان من الطبيعى تماما أن تؤدى إلى الحرب ثم الغزو، يعزوها إلى سياسيين متحابين همـا السـير شـارلز ديلـك وجامبيتا". أنت تشير فى الجملة التالية إلى أنى متهم من السيد بلنت "بأنى قايضـت مصر مع أصدقاء جامبيتا الماليين بالمعاهدة التجارية مع فرنسا والتى كان يركـز عليها وكيل وزارتنا جل اهتمامه". هذا التصريح يرد بصورة واضـحة ومباشـرة بطريقة موجزة وذلك على العكس من الصورة التى ورد عليها هذا التصريح عنـد السيد بلنت، وهذا الأمر يجعلنى أقول باختصار إن هذه الإشارة لا أساس لها.

هذا الزعم ساقه المرحوم السير إيليس Ellis أشميد بارتلت، فى كثيـر مـن الأحيان، فى خطبته التى ألقاها فى مجلس العموم وفى المقالات التى كتبها لجريـدة "إنجلترا" England وبعض الجرائد الأخرى، وفى ردى على السـير إيلـيس فـى مجلس العموم وضعت أمامهم الحقائق بالشكل الذى أكرره هنا الآن.

دون أن أقول رأيى فى المسألة التاريخية الخاصة بأهميـة أو عـدم أهميـة الإنذار المباشر أو أنه كان نتيجة حتمية لبعثة كيف Cave، وبعثة جوشن Goschen، والمراقبة الثنائية، يتعين علىَّ هنا القول: إن هذا العمل كان ناتجـا عـن مجلـس

الوزراء قبل أن أصبح أنا عضوًا فى هذه الهيئة، وإنه نظرا لغيابى فى باريس باعتبارى منضمًا للجنة الملكية الخاصة باتمام إبرام المعاهدة مع فرنسا، فأنا لم أستمع – وهذا على العكس مما كان ينبغى عمله – إلى المفاوضات إلا بعد أن اكتملت. لم تجر مناقشة الشئون المصرية بينى وبين جامبيتا. يزاد على ذلك أنى كنت بعيدا تماما عن "تركيز اهتمامى" على هذا الأمر، ولكنى كنت أركز اهتمامى على مفاوضات المعاهدة التجارية، إلى حد أن رفاقى الذين كانوا معى فى باريس، وكلهم لا يزالون على قيد الحياة، ومنهم رئيس الإدارة التجارية فى ذلك الوقت، والذى عن طريقه استطعنا الاتصال بوزارة الخارجية ومجلس التجارة فيما يختص بالتفاصيل، وأنا معهم، ولم نكن ميالين من البداية إلى إبرام المعاهدة وتفضيل أى شىء على هذا الأمر الذى يحبذه السواد الأعظم من الأمة. كنت أتوقع حدوث ذلك كله بعد حصولنا عن طريق النقاش والحوار على كل مزايا التعريفة الفرنسية فيما يتعلق بالمزايا التى كنا نحس أننا قادرون على إقناع الحكومة الفرنسية بها.

كنت قد خرجت عن الطريق الذى حددته لنفسى فى مجلس العموم، فى أثناء تواصل المفاوضات المطولة، ووصل بى الحال أنى قلت: إنى لن أوقع معاهدة لا تحقق أمرين أو شرطين:

(أ) أن تكون هذه المعاهدة منطوية على المزيد من التحسين بشكل عام، وأن يكون ذلك التحسين أكثر من التحسين الذى ترتب على التخفيضات التى طرأت مؤخرا، على أن تكون أكثر من المزايا التى ترتبت على معاهدة كوبرن.

(ب) أن المعاهدة ينبغى ألا تضحى بأى فرع رئيسى من أفرع التجارة البريطانية.

فيما يتصل بالشرط الأول، فقد تحقق عن طريق المفاوضات، لكن الشرط الثانى، على الرغم من تحققه فيما يتصل بالمنسوجات، لم يتحقق فى أى وقت من الأوقات فى مجال صناعة سكاكين المائدة فى شيفلد، وبعض المكونات الأخرى فى تجارة التصدير.

والذى لا شك فيه أن إطالة أمد المفاوضات هو الذى جعل زملاءنا فى اللجنة العليا الفرنسية، فى ظل إدارتين فرنسيتين متتاليتين يظنون أننا مصرون على توقيع المعاهدة، كان الجانبان يسلمان أننا كنا فى وضع يسمح لنا بتوقيع معاهدة يمكن الدفاع عنها بشكل عام. لقد نتجت إطالة أمد المفاوضات عن الحقيقة التى مفادها أن السواد الأعظم من الدول الأوروبية كانت تتفاوض مع "فرنسا" من "وراء ظهرنا" على حد القول الشائع. كنا على اتصال يومى مع ممثلى هذه الدول. ونظرا لإعطاء بعض الامتيازات بسبب الضغوط الصادرة عن مصالح معينة فى فرنسا، ونظرا لأن هذه المصالح كانت تعنى وتخص التجارة البريطانية بصفة أساسية، فإن زملاءنا الفرنسيين أعطونا هذه الامتيازات فى المفاوضات السويسرية والمفاوضات الأخرى. أخيرا، عندما وقع الفرنسيون المعاهدات مع سويسرا، ودول أخرى متعددة، أصبحت الحكومة الفرنسية وجها لوجه مع حتمية إعطائنا كل هذه التغييرات التى طرأت على تعريفتهم على شكل قانون الدولة الأولى بالرعاية أو معاملتنا بطريقة غير ودية، وهذا أمر غير مضمون. كان الناس يظنون أن رفضنا توقيع المعاهدة سيعود على تجارتنا بمعاملة غير طيبة، مثل المعاملة التى لقيناها من إسبانيا طوال فترة زمنية قصيرة. على الجانب الآخر، سادت الحكمة المجلس التشريعى الفرنسى، (وبعد قطع المفاوضات فى نهاية المطاف، وبعد توقيع المعاهدات الأخرى من قبل فرنسا أعقبت ذلك فترة سكون) وصدر قانون على وجه السرعة، أعطانا ميزة الدولة الأولى بالرعاية، دام إلى يومنا هذا، وعلى الرغم من رفع مستوى الرسوم المتدنى من قبل الدول كلها فى السنوات التى تلت ذلك. ولم يحدث فى أى وقت من الأوقات أن سمح للسياسة المصرية بالتأثير على العلاقات التجارية للدول.

المخلص

شارلز ديلك

من السيد بلنت إلى السير شارلز ديلك

نيوبلدنجز بليس،

سسكس

فى التاسع والعشرين من يونيو عام ١٩٠٧

عزيزى السير شارلز ديلك،

طالعت رسالتك المنشورة فى جريدة "مانشستر جارديان"، وقبل أن أقول عنها أى شيء، أوجه كلامى لك شخصيا.

أنا لست بحاجة إلى أن أتأسف لك إن كنت ظلمتك فى مبالغتى عن مسئوليتك عن الأحداث التى وقعت عام ١٨٨٢، وأقول لك إنى على استعداد لنشر كل ما تراه ضروريا لإحقاق الحق. كل هدفى هو سرد هذه الأحداث سردا دقيقا بلا زيادة أو نقصان، وأنت إذا ما أمكنك مساعدتى على الوصول إلى رواية أدق لذلك "الإنذار الثنائى"، فسوف أكون سعيدا لإدراج هذه الرواية ضمن طبعة الكتاب الثانية، التى يرجح لها الصدور فى فصل الخريف، والنقاط التى أود منك توضيحها هى كالآتى:

١- فى عدد شهر سبتمبر من جريدة "القرن التاسع عشر" عام ١٨٨٢، أصدرت التصريح نفسه فيما يتعلق بصلتك وعلاقتك "بالإنذار المشترك" بالصورة التى ورد عليها ذلك التصريح فى كتابى، دون أن تبدى – على حد علمى – أية ملاحظة عن ذلك التصريح فى ذلك الوقت. لكن تقول: إنك أنكرت مثل هذا التصريح مرارا، وبخاصة ذلك الذى صدر عن المرحوم السير إيليس Ellis بارتلت. هل تدلنى على مكان وجود ذلك الإنكار؟ أقصد التاريخ التقريبى لذلك الإنكار؟ وأنا، على ما أتذكر، لم

يحدث بيني وبين أشميد بارتلت أي اتصال مطلقا حول أي شأن عن الشئون المصرية، كما لا أذكر أيضا إثارة الرجل لهذا الأمر. لو عرفت أنك أنكرت ذلك التصريح، لأوردت ذلك في كتابي.

٢- الدليل الطارئ، إن كان لي أن أسميه بهذا الاسم، عن وجود علاقة بين سياسة الإنذار المشترك ومفاوضات المعاهدة التجارية، قوي إلى الحد الذي يصعب معه قبول ذلك الإنذار على أنه حقيقي. لاحظت في رسالتك التي أرسلتها إلى جريدة "المانشستر جارديان" أنك لا تقول إنه لم تكن هناك مساومة حول هذا الأمر. فيما يخص مصر فإن هذا الإنذار لم يكن من خلالك. هل سيصل به الأمر إلى حد القول إنه لم تكن هناك مساومة، أي عدم وجود صلة بين السياستين؟

٣- أنا لا أفهم تماما السبب الذي يحتم عليك القول إنك عشية غيابك في باريس لم تسمع عن المفاوضات التي دارت حول الإنذار المشترك إلا بعد أن اكتمل. المؤكد فعلا أن ذلك التفاوض جرى في باريس بين جمبيتا واللورد ليونز. وعلى الرغم من أنك لم تكن عضوا في مجلس الوزراء، فإنك كنت وكيل وزارة للشئون الخارجية، ولذلك كان يتوقع من اللورد ليونز أن يراجع الأمر معك. وهذا يجعلني أطلب منك تفسيرًا لذلك بدلا من ذلك التفسير الذي أرسلته في رسالتك إلى جريدة "مانشستر جارديان".

هذه كلها مصاعب، أنا على ثقة من أنك لن تظن أني فضولي إذا ما سألتك عنها. وعلى أي حال، هأنذا قد خاطرت وتجرأت على ذلك، وأنا هنا أؤكد لك أنني سوف أكون سعيدا جدا عندما أقول: إني كنت مخطئا عندما عزوت لك نصيبا كبيرا من المسئولية عما حدث عام ١٨٨٢.

أرجو أن تصدق المخلص جدا

ولفريد سكاون بلنت

من السير شارلز ديلك إلى السيد بلنت
(علق عليها السير شارلز قبل النشر)

(خاص)   ٧٦ سلوان ستريت، إس. دبليو.

الأول من يولية عام ١٩٠٧

سيدى العزيز،

أنا لا أظن أنك "ظلمتنى"، النقطة التى كتبت أنا عنها لجريدة "مانشستر جارديان" هى نقطة تاريخية ليس إلا. الموضوع فيه شيء من الأهمية وأفضل رد أقوله هو أنى حتى وإن كنت انتويت إبرام معاهدة تجارية، فذلك يعنى أنى أنجزت ما نويت، لكنى أرى أنه لا يجوز الربط بين الموضوعين، حتى ولوكان كل من جلادستون واللورد جرانفيل قد تبنىَّ وجهة النظر هذه. أنا لم يخطر ببالى فعل ذلك، وأنا أعتقد أن هذا الربط جاء في مرحلة متأخرة تماما، وأن هذا الربط جرى بناءً على اقتراحات آخرين. وعلى أى حال فأنا لا أنظر إلى هذا الأمر من وجهة نظر الظلم أو العدل(٣٢).

فيما يتصل بالإنذار المشترك، كنت أؤكد دوما فى مجلس العموم، وليس لدى رأى غير ما قلته، أن ذلك الإنذار جاء نتيجة طبيعية للسياسة المشتركة السابقة. أنا أتصور أن هذا الإنذار انتقل من جامبيتا إلى حكومتنا، وأنا شخصيا لم أكن موافقا على السياسة السابقة. يضاف إلى ذلك أننى لم يعجبنى العمل الوحيد الذى جاء نتيجة حتمية، وكان علىَّ أن أعمل الكثير فى أن تشارك إيطاليا معنا إذا ما تطلب الأمر ذلك.

---

(٣٢) كلمة "الأمر" هنا لا تعنى المسألة المصرية، لكن كلمة "الظلم" تعود على الرسالة.

سوف أسبب لنفسى كثيرا من المتاعب لو أننى رحت أجـوس بحثـا عـن مختلف المناسبات التى أدلى خلالها أشميد بارتلت بتـصريح يـربط المفاوضـات التجارية بالإنذار المشترك، لكن انطباعى مفاده هو أنه كانت هناك مناسبات كثيرة، وأن تلك المناسبات استمرت طوال دورة انعقاد البرلمان، أى إلى عام ١٨٨٥. وأنا أستطيع البحث خلال (سجلات البرلمان) Hansard's لأتبين ما إذا كان قـد جـرى تدوين هذه التصريحات فى تقارير، والأرجح أنه جرى تسجيلها[٣٣].

وردا على البند (٢) أشعر وكأنه لم تكن هنـاك أيـة صـلة بـين جـولتى المفاوضات، ولم يكن هناك أى نوع من المساومة، وفيما يلى أورد حقيقة لها علاقة وثيقة بهذا الأمر. أفضل العروض التى حصلنا عليها من فرنسا كان ذلك العـرض الذى سبق الإنذار المشترك، وبخاصة العرض الذى قُدِّم فى ليون ساى بعد المؤتمر الخاص الذى عقد بينى وبين السفير الفرنسى: وذلك عقب تشكيل الحكومـة عـام ١٨٨٠. صحيح أن معى أصل هذا العرض لكنك ستجد صورا من هذا العرض فى الكتاب الأول من سلسلة الكتب الزرقاء الخاصة بالمعاهدة التجارية. انسحبت الغرفة الفرنسية بصورة متدرجة من مقترحات ليون ساى، ولم تعـد مطلقـا إلـى هـذه المقترحات إلى أن وصلت المفاوضات إلى مراحلها الأخيرة، وكان ذلك بعد الإنذار المشترك بفترة كبيرة، أى قبل أن أفض المفاوضات وأنهيها.

ردا على البند (٣) لا بد من أن يكون اللورد ليونز كان يتصرف – إن كان قد تصرف نظرا لأنى لم أكن متأكدا ما إذا كان الإنذار المشترك قد جرى إقـراره فى باريس أو لندن – طبقًا لتعليمات مجلس الوزراء، كما أنه لـم يطلعنـى علـى الإنذار المشترك قبل إقراره.

---

(٣٣) أبقيت على ما ذكرته هنا، على الرغم من أن التحريات التى أجريت بعد ذلـك أثبتـت أن التـصريح الرئيسى الذى جاء ردا على أشميد بارتلت إنما ورد ضمن رسالة إلى إحدى الصحف دوّن فيها الرجل رأيه، وأن النقاش البرلمانى الذى كان فى ذهنى إنما كان يتصل بالنقاش البرلمـانى الـذى دار عـام ١٨٩٢، وليس كما ورد فى الرسالة، قبل عام ١٨٨٥.

أنا لست راغبا فى تفنيد أية "مسئولية" من المسئوليات، رسالتى كانت مجـرد رسالة تاريخية وكانت لها علاقة بالنقطة التى كان مصرحًا لـى بـإدلاء الحقـائق عنها، أو أكون فعلت هذا على مسئوليتى الخاصة فى مجلس العموم، وأنا نفسى لا أعتقد أن الوقت قد حان كى أكتب عن المسألة المصرية بشكل عام. لكنى سـجلت ملاحظات كاملة عن هذا الموضوع، الذى جرى الاتفاق على أنه يمثـل الحقـائق تمثيلا دقيقا عند أولئك الذين لهم رأى مختلف عن رأيى، والتى يمكن أن ترى النور فى يوم من الأيام.

المخلص جدا

شارلز دبليو. ديلك

من السير شارلز ديلك إلى السيد بلنت

٧٦، سلوان ستريت، إس. دبليو.

فى الحادى عشر من يولية عام ١٩٠٧

سيدى العزيز،

بعد أن اطلعت على بعض أوراقى، أرى أن أفضل العروض التى حـصلنا عليها إلى الآن من الفرنسيين هى تلك العروض التى قدمت لنـا فـى مـايو عـام ١٨٨٠. وأظن أن الإنذار المشترك كان فى يناير عام ١٨٨٢.

الكتاب الأزرق، التجارى رقم ٣٧ عام ١٨٨١، يوضح تمامـا المفاوضـات التى جرت بينى وبين كبار المفوضين الفرنسيين فى مايو، كمـا يـسجل الكتـاب الأزرق أيضا ذلك الذى حصل فى اللقاءات الستة عشر للجنة المشتركة فى لنـدن.

والحكومة الفرنسية عندما اقترحت علينا الاجتماع مرة ثانية في باريس في أغسطس، جعلتنا نقدم الأسباب التي تجعلنا لا نعاود الاجتماع إلا بعد الحصول على تأكيدات محددة من الفرنسيين. وبعد حصولنا على تلك التأكيدات أوضحنا أنها تضمن استمرار المفاوضات، على الرغم من أنها قد لا تسفر عن إبرام المعاهدة المحتملة، وبعد أن صرح الفرنسيون في أغسطس أن امتيازاتهم لا تعد أمورًا نهائية، وافقنا على استئناف المفاوضات.

الكتاب الأزرق التالي، التجاري رقم ٩ عام ١٨٨٢ يوضح ذلك الذي دار في الاجتماعات التي عقدت في باريس إلى الاجتماع السادس والثلاثين عام ١٨٨١، كما يحتوي الكتاب أيضا على مذكراتي الكاملة عن حواراتي مع رئيس الوزراء جامبيتا، في أواخر ذلك العام. وفي اليوم الحادي والثلاثين من ديسمبر أبلغت حكومتي أن من العبث إطالة أمد الاجتماعات، وأننا نقترح عودتنا فورا إلى لندن، وفي اليوم الرابع من يناير صرح الفرنسيون أنهم يرون أن "مجال التفاوض أصبح مغلقًا". على الرغم من أني أضفت أني أحسب أن بالإمكان الحصول على المزيد من الامتيازات وبخاصة في مجموعة البضائع الصوفية. وبعد مغادرتنا باريس في اليوم السابع عشر من يناير كتب اللورد ليونز تقريرا عن الموقف الفرنسي وأنه لا يزال غير مرضٍ، وفي اليوم السادس والعشرين من يناير عام ١٨٨٢، كتبت لجنتي من خلالي إلى اللورد جرانفيل أن الامتيازات الفرنسية لم تكن كافية لتغيير رأيي فيما يتصل بعدم حكمة المعاهدة.

(خاص)

في اليوم السابع من فبراير، وصلتني رسالة خاصة من اللورد ليونز يقول فيها إنه قام نيابة عني بإبلاغ الحكومة (الفرنسية) الجديدة بصورة واضحة مساء هذا اليوم، أننا لا يمكن أن نقبل مقترحات جامبيتا الأخيرة، وأجد في رسالة خاصة من رسائل اللورد ليونز، بتاريخ الثالث من فبراير، أن ليون ساي اشترط إشراك الحكومة حتى لا تتراجع الحكومة الجديدة عن الامتيازات التي أمكن التوصل إليها. هذه الامتيازات لم تكن كافية، كما سبق أن قلت.

راجعت أيضا الرسائل الخاصة التي وصلتني من جلادستون، ومن تشمبرلين ومن جامبيتا في يناير عام ١٨٨٢ ووجدت أن هذه الرسائل لا تحتوي على أية إشارة إلى الإنذار المشترك أو حتى المسألة المصرية.

اكتشفت أني ألقيت خطبة في ذلك التاريخ، وأن تلك الخطبة كانت تعارض المراقبة المشتركة وكل ما ترتب عليها، واكتشفت أن الخطبة كان يمكن أن تكون أقوى مما كانت عليه لو أن المخطوطة الأصلية (التي لدي بالفعل) لم يجر تعديلها بواسطة اللورد جرانفيل بزعم مفاده أنه في الوقت الذي يوافق فيه على ما أردت قوله، فإنه في مثل هذه "الأمور الخطرة يفضل أو يستحسن تجنب الانزلاق في مسألة المراقبة أكثر من اللازم". ووافق الرجل في ذات الوقت على أنه من "الصواب الاقتباس عن معارضتك في ذلك الوقت، وافتقارنا إلى المسئولية المطلوبة لتحمل موقف فُرِضَ علينا".

تصفحت أيضا المطبوعات السرية الخاصة بهذا الموضوع الخاص بأصل الإنذار المشترك (جامبيتا في ١٥ ديسمبر)، وتصفحت أيضا تفسير اللورد جرانفيل الذي مفاده أني "لم أنود أو أشير إلى أي تغيير في السياسة". أعتقد أنه من الواضح أن ذلك كان رأي اللورد جرانفيل، وأن الإنذار المشترك لم تعلق عليه أهمية كبيرة في ذلك الوقت أكثر مما حدث بعد ذلك.

وأنا أعتقد أنك الآن اقتنعت تماما أن فحص الوثائق العامة يؤكد تذكري الواضح، واعتقادي الذي مفاده أنه لم تكن هناك أية محاولة أو مساومة مبنية على اعتبارات سياسية أو على المسألة المصرية بصفة خاصة.

المخلص جدا

شارلز دبليو. ديلك

ملاحظة: بعد تَلَقِّي الرسالة الثانية من هاتين الرسالتين، كتبت إلى السير شارلز ديلك، أطلب منه السماح لي بطبع الرسالتين في الطبعة الثانية من الكتاب.

وردّ عليّ الرجل في السادس عشر من يولية قائلاً: على الرغم من أنه لم يفكر في النشر عندما كتب هاتين الرسالتين، وعلى الرغم من وجود بعض الأشياء في الرسالتين، وعلى الرغم أيضا من احتواء الرسالتين على بعض الإشارات إلى بعض الصحف المملوكة للتاج، ولكثير من الأشياء التي تندرج تحت بند السرية بناء على قانون السرية الرسمى، فإنه سوف يدرس إمكانية إحداث شيء من التعديل في التحرير حتى يمكن نشر هاتين الرسالتين. هذا يعنى أن المسألة مسألة شكل أكثر منها أي شيء آخر في عدم نشر الحقائق الواردة ضمن هاتين الرسالتين على الملأ. وأردف الرجل قائلا:

"فيما يتصل بالحوار الذى دار بينى وبين أشميد بارتلت، فقد فشل البحث غير الدقيق في الكشف عن المقتطفات التى كنت أنتظر العثور عليها. وذاكرتى تعى ما لا يقل عن مناسبتين، لكن التقرير قد لا يكون كاملا، ويصعب الحصول عليه تماما. قيل إن عبارتى شديدة التحديد التى تتعارض مع تأكيد الرجل وردت في رسالة أرسلت لجريدة من الجراند،والأرجح أن هذه العبارة كانت حول مقال نشر في جريدة "إنجلترا"،وأخشى أن يكون الحصول على هذا المقال عملية صعبة. الأمر لم يتبلور بعد، نظرا لأن التناقض قد يكون مرتكزًا في ذلك الوقت على البحث أو التذكر كما هو الحال في رسائلي إليك، وأنا أستطيع القول، في غياب المقتطفات أو الرسالة المنشورة، إنى عارضت بالفعل هذه الرسالة، في وقت قريب جدا من التاريخ الذى قمت فيه بالرد على أشميد بارتلت، وهذا أمر أنا متيقن منه. وعلى الرغم من ذلك يصبح ذلك التناقض أو الاعتراض واضحا أو كاملا لو كان جديدا تمامًا".

عقب ذلك، تلقيت في العاشر من أغسطس ردا من السير شارلز ديلك. يسمح لي فيه بنشر الرسالتين مع بعض التعديلات والملاحظات الطفيفة، شريطة أن أوضح الظروف التي دعته إلى تلبية طلبي. يكتب السير شارلز ديلك:

"الحكمة من وراء نشر هاتين الرسالتين، أى علـــى الاتجـــاه الذى تود أنت توجيههما إليه أولا وآخرًا وأنا أثق بك فى هذا الأمر، وأتركه لحكمتك وتقديرك. لكن أنت تعرف أنى أختلــف عنــك فـــى اعتقادى أن الوقت لم يحن بعد للكتابة عن الفترة التـــى تتناولهـــا. أعتقد أنك، وأنت تستعمل هاتين الرسالتين، يجب أن توضح أن هذا هو رأيى، وأنى أتناول الموضوع من جانـــب محـــدد، فـــى ضـــوء الحقائق التى يمكن الكشف عنها، استهدافا لتصحيح انطباع خـــاطئ. وهنا أجدنى أرى أن من الأفضل أن تضع كلمة "خاص" فى الحالين، وتقول إنه فى ظل هذه الظروف لا أجدنى مضطرًا إلى رفض طلبك، بنشر هاتين الرسالتين، اللتين لم تكتبا للنشر".

وقد أضفت هذه الملاحظة تنفيذا لما أوصى به السير شارلز.

دبليو. إس. بى.

ثانيًا: حقائق إضافية أدلى بها السير ريفرز ولسون

اعتبارا من انتهاء المراسلات مع السير شارلز ديلك، تهيأت لى فرصة مناقشة هذا الأمر وبعض الأمور الأخرى التى لها علاقة بالتاريخ الذى أدونه، مع السير شارلز ريفرز ولسون.

يؤكد السير ريفرز فكرة السير شارلز ديلك التى مفادها أنه لا توجد صلة حقيقية بين الإنذار المشترك والمعاهدة التجارية. كان ولسون نفسه على اتصال وتفاهم وثيق حول مصر مع جامبيتا، فى الوقت الذى جرى فيه إعداد مسودة الإنذار المشترك، ولما كنت من العارفين تماما بالموقف كله، فأنا متأكد من أن الإنذار وُجِّه وقُبِل بعيدا عن أية مساومات من النوع الذى أُشير إليه. هذا يمكن قبوله على أنه أمر مسلم به، وهو يؤكد فى الوقت نفسه على مسئولية جامبيتا بالدرجة الأولى عن الإنذار المشترك، ويضيف أيضا أن فشل فريسنيه فى تنفيذ سياسة التدخل المسلح، التى التزمت بها الحكومة الفرنسية والحكومة الإنجليزية، كانت مصدرا من مصادر القلق المستمر لجامبيتا.

كان فريسنيه، وذلك نقلا عن ولسون، قد تراجع عن إرسال جيش فرنسى مع جيش إنجليزى إلى مصر، وذلك بسبب الالتماسات التى قدمت لفريسنيه من قبل ديليسبس، الذى بالغ فى المصاعب العسكرية وغير العسكرية. إلى حد أن ديليسبس أقنع فريسنيه أن الأمر يحتاج إلى قوة قوامها حوالى ٦٠٠٠٠ رجل للتغلب على المصريين. كان ديليسبس قد أعلن لفريسنيه، قبل بداية معركة التل الكبير بأسبوع واحد: "يجب تجهيز قوة قوامها ٦٠٠٠٠ رجل حتى يمكن التغلب عليهم. أنا أعرف الفلاحين الذين هم أفضل فلاحى الدنيا(*)"، وقد استهتر جامبيتا بهذه الفكرة، قال إن الصعوبتين اللتين فى هذه الحملة هما "الذباب والبعوض".

(*) وردت هذه العبارة باللغة الفرنسية. (المترجم)

يضيف السير ريفرز المعلومات التالية فيما يتعلق بمظاهرة نوبار التى جرت فى فبراير عام ١٨٧٩. يتفق ريفرز مع الرواية التى رواها لى كل من أحمد عرابى والشيخ محمد عبده عن تلك المظاهرة(*)، ويزيد على هذه الرواية بعض التفضيلات الأخرى التى تتعلق بدوره فيما حدث فى ذلك اليوم. يقول ريفرز إن الخديو إسماعيل فى صباح يوم هذه المظاهرة كان قد أرسل فى طلب نوبار إلى قصر عابدين، واحتجزه هناك فترة طويلة بسبب الحديث الطويل الذى دار بينهما، هذا يعنى أن نوبار تأخر أكثر من اللازم فى الذهاب إلى مكتبه فى وزارة المالية. ويرى ريفرز أن ذلك كان متعمدًا من جانب الخديو، وهو على يقين من أن المؤامرة كانت ضد نوبار وحده، وليست ضد الخديو نفسه. وبعد أن ترك نوبار الخديو، وبعد أن وصل إلى نهاية الشارع المؤدى إلى وزارة المالية، لاحظ الرجل جمهورا غوغائيا أمامه، وفى الحال رأى عربة من العربات يجرى الهجوم عليها من قبل الدهماء وفيها نوبار، الذى كان يضع ذراعه على رأسه لتحميه من الضربات. كان هناك رجال، الواضح أنهم كانوا ضباطا، يحملون عصيًا ويضربونه بها، فى حين كان هناك بعض آخر من الرجال الذين كانوا يهددون الرجل بسيوفهم. وقفز ولسون من عربته فى الحال وهرع لمساعدة نوبار. وجرى التعامل بطريقة فظة مع ولسون نفسه على الرغم من عدم إصابته بجراح بليغة من قبل الدهماء، وجاءت بعد ذلك بفترة قصيرة زوجته التى بلغها ذلك الخبر لتبحث عنه، وهاجمها الدهماء وآذوها. وأخيرًا لاذ كل من ريفرز ولسون ونوبار بوزارة المالية، حيث تمت محاصرتهما داخلها إلى أن وصل الخديو، الذى جاء وهو تحيط به الهيئة القنصلية كلها ومعه عبد القادر باشا. وعندما دخل الخديو إسماعيل تقدم إلى الأمام، ومد يده طلبا للمصافحة، لكن ولسون وضع يديه خلف ظهره ورفض تقبيل يد الخديو. وانصرف الخديو معهم جميعا، ثم تقدم إلى المقدمة وراح يتحدث إلى الجمهور باللغة العربية من فوق سلم مدخل المبنى. كان الخديو يفعل ذلك بقدر كبير من الاحترام، لكن عندما اقترب منه أحد المتظاهرين، وهو ضابط بالفعل، بحركة توحى بأنه يود الإمساك به، تراجع الخديو إسماعيل إلى الوراء وأصدر أمره إلى الجنود بفتح النار، وهنا تفرق الجمع.

(*) راجع صفحتى ٤٨٣ و٤٨٩ (الأصل الإنجليزى).

من باب التصحيح لروايتى التى جاءت فى المتن، أقول: إن السير ريفرز ذكرنى أن ذلك كله الذى حدث فى القاهرة فى الثامن عشر من فبراير، لم يكن له أية صلة أو علاقة بما حدث فى الإسكندرية. وأضاف أنه عندما عرض الأمر على القنصل العام مطالبا برد الإهانة التى وجهت إليه، بصفته إنجليزيا من ناحية وباعتباره واحدا من الذين كانت الحكومة الإنجليزية مهتمة بمهامهم فى مصر، جرى وضع العقبات والمصاعب، ولم يجر الحصول على أى شىء إلا بعد أسبوع من انتهاء المظاهرة. وجرى بعد ذلك إرسال الأمير حسن قائد عام الجيش المصرى، إلى الوكالة البريطانية التى كان العلم البريطانى مرفوعًا عليها، واعتذر الأمير لكل من ريفرز ولسون وفيفيان باسم الخديو، ويؤكد ريفرز على صدق رواية أحمد عرابى عن هذا الحادث، والتى مفادها أن التحقيق الذى دار بعد ذلك فى هذا الأمر كان مشينا، ويقول أيضا: إن اسم عرابى لم يكن معروفا له فى ذلك الوقت، وإن ذلك الاسم قُدِّم له مع اسم لطيف، كبيرهم باعتبارهما زعماء الفتنة، ورأى ريفرز فى نوبار رأى محترم جدا. يقول ريفرز: لم يكن نوبار رجلا من رجال الماليات وإنما كان سياسيا، وإن الرجل على العكس مما قلته فى المتن، لم يجمع لنفسه مالا ولا ثراء على حساب القروض التى كان يحصل عليها للخديو إسماعيل.

يرى السير ريفرز أيضا، أنى يجب أن أضيف إلى هذا التاريخ أنه بعد عزل الخديو إسماعيل بفترة قصيرة، بدأ اللورد سالزبورى مفاوضات التسوية النهائية بين الحكومة المصرية ودائنيها، واقترح على الدول المعنية تشكيل لجنة يكون ولسون فيها رئيسا وممثلا للحكومة الإنجليزية، ولم يجر الاتفاق على تلك اللجنة إلا فى العام التالى، ثم بدأت اللجنة عمليا بعد ذلك، ولم تكن النتيجة التى أمكن التوصل إليها خالية من المصاعب والعقبات بحكم أنها لم تكن مرضية لمصر، ولم تكن الاتفاقية التى أسفرت عن قانون التصفية أمرا مرضيا. قانون التصفية هذا كان بمثابة نقطة البداية فى الإصلاح المالى المصرى، بل هو أساس النظام القائم حاليا.

دبليو. إس. بى.

ثالثًا: رسالة بوغوص بن نوبار باشا إلى بلنت

والمتعلقة بصلة والده السياسية بالخديو إسماعيل (عن الفرنسية)

باريس في السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٠٧

سيدي،

قرأت في جريدة "الإجيبشيان جازيت" في الرابع عشر من الشهر الجاري ردك على السيد لوسي عن مؤتمر قبرص، وسعدت جدا لملاحظة العرض الذي قدمته في هذا الرد، بخصوص التصحيحات التي أجريتها في كتابك على الأخطاء التي جرى توجيه نظرك إليها. وقد دفعني ذلك إلى أن أناشد فيك إخلاصك فيما يتعلق بخطأ ارتكبته في حق والدي ونشر في كتابك. أنا لا أعرف المصدر الذي حصلت منه على معلوماتك، ولا أشك في إيمانك الطيب ولا نواياك الطيبة التي لا بد أن تكون خدعت.

تقول إن نوبار باشا كان وزير المالية في أثناء حكم إسماعيل باشا، وإن الرجل بسبب هذا المنصب كان مسئولا عن القروض المدمرة التي أبرمها. وهذا خطأ بيّن تماما، لأن والدي لم يكن مطلقا وزيرًا للمالية، ولم يكن له أية علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمسألة القروض هذه.

المناصب الوحيدة التي شغلها والدي في أثناء حكم إسماعيل باشا هي وزارة الأشغال العامة، ووزارة الخارجية. وأنا أكرر ثانية، أنه لم يكن في يوم من الأيام وزيرا للمالية، لسبب وجيه هو أنه على الرغم من ذكائه العظيم، وسماته باعتباره سياسيا، فإنه كان يقر ويعترف أنه لا يفهم المسائل المالية، كما أن الخديو الذي كان يعرف ذلك، لم يفكر مطلقًا في إسناد هذه الوزارة إليه، لأنه لم يكن قادرًا على إدارتها.

كان المفتش إسماعيل باشا صديق وزيرًا للمالية فـــى أثنـــاء حكـــم الخـــديو إسماعيل، وأنت تحدثت عن هذا الوزير فى كتابك(*). إسماعيل باشا صديق هذا كان هو المنسق ومحل ثقة الخديو فى المسائل المادية، فضلا عن أنه هو الـــذى رتَّـــب موضوع القروض.

وفيما يتعلق بوالدى، أعتقد أن أفضل ما يثبت لك تماما أنه كان غريبا عـــن الإدارة المالية، هو ذلك المختصر البسيط لمستقبله العملى، فى ظل حكـــم الخـــديو إسماعيل، والذى سأوجزه لك فى أسطر قليلة.

فى العام الأول من اعتلاء إسماعيل باشا للعرش الخـــديو عـــام ١٨٦٣ أوفـــد إسماعيل باشا نوبار فى مهمة إلى باريس لتسوية الخلافات الخاصة بقنـــاة الـــسويس، وبقى نوبار عامين فى باريس، وعند عودته إلى مصر جرى تعيينه فى البداية وزيرا للأشغال العامة، ثم بعد ذلك وزيرًا للخارجية. بعد ذلك بعام، أى فى عام ١٨٦٦ قـــام نوبار بمهمة أخرى فى أوروبا، وغاب فيها مدة ثلاثة أعوام. وخلال هذه المدة حصل على فرمان عام ١٨٦٧، الذى يعطى مصر الاستقلال الذاتى الإدارى، أى حق عقـــد المعاهدات والاتفاقيات الجمركية مع الدول، ولقب خديو بدلا من لقب الوالى. فى ذلك الوقت بدأ نوبار أولى مفاوضاته من أجل الإصلاح القضائى مع الدول. لم يعد نوبار إلى مصر إلا بعد عام ١٨٦٩، ولم يبق فيها سوى ستة أشهر فقط، لكى يـــساعد فـــى افتتاح قناة السويس، ويترأس لجنة التحقيق الخاصة بالإصلاح القضائى الـــذى بـــدأت عجلته تدور فى مصر، ثم عاد إلى باريس عام ١٨٧٠ لمواصلة مفاوضات الإصلاح التى بدأت عام ١٨٦٧ واستمرت إلى عام ١٨٧٥، أى حوالى ثمان ســـنوات، عـــاش طوالها نوبار باشا خارج مصر أى فى أوروبا، وذلك باستثناء فترات قـــصيرة تقـــدر ببضعة أشهر قضاها فى مصر. فى عام ١٨٧٤ طرده الخديو إسماعيل من الـــوزارة بسبب خلاف فى الرأى يتعلق بالمفاوضات المشار إليها، وبقى نوبار فى أوروبا بـــلا عمل مدة عام. واستدعاه الخديو إسماعيل لمنصب وزير الخارجية مرة أخـــرى فـــى يناير عام ١٨٧٦. وبقى نوبار مدة عامين فى أوروبا على سبيل النفى، ولم يعد إلـــى مصر إلا بعد عام ١٨٧٨ عندما استدعاه الخديو لتشكيل الوزارة المختلطة بالاشتراك مع السير ريفرز ولسون".

(*) فى صفحات ١٨ و ٣٩ و ٤٠ (من الأصل الإنجليزى).

يقول والدى فى مذكراته، التى أتطلع إلى نشرها فى يوم من الأيام، إنه طوال عهد الخديو إسماعيل الذى استمر خمسة عشر عامًا، أمضى منها اثنى عشر عامًا فى أوروبا فى مهام رسمية أو إجازات، أو فى المنفى. والتواريخ التى أوردتها ومعها الحقائق أيضا تثبت صدق ما أقول. طوال فترات التغيب عن مصر، كان نوبار باشا مشغولا تماما بمفاوضاته، الأمر الذى لم يمكنه من لعب أى دور فى الأمور الداخلية للبلاد، التى لم يكن يرجع إليه أى أحد فيها. وعليه وبينما كان نوبار فى باريس عام ١٨٦٩، علم من أم. بيك، وزير الأشغال العامة فى حكومة الإمبراطور نابليون الثالث، من خلال حوار معه حول الإصلاح القضائى، أن الخديو كان قد رتب قرضا مقداره عشرة ملايين جنيه إنجليزى، لم يعرف عنها والدى أى شيء. وأيضا عندما كان فى إسطنبول عام ١٨٧٣ فى أثناء متابعته لمفاوضاته من أجل الإصلاح، عرف بطريقة غير مباشرة أن الخديو كان يتفاوض على قرض جديد مقداره ثلاثين مليون جنيه إنجليزى.

وهكذا تبين لك هذه الحقائق يا سيدى، أن بوسعك التحقق من أن والدى لم يكن مطلقًا وزيرًا للمالية، ولم تكن له أية علاقة أو صلة بقروض الخديو، وإنما كان جهده كله ومواهبه ونفوذه الذى اكتسبه، جرى توظيف ذلك كله فى المفاوضات فى الخارج فى:

١- تقنين مسألة قناة السويس، التى انتهت بتحكيم نابليون الثالث، الذى حصلت مصر من خلاله على حكم بالغاء السخرة فى حفر القناة.

٢- الحصول على فرمانات من الباب العالى.

٣- الإصلاح القضائى الذى كان يستحوذ على فكره وعمله، والذى سخَّر له جل جهده وطاقته وذكائه وأحلى سنوات عمره.

ويتعين علىَّ أن أضيف هنا أنه واصل العمل بحماس من أجل إلغاء السخرة عندما كان مديرًا للسكة الحديد ووزارة الأشغال العامة، ونحن مدينون له بذلك إلى حد بعيد، وخير شاهد على ذلك ما أورده السير دبليو. ولكوكس فى كتابه عن الرى فى مصر.

أقام والدى طوال حياته العملية كثيرا من الصداقات، لكنه كان له أيضا أعداء كثيرون، شأنه فى ذلك شأن السياسيين كلهم. لم يفشل هؤلاء الأعداء فى نشر الافتراءات عنه وتلفيق كثير من القصص والحكايات، وسوف أورد هنا اثنتين من هذه القصص الملفقة: الأولى تلك التى تتعلق بجنسيته. كان خصومه السياسيون، خدمة لمصالحهم، يلومونه ويؤنبونه مرارا باعتباره أحد الرعايا الإنجليز والألمان! هذه المزاعم، كانت تهدف إلى الإساءة إليه والتشكيك فى جنسيته المصرية، عن طريق الصراع فى أثناء مفاوضات الإصلاح القضائى، على الرغم من أنه كان واحدا من وزراء الخديو، ولكن ثبت أن ذلك كله لم يكن له أساس من الصحة. هناك قصة أسطورية أخرى تتعلق بثروته الضخمة، وجاءت التأكيدات الظالمة فى هذا الأمر من أولئك الذين ودوا تشويه ذكرى خصم لهم عن طريق إفهام الناس أن هذه الثروة الضخمة لا يمكن جمعها إلا من خلال الأساليب والطرق غير المشروعة. لم يتردد هؤلاء الخصوم فى القول أو الكتابة إن الرجل كان يمتلك أكثر من أربعة ملايين جنيه إنجليزى، وعلى الرغم من عدم موافقتى إلى الآن على الرد على الافتراءات التى ظهرت فى الصحف، فليس لدى ما يمنعنى من إعطائك الحقائق والأرقام الحقيقية وهذا لمعلوماتك الشخصية.

عندما توفى والدى ترك ثروة تقدر بحوالى ١٥٥٠٠٠ جنيه إنجليزى، وكانت أمى إبان حياة والدى تملك ثروة شخصية تقدر بمثل هذا المبلغ أيضا، وبذلك يثبت أن الثروة التى قدرها المقدرون المعتدلون بحوالى أربعة ملايين، ليست سوى ٣٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى، وهذه الحقيقة يمكن تحرى حقيقتها وإثباتها، من إقرار تقسيم الميراث، وكان هناك بين الورثة أطفال، وقد جرى تسجيل ذلك لدى المحكمة المختلطة فى القاهرة.

من السهل أيضا إثبات مصادر هذه الثروة. هذه الثروة كانت عبارة عن عطايا تلقاها نوبار من الخديو مكافأة له على الخدمات التى أداها، ومن عائد استثمار هذه العطايا.

وعن طريق موجز حياة الرجل العملية الذى قدمته إليك، يمكنك أن تقف على أهمية تلك الخدمات التى أداها هذا الرجل لوطنه، والنتائج التى أسفرت عنها المفاوضات التى قام بها. الخديو لم يخطئ فى مكافأة نوبار مثلما كافأ وزراءه الآخرين، وهذا أسوة بما فعله البرلمان البريطانى مؤخرا مع اللورد كرومر، عندما صوت على منحه هبة أو مكافأة مقدارها ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى. وعلى ذلك، حصل نوبار، جراء مفاوضاته الناجحة الخاصة بقناة السويس، وعلى فرمان عام ١٨٦٧، وعلى الإصلاح القضائى، على مكافآت مالية متباينة، وعلى عقارات تقدر بحوالى تسعمائة فدان، وعلى منزل فى الإسكندرية، وذلك كله يقدر بحوالى ثمانين ألف جنيه إسترلينى.

كان والدى محظوظا، عندما جرى إنشاء شركة القاهرة للمياه، والتى كان هو رئيسا لها، فقد استثمر فى هذه الشركة مبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه إسترلينى من المكافآت التى حصل عليها من الخديو، وكان ذلك المبلغ على شكل أسهم فى هذه الشركة، وهذا الاستثمار هو الذى رفع المبلغ إلى المبلغ الذى سبقت الإشارة إليه، والناس كلهم يعرفون أن أسهم شركة مياه القاهرة قد ارتفعت إلى عشرة أضعاف قيمتها عندما توفى نوبار باشا.

أنهى رسالتى برجائى لك أن تعذرنى فى كتابة رسالة مطولة إليك على هذا النحو، لكن عرضك واستعدادك للتصحيح يؤكد اهتمامك بأن تكون محايدا، وسماحك لى أنا أيضا بأن أكون كذلك. وأنا أشكرك سلفا على التصحيحات التى ستقوم بها بناء على المعلومات التى أرسلتها إليك، وأرجو أن تقبل رسالتى ولك خالص شكرى يا سيدى.

بوغوص نوبار

ملاحظة: يسعدنى الحصول على موافقة بوغوص باشا على نشر هذه الرسالة الميمة بكاملها، وأنا آسف لأنى لم أستطع بحكم تأخر وصول الرسالة إلى، إجراء أى تعديل فى متن هذه الطبعة، مثلما اقترح هو على فى البداية، وأنا أرى أن نشر الرسالة كاملة، سيكون أكثر إقناعا من مجرد حذف المقتطفات التى تصححها هذه الرسالة.

دبليو. إس. بى.

رابعًا: ملاحظات على مؤتمر برلين

أوضح السيد لوسى فى جريدة "الوستمنستر جازيت" أن الرواية الواردة فى متن الكتاب(*)، عن الشجار الذى نشب بين إم. وادنجتون واللورد سالسبيرى، فى مؤتمر برلين، لم تكن رواية صحيحة نظرا لأن المقصود هو المعاهدة الإنجليزية الروسية المؤرخة بيوم الحادى والثلاثين من شهر مايو، وليست معاهدة قبرص مع تركيا المؤرخة يوم الرابع من يونية وأن المعاهدة الإنجليزية الروسية هى التى نشرتها جريدة "جلوب" من خلال مارفن، وأن معاهدة قبرص صدرت بالطريقة المعتادة. التضارب بين الآليتين فى متن الكتاب أمر لا يمكن إنكاره ويحتاج إلى تصحيح. وفى ذات الوقت، فإن النتيجة التى أسفر عنها التحرى الكامل الذى قمت به فى هذا الاتجاه، وذلك عن طريق الرجوع إلى الوثائق المعاصرة، هذه النتيجة لا تجعلنى أشك فى حقيقة هذا الأمر. وما يبدو لى على أنه حدث بالفعل هو:

"كان اللورد بيكونفيلد هو واللورد سالسبيرى، قبل أن يدخلا المؤتمر، قد أبرما اتفاقيتين منفصلتين، كلتاهما سرية، فيما يتعلق بالأمور العثمانية. كانت الاتفاقية الأولى مع روسيا، والثانية مع تركيا، وعلى حد ظن كل من اللورد بيكونفيلد واللورد سالسبيرى، فإن هاتين الاتفاقيتين، فى الوقت الذى كانتا تتنازلان فيه عن شىء لروسيا، كانتا أيضا تحافظان على سلامة ممتلكات السلطان من الغزو على الجانب الآسيوى. أقرت الاتفاقية الموقعة مع روسيا بملكيتها الدائمة لباطوم، لكن هذه المعاهدة، فى رأيهما، كانت أكثر من متوازنة بفعل المعاهدة الثانية، التى لم تكن معروفة للحكومة الروسية، وتختص ببقية العالم، والتى تضع بقية ممتلكات السلطان الآسيوية تحت الحماية الإنجليزية للسلطان. جرى إبرام الاتفاقيتين فى وزارة الخارجية فى وقت واحد تقريبا، وبالمصادفة أو عن طريق الإهمال ذاع أمر

(*) صفحة ٣٤ (الأصل الإنجليزى).

المعاهدة المبرمة مع روسيا، في اليوم الذي جرى فيه التوقيع على هذه المعاهدة، فقد علم السيد شارلز مارفن، ذلك الصحفي المسكين والذي يعمل مدرسا للغات، والذي أُحضر إلى إدارة المعاهدات في وزارة الخارجية ليعمل كاتبا بحكم معرفته اللغة الروسية. هذا المارفن الذي كان يحصل على أجر زهيد مقداره عشر بنسات في الساعة، عهدوا إليه بنسخ المعاهدة، واستسلم للإغراء وباع ملخصا لتلك المعاهدة إلى أصحاب العمل الذي يمارسه في الصحافة. حدث ذلك في الحادي والثلاثين من مايو، أي قبل انعقاد المؤتمر بحوالي أسبوعين.

بقي مارفن هذا بضعة أيام دون أن تثور من حوله الشكوك في وزارة الخارجية، وتصور الجميع في بداية الأمر، أنه ربما كان الكونت شوفالوف Schouvalof نفسه، وهو السفير الروسي لدى لندن، هو الذي أوصل هذه المعلومات للصحافة، وبعد أن اتضح أن تلك المعلومات ليست سوى مختصر بسيط، وأنه لم يظهر إلا في جريدة واحدة هي "الجلوب" Globe تقرر إنكار الخبر، ولم يجد اللورد سالسبيري أية صعوبة في إقناع مجلس اللوردات بذلك، وإقناع البلاد بأن تلك المعلومات تفتقر إلى الدقة والأصالة. وردا على سؤال وُجِّه إلى اللورد سالسبيري من اللورد جراي Grey حول هذه المعاهدة، أعلن اللورد سالسبيري بصراحة أن "العبارة التي يشير إليها الإيرل النبيل، هي والعبارات الأخرى التي جرت الإشارة إليها وكذلك العبارات التي رأيتها، كل هذه العبارات ليست موثقة ولا تستحق أن يثق بها مجلس اللوردات".

ومع ذلك، فقد أثار هذا الحادث الشك حول نوايا إنجلترا الحسنة في الخارج، وأن ذلك كان بلا أدنى شك سببا في الإعلان الذي ورد في النص، الذي جرت مطالبة السفراء بإحضاره في أول جلسة من جلسات المؤتمر. هذا الطلب لا بد أن يكون قد جرى التوقيع عليه من كل من اللورد بيكونفيلد واللورد سالسبيري في الثالث عشر من شهر يونية، أما التواريخ الأخرى فكانت على النحو التالي:

الاتفاقية الموقعة مع روسيا جرى التوقيع عليها في الحادي والثلاثين من مايو في لندن.

الموجز المنشور فى صحيفة "الجلوب"، جرى نشره مساء اليوم نفسه، أى فى الحادى والثلاثين من مايو.

جاء رفض اللورد سالسبيرى فى مجلس اللوردات فى الثالث من يونية.

جاء نشر صحيفة "الجلوب" للاتفاق كاملا فى مساء الرابع عشر من يونية.

لا بد أن ارتباك كل من اللورد بيكونفيلد هو واللورد سالسبيرى كان أكثر مفاجأة من الرواية التى أوردتها أنا فى النص، بعد أن أصبح الخبر معروفاً للجميع فى برلين فى الخامس عشر، والذى لا شك فيه، أن الاهتياج الذى نجم عن ذلك كان بسبب الاتفاقية، وليس بسبب معاهدة قبرص التى لم تنشر وقائعها إلا بعد الثامن من يولية، وعلى الرغم من ذلك، فأنا لا أزال مصرا على الرسالة التى اطلعت عليها فى سملا Simla والتى مفادها أن معاهدة قبرص كانت هى السبب الرئيسى وراء استياء إم. وادنجتون، وموافقة اللورد سالسبيرى له على تونس وغيرها. والذى أكد ذلك لى هو تلك المقطوعة التى وردت فى مفكرتى عن عام ١٨٨٤، عندما أجريت، بحكم وجودى فى إسطنبول، حوارا مع الكونت كورتى Corti حول هذا الموضوع، وبعدها وجدتنى أدرج المدخل التالى ضمن مفكرتى عن ذلك العام.

يجب ألا يغيب عنا أن الكونت كان سفيرا إيطاليا فى مؤتمر برلين، وكان فى حقيقة الأمر سفيرا لدى السلطان فى التاريخ الذى جرى فيه ذلك الحوار، ولم يكن الرجل سوى مجرد شاهد ودى، نظرا لأن الرجل ينظر إليه دوما باعتباره متيما بالعادات الإنجليزية وحليفاً لدبلوماسيتنا البريطانية.

فى السادس والعشرين من أكتوبر، حضر الكونت كورتى لكى يأخذنا فى لنش بخارى إلى صربيا Therpia. تناولنا الغداء مع آل ونضامز Wyndhams وقمنا بزيارة عائلة نويلز Noailles (فى السفارتين الإنجليزية والفرنسية)... فى طريق عودتنا إلى إسطنبول حكى لنا الكونت كورتى قصصا عن برلين فى المؤتمر وعن أثريات اللورد سالسبيرى هناك.

كان دزرائيلى هو وسالسبيرى قد ذهبا إلى هناك على ظهر حصانيهما للحد من مطامح روسيا الأرضية والإقليمية، وجاء نشر الاتفاقية السرية الخاصة بالحصول على قبرص بمثابة صدمة كبيرة للجميع. وقام اللورد سالسبيرى بإبلاغ الخبر بطريقة لطيفة إلى وادنجتون قبل نشر الخبر، وقام وادنجتون بالتشاور مع زملائه، وكان تم الاتفاق على عدم التوصل إلى حل وسط بين الدخول فى الحرب وعدم قول أى شىء. "الحرب أو لا شىء"(*). لكن نشر المعاهدة جاء بمثابة صدمة كبيرة لدزرائيلى، الذى لازم غرفة نومه ولم يظهر إلا بعد أربعة أيام أو خمسة، يزاد على ذلك أن سالسبيرى، زاد الطين بلة، إذ جاء إلى المؤتمر وعلامات التحدى مرتسمة على وجهه. لم يكن هناك شقاق بينه وبين وادنجتون، وبقيا على وفاق من الناحية المظهرية، لكن وادنجتون استطاع أن يثأر لنفسه. كان وادنجتون جالسا ذات يوم مع سالسبيرى، وفى أثناء الحوار سأله وادنجتون عما يمكن أن تقوله الحكومة الإنجليزية إذا ما استولت فرنسا على تونس، وهنا رد سالسبيرى بأنه لا يرى أى ضرر فى ذلك. وعلى الفور قام وادنجتون بإبلاغ ذلك إلى باريس، وعند عودته جرى تكليف السفير الفرنسى فى لندن بالكتابة إلى اللورد سالسبيرى لكى يذكره بما قال، وبذلك أمكن الإمساك باللورد سالسبيرى. لكن كورتى قال: "لو أنه عرف أى شىء عن مهمته لرفض الرد رسميا على هذه المذكرة، وكان يمكن أن يزعم بأن ذلك كان حوارا خاصا". لم يكن الرجل يحسب أن يتوصل سالسبيرى ووادنجتون إلى اتفاق للسيادة المشتركة فى ذلك الوقت، وذلك على الرغم من إبلاغى له بذلك ودون ذكر أسماء - بالرسالة التى أطلعنى عليها ليتون. كورتى شخصية كيسة من الناحية الدبلوماسية، كما هو بين رجال المؤتمر أكثر من أى رجل أوروبى فى أوروبا".

هذا المدخل، الذى يعد تسجيلا معاصرا لذكريات الكونت كورتى عن الحادث بعد وقوعه بحوالى خمس سنوات، يوضح أن الاتفاقيتين السريتين بقيتا مرتبطتين ببعضهما بعضا فى ذهن الرجل على أنهما السبب الذى يقف وراء استياء

(*) وردت هذه العبارة باللغة الفرنسية. (المترجم)

وادنجتون. المؤكد أيضا أن هاتين المعاهدتين كانتا حاضرتين أيضا فى ذهن الدوق رتشموند Richmond عندما كان ممثلا لوزارة الخارجية فى السابع عشر من يونية. فى الرد على سؤال آخر حول وثيقة النص الكامل للاتفاقية الإنجليزية، الروسية، قال رتشموند: "فى ضوء تفسير سياسة حكومة صاحبة الجلالة، هذا النص يعد غير كامل وبالتالى غير دقيق". عدم الاكتمال هذا يمكن الوقوف عليه وفهمه من منطلق أنه إشارة إلى اتفاقية قبرص. وعليه، أرى أننا يمكن أن نشير إلى حقيقة هذه العلاقة باعتبار أن ذلك سبب ومسبب، أو سبب ونتيجة، بين توقيع اتفاقية قبرص عام ١٨٧٨ واستيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١، وهو ما يعد أمرا مهما فى المقام الأول. وسوف يتضح الأمر برمته فى يوم من الأيام عن طريق نشر السجلات السرية فى كل من وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الخارجية الفرنسية. ونحن فى ذات الوقت يمكننا قبول ذلك على أنه أمر محتمل، إذ إن اللورد سالسبيرى قرر، بعد إفشاء سرية الاتفاقية الروسية، الاعتراف بكل شيء عن الاتفاقية (المعاهدة) الأخرى، وأنه على حد قول الكونت كورتى، أبلغ إم. وادنجتون بطريقة لطيفة، عن وجود معاهدة أخرى مع تركيا. الشيء الوحيد الذى أنا على يقين منه هو أن الرسالة التى أطلعونى عليها فى سملا كانت تصف الخلاف والشروط التى أمكن التوصل إليها فى المصالحة مع إم. وادنجتون.

جرى نشر معاهدة قبرص فى لندن فى التاسع من يولية، بعد توقيعها فى الرابع من يونية، لكن هناك بعض الدلائل على أنها كانت من بنات أفكار اللورد بيكونفيلد قبل ذلك بما لا يقل عن ثلاثة أشهر، والسبب فى ذلك أن اللورد دربى Derby، عندما كان يتحدث فى مجلس اللوردات، فى الثامن عشر من يولية، اتخذ من ذلك سببا لترك مجلس الوزراء فى شهر مارس من منطلق أن سياسة الحكومة، وصلت فى ذلك الوقت إلى حد أصبح من الضرورى معه "الاستيلاء على جزيرة قبرص واحتلالها".

دبليو. إس. بى.

خامسًا: تصحيح لمقطوعة وردت فى رسالة جلادستون الواردة على الصفحة رقم ٥٥٩.

المقطوعة الواردة فى رسالة جلادستون(*) والتى جاءت على أنها تقول: فى زمن الأزمة التى نجمت فى مصر عن نشر الإنذار المشترك فى السادس من يناير عام ١٨٨٢، وإنه يأسف عندما يقول إن الشئون المصرية كانت تشغل "تـصيبا لا قيمة له من اهتمامى اليومى"، هذه العبارة سببت تعليقات كثيرة فى الصحافة، وقـد أوحى لى أحد النقاد فى جريدة "أخبار لندن المصورة" أن ذلك ربما كان راجعا إلى قراءة خط يد جلادستون قراءة خاطئة، وأن الكلمة الإنجليزية an قـد تكـون فـى الحقيقة no، وعليه أعدت قراءة العبارة الأصلية واكتشفت بلا جدل أو نقاش أن هذا هو الواقع بالفعل، وأن المقطوعة يجب أن تكون على النحو التالى:

Egyptian affairs, which occupy, I am sorry to say, no in significant share of my daily attention

ليصبح معناها: "الشئون المصرية، التى تشغل – ويؤسفنى أن أقول ذلـك – حيزًا كبيرًا من اهتمامى اليومى".

دبليو. إس. بى.

(*)صفحة ٥٥٩ (الأصل الإنجليزى).

سادسًا: آراء الشيخ محمد عبده

الرسالة المهمة التالية كتبها لي المرحوم مفتي مصر، بعد توقيع المعاهدة الدولية الإنجليزية الفرنسية بخصوص مصر والمغرب (مراكش). كنت وقتها في إنجلترا وطلبت من الشيخ أن يدلي برأيه عن الموقف الجديد، وبخاصة في الوضع الجديد الذي اكتسبته الحكومة الإنجليزية من هذه المعاهدة، التي تتيح لها إعادة تأسيس الحكم الذاتي الوطني في القاهرة. وردا على هذا الطلب كتب لي الشيخ محمد عبده في السادس عشر من مايو عام ١٩٠٤ يقول:

"رأيي عن الإدارة السليمة في مصر إن قدر للنظام الخديو أن يظل مقصورا على أسرة محمد علي، هو على النحو التالي:

١- القاعدة الأولى والأساسية للإدارة يجب أن تقوم على ألا تكون للخديو سلطة التدخل في التنفيذ في أية إدارة من الإدارات الوزارية، أو في الأوقاف، أو في الأزهر، أو في المحاكم الشرعية، وأنه لا بد من إنهاء تدخل الخديو الشخصي في الإدارة المصرية على أن يكون ذلك فوريا وإلى الأبد.

٢- يجب تشكيل مجلس شبيه بالمجلس التشريعي القائم حاليا، لكن على أسس أفضل من الأسس التي يقوم عليها المجلس الحالي. ويجب أن يكون الوزراء أعضاء في هذا المجلس، إضافة إلى كبار المسئولين. ويجب ألا يكون هناك اعتراض على إشراك حملة الأسهم من كبار الشخصيات الإنجليزية ضمن هذا المجلس. وأن تكون مسألة إصدار القوانين الجديدة من بين مهام هذا المجلس.

٣- يجب وضع قيود على سلطات التدخل التنفيذي التي يتمتع بها المسئولون الإنجليز، مثل "المستشارين" وغيرهم، حتى لا يتحول المسئولون المصريون إلى مجرد دمى بلا حول ولا طول.

٤- فى كل وزارة – مثل وزارة العدل ووزارة الداخلية على سبيل المثال – لا بد من وجود مجلس إدارة يجرى انتخاب أعضائه بواسطة المجلس العام الذى سبقت الإشارة إليه، وأن تكون مهمة هذا المجلس البحث فى تفاصيل الأمور المهمة كلها، وأن يرسم المشروعات ويضع القواعد لكل وزارة من الوزارات.

٥- يجب وضع لائحة لوزارة التعليم العام، وأن تكون بنود هذه اللائحة إجبارية وملزمة فى مجالى التثقيف والتدريب والتعليم. ويتعين تخصيص قسم من الدخل العام لتكاليف التعليم، بحيث يسمح هذا القسم بافتتاح عدد كاف من المدارس اللازمة لاحتياجات البلاد، وأن تكون هذه المدارس للتعليم العام وأيضا للتعليم الفنى.

"هذه هى فكرتى العامة" .

بعد ذلك بشهرين، وردا على طلب آخر طلبته من الشيخ محمد عبده، وأخبرته أن يطور فكرته ويحولها إلى خطة دستورية، كتب لى المفتى من جديد، وبعد فكر متأن وتشاور مع أصدقائه. كان جزء من طلبى يتعلق بالصعوبة التى تسيطر دوما على ذهن الشيخ محمد عبده، والتى تتمثل فى سوء النية المحتمل من قبل الخديو فيما يتعلق بالدستور، مثلما حدث فى زمن والده، حطم توفيق الأمال. كنت قد سألت عما إذا كان بالإمكان قبول أمير أوروبى فى مصر واليا عليها فى ظل حكم السلطان، وذلك إذا ما تعذر الحصول على عضو من الأسرة الخديوية يكون مهتما بالأفكار الدستورية، وجاءنى رد الشيخ محمد عبده على النحو التالى:

من الشيخ محمد عبده إلى السير بلنت

القاهرة فى يوليو عام ١٩٠٤

صديقى العزيز المحترم،

أرسل لك خالص تحياتى، وأعتذر عن التأخير فى الرد على رسالتك المؤرخة يوم الثامن من يونية، فقد كنت مشغولا تماما بالامتحانات فى مدرسة

المعلمين وفى الأزهر، وبأشياء أخرى كثيرة، الأمر الذى لم يوفر لى الوقت المطلوب للرد على رسالتك، وبخاصة أن موضوعها كان صعبا للغاية ويحتاج إلى المزيد من الانتباه والدراسة.

لقد فكرت كثيرا فى موضوع رسالتك واستشرت الكثيرين من المصريين البارزين، ووصلت إلى نتيجة مفادها أن الجميع متفقون على أن الأولوية للإدارة الجيدة فى مصر تتمثل فى تأمين النظام وإقراره من قبل الحكومة البريطانية، وهذا يعنى أن الحكومة البريطانية يجب أن تراقب وتراعى مسألة المحافظة على النظام وتأمين الحصول على الدستور، وألا تسمح بأن يكون ذلك عرضه للتدخل من قبل الأسرة الخديوية.

إذا ما توفر هذا الضمان وإذا ما أمكن الحصول على الدستور، لن تكون هناك حاجة إلى التخلص من أسرة محمد على أو تجريدها من صفتها الملكية، أو حتى تعيين أمير أوروبى. تعيين أمير أوروبى أمر غير مقبول من المواطنين، ولن يساعد ذلك المواطنين على تحسين أحوالهم.

أما فيما يتعلق بالدستور، فإن الموضوعات التالية هى ما يجب التركيز عليها فى مثل هذا الدستور:

١- أن كل شئون الحكم يجب أن تعتمد على سلطة من السلطتين، أولا على السلطة التشريعية التى سيوكل إليها سن القوانين القضائية والإدارية، وثانيا على السلطة التنفيذية المكلفة بتنفيذ القوانين. يجب أن تكون السلطة التشريعية متمثلة فى مجلس النواب بحيث يزيد عدد أفراده عن عدد المجلس الاستشارى الحالى، وأن تكون له سلطات أوسع من سلطات المجلس الحالى. ويجب احترام قرارات هذا المجلس وأن تكون ملزمة فيما يتعلق بالتنفيذ، على ألا يسمح للوزراء أو الخديو بالتعطيل هذه القرارات والقوانين أو بالتغاضى عنها تحت أى ظرف من الظروف، ويجب أن يختص هذا المجلس وحده بإصدار القوانين كلها. ويجب أيضا اختيار الوزراء من بين أعضاء هذا المجلس، وأن تكون السلطة التنفيذية

بيد الوزراء. هؤلاء الوزراء يصبح من حقهم التقدم بمشروعات القوانين، على ألا يكون لهم الاستقلال في تمرير هذه القوانين. ويجب أن يكون ذلك الحق مقصورًا فقط على المجلس النيابي.

٢- يجب أن تكون كل أمور الحكم غير المتصلة بإصدار القوانين، من اختصاص الوزراء، بما في ذلك منح الدرجات والأوسمة. ويجب عدم وضع أي شأن من شئون الحكم في يد الخديو، وكف يده عن التدخل في شئون المؤسسات الدينية والتعليم العام، وكذلك إدارات الأوقاف والمحاكم الشرعية، والمحاكم المدنية، وكذلك منح الدرجات والأوسمة، كل ذلك يجب أن يكون من سلطة مجلس الوزراء، على ألا يسمح للخديو بأية سلطة تتيح له التدخل في هذه الأمور بأي شكل كان.

٣- إذا ما تعين أن يكون هناك وزراء من الإنجليز، في وجود وزراء مصريين فرعيين، فإن هؤلاء الوزراء المصريين يجب تخويلهم السلطة في تصريف كل الأمور المتعلقة بالأمور الدينية أو ما شابه ذلك، وعلى أن يكون ذلك تحت إشرافهم. هذا يعني أن هؤلاء الوزراء المصريين ينبغي ألا يكونوا مجرد دمى، كما هو قائم حاليا. يجب الاستغناء عن وظائف المستشارين الإنجليز على أن يكتفى بالوزراء، ويتعين أن يكون رئيس الوزراء مسلما، لكن منصبه يجب أن يكون مقصورا على الرئاسة فقط. ويجب ألا تسند إليه أية حقيبة على الإطلاق.

٤- يتعين أن يكون الموظفون والمسئولون الآخرون من المصريين، ويتعين أيضا أن يكون المدراء ونوابهم، وقضاة المحاكم الوطنية، سواء على مستوى الاستئناف أو أول درجة، يتعين أن يكونوا جميعًا من المصريين، ويتعين أن يكون أعضاء البلاط وسواهم من المصريين. لكن يمكن السماح بتعيين الإنجليز مفتشين، وفي بعض الوظائف في الإدارات الهندسية والتعليمية، وفي وظائف الأعمال الصناعية التي تتطلب معارف خاصة لا يمكن العثور عليها بين المصريين. لكن في كل الأحوال،

يكون عمل هؤلاء المسئولين الأجانب تحت إشراف الوزراء. ويجب ألا يكون لمثل هؤلاء المسئولين أية سلطات إدارية أو قضائية حتى لا يضعف ذلك تأثير المسئولين الوطنيين.

٥- يكون من حق أعضاء مجلس النواب مساءلة الوزراء عن تنفيذ القوانين، ويكون من حقهم أيضا انتقاد الوزراء فى أعمالهم غير النظامية وغير المسئولة، كما يتعين على الوزراء تبرير أعمالهم. إذا ما نشأ نزاع بين النواب والوزراء، فإن مثل هذا النزاع أو الخلاف يجب تسويته عن طريق لجنة مكونة من خمسة أعضاء من أعضاء المجلس يجرى اختيارهم بطريقة الاقتراع السرى، وخمسة أعضاء من محكمة الاستئناف يجرى اختيارهم بالطريقة نفسها، ويضاف إلى ذلك رئيس المجلس، ورئيس الوزراء ورئيس محكمة الاستئناف، ويكون حكمهم بالأغلبية المطلقة. ويجب السماح بزيادة عدد أعضاء المجلس وعدد أعضاء محكمة الاستئناف (فى هذه اللجنة) ليكون إجمالى عدد أعضاء اللجنة أكثر من العدد المشار إليه.

وأنا أرى أن الترتيب الذى يمكن أن يسير على هدى من هذه الخطوط ويكون مضمونا من قبل الحكومة البريطانية، يمكن أن يناسب احتياجات البلاد، وأن حكومة من هذا القبيل ستحقق نوعا من الاستقلال غير المعروف فى الوقت الراهن.

ويجب ألا يغيب عنا أن إعادة الترتيب والتنظيم التى ستطرأ على التدريب والتعليم، تعد من الأمور الملحة التى يتعين على المجلس القيام بها.

حفظك الله وأكثر من رؤيانا لك وتمتعنا بصحبتك،

محمد عبده.

نسيت الكلام عن العسكريين. يجب أن نبقى على وجود سردار إنجليزى للجيش المصرى وبعض الضباط الإنجليز من أصحاب الرتب الكبيرة، لكن يتعين

شغل الوظائف العسكرية المتبقية، أو وظائف الجيش الأخرى بواسطة الوطنيين، على الرغم من أنه إذا ما نشأت بعض المصاعب حول هذا الأمر، وكان من رأى الحكومة الإنجليزية حتمية وجود بعض الجنرالات - الباشوات - في الجيش فإن ذلك لن يترتب عليه ضرر كبير".

مقتطفات من مفكرة السيد بلنت

في السادس عشر من يناير عام ١٩٠٣

أمضى محمد عبده معنا ساعة من الزمن استغرقها في سرد ما جرى في عام ١٨٨٢...

وبعد ذلك سألت المفتي عن السبب الرئيسي وراء مذبحة الحادي عشر من يونية في الإسكندرية. قال: بلا شك هما الخديو وعمر لطفي. سألته كيف عرف ذلك؟ قال: سافرت إلى الإسكندرية في اليوم التالي للمذبحة، وأطلعوني على البرقية التي أرسلها الخديو لعمر لطفي، وكانت تفيد ما يلي: "لقد ضمن عرابي سلامة الأوروبيين، وعليك أن تختار بين خدمتي وخدمة عرابي". كان محمد عبده واعيا لهذا الأمر، إذ نشر مقال قبل أسبوعين في جريدة تدعى "المحروسة"، وكان المقال من إعداد مسيحي سوري، وقد جرى التنويه في ذلك المقال إلى ما مفاده أن اليونانيين جرى تسليحهم في الإسكندرية، ويحذر المقال أيضا المصريين، من أنهم إذا حاولوا قتل المسيحيين فإن المسيحيين أيضا ينوون قتلهم. ولما كان محمد عبده يشغل منصب المدير الرسمي للصحافة فقد قام بإسكات "المحروسة" باعتبارها خطرا على الأمن العام. كانت الطريقة التي جرى اتباعها في تنظيم الإضراب على النحو التالي: طلب الخديو من إمبرواز سينادينو Ambroise Sinadino، الذي كان صديقا حميما للخديو، تقديم المال اللازم لتسليح اليونانيين في الإسكندرية، وقام عمر لطفي هو الآخر بإبلاغ قائد الشرطة الذي قام بتحريض المتظاهرين، والذي

انضم هو ورجاله ليشاركوا فى عملية القتل. ولم يجر استدعاء الجيش النظـامى إلا بعد كثير من القتل، وجرى استدعاء الجيش شفاهة فى البداية، ثم جرى اسـتدعاؤه كتابة بعد أن وصلت عملية القتل إلى شأو بعيد جدا، ليس هناك أدنى شـك فـى أن ذلك الإضراب كان مدبرا. سألته عما إذا كان رجالنا على علم مسبق بـذلك الـذى حدث، قال: بالتأكيد لم يكن ماليت على علم بذلك. كان ماليت رجلا لطيفـا وبـذل قصارى جهده لتهدئة الأمور والمحافظة على النظام القائم، لكن المؤكد أن القنـصل الإنجليزى كان يعرف الحقيقة في اليوم التالى، فور العثور على جثث المـسيحيين وقد تنكروا في ثياب المسلمين، كما عرف ذلك أيضا من جـراح الحـراب التـى أحدثها رجال الشرطة فى بعض الجثث، وهذا هو السبب وراء إيقاف التحقيق. على الجانب الآخر، نجد أن عمر لطفى كان هو المنظم الرئيسي لذلك الإضراب. كـان محمد عبده قد حذر عرابيًا كى يتخلص من عمر لطفى قبل ذلك باعتباره شخصا لا يمكن الوثوق به أو الاعتماد عليه، وقد يحدث ضررا بليغا فى الإسـكندرية، لكـن عرابيًا لم يلق بالا لما قاله محمد عبده. كان عرابى رجلا ساذجا شديد العناد، وكان يصدق ويثق بكل من ينعته بأنه رجل عظيم. كان محمد عبده قد اعترض ذات مرة على موقف عرابى من الخديو، وقال له: إما أن يـصادقه ويـضعه دومـا تحـت سيطرته وإما يقطع عنقه، لكن عرابيا لم يفعل هذا ولا ذاك. فى الإسـكندرية فقـد عرابى صوابه تماما. وسافر الشيخ محمد عبده إلى الإسكندرية فى أثنـاء عمليـة القصف ووجد الأمور غاية فى الفوضى والاضطراب، وكان عرابى عاجزا عـن التوجيه بما يمكن عمله أو حتى اتخاذ أى قرار، بل إن الجنـود والمـدنيين كـانوا خائفين لا يعرفون كيف يتصرفون. كان لا بد من أسر الخـديو وإحـضاره إلـى السجن فى القاهرة، وبدلا من ذلك سمحوا له بالهرب إلى الأسطول الإنجليزى.

سألته إن كان يصدق مسألة تعذيب الشراكسة المقبوض عليهم فى الـسجن، قال: لا، لكنهم عوملوا معاملة قاسية.

فى التاسع من مارس عام ١٩٠٥ استرجعت اليوم مرة أخرى مـع محمـد عبده ذلك الذى حدث فى تاريخ مظاهرة الإسـكندرية، وأصـبح لـدى الآن كـل التفاصيل المتيسرة عن هذا الأمر، وها أنذا أدون ذلك فى مذكراتى اليومية.

ملاحظة: أضفت هذه المقتطفات إلى الملحق وذلك من باب الرد على جريدة التايمز، التي اشتكت في استعراضها لهذا الكتاب من أن الدليل الوارد في برقية الخديو إلى عمر لطفي "يتألف من مجرد كلام مرسل صادر عن أحمد بك رفعت، أحد مسئولي عرابي، عندما كان في السجن عام ١٨٨٢". الواقع أن إصرار محمد عبده على الذنب الذي ارتكبه الخديو، وكذلك الذنب الذي اقترفه عمر لطفي، هو الذي ألزمني الكتابة بطريقة موضوعية بالشكل الذي جاء عليه النص في هذه النقطة بالذات، والشيخ محمد عبده مسئول عن كل كلمة أوردتها أنا عن هذا الموضوع، ولم يكن هناك أحد مخولا بالحديث غير هذا الرجل.

دبليو. إس. بي.

سابعًا: المراسلات مع السيد فردريك هاريسون

نشرت في جريدة "أثينا"

بتاريخ الخامس عشر من يونيو عام ١٩٠٧

كتاب ولفريد بلنت المعنون "التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر" (الذى نشرته دار فيشر أفوين) يحمل حملة شعواء على السياسة وعلى نحو يصعب معه عرض الكتاب عرضا مستفيضا على صفحات جريدتنا. المؤلف يعرف أنه يلعب بالنار، وهذا يتجلى فى اعترافاته الصريحة، على النحو التالى:

"أنا لست نادما على الطريق الذى سلكته، لقد ارتكبت فعلاً "أخطاء" كثيرة، وأحس أنى مسئول إلى حد بعيد عن التصميم الذى وصل إليه الوطنيون فى المخاطرة بمصير بلدهم فى أتون المعركة".

هذا العنف والاندفاع الذى لا لزوم له فى التعبير يعد خطأ من "الأخطاء"، لكننا نحمد للمؤلف أمانته التى جعلته يترك الحكم على المقتطفات الخطيرة للجمهور. من بين هذه المقتطفات تلك الفقرة(*) التى توضح أن السيد بلنت – نتمنى ألا يكون فى ذلك مجرد مسحة من الجدية – يتفق مع الزعيم الوطنى على أنه كان من الأفضل "أن نقوم نحن بقطع رأس الخديو". يبدو أن الكتاب ألف منذ مدة، وأنه جرت مراجعته فى موضع هنا أو موضع هناك من مواضعه خلال الأشهر القليلة الأخيرة. هناك إشارة فى الكتاب إلى تقاعد اللورد كرومر، لكن على الجانب الآخر هناك إشارة أيضا إلى "السير توماس ساندرسن" الذى يظهر فى الكتاب على أنه لا يزال رئيسا لوزارة الخارجية. على الجانب الآخر، فإن النقطة المهمة تتمثل فى أننا إن قدر لنا أن يكون لدينا سفر من هذا القبيل، فإنه لا بد أنه يحتوى على الحقائق

(*) صفحة ٤٩٧ (الأصل الإنجليزى).

على النحو الذى يراه السيد بلنت. من ناحية أخرى، نحن نرى أنه مـــن المـــستحيل على السيد بلنت أن يكون قد حصل على إذن من السير شـــارلز ريفرز ولـــسون، والسير إدوارد هاميلتون، وكبار المسئولين الآخرين الذين وردت رسائلهم كاملة فى الكتاب، بنشر رواياتهم عن كل ما دار يوم أن كانوا فى الخدمة العامة، ونشر هـــذه الرسائل وأصحابها على قيد الحياة، دون إذن، يعد أمرا من الأمور التى لا تعرفهـــا هذه البلاد، على الرغم من شيوع مثل هذا الأمر وذيوعه فى سائر أنحـــاء القـــارة، مثل رسائل السير إدوارد هاميلتون التى حررها للسيد جلادســـتون يـــوم أن كـــان هاميلتون سكرتيرا خاصا لرئيس الوزراء، والواضح أن هذه الرسائل لهـــا طـــابع رسمى فى كثير من الأحوال. يزاد على ذلك أن هناك إشارات إلى الحوارات التـــى دارت مع اثنين من سكرتيرى رؤساء الوزارات، هذه الإشـــارات تتـــسم بـــالطيش وعدم الحكمة، وهذا الطيش أكثر من نـــشر الرســـائل نفـــسها. هـــذا واحـــد مـــن السكرتيرين يؤكد للمؤلف أن "تدخلى فى دبلوماسية ماليت لم يكن مرفوضـــا مـــن رئيسه بأى حال من الأحوال". هذا هو السير إدوارد ماليت لا يزال على قيد الحياة، والنشر الذى من هذا القبيل يجعل من أدبيات ورموز الحياة العملية أمرا مـــستحيلا. وهذا سفير آخر لا يزال فى خدمة بلاده في واحدة من العواصم الكبيـــرة يجـــرى الاقتباس عنه باعتباره مصدرا من مصادر التصريحات عاليـــة الـــسرية. تـــصل صراحة السيد ولفريد بلنت فى روايته عن الحركة الوطنية إلى حد إيراد البـــراهين والحجج المؤيدة التى تدين الحكومة، التى كان هو يعارضها بأن أصبح المستـــشار اللندنى لأولئك الذين كان هذا البلد يشن عليهم بعض العمليات. وعليه نجد ولفريـــد بلنت، على سبيل المثال، يجعل من مسألة قصف القلاع وضـــربها بالقنابـــل فـــى الإسكندرية قضية حقيقية، بينما كان هناك أناس كثيرون يتشككون فى التصريحات التى أدلى بها الأدميرال السير بوشامب سيمور. لقد أورد بلنت كل شىء فى كتابه، ونجد فى الكتاب ولأول مرة أساسا للاتهام الفرنسى الذى مفاده أن معركـــة التـــل الكبير انتصر فيها "خيالة القديس جورج" بمعنى أن الانتصار تحقق عـــن طريـــق الجنيهات الذهبية الإنجليزية. صحيح أن هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر، لكنه موجود فى الكتاب، يزاد على ذلك أن القصة التى وردت على ألسنة الأمـــراء المـــصريين

تحتاج إلى شيء من التحرى. يقال إن النقود التى دفعت كانت تحمل صور القديس جورج، لكنها كانت مزيفة، وكانت تحتوى على الرصاص. ويبدو أن ذلك كان أمرًا سهلاً فى ذلك الوقت، وبالإمكان تحقيق ذلك فى الوقت الراهن، باقتفاء أو تتبع أثـر تلك النقود للوصول إلى مصدرها. والذى لا شك فيه أن هذه النقود جـرى دفعهـا للعرب ابتغاء التجسس على المصريين، وأنها كانت من الذهب والفضة الخالصين. والأرجح أن التحقيق والتحرى يمكن أن يثبت أن النقود المغشوشة كان مـصدرها الليفانت (الشرق)، وأنها لم تتداولها الأيدى الإنجليزية. ونحن نلاحظ خطـأ عجيبـا يجعل من السير إرسكاين ماى Erskine May مسئولا من مسئولى البحرية.

رد السيد بلنت على جريدة "أثينا" فى التاسع والعشرين من يونية عام ١٩٠٧

نيوبلدنجز بليس، سسكس

فى الثالث والعشرين من يونية عام ١٩٠٧

فى الوقت الذى تعد ملاحظتك عن كتابى نقدا عادلا، فإنهـا تثيـر مـسألة أخلاقية أدبية، تحتاج منى الرد عليها. تلومنى لنشرى مراسلات وحـوارات دارت منذ خمسة وعشرين عاما مع شخصيات عامة، لا تزال على قيد الحيـاة ودون إذن منها. وهنا أجدنى أبادر بالقول إننى لم أطلب ولم أحصل على إذن مـن أصـحابها بالنشر، ولم يكن ذلك من قبيل الإهمال عندما امتنعت عن استشارتهم أو الرجـوع إليهم، لكننى أعملت ذهنى فى مسألة الصواب والخطأ وفى القواعـد التـى تحكـم الموقف، وهنا أقول إن وجهة نظرى فى هذا النشر هى على النحو التالى:

أولا، فيما يتعلق بالشكل العام لحوارات ومراسلات الشخصيات العامة، أنـا أرى دوما أن ثمة سببا رئيسيا من أسباب ما أسميه "لا أخلاقيـة" شـئوننا العامـة،

وبخاصة شئوننا الدولية والإمبراطورية، يتمثل في السماح للسياسيين بقول شيء ما على الملأ، وقول شيء آخر في الخفاء دون أن يوجه لهم لوم أو أن يوصفوا بأنهم مراوغون. وبإمكاني القول، مثلما فعلت أنت في نقدك، إنه دون التمييز بين التصريحات العامة والتصريحات الخاصة عن طريق الصحافة اليومية فإن الحكم بالكلام (أو بمعنى آخر، الحكم عن طريق البرلمان والصحافة) سيصبح أمرًا مستحيلاً، وستصبح "مجاملات الحياة الرسمية" خطرًا دائمًا يوجهنا لأولئك الذين يكلفون بالشئون العامة. أنا لا أجد ضرورة لإنكار هذا الأمر أو الجدال فيه، قد تصبح القاعدة ضرورة، إذا ما حدث عمل غير أخلاقي في مجلس العموم، أو على المنصة، أو في مكاتب صحيفة من الصحف. لكن ما أنكره تمامًا هو حتمية تطبيق القاعدة على مجال المؤرخ الأكثر إنصافًا.

التاريخ كما تعلم، ليس مجرد تنميط للنفاق ولا مجرد مرآة للحياة البرلمانية والحياة الصحفية اليومية، ومن الواجب على التاريخ تحرير نفسه من القواعد كلها باستثناء سرد الحقيقة سردًا بسيطًا ومجردًا، سواء التمعت هذه الحقيقة وجاءت من مصدر عام أو خاص أو سريّ أو مُعلن. أكثر من ذلك، ما دام قد سلّم بأن الوزراء في مجلس الوزراء يمكن أن يضللوا، لأسباب تتعلق بالدولة، المُستجونين، عن طريق التحليل والمراوغة، عصر كل يوم عندما يحين موعد تقديم الاستجوابات، وعندما تجرى محاصرة هؤلاء الوزراء، فإنهم يلجأون إلى الكذب، دون أن تُمس كرامتهم أو سمعتهم، في حين نجدهم في المجالس الخاصة يتكلمون بصراحة تامة عما يعتقدونه، من هنا يتضح أن تصريحات هؤلاء الوزراء في البرلمان، وخطبهم في دوائرهم، ورسائلهم التي تطبع في الكتب الزرقاء، لا تكون لها قيمة كبيرة إذا ما قارناها بأحدث وأصغر تسجيلاتهم المعاصرة والموثوق بها، والتي دارت على ألسنتهم في المجالس الخاصة التي يكونون فيها على انفراد. هذا، في واقع الأمر، شيء يسلم به الجميع في الوقت الحالي، والسؤال الوحيد الذي يجب تقريره والبت فيه هو: ما هي النقطة المحددة التي يجب أن تنتهي عندها ضرورات السياسة الحالية التي تبيح الكذب، وعندها يبدأ التاريخ قول كلمته التي تتطلب الصدق، والصدق وحده؟ أهذا يكون بعد مائة عام؟ أم خمسين عامًا أم أقل من ذلك؟

أم أن ذلك يكون بعد وفاة كل من يعنيهم الأمر؟ أم عندما لا يلحق الأذى أى أحد من الأحياء؟

ثانيًا، فيما يتعلق بى أنا شخصيا، أتساءل ما هى حقيقة أمرى ؟ باعتبارى واحدًا من العارفين معرفة وثيقة، بل ولاعبًا إلى حد ما فى الدراما المصرية التى وقعت عام ١٨٨٢، فإن من حقى الواضح قول كلمتى فى هذه الدراما، بصفتى مؤرخًا لها. وهنا أجد أن تسجيل ذلك الذى عرفته بالكتابة والتدوين، يعد حقا من حقوقى، بل هو واجب علىَّ. وأنا لم أتردد فى ذلك، زد على ذلك أننى حين قررت الكتابة فلا بد أن الحقائق كانت كاملة، وقد قدمتها مدعومة بكل الدلائل التى بين يدى. هذه الحقائق كانت فى معظمها، مكونة من رسائل وصلتنى ومذكرات يومية دونتها أنا فى مفكرتى. ودون هذه الرسائل ودون هذه المذكرات لا تصبح روايتى التاريخية ضرورية ضرورة الأساسات للمبنى الكبير، وهنا أصبحت أمام حقيقة واقعة تحتم النشر. والذى دفعنى إلى النشر هو أن التاريخ كان قد بدأت كتابته بالفعل، وعلى هدى من خطوط أنا أعرف أنها خاطئة تمامًا. ولم يكن ذلك لأن الكتب الزرقاء المضللة عن عامى ١٨٨٢ و١٨٨٣، كانت ولا تزال تسيطر على الميدان، وإنما لأن هذه الكتب كانت تحظى بالرضا، باعتبارها وثائق كافية، من قبل أناس لهم وزنهم بحكم صلتهم بالشئون العامة فى ذلك الوقت. وهذا هو جلادستون، الذى قام السيد مورلى Morley بكتابة سيرته الذاتية، فى حين قام السير إدوارد هاميلتون بكتابة مذكراته. وهذا هو السير الفريد ليال Lyall قام بكتابة سيرة اللورد دفرين Dufferin، وهذا هو أيضًا اللورد إدموند فيتزموريس Fitzmaurice يكتب سيرة اللورد جرانفيل، زد على ذلك أن السير إدوارد ماليت نشر جزءًا يسيرا من مذكراته الشخصية، وهذا هو السير أوكلاند كولفن، يظهر وكأنه مؤرخ. فى كل هذا الذى نشر لم أجد أى شىء يقترب من حقيقة ذلك الذى دار فى مصر عام ١٨٨٢. الكل حاولوا تخطى تلك الأحداث والمرور عليها مر الكرام، أو ضللوها وحرفوها ونافقوا فيها. هذا يعنى أن التاريخ كان يجرى تضليله وتحريفه بالفعل، هذا يعنى أيضًا أن التاريخ كان يجرى طمسه من أولئك الذين يتعين عليهم تنويره وإضاءته، ووجدتنى وحدى دون سائر المعاصرين لى أملك معرفة لم يجر قولها بعد، وهنا قررت النشر، شأنى شأن من ينادى على مسافر كى يدله على الطريق الصحيح.

ثالثًا، فيما يتعلق بالأشخاص الذين كانت رسائلهم وحواراتهم مستندات ووثائق لدى وفي متناولي، والذين تقول أنت إن أربعة منهم لا يزالون على قيد الحياة، كان يمكن أن يعترضوا على إدراجهم ضمن كتابي، وهم على وجه التحديد السير شارلز ريفرز ولسون والسير إدوارد هاميلتون والسير إدوارد ماليت، و"سفير آخر لا يزال يخدم بلاده في عاصمة من العواصم الكبرى"، الذي تقصد به السير فرانك لاسيلز Lascells بطبيعة الحال، أستطيع القول إنك على صواب في تحذيرك هذا فيما يتعلق بهؤلاء البشر، وكان بوسعك أن تضيف إليهم السيد مورلي هو وآخرين. أقول إني أحسست بأني لو طلبت منهم السماح بالنشر لكانوا قد رفضوا ذلك الطلب، على الرغم من أني في ذات الوقت أحسست، بل كنت متأكدًا، باستثناء القاعدة التي لم أعترف بها، أحسست أن التاريخ كُتب عليه متابعة أعمال الخداع والنفاق التي تمارس يوميا في البرلمان، وبذا لن يكون من حق هؤلاء الأفراد عدم الموافقة على ما يمارس يوميا في البرلمان، وبذا لن يكون من حق هؤلاء الأفراد عدم الموافقة على النشر. هذا يعني أيضًا أن أعراف الدبلوماسية والحياة الرسمية كانت ستجبر كل هؤلاء الأصدقاء كبار السن على قول "لا"، أي رفض طلبي، وبذلك أجد نفسي في موقف لا أحسد عليه في مسألة النشر التي عقدت العزم عليها. من هنا، قررت ألا أطلب موافقتهم. على الجانب الآخر، كنت أعرف أن ذلك الذي كان ينبغي عليَّ تسجيله لا يمكن أن يضرهم على المستوى الشخصي. وواقع الأمر أن اثنين من بين الأشخاص الأربعة الذين أتيت أنت على ذكرهم، كتبا لي بأنهما يوافقان على النشر وأنهما لا يمانعان في ذلك، وأنا ليس لدي ما يجعلني أفترض أن الاثنين الآخرين يمكن أن يرفضا ذلك الذي أوردته من كلامهما. والسير أوكلاند كولفن من بين كل هؤلاء، هو الوحيد الذي يشكل العقبة الوحيدة في هذا الشأن، وأنا على استعداد تمامًا للتعامل معه بما يستحق إذا ما تجرأ على أن يتحداني فيما حدَّدته في هذه الرواية التاريخية. وبفضل مساعدة أصدقائي ومعارفي القدامى الذين اقتبست ودونت كلامهم في كتابي، أتمنى الحصول على موافقتهم جميعًا، وأن أنهي حياتي بلا منغصات تترتب على "سوء التمييز".

ولفريد سكاون بلنت

من السيد فردريك هاريسون إلى السيد بلنت.

إيلم هل، هوكهرست

في التاسع من يوليو عام ١٩٠٧

عزيزى بلنت،

انتهيت من قراءة كتابك، الذى أجد صعوبة كبيرة فى الحكم عليه، كما أجد أيضًا صعوبة فى كتابة رأى فى شأنه. أنا لا أتفق معك فى مسألة نشر الرسائل والحوارات السرية والودية دون موافقة أصحابها، ومن هنا سوف أكتب لك بحرص بالغ، ولن أقول كلمة واحدة، على المستوى الخاص أو العام، فى مسألة أن هذا النشر لا يعد أمرًا مطلوبًا أو مرغوبًا فيه في الوقت الحالى أو فى المستقبل. وهنا سوف أورد لك تحت عناوين مستقلة النقاط التى أصبحت أمورًا معلومة وثابتة.

١ – سوف تعترف مصر والعالم الإسلامى، والضمير الإنجليزى (فى نهاية المطاف)، بفضلك الكبير، وستحفظ شجاعتك فى ذاكرتها، ولن تنسى لك جهودك وتبصرك فى تزعم الحركة الوطنية فى مصر.

٢ – سيثبت أن ذلك كان عملاً طيبًا، على الرغم من أن الخطوات التى جرى اتخاذها قد لا تكون حكيمة أو مبررة، وذلك على الرغم من خروجك على القواعد السارية فى الحياة العامة والحياة الخاصة.

٣ – لقد أعدت قراءة كل ما كتبته وتذكرت كل ما فعلته عام ١٨٨١-١٨٨٢، وأنا لا أود تذكر أى عمل عملته. كنت أتمنى إعادة نشر ذلك الذى كتبته مرة ثانية، لولا أنى أخشى أن يتسبب ذلك فى إحداث المزيد من الضرر لا المنفعة.

٤ – أنا أنظر إلى هذه الأزمة باعتبارها جد خطيرة، بل أرجح أن تزداد سوءًا على سوئها، وأخشى أن تؤدى إلى نوع من العصيان، الذى سيجرى قمعه بالمزيد من الجرائم والقمع.

٥ – وعليه أرى أن الوقت الحالى ليس هو الوقت المناسب لنشر كتابك.

٦ – كتابك المعنون "التاريخ السرى" كتاب بديهى شديد الترابط. لكن لا الجمهور ولا حتى أصدقاؤك ورفاقك يمكن أن يقبلوا ما ورد فيه على أنه حقائق مسلمة إلا بعد أن نرى إن كانت الشخصيات العامة المجرَّمة ستتكلم أم لا.

٧ – القصة التى رويتها فى كتابك تدين الشخصيات العامة لأصحابها، وبخاصة شخصيات جلادستون ومورلى وديلك وكولفن. كل هؤلاء لا يزالون أحياء يرزقون باستثناء جلادستون، يزاد على ذلك أن سيرة جلادستون وجرانفيل متيسرة ومتداولة، وبالإمكان أيضا الوصول إلى وثائقهما الخاصة والعامة. كل هؤلاء الناس ينبغى الاهتمام بهم قبل مرور الوقت، وإلى أن يحدث ذلك سيظل الجمهور غير مقتنع بما قلت فى كتابك.

٨ – ستفشل روايتك التاريخية أيضا فى إقناع الناس، بسبب الطريقة التى أقمت بها الاتهامات الإجرامية الفظيعة معتمدًا فى ذلك على السماع والقيل والقال والثرثرة والشك.

٩ – لن يصدق الجمهور، مثلى تمامًا، أن جلادستون وجرانفيل ومورلى تآمروا عن قصد لقتل وزير دولة صديقة بدم بارد، عن طريق المسئولين الأتراك، وأن كل أولئك تآمروا طلبًا لتنفيذ ذلك الاغتيال.

١٠ – أنا لا أظن أن جون مورلى كتب أو رأى الاقتباسات التى أخذتها أنت عن جريدة، والتى لها علاقة باغتيال عرابى. وأنت فى كتابك تعزو تلك المقتطفات إلى جورج ماليت شخصيا.

١١ – هناك اتهامات أخرى كثيرة ألصقتها أنت بجلادستون ومورلى وكولفن وكوكسون... إلخ، إلخ، إلخ. وهذه الاتهامات ترتكز على الشك أو القيل والقال، وتفشل فى الحصول على مصداقية لها.

١٢ – القاعدة البرلمانية التى تحرم إلصاق التهم قاعدة صحيحة فى مجال السياسة، وجميع الأعمال العامة فى كتابك جرى إدراجها فى ظل دوافع متباينة لا يمكن التعرُّف على البعض منها، وبالتالى لا يمكن تأكيدها أو إثباتها.

١٣ – مورلى وفيتز موريس وديلك وماليت وكولفن وموبرلى، كل هؤلاء بوسعهم إحضار وثائق تزيح هذه الشكوك معترضة بذلك على أقوالك، وإذا ما حدث ذلك ستصبح القضية كلها محلاً للشك.

١٤ – قرأت دفاعك في جريدة "أثينا"، لكننى لم أقتنع به. الرسائل والحوارات التى تستعملها كتبها أصحابها، أو دارت فى إطار الصداقة الحميمة، ومن منطلق فهم متعارف عليه بين الكرام أن هذه الرسائل وتلك الحوارات سرية. أما الحياة العامة فيتعين أن تتخذ لنفسها مسارًا آخر لو قدر لهذه القاعدة أن تُخرق فى كثير من الأحيان.

١٥ – أنا لم أغير رأيى فى مسألة مصر واحتلالها ولو لقيد أنملة، وعلى العكس من ذلك تمامًا قوى هذا الرأى وازداد عمقًا. قرأت مقال "اللواء المصرى" Standard Egyptian بشىء من الخوف والفزع.

١٦ – أتمنى أن تتاح أو تتهيأ لى طريقة عملية تساعد فى حل هذه المشكلة المخيفة.

١٧ – سيجرى استعراض كتابك ومراجعته فى العدد القادم من جريدة Positivist Review.

١٨ – أنا آسف للكتابة لك على هذا النحو، لكنك تجبر أصدقاءك ومراسليك على البقاء بعيدا عنك.

المخلص

فردريك هاريسون

من السيد بلنت إلى السيد فردريك هاريسون.

نيوبلدنجز بليس، سسكس،

فى السابع عشر من يوليو عام ١٩٠٧.

عزيزى السيد هاريسون،

يؤسفنى أن أرى نفسى مختلفًا معك اختلافًا كبيرًا فى أى موضوع من الموضوعات السياسية، وبخاصة الموضوع المصرى، وذلك بعد سنوات كثيرة من عملنا هنا سويا باعتبارنا حليفين. لكن رسالتك حول كتابى عن مصر تحتاج إلى الرد عليها، وبخاصة أن هذه الرسالة يمكن أن تثير جدلاً كثيرًا، والأرجح أن يكون ذلك الجدل ذا طبيعة عامة، والله وحده يعلم النتيجة التى ستئول إليها الأمور مع مثل هذا الحال.

النقاط التى وردت فى رسالتك والتى تحتاج منى إلى رد عاجل هى على النحو التالى:

١ - تقول إن أفكارك عن مصر وعن أحداث عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ لم تتغير منذ خمسة وعشرين عامًا مضت، وإنك لا تود ولا ترغب استعادة ذكرى أية كلمة قلتها أو أى عمل عملته، وإنك لا تزال تعتقد أننى كنت على صواب فى تزعمى للقضية الوطنية المصرية. لكنك ترى أيضًا أنى اخترت الوقت غير المناسب لنشر الكتاب، وأن الأزمة الحالية(*) "أشد خطورة"، وأن التزام الصمت ربما كان أفضل. أنت على يقين من أن "ضمير إنجلترا" سوف يصحو فى نهاية المطاف على نحو يعبر معه عن امتنانه وشكره لى، لكن من الواضح أن هناك خطرًا فى الاعتماد على

(*) أزمة قضية دنشواى وتوابعها. (المراجع)

ذلك فى الوقت الراهن، أو أن تشكيل الشئون المصرية، هو بين الأيدى التى يمكن الوثوق بها، وفى تأمين الضمائر الوزارية التى لا تحتاج إلى إنذارات شعبية.

أعترف بأنى لا أرى الأمور على هذا النحو. الأزمة تبدو لى حاليا أقل تأزمًا بكثير عما كانت عليه عام ١٨٨٢، عندما تكلمت أنت كلامًا شجاعًا، أما فيما يختص بضمائر الوزراء، ما الذى تراه أنت فى كل من بانرمان Bannarman أو جرى Grey يوحى بثقة أكبر من تلك التى كان يوحى بها كل من جلادستون وجرانفيل؟ وهذا هو مورلى يقبض على الوطنيين الهندوكيين وينفيهم بناء على رسائل منه، وها هو بانرمان يقترح التصويت على مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى لكرومر Cromer بعد منحه وسام الاستحقاق بعد أسابيع قليلة من دنشواى، وهنا يصبح المرء غرًّا إذا ما صدَّق مجلس الوزراء الحالى، شأنه فى ذلك شأن ذلك الرجل الصغير الذى نعهد إليه بالتعامل مع الحركات الوطنية فى الشرق، وشأن من يتقدم إلى بيرق المحافظين المعتاد ليحمله وهو يتعامل مع مثل هذه الأمور.

أنا أومن مثلك تماما، أن مصر سوف تفلح، خلال حملة الفوضى التى ستجتاح آسيا، فى إنقاذ حياتها الوطنية حتى وإن كان ذلك "بخلع الضرس". لكن ذلك لن يكون بالخمول أو عن طريق تلك القلة القليلة المتعاطفة معها من بين الإنجليز، أو عن طريق انتظارنا لقيام صحوة ضميرية بين الوزراء الإنجليز. ترى ما هى القضية الوطنية التى أمكن كسبها بهذه الطريقة، أو التى أضيرت بسبب قول الحق للملوك والحكام ورؤساء الوزارات والبرلمانات؟

٢ – فيما يتعلق بالكتاب، تقول إن "التاريخ السرى" كتاب شديد الترابط بطريقة بديهية ومظهره الصدق، لكن القصة التى أرويها فى الكتاب "تدين جلادستون ومورلى وديلك وكولفن إدانة فظيعة" وعلى نحو لا يمكن تصديقه إلا بعد أن يتكلم هؤلاء أو ممثلوهم الأدبيون. وقلت أيضًا إن الكتاب سيفشل فى الإقناع "من خلال الطريقة التى جرى بها توجيه الاتهامات الإجرامية الفظيعة اعتمادًا على القيل والقال والثرثرة والشك"،

وقد ضربت مثلا ببعثة أو مهمة درويش باشا، والتى تقول إن أحدا لا يصدقها، وأنك أنت نفسك، لا تصدق أن جلادستون وجرانفيل ومورلى "تآمروا عن قصد لاغتيال وزير دولة صديقة (عرابى) بدم بارد بأيدى المسئولين الأتراك، وأن الثلاثة خططوا لعملية الاغتيال".

وبما أنك انتقيت هذه القضية، وأوردتها مثالاً للاعتراض علىَّ، فأنا يسعدنى الرد عليك ردا مفصلا فى هذه النقطة. التهمة التى تتحدث عنها أنت بهذه الطريقة هى قضية خطرة بحق، بل و"فظيعة" أيضًا. لكن العبارة التى وصفتها بها أنت هى من عندك وليست من عندى. وأنا لم أستعمل كلمة "المؤامرة" فى أى موضع من الكتاب، ولا أقول إن الثلاثة "متآمرون" أو إنهم تحدثوا مع بعضهم بعضًا عن هذا العمل. وأنا لا أؤكد فى كتابى، ولا أعتقد أن جلادستون كان لديه علم بسوابق درويش، ولا حتى ذلك الذى كان مطلوبًا منه تنفيذه فى مصر. والذى أقوله هو أن جرانفيل اعتمد على كون درويش "صديق تمامًا" وأن وزارة الخارجية كانت تطلب منه "التخلص من" عرابى بطريقة عادلة إن أمكن، وإذا لم يتيسر ذلك فليكن بطريقة شريرة، وقد أوردت فى الكتاب الأسباب التى حدت بى إلى هذه المعرفة.

هذا يؤكد أن هذه المسألة لم تكن مجرد شك لا أساس له من الصحة، وأنا هنا لأول مرة بعد خمسة وعشرين عامًا لا أُوجه هذا الاتهام لوزارة الخارجية. لقد نُسبت هذه التهمة نفسها فى وقت حدوثها، إلى السيد جلادستون فى رسالة عامة، جرى نشرها فى اليوم التالى فى جريدة التايمز، ثم جرى بعد ذلك بوقت قصير تقديمها إلى البرلمان فى كتاب من الكتب الزرقاء، ولم يواجه المعنيون تلك التهمة ولم ينكروها، لكن، على الرغم من خطورتها وعلى الرغم أيضًا من شعبيتها، وأنها وُجِّهت إلى رئيس الوزراء، فإنه لم يجر رفضها من قبل جلادستون، باعتبارها تهمة زائفة يتعين رفضها واستنكارها، ولم تشكل هذه التهمة عائقًا أمام استمرارى فى مراسلاتى الودية مع جلادستون فى ذلك الوقت، وطوال سنوات كثيرة بعد ذلك. هذه التهمة لم تبعدنى عن محيط وزارة الخارجية، يبدو أنك نسيت أن فى ذلك الوقت، أن وجهة النظر الرسمية تجاه الموقف فى مصر كانت تقر بأن النظام

الدستورى فى مصر جرى فرضه عن طريق القوة العسكرية. لم يحدث أن اعترف مجلس الوزراء البريطانى مطلقًا بهذا الوضع. وآثر مجلس الوزراء البريطانى اعتبار ذلك خرقًا للأعراف والمواثيق الدولية، وأن عرابيا لم يكن وزيرًا شرعيًا للحربية، وإنما هو زعيم ثورى، ويكاد يكون متمردًا. لو كان درويش اغتال عرابيا، كما كان منتظرًا منه، لصفقت إنجلترا كلها. وفيما يتصل بمورلى، فهو بصفته واحدًا من المدافعين الوزاريين فى جماعة رئيس الوزراء، فقد سار فى ركاب الباقين. تقول إنك "لا تصدق أن جون مورلى كان محررًا لجريدة ".P.M.G" وأنه كان محررًا حريصًا وواعيًا". كان كولفن مراسلاً لهذه الجريدة فى مصر. وكان برت Brett من المتعاونين مع كولفن. لقد كان برت على علاقة وثيقة بجريدة الفاينانشيال أوبزرفر، حتى وإن أكد الآن أى شيء آخر من قبيل قوله إنه لم يكن يكتب تلك المقتطفات أو يراها، فمن هى هيئة المحلفين التى يمكن أن تقبل ذكريات ذلك الرجل؟ هذا الكلام حدث قبل عشرين عامًا، كان الرجل مشغولاً طوال هذه المدة، هذا يعنى أن الرجل لم يكن متأكدًا مما يفعل.

أضف إلى ذلك، مسألة عدم تصديقك شخصيا لروايتى. أنت تقول إنك لا تصدق ذلك، وفيما يتصل بذلك الذى تصفحته فى رسائلك التى أرسلتها إلىَّ عن ذلك الزمان، وعندما رحت أقارن هذه الرسائل بمذكرات أخرى فى حوزتى، أجد أنك عندما حدث ذلك كله لم تتردد فى التسليم بصحة ما أقول، وأنك شخصيا سارعت ورحت تحثنى إلى الحد الذى كتبت عنده رسالتى العامة إلى جلادستون، والتى أوردت فيها الاتهام، فضلاً عن أنك بذلت قصارى جهدك لتساعدنى على نشر معرفة هذا الأمر كاملة بين الناس. وهنا أجدنى أعرض عليك التواريخ الدقيقة لما دار بيننا، كان تواصلى معك بشأن الأزمة المصرية متعلقًا برسالتك الثانية التى نشرتها فى جريدة .P.M.G بتاريخ التاسع من يونية، وكان ذلك مصادفًا لليوم التالى لوصول درويش باشا إلى مصر. وعندها كتبت لك طالبًا إليك إطلاعك على مراسلاتى، التى لم تكن قد نشرت بعد، مع دوانتج ستريت (مقر مجلس الوزراء البريطانى). وفى الثانى عشر من يونية، وبناء على موعد منك، التقينا، وسلمتك الخطابات كى تقرأها. قبل ذلك بخمسة أيام، أى فى السابع من يونية،

بلغنى من حرم السيد جريجورى، ثم بعد ذلك على انفراد من السيد وليام جريجورى نفسه، والذى تطوع بالقول: إن جرانفيل يعتمد على درويش بصفته "رجل موثوق به تمامًا، وأنه يمكنه التخلص من عرابى بشكل أو بآخر". وفى العاشر من يونية نشر مورلي مقاله الضارى الوحشي عن درويش، "الرجل القوى الوحيد المتبقى" الذى سوف "يتحايل على عرابى، لا بالمعنى الغربى لهذه الكلمة، وإنما بمعناها الشرقى". وحدثت مظاهرة الإسكندرية في الحادى عشر من الشهر نفسه، وفى يوم لقائنا المصادف الثانى عشر من يونية، كانت الصحف كلها تنشر هذا الخبر. كان شغلى الشاغل في ذلك الوقت هو مهمة درويش والمنتظر منه، على الرغم من أن ذلك ليس مدونًا فى مفكرتى، أنا أعلم جيدًا أن حوارنا كان حول هذا الموضوع وحول السياسة العنيفة المتبعة فى التعامل مع عرابى، وأن كولفن هو أول من أوحى بتلك السياسة العنيفة فى سبتمبر. كان إيحاء كولفن باغتيال عرابى عن طريق فتح النار عليه قد أُشير إليه فى اثنين من الرسائل التى أطلعتك عليها، أولى هاتين الرسالتين هى رسالتى التى أرسلتها إلى جرانفيل فى العشرين من مارس، أما الرسالة الثانية فكانت تلك التى أرسلتها إلى جلادستون فى السابع عشر من مايو.

وأنا هنا أسوق إليك ذلك الذى كتبته لى فى اليوم التالى، المصادف لليوم الثانى عشرمن يونية: "لقد شدتنى وسرتنى تلك الأوراق. هذه الرسائل تُسلِّط على حكومتنا ضوءًا شديد الحزن. رسالتك التى أرسلتها إلى السيد جلادستون فى السابع عشر من مايو لها قيمة خاصة، وأنا أستغرب من السيد جلادستون موافقته وسماحه بوقوع ذلك كله على الرغم من إحاطته علمًا بكل هذه المعارف ووضعها أمامه، ويبدو لى أن السبب فى هذا الضرر كله هو السير أوكلاند كولفن. المسئولون الإنجليز الذين خدموا في الهند ليسوا هم الذين يتعين استخدامهم فى السياسة الخارجية، هؤلاء الناس يدخلون فى السياسة الأفكار الهندية الكريهة عن مطاردة "الزنوج"، وأنا إن تيسر لى قول ما هو أكثر من ذلك، فسوف أطالب على الملأ باستدعاء السير أوكلاند كولفن بسبب تآمره ضد الحكومة الوطنية ونصحه بإلقاء القبض على زعيم الحزب الوطنى... وسوف ألقى أيضًا محاضرة عن مبادئ

رابطة (معاداة العدوان) فى السادس والعشرين، أمام هيئة ممثلة للجمعيات السياسية، وسوف يترأس السير ولفريد لاوسون الجلسة، وأنا أرى أن أوجه الحديث، بموافقة السير ولفريد لاوسون، إلى الأزمة فى مصر، وأطالب بطرد السير أوكلاند كولفن. ويتعين علىَّ هنا القول إنك كنت تلعب دورًا بالغ المنفعة وبالغ العدل أيضا، وأنا مندهش أيضًا لموافقة السيد جلادستون على ارتكاب هذه الأعمال باسمه. أنا لست فى موقع يسمح لى بتأكيد ثقتى فى الحزب، باعتباره مصدرًا من مصادر معرفتى، لكن فى ضوء ما أراه أنا لا أتمنى سوى النجاح للحركة الوطنية، وأتمنى أيضًا أن تحيا هذه الحركة إلى أن ترى كل مسئول أوروبى، وكل ممثل مالى أوروبى وكل صحفى أوروبى، وقد خرجوا كلهم من بلادها ورحلوا عن أرضها".

كتبت إلىَّ مرة ثانية فى السابع عشر من يونية. ما يلى: "أنا أتابع الأزمة المصرية متابعة حثيثة، وأتمنى أن ينشر اليوم احتجاج رابطة معاداة العدوان، المكتوب بلغة شديدة الوضوح. وأنا أحث على دفع الحقائق، كلما تهيأت لى الفرصة حتى تصل إلى الوزراء ومحررى الصحف وأعضاء البرلمان... وأتطلع إلى نشر سلسلة من الرسائل بهذا الشأن فى "الديلى نيوز"، وفى السادس والعشرين سوف ألقى خطابًا فى مجموعة من ممثلى العمال فى القاعة التذكارية".

نصحتنى فى اليوم العشرين بأن أكتب لجلادستون رسالة مفتوحة ثم أنشرها. وقد فعلت ذلك فى اليوم التالى المصادف الحادى والعشرين، وفى اليوم الثالث والعشرين نُشرت هذه الرسالة فى جريدة التايمز. أذكر فى هذه الرسالة عن مهمة درويش ما يلى: "يحزننى أن أسجل هنا أن وزارة الخارجية الإنجليزية تعتمد أو تَعَوّلْ كثيرًا على الحقيقة التى مفادها أن الرجل موثوق به فى طريقته فى التعامل مع الثوار، ولدى قناعة بأن المنتظر منه هو أنه يتعين عليه استدعاء عرابى باشا للسفر إلى إسطنبول، وإذا ما فشل ذلك يلجأ إلى سلاح الرشوة، وفى آخر المطاف يتعين عليه إلقاء القبض على عرابى وزير الحربية وقتله رميًا بالرصاص باعتباره متمردًا، وأن يتم ذلك بيده شخصيا". وهنا يتضح لك أن الاتهام الموجه إلى وزارة

الخارجية بيِّن وواضح. لقد قلت أنت فى حينها إنك لا تصدق ذلك، لكن هذا هو ما كتبته أنت فى ذلك اليوم المصادف للثالث والعشرين من يونية: "لقد سعدت برسالته القوية والشاملة التى نشرت فى جريدة التايمز. وأنا لا أتصور كيف يمكن لعقل أو ذهن منصف أن يرفض الوقوف على صدق وعدل هذه الرسالة. القضية قوية جدا على نحو لا يتحمله العدو، لقد قرأت الكتاب الأزرق الذى صدر اليوم، كل ما فى هذا الكتاب الأزرق يؤكد وجهة نظرك. أرجوك أن تطبع رسالتك على ورقة وتوزعها على أعضاء البرلمان، وإذا ما أرسلت مجموعة من هذه الرسالة إلى القاعة التذكارية فى فارنجدون ستريت، يوم الاثنين الساعة الثامنة مساء سنقوم بتوزيع هذه المجموعة على الأبواب. وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أشكر فيها كلا من بسمارك والسلطان، لقد كسب الحزب الوطنى قضيته فى مصر".

٣ – الأمر الصعب الآخر الذى تلومنى فيه على اقتباس بعض الرسائل الخاصة بمسائل عامة، وإدراج هذه الرسائل ضمن روايتى التاريخية، كما تلومنى أيضا على اقتباس بعض الحوارات العامة. تقول إنك غير مقتنع برسالتى التى أرسلتها إلى جريدة "أثينا"، وإنى ليس من حقى أن أفعل ذلك. هذا الكلام عندما يصدر عنك شخصيا يصبح توبيخا وتأنيبًا، وكل ما يمكن أن أرد به عليك، علاوة على ما قلته فى جريدة "أثينا"، هو أنى إن كنت قد دونت فى مفكرتى ملاحظات عن الحوارات الخاصة التى دارت بينى وبين شخصيات عامة، واحتفظت برسائلهم، فذلك يعنى أنى أخطأت فى حق صحبة طيبة بدءًا بجون إيفلن ومن هم دونه. مسألة الشرف هذه فى تدوين الملاحظات فى المفكرات مسألة لطيفة، ولا أظن أن هناك قاعدة تحكم هذه المسألة. أما قاعدتى الشخصية الأساسية فهى أولاً وأخيرًا، هى أن أكون دقيقًا، ولا أسمح مطلقًا لانحيازى السياسى أن يجعلنى أبالغ فى أى شىء قيل، وإنما أحاول قدر المستطاع إيراد الكلمات نفسها التى قيلت، موضحا، إذا ما دعت الضرورة، مدى الخطورة التى يمكن أن تترتب على مثل هذه الكلمات، إذ من دون ذلك،

قد تتحول الكلمات التى قيلت من قبيل الظرف والفكاهة إلى سياقات خطيرة. أما قاعدتى الثانية فهى الابتعاد عن استعمال هذه السياقات بما يضر صاحبها أو قائلها. ومسألة إشارتى إلى المفكرات فى الجدل الدائر حاليا أمر جد قليل، وفى الوقت ذاته كنت أود لنفسى - فى إطار معرفتى الخاصة - أن أكون مؤرخا لزمنى، وكما سبق أن قلت فى رسالتى إلى صحيفة "أثينا"، إننى أعتبر المسجل التاريخى، أو بالأحرى المؤرخ، حرا من الحوارات كلها. أما قاعدتك عن الرسائل العامة والرسائل الخاصة وعن الرسائل السرية، وكذلك قاعدتك الممتازة الخاصة بعدم إلصاق الدوافع، فهما قاعدتان ضروريتان، بلا أدنى شك للبرلمان، الذى يمكن أن يتحول إلى وكر للدببة بغير هاتين القاعدتين، ومن الأهمية بمكان أيضا مراقبة النمو الذى تسير عليه الحياة العامة فى إنجلترا، وأن نميز بين الكلام العام والكلام الخاص، لكن التاريخ لا يعترف بهذه القوانين ولا يقرها. يزاد على ذلك، أنى فى ظل السياسة السائدة لا أتخوف من أن يصبح ما تقوله أنت هو البديل، وبخاصة "أن الحياة العامة ينبغى النظر إليها من زاوية مختلفة إذا ما جرى انتهاء هذه القواعد بصورة مستمرة". وهنا أجدنى أرد عليك قائلاً: "ولم لا؟".

وأنا أرى أننا إذا استغنينا عن التمييز بين السياقات العامة والسياقات الخاصة وبين الرسائل الرسمية والرسائل السرية، وبين الاتصالات العلنية والاتصالات السرية، فإن ذلك سيكون مكسبا كبيرا للسياسة الإنجليزية وللشرف الدولى. هذا يحتم علينا التقليل من صور سوء فهمنا فى الخارج، وتقليل نفاقنا والتعامل ذى الوجهين، إلى أقل حد ممكن على المستوى الداخلى. وأنا نفسى، وعلى الرغم من استخدامى فى بعض المغامرات غير العادية التى نعتها البعض بأنها غير وطنية، ونعتها بعض آخر بأنها خيانة، على امتداد الأعوام الثلاثين الماضية، لا أنزعج إذا ما لاكت الألسنة هذه الكلمات التى قلتها لأصدقائى عن أى واحد منهم، وأصبحت معروفة للجميع؛ ولا أعتقد أيضا أن ذلك يمكن أن يفقدنى احترام أصدقائى لى.

وسبب ذلك أنى لم أفرق بين لغتي على المستوى الخاص ولغتى على المستوى العام. أنا أدرك أنى قلت كثيرًا من الأشياء غير الحكيمة، وأشياء كثيرة طائشة، وأنا كنت أقول بين الحين والآخر أشياء عنيفة، لكن لا ينبغى علىَّ رفض قيام صديق بنشر هذا الكلام نشرًا أمينًا وخاليًا من الحقد. وأنا أرى أن الفارق الوحيد بين ما هو سرى وما هو عام يتصل فقط بالحياة الخاصة التى لا تكون السياسة مسألة من مسائلها، فى مثل هذا الحال تصبح الدنيا كلها لا علاقة لها بمثل هذه الحياة. على الجانب الآخر، أنا أرى أن كل تفصيلة من تفاصيل حياة السياسى العامة، وبغض النظر عن محاولته إخفاء مثل هذه الحياة، أنا أرى أن كل تفصيلة من هذه التفاصيل تعد حقا عاجلا وشرعيا لكل واحد منا. من حقنا كلنا أن نعرف ما إذا كان ذلك الرجل الذى يدير شئوننا الوطنية يقول لنا ذلك الذى يدور فى ذهنه ويعتمل فى فكره، أم أنه يتكلم ولسانه مقيد داخل فمه.

الذى يدهشنى أكثر فى رسالتك أنك دون سائر الرجال كتبت عن ذلك وقسوت فيما كتبت، وهنا أجدنى حائرًا لا أستطيع تعليل ذلك. منذ عامين، وعندما استشرتك حول هذه المذكرات نفسها، وبعد أن أطلعتك على الأدلة والبراهين مطبوعة طباعة خاصة، عبَّرت عن رأيك تعبيرًا شديدًا بأن هذه المذكرات لا ينبغى نشرها على الفور، لكن الأسباب التى سقتها فى حينها، كانت مختلفة تمامًا عن الأسباب التى تسوقها أنت حاليا. احتمالية الأعمال القانونية، والاتهامات الجنائية العامة والخاصة المضادة، والقلق من المخاوف التى يمكن أن تؤثر علىَّ صحيا. ومن بين الأسباب الخطيرة التى تسوقها أنت الآن مسألة الشرف، وأن الكتاب المنشور جرت تنقيته من كثير من المسائل الشخصية التى لم تقل عنها كلمة واحدة. قد تكون على صواب فيما تقوله الآن عن الكتاب، لكنى أعود وأكرر من جديد إن قسوتك تحيرنى.

المخلص جدا

ولفريد سكاون بلنت

ملاحظة: تساءل اللورد جرانفيل في مجلس العموم حول ما قلته عن درويش باشا، في السادس والعشرين من يونية: من الضروري عليَّ القول والتصريح أمام مجلس العموم أن وزارة الخارجية لم تحاول مساندة درويش بك بطريقة غير شرعية في التخلص من عرابي بك". ومع ذلك، لم يكن هذا إنكارًا لما سبق أن قلته في رسالتي إلى السيد جلادستون، وإنما كان أكبر بكثير مما سبق أن قلته، شكل عام من أشكال الروغان البرلماني.

من السيد فردريك هاريسون إلى السيد بلنت.

إلم هل، هوكهرست

في السابع والعشرين من يولية عام ١٩٠٧

عزيزي بلنت،

فيما يتصل برسالتك (المكونة من خمس صفحات) والمؤرخة في السابع عشر من الشهر الجاري، والتي يبدو أنك كتبتها بحيث تنشر حاليا أو في المستقبل (سواء وافقت لم أوافق)، أجدني أرد عليها ردا مقتضبا. أنا مهتم شديد الاهتمام بهذه المسألة هي والمسائل الإمبريالية الأخرى، التي تبدو لي الآن في مرحلة حرجة، أنا أبذل قصارى جهدي من أجل أن نبرع في دراسة هذه المسائل وتفهمها، لكني لا أنوي في رسالة خاصة أن أُستدرج إلى نقاش غير مدروس حول هذه المسائل، يمكن في أي لحظة، ودون علم مني، أن يذاع كله أو جزء منه على الملأ.

وأنا هنا يتعين عليَّ ألا أقول شيئًا أكثر من الذي قرأته وما تعتبره أنت صحيحًا، وأنا متمسك بكل كلمة قلتها أو كتبتها عن مصر سواء أكان ذلك في السر أم في العلن، وأنا أوافق على نشر ذلك، شريطة أن تنشر الرسالة الأخير كاملة.

هنا أجدنى أضيف أن ما كتبته وحاولت عمله عام ١٨٨٢ ليس لنشر تـــاريخ عن الفترة نفسها عام ١٩٠٧. الموقف عام ١٩٠٧ مختلف عما كـــان عليـــه عـــام ١٩٠٥ عندما قرأت أجزاء فقط من الكتاب فى فترة تجهيزه. رســالتى المؤرخـــة الثالث عشر من يونية عام ١٨٨٢، التى أوردتها فى كتابك، لا تعنى أنـــى وافقــت على كل كلمة فى رسالتك التى أرسلتها إلى جريدة التايمز. وأنا إن كنت فى واقـــع الأمر أحسب أن جلادستون هو ومورلى كانا قد خططـــا وشـــجعا علـــى اغتيـــال عرابى، فأنا لا أرى ذلك أو أعتقد فيه الآن.

المخلص

فردريك هاريسون

من السيد بلنت إلى السيد هاريسون.

نيوبلدنجز بليس،

سسكس.

فى السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٠٧.

عزيزى هاريسون،

أنا سعيد لأنك تقول من خلال كلمات كثيرة إنك موافق على نشر مراســـلاتنا الأخيرة. لقد قلتها منذ البداية، فيما يتعلق برسـالتك الأولى، وأنا سوف أنتهـــز هـــذه الفرصة وأنشر الرسالة كاملة، وأنا أرى أن هذه الرسالة كبيرة الأهمية، من منطلق أن لها علاقة ببعض النقاط التاريخية وصلتها بمسألة الأخلاقية الأدبية المفتقدة فـــى

جريدة "أثينا". كل ما أتمناه هو أن يتكلم هؤلاء المعنيون مباشرة بهذه الأمــور، وأن يقولوا لى ذلك الذى يدور فى أذهانهم وبصورة واضحة مثلما فعلت أنت.

المخلص

ولفريد سكاون بلنت

ملاحظة: أنا أنشر رسائل السيد هاريسون بكاملها بناء علـى رغبتـه هـو، وذلك على الرغم مما فيها من نقدٍ قاسٍ عن كتابى، وهذه الانتقادات أقسى من تلـك التى نشرت فى الصحف، كما أنها الأكثر أهمية وبخاصة أنها تـأتى مـن إنـسان تستحق آراؤه كل الاحترام. وأنا أنشر هذه الرسائل لسببين أوردتهمـا فـى ختـام رسالتى إليه.

أولاً، آمل وأعتقد أن نشرى لهذه الرسائل، بالإضافة إلى دفاعى عن موقفى، قد يكون له تأثير ضئيل على الرأى العام، وذلك عن طريق لفت الانتباه إلى مـدى النفاق البرلمانى وسياسة الوجهين التى يتبعها الوزراء، فى الشئون الخارجية بصفة خاصة، في السنوات الأخيرة، وهو ما يتحتم كشفه بطريقة شـديدة الوضـوح فـى المسائل التاريخية.

السبب الثانى، هو أنه على الرغم من أن السيد هاريسون لا يعتـرف بهـذه الحقيقة فأنا أرى أنه يتعين النظر إليه على أنه، إلى حد ما، المدافع شـبه الرسـمى عن أولئك الأعضاء من حكومة جلادستون، الذين لا يزالون على قيد الحياة، ومـن الحزب الذى يدين كتابى أعماله العنيفة التى حدثت عام ١٨٨٢. أن دفـاع الـسيد هاريسون عن السيد مورلى يوحى بذلك التفسير، والسيد هاريسون عندما يؤكـد أن بعض هؤلاء الوزراء "يجب أن ينتبهوا على الفور" إلى قصة "تدنييم تمامًا، وتوحى بأن "الحصول على كل الوثائق العامة والخاصة"، قد يولِّد لديهم قضية مضادة، وأن هذه القضية قد تبطل جزءًا من روايتى، وبخاصة إذا ما أعلن عن اعتقاده بأن السيد مورلى "لم يكتب ولم ير" بعض مقتطفات الإدانة التى نشرت عندما كـان رئيـسًا

لتحرير جريدة "بول مول". عندما يفعل هاريسون كل ذلك، يكون قد تحدث وهو يعلم بالعذر الذى يودون له أن ينتحله نيابة عنهم.

وأنا عن نفسى، ونظرًا لأنى لا أود من هذا التسجيل التاريخى المصرى سوى الكشف عن الحقيقة كاملة بغض النظر عن طبيعتها وبغض النظر عن قائلها، يسعدنى انتهاز الفرصة التى هيأها لى السيد هاريسون عندما سمح لى بنشر كلامه، يقينًا منى أن رأيا قويا من هذا القبيل وصادرًا عن مصدر رفيع صاحب أفكار ليبرالية، يمكن له أكثر من أى شىء آخر فتح أبواب التكتم والتحفظ الرسمى، إذا ما كان هناك أى تفسير سرى أو التماس للأعذار لعمل قامت به الحكومة الليبرالية، غير القصة التى روتها تلك الحكومة فى كتبها الزرقاء، والتى أثبتُ أنا عدم صدقها من أساسها. ومن المهم لى أن أقول هنا منوهًا إلى ذلك الخطأ الطفيف الذى ورد فى روايتى التاريخية، وإلى أنه فى الوقت الذى دفعت فيه بهذه الطبعة الثانية إلى المطبعة، أى فى الرابع عشر من أكتوبر، قام السير إدوارد ماليت، الذى تقع بين شهادته وشهادتى مسائل لها أهمية تاريخية كبيرة، قام بعد أربعة أشهر من التفكير العميق، بالكتابة إلى جريدة التايمز، متحديًا دقتى فى تفصيلة عديمة الأهمية، ألا وهى ما إذا كان صعوده إلى ظهر الباخرة فى الإسكندرية متصلاً أو غير متصل بالإنذار الذى كنت قد وجهته إلى مجلس الوزراء حول الخطر الذى يتهدد حياة ذلك الرجل.

دبليو. إس. بى.

ثامنًا: رأى نابليون فى قيمة الأوراق البرلمانية الإنجليزية

هذا النص منقول عن أوميرا O'Meara "صوت من هيلينا": "لاحظت أنى صدّقت أن السفراء كلهم هم والشخصيات المسئولة الأخرى، فى الدول كلها كتبوا روايتين إحداهما للجمهور، والثانية تحتوى على بعض الأمور التى لا ينبغى إفشاؤها. رد عليه نابليون وهو يمسكنى من أُذنى بطريقة ودية قائلاً: هذا صحيح يا سيد ميدكو، لكن ليست هناك وزارة ميكيافيلية فى العالم كله مثل وزارتكم. تمسكوا بنظامكم، هذا النظام هو وحرية صحافتكم، هو الذى يجبر وزراءكم على قول شيء للأمة، وعليه فهم يودون خداع الجمهور فى كثير من الأحيان، لكن طالما أن من الضرورى لهم أن يعرفوا الحقيقة بأنفسهم، فستكون مراسلاتهم مزدوجة، شكل منها رسمى والثانى زائف، موجه لتسميم الأمة إذا ما نشر أو عندما يطلبه البرلمان، والشكل الثانى خاص وصادق يجرى الاحتفاظ به مغلقًا فى حوزتهم ولا يضعونه فى الأرشيفات. وبهذه الطريقة يتمكن هؤلاء الوزراء من جعل الأشياء تبدو لجون بل John Bull على النحو الذى يريدونه هم. هذا النظام الزائف لا لزوم له فى بلد ليس فيه التزام بنشر أية رواية من الروايات أو جعلها فى متناول الناس، إذا كان الملك لا يود نشر أية معلومة على المستوى الرسمى، فإنه يحتفظ بها لنفسه، ولا يشرح الأسباب التى دفعته إلى ذلك، وعليه ليس هناك داع لكتابة الروايات المبهرة طلبًا لخداع الناس. هذه الأسباب التى تؤدى إلى وجود التزييف فى وثائقكم الرسمية أكثر من وثائق الدول الأخرى".

دبليو. إس. بى.

تاسعًا: السير إدوارد ماليت يتحدث عن ظروف مغادرته مصر فى يونية عام ١٨٨٢.

يشتكى السير إدوارد ماليت على صفحات جريدة التايمز من فقرة فى هذا الكتاب(*) سجلت فيها من مفكرتى حقيقة ذهابى إلى مقر مجلس الوزراء البريطانى فى يونية عام ١٨٨٢ ورجائى للسيد هاميلتون "أن يُؤمر السير إدوارد ماليت بالصعود إلى ظهر الباخرة"، وأضفت ملاحظة بين قوسين "وجرى تحقيق ذلك". وهنا أرى السير إدوارد ماليت يجادل فى الملاحظة من منطلق أنى كنت أقصد سحبه من منصبه بواسطة حكومة صاحبة الجلالة لأن الرجل "جرُ على الحكومة نقدًا قاسيًا".

وأنا لا أعتقد أن من يقرأ النص قراءة متأنية يمكن أن يخرج بمثل هذا المعنى، وأؤكد أن هذا المعنى لم يدر بخلدى إطلاقًا، عندما رحت بعد سنوات عدة أعد تلك الفقرة للطباعة. وقد أضفت هذه الملاحظة على شكل سؤال. الواقع أنه يستحيل تمامًا أن يكون ذلك المعنى قد دار بخلدى، من منطلق معرفتى أن تسيير الرجل للأمور قليلاً ما يحظى بموافقة وزارة الخارجية، إلى حد أن الرجل عاد بعد ذلك بشهر إلى وظيفته ومكث فيها قنصلا عاما إلى أغسطس عام ١٨٨٣. وبناء على ذلك فإن رسالته التى أرسلها إلى جريدة التايمز تتفق مع المدخل الذى أوردته فى مفكرتى، لأن الرجل يقول: "إنى لم أتلق برقية من اللورد جرانفيل يوم الجمعة السادس عشر تفيد أنه سمع أن حياتى كانت معرضة للخطر، وأتساءل ما إذا كان من مصلحتى الصعود إلى ظهر الباخرة وأُسيِّرْ أعمالى من الميناء". ومقصد الرجل من ذلك كله هو أنه لم "يُؤمر" بالصعود إلى ظهر الباخرة، لكنه اضطر إلى الصعود إلى ظهر الباخرة بعد ذلك بأسبوع "بسبب حمى شديدة كدت

(*) صفحة ٣٣٧ (النص الإنجليزى).

أموت أنا بسببها، بل إن وفاتي كانت أكيدة ما لم تتوقف تلك الحمى مثلما جاءت، عند منتصف يوم الأحد الثامن عشر من الشهر نفسه". ويضيف الرجل قائلاً: بعد قراءة كتاب السيد بلنت "توصلت إلى نتيجة مفادها أن برقية صابونجي عن كون حياتي في خطر كانت تستند على أساس متين، وأن الحمى التي أصابتني في السابع عشر من يونية كانت نتيجة مؤامرة لمحاولة تسميمي وأن تلك المؤامرة جرى تنفيذها بعد يومين من إرسال صابونجي برقيته إلى السيد بلنت والتي تفيد أنني سأقتل إذا ما واصلت ذلك الذي كنت أقوم به".

ضمن هذه الرسائل نفسها ينشر السيد بلنت رسالة تلقاها من اللورد دفرين، مؤرخة يوم الرابع عشر من يناير عام ١٨٨٣، عندما كان الاثنان في القاهرة. يقول اللورد دفيرين في تلك الرسالة: "لم يسبقني أحد إلى تعرف التقييم العجيب والتقدير الصحيح للموقف الذي عرضته أنت، وقبل مجيئي هنا بوقت طويل لم أجعل فرصة واحدة تفوت دون إنصافك فيها. واعتبارا من مجيئي إلى هنا ومعرفتي الكثير مما حدث أصبحت أكثر وثوقا من انطباعي الأساسي أكثر من ذي قبل".

وأنا أورد هذه القطعة مما يمكن أن يعد شهادة منشورة من قبل اللورد دفرين، الذي كان رئيسا للسير إدوارد ماليت في ذلك الوقت، عن ذلك الذي يعد أمرا ذا قيمة تاريخية. ليس هناك من شك أن تصريف السير إدوارد ماليت للأمور في مصر كان أمرا يحظى بالموافقة الرسمية.

عاشرًا: رسالة السير وليام بتلر إلى السيد بلنت

بنشا، أيرلندا

فى الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٧

عزيزى السيد بلنت،

أرسل لى السيد فيشر يونون Unwin نسخة من كتابك الذى صدر مؤخرًا والمعنون، "التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر". الكتاب فائق الأهمية، لكن يبدو لى أن الكتاب يهدف إلى بيان الحقيقة، التى تعد حاليا أمرًا صعبًا أكثر من أية فترة سابقة. وأنا لا أستطيع القطع بمدى النجاح الذى وصلت إليه فى تحقيق هذا الهدف، لكنى إذا ما تكلمت، مثل ممثل حائر فى الدراما التى تنهى القصة، أجدنى أقول: إنى فى جميع المواقع التى كان يمر بها مسارى الصغير وأنا أعبر الطريق الرئيسية للرواية التى تحكيها أنت فى كتابك، أجد أن تذكرى للأحداث يتفق مع ما تقوله أنت.

من الطبيعى أن يسىء إليك المهنيون والحكام الثانويون، وهذا هو الثمن وسوف يستمر، كلما ذاع التعليم وانتشر زادت أيضًا جهود المحتالين على الرأى العام طلبًا لتضليل الناس وخداعهم. إن المشاجرات والنزاعات التى دارت بين الأسر المالكة القديمة، والتى ألفتها أوروبا قبل مائتى عام مضت، وكذلك الحروب التى نشبت جراء تدخل الملوك الأوروبيين والحكومات الأوروبية فى شئون فرنسا الداخلية فى أواخر القرن الثامن عشر، كل هذه الأمور جرى وزنها وتقديرها حق قدرها من أناس يتمتعون بالذكاء العادى. لكن الحروب التى تترسخ أصولها فى أذهان المجموعات المالية القوية، أو الحروب غموضًا فى بداياتها، والأكثر خداعًا فى الأعذار التى تنتحلها، أكثر خطورة فى النتائج التى تترتب عليها.

تلك قوى كبرت ونمت إلى أن وصلت إلى أحجام مزعجة فى أيامنــا هــذه، إضافة إلى أن الصراعات التى ترسمها تلك القوى أو تؤيدها تهدد الجنس البــشرى بأخطار أكبر بكثير من الأخطار التى سبق أن نجمت عن "الحروب الكبيــرة التــى جعلت من الطموح فضيلة". والشيء الوحيد القادر على هؤلاء المردة العمالقة فــى زماننا، هو الحقيقة، وإذا ما أتيحت الفرصة أو تهيأت لهذه الحقيقة، فإن ذلك يجــب أن يكون عن طريق جعل التاريخ وسيطًا لتعليم هذه الحقيقة، وبذلك نمنع ونحــول دون التقليل من شأن التسجيل ليصل إلى المستوى الذى حدده صانع التاريخ، قبــل مائة عام،على أنه "حكاية متفق عليها".

جميل جدا أن أقرأ فى كتابك المقتطفات التى أخذتها من موقف جلادســتون من مصر، والذى دونه عام ١٨٧٧م، وأن تكون تلك المقتطفات صادقة تمامًا فــى محتواها، وجميل منك أيضًا أن تتبع القصة إلى أن تصل إلى نقطة التأزم ثم الفشل الذى منيت به سياسة الرجل، والتى استنكرها فى مرة من المرات. ترى هل كانت تلك القوى شديدة البأس، مع شيخوخة هذا الرجل، إلى هذا الحد؟

انظر، هذه مقطوعة اقتطفتها من واحدة من مــسرحيات برناردشــو، وأرى أنها تنطبق تمامًا على قصتك: "حكومة بلادك!" (هــا هــو المليــونير آندرشــافت UnderShaft صانع المتفجرات يتكلم) "أنا حكومة بلادك. هل تظــن أنــك ومعــك أنصاف من الهواة أمثالك، وأنتم جالسون فى دكان الهميمــة والتمتمــة يمكــن أن تتحكموا فى كل من آندرشافت ولازاروس Lazarus؟ لا يا صديقى، ســنفعل ذلــك الذى يعود علينا بالأجر، سنقوم بالحرب إذا ما كانت تناسبنا، ونحافظ على الــسلام عندما يناسبنا. سنجد أن التجارة تحتاج إلى إجراءات بعينها بعد أن نكون قد اتخذنا نحن هذه الإجراءات. وأنا عندما أريد شيئًا يزيد من أرباحى، ستكتشف أن حــاجتى هذه أصبحت مطلبا قوميا، وعندما يطلب أناس آخرون شيئًا يقلــل مــن أربــاحى، سوف تستدعى الشرطة والعسكريين، وفــى المقابــل ستحــصل علــى المــساندة والتصفيق من صحفى، كما ستفرح متصورًا أنك سياسى عظيم.

"حكومة بلادك! أُغرب عنى يا ولدى، والعب مع مؤتمرك الحزبى ومقالاتك الافتتاحية، ومع بقية لُعَبِكَ ودومياتك. أنا عائد إلى بيت حساباتى، لكى أدفع لعازف الناى وأطلب عزف اللحن المطلوب".

لكن ذلك سوف يمر من وادى النيل، ونحن متأكـدون أن ألحـان الـسيدين آندرشافت ولازاروس لن تكون هى اللألحان النهائية التـى يتـرنم بهـا ممنـون Mamnon أمام قبور الملوك.

المخلص

دبليو. إف. بتلر

المؤلف فى سطور:

ولفريد سكاون بلنت

شاعر وكاتب إنجليزى.

ولد فى السابع عشر من أغسطس عام ١٨٤٠.

توفى فى العاشر من ديسمبر عام ١٩٢٢.

المترجم في سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت في المجالات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية.

١ - التفكيكية: النظرية والممارسة، تأليف كرسيتوفرنوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢ - الشاعر والشكل، تأليف: جدسون جيروم، دار المريخ.

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه، دار المريخ.

٤ - الأطفال والمخدرات، دار المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١ - الموظف المشاكس.

٢ - عمل الفريق الفعال.

(ج) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال. القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١ – هارون الرشيد، تأليف: فيلبى.

٢ – الكاكائين والمرهقين.

٣ – بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١ – حلم ليلة إفريقية.

(هـ) كتب روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية.

١ – سبعة أنماط من الغموض، تأليف: وليم أمبسون.

٢ – وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف: بالجريف (جزءان).

٣ – حركات التحرر الإفريقى، تأليف: ريتشارد جبسون.

٤ – إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.

٥ – قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ – سيرتى الذاتية، تأليف: أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١ – سكين واحد لكل رجل.

٢ – نجوم حظر التجوال الجدد.

٣ – المهمة الاستوائية.

المراجع فى سطور:

أحمد زكريا الشلق

- من مواليد طنطا عام ١٩٤٨، وحصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس ١٩٨١.
- يعمل أستاذًا للتاريخ المعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- حصل على جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٦.
- رئيس تحرير سلسلة "مصر النهضة" التى تصدر عن مركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب والوثائق القومية.
- رئيس تحرير سلسلة "ذاكرة الكتابة" التى تصدرها هيئة قصور الثقافة.
- من مستشارى تحرير سلسلة "التاريخ – الجانب الآخر" التى تصدرها دار الشروق.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ونائب مقرر لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، ومقرر اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر.

من أهم مؤلفاته:

- حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية، دار المعارف ١٩٧٩.
- حزب الأحرار الدستوريين، دار المعارف ١٩٨٢.

- رؤية فى تحديث الفكر المصرى، جـزأن، الهيئـة المـصرية للكتـاب ١٩٨٤، ١٩٨٧.
- الحزب الديمقراطى المصرى ١٩١٨ – ١٩٢٣، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٧.
- فصول من تاريخ قطر السياسى، المركز الأكاديمى بالدوحة ١٩٩٩.
- العرب والدولة العثمانيـة ١٥١٦ – ١٩١٦، مـصر العربيـة للنـشر والتوزيع ٢٠٠٢.
- تطور مصر الحديثة، مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٣.
- الحداثة والإمبريالية، الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق ٢٠٠٦.
- أحمد فتحى زغلول والآثار الفتحية، هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٦.
- الشيخ مصطفى عبد الرازق ومذكراته، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦.
- تطور مصر المعاصرة، فصول من التـاريخ الـسياسى والاجتمـاعى، القاهرة ٢٠٠٧.
- طه حسين، جدل الفكر والسياسة، المجلـس الأعلـى للثقافـة، القـاهرة ٢٠٠٨.
- راجع وقدم ترجمات لعدد من الكتب التى نـشرت بالمـشروع القـومى للترجمة. منها: نشأة الروح القومية لمحمد صـبرى – بونـابرت فـى الشرق الإسلامى لأحمد يوسف – سر تطور الأمم لجوستاف لوبـون – نظرة على مصر فى زمن بونابرت لجان جالك لوتى.

التصحيح اللغوى: سماح محمد
الإشراف الفنى: حسن كامل